

الإعمال الشعرية
POETRY COLLECTION



سليم بركات



الأعمال الشعرية / شعر عربيّ معاصر
سليم بركات / مؤلّف من سورية
الطبعة الأولى ، 2007
حقوق الطبع محفوظة



المؤسسة العربية للدراسات والنشر

المركز الرئيسي :

بيروت ، الصنایع ، بناية عيد بن سالم ،
ص. ب : 11-5460 ، العنوان البرقي : موكيالي ،
هاتفاكس : 751438 / 752308

التوزيع في الأردن :

دار الفارس للنشر والتوزيع

عمّان ، ص. ب : 9157 ، هاتف : 5605432 ، هاتفاكس : 5685501

E-mail : mkayyali@nets.com.jo

موقع الدار الإلكتروني : www.airpbooks.com

خطوط الغلاف والإشراف الفني :

ستيب ©

لوحة الغلاف : مالثا / فنان نمساويّ من أصل كرديّ

الصفّ الضوئيّ : المؤسسة العربية للدراسات والنشر

التنفيذ الطباعيّ : مصطفى قانصر للطباعة والتجارة / بيروت ، لبنان

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه ، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات ، أو نقله بأيّ شكل من الأشكال ، دون إذن مسبق من الناشر .

ISBN 978-9953-36-177-0



الاعمال الشعرية

سليم بركات



المقدمة

سليم بركات، فتنة المعجم وإسار الدلالة

صبحي حديدي

I

القامشلي مدينة صغيرة تقع في أقصى الشمال الشرقي من سورية ، تأسست في عشرينيات هذا القرن لكي تكون محطة زراعية تخدم مواسم زراعة القمح والشعير وبعض القطن وحصادها ، وسرعان ما أصبحت أبرز مدن منطقة «الجزيرة» وبلداتها ، التي سُمّيت هكذا بسبب وقوع سهولها المنبسطة الخصبة بين نهريّ الفرات ودجلة . والموقع الجغرافي لهذه المنطقة يفسّر تنوعها الإنساني والثقافي واللغوي والإثني : من الشمال تحدها جبال طوروس ، ومن الشرق العراق وكردستان الشمال ، ومن الجنوب بادية الشام وتدمر . وبالمعنى السوسولوجي والاقتصادي ، كان ارتباط حياة البشر بدورة المواسم الزراعية قد جعل منطقة «الجزيرة» ، وبالتالي مدينة القامشلي بوجه خاصّ ، تنفرد عن بقية المناطق السورية في أنّ معظم سكانها من الوافدين الذين قدّموا من مناطق الداخل السوري (دمشق وحلب) بحثاً عن العمل الموسمي ثم استقرّوا ، أو من المهاجرين الذين توافدوا من تركيا والعراق

وأرمينيا ، هربًا من الاضطهاد العرقي أو السياسي .
ذلك جعل القامشلي موطنًا لأقوام من الأكراد واليزيديين والأرمن
والسريان والآشوريين والبدو الرُحَّل والعشائر المستوطنة الإقطاعية ، الأمر
الذي استدعى تعددية أخرى على صعيد اللغات والأديان والمذاهب
والتراث والأساطير . وهذا الموقع الفريد لمنطقة «الجزيرة» يذكّر ، على نحو
مدهش ، بالأبيات التالية من الشاعر اليوناني كوستيس بالاماس :
ذلك المثلّم القائم على هندسة مربعة ،
والذي قطنه محاربون قداماء
كان يتحكّم بالسهول ، مثل ذروة مجلّة بمشيب ثلجي معمّر
من بابل إلى سورية ، ومن جبال طوروس إلى لبنان ،
من قلاع طرسوس إلى خلافات بغداد .^(١)

في القامشلي ولد سليم بركات سنة ١٩٥١ ، وفيها ترعرع ودرس
وحصل على الشهادة الثانوية وانتسب إلى جامعة دمشق - قسم اللغة
العربية وأدائها في العام ١٩٧٠ ، ثم استقرّ نهائيًا في العاصمة السورية بعد
انتقال أفراد أسرته إليها . وفي عام ١٩٧١ ، وهنا أعتمد على الذاكرة
الشخصية وحدها ، نشر بركات أولى قصائده في مجلة «الطليعة» ،
الأسبوعية السورية التي كانت تضمّ قسمًا ثقافيًا دسمًا وحدائيًا ، استقطب
الأسماء الشابّة بصفة خاصّة . آنذاك ، كان المشهد الشعري السوري يضمّ
أمثال علي الجندي ومدوح عدوان وعلي كنعان ومحمود السيّد ومحمد
عمران في صفوف الشعراء الأكبر سنًا وتجربة ونتاجًا ، «المكرّسين» لهذا

(1) Kostis Palamas, "The Twelve Lays of the Gypsy." Trans. George Thomson,

السبب الجمالي أو ذلك السياسي ؛ وكان يضم أمثال نزيه أبو عش وعادل محمود وبندر عبد الحميد وابراهيم الجرادي ومحمد مصطفى درويش ومحمد منذر المصري في صفوف الشعراء الأصغر سناً وتجربة ، والأقل اندماجاً في المؤسسة .

في خلفية هذا المشهد الأجيالي ، إذا صحّ القول ، كانت أشكال كتابة الشعر تخضع لضغوطات جمالية (صامتة ، بمعنى ما) من المعلم الكبير محمد الماغوط ، الذي أصدر مجموعته الشعرية الثالثة «الفرح ليس مهنتي» ثم انزوى في عمل وظيفي محض هو رئاسة تحرير مجلة مغمورة اسمها «الشرطة» ؛ وتخضع ، كذلك ، لضغوطات أخرى غير صامتة مارستها قصائد شعراء قصيدة النثر السورية ، من أمثال سليمان عواد ، سنية صالح ، حامد بدرخان ، واسماعيل عامود . كان شكل التفعيله هو السيد بصفة إجمالية ، ولكنّ التعايش مع أشكال الكتابة الشعرية الأخرى (وقصيدة النثر بصفة خاصّة) كان سيد اللعبة في الآن ذاته ، بدليل الترحيب الواضح بنشر نصوص الشعراء الشباب في منابر رسمية مثل مجلة «الطليلة» وملحق «الثورة» الأدبي ، وشهرية «الموقف الأدبي» الصادرة عن اتحاد الكتاب . آنذاك ، أيضاً ، اخترق بركات هذا السطح الراكد ، الرتيب ، المتوافق على تعايش سلمى بين الأجيال والأشكال والموضوعات . وإذا لم تخنّي الذاكرة ، هنا أيضاً ، كانت قصيدة «نقابة الأنساب» هي الكتلة الثقيلة التي سقطت بغتة على السطح الراكد وأحدثت ارتجاجاً عنيفاً كان من المحتم أن يصغي إليه الجميع :

«هذا وجهي العصري»

أنا أت

فليرقب كلّ ملكٍ شحاذ في أرض الردّة من أين تجيء الطعنات .

عبر تخوم الغربية في أجفان صبايا الله وعبر الساقية

أختصرُ الزمن الخائف في عين النسوة ، أزجي الزمن القرشيَ إليها
لا الدمع ونزف الفقراء ينبيخ الرّحل ، طوافي
خلف قوافل زغب .. فليرقّب
كلّ ملكٍ شحاذ في أرض الردّة من أين تجيء الطعنات .
«هذا وجهي العصري»
بلا نمل أرحلُ نحو بلاد الفرس وأمصار الروم وأرفع وجهي
للظلمات أسائلها
وأسائل رجليّ الداميتين عن الأرض العمياء وهمس خفافيش
سمائي

وبكلّ مثولي بين يد الغربة أصرخُ :
تسهل أفراس الحرب على أبواب الكعبة يا أهل الشام ووحدي
أبسط للملتجئين إلى ظلّ الأحجار السوداء ردائي
أتقطع حين ينوس الموت على وجه الحُجاج ،
وبين الصدر المُشرّع للطعنة والرمح الظامي أتخترُ ،
أزحمُ ملكوت الرهبة صدعًا يفصل عربات الزمن اللاهث قُدّامي
وودائي

أتصاعدُ في أنفاس الكعبة جمرًا تتنفسه الصحراء فتحبو
حاملةً هزج قبائلها نحو قوافي الحرب ؛ أزنرُ نسبَ الراجل
بalfارس ، والهارب بالثابت في الحومة حتى يرخي النخلُ النادب
جنحَ الدمع عليّ ..

أبايع في حممة الأرماع لوائي
أضرب شرقًا ، غربًا ، ضرب اليأس .. يسقط وجهي الأوّل
أضرب .. يسقط وجهي الثاني
أترجع بالحُجاج إلى عرفات غبارًا يتكسر تحت حوافر ريح الوهن

القاصم

ثم غوت لنحلّم

ثم نقوم لنحلّم

ثم نفضد أوردة كي نلمح في الدمّ مجيء الأشجار مع اليوم التالي
عاقدة

فرح الأنهار على الهامات عمائم . (٢)

كان الجديد واضحًا وطاقيًا وأسراً ، وكان صارخًا أيضًا : في هذه
الفصحى الحارّة النزقة المصنّفة ، التي لا ترجع أصداء البيان العربي
التقليدي ولا الجاز البلاغي المعتاد ؛ وفي البنية الإيقاعية المتسارعة وفق
تخطيطات تفعيلية متقطّعة ومتّصلة في آن ؛ وفي المرجعية التاريخية
والتراثية الشفيفة بقدر امتزاجها الكثيف ؛ وفي التصاعد الدرامي لضمير
المتكلّم المفرد ، الأشبه بـ «أنا» جمعية لا تكشف عن تعدديتها إلا في
الخاتمة المفاجئة ؛ وفي التقسيم البارح للسطور الشعرية ، والتغيب الذكيّ
للغافية ، والهندسة السلسة للعلاقات التركيبية بين الجملة الإسمية
والجملة الفعلية .

كان بركات في العشرين من عمره حين كتب هذه القصيدة ، وكان
الحضور الإنساني لهذا الفتى الكردي القادم من أقصى الشمال الشرقي
(بجسده النحيل ، وقسمات وجهه الطفولي ، والدهشة الذاهلة التي لا
تفارق محيّه ، والبراءة الطافحة التي لم تكن تطمس بريق الذكاء
والتوقّد) ، قد بدأ يمارس فنّ غير مألوفة في الأوساط الأدبية السورية مطلع
السبعينيات ، سرعان ما انقلبت إلى افتتاحان بالقصائد اللاحقة التي

(٢) سليم بركات : «الديوان» ، دار التنوير ، بيروت ١٩٩٢ . ص ٣٥-٣٦ .

سينشرها بركات في الدوريات السورية : «مبعوث الفراشات» ، «قنصل الأطفال» ، «المطالبة بجسد فراشة غريبة» . . . ولن يطول الزمن حتى تضيق العاصمة السورية بقلق هذا الـ «رامبو» الكردي المتمرد الفاتن ، فيغادر إلى بيروت باحثاً عن الحرية الشخصية أولاً ، والهامش الأوسع الذي سيتيح له نشر قصائده ذات الموضوع الكردي الصريح : «دينوكا بريفا ، تعالي إلى طعنة هادئة» ، «الكواكب المهرولة صوب الجبل» ، «أنا الخليفة لا حاشية لي» ، وهي القصائد التي ستشكل العماد الأهم في مجموعته الشعرية الأولى ذات العنوان الطويل وغير المؤلف : «كلّ داخل سيهتف لأجلي وكلّ خارج أيضاً» (١٩٧٣) .

وكما أحدثت قصيدة «نقابة الأنساب» صدمة بهيجة في دمشق ، كذلك أحدثت نشر قصيدة «دينوكا بريفا . . .» صدمة ماثلة ، أكثر تعقيداً ودلالة في الواقع ، حين نُشرت للمرّة الأولى في مجلة «مواقف» سنة ١٩٧٢ . كانت القصيدة تطرح اسم سليم بركات بقوة ، وتخترق موانع الكتابة الشعرية العربية في قلب بيروت ، عاصمة الحداث العربية ، وتكرّس الشاعر ناطقاً بليغاً (بفصحى جبارة غير مألوفة!) باسم الموضوع الكردي ، في التاريخ والجغرافيا والحكاية والأسطورة . آنذاك ، لم يخف على أحد ، وفي طليعتهم أدونيس رئيس تحرير «مواقف» الذي سارع إلى احتضان القصيدة مثل مجموعة بركات الأولى ، أنّ هذا الصوت ليس جديداً فحسب ، بل هو مباغت وانشقاقي واختراقي .

وكانت القصيدة قد أحكمت شدّ الروابط بين الحكاية والفانتازيا ؛ بين الوقائع المادّية ومحفوراتها السريّة في باطن الوعي ؛ بين التجسيدات البدئية لما يجري على سطح المحاكاة الطبيعية ، والتصوير البصري التشكيلي الأسر ؛ بين المكان بوصفه أكثر من مجرد كيان جغرافي معرّف أو قابل للتعريف ، وبين المكان ذاته بوصفه موقع التنقيب عن الاستعارة المفتوحة ،

عن الهاوية التي تتقلّب فيها حكايات البشر (من الكرد والبداءة والأشوريين والشركس . . .) ، وحكايات الحيوان (الذئب والنعاج والكلاب السلوقية وبنات أوى . . .) ، وحكايات الطير (الكركي ، الزرزور ، الحجل . . .) ، وحكايات النبات (السرخس ، الخزامى ، العنّاب . . .) ، هذه التي تأتلف مراراً لتشكّل حكاية واحدة حاشدة لأسطورة تنفجر بعنف ، في اللغة وخارجها ، وفي الصورة وأعلى منها ، وفي الإيقاع المنتظم والإيقاع المتفتت . وهذه القصيدة تسجّل ، أيضاً ، أوّل أمثلة استخدام سليم بركات للنثر في قصيدة تواصل الاعتماد على التفعيلة ، وإنّ كانت تلجأ أيضاً إلى «تذويب» السطر الشعري المستقلّ عن طريق إدخاله في مقاطع تدويرية طويلة . ولعلّ بين أفضل ما أنتجته الكتابة الشعرية العربية المعاصرة التي تعتمد النثر ، ذلك الاستهلال الأخاذ الذي يفتتح القصيدة :

عندما تنحدر قطعان الذئب من الشمال وهي تجرّ
مؤخراتها فوق الثلج وتعوي فتشتعل الحظائر المقفلة ،
وحناجر الكلاب ، أسمع حشرجة دينوكا .
في حقول البطيخ الأحمر ، المحيطة بالقرية ، كانت السماء
تتناثر كاشفة عن فراغ مسقوف بخيوط العناكب وقبعات
الدرك ، حيث تخرج دينوكا عارية تسوق قطيعاً من بنات
أوى إلى جهة أخرى خالية من الشظايا .

II

في قصائد مجموعاته اللاحقة سوف يواصل سليم بركات بحثه المديد (الشاقّ والمدهش) عن توازن الأنواع ، في المساحة الواسعة من حقول التنوع التي توفّرها ديناميات الشكل الأدبي . في قصيدة «قنصل

الأطفال» (من المجموعة الأولى) جرّب اجترّاح نسق شعري تركيبى يعتمد إيقاعات الجاز والتتابع السيمفونى فى أن معاً . وفى «أقتلوا روناشتا» (من مجموعة «هكذا أبعثر موسيسانا» ، ١٩٧٥) اعتمد المشهديات المسرحية ، والكورس ، والمرونة النغمية للإيحاء بالأجواء الاحتفالية والراثية والطقسية . وفى «الفصيلة المعدنية» (المجموعة ذاتها) قارب النثر من جديد ، وإن كان قد فصل المقطعين النثرين عن جسم القصيدة بوسيلة منحهما عنوانين مستقلّين : «سيناريو للشجر» ، و«سيناريو للثلج» . وفى «البرارى» و«فراشات للعواصم» (مجموعة «للغبار ، لشمدين ، لأدوار الفريسة وأدوار الممالك» ، ١٩٧٧) حاول تقديم الجملة الشعرية التى تكسر علامات الوقف والترتيب الطباعى للسطر الشعري ، وترفد التشكيل الهندسى للصفحة بتفصيلات ملحمية وتغريب لفظى ومقاطع متجاورة محاطة بأشكال هندسية . كذلك تسجّل هذه القصيدة غنائية طافحة طارئة على أسلوبية بركات ، وميّلاً إلى تشديد القافية ، وإلى الإيجاز المقطعي والتكثيف اللفظى :

للشهداء

أنثر قلبى كفراشات

وأقود إلى أعشاش الماء

كبدى ،

وعصافير دمشق ، وسمائى

وأهرول بين الأعشاش لأمسك موجاً ،

أو عاصمة ،

وأهرول بين الأعشاش لأمحو

هذا الزيد العربى عن الأسماء .

كلّ شهيد يتقدّمنى الآن ،

وللشهداء
أنثر قلبي كفراشات
وأقول : انكسري يا أعلامٌ وغيبي
يا قصبات النصر المترع
بالأظلاف وبالطيب
ولينطلق الأمراءُ إلى نصر أكثر مهزلةً ،
ولينطلق السفهاء ... سأعلو
نزقًا كالغزو على واجهة الصحراء (٣)

وفي مجموعته «الجمهرات : في شؤون الدم المهرج والأعمدة وهبوب الصلصال» (١٩٧٩) قدم بركات القصيدة الواحدة الطويلة التي اعتمدت على شكل الكتابة النثرية ، وتنوع المقاطع بين الفقرة الطويلة المدوّرة والسطر الشعري القصير ، وتنوع الحرف بين أبيض وأسود ، واستخدام الهوامش التي تحيل إلى ملاحق القصيدة (البغل الأعمى ، الحدأة ، بنات أوى ، بقرات السماء ، العرائس ، الأدرج) ، كما اختتمت القصيدة بتسعة أناشيد معتمدة على التفعيلة ، متفاوتة الحجم ، مشتركة في شحنتها الغنائية العالية ونبرتها الرثائية وبنائها الإيقاعي الرهيف . وفي هذه القصيدة الطويلة انضحت أكثر فأكثر طاقات بركات اللغوية والتصويرية ، وبدا أن لا حدود لعدته التخيلية في توليد وشائج بالغة التعقيد بين الصورة البصرية والصورة الذهنية ، وبين الدلالة القاموسية والدلالة المجازية ، وبين مختلف طرائق حشد المعنى وتنظيم مستويات استقباله .
في «الكرافي» (١٩٨١) ، وهي أيضًا قصيدة واحدة طويلة من

(٣) المصدر السابق ، ص ٧ .

فصلين ، جرّب بركات كتابة نصّ شعري سردي الطابع ، روى فيه حكاية ديلانا وديرام (النموذج الكردي من فولكلور حكاية العشق الثنائي : قيس وليلى ، جميل وبثينة ، روميو وجولييت . . .) . وفي الفصل الثاني القصير قدّم عددًا من الـ «تعريفات» للكائن الأدبي (ديلانا وديرام) ، وللحيوان (التَيْتَل ، الوَشَق ، السلوقي) ، وللطير (الهدهد ، البشروش ، السنجاب) . بعد سنتين سوف يصدر مجموعته السادسة «بالشبك ذاتها ، بالثعالب التي تقود الريح» ، وسوف يضمّنها قصيدته البدعية «فهرست الكائن» التي ستواصل تراث «تعريف» الكائنات الحيّة ، وتمنحنا تلك الفرصة البهيجة في استعادة أدب الحيوان العريق ، والإحساس بموضوعات الطبيعة كأشياء مشاهدة ومُعاشة من الداخل وليس كمُدْرَكَات ذهنية مفهومية . وفي العديد من الحوارات الصحفية اعتبر بركات أنّ الحيوان هو الحرية المتماهية على نحو مطلق مع الغريزة ، وأنّه هو «اللدانس» ، «الامتلىء بعافية الدور الأعمى الأكثر جمالاً» .

وفي «فهرست الكائن» نقع على وصف للفراشة ، والفقمة ، وألحباحب ، والحجل ، والقطة ، والمقلق ، والخنكليس ، والخُلْد ، والعنكبوت ، والحلزون ، والديك ، والزيز ، والطاوس ، والفهد ، والعصفور ، واليعسوب ، والخفاش ، والثعلب ، والحمار ، والغراب ، والنسر . وفي وصف هذا الطائر الأخير يقول بركات :

أهو وصيّ الأقصي يدونّ مديح الأقصي ، أم سَهْرُ الريش على حَجَرِ المكان؟ لا يا سهر الريش ، لا واسع أو مديدٌ إن تراءى من جناح ؛ لا جناحٌ لو لم يفق الواسعُ المديد . وأنت ، عاليًا ، على أيّ حال ، تغزل الخيالات ، وفي ظلك يتماوج الصلب . مُره ، واخفق كنبضة في الغد العالي ، غد العاصفة وحدها أن تفرع الفراغ القديم .

مُرّ، لا :

فليمّر الفضاء الحيران في ظلّك المحيّر ،
وليخلع المرثي مهاميز عصيانه .(٤)

قصيدة «حديد» ، في المجموعة نفسها ، مؤرّخة في «نيقوسيا ، شباط - آذار ١٩٨٣» ، وتدشّن خروج بركات من بيروت إثر الاجتياح الإسرائيلي لعام ١٩٨٢ وترحيل الفلسطينيين من لبنان . وكان بركات قد ارتبط بمؤسسات المقاومة الفلسطينية في وقت مبكر من إقامته في لبنان ، وكتب يوميات ثرية بعنوان «كنيسة المحارب» (١٩٨٦) يصف فيها حرب الجبل ، وتعاون على نحو وثيق مع محمود درويش في فصلية «الكرمل» ، ومع دار «العودة» للنشر ، ودار «النورس» التي اختصّت بأدب الأطفال . ولعلّ بين أجمل قصائد بركات تلك التي يرثي فيها صديقه طلال رحمة ، الذي استشهد في حرب الجبل .

«حديد» ، إذأ ، هي أولى قصائد بركات بعد استقراره في نيقوسيا ، سكرتيراً لتحرير فصلية «الكرمل» . وهي ترتدي أهمية خاصة في تاريخه الأسلوبى ، لأنها أولاً تمثّل نوعاً من الارتداد الصريح (والعنيف ربما) إلى شكل التفعيلة الذي كان بركات قد أفلح عنه بصفة شبه تامّة . ولأنها ، ثانياً ، تمثّل مزيجاً ثلاثياً يتوازن فيه الموضوع الغنائي والراثي - الملحمي والسيّري - التاريخي ، على نحو طارىء لم يسبق لبركات أن قاربه في هذا المستوى الرفيع من التكافؤ والتشابك والمتانة . وهي ، ثالثاً ، كانت تنذر بما ستكون عليه موضوعات قصائده اللاحقة ، خصوصاً في التمثيل الميتافيزيقي لتفاصيل إقامته في المكان الجديد ، كما في قصائد «منزل

(٤) المصدر السابق ، ص ٢١٨ .

يعبث بالمرات» و«منعطفات . ظهيرة من ريش . دهاقنة يصفون الليل .
غبار مسحور ، وْعَدَّ كالعداء يتهباً لأزقة الغيب» .

قصائد مجموعته السابعة «البازيار» (١٩٩١) سوف تعكس عودته إلى
نوع من السكينة الأسلوبية ، والتأمل الأكثر هدوءاً في التاريخ الشخصي
والذاكرة الجمعية والمحيط الجغرافي ، وسيكتب عن نفسه (في «أسرى
يتفاسمون الكنوز» و«تدابير عائلية») ، وعن قومه الأكراد (في «مهاباد»)
، وعن صديقه محمود درويش (في «محمود درويش : مجازفة تصويرية»)
. وفي هذه القصيدة الأخيرة رسم بركات تفصيلات المكان في بورتريه من
علامات ووحدات رهيقة ومتناهية الدقة ، تتناوب في التعيين والتجريد أثناء
صياغتها لترتيب جديد من العلامات ، سرعان ما ينفك عن الانطباعات
الملكوفة التي تسننها اللغة إلى العناصر ، فتتحول سيرورة الوصف إلى ما يشبه
الرسم التنقيطي الشفيف لصاحب المكان (محمود درويش) . المحبرة حمى
ذات مكايل يندلق منها الصعتر ، وقربها تتعارك التواريخ كرعاة تداخلت
قطعانهم ، والغرف تتناظر ، والرفوف الثقيلة تسهل خلسة عبور الكلمات من
كتاب إلى كتاب ، إلى أن تسير خاتمة القصيدة هكذا :

ما المكانُ الأسيرُ

حين تأخذُ في يدكَ الريحَ صوبَ مفاتيحها؟

ما الصدى؟ ما الحكاية ، ما نزعها؟

ما الأنين الذي يتهادى بسلطانه في هوى الحبر؟ نهبٌ صغيرُ

يخبئُ للورد رائحةَ البُنِّ في سهرٍ قادَ هذي الحديقةُ

إلى حيث يشكو الصباحُ

أنه لم ينم في يدك اللتين اغتلى فيهما ذهبٌ لم ينم

فأعدتَ الحديقةُ

إلى وُزْدَها ، وسرقتَ من العتبات الرقيقة

شعاعًا له قسَمات المكان ، وأرْختَ للترف
بالذي أسرَّتكَ البراعم في ظنِّها ، أيَ ظنِّ
سيلقيكَ في شُبُهات من السعف
كبي يرى في أعاليه أنك أشفقتَ أن تنثر الريحُ أكبادها في يديكَ
فأويتها ، والتجأتَ إليك؟
أيَ ظنِّ سيأخذ وسعكَ؟ برقُ
على زنبقٍ أو عسلُ
يتلمسُ إنشاده ويغيرُ عليكُ
بشقيقاته يتهتكُن مثل القُبْلُ
فانتهبُ ما تشاء . المكائدُ من ألق ، والحريير الأَمِينُ
يعيركَ كَتَّانه ،
والهبوب الذي أنت فيه هبوب السنونو . (٥)

III

في برهة شديدة الخصوصية من مساره الأدبي ، والشعري بصفة
خاصة ، كتب الشاعر والناقد الإنكليزي صمويل تايلور كولريديج
(١٧٧٢-١٨٣٤) :

ما من أحدٍ يستطيع القفز فوق ظلِّه
ولكن الشعراء يقفزون فوق الموت .

كان ذلك عام ١٨٠٢ ، قبيل وقت قصير من اعتراف كولريديج باحتباس

(٥) المصدر السابق ، ص ٣١٣ .

الشعر في داخله ، وما يعنيه ذلك من فقدان لواحد من أمضى الأسلحة اللازمة لمواجهة حالة حادة من تضخم الإحساس بالموت . ولقد قدّم ، في عمله النثري الفاتن «دفتر هوامش» ، جملة تأملات ثمينة حول رغبة الشاعر في أن يموت مع موت الشعر ، وأن «يذهب إلى ما بعد الكلمات ، حيث الظلمة نوراً والسكينة احتفال» .

سليم بركات في قصيدته «تصانيف النهب» ، والتي تفتتح مجموعته الشعرية الثامنة «طيش الياقوت» ، يباشر طوراً من تجربة الحياة مع الشعر ، هو عكس التجربة التي وصفها كولريديج : إنه يدشن العقد الثالث من تجربته الشعرية بأكثر من محور قطع واحد مع أعراف العقدين السابقين ، ثم يتأبط الموت بعد أن جاوزه وجرّده من أية رهبة ميتافيزيقية ، ويقفزان معاً فوق ظلّ مراوغ لا يليق إلا بالشاعر في لحظة شديدة الخصوصية من مساره الشعري .

في معنى آخر ، في هذه القصيدة (ثمّ في معظم قصائد مجموعاته الثلاث التالية : «المجاهبات ؛ الموائيق الأجران ؛ التصاريف ، وغيرها» ، ١٩٩٧ ؛ و«المثاقيل» ، ٢٠٠٠ ؛ و«المعجم» ، ٢٠٠٥) ، يبدو بركات وكأنه يدخل في جهاد مرير مزدوج مع النفس الشاعرة القديمة ومع الأعراف الشعرية السائدة ، سواء لجهة تطوير التجربة الفردية من حيث انتهت في آخر مجموعة شعرية ، أو لجهة مخالفة الأساليب والخيارات التعبيرية المحيطة التي استقرت نسبياً وحظيت بقدر كبير من الإجماع على صعيد الكتابة والذائقة والتغطية النقدية . إنه أشبه بمن يجاهد لكي يكتب شعراً لا يذكر بحصيلة سليم بركات الشعرية بقدر ما يحرض على معارضتها ، ولا يستدعي القراءة الأمانة بقدر ما يدفع إلى أخرى منفردة محفوفة بالمشاق والعسر ، ولا يستكمل مرحلة جديدة من النضج إلا إذا أمات (عن سابق عمد وتخطيط فنيين) قسطاً هاماً وغالياً من مراحل النضج السابقة .

وهذه، في الواقع، حالة نادرة من حالات تطوير التجربة الفنية الشخصية، يعلّمنا التاريخ الأدبي أنها تكاد تقتصر على الشعراء دون الروائيين والتشكيليين والموسيقيين. وبغير جواز المرور الجبّار الذي ندعوه بـ «اللغة الشعرية»، ليس للفنان كبير حظّ في تحدي أنظمة المعنى والدلالة والتعبير، ثم إعلان اليأس بما ترتبه وترسّبه في القرار الجمعي العميق للقراءة، إذا لم يتحدث المرء عن إعلان التخوين والمقاطعة الشاملة. وكيف يحق لغير الشاعر أن يقول على سبيل المثال:

أتصغي إليّ؟ أراك سهوتَ، أيها الموت، وأنت تحصي
كتائب من أشباح تمهدّ الوقت دفتراً دفتراً لانتصار
الحدائق؛ - أشباح كلوعة تصعد المدرج إلى الحقيقة،
ثقيلة في حديدها، وخوذها، لتسلمَ الباشق إلى اليقين.
أتصغي إليّ أم إلى حياة تسهر، أنت، على كنوزها، أيها
الموت؟ تعال ندخل أسواق الجزارين الذين يستميلون
الحكمة إلى فكاهاتهم، رافعين رؤوس الأغنام وأحشاءها إلى
الموازين؛ وقد يقشرون أظلاف الماعز، أو يهوون بالسواطير
على أضلاع الثيران. تعال، إنهم يصنّفون العضل، ويرققون
الشحم كالمجازات، كأننا يعرفون أن المضغ الذي يقرقع إنما هو
من فم الأرض تمضغ القيامة قبل نومها.^(٦)

اللغة هنا تدخل في علائق دلالية ذات طابع غرائبي (أشباح كلوعة، تصعد المدرج إلى الحقيقة، تسلم الباشق إلى اليقين، يرققون الشحم كالمجازات)، وفي تناظرات صوتية حادة أقرب إلى تنظيم النشاز من حول التألف. وهي تقصي القارئ عن خطوط استقباله الواعي (التقليدي)

(٦) سليم بركات: «طيش الياقوت». دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٩٦. ص ٢٠.

لدلالات الألفاظ ، وتدفعه إلى المستوى السحري الخام للمفردة ، حيث تدور عمليات الاستقبال في محاور استعارية - لاواعية (التفصيل الذي سوف أتوقف عنده لاحقاً) . وهذه خصائص لصيقة بتجربة بركات وأشبه ببصمة شخصية طبعت نتاجه ، ربما منذ قصيدته «دينوكا بريفا ، تعالي إلى طعنة هادئة» والتي تفتتح مجموعته الشعرية الأولى ، وانتهاءً بقصيدته «تدابير عائلية» التي تختتم مجموعته السابعة . ولكن بركات هنا غيره في المجموعات السابقة ، والبصمة إياها تبدو وقد تجللت بغلاف يطمس الكثير من معالمها دون أن يفلح في حجبها تمامًا .

وهو غلاف غير رقيق في واقع الأمر ، لأن بركات يصنع مادته من عناصر متواشجة تضم الجملة الاستعارية ، والعمارة الإيقاعية العليا ، والتصميم الطباعي الذي يضرب صفحاً عن تقطيع النص إلى سطور شعرية لصالح توزيعه مقطعيًا ، ثم اعتماد جرعة جديدة مفاجئة من الغنائية الحفيضة ولكن الصلبة والإنشادية والبوحية ، تلتقي مع جرعة أخرى من التوسيع الملحمي للموضوع المركزي والموضوعات التفصيلية :

تشريح طويلاً أيها الموت فتنسى أنك موت ينسأه الموتى .
ومجازاتك من صوف أغبر أو من قطن مبلول ، أيها الموت .
مجرأتك منكوبة . اسمك منكوب . وحبرك الليلي ، الذي
تدوّن به فراديس الأكييد يفتح الممرات - في السطور -
لشموس الموتى .

يا لسيريك الذي تمسّد الحروب بأيديها القطانية ، ملاءته
القصيرة ؛ يا للحروب تطرق عليك الباب في خجل ، أيها
الموت ، لتشغلك كأنثى بحديث الذكر ؛ يا لهباتك التي
لا تقدمها مرتين ؛ يا لدوي السطر المحمول على يدك وهو
يمزق الكتابة!

ونحن ، في المثال أعلاه من القصيدة الأولى ذاتها ، نفتقد بعض أسلوبية بركات ، أو نفتقد تلك الأسلوبية بمقدار يتناسب مع «التمويه» المتعمد الذي خطط له في غمرة انشغاله بتحدّي السيرورة السائدة وممارسة اللعب الحرّ على سطح الجملة مثلما في باطنها . هو ليس سليم بركات تماماً ، ولكنه الشاعر ذاته الذي يعطينا أكثر من برهان واحد قاطع يجعلنا لا نتردد طويلاً في وضع توقيعه أسفل المقطع ، بل واستذكاره على ما نهوى ونرغب ، واسترجاع ما نشاء من مقاطع سابقة رسخت في ذاقتنا وليس في وسعه أن يحسن تمويهها إلى درجة التضييع أو الإماتة .

هذه القصيدة كُتبت في عام ١٩٩٢ ، وهي نموذج رفيع على المخاض الذي اعتمل في نفس بركات وهو يقسم طاقته التخيلية بين نص روائي يوظف المادة الأسطورية والتاريخية الكردية ، ونص شعري خاضع لضغوطات تلك العدة اللغوية الفصيحة التي هيمنت مرة وإلى الأبد ، وكان امتداد معجمها الثرّ في الأعمال السردية بعد تلك الشعرية مدعاة ألق وقلق تعبيريين ، في أن معاً . في القصيدتين التاليتين (والمجموعة تتألف من ثلاث قصائد فقط) يستريح المحارب بعض الشيء ، وتهدأ فورة عبور الظل إذ يميل الشاعر إلى التصالح مع ظلّه اللاهث خلفه ، وتنتقل صيغة ضمير المتكلم/ ضمير المخاطب ، التي تهيمن على المجموعة بأسرها ، من معادلة الصوت الذي ينتهك ذاته أثناء مساءلة الآخر (الموت ، العدم ، الشعر ، العزلة ، التاريخ ، المكان . . .) إلى معادلة الصوت الذي استردّ ذاته من جديد عبر القصيدة ، لأنه خالقها الذي انقلب إلى مخلوق لها على حد تعبير هايدغر :

هَبْ شَقِقْتَ المعاني من تلابيبها ، ودفعت الغد ، خلسة ،
بيديك ليتهاوى على الأدراج المنحدرة إلى كمانتها ؛
هَبْ جمعت إليك المذعورين ليقتسموا رثتيك اللتين من

حريق ، وطحنت الأزل في أجران المجرّات ، مقتدرًا باقتدار الحمى
ذاتها ، المنزلة بدلافينها الصلصالية إلى الخبر ؛ - هَبْ هذا :
لن تظنّ رجاءك إلا نسخًا من رقيم الفراغ الجابي .
فأعدّ ، أيها المطوّق ، مجازات الشكل لينجو اللون ،
وموّه خندق النور من ظلال القيافين .
ففي بأسك نجاة الأكيد ، وفي انشغالك عن الأقدار تشغل الأقدار
بوسائسها .

وبقدر ما تبدو بعض المفردات في معجم بركات أثيرة لديه ، فإنها
تظل أثيرة لدينا نحن القراء ، بدورنا . ولسنا نفتقدها في الواقع ، صانعةً
لتراكيب لغوية فاتنة ، ومشاركة في الانتظام الخفيّ الدقيق لعمارات
الشاعر الإيقاعية ، ومفجّرة في دخيلة القارئ تلك الفضاءات الغرابية
المتينة في فصاحتها والمرنة المنبسطة في انتهاكها لشيئفرات القول
التقليدية . وحين نقرأ : «يا المأت ذو الصحف المثلمة كأنّ عضها الأزل
فأدمى الأبدية . ويا الذي أملك ميزان وعدمك نريف الخوف يتحرّى الطبايع
بحصافة المهرج الذي من نبات ؛ أيها الموت ؛ يا الحاذق كوحشة ، أيها
الإرث النوراني للنسيان النوراني . . . » ، فأنتى لأيّ سليم بركات طارئ أن
يقصينا عن سليم بركات المعياري القياسي!

ألسنا ندرك أنّ قوله «كأنّ عضها الأزل» أو «ويا الذي» لا يمكن أن
يشبه البتة (احتمال) القول : «كأنما عضها الأزل» أو «ويا أيها الذي»؟ ألا
نقف على خفايا ذلك النسيج اللغوي المتين الفريد الذي صنع على الدوام
عمارة إيقاعية متينة فريدة ، أشبه بالبصمة الشخصية؟ وكيف لا نتذكّر
تشكيلاته الإيقاعية التفعيلية الفاتنة في قصائده المبكّرة ، إذ نعيد اليوم
استكشافها في المقطوعات القصيرة الأخيرة من مجموعته التاسعة ، كما

في قصيدته «الهدد» :

مَهْلٌ دَفًّا حَيَاةَ . أُرَيْشٌ

عليك؟ ضُمُّ الصروفَا

زغْبًا وَاُنْشُدِ الرّحيلِ بَطْنًا نزيفا

نَسَقُ أَنْتَ ، أَحضرتَ طيفًا

ونلتَ صَوْعًا أليفا (٧)

وعلى الغلاف الأخير لمجموعته العاشرة ، «المثاقيل» ، نقرأ هذا النصّ (بقلم بركات نفسه ، على الأرجح) الذي يسعى إلى ما يشبه الإعلان الذاتيّ عن طبيعة المعنى ، والتشديد بالتالي على طبائع اللغة الخام كما أشرنا إليها ، خصوصًا في انفلاتها من سقوف الدلالة ، في هذه القصيدة الطويلة : «لا تُحتزل قصيدة هذا الكتاب إلى تعريف بها ، لأنها - بتمامها - تعريف مختزل بالضرورة التي تنشئها مأهولة بما لا يُعرّف . حسبها أن يعيدها القارئ على نفسه ترجمة بإشارات شراكته» (٨) وبالطبع ، ثمة هنا إيحاء بامتزاج عنصرين : ما لا يُعرّف في متن القصيدة ذاتها ، وما لا يُعرّف إلا بترجمة القارئ المشارك في المتن الأصيل والمتن المختلق في القراءة . وهذه ، في الواقع ، ليست سوى استراتيجية التعبير التي اعتمدها بركات طيلة عقود ، لكنه استقرّ عليها على نحو أشدّ انحيازاً وأوضح صيغة وأكثر وعياً في مجموعاته الأربع الأخيرة ، خصوصاً حين أخذ يميل إلى

(٧) سليم بركات : «المجاهبات ؛ المواثيق الأجران ؛ التصاريف ، وغيرها» . دار النهار ،

بيروت ١٩٩٧ . ص ٦٧ .

(٨) سليم بركات : «المثاقيل» . دار النهار ، بيروت ٢٠٠٠ . كلمة الغلاف الأخير .

اعتماد موضوعة مركزية (الموت ، العماء ، الشرّ . . .) تدور حولها المجموعة ،
المؤلفة غالباً من قصيدة واحدة طويلة ذات تقسيمات متباينة الأطوال
والتركيب .

المجموعة الأخيرة ، «المعجم» ، تشهد المزيد من اشتداد الارتطام ، عن
سابق قصد وتصميم ، بين نظامَيْن جَبَّارَيْن داخل القصيدة ، متوازيين تارة
ومتقاطعين طوراً: الإفراط في تغريب اللغة عن معانيها الشائعة وتوسيع
المسافة بين الدالّ والمدلول (كما في قول بركات : «أسمال من نسيج الأبد
تتهرأ» ، أو «الأقدار البهلوانات مختنقة في أزياء الأكيد المختنق» ، أو
«جروحٌ تلوجُ أيها الشرّ . جروحٌ هدايةٌ» ، أو «سموات تابل في الحساء
المسموم» ، أو «لأفتقن الصواب بك في هُمرجان الممكنات المرجلة على
باب الفناء» ، على سبيل الأمثلة) من جانب أوّل ؛ ونظام التوليد المجازي
الاستعاري والتصويري الغنيّ الدافق الذي يخلق علائق جديدة للمعنى ،
وحقول دلالة تخيلية أو رمزية أو حسية غير مألوفة وغير متجانسة ومتنافرة
أو حتى صادمة ، تتوالد جرّاء اشتغال ديناميات النظام الأوّل ، من جانب
ثان :

زَيْنَ الرغيف المحترق بسكّر رعاة الحقول في الجليد ،
وجذّف في الرماد بمجاذيف الجمر حتى الخليج الرابع -
خليج العرافين ، هنالك قبالة الخلاء اللون - شقيقي ، ابن
الأمهات الأربع يفر من العدم كرفساً وقنبيطاً لعشاء
الخلاتق ، أيها الشرّ .

لا تخفّ . اصغ إلى قلبي - قلب المفقودين في المكان
الممرغ سبعا في رُبّ الحصرم ؛ الممرغ ستا في السمن ؛
خمساً في ذرور حجر السبازج ؛ أربعاً في النشاء ؛ ثلاثاً
في التوريات المعتصرة بين سطور اليقين ؛ المعتصرة مرتين

في ذرق الهدهد ؛ المرغ طويلاً في النسيان يهتدي به
المفقودون إلى خيالهم ، أيها الشرّ .
رتبّ المدنّ الخبزَ مقطّعةً إلى شرائح في سلال الخبز . رتبّ
العافية الدموية في قوارير الخلّ والزيت مبيّبة بحروف
الملكات المنتهبة على الخوان الكبير : هاهم الذهبيون ،
المسكوكون بألة الكيد الذهب ، المكلّفون بمذاهب البريق ،
الرّحالة في الشغل الذهبي للخزائن كلّها ؛ محترفو
مساررات المعدن ، المنقسمون بدعةً بدعةً في حروب
النفائس ؛ الذهبيون كصوّر ؛ منتحلوهوا جس السبيكة
الأولى ؛ المرفّهون كشقاء - تراهم أنت ، أيها الشرّ : لا
يسألون لا يسألون . دحرج إليهم ما يليق بالمآدب الذهبية :
الحلوى المختمة في الصيف السكري - صيف الدم .^(٩)

ومن الجليّ أنّ بركات يعتمد على المفردة المستقلة - خصوصاً حين
تكون ، في أنّ معاً ، مستلّة من بطون معاجم الفصحى العتيقة ، ولافتة في
موضعها الدلالي ، جذّابة في بنائها الصوتي ، بموسقة إيقاعية على نحو
ما . . . لإنجاز مقدار إضافي من تغريب القارئ عن حقول الدلالة المألوفة
لديه أو الراسخة في القرار الأعمق من ذاكرته . ولعلّ المثال أعلاه يحتوي
من هذه المفردات عدداً أقلّ بكثير ممّا تحويه عادة فقرات أخرى (بينها ،
مثلاً ، تلك الفقرة النباتية المذهلة ، حيث نقرأ أسماء نباتات ، مثل ورق
الناردين وقشّاء الحمار والفصيفة والدارصيني والمرزنجوش والماميران
والجنطيان والزّوس والقلفااص والراسن وشوكة القبط وشوكة يهودا والفوفل
والريباس والسذاب والداركيسة . . . داخله ، كلّها ، في اقترانات دلالية

(٩) سليم بركات : «المعجم» . دار المدى ، دمشق ٢٠٠٥ . ص ٦٧ - ٦٨ .

ومجازية أخاذة) .

وهكذا فإنّ بركات في مجموعاته الأخيرة قد جاهد للقفز فوق ظلّه ،
وجاهد لاستفزاز القراءة التي تقتفي الظلّ ، فنجح مراراً وعلى نحو جدلي
يُسجّل في رصيده ، حتى حين كانت المشقة شرطاً محتوماً ، قبيل وأثناء
وفي أعقاب القراءة . والأرجح أن القارئ ، من جهته ، سيجاهد هنا وهناك
دون أن يضلّ طريقه إلى سليم بركات ، وسيسجّل ذلك في صالح دينامية
متبادلة تبلغ أوجها في تلك البرهة الكثيفة من التصالح الإنساني
والجمالي والتعبيري .

IV

الشكل المفتوح كان أحد أبرز الإستراتيجيات الأسلوبية التي استقرّ
عليها سليم بركات ، من أجل استفزاز القراءة والمجاهدة لتطوير شروطها في
أن معاً . ومنذ قصيدته الناضجة المبكرة «ينوكا بريفا ، تعالي إلى طعنة
هادئة» أتيج لنا أن نقرأ ما يلي :

[1]

دينوكا

ماذا أقول للصيادين الذين يضعون سروجاً فوق ظهور
الكلاب السلوقية في سفح سنجار وجبال عبد العزيز؟
أنت مختبئة في مكان ما ، ربما في زريبة ، تشمين التراب
ومزاود النعاج . كبيرة أنت ، بليلة ، مسكونة بالحصاد
وبي .

أسمع والدك يصيح : دينوكا . . أسمع والدتك تصيح :

«دينوكا ، احملي خبز الشعير هذا إلى المهاجرين وقولي
أن يستريحوا قليلاً» .

كان عددهم يزداد يوماً بعد يوم . . من طشقند وخوزستان
وأرمينيا والجنوب الغربي لروسيا حملوا أشرعتهم وصُروا
السرخس إلى الجزيرة بلا أحذية أو مناجل . وكنّت
صغيرة لم تدركي أنهم يحتاجون إلى الماء وإلى امرأة
مجنونة أو أرملة يدفنونها بعيداً في شقوق البراري لتنت
في سنيّ الهجرات عدساً وجنادب . أنت تجهلين كيف
يمتليء الأخدود بين «عامودا» و«موسيساننا» بجثث البغال
والأعضاء المبتورة . تجهلين من أين يحصل البدو على
بنادق فرنسية ، ولماذا ينتفخون على تخوم القرى حين
يهجمون عاصبين رؤوسهم بعباءاتهم .

قيل : خرجت من جهة العراق ، وخرجت «بريفا» من جهة
العراق ، ومن جهة العراق خرج الله ، وجاءت الدهشة
والطلقات الفارغة التي جلبها الصبية من براميل قمامة
السراي . وقيل إنك عدت بقطع من النعاج المبتهجات
وكبش واحد يخرّ كالمخارب في كل موضع مبلل بالبول .
دينوكا . . دينوكا . .

أنا متعب ، ولا أسمع صوتك حيث أرى هضاب
«معيريكّا» وعربات الأكراد المحمّلة بالقش .

[2]

أنا خلفك يا ابنة أيّامي الزانية
أدعو ورق العنّاب إلى حيرة شعب : «خُفّ إلى ضاحيتي

يا ورق العنّاب بسورية» ، عجّلْ بالله ، أنا مشغول بدخانٍ
يعصمني من حرّية أجيال تقتنص الأجيالَ ، مداي سرّوج
وعجاج
أقتجُ اسمًا آخر فيه لمائي
وأصاحب ثدييات العصر إلى بهو سمندله وخزاماه ، إلى
ثدي فاجأه الله وراء السنبلِ .

[3]

أخرجُ من أعرافي ودياري جنديًا من جند الوثنيين ،
وأخرج مرتزقًا بالنحل إلى أزهار الغرباء
فليكن الموت إذن ملء تراباتي
وليكن النهرُ رسول الإعدام ، أواكبه حتى مسجد آبائي
بالأنباء
وأنا السايح في الباقوت المغلق والأيام المغلقة
أنهال على لغة الأحلام العامّة بالطعناتِ ، وأجعل وجه
الأطلنطي
شرفة مومسة تتهيأ للقافلة الشبحية
وأخليّ جسدي السفليّ يسوح بمزرعة تتشابك فيها الدمعة
والسوسنة
وأخليّ لنداماي مسارب حول ضفاف الأبدية . (١٠)

(١٠) سليم بركات : «الديوان» ، ص ٧ - ١٢ .

في النمط [١] تبدو الخصائص الموسيقية الكامنة على نحو موروث في اللغة الطبيعية وكأنها تتشكل وتُستنتق على أفضل وجوها إذا عملت جنبًا إلى جنب مع بعض أنواع المعنى (ولا سيَّما المعنى الأسطوري) لتحقيق الاستقطاب الشعري . علاقة كهذه هي ، في حقيقتها ، خلخلة أو إعادة صناعة للشيفرة أو جملة الشيفرات التي تحملها المفردة المستقلة ، والتي تزيغ أو تغتني أو تنفجر عند تواشجها مع مفردة ثانية . وتلاحظ هذه الأوالية في أمثلة من نوع : «يحتاجون إلى الماء وإلى امرأة مجنونة أو أرملة يدفنونها بعيداً في شقوق البراري لتنتب في سنيّ الهجرات عدسًا وجنادب» ، أو : «أنتِ مختبئة في مكان ما ، ربما في زريبة ، تسمين التراب ومزود النعاج . كبيرة أنتِ ، بليلة ، مسكونة بالحصاد وبني» ، أو : «حملوا أشرعتهم وصُزّر السرخس» .

من جهة ثانية يقوم تنظيم الفقرة في ثلاثة أنساق تكاملية (المشهد المكاني ، المشهد الاستعاري ، المشهد المكاني - الاستعاري) وشبه متساوية في تركيبها النحوي المضغوط ، يقوم باستنباط عمارته الإيقاعية الخاصة سواء في التلاوة أو في القراءة الصامتة . وشعر بركات زاخر بهذه العلاقة بين التراكيب الشكلية في اللغة ، خصوصاً وأنّ المفردات والعبارات تمتلك ميلاً طبيعياً للاصطفاف في أنساق إيقاعية - دلالية ذات شخصية تكاملية ، كما في نموذج الدور الإيقاعي والدلالي الذي تلعبه مفردة «قيل» في المثال التالي : «قيل : خرجت من جهة العراء ، وخرجتُ «بريفاً» من جهة العراء ، ومن جهة العراء خرج الله ، وجاءت الدهشة والطلقات الفارغة التي جلبها الصبية من براميل قمامة السراي . وقيل إنك عدتِ بقطيع من النعاج المبتهجات وكبش واحد يخرّ كالمحارب في كل موضع مبلّ بالبول» .

النمط [٢] يعتمد التفعيلة ، لكنه يكسر نظام التقطيع الشعري ، ويستكمل تفتيت حدود اللغة الشعرية/ النثرية بالنهوض على الدرجة صفر من المجاز (حتى تكاد الاستعارة تختفي نهائياً) ، فيبدو بركات أشبه بمن يثار لطغيان الإيقاع على النثر الطبيعي بتغيب أوالية التواشج بينهما ، كما تبدت في النمط [١] . لعبته ، هنا ، محفوفة بالمخاطر ، إذ إنّ المجاز هو حقل لقاء شعرية اللغة الطبيعية بالخيّلة ، إلى درجة تجعل المجاز لا يأخذ شكل غطاء اللغة بل شكل تجسيدها وكشف مغاليتها . بعبارة أخرى ، الاستعارة فكر الشاعر الفعلي وليست مجرد تقنية إبدال تدعم الأسلوب ، وهي تمرينه الخلاق الذي يلزمه بالغوص عميقاً في - وبعيداً عن - سطح الواقع الذي رسمت اللغة مفاصله وخرائطه عن طريق المصطلح والكليشيه .

ومنذ قصائده الأولى المبكرة برهن بركات على مراس رفيع في استخدام الاستعارة ، وفي حجبتها تماماً حين يتقصّد تحقيق أغراض فنية خاصة بينها تلك الدرجة صفر من الاعتماد على المجاز . ففي مثال النمط [٢] يكون التعويض الأوّل عن درجة الصفر المجازية لـ «حيرة شعب» و«حرية أجيال» أو حتى «مداي سروج وعجاج» هو التخطيط الإيقاعي المشدود للمقطع بصفة عامة ، والتخطيطات الثانوية المتلاحقة لأية عبارة تنتهي بعلامة وقف أو تشكيل إلزامي نافٍ للتسكين بصفة خاصة (الكسرة في «الزانية» و«السنبل» بهدف التقفية والربط الموسيقي مع «ضاحيتي») . أمّا التعويض الثاني فهو العلائق التصويرية البصرية بين المدى والسروج والعجاج ، وثنديات العصر في بهو وسمندل وخزامى الماء ، والثدي الذي فاجأه الله وراء السنبل .

النمط [٣] ينطلق من مسلّمة الشعر الكبرى : الموسيقى التي تتيح للشاعر أن يقوم بما هو أكثر وأشدّ تعقيداً من نقل الرسالة ، الأمر الذي قد يغيره بنسيان الرسالة ذاتها والانحجار خلف الإيقاع اللفظي من أجل الإيقاع

اللفظي ، كغاية قصوى بذاتها . ومن اللافت أن بركات برهن على سيطرة مدهشة على شدة الإيقاع وخفوته في المقطع القصير مثلما في ذلك الطويل ، أو على امتداد القصيدة بأسرها . ولم تكن تلك السيطرة مبكرة بالقياس إلى سنه آنذاك (١٢ عامًا) ، بل كانت متفوقة تمامًا بالقياس إلى مجايله من الشعراء ، وبالقياس أيضًا إلى عدد لا بأس به من أولئك الذين يكبرونه سنًا وتجربة .

فيما بعد سوف يقدم بركات مئات التنويعات على هذا النمط الثالث تحديداً ، وسوف يطور تقنيات بالغة التعقيد في مضممار التزويج الناجح للعلاقات الدلالية والعلاقات الموسيقية ، أو تلك الكيمياء الصوتية الساحرة التي حاول أبو حيان التوحيدي استكشاف قوانينها الغامضة . وفي المثال التالي من قصيدة «قلق في الذهب» ، مجموعة «بالشبك ذاتها . . .» ، يكشف بركات عن الكثير من مفاتيح واحدة من بصماته الأسلوبية الأثيرة :

أَيُّ قَنَصٍ ؛ هَوَتْ وَعَوْلٌ فَبَدَّدْتُ بَعْضِي أَسَىٰ عَلَيَّ وَعَدْتُ
كِي أَرَانِي ، هُنَا ، فِي ظَرِيفٍ مِنَ الحَطَامِ ، أَوْ ثِقَلٍ لَيْسَ
يُرَوَّى وَإِنَّ رَوَاهُ الرَّمَادُ ؛

كِي أَرَانِي رَفِيفًا مِنَ المَرَاثِي إِذَا يَرَفَ مِنْهَا الجَنَاحَ والبُعْدَ
بِي يَنْقَادُ

أَيُّ قَنَصٍ؟ سَيَذْرَفُ اللَيْلُ قَلْبِي إِلَى الصَّبَاحِ ، وَيَخْفِي
الْأَلِيفَ عَنِّي الجَمَشْتُ

فَرَهَبْتُ المَشَاعَ إِنِّي ، مَطْوُوقٌ بِاللِهَاتِ الخَفِيفِ للمَاءِ ، وَالْحَيَّ
حَوْلِي حَصَادُ

وَالفَضَاءَ أَسْرًا ، فَعَدْتُ بِي ، يَا قَلْبَ ، عُدْتُ بِي إِلَى مَشَاغَلِ
الرِّيحِ حَيْثُ المَكِيدَةُ حَبْرٌ ، وَرُوحِي

نساءً يداهن من حوارِي المغيب هذا العراء. (١١)

الصوت هنا يتنقّل بين القول والغناء ، وتدخّل الكلمات في علائق دلالية ذات طابع غرائبي (ظريف من الحطام ، رفيف من المرثي) ، وفي تناظرات صوتية حادة تارة وطلية طورًا ، تندغم في التواتر الهندسي لحروف العين (في السطر الأوّل) والراء (في السطر الثاني) والحاء (في السطر الثلاثة الأخيرة) . والحال إنّ ضمير المتكلم يلعب هنا دورًا شديد الأهمية في استكمال ألعاب العلاقة بين الوّقع الدلالي والوقع الموسيقي ، لأنّ القارئ، إنّما يزجّ بنفسه في هذه الشبكات من «تسريد» المعنى ، ويمارس نوعًا ذاتيًا من إقصاء خطوط الاستقبال الواعية - الاصطلاحية للألفاظ والمعاني والدلالات والإيقاعات . القارئ ، بالقدر ذاته ، يدفع بنفسه إلى ذلك المستوى السحري الخام للغة ، حيث تُصاغ العلاقة مع المعنى بعيدًا تمامًا عن الكليشيه ، وفي قلب تشكيلات استعارية غير مألوفة لضمير المتكلم وهو يلقى في قلب مواجهات غير مألوفة بين العناصر والأشياء والأزمنة : رماد يروي ، ليل يذرف القلب ، جمشت يخفي الأليف ، حبرٌ مكيدةٌ ، حيٌّ حصادٌ ...

V

في مناسبة سابقة (١٢) ، أتيج لي أن أناقش مسألة التمييز بين

(١١) المصدر السابق ، ص ٢٢٥ .

(١٢) في ورقة قُدّمت إلى «مؤتمر الشعر العربي الأوّل» ، فاس ، المغرب ، ٢٧ - ٣٠

نيسان (أبريل) ١٩٩٩ .

الفضاء الطبيعي والفضاء التشكيلي في اللغة الشعرية ، معتبراً أنها واحدة من أبرز الإستراتيجيات الأسلوبية التي تكفل لقصيدة النثر العربية المعاصرة إمكانية واسعة لاكتساب أرض جديدة في العلاقة مع القارئ ، وفي سياق محدد هو منافسة القصيدة الموزونة ، سواء استخدمت عمود الخليل أم التفعيلة . وقد كان شعر سليم بركات أحد أمثلي التطبيقية .

وقد أوضحْتُ أنني أعني بالفضاء الطبيعي ذلك الحيز الذي يُدرك بدءاً من الجسد الإنساني وإلى الخارج المقابل ، سواء أكانت عناصر ذلك الحيز مشهداً متعدد الأجزاء (كما في الإطلالة على منظر طبيعي) أم مشهداً وحيد الجزء (كما في النظر إلى شجرة عزلاء) ، أم مشهداً مركباً قائماً على الفراغ المادّي والامتلاء الرمزي (كما في الوقوف أمام بيداء صحراوية أو بطحاء مغمورة بالثلج) . والشاعر في مواجهته لهذا الفضاء الطبيعي يقيم توازناً من نوع ما بين مخيِّلة ترشقه خارج نفسه ، وذاكرة بصرية تشدّه إلى داخل نفسه ، ومكان يغلف الخيِّلة والذاكرة فيُبقى الشاعر خارج نفسه وداخلها في آن معاً .

الفضاء التشكيلي ، في المقابل ، هو الفضاء الطبيعي وقد انقلب إلى رؤيا إبصارية خارقة لوسائل الإدراك المعتادة ، وانهارت فيه علاقات التراتب الوظيفي الثلاثي بين الخيِّلة والذاكرة البصرية والمكان ، وتكوّنت عناصره من مزيج تركيبى لا يسمح بتبادل أو إعادة توزيع أو قلب الأدوار بين عناصر التوازن الثلاثة هذه فحسب ، بل يسمح بتحويل الالتقاط الشعري لذلك الفضاء الطبيعي إلى التقاط بصري تشكيلي على الصفحة المطبوعة ذاتها : اختيار شكل هندسي لتوزيع النصّ ، تدوير أو قطع السطور الشعرية وفق عمارة غير مألوفة ، إفساد القواعد المعتادة لعلامات الوقف ، استخدام قياسات أو ألوان مختلفة للحرف الطباعي ، وما إلى ذلك .

وعلى سبيل المثال ، يقول سليم بركات في القسم الأوّل من قصيدته

«ديلانا وديرام»، مجموعة «الكراكي»: :

هذا عالمٌ يُتلى . هذا حبرٌ يُتلى . وديرام ممسكٌ بريشة
الجدور يخطُ رسائل للضباب الوالي ، هادئاً ، لا يفكر في
نبيذ ما ، أو في نهبٍ ، بل في النهر المعلق فوق المدينة ؛
النهرُ الأعزلُ الجسورِ ، الذي يهيءُ أعشاشه للهُث
الأسلحة ، ويستطلع الحجرَ . وديرام يحصي من شرفته
ملوكاً يَمرون ، ومالك تجتاز الطريق متوكئة على عِصِيَّ
البازلت ، ناقراً بأنامله على غشاء المشهد ، كأنما يستوقف
الغبار العابر ليحملَه زهرةٌ ما ، أو طبلأً ، إلى الأعياد التي
تتهراً نعالها من الرقص على المياه . ويرفع بصره ، ثانية ،
إلى الأعلى ، إلى النهر الجسور ذاته ، المعلق بكلايب
الآلهة ، صارخاً :

«لماذا تتبعني أيها النهر؟

لماذا تنفخ في بوقك النُجيليّ فيصعد المنشدون إليك ،
حاملين أعضائي في بُرعم ، ويقظتي في أباريق الصلصال؟
لماذا تُريني القرى بين عُفرتي إبطيك ،

وتحزُم المدينة ، في جريانك ، بحبل من السيفيرِ وزيزفون
الطمي كحزمة الشوفان؟

لماذا تتبعني أيها النهر؟

لماذا تحمل قنديلك والأرضُ واضحةٌ كما ترى؟ أنقصُ
أنت ، بأشواك فضيَّة ، أم مَرموطٌ يقضم جذوع الحروف؟
مهلاً إن كنتَ سهمَ الشمالِ ، أو نورجِ المحارب . مهلاً
مهلاً ،

لكَ أعيادك ، ولي أعيادي ،

وكلانا عالقٌ في شبكة المساء الخلو ،
المساء المنثور كالسكر على رغيغ المدينة .
وكلانا جُرُنْ تطحن العاصفة فيه عدسها ،
فلماذا تتبني أيها النهر؟
لماذا تكشفني لنخيل البحر المتشع بهزائم الساهرين ساهراً
يُوجِّعُ الحقول ، ويحرّضُ النبات على الأعمدة؟
دعني أيها النهر ،
دعني في مداي المغلق بثلاثين كبشاً ، وسريرٍ واحدٍ
تتخاطفُ النساءُ عليه مملكةٌ لم تكتمل . (١٣)

ومن الواضح هنا أنّ الفضاء الطبيعي يتألف من أجزاء متعددة ،
ولكنها أجزاء لا تصنع أيّ «مشهد طبيعي» متجانس في وسع الذاكرة
البصرية أن تستعيده على الفور من مخزونها البصري . وفي هذا المستوى
الأوّل تكون القراءة ملزمة بالانخراط في «تشكيل» مشهدية مركّبة من نوع
غير مألوف (إذ ليس في وسعها أن تشكّل مشهداً أحاديّاً من نوع مألوف
مسبقاً) ، وتكون قواعد التشكيل مرّنة ومفتوحة وحرّة وخاصة بكلّ قارئ
على حدة ، ولكنها في الآن ذاته تظلّ محكومة بقواسم مشتركة عليا هي
أجزاء المشهد الطبيعي كما اندرجت في القصيدة . في المستوى الثاني
تكون القراءة ملزمة باستحضار موقع الشاعر الإنسان في هذه المشهدية
التشكيلية (وهو ، أيضاً ، استحضار القارئ لنفسه في المشهد) ، الأمر
الذي يفضي إلى التماس زمنية الفضاء الطبيعي ، وهي زمنية تشكيلية
بدورها لأنها تقوم على أفعال متغايرة الأزمنة ، وعلى صيغتي التصريح

(١٣) سليم بركات : «الديوان» ، ص ١٩١ .

والسؤال ، فضلاً عن العلاقة التبادلية بين ضمير المتكلم وضمير المخاطب .
في المستوى الثالث تكون القراءة مُلزَمة بتكوين استجابة دلالية إزاء
الصياغات التشكيلية لعلاقات الخيِّلة والذاكرة البصرية والمكان ، كما في
«دعني في مداي المغلق بثلاثين كبشاً وسرير واحد ، تتخاطف النساء عليه
ملكة لم تكتمل» : أهذه استجابة مجازية بلاغية صرفة؟ أهي استجابة
بصرية؟ أهي استجابة ذهنية رؤيوية؟ أم هي مزيج من هذه أو تلك؟ وفي
مستوى رابع لا بدّ للقراءة من أن تتخذ موقفاً من هندسة توزيع السطور
والفقرات والمقطع بأسره . أيّ انطباعات تخلفها هذه الهندسة؟ هل تساهم
في صناعة إيقاع متباطيء أم متسارع؟ هل تقوم بضبط الاستقبال ، أم
تُفقد زمامه؟ هل تتكامل أم تتنافر مع الفضاء التشكيلي الأعلى الذي
يغلّف القصيدة الطويلة الأم؟ وما الفارق؟

غير أنّ القراءة مُلزَمة بتطوير مستوى خامس شاقّ بقدر ما هو محرّض
على توليد جماليات تشكيلية عالية ، مستوحاة من ذهول الكائن أمام
عبقرية المكان ، أو بالأحرى أمام أعجوبة انكشاف خصائص بعينها من
عبقرية المكان ، لم تكن وليست مرئية خارج برهة انقلاب الفضاء الطبيعي
إلى فضاء تشكيلي . والمرء يتذكّر قول شارل بودلير :

أه ، كم العالم كبير في وضوح المصابيح
وكم العالم صغير في أعين الذاكرة .

واستدعاء الذاكرة ، أو الذاكرة البصرية على وجه التحديد ، هو معضلة
المستوى الخامس من قراءة تجهد لكي تُصالح بين مخزون الصُّور الطبيعية
وبين الطارئ التشكيلي الذي يعيد استقلاب تلك الصور دون أن
يطمسها ، أو يغلفها بأغشية استعارية دون أن يحجب قوامها العضوي أو
مكافئاتها المعيارية . وديرام في قصيدة سليم بركات هو الشاعر الواقف في

قلب العالم ، ساعة انكشاف المكان ، أمام نهر يتبعه حاملاً قنديل إيضاح الواضح («لماذا تتبغني أيها النهر؟ لماذا تحمل قنديلك والأرض واضحة كما ترى؟»). وديرام هو الجسد الإنساني وقد انقلب إلى مركز لإسباغ الزمن على الفضاء الخارجي («ديرام يحصي من شرفته ملوكاً يَمْرُونَ ، وبمالك تجتاز الطريق متوكئة على عِصِيّ البازلت») ، ولكنه المركز الذي تتصارع فيه ذاكرة بصرية طبيعية وأخرى منبثقة من إِبصار المشهد على نحو رؤيوي .

وفي النصّ السابق يمكن العثور على خمسة أنماط من هذا التصارع :

١ - بين الصُّور المتماثلة في كيفية الفعل والمتغايرة في مادّة الفعل : «هذا عالمٌ يُتلى . هذا حبرٌ يُتلى» ؛

٢ - بين الصُّور المتعارضة في كيفية الفعل والمتماثلة في مادّة الفعل : «لماذا تكشفتني لنخيل البحر المتشّح بهزائم الساهرين ساهراً يوجِّح الحقول» ؛
٣ - بين العنصر الملموس موصوفاً في صورة مجردة (النهر المعلق فوق المدينة) ، وبين الفعل المجرد والمادّة المجردة (النهر «الذي يهيء أعشاشه للهاث الأسلحة» ، والنهر الذي «يستطلع الحجر») ؛

٤ - بين الكائن الإنساني (ديرام) والعنصر الطبيعي (النهر ، العاصفة) والموضوع المادّي (الجرن ، العدس) والفعل الطبيعي (الطحن) المرفوع إلى مستوى إستعاري : «كلانا جرن تطحن العاصفة فيه غدسها» ؛

٥ - بين الصورة الثابتة (سهم الشمال ، نورج المحارب ، رغيغ المدينة) ، وبين الصورة المتحركة (ناقرأً بأنامله على غشاء المشهد ، تنفخ في بوقك النجيلي ، تحزم المدينة في جريانك) .

وفي جميع الأمثلة السابقة لا تملك ذاكرة القارئ البصرية أي مخزون صُوريّ طبيعي يسمح بالتفكير في «عالم يُتلى» ، أو «نخيل متشّح بهزائم الساهرين» ، أو «نهر يهيء الأعشاش للهاث الأسلحة» ، أو «جرن تطحن

فيه العاصفة العدس» . . . أكثر من ذلك ، يبدو النصّ السابق – وربما شعر بركات بأسره – وكأنّه لا يستمدّ بُنيته الإجمالية إلا من هذا الاحتشاد الزاخر لأمثلة التصارع بين مادّة العالم الطبيعي وصوّر التقاط المادّة ذاتها على نحو رؤيوي تشكيلي . ورؤيا بركات تقوم تارة بإسباغ المحتوى السحري - الطفولي على المشهد المألوف ، أو تقوم طورًا بترقية عناصر الطبيعة الخام الواضحة إلى عناصر تشكيلية متسامية في مشهد رؤيوي خارق للمألوف ، إلى جانب أنها – في الحالتين – تنتهك أعراف الذاكرة البصرية وتحفّز على الرؤيا التشكيلية خارج تلك الأعراف .

غير أنّ قواعد القراءة الأولى لأيّ نصّ أدبي تظلّ شبيهة بقواعد عزف مقطوعة موسيقية للمرّة الأولى : لا مناص من الالتزام بما تقوله العلامات المدوّنة على السلالم الموسيقية . وفي النصّ الأدبي تبدأ هذه العلامات من القراءة «المنتظمة» ، أي تلك التي تبدأ من اليمين إلى اليسار ، وتمرّ على الكلمات كما ربّتها المبدع في السطور . وهي تاليًا ملزمة باستقبال بُنية السطر النحوية والدلالية والمجازية كما شاء المبدع تقديمها ، وملزمة بالسير في السياق الرؤيوي الذي حاول الشاعر صياغته . بمعنى آخر ، ليس من حقّ القارئ أن يبدأ نصّ سليم بركات من منتصفه فإلى الأعلى ، أو من ختامه فإلى المنتصف . وليس من حقّه أن يبدّل عبارة «نخيل متّشح بهزائم الساهرين» بعبارة أخرى تقول «هزائم متّشحة بنخيل الساهرين» . وليس من حقّه (إذ ليس ذلك في وسعه عمليًا) أن يستنبط سياقًا مضادًا مستوحى من قلب عبارة بركات ذاتها ، إلى أخرى تقول «البلاب متجرّد من يقظة النائمين» على سبيل المثال .

هذه ، بالضبط ، هي كبرى نقاط الإرتكاز الدلالي لنصّ ينتهك الذاكرة البصرية المختزنة . فالقارئ ملزم هنا بتخيّل ما يريده الشاعر أن يتخيّله ، وفق القواعد التي يرسمها الشاعر وليس استنادًا إلى أيّة قواعد

«قياسية» أو «معيارية» متفق عليها . وما دامت كلّ الكلمات ، ما عدا أسماء العَلَم ربما ، قادرة على صناعة المعنى بالضرورة ، فإنّ مَلَكات توليد المعنى هي وحدها التي تنشط وتتنبّه حين تقف وجهاً لوجه أمام معضلة انقلاب الفضاء الطبيعي إلى فضاء تشكيلي طارئ لم تتخيّله الذاكر البصرية من قبل ، وهو غير مدوّن في طبقاتها وتواريخها . وأمّا إذا احتوت النصوص على مقدار عال من المواد المساعدة على إحياء الذاكرة البصرية ، فإنّ حظوظها في توليد المعنى سوف تكون محدودة لأنها ستتناسب عكسًا مع مقدار تقاعس المَلَكات عن الانخراط في التخيّل الطارئ غير المدوّن في الذاكرة البصرية .

يعلّمنا تاريخ الإنجازات الإبداعية الفردية درسًا كبيرًا مفاده أنّ أعمال الأدب الاستثنائية قامت بواحد من إنجازين : إمّا أنها أسّست أسلوبية جديدة ، أو تسبّبت في مُحاق أسلوبية قديمة ، الأمر الذي يعني أنها – في النتيجة – حالات خاصّة للغاية . وأدب سليم بركات نموذج رفيع على تلك الحالات الخاصة : شعره ضخّ حياة جديدة في المشهد الشعري العربي المعاصر ، وروايته (١٤ عملاً ، حتى هذا التاريخ) أحييت عالمًا سرديًا يكون فيه العجائبي مادةً كبرى جيّارة لالتماس إنشاء العالم الفعلي وإعادته . الأهمّ من ذلك ، وهذه ليست مفارقة البتة ، أنّ بركات الكردي كتب بلغة عربية فصحي – حيّة ، دافقة ، بليغة ، إعجازية ، فاتنة ، طليقة ، بالغة الشراء والجلسارة والجزالة – ولعب دورًا كبيرًا كبيرًا في تحديث قوامها التركيبي واستخداماتها البلاغية ووظائفها الخطابية ، الأمر الذي يعني عن القول إنه بات بثرة استقطاب ومعياري قياس ونموذج تأثير .

..الأمر الذي يغني ، أيضاً ، عن الجزم بأنّ سليم بركات - الآن إذ تصدر هذه الأعمال الشعرية وتضمّ ١١ مجموعة شعرية - وراء تأسيس أسلوبية جديدة في الشعر كما في الرواية ، وأنّ من الطبيعي أن ننتظر منه المزيد .

كلُّ داخلٍ سيهتف لأجلي،

وكلُّ خارجٍ أيضاً

دينوكا بريفا تعالى إلى طعنة هادئة

عندما تنحدر قطعان الذئاب من الشمال وهي تجرّ مؤخراتها فوق الثلج وتعوي فتشتعل الحظائر المقفلة ، وحناجر الكلاب ، أسمع حشجة دينوكا .
(شهادة)

في حقول البطيخ الأحمر ، المحيطة بالقرية ، كانت السماء تتناثر كاشفة عن فراغ مسقوف بخيوط العناكب وقبعات الدُرّك ، حيث تخرج دينوكا عارية تسوق قطيعاً من بنات أوى إلى جهة أخرى خالية من الشظايا .
(شهادة)

دينوكا

ماذا أقول للصيادين الذين يضعون سروجاً فوق ظهور الكلاب السلوقية في سفح سنجار وجبال عبد العزيز؟ أنت مختبئة في مكان ما ، ربما في زريبة ، تشمين التراب ومذاود النعاج . كبيرة أنت . بليلة ، مسكونة بالحصاد وبى .

أسمع والدك يصيح : دينوكا . . أسمع والدتك تصحيح : «دينوكا ، احملي خبز الشعير هذا إلى المهاجرين وقولي أن يستريحوا قليلاً» .
كان عددهم يزداد يوماً بعد يوم . . من طشقند وخوزستان وأرمينيا والجنوب الغربي لروسيا حملوا أشرعتهم وصرر السرخس إلى الجزيرة بلا

أحذية أو مناجل . وكنت صغيرة لم تدركي أنهم يحتاجون إلى الماء وإلى امرأة مجنونة أو أرملة يدفنونها بعيداً في شقوق البراري لتتبت في سنيّ الهجرات عدساً وجنادب . أنت تجهلين كيف يمتلىء الأخدود بين «عامودا» و«موسيسانا» بجثث البغال والأعضاء المبتورة . تجهلين من أين يحصل البدو على بنادق فرنسية ، ولماذا ينتفخون على تخوم القرى حين يهجمون عاصبين رؤوسهم بعباءاتهم .

قيل : خرجت من جهة العراء ، وخرجت «بريفاً» من جهة العراء ، ومن جهة العراء خرج الله ، وجاءت الدهشة والطلقات الفارغة التي جلبها الصّبية من براميل قمامة السراي . وقيل إنك عدت بقطيع من النعاج المتبهجات وكبش واحد يخزّ كالحارب في كل موضع مبلل بالبول .
دينوكا . . دينوكا . .

أنا متعب ، ولا أسمع صوتك حيث أرى هضاب «معيريكا» وعربات الأكراد المحملة بالقش .

فرمان / المطاردة

يا ابنة أيامي الزانية
لا بعُلك ، لا البريّة ، لا الأسلاك تُواريك ، وطيفك - هذا المشطور -
يميلُ وأسنده لأطيلَ مطاردتي
فأنيخي طائرَكَ اليومَ بمنحدر خلفَ جنازةِ أغصاني
إني مُتّصلٌ بالفلكِ الدائرِ ، بالهمسِ ، وظلِّ المقصلةِ .

**

خلف الشجرات
كان النسّاجون يديرونَ على النولِ خيوطَ الهدنةِ بين الوحشةِ والعالمِ ؛

خلفَ الشجراتِ كَبَتْ رثتي
ثم اتكأتُ فوق جذوعِ يابسةٍ واشتعلتُ ؛
أشعلتُ النساجينَ الفقراءَ فهزّوا خاصرتي وتهاووا
فوق جذوعِ يابسةٍ يعتصمون بأزهاري ونباتي ،
يعتصمون بقفازاتِ امرأةٍ تتراجعُ قدامَ البدوِ المرتعبينَ على فوهةِ
أوردتي .

خلفَ الشجراتِ قناديلُ الماءِ ، غبارٌ ، الملحُ فيه يديكِ تذوبانِ . .
أنيخي يا ابنةِ أيامي الزانيةِ
لا البريةُ ، لا الأسلاكُ تواريكِ . بجانبِ دغلٍ أو جبلٍ سوفَ ترينَ
معني مطري ونهاري متكئاً تتجاذبهُ الرَّافةُ والريحُ وظلُّ المقصلةِ
وترينَ عصافيرَ دمي المتغافلِ
(ثمةٌ وعدُّ أن أتجاهلها كالشرفاءِ
فلا أتيتها بين جوارِي الجمهورية والحُرّاسِ)
ترينَ دمي

محتشداً بملوكِ البحرِ وقرميدِ المدنِ .
وأنا أتجاهلُ أقواماً يقتربونَ ويمضونَ ، وأثقبُ نعلي لأعرفَ ما يعرفهُ
الصعلوكُ عن الشهداءِ المنبوذينَ على طرقاتِ الأضرحةِ
ولأعرفَ كيفَ يهادنتني زمني
وسهوبٌ تكتظُّ بعشبٍ يحزنتني
(يحزنتني البرقُ إذا أومضَ في أطرافِ السيلِ ، ويحزنتني السيلُ إذا
فاضَ على البرِّ ، ويحزنتني البرُّ إذا أقصتهُ الدولةُ عن تاريخِ الدولةِ ؛ تحزنتني
الدولةُ إن قاطعها الحزنُ ، ويحزنتني الحزنُ)

أنا خلفكِ يا ابنةِ أيامي الزانيةِ
أدعو ورقَ العنّابِ إلى حيرةِ شعبٍ : «خُفْ إلى ضاحيتي

يا ورق العنابِ بسوريةً ، عَجَلُ بالله ، أنا مشغولٌ بدخانِ يعصمني
من حرية أجيالٍ تقتنصُ الأجيالَ ؛ مدايِ سروجٍ وعجاجٍ
أقترحُ اسماً آخر فيه لمائي
وأصاحبُ ثديياتِ العصرِ إلى بهوِ سمندلهِ وخزاماهُ ، إلى ثديِ فاجأه
اللَّهُ وراءِ السنبلةِ .

يا ورق العنابِ ، الجغرافيونَ نيامٌ ، والطلقاتُ مُلثِنَ بأسرارِ العشبِ . .
«أنا الرئانُ وباخرتي

صدأُ الخطواتِ» . وراءكِ ، عن جنبيكِ ترينَ دمي
يبعثُ هاويةً في هاويتي

ويهبُ بسربٍ من أفراسِ الوحشةِ يتمطى وسطِ سياجاتِ الروحِ ،
ويصهلُ في ثوبِ «بريفا» المقتولةِ بالغرباءِ وطقسِ الآلهةِ .
أجنحُ للعنفِ وأعقدُ أمعاءَ الأفراسِ إلى وتدِ يحتكُ به الشركسُ
والكردُ وينتصبونَ خفافاً .

أختمُ وارِقهمُ بالنرجسِ والإيمانِ الأبديِّ ونمضي شجراً وعصافيرَ إلى
النهرِ ،

نقولُ : «تعالُ أيا نهرُ ،

تعالُ أيا جبلُ»

ونقولُ : «تعالُ أيا حجلُ»

وتعالُ أيا ورق العنابِ إلى باديةِ تخرجُ من ثقبِ الجمجمةِ» .
أجنحُ للعنفِ وأدعو اللحظاتِ لتخففَ من بلورِ القلبِ على عورةِ
قاماتٍ تأتي من زبدِ القطبِ وقرميدِ المدنِ

وأجاهدُ أن أفتحَ ما يتأكلُ من شفتي للإعدامِ ومن غصني
حينهُ يكتملُ الجسدُ الرطبُ ويقتادُ إلى أخدودِ الوقتِ وعولِ المعجزةِ .
وتسافرُ بي أطيافِ صديقاتِ كُنَّ يجرحنَ مداري . الآنِ وبعد الآنِ أفرؤُ

بمقبرةٍ ودمٍ وأجيثك في يمنايَ وفي يسرايَ سلاسلُ يسَاقطُ فيها غابُ
بخواتيمِ الخلقِ وتسقطُ أجنحةُ الخابورِ . أضْمُكُ مقتصدًا في الضربةِ .

أمسكُ أولَ أمعائكِ وأخلِّيكِ فتحدريْنِ إلى مآذبةِ العالمِ .
(تجتازينَ المنحدرَ الآنَ فيصدمكِ الكركيُّ ويستأجرُ تجويفِ
البطنِ إلى العامِ القادمِ ، بعد العامِ القادمِ

تستأجرُكِ الدباباتُ ، وبعد المائةِ ينتقلُ الكركيُّ مع الدباباتِ
إلى تجويفِ الصدرِ ، وبعد الألفِ الأولى ينتقلُ فيكِ الكلبُ بظابورِ
جِراءِ يتبولُ فوقِ الكليَّةِ والقلبِ وفوقِ الكبدِ)
خَلَيْتِكِ ثم جعلتُ يدي

مغزَلَ صوتكِ فوقِ رمالِ الباديةِ
وتركتُ النفسَ لما يشغلُها من قرآنِ العفو وعدتُ إلى هاويتي .

أ/ لا فاصلَ في ذراتي غيرِ حفيفِ سراويلِ المطرِ الوضَاءِ .

- تجزأُ

- أتجزأُ ،

فلتتجزأُ من حشرجتي الساحاتُ لأفرحَ بالأعلامِ مع الثورةِ توصلدِ
عزلتها وتخاصمُ من يأتيها متَّحدًا .

ب/ لا فاصلَ في ذراتي غيرُ دلالِ الشعبِ .

- تجزأُ ..

- أتجزأُ ،

وأهددُ من يأتييني متَّحدًا .

ج/ لا فاصلَ في ذراتي غيرِ جرائمِ الحربِ ،

تعالوا ،

محظَّياتِ وسراديِبَ وأقماراً بائسةً تتدلى من أعمدةِ الهاتفِ والجوعِ .

تعالوا ملتحمين بقصدير الضوضاء لأفصلكم وأسلم كل فريق فلک القنبلة .
إني وارثكم في النسوة ، أتى الأم على مضجع ابنتها ،
أو أجمع شمل الأختين على شفرة أنفاسي
وأقود شعائركم في ميناء الورد إلى زورق شحن الربّات وأيام الباب
العالي مكتظاً بأنايق الرّندقة .
د/ لا فاصل في ذراتي غير جذور خراسان ،
- تجزّأ . .

- لن تجزّأ في معتقل
أقدر أن أنفذ منه إلى الطاعون . تعالوا
دسّاسين ولوطيين ، تعالوا حشاشين نفاجىء أجراسي .

أصغيتُ إلى العالم
أصغيتُ إلى دينوكا بريفا
أصغيتُ إلى سمّتي ونعاسي
أصغيتُ إلى الحبّ يرندحني في خلخلة العصيان ويفتح السلم
الموقوت بأهداب نساء يتكاثفن ، ويهطلن على مدخنة الفقراء :

أبارك حنجرتي
وأمرٌ على جمع الفقراء يقيمون متاريساً في طرقات قراهم ويغيبون من
النشوة بالرعد الملكيّ يحيى على ذلكله بمناديل دمقس ، وأغيب من النشوة
حين يطيحون بخصيتهم تحت فضاء مطاردتي
وأفهبه في سرداب متصل بينابيع الشعب ،
إذ الشعب يسلمني للأمطار وللطير ، أناديه :
- تجزّأ

أنت ومن يتسول في حاضرة العصر ثاكيل ثاكيل .

أباركُ حنجرتي
وأزاحمُ في خلواتِ الشمسِ نباحَ الأعلامِ بوادٍ يستوقفني :
«حجرٌ وجيادٌ
حجرٌ وخياناتِ بيضاءُ
حجرٌ وصوارٍ بيضاءُ» .

أخرجُ من أعرافي ودياري جندياً من جندي الوثنيين ،
وأخرجُ مرتزقاً بالنحل إلى أزهارِ الغرباءِ
فليكنِ الموتُ إذنُ ملءِ تراباتي
وليكنِ النهارُ رسولَ الإعدامِ ، أواكبهُ حتى مسجدِ أبائي بالأنباءِ
وأنا السابحُ في الياقوتِ المغلقِ والأيامِ المغلقةِ
أنهالُ على لغةِ الأحلامِ العامَّةِ بالطعناتِ ، وأجعلُ وجهَ الأطلنطي
شرفةً مومسةً تتهيأُ للقافلةِ الشبحيةِ
وأخلي جسدي السُّفلي يسوخُ بمزرعةٍ تتشابكُ فيها الدمعةُ والسوسنةُ
وأخلي لنداماي مساربَ حولَ ضفافِ الأبديةِ .

تستوقفني الاعلامُ على الهضباتِ : «صحونا في شرقيّ الحلم
وناديناك تمتعُ بالصحراءِ وخذها حافيةً في الصيفِ إلى لينِ فراشك»
والاعلامِ اقتحمتِ رائحتي وانتظرتُ في صالونِ الماءِ
وانتظرتني الأبديةُ أن أتراققِ والوحيَ على حافاتِ براعمها
أو أضربُ بعصايَ على ليلكةِ الأرواحِ لتعقدَ حكمتها أطفالاً يرتحلون
إلى موعدِ قداسِ الظلماءِ
وغزالاتٍ ليس تُترجمُ ، وأترجمها ؛
«كلُّ غزالٍ فاتحةٌ»

وأترجمُ في الهضباتِ الأعلامَ : «صحونا ورأيناك شطيئةً
تنقلُ عائلةَ الرملِ إلى الخوذةِ ، والعربيُّ إلى ذاكرةٍ في صوديوم الكونِ ؛
دعوناك باسمك ،

ودعوناك بإسمِ الماسةِ والمرجانةِ : كنتِ بلا مددٍ
وجهاًتُكَ تتراخى كالعضلاتِ وتُرخيكِ ،
وكان النملُ يجمعُ ما يتهاوى منك على الأرضِ خليةً

فخليةً

فخليةً

وتقومُ على هيئةِ مخلوقٍ مرصوصٍ بحجارةٍ ما قبل الميلاذِ وما بعد
الميلاذِ ؛

رأيناك تصيحُ : «أنا براهماثيُّ النملِ أسير به في ملكوتِ حدادي .
فقتلناك» .

أباركُ حنجرتي

وأزاحمُ في خلواتِ الغيمِ نهاري علماً علماً نحو سنابل دينوكا :
«ماذا يفعلُ مثلي إلا أن يستفردَ مثلك للقتل ، وأن يتقصى أعضاءكَ
بعد القتل ويخرجَ مجنوناً يطلبُ موتَ الإنسانِ وموتَ البحرِ وما سوف
يدبُّجُه المستقبلُ من فلزاتٍ وأكاسيدٍ لخلقِ أجنثه؟

ماذا أفعلُ وأنا خلفُ الشجراتِ

أنتسّمُك اللحظةَ ؛ أنتسّمُ رائحةَ القشِ ، ومن صوبِ بغالِ الخطابينِ
غماماً ومواسيرَ يصادرها الدُّرُكُ الأجلافُ . وأجزمُ أنكِ راکضةٌ بالصندلِ
والبارودِ إليّ ، تخافين على أحلامي من أحلامي وتدورين على قنطرةٍ بين
ضفافي وضفافِ الجسدِ الملقى تحتِ فوانيسِ الجميزِ . تخوضين من النهرِ
حوافيه ، يداكِ على مُشتمَلِ الثوبِ ، وخشيّةُ أن يبتلَّ ترقانُ أمامِ هياجِ الماءِ
وترتفعان ، ويجفلُ من تاريخِ الفخذينِ حَبَابٌ يكتبُ للأجرامِ رسائله

القمرية . أجزم أنك تختطفين من الحياتِ المشقوقةِ في أعراسِ الطمي
مفاتيحِ النهر وتقتحمينَ رمادَ أسافلهِ وأعالیهِ إلى قاعةِ أشتاتي
عاريةً إلا من بعضِ نثارِ الطَّلَعِ على الجبهةِ والأوراكِ ؛ أحاذيكِ وأرسمُ
شهوتنا في دائِرةِ الخطابينِ ، الدركِ ، الصوتِ ، اليابسةِ ، الخشخاشِ ؛
أحاذيكِ وأنقلُ شهوتنا في حوصلةِ الرُّزُورِ إلى ميعادِ الشجراتِ » .

مَنْ أوقظُ في خلواتِ الجغرافيا بَعْدُ ليشهد لي وعلميٍّ ومجزرتي
تَسْتَسْقِي من أحواضِ في مَفْتَرِقِ العالمِ واللَّهِ؟ توصلتُ إلى الوديانِ
لتسبقُ أصداءَ جناحيٍّ إلى أكواخِ جائيةٍ ، وإلى تلميذاتِ يهتفن لأجلي
من أسوارِ مدارسهنَّ ؛ توصلتُ إلى حَدَثٍ يختصُّ له الساخنُ والباردُ
واليابسُ والرطبُ ليلبسنِي في حفلةِ تنويجِ الديمقراطيينَ خلائفَ في
ممتلكاتِ القلبِ .

أهتفُ : فليهدأ هذا القلبُ
المُحُ كلُّ شريدٍ يربطُ ناعورتهُ ويضمِّنني كزعيمٍ من زعماءِ العذريينَ ،
وأسمعُ كيف يثرثرُ عني العصفورُ الوطنيُّ لجأتهِ الوطنيةِ ، والنخلةُ
تتهياً لملاقاتي

وأنا خلفِ حصاةِ التأريخِ وإدلاجِ الشجراتِ
أبعثُ هاويةً في هاويتي
وأسدُّ ثقوبِ كواكبِ أتباعي بالفلينِ وبالفرحِ المندوفِ وأمضي للجماهيرِ
تتوافد من أقليمِ السُّحْرِ إليَّ معارِضةً وتحاكمني .

(كنتُ أقاتلُ واللورداتُ يقيسونَ على شرفاتِ فنادقهم بالناظورِ
مساحةَ أشجاني
ونواميسِ الرُّهبةِ ، حيثُ يحومُ على سُرَّةِ دينوكا ملكان من الثلجِ) .

وأمضي لجماهير تملأ محكمتي
بمصايح عناصرها ؛ اكتشفتني وكشفتُ لها سبب النار وعدتُ إلى
هيبةٍ رعدي أتوضأ كي أُقتلَ في الصيفِ أو أنْ يشاكهني الموجُ ويخطبُ ودِّي
السَّعْفُ

وأوانٌ تباغتني الحورياتُ على رافد دجلة
بدفاترهنَّ فأملني من كلمات الدهر فصائلَ كالألعبِ الناريةِ والذاكرةِ
المحتلة . أمضي ،

قلتُ غداً أمضي لغدٍ يتراجعُ أو ينعطفُ
في زاويةٍ قبل حدود الإنسانِ :
سمعتُ الإنسانَ يرتقُ حاضره ويموتُ فهرولتُ إلى السنبلةِ
لتبلِّغِ دينوكا أني قادمٌ
ومعي بعضُ الأعذار على ورقٍ خشبية أن أتلعثم حين ألقاها ،
ومعي هاويتي .

بيروت ١٩٧٢

الكواكب المهرولة صوب الجبل

لمجاعات تنهدد أيلول يناهض أبعاده في الدولة والضوء وينساب زلالاً
في أيام خلأثقه المدهشة

ويعارضني ، فأعارضه : لَكُمْ وافاني بنبيذ وغياب كنت أضم يدي
وأهبطها بمواجع أهلي عديمياً أحسب أن الملك يجيء بملك ، والينبوع
يجيء بينبوع ، والأقطار حبالى بتوايح لا تستأخر طعنتها حين تُشرد في
الدّين ؛ ووافاني في شرك العذرة بالأنثى حيث يطالعها الفجر تقول : اعد
بي يا فجر لأعطيك قبائل لا تسأل أين تموت .

وأفتى للوحدات بأن تخرج من أبواب الصحراء إلى سادتها المنتظرين
على الساحل ، ثم أناخ غوايته في هاجرة تلتف على الشجر المستنفر
والأعشاب ، يقول لافق يتقدم : عد ، للأنهار : أعيدي .

وتغافل عن أحزان راسية حيث أناخ ولم يفصح عن غده لمراكبها .
ويجاهر أن ملائكة نادته وراء قواقعها الخضراء فحاصرها وأبى إلا أن تسقط
ما يشبه صوت الجنة في كل حصة هائمة حتى يغشاها أزل آخر . كان
الموفد في تاريخ ١٩٧٠/١١/٢١ ليباشر آيته بين الخلفاء المغتربين ببعثات
اللغة اللاتينية والصمت وأشياء ترن إذا اجتمعت سحب داجنة كالعنقود
على مدخل غبظتهم . أذكر في تاريخ ١٩٧١/٥/٨ عاد إلي شقيقاً فرحاناً
بما يجعل عاصفة عاصفة ، والشريان أغاني تبعث بحقايبها الملائى أحذية
وأناجيل إلى الأعداء ، وخاصرني ، وتحدث عن مجتمع فخل ، فمسحت
على راحته ورفعت يديه إلى مكمن ريف ملقى تحت جناحي :

«- ما أحلاك . .»

ونكملُ نزهتنا في إزهابِ الفرحِ الذَّاهِلِ بالشَّعرِ على شاطئِ أوروبَّةَ ،
لا نستأنسُ إلَّا ترفَ الإنسانِ بنا ، ونُشيعُ طبائعَ تصطادُ عرائسَ رائحةً أو
غاديةً في فئبٍ رمادٍ يقبلُ في مِثْرِهِ الكنْسيِّ . وكان . وكنتُ أفْتقُ جلدي
عن مملكةِ تلجأ - قبلَ بلوغِ الدهرِ منازلَهُ المعلومةَ في الدمع - إلينا ، وكلانا
بادي القَدْحِ يرُدُّ عن الجبهةِ خصلتهِ بعنادِ المتدَلِّلِ :

«- ما أحلاك . .»

ونشردُ في الخضرةِ ؛ في تدفاقِ الأرضِ إلى أرضِ تنسلُّ من الوطنيةِ
حتى يتهلَّهَلُ ثوبُ ثوانينا فينكسُنَ لحاظاً أو يتورَّدنَ من الخجلِ الطارىءِ . .

في تاريخ ١٩٧١/٦/٢٩ دخل عامه الثالث عشر .

في تاريخ ١٩٧١/٩/٣ جمع حوله حشداً من الصبية

وتوجه إلى البحيرة القريبة ليتزوج بالماء .

في تاريخ ١٩٧١/١٠/١١ دخل السراي لينذر القائمقام بأن ابن خَلْوِ

قد خرج من نصيبين وأنه قادم لقتله ، وفي اللحظات التالية للانداز كان

رأس القائمقام يتفتت تحت طلقتين من عيار ١٢/م . أطلقهما تابع ابن خَلْوِ

الذي أوصد باب مكتبه وراءه وسار بهدوء بين أفراد الشرطة المرتجفين إلى

حيث ينتظره سيده خارجاً ، وتابعا طريقهما عبر مخافر القرى المنتشرة لصق

الحدود التركية .

أنتَ ، إذن أنت معي ، وخواتمك الفضةُ والأسنان الذهبيةُ

أنت معي

عشرات من أعوام القَطْر خَلَوْنَ وَأعوام مقبلة ، أنتَ وعيناكَ وصدركَ
والخِصْرُ وحوضُكَ هَيَا تَنَامَرُ فِي الأحوالِ المُحدَثَةِ

بقوانين البحر على رُسُلٍ يفتسمون ثُرَيَاتٍ مغيرٍ يُحصي البجعَ الداخِلَ
مخفوقاً بالأناقض وبالشهب . اجعلني حيال يدك وصدرك والخصر ، ورُدُّ
عن الليل المستسلم لي بحواشيه جسور الليل ، وهَيَا تَنَامَرُ فِي الأحوالِ
المُحدَثَةِ .

لكأني بالمستوحش من حيوان الوعر تجادلُهُ النار فيركضُ ناقوساً في
أقنية المَلَأَ الرباني لِيخلع حنجرة الهور على بَكَّة ، أو سربال الخلجان على
بلد يتمطى في خوذته . وكأني ببنات القَصَبِ ارْتَعَنَ فَأخفين سفائهنَّ عن
الجدول حيث نصبٌ ويجري حشدُ الأقمار إليه ويتبعنا لمصبِّ بين حقول
الجنس . . هَلُمَّ وقلِّ لبناتِ القصبِ : اجرحن أعالي البدعة ، قلِّ : أو عزنَّ
إلى الأيام فلا يصعدن مضاجعنا حين نكوُنُ عرأةً ننزحُ بالقتل العذبِ إلى
جسد يَرْفُضُ ، وامتْ لأموت ، لأعرف أنك لست معي .
ها أنتَ وخصرُكَ ، صدرُكَ ، عيناكَ ، تكيدون لأحوالي المُحدَثَةِ .

وأكيدُ لأحوالي حين تعرَّجُ عن فسطاط دمي ، وأهبُّ وحيداً في ذاكرة
الشیطان هنا وهناك ، وبني وهنَّ يضرب خيمته بجوارِ الدمعة والبؤبؤ ثم أحرَّ
وقد أوصدني المجدُّ عليه بكيدك . هنا أنتَ تُضَافُ إلى من غرّوني يوم اشتبه
الثلج على الطرف الغربي لطوروس عليَّ فَحَيَّيتُ أرابنه في الأوكار ،
وحَيَّيتُ بيوتَ القرويين المرخية فوق سرير شريعتهَا ، وأنا أتوهمُ أن الثلجَ
أميراتٌ ينثرن حبوبَ القمح لعصفور ظلِّ يلازمي . وسمعتُ الثلجَ يُلَقِّنُ
كلَّ صدى أن يكمن في أثناء خطاي وأن يتزوج في أثناء خطاي وأن
يحرثني في كانون بزوجين من الإنسان . . أتسمعي؟

وسمعتُ فروقَ الغيمِ ترجُ كتابها فتعدو هاذيةً بأهالي الحلم
المهزولِ إلى كفني ، فيفرون به لجسوم حشرت بين ركام جهادي ، وتمتني لو

أَنَّ شقوقي امتلأت بشعالب «ماردين» و«عنتابة» . . تسمعني؟

أمس سمعتك ، أمس فتحتُ جراحي للمجنون من الطير تصيح :
«لأنت المفضلة»

ولأنت البارقُ . . صحتُ : «اختطفيني» .

أمس سمعتك ، أمس شطرتُ على جذع الوقت شؤوني
وتقدّمتُ تحفُ بك الأسلحةُ

وحماماتُ الرعب . . أسمعني؟

أنت تحبّي عني ذريتك المجهولة ، أنت جميلٌ وأنا المحرومُ أحبّي
عيني من الغيرة إذ ينفلتُ النخلُ الأفريقي من الطقس ويأتي
العيّارون . . أسمعني؟

فإذا قضى الأمرُ فإني

أتحولُ عن غامر فتحي نحو خرابٍ أحزمهُ

وأطوفُ به الصينَ وروسيا والبلقانَ وكشميرَ وما ليس بأرض بل قبعةُ
ينفضها المرتحلون من الغبرة . إني مرتحلٌ بخرابٍ ومقاديرٍ أصيبُ بها مجزرةً
تنهياً للجيل ،

أو امرأةً تنهياً للجيل ،

أو الله ؛ أصيبُ بها الله وبشرًا أجمعُ فيها الناس وأردمها ليعودوا بعد
الموت كلاباً وفراشات تتمدحُ بي وأطاردها بين وهادٍ جروحي

ولیکن الإعدامُ هو الحكمُ الثقةُ

في إخلاقي لنسيج الكون وللرغبات العجمية ، هل تسمعني؟

وسأرتاحُ لأبلو كلَّ جحيم وجنين ، وموازيني المهزلةُ

وسأرتاحُ لأبعث في الشوح

وبقية أشجارٍ وهبتك ملامحها ، خدمني ووصيفاتي

ليقولوا : عاد ثرياً ؛ وأعود سياسياً وثرياً أخطبُ في صالات النقرس
والتيفوس وأمراض المفصل عن فيتكونغ الجنة ، أو أجترحُ العفَّة بين القوميةِ
والأحشاءِ وموكبي الأقطارُ المقبلةُ
وأنا أعرفُ أني المُشكِلُ في صُحفِ المنتظرينِ قدومي ،
وأنا السائحُ في فقهِ العصبيةِ
تتناقلني الوردة والهدهدُ ، والأحفاذُ يستون لتقويي رابيةً تأسرها
الحشراتُ . . أتسمعني؟

أنت تراني وتراني السالبةُ
في مضطربٍ وثنيٍّ وأحلُّ عُرايِ أمامِ البهجةِ واليأسِ ؛ أحلُّ فؤادي
فتظيرُ مشاغلهُ المهملَةُ
وأسمي من أحببتُ ومن أدخر الحبَّ لهنَّ ، وأشهدُ بالغرابةِ والحرمانِ
لنفسي ثم أموتُ :
«إلى أين سيجري النهرُ؟ ، إلى أين ستجري الوردة والفتياتُ؟ إلى أين
ستجري النَّفسُ وبيروتُ وعزفُ العمَّةِ «أرواد» على وتر الليلِ؟»
أتسمعني؟

أسمعك الآن ، وها نتحدث والفاصلةُ
صوتكُ أو صمتكُ ، فلنتأمرُ كلُّ في موجته وضواحيهِ ، وهياً . .
في تاريخ ١٩٧٢/١٠/٨
كنتَ تتمتمُ ، كنتُ أتمتمُ ، واسمي ما زال سليم بركاتُ

بيروت ١٩٧٢

مبعوث الفراشات

أ

باسم الجبل الواحد في أحزاني أتقدم ..
لن يسلم ماء ،
أتقدم ..

لن يسلم حلم يتواتر عن أول موت ختم البحر به آفاقه
واستنسر في يابسة الهجرات المبهورة بالشجر السري وبالأطفال
يسيرون فرادى فوق نسيج الصوت ويلتحمون أمام نشيد الشجر السري ،
وبى أتقدم منهوراً كشعاب يجرحها الفلاحون بأقدام الثيران . ضميري
«مايسترو» في جوفة أتراب أحملهم في السير إلى مشكاتي وأخاف الردة
حين أصرح بالبدء الموعود وبالغابات تفتح خلجاني بحريق ذي أدب
عجري ، وأخاف .

(لماذا؟)

وحدي في أباري قد أخلق أتراباً
يحترمون جنوني المفتوح على زنانات الزعماء) .
وفي الجوفة إذ أتقدم أعصب خطواتي
وأحب على مفرق كل طريق قبراً أردفه خلفي وأتابع ..
(تسبقني أنطاكية الجهر ويافا وعمان وتسبقني غرف وعرائس
أودية وأقاح ومناورات . تسبقني أحذية القرويين لردهة أيامي) .
في الردهة حين تُفاجئني الثورات أعلق أيامي

وأبأشُرُ بالأسئلةِ المعتادةِ عن عصفورِ أمِّي يتنقَلُ بين صناديقِ البارودِ
وبين الخوذاتِ المسكونةِ بالأسماءِ ، وأسألُ عن صحفِ الثورةِ والأرقامِ
العلنيةِ في أسفلِ كلِّ ترابٍ يأتون به من جهةٍ نشرت حُلَّتْها فوق حبالِ
الفقراءِ ؛ وقد أسألُ أياماً ،
وأعلقُ أيامي في الرذهةِ حتى تنشقَّ :

(يا ثوراتُ انتسبي)

ب/

ألواني مآدبةً وفراقي
عن زحفِ الشرفاتِ إلى سَعَفِ الصرخةِ تابوتُ .
ونواعيرُ الموجِ السَّاقِي
تنقلُ رَقْدَةَ أعشابِ الطعنِ لساقيةٍ تتوزَّعُ في ساقيتي ؛
أعرفُ ما يكتمني عن لهبِ الغصنِ وعن سفنٍ تتحركُ في ساقيتي
وأرى ساقيتي
تنهضُ خلفِ جنائزِ هذا الجسدِ الخلاقِ .

ج/

أتقدِّمُ ..
عن كلِّ يدٍ في فلكي حُمِلتُ النخلَ وسرتُ أدرجُ أجراماً وموائيقَ
شهدتُ لها في نَزفِ الأفراسِ بما لا أعلمُ ؛
عن كلِّ حصاةٍ جادلتُ نزوحي وحميتُ ثغوراً كانتُ تتكاثرُ في هرمِ
الأعضاءِ ..
وقفتُ ووجهي يتقدِّمُ ؛
(ماذا تجمعُ لي أنستي البدويةُ من سفحِ قروحي؟)

أقراطاً؟

حزرأ؟

صوفاً لخيام ضاقت عن طوفان العَزَلِ الغربي؟ تُرى ماذا تجمعُ
أنستي البدوية من آنية البحر الكاريبي وبحار تشربُ نخب زفافي
لفتاة عمياء ترى قلبي من ثقبِ العالمِ مبثوثاً في الوردة والعصفور
وفي الغواصات؟)

وقفتُ ووجهي يتقدّمُ :

لا بابَ لنهر يقطنُ قنبلةً في جغرافيةِ المجد ولا بابَ لخيمة جُندي
وأنا أتوسّدُ خطواتي منبجساً من ورق يتساقط كالأنفاس .. أصلحُ
بين عقارب ساعات المسيسيبي والفلوغا ..

يومٌ

يومان

ثلاثة أيام

أربعة ..

سقطتُ أشهرُ هذي الدورة بين فتيلين ولا
خَفَقَ لكعب العالمِ في حاشيةٍ تستبطنُ أغنيتي ..
النهرُ يطيحُ ،
الجنْدُ يطيحونَ وأغفو :

(للمشوح تهادنُ أنستي البدوية دمدمة العجلات وتبتعدُ
وتنبهُ في أسرارِ المجتمعين على بؤبؤ عيني نوارسَ مجزرةٍ وكلاباً
أسألُ أنستي عنها في الليل وأبتعدُ
مُحتَجِباً خَشِيناً كالأفق المشكوف أعاندُ
مرساة ولاداتي الحجرية في معطف أمصاري)

من يتقدّم؟

حين يضيعون أراهم بين يديّ يفكّونَ خيوطَ حناجرهم ويطلونَ نهاري
وأرى أنستي البدويّة تمايلُ في نبعٍ بشريّ يهتفُ للأعيادِ وللشبانِ
ذوي البشرات التّركيّة :

(أسلمتُ لأنستي بالي)
وكواكبُ تقصفُ بالي ،
أسلمتُ لأنستي قَبعةَ الأحراشِ وسنجابِ خيالي)

/د

فلتهربُ عاصمتي في فوضى القُبلاتِ وفي أبدِ الظلِّ الداخلِ ،
ولتقبلُ من حيثُ تشاءُ الأبراجُ المرفوعةُ فوقِ عواميدِ الحشرِ فإني
ألغي جهتي وأسلمُ تسليمَ الفاتحِ . حين أفيضُ - على اللوتسِ ،
والبرديّ ، وحين تصاحبني الأهوازُ ونرقصُ ملتقّينَ على فرقِ الغيشا غاباتٍ
غاباتٍ :

(أنستي اقتحميني)
واقثميني طابورَ العشبِ ، خذي
من كلِّ هلاكٍ زوجينَ وعودي
لقراتٍ خلفَ قراتِ اللهبِ الضامِرِ واقتصدي
في غزَلِ جنينِ تحتِ الجذرِ القوطيِّ وقودي
وانتظريني يومَ يجيئونَ إليكِ بثلجٍ وأساطيرِ) .

جذبتُ المُلُكَ وأرخيتُ
وعذتُ المُلُكَ وفارقتُ

وبين إشاراتي انتحرت قافلة دثرت لها حُزنٌ نهاوند . وماذا؟
أتقدّم وأنا أمسكُ عصفوراً وأشمُ جناحيه ،
أشمُ المنقارَ ،
أشمُ الريشةَ تلوَ الريشةَ
وأكرّرُ شمَّ الرُغبِ المحفوفِ بعينيهِ ،
أكرّرُ مَ قوادمه وخوافيه . . وآه
(هل تسمحُ أنستي أن أعلنُ أن لها رائحةَ العصفور وأنَّ لإبطيها
زمناً يتنفسُ مائي؟)

أتقدّم

أتقدّم

ها قلبي في الذرّوة حيثُ أمهدُ للسيلِ ،
حنانكِ يا قبرةَ الماءِ اغتصبيني .

١٩٧٢/٢/١٢

قنصل الأطفال

تصريح ١

(هكذا الأرض) :

نعاسٌ سيدٌ، جفنٌ كليلٌ :

(هكذا الأرض)

ملاييكَ زمانٌ - حيثما خبأتَ في مقصورة الموت المناشيرَ - عليمٌ :

(هكذا القتلُ)

زرافات يجيئونَ : الحوأةُ ،

الخطباءُ ،

الحرسُ ،

الجنُّ .. سلاماً

أيها القتلُ خبائي ماجنُ الفيض .. سلاماً

كلما سابقتُ أرضاً

أتصبى عُذرةَ الماءِ تقيأتُ .. سلاماً

يا هوى آلهة الرملِ تخطتني الرمالُ ، ابتداءً النزفُ وفي حنجرةِ النزفِ

بقايا أم تذوي ، انفجارُ الحجر العذريِّ والطيرِ ولغم الأزمنة .

أيُّ نعلٍ يطرق الليلةَ صدغَ النَّهْرِ النائِمِ في عيني؟ والعيسُ - التي

عاجت على فارسَ ترعى سُؤْرَ إِمساء - أساطيرٌ من الجمرِ حيونا فوقها ،
التمتْ علينا عُصمةُ الفرِّ وأبقتنا نواطيرَ على الصبرِ السديميِّ ؛

شعيرٌ ،

مزودٌ ،

ماءٌ ؛

(هو الرمحُ الذي يرصدُ فتحاً؟؟)

كللوني

كللوني

برفيف الدُّبُقِ العصريِّ والتبغِ وصمت الأحصنةُ .

من هنا - حيثُ الخلاخيلُ تساقى حكمةَ الواعظِ جنساً تالفَ الرُّعشِ

- أسوي

شجني غمداً على فصلِ الهتافاتِ ، أسوي

جسدي حلوى ، أسوي

خافياتِ الدمعِ عربوناً على عُريِ مجيءِ ..

(ربما أخطأتُ)

هذا ورقي أبيضُ كالفقْرِ إلهي

تصريح ٢

كيف أهرَّبُ عصفوراً يأتي من عاصمةِ الشحاذينَ على باخرةِ الشرقِ

الأوسطِ ، كيف أغيَّرُ منقارهُ والجنحينَ؟ حرامٌ

يا باعةَ أنتيكاتِ فلسطينَ حرامٌ

هذا العصفورُ يغنيُّ للتقويمِ المكتوبِ على قمصانِ الشعراءِ ، ولوحاتِ

الرسامينِ المقلوبةِ في صالاتِ القامشلي ..

كيف أيا بلداً يتعلّق بالأغصان ويقفز نحو السطر التاسع والتسعين من
الترجمة المخلوطة Love Story أبدأ بالتدجيل على الأطفال وبومارشيه؟

أدعي هذا هواءً

أزعرٌ يعتنقُ الدسَّ وأملحَ الرُفأةَ

يعشقُ القرشَ ويزني

بالذي يزهرفُ في خاصرةِ الأرضِ من النبضِ ويزني بالحياةِ

(ارقصوا إذا شئتم ، أرفض الاحتجاج)

سأبدأ :

الجزراويُّ وعصفورهُ ينطلقانِ من الشُّباكِ المغلِقِ نحو الريفِ ،
يحطّانَ قليلاً ؛

يتبولُ خلفَ الأحجارِ العصفورُ ،

الجزراويُّ يدخُنُ .

ينطلقان .

الجزراويُّ : هلالٌ خلفَ الغابةِ معصوبُ العينينِ؟

ترى كيفَ يقودُ خطاهُ؟

العصفورُ : الأوراقُ دليلٌ ..

- هل يعشقُ جنّيةَ هذا الليلِ؟ أراهُ حزيناً ..

- يعشقُ جنّياتِ؟! .. ها ها ها

- لوطني يقرأُ أشعارَ أبي نؤاسِ ..

الجزراويُّ وعصفورهُ ينطلقانِ من الزمنِ المحتلِّ المغلِقِ نحو بروجِ النملِ

ويختبران ثقافاتِ الأفلاكِ ،

الأرضِ ،

الماءِ ،

الأبقار ،
الجزراويُّ وعصفورُهُ يصطحبانِ قواميسَ لغاتٍ عَصْرِيَّةَ
لغات تكبُّرٍ في الأرحامِ ،
تضيقُ على الأرحامِ ،
وتصعدُ حتى وكِر الصَّقْر مع الجزراويِّ وعصفور الجزراويِّ ؛
الشوازُ يحبونهما ،
ويحبهما الخطفُ ،
الثورةُ ، والأغصانُ الموقوفةُ
في زناناتِ البحرينِ : الأبيض والأحمرِ ..
تهتفُ إن مرَّ أَرْصَفَةُ الشامِ هَلا .
أجزراويُّ وعصفوره ينطلقانِ من الثلجِ الساحرِ نحو فصولِ الماءِ وأديرةِ
العشبِ ، يحطانِ قليلاً بين رحابِ الدمعةِ والأشجارِ وينتسبانُ :

الجزراوي :
جَدِّي الماءُ ،
أبي
أمي
أرضانِ تكسّر بينهما التَّبْدُ وكسّرني الماءُ .

العصفور :
صوصو
صوصو .
ها
يتلملَم بين الجزراويِّ وبين العصفورِ شرارٌ مكتوبٌ بالأظفارِ

ومصطلحات الإصلاح ،

الجزراوي يُغني : أه

العصفورُ يغني : أه

ديكٌ : أه

ناسٌ : عاش

عاش

عاش

يسقط

يسقط

يسقط .

عُصنٌ :

خبيء الليلة للعام الذي يأتي أناشيدَ عن الأعمار والدفنِ ، اسطواناتِ
مديحٍ ليد تُقبلُ من حيثُ ترى القفرَ .

أحتفالٌ ،

دبكةٌ ،

عرسٌ ،

مواويلٌ . .

تصدعتُ من المدِّ الذي موهَ عزفَ البلدِ الراجعِ من مقصلةِ البحرِ بلا
جلدِ يواسي عظمه الضاربَ في الريحِ وأثأتِ الوفودِ القلقةُ .

عُرّتي مقصوصةٌ والشفقةُ

حجرٌ يكسرني ،

أكسرهُ

ثم أحتالُ على وجهي بمثقالٍ من الضحكِ وأهذي :

كبريائي

كبريائي
آه يا زوادة الشرخ الحضاري ،
أحييك بتابوت من العاج وقمل ونصال شبة .

تك . . تك . . تك . .

أجزراوي وعصفوره ينطلقان بلافتين^(١) وأوجاع مثل الفلفل ،
يخترقان الدم
الدم
الدم
الدم
الدم الدم الدم
ويحترقان .

(١) اللافتان :

٢- لافتة إلى شرفات المهاجرين :

أرصد الداخلين
أرصد الخارجين
أرصد الوقع في لغة الخطوات ،
أرحمي واقفاً
خلف أتعابه يا يداً لا تبين .

١- لافتة إلى مدوح عدوان :

عالمي واسع
عالمي كرة تتدحرج بين الظنون
عالمي بينكم
فانكروا ما أرى
وانكروا راية أعشبت في عيني .

أخفضُ الآن جنحي للصرخة
أضحكُ الآن كي أجرح الآخرين
وأطارُدُ ما شئتُ من شجراتِ البتولا مدججةً بالملائكِ والحاصدين
أعاتبُ؛ عودي ..
أعاتبُ: ملفومةٌ شرفاتي، عودي ..
فتغلقُ أعصانها وتطيرُ .
وأطارُدُ ما شئتُ من حجلٍ تتقاذفه الجالياتُ .
أعاتبُ: عودي
لنسقطُ في شركِ السائحين ،
أو لنسقطُ في ثورةٍ مثلما يسقطُ الثائرونُ .
منذُ ودعتكم والسفارات تمتلىءُ ،
البارُ يمتلىءُ ،
الحربُ تمتلىءُ ،
الحلمُ يعلو ونارُ السفيرِ
تتهجى مواقدَهم واحداً واحداً ..
(هل أكونُ السفارةُ كي تطمئنُ حقائبهم والطرودُ التي تحتوي رأس
طفلٍ؟ ..)
عرفتُ الجنادبَ غاديةً والغديرِ

يَتَخَبَّطُ كَالدَيْكِ فِي مَائِهِ .

٢

وأخيراً
أشهدُ مسرى الوردِ في حنجرِةِ المحظياتِ وأجرفُ ناري وجسوري .
أستبدلُ واجهةَ البحرِ بتابوتِ
وأقيمُ الحفلاتِ على شرفِ الموجِ المدحورِ
وأعلقُ نواساً بين الشجرِ
وأعلقُ نواساً بين الله وبين الناس : انتظروا
لأعالي الصينِ تغيّبُ ،
وصاريةُ الفقفاَسِ وقزوينَ تغيّبُ ، وأدخلُ ساعاتي
تحت لواءِ الثلجِ المحلولِ ومخلوقاتِ العنفِ على ملاٍ يحلجُ أغصاناً
داميةً ..
أعلنُ :

هذا مسراي ،
مزجتُ لكم لبني ببيارقِ بيزنطةَ ؛
هذا مسراي ومسرى القبرِ المركزِ إلى جانبِ جذعي ،
هذي مقصلي الخضرِ ،
وتلك جسوري
تدخلُ حاملةً قبعةَ الله إلى ملكاتِ المطرِ .

٣

وأخيراً
عولتُ على سنبلةٍ أنشرُ فوق عوارضِ ثدييها جسدي وثيابي

وأنا مُ إذا لزم الأمرُ ، ولكنْ
 كشفوا الأيامَ معي حاشيةً وجنوداً
 فأغاروا من شِقِّ اليقظةِ يَسْتَعِرُونَ وعادوا هاويةً وتُجوداً
 تَسْتَرِخِصُهَا الطيرُ وتندُرُها بمضاربِ أعشاشِ ؛
 كشفوا الأيامَ معي وتغاضوا عن بيرقِ سفحِ يبكي ،
 وجذوعِ تبكي . .
 وأنا أبكي ،
 أشتاقُ وأبكي ،
 أشتاقُ وأشتاقُ وأشتاقُ ،
 وأطلبُ من ورقِ الأجسادِ مراكبَ للسفرِ .
 فلتترجّلُ آسيا عن صهوةِ أحجاري حينَ تعودُ الأسرَ الملكيةَ عبرَ مضيقِ
 الجرحِ وتشتاقُ وتبكي .
 حينَ أدبجُها حاشيةً لرسائلِ ميعادي وأنا مُ على فخذِ النهرِ فيسفحني
 النهرُ ،

ويملاً بي دورقَ أسلافي ، وما خلفَ الأسلافِ :
 أنا النَّبْضُ ولا ثالثَ لي
 فلتترجّلُ آسيا
 باسمِ الجرثومةِ ،
 باسمِ الصنْدَلِ والحجلِ اللاهثِ ، باسمِ الثمرِ ،
 أترجّلُ ،
 فلتترجّلُ آسيا عن هذا الحجرِ .

٤

أعد . .

أنتِ ودّعتنا ، ما سمعنا ،
وكانت يدك سماويةً والضميرُ
مهرجانياً : سمعناك في البحرِ ، قلنا اصطفي جهةً .
ما سمعنا . .
سمعنا . .

- : جاءَ مرتعشاً واختبأنا ، بكينا معاً . .
- : جاءَ مرتعشاً جارحاً
أيقظَ العسكريّ وتابوته . .
- : جاءَ كالمستجيرِ
رافعاً وجهه ، مالتاً راحتيه
بالمياهِ وخوفِ المياهِ وريشِ الصقورِ .

◦

كلُّ دمٍ يهذي .
كلُّ خليجٍ يستدرجهُ الماءُ إلى الغبطةِ يهذي .
رثتي تستقبلُ أشجاراً وسواحلَ تهذي . .
لو ينهضُ واحدكم ويدلُّ عليّ متاهي
ويدلُّ الغابةُ ؛ لو يتعلّقُ بي ويعلّقُ في جفنيّ زماناً وبلاداً في دورقٍ
هذا السّعفِ القتالِ .
ولو يشهدُ واحدكم ،
نصفُ الواحدِ ،
ربعُ الواحدِ وامرأةٌ ، كي نركضَ في ثورةٍ قوميّ من عاصمةٍ
للبحرِ
لعاصمةٍ

للبحر
لعاصمة ..

ها أنذا أركضُ ،
ها : تنشقُ مياهي ،
يترنحُ طابورُ الجندِ وينفصلُ الذكرُ المختومُ بأثاءهُ عن الثورة ،
أركضُ في ثورةٍ قومي .

١٩٧٢/٧/١٥

«هذا وجهي العصري»

أنا أت

فليرقب كل ملك شحاذ في أرض الردة من أين تحيي الطعنات .
عبر تخوم الغربية في أجفان صبايا الله وعبر الساقية
أختصر الزمن الخائف في عين النسوة ، أزجي الزمن القرشي إليها
لا الدمع ونزف الفقراء ينيخ الرجل ، طوافي
خلف قوافل زغب . . فليرقب
كل ملك شحاذ في أرض الردة من أين تحيي الطعنات .

«هذا وجهي العصري»

بلا نعل أرحل نحو بلاد الفرس وأمصار الروم وأرفع وجهي للظلمات

أسائلها

وأسائل رجلي الداميتين عن الأرض العمياء وهمس خفافيش

سمائي

وبكل مثولي بين يد الغربية أصرخ :

تسهل أفراس الحرب على أبواب الكعبة يا أهل الشام ووحدي

أبسط للملتجئين إلى ظل الأحجار السوداء ردائي

أنتقطع حين ينوس الموت على وجه الحجاج ،

وبين الصدر المشرع للطعنة والرمح الظامي أنتخر ،

أزحم ملكوت الرهبة صدعاً يفصل عربات الزمن اللاهت قدامي

وورائي

أتصاعدُ في أنفاسِ الكعبةِ جمرًا تنفسُهُ الصحراءُ فتحبو
حاملةً هزجَ قبائلها نحو قوافي الحربِ ؛ أزرُ نَسَبِ الرَّاجِلِ بالفارسِ ،
والهاربِ بالثابتِ في الحوْمَةِ حتى يرخي النخلُ النادِبُ جنحَ الدمعِ عليّ . .
أبايعُ في حممةِ الأرماعِ لوائي
أضربُ شرقاً ، غرباً ، ضربَ اليائسِ . . يسقطُ وجهي الأولُ
أضربُ . . يسقطُ وجهي الثاني
أترجعُ بالحجَّاجِ إلى عَرَقاتِ غباراً يتكسَّرُ تحتِ حوافرِ ريحِ الوهنِ
القاصمِ

ثم نموتُ لنحلّم

ثم نقومُ لنحلّم

ثم نفضدُ أوردةً كي نلمحَ في الدَّمِ مجيءَ الأشجارِ مع اليومِ التالي
عاقدة فرحِ الأنهارِ على الهاماتِ عمائمِ .

١٩٧٠

أنا الخليفة لا حاشية لي

يا رب
ها أنذا أتراجع كي تسندني الظلماتُ ويسندني الجرفُ الأزليُّ ، وها
أنذا أرمي حُفري في أطرافِ السنواتِ لكلِ سماءٍ مرهقة .
ها أنذا أسدلُّ أطرافي فوقَ نهارٍ يخذلهُ الوقتُ ويرميه المحظوظون إلى
كلِ نقيضٍ محتفلٍ بي أو بفلولي المذعورةِ ؛
ها أنذا أجمعُ أحشائي
لأريك سلامَ الأحشاءِ ممالكَ تعدو
وذكوراً يندلقونَ من الفجواتِ وينقضونَ ؛ أريكَ رتوقي
ومواكبَ حولَ رتوقي مستنفرةً كهوامٍ ؛
وأنا أدعوكَ لترقُلَ في أبادي المشبوكةِ بالقنْبِ والأقنعةِ الخزفيةِ
ولتبتلَّ بجاهي بينَ سنونوةِ أنثى وسنونوةِ أنثى ، ومخارجِ أقدارِ
محدودةِ يا رب ،

ويا ربُّ هنا أتقادمُ والأنسامُ
عجلى تتأبطُ أرغفةَ الناموسِ ؛
هنا الغوطةُ توشكُ أن تُهزَمَ في كاتدرائيتها ، والأكامُ
نازقةٌ لا يسنداها غيرُ خشوعِ الأشباحِ من المحنةِ .
أدعوكَ :

تقادمْتُ ، وشيخَ في مخدعي المجهولُ وحومتِ الأيامُ
حولَ غُضارِ حنيني للأيامِ ومن يحرقني في ذروةِ بعثي .

لستُ بديداً

لكن الصلصالَ القدوسَ طريداً في سكرتهِ

والأنهارَ مهلهلةً في سكرتها

وغيابات القلبِ توزَّعُ لؤلؤها في تاريخ المدعوين إلى الهديان ،

و«أرواد» تونسوسُ مشرقها وتغيرُ بالهةِ وبراعم شتى نحو الثلثِ الأوّلِ

من ظلماتِ ثلوجي .

لستُ بديداً ،

ها أنذا أدخلُ خلجتي وأفاجئها بمقارع أورادي وضجيجي

وأعيدُ الربُّ إلى سهرٍ موصولٍ بمفاجأةِ الرخوياتِ تدبُّ إلى الليلِ

وتُحْييه بروقاً وذباحَ زاحفةً فوق كسائي السوريِّ ، وتُحْييه عوانسٍ يغسلن

فروجَ الساعاتِ من الطمثِ ، ويخزفنُ مساحبهنَّ الديباجَ على جبلٍ كهلٍ :

«يا أعشابُ ويا أزمنةُ

كسرنَ رجوعَ النهرِ إلى مسجده ،

واقذفنَ إماراتِ الرأسِ إلى حَيْضِ تتبعهُ الأشهرُ شامخةً بأكاليلِ

الشهوةِ والوحدة . يا موتُ ، أيا حلزوناتِنا وقواقعِ عانتنا وأصولِ

الفخزينِ ، استكنِ الآنَ ، فثمةَ عزٍّ يستغرقنا وتهبُّ الأشجانُ المؤمنةُ

كطيورِ النبعِ ، يُقَطِّعنَ مشدّاتِ جواربهنَّ وحمّلاتِ الروحِ .. »

أعيدُ الربُّ إلى أوقيانوسٍ من لقطاءِ الأحقابِ يُصلونُ أمامَ الأفقِ

المترجلِ عن دابتهِ ، ويقومون إليه ليصطحبوه إلى ثقبٍ في فاجعةِ الأجرامِ

الجوّالةِ والكهّانِ الجوّالينِ . أعيدُ ملائكةَ الموجةِ في أعطافي للأحجارِ

وأجهشُ : «مُوجي

هي ذي «أرواد» تراققُ أعمدةَ الأحشاءِ وأقوامِ ثلوجي

فاردةً في الجنينِ مواسمها والأعشاشِ لكركيِّ الدّم» ..

أعيدُ الربُّ إلى أسواقٍ في المفصلِ تستحكما الضوضاءَ وثرثرةُ النسوةِ

حُبلى يتفكهنَ بأقمشة الإيمانِ ويكتبنَ صفاتِ أجنَّتِهِنَّ وشرخاً يحشدنَ لهُ
في الرحمِ بساتينِ معقَرةٍ بمناخِ الجسدِ الوهاجِ ، ويقرعنَ زجاجِ المفصلِ :
«يا أعشابُ ويا أزمنةُ

عرجنَ علينا نשמَلُكنَّ بعَصَفِ وشعابِ أهلةِ ،
بالأجناسِ ، يخرنوبِ الألفةِ ، بالنيكلِ ، بالنملِ ، بذبذبةِ الأعيادِ ؛ فيها
خيلاءُ مفارقنا ،

ها داليةُ الذكرِ المجهولةُ بينِ دوالي الأضلاعِ ، وها نحنِ بلا موتِ نتناثرُ
في الموتِ حريصاتُ أن تتفتَحَ كالأعرافِ على العبثِ المجنونِ . تقدَمَنَ
لنفسحِ لانا ملكنَ مكاناً بينِ ضفائرتنا والأغشيةِ المحلولةِ في الرحمِ ،
لنجلوكنَّ عن البازلتِ المنزّهِ في الشريانِ إلى شريانِ بغالٍ تهادى خلفَ
بحيراتِ عجيزتنا .

يا أعشابُ ويا أزمنةُ
نحنُ أعزناكنَّ زيبِ النيروزِ وهودجِ مأمنا ورحلنا مُتَحَباتٍ تننفسنا
الأسرارُ الأفلةُ

ورأينا أن نجبلَ قبلَ الجوعِ فأسندنا لليأسِ سلامنا وشطبتنا
آخرَ جمجمةٍ للأرضِ وللدهشةِ .

أين قرأتُ صلاةً؟

أين خلوتُ بناراً؟

هي ذي «أروادُ» ، أعيدُ الربُّ إليها وأنا خجلانُ من التعبِ الخوذِي
ومن إطراقِ مسوخي المرتظمينِ بدهلينِ البشريةِ ؛ لا يستعجلني شيءٌ ، وأنا
أستعجلُ سَرُوي ومحاريثي ، لنسيرِ إلى مُبتدأِ الفطرةِ نشغلُهُ بعذابِ
سلاطينِ يلتجئونَ إلى نرجسةِ الطوفانِ ؛ وأضطهدُ الأرواحِ وما تخفيه بطونِ
البرمائياتِ المدحورةِ في إقليمي ؛ في إقليمِ يستعجلني ، وأقاليمَ ترفعُ عن

آيتها قدام مالك السُّبُل . .

ربي

أيُّ دليلٍ يقتادُ خليفةَ ياسي وجناده؟

أيُّ غبارٍ يطلقني من أسرِ طفولته ليكون لأهدابي هذا الصَّفُّ المترادفُ
من جثث الغُرباءِ وآلاتِ الصَّحوةِ والأقلامِ؟ اندثرت أطرافني وأنا أسدلها
فوق مشيمةِ نارٍ يخذلها الوقتُ، ولا وقتَ لأوصدَ نعشي وأؤمَّ نساءَ رمادي
مرتجفاً ووسيماً أفتنُّ جمعاً منهنَّ وأهبطُ بالجمعِ الآخرِ كلَّ جميلٍ في
الإنسانِ لنرثيه ونُحكِمَ إغلاقَ مواجعه .

موتاً موتاً أصطفُ وتصطفُ الأكوأُنُ

والقنواتُ وأترعةُ القبرِ تمرُّ ببعضي كصديقاتٍ وعمرُ الثيرانِ
بقرونِ ذهبٍ ونحاسٍ، وقوائمٌ من فخارِ الملكوتِ فأزجرها
وأطيرُ حيواناتٍ ليسَ تطيرُ، وأركضُ في قططي وكلابي بسحالي الغيمِ،
بعوضِ الرثةِ، الجعلانِ، الخنفسةِ، الإسنيناتِ، الفطيرِ، القُرَادِ، وأحياءٍ متدنيةٍ
أخرى حولِ خيوطٍ تمتدُّ إلى حيثُ يغيبُ الحلمُ وينعدمُ الجيرانُ .

أيُّ دليلٍ يقتادُ خليفةَ ياسي وجناده؟

لا صوتٌ ولا موتٌ

لا أسماءٌ ولا شجرٌ

بعضُ خُريرِ ومساكبُ واطئةٌ ووجوةٌ في خطواتي لا يجمعهنَّ قرآنُ .

ها أنذا يا ربِّ

أسحلُّ دوراً ومنازلَ أو أتلفها بأسيِّد

وأفوتُ على الليلِ ومُنحدرِ الصُّبْحِ فلا يقفان عليّ، ولا تقفُ الدَّيْمَةُ
كالشَّحَاذَةِ؛ أطلبُ شيئاً آخرَ يا ربِّ وأضرمُ إنسانَ المعقولِ كفيفاً كالبحرِ
على قارعةِ الغيبِ، أدويّ؛

يا الصَّاعِقَةُ الرَّبَّانُ

يا أودية المَلِكِ احتبسي بين بكوريةِ غيمي والأضواءِ
واختلقي الأعراس وما يشبه نداباتِ الأعماقِ لِقَسُورَةِ الماءِ
فانا طاع وحنونٌ في تأويل الوحشة بالوحشة ، والإنسان بجبٌ .
وأنا الأبدئي محوط بيتيمات ظلامي يتوسلن إلى الجُدْجُدِ أن تجتاح
ببعض أمومتها هداثهن ، فأقرعُ أونتِي

أقرعُ أونةَ الشهداءِ

أقرعُ أونةَ القامشلي

أقرعُ أونةَ الأعضاءِ المحتلة في سوريا

وأضمُّ بيتيماتِ ظلامي مرتعشاً من فرطِ ضالكتهن من البؤس وأخطو
نحو خرابي :

«يا الصَّاعِقَةُ الرَّبَّانُ

هلاً أرخيت لنا صرّة موت

أو بعضُ أمومتكِ الآن؟» وأخطو نحو إناثٍ يسرخن مع الأمطارِ وبلُورِ
المُشْكِلِ :

«يا أخواتِ انثرن أمومتكن علينا الآن . . .»

ككهل أمضي وبيتيماتُ ظلامي والأبدانُ

من كلِّ صنوف عاقلة تحملُ منجلها في رثتي وتغني لحريق يرشده
النورس؛ موتاً موتاً أتلاحقُ إذ يفلتُ مني الموتُ ، وأحجبُ «أرواد» عن
الأطراف لتبقى مُسدّلةً فوق السَّاحِلِ والأبراجِ تحنُّ إلى

وقت يُغلِقُها كالثلجِ ،

إلى الله ،

إلى كلِّ سماءٍ مرهقة .

هكذا أبعثُ موسيَّانا

أقتلوا روناستا

نامي أيتها الوردةُ نامي
نامي أيتها المهدورةُ مثلي في وقتها نامي
مائة ميل ، مثنان هو القلبُ ، وطينٌ بعد المتين يدورهُ
الخزافون جراراً ويدورون بها حول نُجلياتِ الروح ،
وروحِي باطلةٌ ، نامي ..

مشهد / مهرجان

ها هوذا ينهارُ
ها تنهارُ الأريافُ على قامته
ها تخرجهُ الأريافُ إلى الجبلِ
وتحاكمهُ الأشجارُ
ويحطُّ به دوريُّ ،
ويطير به دوريُّ فوق «بهارنك» على مهلٍ .

مشهد / كورس

ماذا يخبركُ النسلُ القادمُ عنك ،
وماذا يخبركُ الربُّ؟ تفضلُ

كإناث يجرحن طوالعهنّ ، تفضل
لنمسّ خيوطَ يدكِ ونُحنيكَ بلاداً أو جرّساً .

- ستار -

روناشتا
مولأئكْ هذي الوردةُ ساهرةٌ ليس تنامُ ،
ومولاكْ النهْرُ يزيجُ ستائرَ عورتهِ لشعاعٍ من تاريخِ الأكرادِ ويطويكْ ،
فتنهضُ ،

ثم يعود ويطويكْ فتنهضُ ،
ثم يعود ويطويكْ فتستسلم للنهر صبيّاً
تسجّه الساعاتُ بأليافِ القطنِ ؛ أراكْ فأعدو مستويّاً
ثم ألينُ ، ويحدودبُ صوتي محتضناً كل فراغٍ ،
محتضناً ما يعترض الخطوةَ من حجرٍ أو حيوانٍ ،
محتضناً وحشتهُ ملءَ ذراعيهِ ويطويكْ فتنهضُ ،
ثم يعود ويطويكْ فتنهضُ ،
ثم يعود ويطويكْ فتنهضُ محموماً أحرصَ كالأرضِ وتهوي بالأيامِ
على الأيامِ ، وبالسنواتِ على الروحِ ، وتملأُ بالراديومِ ثمارَ ثوانيكِ ،
تدحرجها ،

تدحرجُ بين وريدي وهتافاتِ امرأةٍ ؛

روناشتا

روناشتا

روناشتا

حدّدتُ لكِ الجهةَ الأولى في الإنسانِ ببوصلةٍ وتركتُ الإنسانَ يتيهُ ،

فقاتلتهُ ، وخذْ أُنثاهُ لِأُتَيْك ذليلاً ،
خذهُ وخذْ أُنثاهُ لِأُتَيْك الوَقتُ ذليلاً ،
خذهُ وخذْ أُنثاهُ ، خُذِ الوَقتَ لِأُتَيْك الطيرُ ذليلاً ،
خذهُ وخذْ أُنثاهُ ، خُذِ الوَقتَ وَأجسامَ الطير لِأُتَيْك اللّهُ ،
خُذِ اللّهُ وَقُلْ أعراسي ابتدأتُ

وتقدّم طاغيةً ، أعماقكُ بين يديك تجرّؤها للظّربانِ وخُذِ المائِ ،
وللأرمنِ يقتلعون الخابورَ وفوداً إثر وفود ، ويغوصون إليك بأحصنةٍ ونساءٍ
تعرضهنّ على الريحِ مدى تسعةِ أعشارِ الميَلِ ، وفي العشرِ الباقي تخذلهنّ
وتقطعُ سلكَ القلبِ ؛ تقدّم طاغيةً نحو شمالِ القلبِ وحاصرهُ بعدنكُ
الليلةِ ، أو حينَ تشاءُ ، فأبعادي مترفةٌ ، وشيوخِي يلتحقون بصاعقةِ المجهولِ
وينتظرون عبوري بعدارايَ حكيماً يُلجىءُ أكلةَ الثلجِ إلى عرباتِ الأعيادِ ،
ويذبحُ يُخموراً فوق صدوعِ الأبديةِ كي تلتحمَ الأبديةُ كالمقبرِ ، وينتظرون
فراري إسكافياً بجلودِ الجمهورياتِ إلى امرأةٍ تغلسني وتسوقُ كُرياتي
الحمراءَ وعولاً وحجابَ بين مواسمها ، وتقول : أهدأ ...

هل أهدأ روناشتا؟

حجرٌ تحت لساني ،

وعصافيرٌ خائفةٌ في الأحشاء فهل أهدأ روناشتا؟

حدّدتُ لك الأناقضَ على زاويتي فتقدّم لتوحّدنا الأناقضُ ، لنفصلَ
كل حياةٍ تتناسلُ عن زمرتها ، ونصيحَ أمامِ عراءِ ذكورتنا : أنطلقِ يا
حيواتُ أنطلقِ بين فجاجِ الخوفِ ، أنتظرينا يا حيواتُ انتظري
نحن نحاذي الأرضِ ونضربها بفراشاتٍ مميّنةٍ ،

ونهييَّءُ للعصفورِ فضاءً مجبولاً بزالِ البيضِ ورائحةِ المطرِ
ونرجُ البرعمَ مدفوعينَ بشوقِ المائِ ،

ونفويه ،

ونجثو ،

ونحارُ

من عصيان وسائدنا ، ونحارُ

حين تصيرُ وسائدنا جرساً يقرعهُ المحتكمون إلى الصحراءِ ولاهوت الحجرِ ،
ونحاصرُ سنبلةً تحلم في قفطانِ العاصي بنهارٍ تقضيه على سهل قري

«سنيحا» ،

ونحاصرُ خطأ رجاء الصالح ممتلئينَ جباةً ينصرفون إلى جمع مكؤس
البحر ، وينعزلون بزنجياتٍ يخضضُنَ الزبدَ المدعور ويستلقينَ على أرضفة
الموج ثقيلات كعرائسه ينشجنَ : احترقي
يا حيواتُ احترقي .

ونصيحُ أمام عراءِ ذكورتنا ؛ احترقي يا حيواتُ احترقي

لا منجى للبحر ولا منجى للإنسانِ يحرضهُ الرب بدرعٍ وحزامٍ في
أسفله ويقول : أنهض ،

أسرجتُ لك الأحناشَ ورقاصَ الساعةِ .. إنهض .

ونصيحُ أمام عراءِ ذكورتنا ؛ لا منجى للرب ، سنشهدُ إنسانَ الربِّ
غريباً بين سلامياتِ يدينا يفتحُ قُوَّهُ في برميلِ المستقبلِ ثم يبولُ عليها ،
أو يُدخلُ إصبعه في القُوَّهُ منتظراً أن تربطهُ المخلوقاتُ بكتانِ الجنسِ . .
وماذا بعد؟ سيبقى بين سلامياتِ يدينا نوقظه في الليلِ ونلقي في قَعْرِ
مثانته الأجرامَ وحدوةً بغلٍ وعناكبَ ذاتِ جموحٍ ؛
لا منجى يا حيواتُ ، أ احترقي .

نحن ردمنا شهوتنا ، والأشجارُ

ردمتُ شهوتها ، وهبطنا من سفحِ الصرخةِ للمنحدرِ

نتراشقُ بالكلس وبالاعلام ؛ هبطنا
من تلِّ الوحشة ملء محاجرنا الزيزانُ وبطُّ الساحل قفزاً وقذفنا في
الملكوت بما نحملة فتبعثر ، ثم جمعنا الملكوتَ وبعثناه ، وأمعنا في بعثرة
العالق منه بأطراف غدائرتنا ونفتنا في الأحجارِ هواجسَ ليس تقالُ وعدنا
أسراباً يحزمنهُ فراؤ .

نحن ردمنا شهوتنا ، والأشجارُ
ردمت شهوتنا ، وأفادت نرجسةً لتصافحنا وهي تفيءُ إلى السَفْرِ
وأفاق طريقُ ،
ثم أطاح بأجمعنا الشجنُ السيَّارُ .

مشهد / احتفال

ها هو ذا ، فلكيُّ
يرصدُ أنثاهُ على صفحة عينيه ويشملها بدمقسٍ وثلوج .
ها هوذا يتدافع خلف مُذَنَّبِها في إهليلجه الدُمويِّ ويحصُرُها بين
مباهجِ «بَوَانٍ» سنونوةٍ من أسماءِ التَّعبِ المتباعدِ .
ها حيرها ومشى في حيرتها كالرَّحَالِ ولم يَعُدِ .

- ستار -

روناشتا

روناشتا

حجرٌ تحت لساني ،

وعصافيرٌ خائفةٌ في الأحشاء فهل أهدأ روناشتا؟

حدّدتُ لك الخلجانَ وصاريتي ، فتقدّمَ لنضمِّ كرادلةَ الشّرِّ إلى
سُلطتنا ، لنضمِّ عشائر هذا الأخدود وذاك ، ففي سُحنتنا ما يُنبئُ أنّا
نغتصبُ الليلَ وأوكارَ الأرواح ، ونغتصبُ الوردَ وأشباةَ الورد ، ونغتصب
المعدنَ والمرجانَ ، ونغتصبُ القشرياتَ وأشباحَ الفيزياء . . تقدّمَ روناشتا
لن نترك نبعا لا يشتا قُ إلينا ،

لن نترك خشخاشاً لا يشتا قُ إلينا ،

سنعيرُ أنوثةَ كل دم قيراطينِ من السّفلسِ ممزوجاً بالكافورِ ، ونخفي
آلات حاسبةً وصفائحَ من ألمنيومِ الدولة في جسدنا المظليّينِ بيوتاسِ
الحبِّ . . تقدّمَ روناشتا

ولتتقِ الليلةَ كيف نزيّنُ تابوتَ العالمِ بالأشرطةِ الورديةِ ، والشوراتِ
وأظلافِ الأغنامِ . .

لأنّ غريبَ روناشتا

ومواليكَ على النهرِ ينامونَ ، ومولاتكَ هذي الوردةُ ساهرةٌ تحت غطائي
البحريِّ لِقاحاً مشتعلًا . . روناشتا

إني منتظرٌ أنثايَ لأطويكَ ، وأبدأُ غزواً آخرَ فوقَ عرائي
إني منتظرٌ أخواتي يتسلقنَ سلامَ الإنسانِ ويكشفنَ غطائي
إنّ دمي يتسابقُ حولَ معسكرِهِ ،
ويغافلُ نارَ معسكرِهِ ويموتُ

وتصلي في هدّاته الأحرشُ صفوفاً إثرَ صفوفٍ ويصلي
في هدّاته الخُطافُ ، ويرحلُ قومٌ ، وتحومُ بيوتُ .

جرسُ عينايَ ، وإني منتظرٌ ، وفضائي
يرخي جثتهُ فوقَ سريري . فكلانا
يبعثُ هجرتهُ ويُميتُ .

أنتَ غريبٌ روناشتا
روناشتا
حجرٌ تحت لساني ،
وعصافيرٌ خائفةٌ في الأحشاء فهل أهدأ روناشتا؟

ها أنذا أطرقُ بابَ العالمِ مهتاجاً أطلبُ أنشايَ ، وأنشايَ وراءَ جنوني
جائيةً تربطُ ما يتقطعُ من أهوالِ العالمِ بي وتهيجُ ؛ أهيجُ وأفتحُ أعضائي
لسلالاتِ الذِّكرِ القادمِ في الأعراسِ خلاسيّاً ، وأرئُ :

هنا يا ذَكَرَ الماءِ ،

هنا يا ذكرِ الموتِ ،

هنا يا ذَكَرَ الظلماتِ طريقكُ

حيث أشدُّ اللبلاّبِ إليّ وأطلبُ أنشايَ ، وأنشايَ وراءَ جنوني جائيةً
تعدُّ الأفراسِ مُمْنَبَسَطِ أَجْرَدَ في مملكتي للركضِ إلى أن يقتلها الركضُ . .

أهيبُ : اقتربي يا أنثى الماءِ ،

اقتربي يا أنثى الظلماتِ ،

ويا أنشايَ اقتربي

فأنا موعودٌ بعد أواني ببلادٍ تخضريّنَ لها ،

وسهوبٍ تنهضُ للهربِ .

وأنا مكدودٌ في إيواني ،

مكدودٌ في إيواني ملأَ النهيرِ وعَسْكَرُهُ المندورُ لبأسي وحنيني .

ألقي جامَ حنيني فوق حصي بيروتَ وأنظر في البلورِ المتناثرِ

كالأرحامِ :

«مدوّرةٌ أحزانُ الطفلِ ،

مدوّرةٌ أحزانُ سواقيهِ ،

مدورة بيروت وقلبي سلك»
أقطع سلك القلب وأطلب أنثاي من التعب :
يا أنثاي انحسري عن صنين وعن جهة يشغلها الوراقون بقداس
الأوراق ،

أنا قناص

أرخيتُ عنانَ العالم يضربُ بسنابكه الوراقين وعمالَ الحلم ، ويصهلُ
حتى ترنج مسالك بؤل الأحياء فينحلون ، وأصطادُ سرائرهم طيراً طيراً ،
أصطادُ الجوابين دمي فوق حمير تنهقُ طولَ الوقتِ .
أنا قناصُ

أرخيتُ عنانَ الأرضِ ، وباشرتُ القتلَ على كل مضيق يصلُ
الأجسادَ بالفتها ،

ودفعتُ بأنثاي إلى الريشِ المتطايرِ في الكونِ :
(سلاماً يا ريشُ) ، وفي الريشِ توسدتُ يدي لأنامٍ وأدفعُ أنثايَ بلينٍ
أكثرَ في الريشِ . الريشُ حنونٌ يصعدُ أحزاني ويكلمني عن أنثاي :
(سلاماً يا ريشُ) ، ويا أنثاي سلاماً ، وسلاماً يا ريشُ .

خرابُ في الريشِ ،
حصادُ في الريشِ ،
دُمىٌ وحديدٌ في الريشِ ، وغامضةٌ أنثاي ،
تمد يديها في الريشِ فأمسك معصمها وأسبح للريشِ ،
وأدعو : روناشتا

روناشتا

ريشٌ تحت لساني ،
وعصافيرٌ خائفةٌ في الأحشاء فهل أهدأ روناشتا؟

بعد قليل يكتبُ هذا الإقليمُ مراثيه ،
ويلصقُ ذاك جنازات هادئةً فوق غباري
بعد قليل المسُّ أنثاي ، وأبكي ، وأكومُ أيامي حول النارِ
وأحيطُ الغدرانَ بأنفاسي ،
وتحيطُ بأنفاسي الصاعقةُ
أكثرَ حذباً من أنقاضِ القلبِ ومن صدىِ الأسرارِ .
بعد قليل يلهثُ قدامَ سياجك عجلُ العاشقِ روناشتا
وستفرشُ بين قوائمه الليلَ ، وأهدابك ، أو تستلقي كي تمنحك
الفاجمةُ

سبباً لنزوح الحدادينِ إلى القحفِ بكُورٍ يتوهجُ فيه العالمُ كالكرز
البري ، وبعد قليل تمنحك الفاجمةُ
فلزَّ التوتياءِ وسوسنةَ الأحجارِ .

بعد قليل نعدو روناشتا
مُتَهَمِينَ بِقتلِ عشائرنَا ، نعدو مثل شعاعٍ يخفقُ إذ تنحفي أنثاءُ ،
ويجتو ،
يلتمُّ ،
يلينُ ،
يحررُ أنثاءُ من السنواتِ ويشردُ في الأقطارِ .

هاوية

مستسلمة حيوانات الشاطىء للشاطىء
مستسلمة كفاك لكفي، ومستسلمة أنهارى
لنواعير الحقل وغرافات الأحجار .
مستسلمة أبعادي للصرخات ، وهذا نفسى
يستسلم حول حفافيك ويشحد مارجه ويفاجىء
خيطة الحب المتدلى من كوكبك الأبدى ، نهضنا ،
نهضت حيوانات الشاطىء بين ضباب الجسد المهرق وأنسجة
الأشجار

وتزاحمت الأمواج على برزخنا فاستسلمنا ،
واستسلمت الأمواج
فغزلناها وغزلنا جسدنا بالغيم إذ الغيم سهيل وزجاج
وتلوّنا بالماء وبالقبيل المائية والأمطار .

هاوية

سبع ليال وخواصرنا مستسلمة لهتاف جماهير تعبير ساحلنا وتنيخ
عليه هوداجها ، ومحموم كبازي ، أو تنقض كبازي خاطفة منا الأثناء ورعد

تراثنا يا يأسُ، وسبعُ ليالٍ وخواصرنا بركٌ وبحيراتٌ مقللةٌ بأنينِ الآلهةِ .
الوقتُ هو الوقتُ: ليالٍ ذائبةٌ، سبعُ ليالٍ ذائبةٌ، ويدانا تستجمع كل
أصابعها الخضراء على رسنِ الأفقِ وتجذبُهُ حتى يتداعى الأفقُ فنجتازُ
خنادقهُ محمولينِ على ومضٍ دمٍ ونوتٍ .

**

بهدهوءٍ أرفعُ قبري منتظراً من يأخذهُ .
بهدهوءٍ أجمعُ قلبي وجماهيري ومواليٍّ وأهلي ،
وأعطي كل نباتٍ مجنونٍ ، كلَّ حياةٍ تستشرفني في اليأسِ ، وأهمسُ :
عودي يا بيروتُ إلى النسيانِ فأعماقي جاهزةٌ ومهيأةٌ كسريرٍ للأرضِ ،
ومنتصبٌ وقتي وسط فراغِ الموتِ متيناً ، لا يتقطعُ ، عودي
وأقيمي في أبهتي تحت ظلامٍ يتهادى ، وفصولٍ تنفضُ أنفسها
من آثارِ الرُعدِ وتسقطُ في أخذودي .
بهدهوءٍ أهتفُ : جلُّ جلالِي

إني مُنتدبٌ في الأثني أستقرئها وأجوسُ قفاري فيها هلعاً من أشجارٍ
تصلُ الظلمات بناقوسِ الظلمات ، ومن أقوامٍ يخبثونَ وراء حِصاةٍ أو
سحليةٍ تقرضُ أطرافَ الله . ويضطهدونَ الغيمةَ والزوبعةَ الحبلِي بجلالي .
جلُّ جلالِي في ميعادٍ خصّصتُ به المدحورينِ إذا نهضوا فوجاً فوجاً
بمنالهم يطوون روابي الحلمِ ويفترعونَ أقاصي فأستقبلهم بهدهوءٍ . . بهدهوءٍ
أرثي الأبعادَ وأوقظُ كهتي المتكثينَ على أخشابِ سياجي ، فيخفونَ إلى
نورِهم بين مُجدٍ ينفخُ في الثيرانِ ، وبين كسولٍ ينثر بالمدرةِ القشَّ على
شَبَكِ الأرواحِ ، وأهتفُ : يا أشجاراً لصق لساني أندحري ،
لا عالمَ إلأَيّ ، وأسمع نبضاً قرب فراشي ، وشفاهاً تقتنصُ السنوات
على شفتي ؛ «حبيبي ،

مستنفرةٌ حولك أصدافي ونجومُ يدي ، ومستنفرةٌ فيك أنا» .

وأنادي من نادتي : أفتتحي أول موج وسلية عن الأشجار ، سليه عن
الطرف المُرخي لستار الروح على حنجرتي ، وتعالى مستجمعة لهب الكافور
وصوت غد طاغ في أضواء شكيمته . . أنت ،
وخوفك أنت ،
ودمعك أنت ،
وثلج أعاليك ،
أما تأتين؟

جريت مع الأعضاء على مسرحها ، وغسلت الليل وريش طيور في
عالمها المغلق بي ، وفردت ملاء صوتك لي فلمحت طوائف منقرضات
وشباكا تتقطع في برزخي المستور ، لمحت هوامي المتخبط في مصباح
المبتهلات إلى ثديي ، وأكفانا قدام منازلنا ، وأناسا منكبين على عتبات
الماء يحوكون غبار الحلم لموجتهم ، ويصيخون إلى الخزف المركوم علي .
أنتقلي في أعصابي ، في مسرحها الأعظم ، واقتحميني من أبوابي المحشورة
بالأجناس وقولي : «أبتعدوا عن حكمته ومدائه ، أبتعدوا عن أزمنة لا
يملكها» . قولي : «شرك نحن وصيادون ، نقوس أسماء ومواعيد ليمحوها
حت الروح ، وتتبع حيوانات متعبة في الأحشاء ، نلاطفها ، ثم نغذ لها
الأعلاف ونرقبها مغتبطات تتوازي ثم تخر من الغبطة وهي تحت قوائمها
لتقوم وليس تقوم ، وليس تقوم نباتات ميته ، فنناديها منتفخين من
الكوبالت ومنتور الزنك السائل في عضلات خواصرنا والساقين : أنهضن ،
أنهضن فقد أوجعنا الحب واقلام الإنسان ؛ أنهضن لندخل مدرسة ونجر
مقاعدها وكراريس التشريح إلى الوديان ، أنهضن . . نريد معلمة وطباشير
لنختار فجيعتنا» .

قولي :

«سيكونُ لنا موتٌ بينَ أغانيكَ وبيتُ

وسريرٍ لا يصحبنا غيرُ الغيمِ إليه ،

وفراشاتٌ وخشاشٌ .

وإذا احتضنتكَ ذراعيّ انطلقتُ

نحو ذراعيكَ طيورٌ ، وتدافعتُ الأعشاشُ .

سيكونُ لنا أن نحيا بينَ أغانيكَ ونحيا ،

أن نتهادى كشراعٍ ونسافرَ ، أن ينسانا الوقتُ . .

سيكونُ لنا بيتٌ» .

قولي : «هذا طفلي» ، لا

سأقولُ : أنا توأمها ونهايةُ ما يأتي

وأنا ميثاقُ البريةِ

وأنا سربٌ قَطَا ينقرُ فيه الذُكْرُ الذُكْرَ ، الأنثى الأنثى ،

ويدورُ فراسخٌ ملتمساً ما يهديه إلى فجواتٍ في أغشيةِ الأفقِ لينفذَ

منها أبعدَ من مرمى الصبحِ وموكبه الشيخِ ، وأبعدَ من صرخاتِ تيوسٍ

تتخبطُ في سردابِ الملكوتِ ؛ أنا توأمها : توأمُ أطفالٍ كسروها حين هممنا

أن نلتحفَ الأعماقَ ونظهِرَ ما ادّخرتهُ جوارحنا من بكراتٍ خيوطٍ ونبيذٍ

وأساوِرَ ، حين هممنا أن ننشدَ ما أنشدتِ السوسنةُ : (النَّهْرُ النَّهْرُ

خبأ عينيه وناما .

ماحدثنا ،

ما قصُّ لنا عن طفلتِهِ ،

ما وشوشنا . .

خبأ عينيه وناما .

ناديناهُ ، توسلنا ،

أعطيناهُ حذاءً وقلنسوةً ،

ما حدثنا ،

ما قصُّ لنا عن طفلةٍ ،

ما وشوشنا . .

ناديناهُ وأعطيناهُ كلاما

فأفاقَ النهْرُ وحدثنا ،

قصُّ لنا عن طفلةٍ ،

وشوشنا حتى غمنا

ثم تمطى ،

أغمضَ عينيه وناما) .

ما كان نشيداً ،

كان عويلٌ يترقرق مثل الماءِ وينسابُ ، وأنسابُ إليكِ مغطىً بصفيحِ
صدىءِ وغُضارٍ أنْفُخَ فيه فيهذي ويبوخُ ، وأهذي وأبوخُ ، وأنسى مجرايَ
فأخذُ مجراكِ مغيراً بالأرضِ وبالسُدُمِ المهجورةِ وغلالاتِ الكربونِ على
زبدي وعواصمه ، ومغيراً بغواشيكِ عليّ :

إلهي

كان نشيداً يترقرق مثل الماء ، ولكن إنائكَ فرَّقنَ جداوله وتعريّنَ ؛

إلهي انظرْ

ناموسي فوق فراش البحر تطرُّرُهُ الحورياتُ بأصدافِ خيانتهنَّ وتخزقُهُ
سفنُ الصَّيْدِ بحيزومٍ أحمر . كان عويلٌ في البدءِ ، وكنتُ أضْمُ إنائكُ
محتفلاً بنضارتهنَّ وبالمدنِ يجري .

وإنائكُ كنَّ يهدلنَ المعدنَ والطقس ، ويستنبئنَ الشيوخوخةَ في الأمواجِ

وفي أجنحةِ الطيرِ ؛ قُتلتُ ،

أكان لزاماً أن أقتل؟

أين دمي؟

دمي الآن غزالٌ

يربضُ في نواصِ الساعةِ ، تحت عقاربها ، ساهٍ
عن قطعانِ ربضتْ قبل الوقتِ وماتتْ ،
بعد الوقتِ وماتتْ .

دمي الآن يشلُّ عقاربهُ ويميلُ

حيثُ تميلُ بقايا المرأةِ بعدَ الحبِّ ،
ويجتازُ دوائرهُ ويطولُ

ثملاً بالتوتياءِ ، وبالخبيرِ ، وقاضٍ يقضي بين هزائمه .

هوذا بين هزائمه يتلألُ كالياقوتِ ، ويغياً فيميلُ

وأنا أقبضُ بالكفتينِ على ماسورةِ جرحي وأميلُ

صوب سدِّمِ استغفرهُ ، ونهارٍ يقرعُ شهوتيَ العذراءِ بقرنيتهِ :

إلهي

خذُ لإنائكِ قداسي واجعلهنَّ شريكاتِ الخردلِ والطمي ، وأسرجهنَّ

لأهتكِ مجدَ الذكرِ العاصفِ في غايته . اجمعني في الخوفِ وأسرجهنَّ

لاقرأ ما أنتِ محوتِ . اجمعني في اللبَّانِ ولبلابِ الرِّحِمِ . اجمعني ..

أين دمي؟

دمي الآن طيورٌ ،

وثعالبٌ تمضي ، وتحومُ ،

وأنا أتخلقُ حول دمي

وأسدُّ على الأطيَّار مواردها حتى تتهاوى خلفَ دمي فأقومُ
قَوْمَةً من يُسْتَهْدَفُ مَقْتَلُهُ ،

واجزُّ رمادي بين عساليح الأعراسِ وأكواخِ بغايا أشورٍ إلى صوتِ
يخزقٍ ميقاتِ العشبِ ، وأستفحلُ مثل شرارِ : عودوا
هربتُ سائمةَ الإشراقِ وودَّعني الموتُ القَيُّومُ .
وأنا أتقلَّبُ فوقِ مواجعكم وألمَ حصي أجلي
وأردُّ برفشي الخلوقاتِ إلى حُفْرِ القلبِ وأسمعكم تحت الرُّشِ : تُرى
من يُقلقنا يا ربِّ سليمِ بركاتِ؟

نحن هنا معتكفونَ على منبعنا براءءِ تتقاسمهُ في ساعاتِ الموتِ ،
ومعتكفونَ على مَرَكِزِ ظَلَمَتنا ، نتحاشأهُ ، ونسقطُ في محرِّقهِ لنُدورَ مع
الشهوةِ ، إن مَسَّتْنا الأبديةُ متنا ، وجريتنا نحو الإنسانِ المُسدَّلِ مثلِ قماشِ
فوق نوافذِ رغبتهِ وفَلَّناهُ ، وبدلناهُ خيوطاً ، ومزجناهُ بسحرِ الحيوانِ وفضَّةَ ما
يبعثُ فينا الخوفَ ؛ ومختصرونَ على المنبعِ ، حين يوسِّعنا الكونُ نضيِّقُهُ
ونضيِّقُ ، ونزحمُ كلَّ ترابٍ أو نلجمهُ ، ونعودُ فنلويه ونلوي أفراسِ انوثتهِ
صوابَ اليأسِ : «اجمعنا يا يأسُ وفرِّقنا فيك» . قواطعُنا مطبقةً فوق ظهورِ
فرائسنا ، وفرائسنا لا تهربُ إذ نَفَجَّوْها : «يا يأسُ نريدُ فرائسَ أكثرَ عدوًّا يا
يأسُ ، وأكثرَ خوفاً حين نلامسُ مقتلهنَّ بقرنِ فحولتنا» . لا بأس ، هنا
معتكفونَ على منبعنا بهدوءِ الفيروسِ ، نجانسُ ما بين علوِّ العالمِ والمُنخَفَضِ
الكَلِّيِّ لبهجتنا ؛ لا بأس ، نسمي أنفسنا السَّيْلَ لكي لا يعرفنا السَّيْلُ إلى
أبد الأباد ؛

هدوءاً . . .

نحن المعتكفين هذانِ كي نتهيأَ للبحرانِ ، وللربَّاتِ يقوِّسنَ أواسطهنَّ
ويضرعنَ إلى الجيرانيومِ وقضبِانِ النومِ ، ونعلمُ أن الربَّاتِ سيستدركنَ
ضراعتهنَّ فينهضنَّ ، ويقبضنَ بأيديهنَّ على عجلاتِ مراكزنا ، ويخلعنَّ

الأخشابَ ، وقوسَ مطارحنا الفولاذيِّ المُنْتَبَتِ حولَ الأخشابِ ، ونعلمُ أننا
للحال سنلجمهنَّ كما نلجمُ كلَّ ترابٍ ، ونعودُ فنلويهنَّ إلينا ، أو نطلقهنَّ
فيصدِّمنَ زجاجِ طيائنا حتى يسقطنَ ونسقطُ فيهنَّ شظايا ؛ المعتكفونَ على
المنبع نحنُ : هدهوً يا يأسُ ، هدهوً يا أرضُ ، فأيدينا مُبسوطاتٌ فوقَ بخارِ
البُحْرانِ ، ومنبسوطونَ على رُقعِ الغَيْهَبِ نحنُ ، ومنشورونَ على حافاتِ
الحربِ ، نرى ما يشبهنا وترانا حولَ غريبٍ يضبطُ كوكبَهُ وعناكبَهُ ويجزىءُ نارَ
الحبِّ ؛ ترانا مُتَكثِّينَ على دهشتهِ وسنابلهِ ، مندلقينَ عليه وعاليةً أذرعنا ،
مستعجلةً ، عاليةً ، تهوي فوقَ كواكبهِ ،

فوقَ الجغرافيَّةِ والحلمِ ..

فضاءٌ نحنُ ، فضاءٌ حولَ غريبٍ

يتسلقنا درجاً درجاً ، ويكسُرُ في خطوته الأدرجَ ، ويدخلنا مجتازاً
أبهةَ الروحِ إلى قُداسِ الآلةِ والأحشاءِ ليسندها بدعائمهِ ، أو ليقيمَ حواجزَهُ
بينَ النيلوفرِ والعظمِ - أفقنا ؛

«يا يأسُ لنا أئداءٌ ساهرةٌ ،

وجروحٌ لا يدخلها الدَّاخلُ إلا محتفلاً»

مشقوقينَ أفقنا

وضربناهُ بحاجزهِ وحزنا ما بينَ النيلوفرِ والعظمِ بنحيطٍ وهتفنا :

لا غيبَ لنا ..

إن نساءً يجلسنَ على صخرتنا كالغيبِ ، ولا غيبَ لنا

إن نساءً يركبنَ رواحلنا ويبدذنَ متاعَ قرىٍ باركنها وخفقتنا تحت
منازلها بقلوبٍ أنقلَ من شجرٍ أو مُعتَقَلٍ ، وبكينا :

إن نساءً يرحلنَ .. لماذا؟

نحنُ المعتكفينَ على المنبعِ نحضرهنَّ ونُنشدُ في المنحدرِ الصَّعبِ وفي
الفطرِ المتكومِ تحت توازننا يا يأسُ ، ونمسحُ أرجلهنَّ بعشبٍ وزنابقٍ طافيةٍ في

جدول قسوتنا : أنظرن . . أنظرن ، حفافيكُنْ اشتعلتْ ، وجداولنا أنسلتتْ
 عنكنْ كسوب فغمزتنُ الماء وأقلقتنُ حشائشه . أنظرن ، أصابعكنْ رشيقاتُ
 وهي تجسُ مقابضَ موجتنا . أنزعنَ الموجةَ ثم أنزعنَ خواصرنا عن ياقوتِ
 ونواعير تدورُ على ساقية الحَوْض ، وأطفئنَ صواعقكنْ ، فيها نحن نفوصُ مع
 الطَّرَفِ المسنونِ لهذي الأعراسِ إليكنْ ونصعدُ حُرْدُبَةَ الليلِ ثقالاً مسنونينَ
 نشدُ بمغناطيسِ الوحشةِ قُطْبَ اللهِ وقطب عناصرنا ؛ أنزعنَ عناصرنا ،
 وتبعثرنَ على الجوريِّ ، على الكينا والدردارِ لنجمعكنْ مع النَّفسِ المتدفقِ
 حينَ نَجْرُ هالتنا بين الأرضِ وبين مخاوفها المقودةِ عند نهايات الأغصان . .
 تبعثرن ، تبعثرن ، لنا عند تلاقي رعشتكنْ مع الرملِ سلامٌ كالدرعِ وعائلةُ
 تتريضُ في مأمها ، ولنا في المأمِ كوبالتُ وزرْجَدُ تاريخِ طاعِ يا يأسُ ؛
 عَشْتْنَا غاشيةُ :

مختصرونَ على المنبعِ نحنُ ، ومأخوذونَ بمنبعنا
 مأخوذونَ بمركزِ منبعنا
 مأخوذونَ بنصفِ القُطرِ ، ومأخوذونَ بقطرِ الدائرةِ
 مأخوذونَ بكلِّ جمادِ
 مأخوذونَ بأنفسنا يا يأسُ ؛
 قَلَقْنَا :

إن بلاداً ترسمنا الآنَ ونرسمها .
 إن بلاداً تطلقنا من قفصِ الصحراءِ ونطلقها .
 إن بلاداً تتلمسُ مضجعنا لتنام ؛
 قَلَقْنَا :

محفوظونَ بأعضاءِ وصيادلةِ وجواسيسِ من الوردِ ، وملفوفونَ باثوابِ
 النَّهْرِ ، نوجهُ كوكبنا وكلابَ الريحِ جنوباً ونقومُ فنتبعها متخططينَ البحرِ

العربي، وأوقيانوساً خلف البحر العربي، نصيحُ: «أبتعدي يا أعشاشَ
الماء، أمرنا ألا نرتاح،
ويا ماء أتبعنا . . .» .

للأنثى هذي الصاريةُ
للأنثى هذا الخوفُ
للأنثى كل حصاد،
ولها منبعنا . .

معتكفونَ على المنبع نحنُ . .
ومعتكفٌ من ثالث موت لي فوق منابِعكم: عودوا .
هربتُ سائمةَ اليقظة، وأستوحشني العصفورُ وغصنُ صلاتي الحجريُّ
وتبدلُ فوق حجابي الحاجزَ حالُ النخلِ، وبدلتِ الأسماكُ حراشفها
حتى انشقَّ حجابي .

وأنا بعدُ صدىٌ وحنينٌ يرضح من فَنَاحِ مجاهله،
وأنا دانٍ وقصيُّ

أحمي بيدي وجوهاً جفلت تحت قناعي
وأطمئنتها كالأم، وأحنو يا بأسُ عليك:

«أكانَ العدمُ المقضيُّ

سوطَ الحوذيينَ يُقلِّونَ الأرضَ إلينا،

أم خطوات نساء بين جراح العنابِ؟» .

هربتُ سائمةَ اليقظة ثم انشقَّ حجابي

فتلمستُ بقايا المرأة حول جدالها وقصفتُ . .

لماذا؟ . . / .

لقطة بعيدة لفراشة

تتوارى خلف ذؤابات العشب رويداً فرويداً
وتبينُ إذا التحمَّ العشبُ مع العشبِ وتعلو ،
تتداخل هازئةً بالضوء ،
وبين الضوء تقسمُ هيكلها وتغيبُ .

لقطة بعيدة لجبل

عار ،
تتقدّمهُ الأحراش المرفضةً من رائحة الحبِّ وقد خلعت كلَّ لباسٍ
وانتشرتْ قُدّامَ سنابكِهِ ،
وهو يسئدها بيدٍ ،
ويطوقها بيدٍ ،
ويرص حجارتَهُ كالحراسِ على مدخلٍ منخدهِ ويغيبُ ./

خَفَّتْ بيروتُ إليّ مزينةً بشريّاتِ الأحجارِ وطلّعتْ إناثُ يتوسّطن زلالِ
الخوفِ ، ويفرغنُ محاجرهنَّ فتمتليءُ الفسحةُ بينَ البحرِ و«بِكفياً» بأساقفةِ
ووعولِ تحرُّنٍ وهي تشمُّ رمادي . خَفَّتْ بيروتُ إليّ مولولةً : «كلُّ حصاةٍ تلثمُ
أطرافكُ أو ترجوكُ لتبقى ، وتقيمُ مع الأشجارِ عمادةً أنثى تتساقطُ من
غربالِ مرثييكُ ؛ هلمَّ بنا لمرثييكُ . . » : إلهي إن إناثكُ يولدنَ ولا يولدنَ ،
ونصفي مبتهّلٍ في زنارِ الألوسنِ والعليقِ ، أرحني لأريحَ جبيني فوقِ
الصاعقة . العذبُ أنا ، وسَماني الأثنى تتحدّزُ من مخبئها صوبَ سفوحِي
عاماً عاماً فأضيغُ ، وأعلمُ أني عذبٌ في لآلئِ ضياعي ، وخجولٌ كالأبراجِ ،

وئمةً أنشئ تفتلح الأرضَ وتعدو في محوري الرطبِ وتندهنني :

«هاك جناحي

مُدْ خلقتك الأنفاسُ ورائحتي ، اضطربتُ

وحدةً هذا الربِّ ، وقسمتُ على الترفِ المحتاحِ

مطري وخالخيلي ورياحي

وتوكتأتُ على كل شعاع وغبار ،

وتوكتأتُ على نفسي حينَ قصدتُك بي ووصلتُ . . .»

إلهي

ثمة ليلٌ ،

وإنائك لا يولدن . . لماذا؟ .

سيناريو للشجر

نهار ، لقطه قريبة لأرض مغطاة بالأوراق ، تتقدم الكاميرا ببطء ثم تتوقف عند جذع شجرة . يرافق اللقطات وقع حوافر هادىء . حركة تراجعية مع اشتداد صوت الحافر . لقطه كبيرة لجذوع عدة أشجار . الكاميرا تتحرك عمودياً ببطء مع قامة الأشجار ، ثم ترتفع بسرعة حاصرة رؤوس الأشجار مع مساحة من السماء في لقطه قريبة متوسطة يصاحبها صهيل قوي .

يا شجراً لسنا خاتمهُ

يا شجراً ليس مراثي أو قبلاً ، نحن عصفنا فكسرناك ، وهذهذنا

هاجسنا فوق كسورك . يا شجراً كان . ويا شجراً ليس حريقاً أو جسداً ،

ماذا بعدَ عراء دم تكسوهُ بريحانِ دعابتنا ، وتعريه فتكشفنا مضطجعين

على شفرة موتك؟ . . خذنا يا شجراً ليس لنا .

سيناريو للثلوج

نهار . لقطة بعيدة لأفق ثلجي يرافقها صوت حيوان . انقضاض في لقطة تحصر الثلج مع اشتداد صوت الحيوان . حركة صوب اليسار تستقر على أثر في الثلج مع صوت خفيض . انهيار خارج الكادر تهتز معه الكاميرا دون أن تنتقل من اللقطة السابقة . صوت مرتفع لمجموعة حيوانات . صمت مع لقطة لهطول الثلج من الأسفل تستمر حتى تغطي الكادر . صوت خبطة ثم عويل حيوان .

واطئة كُرَّةُ الْمَلِكِ ، سقوفُ الْمَلِكِ . نزحنا عن مجد سنابلنا مأسورين
بضوضاء جموع يستعرضها القرميدُ ويخذلها الموتُ إذا انسربتُ بين
سُرَادقه ؛ ونزحنا عن غيمتنا مخصوفينِ بأكام الثلجِ ، نديرُ كُرَاتِ الْمَلِكِ
البلوريَّةِ في قَزَحِ القتلِ :
تهيأ يا مدُّ حناجرنا
سنصاهرُ مدَّ الثلجِ ، ومدُّ أنوثه هذا الثلجِ ، ومدُّ دمٍ ليس لنا .

ما كان نشيداً ،
كان غباراً ،
كان دمً ،
كنت مع الربِّ تحومين على قنديلي
فتوسلتُ إليكِ ،
إلى نار تويجِ ،
وغصينِ ،
وشعاعٍ محلولٍ

وتوسّلتُ إلى غيمٍ يتخبّطُ حولِ مساكبِ ندييكِ ؛ وغيمٍ يتوازى في
موجهما ويكابدُ خوفَ الحِلْمَةِ ؛ غيمٍ يُرْجفُ ندييكِ ؛ وغيمٍ يدفعُ لولبَهُ
الربّانيُّ إلى عِرْقِهما ؛ غيمٍ يتراجعُ كالسيّافِ ليضربَ فوضى الثّدي ، وغيمٍ
يتجمهرُ تحتِ الثّدي ويشعلُ فوضاهُ ؛ وغيمٍ يتبدّدُ عن ندييكِ ..

(أندياكِ نحاسٌ؟)

أنحاسٌ قنديلِي؟)

وحدي تنهبطُ فوقِ دمي الهالاتُ فأسندها ، وأشمُ الأفقَ : «تعالوا

مدُّ كالحبِّ ، يدي فوقِ المدِّ ، تعالوا

وخذوا مقعدكم في النهرِ ، وفي فيءِ السنبلَةِ ابتدعوا الغيمِ وأصغُوا
لغزالٍ يتلفّتُ بين أفاريزِ الوقتِ ويهدأ ، ثم يحكُّ قوائمهُ ويخرُّ من الغبطة
مَيْتاً . . . » وحدي ، لا فرق ، كلانا

يقفُ الآنَ ويضحكُ : يا داليةُ ،

يا كرزاً وزبيباً ، يا حبُّ

ماذا أبقيتَ لنا؟

ماذا أبقيتَ لقبرينِ نجرهُما نحو نهارٍ مجروفٍ؟

ماذا أبقيتَ لنا في الخوفِ من الخوفِ؟

حيواناتٌ تنهضُ ،

حيواناتٌ تستنهضُ نارَ قوائمها ،

حيواناتٌ تتقدّمنا صوبك يا حبُّ ،

أيا داليةُ ،

يا شجراً ليسَ لنا ،

خذنا .

للغبار، لشمدين،

لأدوار الفريسة وأدوار الممالك

جَفَلْتُ عُجُولَ السَّهْلِ حِينَ أَحَاطَ بِي
 نَبِيٌّ ، وَهَرَوْلَتِ الزَّنَابِقُ وَالسَّهْلُ
 فغسلتها ، ونزعتُ عن نبعي غلالةَ مائه
 ليضمنا ثوبٌ يهَيْئُهُ العَوِيلُ

وانتظرتُ الأرضَ تسترخي ككاهنةِ أمامِ فراشي الحجريِّ ، وانتظرتُ
 زرافاتُ الغبارِ إنائها ، وتدافعتُ بين الحمائمِ من حميرِ الوحشِ أسرابٌ تموجُ
 خطوطها كمصائرٍ ، وجذبتُ أفعالَ الينابيعِ الخفيفةِ كي أرى جيلاً يجمهرُ
 بأسه ويغيّرُ مخفوراً بأجرامٍ وحدادينَ : إنني حافلٌ بسلالةٍ مشغولةٍ ، ومعني
 القنادسُ والسهولُ .

والأبنوسُ يشدُّني شداً ، وينثرنِي الصَّهْلُ
 لؤلؤاً ، فترى القبائلَ عادياتٍ
 بين لؤلؤةٍ ولؤلؤةٍ ، تخضُّ سماؤها
 قريباً من الأحشاءِ ينهضُ بينها الفتحُ البديلُ .

جرّني يا موتُ ، جرّ منابعي وسطَ انتخابِ القتلِ ، وسطِ التُّخبةِ : الآن
 اعتكافي مثلِ أسياذِ يجسُّونَ العوالمَ جسّ فحلّ حاذقٍ لإنائه . الآن
 اعتكافي مترعٌ بكواكبٍ مذهولةٍ مثلي ، فمن يعدو بقلبي جاهراً بمجيءِ
 حلاجينَ ، أو بمجيءِ غلمانِ يواسونَ الممالكَ بين هاويةٍ وهاويةٍ ؟ دعوني
 عاقداً عَدَمِي على أشيائه .

فأنا انتخبتُ غامرٌ ، وأنا الأصولُ

والمدى درعٌ ، وإني مُحَكَّمٌ كالدرع ، لا موجٌ يجاهر بي ،
ولا يغتالني المجرى فيفضحني المسيلُ .
عُدْني يا ربُّ . إني مفردٌ أصغيت للنسلِ الذي التحمت مساكبهُ ،
وإني مفردٌ يطوي مباهجهُ لبدأ سيرةٍ معلومةٌ :
«للمرءِ حقانٌ : الغبارُ ، ومجدهُ .
للمرءِ حقٌّ واحدٌ ،
للمرءِ ميتهُ . . .» اختياري مفردٌ يا ربُّ : «ثمة نسوةٌ يفرشن ميعادَ
الرياح لأمةٍ تحبو كطفلٍ ، ثم يغلقن النهارَ مقامراتٍ باشتعالٍ مُؤنسٍ» .

هذا اختياري

فلتمت أرضٌ بأرضٍ ، ولتضِلْ يمامةٌ في الأفق من صخب المعادين ،
حيث أتنشلُ الفضاءَ كقرصٍ قصديرٍ من النبع الذي يحنو المحاربُ فوقه
بدروعه :

هذا اختياري

فلتمت أرضٌ بأرضٍ ، ولتَنَمَّ في خودتي الأخلاطُ من كُرْدٍ وجوَالينَ :
إني فسحةٌ منذورةٌ للكيمياءِ ، وفي يدي كبدٌ أدور به كنوأسٍ على
الأعشاشِ :

مُرِّي يا حمائمٌ ،
يا عصفيرَ الغضارِ ،
ويا غراتقُ ،
يا إوزُ ،
ويا سُماني ،
يا دجاجِ الماءِ ،

يا بارزي ،

يا حدأت ،

يا جُهْلُولُ ،

يا دُرَاجُ ،

يا بطريقُ ،

يا زرزورُ ،

يا حُطَافُ ، مرّي ، فابتهالي ليس إلا نزعاً من آدمي يحتفي بانائه إذ
هُنَّ يفتحن الغضار كوردة للنيزك الملكي ، أو يخطفن محور بعلهنَّ
مشاكسات رعدهُ ؛ مرّي وثيداً يا قرنفة مسورةً بأنفاس العناكب ؛ قد
تطاوعني البراري مرّة في ياسها فأردُّ كلَّ فصيلة رَدِّ الصواري نحو موجةٍ
مأتم ، وأفرق الأكياد بين مكيدة ومكيدة ، ولربما دحرجت أقمار البراري في
غشاء يابس وقذفت كل مدينة في ياسها ، وأنا أدير الوقت كالخزاف ،
مستنداً إلى كرة تفيء إلى جوانبها الفلول .

ولربما سيرت أقماراً على إهليلج الصرخات ، أو

أحنيت جذعي فوق نجم محارب ،

وكشفت كيف يجيء موج هازل مستطعاً موجي فيهدي الأرخبيل .

ولربما شيعت سوسنة إلى جرح وعابثت الموالي حاشداً في خوذةٍ

مشقوقة شمساً يفاجئها الأصيلُ

بانقسام مُذهل ؛ بالعشب يحشده دم أم زنجبيلُ

ولربما غيرت مسرى طعنتي نحو اعتدال الروح ، أهتف : ساعديني يا

لبونات العراء ، ويا صفيحاً قادماً في أسره الجسد الصقيلُ ،

ساعديني يا حُبّاري القتل ، إنني حازمٌ أمري على شركٍ سأدفع نحوه

الأيام والريح النفيسة ، خائضاً في بركة من ترهات العالم المحلول مثل

كتابة ، ولربما أمسكت قرميد البيوت مقبلاً هذا الزجاج ، وذلك ، أو هذا

السياجَ ، وذاك ، أو متسائلاً : ماذا ستحمل لي بيوتٌ حلوةٌ؟ ماذا ستحمل لي حجارَتُها؟ وأين النحل؟ أين ظنينه فوق الأزاهيرِ الجسورةِ؟ أين مَنْ أَلَقَتْ إلى لغتي زجاجاتٍ مكسَّرةً ، وأطلقتِ العنادلَ في خرابٍ حائمٍ كالصقْرِ؟ . مُرِّي يا لبوناتِ العراءِ بمأتمي ، وأحطِ بنعشي يا عراءِ .

ها هي العرباتُ تأخذُ شعبها متحاذياتٍ تحتِ خنشارِ السفوحِ ، وها هي البلدانُ تركضُ ، والهواءُ

يستطيرُ كقلبِ عاشقةٍ ؛ أحيطي يا لبوناتِ العراءِ بمأتمي ، فدمي عَجُولُ
والمدى مثلي شريكٌ قابضٌ بيدٍ على ميزانه ،

والأرضُ تعقدُ عروةً في وسطها رثَّةً وميزانٌ ثَقِيلُ :

«كلُّ نفسٍ أَحضرتُ يُحمورها ،

والموتُ أَحضَرَ جِزَّةً وقرونَ كبشٍ . . . يا عراءُ ،

يا لبوناتِ العراءِ ، ويا حضاراتٍ يخبئها السنونو في جناحٍ مُتَعَبٍ ،

وأقودها في طَيْلسانِ الرملِ يشملني ويشملها الرداءُ . .

ها هي العرباتُ تأخذُ أرضها ،

والجمهراتُ تموجُ بين فراغِ أشكالٍ مهيأةٍ لها بدءٌ طويلُ .

«كلُّ نفسٍ أَحضرتُ يُحمورها ،

والموتُ أَحضَرَ جِزَّةً وقرونَ كبشٍ . . . ، والعويلُ

حائمٌ كالصقْرِ . إني حاملٌ غصنِ المشيخِ ، لابسٌ ما يلبسُ المحزونُ ،

لكنني أحاذرُ أن تراني نسوةً أشعلنَ خرنوبَ البَراري في صفيحِ أجوفٍ ،

وجمعنَ أعشاشاً على ائدائهنَّ كأنما دفعتُ بهنَّ ذكورةً للمَسرحِ :

أحتملُ ، أحتملُ يا قلبُ ، يا زريابَ غرَّينِ وسفَّسطةٍ فإنني حاملٌ غصنَ

المشيخِ ، لابسٌ ما يلبسُ المحزونُ ، لكنني أمدُّ يدي تلتقطانَ خيطَ طفولةٍ

منهوبةٍ ، وأديرُ وجهي عارفاً أنني سأقتلُ تحتِ سقفِ أمومةٍ أخرى ، وتحتِ

جناح إمرأة تلامسُ زينتي بأناملٍ منهوبةٍ ؛ ها الجمهراتُ تتوحجُ :

إني راحلٌ ،

والأفقُ يهزمهُ الرحيلُ

وانهدامُ سيّدٍ يلوي باعناق السهول إلى دروع أسدلت .

فوقَ النهارِ فلا تَرَى منه سوى شرح يلامسه عواءٌ أو هديلٌ .

وانهدامُ سيّدٍ يرتجُّ مثل الشدي مختصراً أنينَ فريسةٍ ، ودمٍ يجانسه

الأفولُ .

كلُّ نفسٍ أحضرتُ يُخْمُوْزها . وأتتُ بناتُ الوعرِ يملأنَ السلالَ

بأبجدياتٍ مرقّطةٍ ، ويخلعنَ البُصيلاتِ البقيةَ من فضاءِ هاربٍ في سربه ؛

وأتى المشيخُ : «أيُّ قامات ستختارُ السلالةُ؟ أحضري يا نفسُ ما أحضرتِ

من حبقٍ حديديٍّ فإنَّ الجليلَ يطلقُ صقره في غابةٍ ويهيمُ مغسولاً ببلورِ

الأنوثةِ ، مألثاً أبواقهُ بلهاتٍ ماموثٍ وتيسٍ أشقرِ خارتُ قوائمه . أركضي يا

نفسُ ، ثمتُ جمهراتُ ، ثمتُ ارتفعتُ قرونٌ مثل لبلابٍ نحيلٍ أخضر ،

وتزاحمتُ في منبعي الهالاتُ والهلعونَ : لستُ مدينةٌ ، لستُ انتظاماً معنأً

في حَصْرٍ مخلوقاتهِ . هيئي أركضي يا نفسُ ، فوضى صندلٍ جذعي ،

أركضي في جُلنارٍ ، في عقيقٍ باردٍ ، وسلّي وبوحي

واجعلي من عارضِ أرضاً ، ومدّي عارضاً

للجمهراتِ تحييُّ في خِزفِ المُسوحِ .

فَرَسَخْ مُلكي ، وكمِّ باعدتُ بين حدودهِ يا نفسُ ، كم سورتُ ينبوعي

بجلد لبونةٍ ، ونهضتُ بين سناجب الأبنوسِ متبوعاً بجيلين استوائيين ، أو

بفصائلٍ ثدييةٍ . كم ضعتُ ، كم ضيغتُ في أثري شعوباً صرّفةً ، ومسحتُ

ظهر أتائها بخلائق كاللّيفِ . كم كنتُ الوحيدُ الفردُ يطلقُ كوكباً لصقوره ،

ويرى عراقكُ معادنَ مذعورةٍ . كم جاءني النسرينُ يدفع شمسهُ كفريسةٍ ،

وكم الندامي غافلوا أيامهم ومشوا بأجراسِ السمندل في جروحي .

فَرَسَخٌ مُلْكِي ، وَأَزْعَمٌ : فَرَسَخَانٍ ؛ وَعَرَعَرٌ جَسَدِي ، وَأَزْعَمٌ : رَدَهَةٌ بَيْنَ الصَّفِيحِ .

لِي خَلَاْفٌ أَسْرٌ فِي كُلِّ جَوْفٍ ، وَارْتِبَاكِي
كَارْتِبَاكٍ فَجِيْعَةٌ صَعَدَتْ إِلَى مِيعَادِهَا
وَمَشَتْ كَمَا تَمَشِّي الْكِرَاكِي
فِي ذَهْوِلٍ مُحَكَّمٍ يَا نَفْسُ ؛ لِي مِيثَاقُ كُلِّ فَجِيْعَةٍ ، لَكِنْنِي
مِيثَاقُ شَعْبٍ جِئْتُ أَضْرَمُهُ ، وَأَذْهَبُ فِي الضَّرِيْمِ إِلَى الْمَدِيحِ
عَالِيَاً ، لَكَأَنَّما غَيَّرْتُ مَوْضِعَ نَجْمَةٍ وَشَرَدْتُ أَبْعَدَ فِي غَلَالَاتِ الْعَذْوِيَّةِ
سَاحِبَاً ذَيْلَ الرِّدَاءِ عَنِ السَّفْوَحِ .

أَيُّ نَفْسٍ أَقْلَقْتُ أَيْلَ الْمَدَائِحِ ،
أَيُّ عَشْبٍ مُسْكِرٍ يعلو وَيَرْفَعُ لِي مَدِيحِي
فِي إِئْنَاءِ مُسْكِرٍ مِنْ أَرْجَوَانَ النِّعْمَةِ؟ أَنْطَلِقِي إِذْنِ يَا نَفْسُ ، أَبْعَدَ ، ثُمَّ
أَبْعَدَ ، عَالِيَاً يَا نَفْسُ كَيْ أُرْمِي فَتَوْحِي
مِثْلَ سَمَاقٍ وَقَلْبِ ذَائِبٍ ؛ يَا نَفْسُ إِئْنِي جِئْتُ مِنْ يَأْسِ الْمَعَادِنِ قَاصِدَاً
يَأْسَ السَّلَالَةِ فِي حَنَوٍ بِالْغِ ، وَأَحْدَثُ الْحَيَوَاتِ أَحْيَانَاً حَدِيثَاً مَفْرَطَاً فِي
تُرْهَاتِ رَمُوزِهِ :

«لَوْ أَنَّ عَمَالَ الْمَدِينَةِ حَطَمُوا مَاسُورَةً ، وَاسْتَأْنَفُوا غَسَلَ الْغَيُومِ بِحَمَضٍ
كَبِيرَةٍ وَعَادُوا آخِرَ اللَّيْلِ انْطَوَائِيْنَ ، كُلُّ يَسْتَرْدُ وَشِيْعَةٌ مِنْ حَلْمِهِ وَيَضْمَمُ
أَسْلَاكَاً كَطْفَلٍ ؛ لَوْ بَكَى الطَّلَابُ وَالْحُرْسُ الْحُكُومِيُونَ تَحْتَ جِدَارِ مَدْرَسَةٍ ؛
لَوْ أَنَّ سِتَارَةَ سَقَطَ بِشَرْقِي الْمَدِينَةِ وَاسْتَعَادَ الْمَسْرُحُ الْجَسَدَ الَّذِي سَحَلُوهُ مِنْ
حَيِّ لَحْيٍ ، لَوْ تَرَكَضَتْ الْبَيْوتُ بِبَلَا الْجَامِ أَوْ قِلَادَاتِ تَضْيِءُ شَكِيمَةَ
الْمَقْتُولِ ، لَوْ أَنَّ الْجَسُورَ تَبَاعَدَتْ لِرَأَيْتُمُونِي عَالِيَاً أُرْمِي فَتَوْحِي» .

أَيُّ نَفْسٍ أَقْلَقْتُ أَيْلَ الْمَدَائِحِ ،

أيُّ عشبٍ مُسكَّرٍ يعلو ويرفع لي مديحي؟
 قد عقدتُ مساجباً من تُرْهاتِ حلوةٍ ، ونفخت في كوري : أنا الحدادُ
 أطلقُ أُسرَ أنثى المعدن ، ألا تثنى التي جذبت عجلَ الزنك من حيزومها
 وتقدمت في غفوةِ الينبوع توقظُ وردةً من نيكَلٍ وغصونٍ قصديرٍ تراخت ،
 ثم تفتتحهم الذكورة . إنني الحدادُ : مَنْ يعدو بجمري ، بالرقائق من حديد
 الجمر؟

عُشْبُ مُسكَّرٍ يعلو ويرفع لي مديحي
 والقرامطة الذين تبادلوا في دورق أعلامهم ،
 يَشْكُونُ ضَيْقَ الأَرْضِ ؛ والملاكاتُ يَسْتَوْقِدُنَّ فِي المَدِّ الفَسِيحِ
 طمئهن ؛ تدافعي يا نَفْسُ ،

عُشْبُ مُسكَّرٍ يعلو ويرفع لي مديحي
 ويمسني درعُ السمندل حين أحني قامتي لسمندل ، ويمسني بانُ فأرفع
 درعهُ مستوفزاً حيثُ الحياةُ هياكلٌ ورفيفٌ أجنحةٌ تزاحمُ بعضها في قبةٍ
 مكسورة . يا نَفْسُ عودي : لن تكون حرابتنا ريحانَ أنفاس ، ولن تتوائبُ
 الأجرامُ في حجراتنا كأرانب ؛ سنعود نحو بلادنا ، نحو الحظوظِ ونحو
 ريحانٍ ساجشوت تحت قامته أباعدُ بين أوراق لها قُرْحِيَّةٌ من مخمل ،
 وستجشهُ الأبعادُ في عيني صارخةً : خذينا يا طفولة . . لا ، أركضي يا
 نَفْسُ إنني مالىءٌ درعي بغسلين وفجر أرقط كالنمير ، إنني قاذفٌ قلبي
 وجيلي في قرنفة ، وإنني قادمٌ خالٍ من الأحشاء والرتنين ، خالٍ من كُلِّى ،
 خالٍ من الكبد : ارفعي درعي ، أرفعيه لنخلة أو وردة ، فلقد نهضتُ أمام
 نسلي طاعناً في نبعه ، مثلي كمركية لها ممتان أو زيدت من الأفراس ،
 مثلي مثل مفعوج يدقُ على صفيح لامع بهباته وشموسه ، ويعود أكثر
 وحشةً فيمازج الأرحام بالأعشاش . مثلي مثل هذا الشعب . . فلترفع
 دروعي نخلةً أو وردةً ولينبتقُ هذا الحديدُ

بين نافوراتنا ، ولينبتقَ عَدَمَ مديدُ
كي نقيسَ رياحنا في ظلّه ،
ونظوفَ جمعاً حاشداً أقدارُهُ في قُبَّةِ مكسورةٍ ،
أو جُرُنَ عَرَّافٍ وأرديةٍ يعود بها الشهيدُ .

ليتها رفعتُ دروعي ، ليتني غَمَسْتُ جسمي عارياً في عُصْفُرٍ ، ورأيتُ
كوكبَهُ يدورُ به الصعودُ .

ليتني لامستُ لَمَسَ الظنِّ ما يخفيه قوسُ أمومةٍ طرفاهُ في نبع ، وفي
النبع الهوادجُ والحارثُ ، التوازنُ ، واشتغالُ فصيلةٍ بفصيلةٍ . ليت الحناجرُ
أحكمتُ إقفالها وتنفستُ بحناجرِ القصديرِ ، ليتَ تكسَّرتُ واستلَّ من
بَلُورها هذا الصعيدُ
حزبهُ وزرودهُ ،

واستنهضَ الحذقينَ حيث سنوئهم بَوْصٌ وقُنْبُ خيمةٍ مزحومةٍ بمالح
الإنسانِ ؛ ليتَ الآلهاتُ نزلنَ من بلُورةٍ في مقتلِ الإنسانِ يستودعنهُ
خلخالهنَّ وجلدَ جاموسٍ ؛ وليتَ تبادلتُ نخبي الحشودُ ،
حين قلبتُ الغبارَ كدرهم ،

ورأيتُ آبائي ووقتي مائلاً كالصارية

وهتفتُ : يقتلني البعيدُ

ثم تمحو الهاويةُ

خُوذَ السنابلِ إذ تقومُ إلى صلاةِ الدفنِ في أعضائي المترامية .

من يدعيني الآن؟ أيُّ كواعبِ أمسكنَ حيزومَ المدينةِ ، ثم أطلقنَ
الفحولةَ من قواريرِ الغبارِ؟ وأيُّ مقتولٍ توازنُ مؤتهُ شمسانِ :

(٢)	شمسٌ رَمَتْ أَقْداحَهَا وَرَمَتْ بالكبادِ الندامى فانحنوا	(١)	شمسٌ كَسَرَتْ أَقْداحَهَا وَتَكَسَّرَتْ بين الندامى فانحنوا
↓			
(هذا اتجاه الصاريه)			

أَوْ يَدْعِينِي بَارِقٌ يَمُحُو كَمَا تَمُحُو حَدُودِي الْهَائِيَّةُ؟
أَوْ تَدْعِينِي خَوْذَةٌ؟ إِنِّي جَمَعْتُ هَيْكَلًا بِهَيْكَلٍ ،
وَضَحِكْتُ لِلشَّعْبِ الَّذِي اجْتَمَعَتْ بِهِ الْأَهْوَالُ فِي مَرَاتِهِ ،
وَنَحَرْتُ سَاقِيَةَ لِنَارِ السَّاقِيَةِ
وَلثَمْتُ مَاءَ السَّاقِيَةِ

ورأيتُ في حصبائه أُمِّي ؛ رأيتُ شعوبي اختلطتْ ، وقلتُ : تباركي يا
نَفْسُ ، إِنَّ التَّرْجَمَانَ مَاتَمَ ؛ وتباركي يا نَفْسُ ، هذا صاحبي قد عاد من
أيامه ، هذا طلالُ : أتذكرين شملتَهُ بالرُّنْدِ والنَّعْنَاعِ واستنفرته فاستنفرَ
الياقوتُ ثم طوى جوانحه على بلدٍ ، وأطلقَ جرحه؟ أو تذكرين صرختُ :
يا لَجَمَالِ ما أهرقتَهُ من حزنِ هذا اللُّؤْسِ العربيِّ؟ ثم صرختُ : هذا
صاحبي يا نَفْسُ ، هذا لؤْسٌ مُلْقَى على ماء تكاد شفاهنا أن تستحمَّ به ،
وهذا صاحبي يا نَفْسُ ، هذي زوجته ودروعهُ ، وأنا تكافؤُ صرختينِ تناهتا
من خندقٍ ، وأنا الذهولُ
قاطعُ كالوقتِ يهزجُ بينه وقتُ بتولٍ .

يا نَفْسُ هذا صاحبي ،
يا نَفْسُ هذي نجمةٌ موصولةٌ بخيانةٍ مُتعاليةٍ

وخياتان دمي : بلادَ أهرقتُ ، والهاوية .

وخيانة هذي المدينة حيثُ تغمرُ ريحُها ريحاً فلسطينيةً بحشالةٍ من
أبجديات النخيل ورملمها ؛ يا نفسُ هذا صاحبي قد عاد من موتِ دمشقٍ
إلى موتِ أرى فقراءهُ مستوحشين يكسرونَ جراحهم في حجرةٍ من
أبجديات النخيل ، ويرجعون إلى الينابيع الخفيفة عاصبين جباههم بمكيدةٍ
وأنينِ سوسنة ، وأهتف : مُرُّ ، مُرُّ طلالُ ، إنَّ العاصمةُ

رفعتُ إليك ؛ كتابها وقضاتها ،

وتشاءت مدناً كأنَّ المحكمةُ

وهجٌ لمدفأةٍ تراخى نائمٌ من حولها ، أو نائمةٌ .

والشاهدانِ دمي وزنبقةٌ ؛ أتذكرُكم كتبنا عن جنونِ كتابةٍ ، كم قلتُ
إن الطاولةُ

ستكون آخر قاتليكَ ، وإن شمسَ السنبلَةِ

ستنامُ في «الشيح» ، إن دفاتر الصحفِيّ سوف تمرُّ بين «المسلخ»

الباكي وبين العظم ، إنَّ القنبلةُ

فرحٌ ، وإنك ذاهبٌ نحو التواريخِ المعادةِ كالصدي والمهملةُ؟

ستنامُ؟ أعرفُ أن غصنَكَ ذاهبٌ لينامَ ، أن ثمارَ هذا الغصنِ والأوراقِ
ذاهبةٌ وجدعكَ ذاهبٌ لينامَ ، أني ذاهبٌ والريحُ ذاهبةٌ ، وأرضك مثلنا
ستنامُ : فاملاً راحتك بخردلٍ وقطيفةٍ ، وأثرُ زبيبك في ظلامٍ أخضرٍ تجتازُهُ
الأجسادُ مثل القافلةُ

واذهبُ ، فإنك ذاهبٌ نحو التواريخِ المعادةِ كالصدي والمهملةُ .

ستنام .. أعرفُ يا طلالُ ، وأعرفُ الطيرَ الذي سيحومُ حول يديكَ إذ

تتقاسمان ظلامَ قبرِ ضيقٍ ، وتهوَّمان كشتلةٍ بين الظلامِ لطيفةٍ متناغمةٍ .

ستنام .. أعرفُ أن هذي العاصمةُ

نزلت إليك بقبعات حلوة ،
وبسترة من مخمل الماء الفلسطيني ، والريحان ، والتفت عليك
كزنبقات ناعمة
فقطفتها واراحت ، ثم تركتها للسابلة
وذهبت ، أعرف أن جسمك ذاهبٌ نحو التواريخ المعادة كالصدي ،
والمهملة .

وعرفتُ أنني ذاهبٌ ، والأرض ذاهبةٌ ، وناري
محضُ قصبانٍ وأخلاقٍ من البازلتِ والأحشاءِ تذهب بالنهارِ إلى النهارِ .

من يدعيني الآن؟ أي صديقة عادت بقلبي من حطام أخضر ، وبكت
لأنني لم أجد موتاً يمهدُ فلزه وعصوره ، ولأن عاصمةً بكت وبكيت : مرّي يا
نباتات الغضار ، ويا صديقة خيزران مائل في ضفة الخابور ؛ مرّ طلالٌ ، مرّ
كثربة مجروفة من سفح «سنجار» الخجولِ فإنني لامستُ موتك لمس من
مرّت يدها على قرون الطّبي : تلك صديقتي ، تلك الغصون وقد ترامت في
حنين الشعب ، تلك جنادب مسروجة ، ودمي يجيء مع الصنوج
خائضاً ميراثه ، والبحر يلجأ من «مهاباد» الرياح إلى الخليج
لكأنما سعت الملوكة إلى انكسار ،
وانكسارُ البحرِ نبضٌ خالقٌ ينحلُّ في زبدٍ وموج ،
جانحٌ قلبي : ترى من يدعيني الآن؟ لستُ مكيدةٌ ؛ لكنني
شركٌ ، ودرعي كالثلوج
أبيضٌ غضٌ تدورُ به المروجُ على المروج .

كلُّ شيءٍ هاديءٌ ، وطلالٌ أهدأ من وعودٍ تستريحُ مع الظهيرة ،
والسماءُ جنازةٌ ، وأنا أواسي الزهرَ معتدلاً كقطسٍ ، حاكماً بين الدروعِ
أخيطها بسيور معدنها ، وأقطعُ ما يؤصلني كشمسٍ في فراغِ الأبيديات

التي لم تأتِ: «يا للحلوة انتظرتُ، ويا لجمال عينيها إذا ما رفَّ بين جفونها
دمعٌ، ويا لجبينها المتغضَّن الباكي ويا لشفاهاها»؛ وأنا أواسي الأجدديات
التي لم تأتِ، معتدلاً كميعادٍ ستُقبلُ فيه وحشياتُ هذا الروحِ: «يا
للحلو، يا للحلوة اقتربا . . .» إلهي

يا إله الأجدديات التي لم تأتِ، ماذا استنفرَ القلقاص؟ ماذا استنفر
الجيلَ الذي ألقوه بين معادن مدهولة؟ ماذا يُصيرني اعتدالاً جارحاً
فأصيحُ: «هاتوا حربكم وطيوركم، هاتوا الطبيعة مثل كلب أعرج؟» يا
ربُّ، يا متعالياً في رهبة الإنسان، إني عارمٌ كهدهوء هذا الجيلِ، إني واقفٌ
حيث اللواتي اجترنَ مدرجهنَّ يستنبتنَ رعبَ الموجِ واللغةِ: «الحبيبُ
يضمُّها، والحلوة أتكات . . .» إلهي

كل شيء هادىءٌ، وطلالُ أهدأ من وعولٍ تستريح مع الظهيرة،
والدرعُ جنازةٌ والأفقُ لي: «هذي رموزي
حلوةٌ وأناثي الهلعاتُ يستغفلنني
ويضنُّن مسرحهنَّ بين دمٍ ولوزٍ
واحتفالي قاتلٌ، ومعاولي
كونيةٌ، والماء مصباحي إلى بهو الكنوزِ
حيث أستقري الطبيعة في قناع مهرجٍ،
وأصيحُّ الأرحامَ بين خسارةٍ تأتي، وفوزٍ .

والإشاراتُ التي أودعتها في الوردِ تخرجُ كالمناشير الصغيرة كي تدلُّ
عليّ: إني تاركٌ قلبي على غصنٍ وبوصلة، فماذا يدفع المدن الجميلة أن
تجيء إليّ؟ ماذا يجعل الساعاتِ أسلحةً، ونفسي مثل بوتقة لها عنقٌ طويلٌ
من زجاج أخضر، والبوتقة

عربيةٌ، والكيمياء - الشعبُ ترشح من جوانبها فتعلو

همهماتُ الشعبِ بين دخانِ نارِ فاسقة؟

يا ربُّ هذي أرضُك اقتلعتْ جذورَ نحاسها وحديدها .

يا ربُّ هذي ريحك اغتسلتْ من الريح التي رفعت إليك نذورها .

يا ربُّ هذا قلبك اقتسمته بلُوراً تُنا ،

هذي رموزي سيدي ،

وفسيفسائي الأنظمةُ

وجداولي تمضي على مهل وقد لبست فراءَ الملحمة . .

وكسيدي بثلثُ جيلِ الملحمةُ

بعشائرِ حضريّةٍ مستسلمةُ

ونفضتُ عمري من نظامك خالعاً قبيري وإنسانيّتي من فجوة

الإنسان : هذا مقتلي يا ربُّ ، والهجراتُ أتيةُ ، وحرُّ عنصرِ الماء الذي أكسوه

شكل القلب ثم أعيدهُ ماءً ، وأكسرُ في مرايا نبعه شكلي معيداً كل زاويةٍ

إلى قانونها في المهزلةُ .

وأفجرُّ الأجسامَ حيثُ تفجرتُ أشكالها ،

وأقول هذا مطلعُ حسنٍ ، وهذا

منفذٌ بين التواريخ المعادة كالصدي ، والمهملةُ .

لا بأس ، هادئةٌ هي الأجناسُ ، والحرب التي علقتُها كقلادة ستظل

مثل قلادة ، سأظلُّ أمتحن السناجبَ في السهول وأحتمي بفراشةٍ من

معدن حرِّ ، وأستقصي العوالمَ صائحاً بين اللقائِ والوعول كما يصبح

الفتاحُ : أشتعلي أشتعال طريدة يتُّها اللقائُ والوعولُ ، ويا طباءُ استنفري ،

وخذي نهاري يا زواحف لا دروعُ لها ، ومرِّي مسرعةُ

هي تسعُ ساعات وأخلقُ ظبيةً من ثورةٍ متنازعةُ :

(في الساعة الأولى أبأشرُ جمع كل عظامها في زئبقٍ ، فإذا تلاصقتِ

العظامُ كسوتها باللحم ، ثم تركتها للوقت يكسوها بجلدٍ لئِن ، وغسلتها في
التاسعة

بدم ، وقلت لها أركضي في خندقِ اللهِ المقاتلِ مسرعةً .
هي تسعُ ساعاتٍ ولكنني سأختزلُ العناصرَ والعواصمَ حاضناً أشلائنيَ
الأخرى ، مُغيّراً نحو باديةٍ تركتُ شموستها ترمي على جسدي عباةً تها
كأنني آخرُ اللغة التي سقطتُ ، كأنني جرحُ كل محاربٍ ، أو درعُ من لا درعُ
يحصنُ موتهُ ؛ هي تسعُ ساعاتٍ وأمنحُ مَقْتلي سبباً ، وأرجعُ من حروبٍ لم
أكن في موجهها غيرَ انحدارِ الموج نحو عويل مخلوقاتهِ : هذا اشتعالي في
غدٍ ليس انهداماً ، بل غدٌّ متجانسٌ ، وترى لحدّاديه صرخةً مُتَرَفٍ إذ
ينحنون على معادنهم ، ويحتفلون بين شرارةٍ وشرارةٍ بنظامٍ خلقٍ مُتَرَفٍ . .
هذا اشتعالي

حين أجعلُ جذرَ كلِّ مقاتلٍ كبداً يجرُّ على الرمالِ
أُمَّةً ، وأهْيءُ الأشياءَ في أحزّانها ،
وأصبحُ مرتجفاً : تعالي
إنني أمحو الهواءَ وأنتقي هذا الفراغَ الفحلَ كي أصطادَ جمهرةً من
الأشكالِ ، أو أصطادُ شعباً ذاهلاً عن شكلهِ ، وأقوده نحو الفراغِ الفحلِ
منتحلاً صفاتِ محاربٍ أو دولةٍ ، وأصبحُ مرتجفاً : تعالي
يا بغالِ الوقتِ ، ولتقفِ السنايلُ في قميصِ السهلِ ، تحت فراغها ،
وليمضِ شرقٌ مثقلٌ بدمِ العناكبِ والسحالي .
إنني أمحو الهواءَ ، وأستطيلُ مباركاً هذا الفراغَ الفحلَ حين أرى
القتيلَ يجسُّ كوكبَهُ كفحلٍ حاذقٍ ، وبنامِ بينِ عدوبةِ الأفقِ الغريبِ
وموتهِ ، وأصبحُ مرتجفاً : تعالي
يا غزاةً كلِّ مآدبةٍ ، فإن وليمتي شركٌ لأجناسٍ ستسقطُ في عدوبتها ،
وتنهضُ حيث لا جرحُ سوايَ كأنني جمعتُ مسكَّ الشعبِ في قارورةٍ

وسكبته في مركز حيٍّ فكانت أبجدياتٌ ، وكان الله ؛ أولوحتُ للأنثى
بمبدلٍ من القصدِيرِ والأعشابِ ، وانزلتُ يدي فتهافتِ البلدانُ . . إنَّ
وليّمتي شَرَك ، وأعلنُ : « لا مجالسَ ، والحكوماتُ انفصامٌ ضمنَ
منظوماتها ، ونقابةِ العمالِ غيرُ نقابةِ العمال ، والأحزابُ تستوفي شروطَ
حضورها في جدولِ الطبقات ، والمتوسطون لدى المدينة يحملون نساءهم
كدرية ، والبرلمانُ دعابةٌ ، والحُكْمُ آخرُ لعبةٍ في الترهاتِ الخاسرةِ
ولتأت تلك الشارةُ المتناثرةُ

من طغمةٍ مهزومةٍ ومثقفينَ يجنّدون على الحبالِ
مجدّهم كمهزج . . » وأصبحُ مرتجفًا : تعالي
يا سمنذلةَ الحياة ، ويا نساءَ حقيقةٍ محسومة ، وتناثري يا أرض تحت
دروعنا إذ نحتمي بدم وصلصال ، ونكسرُ شكلنا فنعود محضَ زنايق .
وأصبحُ : عودي يا عُجُولُ إلى مدى سهلٍ هناك ، ويا فراشاتُ أركضي
محمومةً ، فأنا انبثاقُ الحربِ بين عواصم ، وأنا اخيتارُ البرقِ في فوضى دم
متهالك ، وأنا الفلسطينيُّ يحمل شمسَ «عامودا» إلى «نابلس» في رفقٍ
كأنَّ بلادَهُ احتضنتُ بلاداً مثلها وتوزعتُ في القلبِ ، أو جفلتُ وعولُ
عادها شوقُ الوعولِ إلى الوعولِ .

سأظلُّ أمتحنُ الحياةَ وأحتمي
بفراشةٍ تمحو الكتابةَ بين هاويتي وميعادِ السهولِ
وأظلُّ أدفعُ بالسهولِ
نحو ميعادِ الجنونِ ، ووردةِ الفتحِ البديلِ .

آذار ١٩٧٦

باسم الحلبات الكبرى ،
باسم دروع مترفة في نعمتها إذ ترفعها الأدرجُ
باسم الترف المرفوع إلى عتبات الحرب سألقي
هذا الصلصال الحي كدرع فوق مكائلكم ،
وستتبعني الأبراجُ ،
نحو صليل الأسلحة الكبرى لعذابات الإنسان ،

وكالإنسان ساقتلع الأرض وأرفعها
فوق يدين من القصدير يمازجهُ العاجُ :

«نُخب عويل ومديح ،
ومدارات عائمة في الإنشاد .
نُخب الأقنعة المصقولة بين جيبيني والأعياد» .
وسأقتحم الإنسان ، عنيداً ، بالأسلاب ، ونفسي
مأدبةً ، ودمي جُرُنٌ وسياجُ
ولتتبعني الأرضُ إلى المأدبة الكبرى ،
ولتتبعني فاجعةٌ وهياجُ
فأنا الأبوِيُ ، وقد أرخيت جيبيني
فوق حياة صاعدةٍ مثل الصقرِ ،

وفوق نسيج سيهيئهُ النَّسَاجُ

من صلصالٍ وجلودٍ كجلودِ الثديَّاتِ ؛

سأخبركم عن حَلَباتِ عارمةٍ كالأقذارِ ، سأرفع للأقدارِ صليلَ
مدائحكم ، وسأدفعكم دفعَ حِصانِ الطَّاحونِ لتمتلثوا بقرايين المعدنِ يا
جمهوراً يرفعهُ الجمهورُ ذبائحَ في صلصالٍ مدائحهِ . .

يا جمهوراً يصعدُ في خطواتِ الماعزِ إني أشهد ما تشهدهُ الصَّدْفَةُ من
أفئعةٍ ونساءٍ في أفئعةِ الصَّدْفَةِ ، مبهتلاتٍ يرجعنَ من الحبِّ ، ومبهتلاتٍ
يدخلنَ الحبَّ وهنَّ يعدلنَ نظاماً أفلتَ من ميعادِ الإنسانِ ؛ ويا جمهوراً يصعدُ
في خطواتِ الماعزِ نحو ينابيعِ المسرحِ ، إني أتوافدُ جيلاً جيلاً في أسلحةِ
الصدفةِ كي أشهد ما يشهدهُ الحوزيُّ الحيَّ على مركبةٍ خلف لبوناتِ الحكمةِ :

«ها يا ماعزُ ،

ها كبشِ النعمةِ ،

ها أيتها الأبعادُ .

ها يا فرسَ الفلزِّ ،

وهيا يا دُكْدُلُ ،

ها يا ميعادُ .

قلبٌ يهزمنا أو نهزمهُ ،

ويصالحنا الإنشادُ

والحذقاتُ اللأثمي يقنصنَ مدائحنا ،

سيعلّقنَ مدائحنا

فوق قرونِ لامعةٍ من أخشابِ الصنْدلِ ،

أو يغسلنَ مدائحنا بنبيدٍ ، ومدائحنا ستُعَادُ

حين يضيقُ الوترُ الأكبرُ في دائرة الأنتى ،
وتكون الأرضُ بُزاةً عالقةً في شركِ الفحلِ ،
وأن الموجُ المنقادُ

يخرجُ من دورقه المائيِّ ، ولا يبقى
غيرُ نيازكِ أجسادٍ تستدرجُها الأجسادُ» .

إنني أشهدُ ما يشهده الحوذيُّ على مركبة خلف لبونات الحكمة ،
مُستبقاً ما يومضُ أو يتوالدُ من أقدارٍ يحلجها الحلاجونُ ، كأنَّ النَّسْجَ
الأعظمَ نَسْجَ من أخلاطِ الأجرِّ ، ومن سَفْسطةٍ وحفظٍ : هذا النَّسْجُ
الأعظمُ ، هذا ما أشهدهُ حين أكون على مركبةٍ خلف لبونات الحكمة ،
مستبقاً أمرَ الإنسانِ ، وأدوارَ المخلوقاتِ على حلباتِ النعمة ؛ هذا النَّسْجُ
الأعظمُ نَسْجِي بين الحلاجين ، سأرفعهُ فوق يدين من اللَّبَلابِ إلى رغدٍ
يتسامقُ مثل مشاغلكم ، وسأرفعكم فوق يدين من اللَّبَلابِ ذبائحٍ للإشادِ
السلجوقيِّ على المسرحِ :

«هيا يا ماعزُ ،

هيا يا كبشَ النعمةِ ، هيا أيتها الأبعادُ ،

هيا يا فرسَ الفلزِّ ،

وهيا يا دلدلُ ،

هيا يا ميعادُ

سربُ من أجنحةٍ يدخلُ بهوَ شعائرتنا ،

ويجيءُ مع الأجنحةِ الأسيادُ

محتضنينِ سروجاً وشكائِمَ كالفيروزِ ، وتأتي الأعيادُ

مثل جواميسٍ مُنْهَكَةٍ ،

أو سلورٍ محمولٍ بالأجرامِ ، بطيئاً يدخلُ بهوَ شعائرتنا ،

ونرانا في البهو قياماً دَهْشِينَ من الأَكْبَادِ تَكْسَرُهَا الأَكْبَادُ .

هذا النَّسْجُ الأعظمُ نسجي بين الحالَجِينِ ، وأشهد ما يشهده الحوذِيُّ على مركبة خلف الشديَّاتِ أو أنْ تَمِلُ الأرضُ ، ويحتاجُ مدارجها المحظوظونُ بأقنعةِ الفوقسِ ، أو يحتاجُ مدارجها القديساتُ حبالِي ينثُرُنَ كواكبهنَّ على النعمةِ متراً متراً ، وينادين الحِيَّ المرثِيَّ : «تعالِ إلى ترفٍ لا تملكه ، وتعالِ إلى الأقنعةِ الكبرى لحروبٍ لا تملكها» .

وأنا أشهدُ ما يشهدهُ الحوذِيُّ على مركبةِ خلف الشديَّاتِ اللاثِيِي يخلعنُ أمومتهمُ ويكرضنُ إلى الوحشيِّ من العالمِ ، مثلي مثلُ جيوشٍ في أسلحةِ التَّرفِ المصقولةِ ، أو محترِفٍ بين يديه فيخاخٌ لهزائمُ كلِّ غريبٍ ينصبها للإنسانِ ، ويُحكَمُ قبضتهُ الغضَّةَ حولِ قرونٍ مهملةٍ ، وقوانينَ تنامُ على دَرَجِ المسرحِ . مثلي مثلُ الحوذِيِّ ، وأشهد ما تشهدهُ الشديَّاتُ وقد جرَّحنُ أمومتهمُ على المنحدرِ الوحشيِّ لميعادِ الإنسانِ ؛ ومثلي لا تمسكهُ الأرضُ ، ولكن يتجانسُ - إذا يتجانسُ - في مجهولٍ كالذرعِ ، ويسبقُ جَهْلُولَ الأعيادِ إلى كبريتٍ مشتعِلٍ ليكونُ هو المشتعلُ المتَّرفُ في الحلباتِ . ولي عرباتُ ذاهبةٌ نحو نشيدٍ أكثرَ غمراً من إنشادِ امرأةٍ لشراعِ البعلِ وصاريةِ النعمةِ ، مثلي مثلُ الأسلحةِ المغسولةِ بالتهليلِ ، وبالسَّماقِ العائمِ فوق نشيدِ امرأةٍ ؛ هاتوا ما يشهدهُ الحوذِيُّ ، وهاتوا زَرَدَ الحربِ ، وهاتوا الحربِ ، فقد هيأتُ كنانسَ قلبي للأجبارِ المجهولينِ ، وللخنشارِ المحلولِ على أكتافِ القديساتِ كما تنحلُّ ذوابهنَّ مساءً للفحلِ الربانيِّ ، وهاتوا مائدةً وسنَّعِ الموجِ ، فقد أحضرتُ العيارينِ ، وأحضرتُ مواثيقَ الفاتحِ تحتِ دروعي لأفاجتكم بالإنسانِ . وهاتوا مسرحكم ،

وفوانيسِ المحظَّياتِ ،

وجمهورِ اللعبةِ ؛

هاتوا فاجعةً ،
وطواحينَ ،
وسنبلةً ،
ومرايا للماء ؛
وهاتوا الماءَ ،
ودوراً للأقنعةِ الكبرى ،
وجواميسَ ،
وشمساً ،
ومواسمَ ؛
هاتوا ..

سأفاجئكم بالإنسان ،
وأسدلُ فوق مكائده السَّعْفَا ،
سأفاجئكم حين تكونون دماً متَّحداً أو مختلفاً
وسأهرقكم كنبيدٍ عند العتباتِ ، وأرمي
حجرَ المخلوقاتِ إلى بركتكم لتعودوا شيعاً ،
وسأجمعها إذ أجمعُ هذا الترفاً .

سأفاجئكم بالإنسانِ .
بدرعِ ،
بعظاياتٍ ونحاسٍ ،
بالأجرِّ ،
بقلبٍ مختمرٍ في الأجرِّ ،
بِعَيْدِ ،

وهياكل .
سأفاجئكم بالإنسان ،
بجلد لبوءات ،
ومشاعل .
سأفاجئكم بالفاجع في الإنسان ،
بآلهة ،
وأفاجئكم بالزائل ،

حيث يبول التيس على أدرج المسرح ، والأدوار تعاد مع الأفتعة
الكبرى للحكمة ، والجمهور يسابقه الماعز بين مقاعده الحجرية نحو الدور ،
وأسبقهم معترفاً :

لا ميثاق لأسلحة تحت جناح المطعون ،
أنا المطعون سأهدر نخل ممالككم سعفاً سعفاً .

سأفاجئكم بالإنسان لأشهد ما يشهده الحودي على مركبة خلف
لبونات الروح ؛ سأضرمُ روعي لتناموا حول لهيب حي مغمورين بنعمة ما
تغتسلُ النعمة فيه ، وقد أوقظكم لتناموا ثانية حول ضريم الروح ، وقد
أوقظكم لأراكم فزعين من اليقظة تستترون بروحي من أسلحة الصدفية
والأقدار العجلى ، وسأدعوكم لعشاء الوثني وأكسرُ فوق المائدة الأرض
ككوز الفخار لتلتقطوا الغامض والمتناثر من فاكهة وعروش ؛ وسأدعوكم
للصدفة كي تغتموا الحجر الأكبر في ميراث الله ، وكي تحتشدوا بحشود
الكوبالت وشست البركان أمام الفوهة العذبة للمجهول تجشون مكائدم
بيد كالكييد ، وتشتعلون كمن خصته الفوهة العذبة للمجهول بجرح .
سأفاجئكم بالجرح لأجمعكم في حلبات النعمة عرافين يغالبكم طيش
أباطرة وخيول ستساق إلى بادية الإنسان . . . أنا الإنسان أفاجيء كل حياة

بالأسلاب ، لأجعل للحلبات الكبرى أبهةً الحلبات ، وللأيام مقادير
حروب كالتزف ،

وسأجعل كل غبار ترفي

وسأجعل كل جناح ترفي

وسأجعل كل لهيب ترفي

وسأجلس مثل جلوس المعتكف

بين حدود غامضة ، وقرايين . سأنسى

أن بلادي نازلة بين الأدرج إلي . سأنسى

أن فرائسي انطلقت ثانية من أسر الروح ،

وأني منطلق ثانية بدروع من قصدير أو خزف

لأفاجئكم بالأسلاب ، وبالحلبات الكبرى للأدوار المحبوكة بين دروع
الإنسان . أنا الإنسان ، وهذي مائدتي في ردهات الحرب ، ولي ردهات
أخرى ، وموائد من وحشة ما يوحشني حين أكون القابض بالكففين على
نواصٍ مدائحكم ، أصغي لجيوش عادلة كالوقت ، وظالمة كالوقت ، تعود من
الرغد الفاجع نحو الأدوار المحبوكة بين دروع الإنسان . أنا الإنسان - بهي
كالدور المحبوك ، وقصدي قصدٌ مديح لم تعلقه شفاه بعد - أفاجئكم كي
تغتمنوا وتضيعوا في رغد الدور ؛ وأعرفُ أنني سأفاجئكم كي أغتمن
الإنسان ، وأرفع بين شكيمته الهرج الأوحد للأجناس ، وأني سأداهم قلبي
لأشارك هذا القلب مهالته الحلوة بين أميرات يلبسن لفاجعتي مرح
الصقر ، ويركضن خفيفات في أفنعة من جلدٍ غزالٍ أو يحمورٍ ، يهمسن :
تقدم .

يا ابن غبار يترككم فوق تجاويف الدرع ، تقدم

يا ابن نساء يرسمن فراشة حظوتهن على الأحشاء ، تقدم

يا ابن صليل وهتاف بين التعمى والثدي ، تقدم

يا ابنَ القولِ الأكثرِ مما سيقالُ ، تقدّم
يا ابنَ الحبقِ المسفوحِ ورائحةِ الخردلِ والسّماقِ ، تقدّم
يا ابنَ حياةِ تتجانسُ في ميزانِ الموتِ ، تقدّم
يا ابنَ نشيدٍ لا تنشدهُ المرأةُ إلا لَعقابِ الفحلِ ، تقدّم
لنباهي بمكائلكَ الأعراسَ ، وهذا الدّفقُ الخافتُ في مضجعنا
الوحشي . ووحشياً سآدهمُ قلبَ الإنسانِ لأستبقيهِ مع الشّرفِ العامِ
للأدوارِ المحبوكَةِ بين دروعِ وعوايلِ . وسأستبقي الأدوارَ لأدوارِ غامضةٍ فوقِ
المسرحِ كي انتشلَ الأرضَ من القدّاسِ الرباني وأجعلها محضَ فروجِ ، أو
أجعلها نسقاً من أرديةِ الحشّاشينَ (وكلُّ رداءِ عاصمةٍ) ، وسأستبقي التّوبةَ
حين أتوبُ : «أتوبُ إلى الخوفِ ، أتوبُ إلى برقِ يكشفني إذ لا كاشفُ إلا
البرقِ . أتوبُ إلى العصرِ الحاملِ مثلي خوذتُهُ ومراياهُ . أتوبُ إلى المهزومِ إذا
شدّ هزيمتهِ مثل جوادِ واجتاحَ هزائمنا . وأتوبُ إلى الحربِ ، أتوبُ إلى لغةِ
كالجربِ ، أتوبُ إلى التّوبةِ حين أكونُ الأكثرَ فتكاً بين الأدوارِ» ..
عنيداً سآدهمُ قلبَ الإنسانِ ،

عنيداً

كالذّورِ

الغامضِ

كي أستبقي القلبَ رهينَ مكائدهِ ومراثيهِ ، وكي أتواصلَ في الأدوارِ
لأضربُ ضربَ بويهٍ هذي النعمةُ تحت جناحي .
وسأضربُ ضربَ الحاذقِ كي أستوفي أبهةَ المجتاحِ لمجتاحِ
وسأستقدمُ ما يجعلني الأكثرَ نهباً في النهبِ ،
الأكثرَ فاجعةً ،
وسأقتادُ رياحي

نحو ذهولِ مُنسدِلِ فوقِ الأكتافِ . سأمحو لآكونَ الأبعدَ حيثُ تكونُ

الريحُ هي الأبعدُ :

«كلُّ بعيد سيكوُنُ الأثرُ الباقي للإنشادِ المرفوعِ إليّ» .
أنا الإنشادُ ،

أنا الأداوُرُ ومَنْ يَحْتَلِقُ الأداوِرَ ،

أنا المرفوعُ على هذيانِ الحاضرِ لا أخبركم إلا الخبيرَ الأبعدَ في الإنشادِ المرفوعِ إليّ ، وهذي مائدتي في ردهاتِ الحربِ . تعالوا لنجاهرَ بالفاكهةِ الخلوَّةِ والخنشارِ الحلوِ . تعالوا لنقودِ الأعراسِ وراءِ قنادسينا كالعرباتِ . تعالوا يا أبناءَ نهارِ يتراكمِ فوقِ الدرعِ ، فإني سأفاجئكم بالإنسانِ ، سأخذكم نحوِ الشُّركِ العذبِ جسوراً كالليلِ ، جسوراً وإباحياً كالليلِ ، وحيث تكونُ الجمهرةُ الأبهى ستكونونَ الجمهرةُ الأبهى ، لا واكبَ هذا الإنشادُ الوحشيُّ إلى عتباتِ الروحِ جسوراً وإباحياً في نعماي ؛ أنا المرفوعُ على هذيانِ الحاضرِ لا أخبركم إلا الخبيرَ الأبعدَ في الإنشادِ الوحشيِّ ، وقلبي في نُعمي الحاضرِ قلبُ شهيدٍ ، فتعالوا يا أبناءَ دمِ عدمي ، يا أبناءَ الياقوتِ تعالوا كي أختارَ نشيدي .

كي أختارَ الصاريةَ الأعلى في مهزلةِ الإنشادِ ،

وأفحِمَ في الحلباتِ شهودي .

هذي نُعماي ، تعالوا

هذا شُرْكُ من نعماي ، وقد خبأتُ لكم فلزَ نحاسي وحديدي

وثرَيَاتِ من هذيانِ الفقراءِ . أنا الإنشادُ المركومُ على عتباتِ الفقراءِ ،

وقد خبأتُ لكم حجراً وعواصمَ . واستفحلتُ فنوديتُ تقدّم ، فتقدّمتُ

ككلداني جَهْمِ خلفِ قناعِ الله ، أشمُ الليلِ ، وأعرفُ أن لنسلي رائحةً في

الليلِ ، وتهليلاً لآ يسمعه المرثيُ . ونوديتُ : تقدّم ، فتقدّمتُ كمجزرةٍ لا

تعرف كيف تفرّقُ بين بلادِ وبلادٍ ، واستسلمتُ لنعماي . .

أنا المجزرةُ النورانيّةُ ،

والتوقيتُ النورانيُّ
وأنا الحيُّ وقد أشعلهُ الحيُّ
لا أملكُ إلاَّ الإنشادَ ، وأقطعُ قلبي
بلداً بلداً في الإنشادِ ، ويأسرني الأبدِيُّ
وأعودُ فأربطُ قلبي بلداً بلداً كحزينٍ ، أو كجديرٍ بالحزنِ ، وأنظرُ خلفي
فأرى مدني وقرائيَ كحزمةِ قشٍ في عرباتِ الأكرادِ ، وخلفِ العرباتِ أرى
سهلَ «بريفا» والأغنامَ - الملكاتِ على السهلِ ؛ أرى «شمدين» يجاهرُ في
نفرٍ ضدَّ الأمرِ في الثكناتِ وضدَّ الدولةِ والميراثِ المزحومِ بروثِ الحيوانِ .
أرى «شمدين» يغني أغنيةَ الكرديِّ ، ويرفعُ «موسيسانا» فوقِ يدينِ من
اللِّبلاِبِ إلى آلاتِ النَّسَّاجينِ ؛ عنيداً يرفعُ «موسيسانا» بينِ عويلِ الدَّرَكِ
الأجلافِ وذعرِ بنادقهِم :

«شمدين ، وأنتَ المُهمَلُ يا شمدينُ
تسعُ رصاصاتُ تُقبلُ منِ عصرِ العربِ الإفْرَنْسيِّ ،
وسقطُ بَعْلُكَ يا شمدينُ .
وتدورُ بعينيكِ النَّاعستينِ على شيءٍ ما ،
وتقولُ : أنا بيتٌ ، والبابُ هو البابُ :
خشبٌ ، وتوارِيخُ ينكرها الدَّرَكُ الأجلافُ ، وينكرها الأعرابُ .
وتقولُ : أنا شمدينُ ، أنا شمدينُ
لي أقتنَعُ الدَّرْدَارَ وأقتنَعُ الزيتونُ
وأنا خَبَرٌ يَنْسَقُطُهُ البهلُولُ ، ويرويه المَجْنُونُ» .

وأرى «شمدين» على بقلته الشقراء يغني أغنيةَ الكرديِّ محاطاً بنساءِ
«بريفا» ، ونشأءُ «بريفا» يحزمنَ لشمدينِ جَسارتهنَّ مع البرسيمِ
الأخضرِ ،

أَوْ يَحْزَمْنَ الْعَصْرَ

مبتلاتٌ بحنيني وعنادي

مبتلاتٌ بأريج الشَّيْلَمِ والشوفانِ ،

وخمير مُهْرَقَةٌ بين رمادي

ويقرَّبْنَ لشمدينَ جراراً طافحةً بالمجهولِ ،

وينثرنَ لبغلته اللَّبَّانَ وأعوادَ المُرِّ

ويُتمتمنَ : «العصرَكَ يا شمدينُ سيبتديءُ العصرَ» .

وأرى «شمدين» ؛ أرى خلفَ قوائمِ بغلته الشقراءِ متاريساً وبنادق

تعلو ، ولغاتٍ مستجعةً كصغارِ البَطِّ ، وحُلْمًا يتدحرجُ من أبوابِ

الثُّكناتِ ، وفلاحينَ يجرُّونَ سلالاً مشقلةً بنجومٍ وأحذيةً ؛ وأراهنَ أنْ

نشيداً كنشيدي يعلو خلفَ قوائمِ بغلةِ شمدينِ ، وأنْ عويلاً كعويلي يعلو

وعوالمَ حيرى يستقرُّها الجدَلُ .

وأراهنَ أنْ بويهياً سيقامرُ بالإنسانِ على مائدةِ الطبقاتِ .

وأنْ الإنسانِ سيبهرهُ المجدُّ المبتدَلُ .

لكنْ سأكونُ المجزرةَ الأكثرَ جذراً في الحلباتِ . سأدفعُ شمسي وبروقي

بعنادِ الحكمةِ نحوِ الحلباتِ وأغسلها بحنانِ المحرومِ من المجدِ الوحشيِّ :

أنا الوحشيُّ وقد أشعلهُ الوحشيُّ

لي أقنعتي ،

والمسرحُ هذا المذُّ الأبدئُ

من أبراجٍ وهياكلِ

وسماءٍ تتهدَّجُ كالأصواتِ ، ويرفعها

فوقِ يدينِ من اللَّبْلَابِ إلى الأكبادِ مقاتلِ .

لي أقنعتي وجسوري

ومديحٍ مثلِ جناحٍ ممتزجٍ بجناحِ البازيِّ أو العصفورِ

ومالكُ قلبي تتناثر في خطواتِ الإنسان ؛ أنا الإنسانُ أفاجئكم بمديح
ليس مديحاً ، وبهاوية كالحلم ، لأغسلكم بحنانِ المحروم من الإنسان ،
وأحزمُ قلبي لأغني خلفَ دروعٍ مثقلةِ بينابيعِ الكبريتِ شمالاً : أحزمُ قلبي
وأغني لينايبعِ الكبريتِ ، لثلجٌ يمتدُّ من الهضباتِ شمالاً حتى «سنجار» ،
وأمشي في أسرابِ الحيواناتِ أليفاً تغمرُنني دعةُ الثلجِ الأبوّةُ ، والأيامُ
تواكبني ككهولِ عَرَافَتَيْنِ ؛ وحيث تمرُّ بي الأرضُ أقول : انتبهي يا أرضُ ؛
وأهتفُ بالأعشاشِ : اقتسميني .

وأشدُّ المعولِ من طيَّاتِ ردائي ،
وأهيلُ على الأكيادِ به دكاً دكاً
لا مأخوذاً بالفاجع ، أو مُرتبكاً .
وأعودُ فأقذفُ بالمعولِ نحو عويلِ المخلوقاتِ ،

وأمسحُ وجهي وعيوني

من تاريخِ سيؤرُخِ للوحشيِّ . أنا الوحشيُّ ، ولي أفتعةُ من سَمِّاقِ
السهلِ وأبهةُ الأعيادِ ، وفي الحلباتِ الكبرى للروحِ أجيءُ ككلداني حَذِقٍ
يتهادى في سُرْبالِ من جلدِ فرائسه لأفاجئكم بأكيدٍ من أخبارِ الإنسانِ ،
وكالإنسانِ سأبتدعُ اللعبةَ ، لا مأخوذاً أو مرتبكاً .

بل سأشدُّ جبينِي في الحلباتِ بطوقِ من مرجانٍ وخزَامِي ،
وسأجتاحِ مدارجها دكاً دكاً

وسيلزمني الأكثرُ رعباً لأقودَ حضورَ الحلباتِ إلى هاويةِ أخرى في
الروحِ ، إلى أسلحةِ وعتادِ حيِّ ، وموازينِ أزينُ بها الوحشيِّ . أنا الوحشيُّ ،
ولكن تتجاذبني الأرضُ فأسقطُ في دائرةِ الإنسانِ ، وكالإنسانِ أفاجئكم
بالأعيادِ الكبرى للروحِ ، بالآتِ تصقلُها الشهوةُ ، بالأرحامِ ، بقلبي فوقِ
وشاحِ حجريِّ . وأناجئكم بهتافٍ لم أهتفُ لذاكِ الثلجِ الممتدِّ من الهضباتِ
شمالاً حتى «سنجار» ؛ فهاتوا بكمائنكم ، بالعجلاتِ الخشبيَّةِ للأقدارِ ،

بحرب وأباريق من الفولاذ الحيّ لأقرع شمس هتافي بشموس مستعجلة :
نُخب لبونات يذرعن جنوني كالحكمة ، نخب حنين يتعالى كالوحشي .
أنا الوحشي - وروحي روح جياذ سُرخن - سأبكي للثلج الممتد من
الهضبات شمالاً حتى «سِنجَار» ، سأبكي لبلاد تندحرج من «سِنجَار»
وأعرفها بلداً بلداً ، سأحيط بكلّ سياج كسياج ، وسأرفعكم بين يدين من
اللِّباب إلى الهضبات نذوراً ، وكروح سَافاجثكم بالحلبات الكبرى للروح .
أنا الوحشي أفاجثكم في حلبات الروح بدرع من كُتانِ الماء ، وأصرخ :

يا «تلّ الزعتر»

يا إنشاداً يتعالى خلف غبار وحجر ،

المُحُ جمعاً يتقدّم منك ويلقي

تعب الإنسان كسنبلة فوق الإنشاد ،

والمُحُ عاصمة تشطى مثل مراياك . . وأكثر :

المُحُ طفلاً ، ومراويل ، وعسكر

ومدارات مقفلة للتاريخ المهذور كماء تحت نعال العسكر .

المُح ما يلمه المفجوع بأرضين . . انتظروا :

هذا إنشاد الوحشي ،

وفي الإنشاد ساحمل في كُفين من الزعتر

حُلّمي ،

وهباتي ،

وسيتبعني المحرومون إلى الرّعد ، ويسبقني الحجر

لنجاهر بالميعاد الوحشي لَنْ غابوا

عن أبهة الأنقاض ، ومَنْ حَضروا .

وسنقتسمُ الله على صَفَيْن من الخוזات . . وأكثر :

سنباهي بالأحشاء الملتفة حول مواسير الوقت ، سنعدو

وسيعدو حولَ مصائرنا الشَّجرُ
حُلُوقاً كدمٍ ، وجريشاً كالأنقاضِ : «لماذا يتراءى الأفقُ من الأنقاضِ
إباحياً أكثرَ من شهوتنا للأفق؟» .
سأعدو - وأنا الوحشيُّ العارمُ مثلَ خلافِ الأضدادِ - جريشاً في رعدِ
الفاجعة .. انتظروا .

هذا إنشادُ الحوذنيِّ ،
وهذا «تلُّ الزعترِ»
حجرٌ يتهاوى فوق نسيجِ الأسماءِ ،
ووقتٌ ينحلُّ على عتباتِ حجرٍ .

هذا إنشادُ الحوذنيِّ ،
وهذا «تلُّ الزعترِ»
لهبٌ وقناعٌ يفتسلانِ برائحةِ الخبزِ :
لنعمى الخبزِ ،
لنعمى حجرٍ في القلبِ ،
لنعمى حُلْمٍ كالخربةِ أعدو
فوقَ صفيحِ الإنشادِ بأقدامٍ مثقلةٍ بينابيعِ السهلِ ، وأحضنِ «تلُّ الزعترِ»
بيتاً بيتاً ، وألمُ الأقمارِ المهْدورةِ بين التوتياءِ وبين الخشبِ المتكسِّرِ
لأضيءِ كدرعٍ ،
أو ليضيءِ الموتُ كدرعٍ ،
أو لنضيءِ - كلانا - الأرضَ على عتباتِ حجرٍ .

وبأقدامٍ مثقلةٍ ببروقِ الحلباتِ سأصعدُ هذا الدَّرَجَ الحجريُّ إلى مدنٍ
تتجانسُ كالأثناءِ لأجرُفها فوق الدَّرَجِ الحجريِّ إلى مهزلةٍ ، وسأبتدىءُ

المهزلة الآن بإنشاد تتساوى فيه الحكمة والخودات؛ أنا ناديتُ، وكم ناديتُ : تعالي يا أسلحة أكثرَ حذباً من أسلحة ، وتعالي يا ابنة حلم لم يحلمهُ شريدٌ، ليكون لهذا الإنشادِ صليلٌ فوق العتباتِ الحيةِ . . كم ناديتُ : تعالي يا عتباتُ ؛

وأغلقتُ ورائي الأرضَ على صخبٍ وصليلٍ ؛ كم أشركتُ الليلَ معي في التهليلِ الهرطوقي ، وأطلقتُ لبوناتِ القلبِ على مُتحدِرٍ في «سنجار» وفي «سنجار» نزعُتُ عن الإنسانِ غلالتهُ القصديريةُ كي أمتزجَ المزجَ الحُرُّ بأجرامٍ مسرعةٍ تحت عباتِ الكونِ إلى ثورتها ، وهتفتُ : «تعالي يا أسلحة أكثرَ حذباً من أسلحة ،

لتهيءَ للميعادِ مخادعها الدؤلُ
وسنأخذها أخذَ مُغيرٍ مبتهجينَ كما يبتهجُ الفحلُ ويشتعِلُ» .
وهتفتُ : «تعالي يا ابنة قلبي ،
يا ابنة حلم لم أحلمهُ تعالي
غبراءَ من السهلِ يظللُكِ الحجلُ .

يا ابنة حلم لم أحلمهُ تعالي
مُترفةً بخزامي السهلِ يظللُكِ الحجلُ
وخذي «ترشيش» قرنفةً ، وخذي
مثل «الدامور» قرنفةً ، ولتغتسلِ القبلُ
بشفاه مثل شفاه المحروم . تعالي
ولتنكسرِ الأدرجُ الحجريَّةُ
تحت خطيٍ مثقلةٍ ببروقِ الحلباتِ ،
وتحت دروعٍ تتقاذفُها الأبديةُ
وليبتهلِ السيلُ إلى السيلِ فياني

حرٌّ من لغتي .
 حرٌّ من أبراج تتعالى في الهاوية .
 حرٌّ من أيامي .
 حرٌّ من غضبي .
 حرٌّ من خوذة كلِّ دمٍ .
 حرٌّ من تعبي .
 حرٌّ من حلفاءٍ يقتسمونَ غباري .
 حرٌّ من أجراسي .
 حرٌّ من لهبي ونحاسي .
 حرٌّ من صلصالٍ وغضارٍ .
 حرٌّ من صرخاتٍ المهزومينَ ،
 وحرٌّ من أسلابي .
 حرٌّ من مائدتي وندامايَ ،
 وحرٌّ من أنسابي .
 حرٌّ من عاصمتي ورياحي .
 حرٌّ من جوهرَي المكنونِ ،
 وحرٌّ من مرحي وجناحي .
 حرٌّ من أشكالٍ تتجانسُ في الحرِّيَّة .
 حرٌّ من أعضائي ورمالي .
 حرٌّ من رَعْدِ القَتْلِ ،
 وحرٌّ من تأييدِ وزوالِ .
 حرٌّ من عبثِ الإنسانِ . . تعالي
 يا ابنةَ حلمٍ لم أحلمهُ تعالي
 حاملةً خوفَ الحلباتِ إلى الحلباتِ ، وشدِّي «تلُّ الزعتيرِ» كالمنديلِ

على حجرٍ أُغْبِرَ مثلِ بلادي ، واقتلعيني جذراً جذراً لأبارك هذا اليأسَ
 الطَّافِحَ بالأشْرَعَةِ الأكثرِ لَجْماً للبحرِ ، وبالإنشادِ الوحشيِّ لساعاتِ
 السُّلْبِ . ويا ابنةَ حلمٍ لم أحلمه احتضني هذا المدُّ العارمُ من هجراتِ
 وعويلِ ، واحتضيني بجماهيرِ حاضنةٍ لهبِ الحلباتِ ، فقد هيأتُ الشهداءِ
 لجرحِ آخرِ ، واستعجلتُ طلائعهم فوقِ جُسُورِ الفوقسِ والنعناعِ المائيِّ .
 وللشهداءِ تزينتُ بأقنعةِ السهلِ ، وأحضرتُ الأرضَ معي كدليلٍ . .

محاكمة جانبية

«لشهداءِ
 أنثرُ قلبي كفراشاتِ ،
 وأقودُ إلى أعشاشِ الماءِ
 كبدي ،
 وعصافيرِ دمشقِ ، وسمائي
 وأهرولُ بين الأعشاشِ لأمسكَ موجاً ،
 أو عاصمةً ،

أ/
 إنْ مررتُ الأرضُ ولم تلتفتِ
 إليك ، واستوحشك السُّبُلُ
 وعذتْ من ثورةٍ
 مكتملاً كالبرقِ إذ يبتدي
 يحذُّهُ المقتلُ
 فما الذي تفعلُ؟

وأهرولُ بين الأعشاشِ لأمحو
 هذا الزبَدَ العربيَّ عن الأسماءِ .
 كلُّ شهيدٍ يتقدَّمُني الآنِ ،
 وللشهداءِ
 أنثرُ قلبي كفراشاتِ
 وأقولُ : انكسري يا أعلامُ وغيبي
 يا قصباتِ النصرِ العربيِّ المترعِ
 بالأظلافِ وبالطَّيِّبِ
 ولينطلقِ الأمراءُ إلى نصرٍ أكثرَ مهزلةً ،

ب/
 وإنْ أتاك الجبلُ
 في درعٍ من أسلمتهم للجبلِ
 وفاجأتك الثورةُ الثانيةُ
 وفاجأتك الدُّورُ
 بالطعنةِ الثانيةِ
 إنْ صرتِ كالرقاصِ مسترسلاً
 يجذبك «الأكيدُ»
 إذ يجذبك «المُخْتَمَلُ»
 واكتمَلِ المُغْضِلُ
 فما الذي تفعلُ؟

ج /

ها أنتَ مستفجلاً ،

مُحْتَمِّمٌ ، وخطوكَ الجوهرُ .

ها أنتَ كي لا ترى

أنقاضهم ، تحضنُ أنقاضهم

وينفضُ الدهشةَ عنكَ

العدمُ السَّاحِرُ .

ولينطلقِ السُّفهاءُ . . سأعلو

نَزَقًا كالغزوِ على واجهةِ الصحراءِ .

كلُّ شهيدٍ يتقدّمني الآن ،

وللشهداءِ

أنشرَ قلبي كفراشاتٍ وزبيبٍ ،

وأقول : تعالوا ،

هذي أعلامٌ تخرجُ من مَقْتَلنا

بيضاءَ ، وهذي عاصمةٌ تخرجُ من مَقْتَلنا

والأيامُ تحاذي هاويتي وعرائي

وأنا أمسكُها وأهروؤُ

بين القلبِ المنشورِ وبين الشهداءِ» .

با ابنة قلبي ،

يا حاملةً هذا الدرعَ الوحشيَّ إلى الحلباتِ

تعالِي ،

وتعالِي يا فتياتِ الظلمةِ محتشماتِ برداءِ الخليجانِ ، ومؤتذراتِ

بالهولِ ، فهذا شمدينُ يمهّدُ ثانيةً للأجرامِ مواسمها ، ويميلُ على العشبِ

كَمَنْ يسمعُ تهليلَ الحجرِ الغارقِ في العشبِ ، ويخطو - والأيامُ وراءَ قوائِمِ

بغلتهِ الشقراءِ تقومُ وتخطو - نحو جحيمِ الإنشادِ . وفي لحظاتِ خالصةٍ من

لحظاتِ الكئيدِ يجسُّ بمنجلهِ القوسِ الغامضَ من أقواسِ الإنسانِ ، ويهوي

بيدٍ ممسكةٍ بالنجلِ فوقَ القوسِ فتمتلئُ الحلباتُ بأسلحةٍ ويواقيتِ وجلودِ :

هذا شمدينُ ،

وهذا إنشادُ الصلصالِ الحيِّ لشمدينِ ،

وهذي بغلتهُ الشقراءُ تجاورُ نبعَ الإنسانِ وتُقفلُ راجعةً : «يا شمدينُ
يا أدراجاً عاليةً ،
تصلُ الطعنةَ بالطعنة ،
والأقمارَ بأقمارِ الطينِ
ماذا أخبرتِ الخابورَ؟
وماذا ألقيتَ إلى بردى
من أخبارِ يبعثها الفقراءُ إلى الفقراءُ؟
ماذا ستقولُ؟ أكانَ الماءُ
شبحاً من أشباحِ الشُّحاذينَ ، وكنتِ يدا
تحملُ خبزاً وجوازاتِ للسُّفرِ الميمونَ؟

يا أدراجاً عاليةً يا شمدينُ
أعرفُ أنكِ تشهدُ ،
أنَّ الأرضَ مهرولةٌ تحتِ جناحي وجناحِ الجليلِ المطعونِ» .

هذا شمدينُ ،

وهذا إنشادُ الصلصالِ الحيِّ لشمدينَ .. تعالي
يا فتياتِ الظلمةِ محتشماتِ برداءِ الشُّبعِ ، ومُؤتزراتِ بالبحرِ ، فهذا شمدينُ
يجاهرُ ثانيةً ضدَّ الأمرِ في الثُّكناتِ ، ويبتكرُ الريحَ وأقواساً للريحِ مزركشةً مثلِ
الثوبِ التركيِّ ، ويُخني قامتهُ الفرعاءَ لسنبلةٍ أو لقطاةٍ عابرةٍ : «يا شمدينُ .
ها أنتِ محاطٌ بنساءٍ «بريقاً» يا شمدينُ ،

ونساءُ «بريقاً» مؤتزراتِ بجلودِ الماعزِ والمجهولِ يخيطنُ بلاداً ثانيةً بين
يديكِ ، ويرفعنِ رداءَ البحرِ إلى منكبكِ الأعلى بين مناكبنا ، أو يجعلنِ
الليلَ عناقيداً تتدلى من داليةٍ تحتِ الثديينِ ، ويهتفنِ : نساءُ نحنُ ، نساءُ يا

شمدين، وللعنات المغسولة بين ذراعيك سنبدأ هذا العرس المغسول
بعافية الأثنى يا شمدين .

ها أنت محاطٌ بنساء الأردن، وتبكي يا شمدين
ونساء الأردن يقطنن النهر كأرغفة الخبز، ويرفعن قناعاً من بوتاس
ومياه بين يديك، ويستدركن فيمسحن جفونك بالزيتون .
ها أنت محاطٌ بالأقنعة الكبرى لفراغته
يقتلعون الأهرام وينتحرون .

ها أنت تهيمُ ثانيةً للموت خلاخيل الحلبات، وتدنو
من مُبتدئٍ يتوارثه الفقراء، ويرفعه
نحو يديك العيارون» .

هذا شمدين،

وهذا إنشادُ الصلصالِ الحيِّ لشمدين . . تعالي

يا ابنةَ حلمٍ لم أحلمه تعالي

فأنا الأبويُّ، وقد أرخيتُ جبيني فوق جهاتِ الإنسان، ومثُّ
فأحييتُ الموت . أنا الأبويُّ وبدئي أحصنة، وعذاباتي تتناسخُ في أشكال
مُترفة؛ وأنا المُترَفُ ألقى بين يديَّ الإنسان مباحجَ لعبته الكبرى، وأقولُ:
تعالي يا ابنةَ حلمٍ لم أحلمه فقد صعدتُ هذي الأدرجَ البحريةَ أرضُ
وعذارى مستسلمةٌ للعباتِ الرُّطبةِ والفولاذِ المسفوحِ على عتباتِ الشهداء؛
ومن أدرجِ البحرِ صععدنا مؤتزرينَ بأحجارٍ ساهرة، وبلبنانَ الصلصاليِّ،
وكالميعادِ الحلوِ غمرنا بعباءاتِ الأحشاءِ مدارَ الأسلحةِ الكبرى للروح،
وقلنا: «لا فاجعةَ اليوم، بل الأكثرُ غمراً من عافية»؛ وسفحنا العافيةَ
الأكثرَ غمراً من عافيةِ فوق الأدرجِ، وفوق العتباتِ الحيةِ للأيامِ الكبرى
كالروح . وها نحن الآنُ أمامَ نسيجِ غضِّ للأعماقِ، وعاليةِ كالألبابِ

مجالسنا بين البحر وبين سجاج الأقدار ؛ ولإلّسان العارم كالصرخة تنزعُ
عن جبهتنا هذا الطوق المائيّ ونركضُ في أقنعةِ الحوذيينِ إلى لهبِ
سنصالحه الآن . الآنَ تعالي يا ابنة حلم لم أحلمهُ ، فقد أرخيتُ جيبني
فوق عويل الأسواقِ الممتدّة من أبوابِ «كليمنصو» حتى «فتّال» ، ومن
«فتّال» إلى «الميناء» حملتُ إلى «شيبوب» الكرديّ بلاداً ثانيةً :

يا شيبوبُ

أذكر كيف جلستُ إلى جانبنا يا شيبوبُ
ووضعتَ الصحنَ على حجركَ يا شيبوبُ
وتناولتَ قليلاً من ذاك الرزُّ الساخنُ .
كنا نتحدثُ عنك ، وعن متراسك يا شيبوبُ
بين عواءِ القنّاصينَ ،

وبين صحونِ الرزُّ الساخنِ والأنقاضِ .
وإذا التفتَ الواحدُ منا صوبك يا شيبوبُ
كنتَ تميلُ بعينيكَ كطفلٍ خجلانٍ ..
وماذا أيضاً يا شيبوبُ؟

قيلَ ركضتَ إلى صاحبك المجرّوحِ وفاجأكَ القنّاصُ
برصاصاتٍ خرقتُ قنبلةً
كنتَ تعلقُها تحتَ حزامك يا شيبوبُ
قيلَ تناثرتَ تماماً ..
وتناثرتَ تماماً يا شيبوبُ .

فليتمهّلُ هذا الجمعُ الصاعدُ من أدراج البحرِ لأحملَ بين يديّ بلاداً
ثانيةً من «فتّال» إلى «الميناء» ، لأجعلَ ملكي تهباً للإلّسانِ العارمِ
كالتهليلِ البحريّ ، وكالإنشادِ المرفوعِ إلى العتباتِ الكبرى ..

فليتَمَهَّلْ قلبي يا ابنةَ حلمٍ لم أحلمهُ ، فإنني مكتسحٌ هذي العتبات
بشيرانٍ وعصافيرٍ ومفاتيحٍ مزركشةٍ بالأكبادِ ، وكالميعادِ الحلوِ سألِيسُ ثوبَ
الأسلحةِ الأكثرِ غمراً من عافيةٍ ، وسأنتظرُ الحوذياتِ يَجِثْنَ على مركبةٍ من
أحناشِ الزَّيْدِ البحريِّ ، وقد غَطَّيْنَ سماءَ الإنسانِ بأشرعةٍ وملاءاتٍ
كالصلصالِ ، وبهتفتنِ : «تقدِّمُ يا ابنَ نشيدٍ لا تنشدهُ المرأةُ إلاَّ لَعقَابِ
الفحلِّ ، فنحنُ الحوذياتُ صعَدنا درجَ البحرِ إلى موجتكِ المرفوعةِ بين دروعِ
النساجينِ ؛ صعَدنا مبتهجاتٍ برنينِ جناحيكِ ، وتهليلِ المعدنِ في أقواسِ
حروبٍ لا تملكها الآنُ . ونحنُ الحوذياتُ سندعوكِ إلى زبدِ ، وخيامِ بين
الزَّيْدِ البحريِّ لثملي تعبَ الإنسانِ على الحجرِ المغسولِ بعافيةِ الحربِ ،
وكلحربٍ سنمسحُ عن عينيكِ بروقاً مَيَّتَةً ، وسنأتيكِ على عِرْزالِ البحرِ
بصقرٍ مباحنا ، وبخرنوبِ القولِ » . تمهَّلْ يا قلبُ تمهَّلْ .

كلُّ شهيدٍ يتقدَّمُني الآنُ ، وقلبي
عنبٌ يتدلَّى كثرِيَّاتِ البلُورِ ، ورمَانُ
وأنا الدرْعُ المغسولُ ، وأعضائي
مَحْضُ حروبٍ مُتَرْفَعَةٍ ، والجيرانُ
صُدْفُ ورياحٍ . . فتمهَّلْ
يا رِقاصَ القلبِ تمهَّلْ ، ولتلتحمِ الطُّرُقُ
أَنْ يَدْحِرْجَ هذا الرَبُّ كواكبَهُ
من «سنجَارَةٍ» إلى «تلِ الزعترِ» جَهْمَا
في أفتنةِ الحلاجينِ ، ويحترقُ :
ولتتحدِرِ الأرضُ قليلاً صوبَ يدي لِينحدِرِ الإنسانُ
من وحشتهِ ومكائدهِ الأكثرِ نَهْباً ، فأنا الحَذِقُ
صَلْباً سَادَاهُمْ ما يرفعهُ الإنسانُ على أدرَاجِ مكائدهِ ،
وسأقتلعُ العتباتِ ، ونفترقُ :

«كلٌ سيضيءُ هزائمهُ في الإنشادِ ،
وللإنشادِ الأبعدِ في ميعادِ هزائمهم سيهيئُني البركانُ
بخلأخيلٍ ، وقلاداتٍ . . للإنشادِ سيُنشدني لهبٌ ،
وسينشدني الحجرُ المُتَرَفُّ والبركانُ» .
فلتنحدر الأرضُ قليلاً لأداهم هذا المجهولُ وأسلحتي البانُ
وفراشاتٌ من صَحَبِ الأناقصِ . . تمهَّلْ
يا رِقاصَ القلبِ ، فهاهم يأتونَ ووجهُتُهُمُ
هذي الأعشاشُ المرفوعةُ مثلي
فوق يدينِ من اللَّبابِ إلى تهليلِ الإنسانِ . . تمهَّلْ
ها هم يأتونَ وَمَقْتَلِكِ الرِّبَانُ
ومالكُ العذراءِ تميلُ كبوصلةٍ نحو جهاتٍ أخرى ،
وتميلُ كبوصلةٍ : «لم يُلجئكَ دَمٌ ، فخرجتُ ، ولم يُلجئِكَ مكانٌ» .

لا تتمهَّلْ يا قلبُ ، فقد أصغيتُ - ومثلي
يُصغي أحياناً - لعذاباتِ الموجِ ، وهولتِ الأحزانُ
مثل فراخِ الجُهْلُولِ إلى أعشاشِ أرفعها ،
وتوارى أرفعها كالأعشاشِ إلى مهزلةِ الإنشادِ .
لا تتمهَّلْ يا قلبُ ، فقد أحضرتُ عتادي
والأقنعةَ الكبرى للحلباتِ . .
أنا الحلباتُ ودرعُ حروبِ مُتَرَفَّةٍ ، والجيرانُ
صُدْفُ ورياحُ ؛ فليتقدَّم من ميعادي الشهداءُ فقلبي
عنبٌ يتدلَّى كثرِّياتِ البلُّورِ ، ورمَانُ .

١- السيدة

صعدت مدارجها النباتاتُ الخجولةُ ، وانحنى
غصنٌ لغصنٍ متعبٍ ، والعاشقاتُ
من هنا يصعدن مدرجهنَّ ، والأرضُ التي
جاءت بأقدارٍ من الأجرِّ تصعدُ مدرجاً ،
جاءت لتردمها الحياةُ .

من هنا صعدتُ مدارجها الغيومُ ، ومن هنا
صعدتُ مدارجها الدروعُ ، وأقبلتُ
خوذةً يدحرجها الحفاةُ :

هكذا هيأتُ مسرحيَ : انهضي يا أبجدياتُ ، انهضي ، أو هيئي
للشعبِ عمر فراشةٍ يا ربيعُ ، يا غيبوبةً حفلتُ بكلِّ مهدمٍ من مجده ..
ها إنني هيأتُ موتاً ضارعاً ، هيأتُ عرسَ معادنٍ للشعبِ ، ثم
صرختُ : ما للأمهاتِ جثمنٌ حول الشعبِ يربطنَ الكواكبَ بالغصونِ؟
إنني أثرتُ أن أستجمع الموتَ الذي أحيأه في أيامه ،
وخلعتُ في أيامه مُلكي ، وجثتُ من الحنينِ .
خلفي اجتياحُ عابقٍ بالغامضينَ ، فإن رفعتُ إلى حياةٍ هرجها اندلعتُ
حياةً خلسةً كمهريجٍ تحت الخواصرِ والبطونِ .
ولحتكمُ ،
ولحتُ كيف بلادنا وقفتُ وراءَ شبآكها ،

وهوتُ على سور الحصون
غيمةٌ . وهذاتُ مشدوهاً يطعنُ عناصرُ مشدوهةٌ ، وصرختُ : سربُ ،
وانعكاساتُ لمصخر تحت أعمدتي ، وبني شعبُ يسوقُ عراءَه ؛ هيا امنحوني
ظلمةً مغسولةً في ظلِّ مدرجكم .. أقولُ : قبائلُ قلبي أقولُ : غدُ
يضيقُ على الجنونِ .

ودمي رنينُ مالكِ مذهبولة تعلقو ، ويعلو بينها
هَرَجٌ لأندلسٍ تفوحُ من الرنينِ .

وأقولُ : يا أمراءَ هذا السُّنْدسِ البالي انهضوا ؛ سترونني في ردهة ما
بين قرطبةٍ وقافلةٍ بِأَحرِ مصرَ ، ثم ترونَ هذا الأطلسَ الباقي يهزُّ هريراً أنثى
الكلبِ :

«يا للسيدةُ

أخفتُ سراويلَ ابنتيها ، ثم ألوتُ عنقها لغلامها :

قُبَلٌ قُبَيْلَ جلوسهم للمائدةُ

قُبَلٌ نُعَيْدَ جلوسهم للمائدةُ

والسائسُ المحزون في إسطبله

حذراً يفكُّ لجامَ بغليه السماويين في أدبٍ جليلٍ تارةً ،

أو يشتمُّ البغليين مُرَبِّدًا ويُلغِي القاعدةُ :

سرجٌ لهذي السيدةُ

سرجٌ لكلبِ السيدةُ

سرجٌ لزوجِ السيدةُ

سرجٌ لأمَّتِها ، وخادمها ، وسرجٌ

للسماوات التي هبطتُ كديكٍ وسطَ صحنِ المائدةُ

سرجٌ لطيرِ السيدةُ

سرجٌ لحقل زهورها .
سرجٌ لآلهة تخيطُ القاعدة»
وأنا أدور كَهدهد لا يهتدي للماء ، بل لجفافِ بلدانٍ مغبرةٍ كسرب
الماعز : «الكلبُ الذي أسرجتهُ ، والسيدةُ
في غرفةٍ موصودةٍ ، والزوجُ خلفَ المائدةِ
يهوي بقبضته على رُحلي ،
وينهضُ حاملاً أيامَهُ المستنفذة» .

قولوا لشعبٍ تحت أعمدتي : اغسلوهُ ،
واربطوا أيامَهُ كالحريرِ حولَ الأعمدةِ .
قولوا : اقتلوهُ تحت قوسِ الأعمدةِ
وتقاسموا رثيته كي تنتفسَ الأمُّ الحبيسةُ فيه . إنَّ تخومه مشغولةٌ ،
وهو احتمالٌ : ربُّما
أغواهُ نقشٌ فوق بواباتِ سيناءِ الفريسةِ ، ربُّما
تاريخُهُ المنسابُ فوق الأعمدةِ .

قولوا لشعبٍ تحت أعمدتي : اقتلوهُ تحت قوسِ الأعمدةِ .
قولوا لهذي النسوةِ المستعجلاتِ : اجمعنهُ جمعَ الدوابِ ، وانحدرنَ
به مدارجكنَّ نحو القاسمِ الحجريِّ للشعبِ ؛ انحدرنَ إليه ، واستغرفنهُ
بزبرجدِ الظلماتِ :
«يا للسيدةُ

ترنو إلى ابنتها ، وتجزمُ أنها مأخوذةٌ بجراحنا ،
وتميلُ في غضبٍ لتدفعَ كأسها متعمدةُ
فيضيقُ سطحُ المائدةِ» .

ويضيق قلبي مثل فوهةٍ فتسقطُ منه أعشاشٌ وطيرٌ مَيِّتٌ ويفيضُ حول
الفوهةُ

ذُوبٌ من الفولاذِ ممزوجٍ بطينِ الآلهةِ
ويردُّني أصلُ تنبأتِ الحياةِ به :
شمساً مقسِّمةً ، وأجراساً تدلَّت تحت زهرِ الفاكهةِ .

قلبي السبائكُ ، من ترى يغتالني فَرِحاً بنصلِ حاذقٍ يهوي به في
شَحْمَةِ الكُطْرانِ؟ يا للقلبِ ، يا لسبائكِ في القلبِ ، يا لحراثةِ ثيرانها في
القلبِ ترتطمُ العشيَّةُ بالعُضارِ الحيِّ والمدنِ . احملوا أفضاصكم وسروجِ آباءِ
يبارك موتهم ما تبعدون الآن من موت ؛ سأنتظرُ الحياةَ ، وربما أستعجلُ
الصُدْفَ اعترافاً بانشقاقِ جارفِ تعدو الحياةُ إليه . لكنني ائتمرتُ بغامضِ
ملائنَ ، وائتمرتُ بنخلي كوكباتِ النخلِ ، وانشقَّتْ جواهرُكم عن المركومِ
من خَرْفِ وأصدافِ : ألا انتظروا .

ستعرفُ موجةً موجاً ، وتعرفُ صارياتُ
أنها مأخوذةٌ بفراغِ هذا البحرِ ، والحجرُ
سيغفو في فراغِ عادلٍ ، وتضيءُ مآتمها
فراشاتٌ ، ويخلعُ جذرُه الشجرُ .

عودي إذن يا ساحراتُ ، ويا حروبَ الباطنِ : الأرضُ التي وقفتُ هناكُ
ولم تقفُ ،

خرجتُ إلى ميثاقها تعدو ، ويسبقها المدى والأدْمِيُّ .
وأنا أُرْدُ مالمكي للكهفِ ، ثم أحيطها بغياهبِ ،
وأشقُّ بين غياهبي مجرىً لآجرٍ يسيلُ به الدويُّ .
وأقومُ معتكراً حصارِي ، عارفاً

أني حصيلة غامض حملت لها الأعشاشُ ذعرَ طيورها ،
وأنتُ تحفُ بها الحناجرُ ؛ عارفاً أني الوريثُ الأدميُّ
للبحرِ ، أو لخلائقِ تبكي ، ويحضنها غبارَ ساحرٍ ،
غَضُّ ،
وحيُّ .

علمتني يا شعبُ كيف أقودُ سربِ جنادبِ في القلبِ ، كيف أقودُ هذا
القلبَ مثل نعامة ، وأموهُ الأثرُ الذي رسمتهُ أحزانُ الفرائسِ في حدودِ
القلبِ وهي تميلُ هاتفةً بكلِّ غزاةٍ للرعْدِ : « قفزاً يا غزالَ الرعدِ ، ذا شركِ
سماويِّ ، وتلكِ مكيدةٌ للأرضِ » (هل علمتني يا شعبُ أن فؤادي المذعورُ
غزلاًن وصيادون) يا أرضُ انهضي . .

يا حفرةً تمشي وئيداً مثل بغلِ الأجديات ، انهضي . . .
إنني استجمعتُ أكباداً ، وقاسمني الحطامُ
مخدعاً ، وعرائساً حملتُ لها الأحزابُ رملَ دروعها ،
واستجمعتُ أكبادها كالعقد ؛

يا لعذوبة كالعقد ،
يا للشعبِ ما استجمعتهُ نجماً فنجماً
خلفَ هذا الفاصلِ العدميِّ إلا شدني موتٌ ، وعادوني الهيامُ :
« يا صباحَ الشعبِ ، يا امرأةً يقاسمُها الحطامُ
مخدعي ، وأرى يديها
نيزكاً لطفولة ،

وأرى الطفولةً هدهداً وقرى تنامُ
وهي تلتقطُ الحُبَّاحِبَ والسنينَ ؛ أرى الطفولةَ بيدراً
تخفيه سنبله ، ويسرقه الحمامُ .

وأنا وسنبلة تقودُ سماءنا مثل الثعالبِ نحو كَرَمِ الأجدديات : انتظر يا شعبُ كيف تمرُّ مصرُ غداً ، ونسهو عن جنازاتِ هنا ، ويقودُ مآتمنا الكلامُ .

٢- السيد

لم أقلُ : موجي نبي ،
لم أقلُ : أحشائي التفتُ على ورد ،
وشقَّ غشاءها البحريَّ ورْدُ .
لم أقلُ : هذا غطائي
شَفَّ عن ثدي تناوبَ طعنه حرَّ وبرْدُ .
لم أقلُ كيف التقيتُ الشعبَ مرفوعاً على هذيانِ سنبله تقودُ سماءها
مثلي ، وكيف خلعتُ عن صدري دروعاً غضةً ، وركضتُ : «نصفي
صاعقٌ ، نصفي من الأجر» واستحلفتُ كلَّ خليةٍ أن ترتدي أرضاً
لنهتفَ : من هنا يا شعبُ ،
من بهو يحاذي سقفه الدمويَّ رعدُ .
ولتكن أحزاننا زمراً من الفلزِ الإلهي الذي يُحصى ولا يحصيه عدُّ .

إنني الطبقاتُ ترفعُ ختمها ونبيدها
نخب أندلاع ؛ إنني الطبقاتُ تحضنُ خوذةً أخرى ،
وروحى ماعزٌ ، ويدايَّ وعدُّ .
من هنا يا شعبُ ،
من بهو يداعب سقفه الدمويَّ رعدُ .

من هنا : يا لاحتفالي ،
يا احتفالَ الشيبِ والياقوتِ ، يا لمدينةٍ

تعدو كثورٍ نحو ينبوعِ الخرافيينَ . يا لَكواكبِ مغسولةٍ

بعويلِ عرّافاتِها . يا لاحتفالي :

ساهرٌ هذا الغبارُ الغَضُّ مثل أياثلٍ جفلتُ ،

وقلبي الفاجعيُّ

خوذَةٌ ومهرٌ جونٌ . . تعالَ يا شعبي ، تعالَ ، أنا الوريثُ الأدميُّ

لفرائسِ كَمَنْتَ لها أجناسُها ،

ومشى إلى ميعادِها مَيّتٌ وحيُّ .

أب - ١٩٧٥

الجمهرات

(في شؤون الدم المهرج والأعمدة وهبوب الصلصال)

مَنْ قَالَ إِنَّ الْعَائِدِينَ إِلَيَّ لَمْ يَصِلُوا إِلَيَّ ، وَإِنَّا
لَمْ نُشْعَلِ النَّهْبَ الْجَدِيدَ مُبَارَكاً وَسَطَ الصَّلِيلِ وَوَسَطَ أَقْنَعَةِ الْمَسَاءِ ؟
أنا المساءُ
أنا المساءُ

هذي خطايَ على مدى بَهرٍ من الصَّلصالِ يدخُلُ كلُّ ميعادٍ إليه
مُضَرَّجاً بعويله ، وأنا المساءُ

مَنْ قَالَ مَا عَادَت جِيَادِي كَالجِيَادِ ؟
مَنْ قَالَ كَانَتْ طَعْنَةً وَأَفَقْتُ إِذْ هَتَفَتْ وَصَيَفَاتُ الرَّمَادِ
فَرَأَيْتُ أَنَّ الْعَائِدِينَ إِلَيَّ لَمْ يَصِلُوا إِلَيَّ ، وَأُنْثِي
جِدْلَانُ؟ . . . فَلْيَدْنُ الْهَبَاءُ مَزِيناً بِأَزَاهِرِ الْيَقْطِينِ ، وَكْتَمِلِ الْجُسُورُ .
نحوي كأنشي وليكنْ نهباً أخيراً .

وليكنْ . . . سَتَرُونَ مَا رَأَتْ التَّخْوَمُ : خُطَى تَمْرٌ ، وَبَعْدَهَا يَرْفُو التَّرَابُ
كلُّ ملحمةٍ بخيوطِ أغبرٍ ؛ وتروونَ إذ يأتي الخرابُ
أَنْ تَحْتَ دَرُوعِهِ دَرَعاً مِنَ الرِّيشِ . ابْتِهَالٌ فَلْيَكُنْ ،
فأنا المساءُ
أنا المساءُ

أَطَبَقْتُ أَهْدَابِي عَلَى حُلْمِ ،
وَسَرَّحْتُ الْعَذُوبَةَ وَالرَّمَادُ
وَفَتَحْتُ أَهْدَابِي عَلَى حُلْمِ ،

وها كَفَّايَ تَلْتَقِطَانِ مِنْ شَرْرِ الْهَبَاءِ
 شَرّاً ، وَتُطِيقُ بِالْدمَاءِ عَلَى الدَّمَاءِ .
 وَأَحِيطُ بِالْأَنْفَاسِ هَذَا الْحَيِّ - وَسَطَ نَشِيئِهِ وَمَدِيحِهِ -
 وَأَقُولُ : «هَا أَبَوَاتُنَا ، خُذْهَا إِذْنُ
 وَلَيْسَتِيءُ تَهَبُّ ، وَكُنْ عِنْدَ النَّفِيرِ
 يَقْظَانُ تَشْرَبُ مِنْ يَدَيْكَ
 هَذِي الْيَنَابِيعُ الْغَرِيبَةُ . خُذْ إِذْنُ أَبَوَاتُنَا ،
 وَافِرِدْ رِيَاخَكَ فِي مَهَبِّ دَمٍ ، وَمُرَّ مَعَ الصَّفِيرِ
 كَأَشَدِّ مَا تَطْوِي الرَّمَالَ لِقَالَتِكَ نَحْوَ الْغَدِيرِ
 وَانْهَضْ قَلِيلًا ، نَظَرًا مِنْ أَمْسِكَ - الصَّلْصَالِ صَوْبَ غَدِي تَرِ الدَّمِ (إِنَّهُ
 دُمُكَ - الْمَدَاخِلُ) . . . » إِنَّهُ
 جَهْمًا يَلُوحُ بِالْقَنَاعِ ، وَإِنَّهُ - قُرْبَ الْجَذْوَرِ ، وَقُرْبَ قَهْقَهَةِ الْبِرَاعِمِ
 يَسْتَدِيرُ إِلَيَّ مِصْطَدِمًا بِأَجْرَاسِ السُّدِيمِ .

أنا المساء

أنا المساء

مِلْثِي رَنِينَ مُصَائِرُ تَتَفْتَحُ الْأَنْقَاضُ تَحْتَ هَبِوبِهَا :
 وَمَعِي هَبُوبُ الْكَائِنِ الْمَهْدُورِ فِي أَعْرَاسِهِ ،
 فَلِمَ الَّذِينَ أَتَوْا أَتَوْا هَلْعَيْنَ مِنْ صَخْبِ الْمَكَانِ؟ أَنَا يَقِينًا قَادِمٌ مِنْ جَوْهَرِ
 حَيٍّ إِلَى حَيٍّ يُرْتَقِ صَلِيلَ حَاضِرِهِ ، وَمِلْءُ مَرَكَبِي مُدُنٌ ، أَقُولُ : تَقَدَّمِي يَا
 أَبْجَدِيَّةُ ، وَانْحَدِرِي يَا صَقَرُ هَذَا الْمَأْتَمِ . انْحَدِرِي ، انْحَدِرِي يَا أَقْحَوَانُ ، لِأَسْرَحَنَّ مَعَ
 الْحَدِيدِ مَزَاحِمًا هَذِي الرِّثَائِ .

أنا المساء

أنا المساء .

هل ترجعون إليّ إذ زيد يطفو
دافعاً بتيوسه البيضاء صوب دم يحار: «أتذكرون
مآلت على صئين بارقة من القصدير فالتأمت مواجهه، فأجفل
قاسيون

حران محتضناً قناع أنينه ،
وأساور الحجر القليل ، أتذكرون
كان المساء مكوراً كئيد ، وكان دم - وصيف
قادمًا في هيئة الحجر؟ انتظر ،
قلنا انتظر يا قاسيون
كم أنت من حجر ، وكم هذا الحجر
متهدل . قلنا : اصعدي يتها الطيوف
من خراب رافل في إزته ، واسبقنا يتها اللواتي ضغن بين خناجر
النسرين يسبقهن في دمنا الحفيف .

فإذا التقينا كن تحت عرائش البازلت والحماء الحرون
أوقذن للنهب المساء . سترجعون
متأبطين طفولة اللهب . انثروني
فوق صرختكم أكن وقتاً لوقت مترف ، فانا المساء
أنا المساء

ضبعت بين رثانكم رثني فما تتنفسون سوى رنين مئثل بالطيش ؛
لا ، لا كبلن دماء كم بدم شريد ، طاعناً بالأقحوان منابع الأشكال حيث
حضوركم جرس ، وهذا الجوهر الخطاب متكىء على فأس الهباء الباسل .
التقطوا الرنين ، أنا المساء
أنا المساء

**

حين تَوَجَّعَ الرَّمَادُ الرَّمَادَ ،
 وَأَلْقَتِ الْمِيَاهُ بِأَقْفَالِهَا فِي الْمِيَاهِ ؛
 حين سَفَحَتِ الْمَنَاجِلُ مَدَائِحَهَا لِلصَّلْصَالِ ،
 وَتَدَلَّتْ صَوَاعِقُ النَّيْلُوفِرِ مِنَ السِّيَاجَاتِ ؛
 حين مَحَتِ الْأَخْتَامُ الْأَخْتَامَ ،
 وَتَقَطَّعَ عَقْدُ الْأَشْكَالِ ؛
 حين أَنْبَجَسَ الْغَامِضُ فِي الدَّمِ ،
 وَدَخَلَ الْغِبَارُ الْمَهْرُجُ بِهِوَ الْمَسَاءِ ؛
 حين أَنْحَسَرَ السَّدِيمُ عَنِ السَّدِيمِ ،
 وَهَدَّأَتِ الْأَنْوَالُ الْأَجْرِيَّةَ ؛
 حين تَشَبَّهَتِ الْجِهَاتُ بِقِنَاعِ الْبِرَاعِمِ ،
 وَحَشَدَ الرِّنِينَ أَبْوَاقَهُ بَيْنَ الْأَبْوَاقِ ؛
 حين صَعَدَتِ الصَّرْخَةُ سَلَالِمَ النَّبَاتِ ،
 وَكَسَرَ النَّبَاتُ أَبَارِيْقَ الْجَذْوَرِ فَأَنْدَلَقَتِ الْأَعْمَاقُ وَالْمَدَائِحُ ؛
 حين غَطَّى الْحَاضِرُ الْمَلُولُ قَنَاعَهُ بِوَمِيضِ الْخَوَاتِمِ وَالْقَهْقَهَةِ ،
 وَحِينَ جَاءَتِ الصَّارِيَةُ : نَصَفُهَا حُلْمُ الْمِيَاهِ ، وَنَصَفُهَا حُلْمُ الْيَابِسَةِ ؛
 حين ضَمَّ الْمَرْتِيُّ فَوَانِيَسَةَ الضَّائِعَةِ ، وَسَرَّخَ الصَّبَاحَاتِ ؛
 حين تَفَتَّحَ الْعَرَاءُ عَنِ الْخَطَى الَّتِي لَا تَصِلُ ؛
 وَحِينَ قَرَعَ الْبَعِيدُ صَنْوَجَ الْبَعِيدِ . . .
 أَنْثَدُ ،

لم يكن بيني وبين الكائن غير فرسخ واحد من الألهات والصليل ،
 قلتُ : لا ، لن يصل الكائن إلى الكائن إلا نهباً . وَخَزَمْتُ الْجِهَاتِ ، رَافِعاً
 لِلرَّحِيلِ مِرَاسِي الْبَطْشِ وَالْجِدَالِ ، كَأَنِّي سَأَفْتَحُ لِلخَاطِمَةِ مَدَاخِلَ الْعَذْوِيَّةِ ،
 وَلِلْمَكَانِ مَتَاهَ الْمَكَانِ . غَيْرَ أَنَّ الْكَوَاكِبَ أَتَتْ - قَبْلَ هَذَا - وَأَتَى الْغَامِضُونَ

شاهرينَ على الجمهراتِ خناجرِ الصباحِ الشريدِ . . . وقلتُ : لا ، لا كُشِفْنَ -
قبل هذا - غطاءَ الجدورِ ، وليكشِفَنَّ عنيَ الدمُ غطاءَ الجدورِ ، كأني سأفتحُ
للخاتمةِ مداخِلَ البهاءِ ، وللمكانِ جدالَ المكانِ . . . لا ، قلتُ لا يصلُ الكائنُ
إلى الكائنِ إلا تَهْباً ، وهذا حضوري أكثرُ ارتظاماً من الصباحِ الشريدِ
بالأدوارِ :

فَلْيَكُنِ النَّهْبُ إِذْنُ ،

فَلْيَكُنِ النَّهْبُ

وليشيخِ الصليلُ خطى الأدميِّ ؛ فما مِنْ حَرْبَةٍ إِلَّا وترتفعُ الآنَ وسطَ
الأفقالِ والجباهِ ، وما مِنْ صحبٍ إِلَّا وفيه اجتياحُ باسلٍ للرمادِ :

فَلْيَكُنِ النَّهْبُ إِذْنُ ،

فَلْيَكُنِ النَّهْبُ

وليهبُ الحاضرُ الملولُ إلى جيادهِ الملولَةِ ، مُلهباً بسوطهِ الرُعفرانيِّ مجدَ
الأنقاضِ ، فها أُولي مديحِ نحنُ ، ندخلُ الحلبَةَ عاقدَيْنِ أكبادنا على
فاكهةِ ، ومصائرنا على براعمِ الغُضارِ . إن كَشَفْنَا عن كنوزنا كَشَفْنَا عن
تَرْفِ أدميِّ ، وأحاييلِ أكثرَ قنصاً من شباكِ العذوبةِ . وإن دَقَعْنَا خُطانا إلى
الحلبَةِ دَقَعْنَا القَهْقَهَةَ إلى سراديبِ المساءِ الحيِّ . . . فَمَنْ يدرجُ الباطلَ الآنَ
كدرهمِ معدنيِّ على رُحامِ الأشكالِ؟ وَمَنْ يُطَوِّقُ الأنينَ بدعمايَةِ المهرجِ؟
ضربةٌ أو ضربتانِ من معوَلِ حدقٍ ويجرفُ الصلصالُ ، بعدها ، هرطقةٌ
الصلصالِ في الفرسخِ المباركِ بيني وبينِ الكائنِ ، حيثُ اللُّهاتُ لهاتُ ،
والصلليلُ قناعُ الجهاتِ . بيَدِ أني سأجعلُ الفرسخِ المباركِ رخباً كدمِ ،
خائضاً فيه بالحناجرِ والأقحوانِ ، عارماً بهيماً ، تستطلِعُني الجدورُ ، وأستطلعُ
الجدورَ والمناجلِ الخبيثةِ في هزائمِ الكائنِ .

وماذا أيضاً؟ يسألُ المساءُ .

وماذا أيضاً؟ أسألُ المساءَ .

حينَ توجَّعَ الرمادُ الرمادَ ، وألقتِ المياهُ بأفعالها في المياه ، كنتُ فارداً
مدايَ زهراتِ النحاسِ والحَمْحَمَةِ ، مطبقاً بلهائي على الحناجرِ ، أكادُ
أحتجزُ الصباحاتِ على جسوري ، أو أحتجزُ الجسورَ بين الصباحاتِ وبينِ
الدم . لكنْ هذا النهارَ الأخيرَ - نهارَ العويلِ والأباطرةِ - انحنى وسطَ
مُنشِدِيهِ انحناءَ الأسيرِ ، فقلنا : « يقيناً لنثقلنك أيها الأخيرُ بالأغمدةِ
والأبواقِ ؛ لنثقلنك بعراكِ عادلِ ودمِ عادلِ ، سائقينِ إماراتكِ الأخيرةِ تحتِ
بيارقِ النَّهبِ والحديدِ » . يقيناً كنتُ مُترَفِّفاً بالنَّهبِ والحديدِ حينَ توجَّعَ الرمادُ
الرمادَ ، وكانت الطيورُ مذعورةً في مدايِ المناجلِ تأتي وتمضي رافعةً بينِ
المدائحِ البريقِ الأدميِّ للخرابِ .

وماذا أيضاً؟ يسألُ المساءَ .

وماذا أيضاً؟ أسألُ المساءَ .

ها أنذا مسترسلٌ في القَبْضِ على الصَّلْصالِ كَمَنْ أَشْرَكَتُهُ الطَّبِيعَةُ فِي
هَرَجِهَا الأَنْثَوِيِّ مِنْ غَيْرِ فَناعٍ ، وَمَنْ دُونَ ما يَجْعَلُ الْيُنابِيعَ طَفُولَةً لِلْمَعْدِنِ .
وها أنذا أتلمسُ الشهوةَ تحتَ درعي بيدٍ مِنَ الْعِماماتِ فلا ألتقطُ غَيْرَ
الأعْشايشِ وَالْفِناكِهِةِ ، شاهداً على انحلالِ الأفقِ خَلْفَ الفُؤوسِ وَسِيفِ
الزنايقِ ، شاهداً باسِطاً يَدِيهِ لِلنَّعْمَةِ ، حاضناً ما يحضنُ الحَيُّ مِنْ أسلابِهِ .
وكانَ يَجاسُ مُترَفِّفاً لدمِ مُترَفِّفِ أصعدُ سِلالِمِ الحِزامِي إلى الحَلَبَةِ ، حيثُ
النَّبوءَةُ وافتجاءاتُ المَواكِبِ الحَيَّةِ ، ناسجاً في صَعوديِ النِّساءِ (حينَ لَمْ
تَكُنْ نِساءً فِي الأَرْضِ) ، ناسجاً لَهْفَةَ الأَجْنَحَةِ وَحُرُوبِ الأَعاليِ ، فلا
تَتَبَدَّى لِي الأَرْضُ إلا موجةً مِنَ النحاسِ واسمَ شَهِيدٍ : أنا المُغَيِّرُ كما

ينبغي ، والعارفُ المَلُؤُ ، لا أسئلة لي ، ولكنني أشعلُ الخفي كالحجر ،
 وللبهاء الذي ينثر السَّمْسِمَ على الأرغفة أرفع الأسلحة ومقاديرها ، عارفاً أنَّ
 المكان يرفع مثلي لهذا البهاء أسلحته ومقاديرها ، وأنَّ الحشْدَ المُغَيَّرَ معي هو
 الحشْدُ المُتَّخِبُ للأقنعة الأزلية . وحيثُ ينحدرُ المعدنُ إلى صليله أتهبُ
 الصليلَ تهبَّ الجائع ، كأنِّي فلزٌ يدخرُ الفلزَ لفؤوس ستعلو مع النشيدِ وتهوي
 لتقتنصَ النشيدَ . وللَّذي سيطلقُ السهولَ كالماعزِ في هذا المُتَبَسِّطِ المُتَرَفِّ
 بامتداده ؛ للَّذي يرتدي للأرضِ وعرها ، وللبسيطِ مُشكِلَ البسيطِ . . له ،
 لهذه الخَلْخَلَةِ في هذَّةِ الكائن ، أنحرُ الينابيعَ والثواني ، مشيراً - كما تشيرُ
 البوصلةُ - إلى الحدودِ الخفيةِ . غيرَ أني

سأشعلُ

الأرضَ

قبلَ هذا

بطفولةِ

الجدورِ ،

وسأجمعُ الجَمْعَ الأخيرَ تحتَ بيارقِ الصَفِيحِ . وتحتَ بيارقِ الصَفِيحِ
 سأمهَّدُ الحلبَةَ كسريرِ العاشقةِ للبروقِ والعرباتِ ورهبةِ العَصَلِ ؛ وللبهاءِ
 العادلِ في الحلبَةِ سأحشرُ الأضدادَ حَشَرَ الأحناسِ . ووحدي - بحناني
 وشكيمتي وبأسِ القُرْنفَلِ - سأكونُ الخوذةَ على كلِّ رأسٍ ، وسأكونُ الدليلَ
 الدمويَّ في الأجسادِ المَهَيَّأةِ للعراكِ . غيرَ أني

سأشعلُ

الأرضَ

قبلَ هذا

بطفولةِ

الجدورِ ،

جريئاً كما ينبغي ، شارداً كَحِكْمَةِ النَّبَاتِ . وستأتونَ : أناملِي بين
أناملِكُم حينَ تَقْبِضُونَ على الشَّارِدِ في كلِّ حِيٍّ ؛ أنا الأَبْجِدِيَّةُ التي لا
تُفْصِحُ ، لكنكم تعرفونني ، ومعِي تُفْصِحُونَ عن الاندفاعاتِ الحَذَقَةِ للدم .
عادلونَ أنتم ، وللنهارِ الباسِلِ تنسجونَ الفلْزَ الباسِلَ . وحينَ تنحني الحَيَاةُ
انحنائِها الذَّهَبِيَّةُ تنحنونَ انحناءَ البَعْلِ ، فاتحِينَ لِلنَّعْمَةِ مسارِهَا بينَ الدَّمِ
والرمادِ ؛ وها أنتم ترفعونَ جذوعكم وَقَدْ غمرتها طمأنينةُ الينابيعِ والحربِ ،
وأرفعُ جَدْعِي معكم مُثْقَلًا بطمأنينةِ الينابيعِ والحربِ ، مُثْقَلًا بالأدوارِ ،
مُثْقَلًا بالخواتمِ والهباتِ ؛ ومعاً نُضْرِمُ في الحَلْبَةِ صَليْلَ المدائحِ ونلجُمُ
الأشكالَ . غيرَ أني سأرجمُ الأرضَ قبلَ هذا بالصباحاتِ ، صاعداً من
القرائنِ الوحشيَّةِ إلى القرائنِ الوحشيَّةِ بعتادِ الإنسانِ وبأسه ، كاشفاً عن
النهارِ غلالةِ الكوكبِ ، وعن الليلِ نَسْجَةَ الأثويِّ ، هاتفاً : فَلْيَكُنْ يا امرأةُ
العَرَاءِ ، فَلْيَكُنْ . سنجمعُ الآنَ مباهجنا كَصَبْرَةِ المسافرِ ، وَسَنُهْرِقُ الأعيادَ في
المأدبةِ التي لن يشهدها سوانا . ولكنني - في غمرةِ الهديانِ الأخيرِ
لللكواكبِ وانكساراتِ النشيدِ ، حينَ يبقى الوحيدُ وحيداً ، وتنحلُّ
الجمهراتُ - سأدونو مُحْتَشِماً بالإباحةِ والهُتْكَ كي المَسِّ الشِّفَاةِ التي
استَوَقَدتِ الشفاهةَ في غزوها . هاتفاً : فَلْيَكُنْ يا امرأةُ العَرَاءِ ، فليكنَ أيها
العَرَاءُ . ها أنا وسطُ موكبِي وليَ مَرَحُ القرونِ والأسلحةِ . وها أنا أترامى
بأسيطاً أحشائي حيثُ اللُّقائِقُ الواقفةُ كالأبجديةِ على ساقِ واحدةِ رافعةً
مناقيرها في الفراغِ الأرجوانيِّ ، رافعاً في الفراغِ سَطْوَةَ المَبَاهِجِ وَبَطْشَ
النُّبَاتِ :

أَلَا لَا يَرْجَعَنَّ أَحَدٌ دُونَ نَهْبِ ،
أَلَا لَا يَرْجَعَنَّ أَحَدٌ .

غير أنني أذكرُ العائدينَ من دونِ نَهْبِ ، وأذكرُ الأعمدةَ الذَّهَبِيَّةَ

لليباس على حدود السنابل . وأزعمُ زُعمَ العارف أن المصائرَ محبوكةٌ
 بالنحاس والأقعة ، وأن الوافدين الآن من المدى الأملس المصقول بالحث
 والمبارد سيجمعون دوابهم أمام ساحتي ، وسيكون الميثاق الذي لا ميثاقَ
 بعده يا امرأة العراء . فلتكتملِ الهرطقة العذبةُ إذن ، فلتكتملِ العذوبةُ
 والصليلُ ، ولتَنسَلِ اللبوءاتُ بخطواتها الجليلة إلى سكون العراء المثقلِ
 بهيبةِ الخلبة ، وليكن لهذه المرأة سراحَ الحناجر وخطو النساجات ، ولتكنْ
 خطاها جليلةً أيضاً في السكون المثقلِ بهيبةِ الخلبة ، وهي التوأمُ الوحشيُّ
 لروح الرجل . إيدِيه يهِيَتُها التوأمُ الوحشيُّ لروح الرجل ، كلُّ بُرْهَةٍ
 حاضرة الآن ، وأنا الحاضرُ أيضاً أقترِبُ وأبتعدُ في العراك ، حاضناً هباتي
 من الجلود والريش والصلصال ، مثلي مثلُ المكيدة ، وأنسجُ الخصومة نَسجَ
 الحاذق كي أرى الحجرَ في ثيابِ الهواء ، وأرى الهواء في ثيابِ الحجر .
 وأقولُ : فلتُصنِ الحياةُ إلى هذه اليد الرهيفة حين تمتدُّ إلى المقبضِ
 الزبرجدي لسيفِ الرمال ، وترتفع وتنخفضُ كحركةِ الشدي فلا يكونُ
 انقسامٌ تحت شَفْرتهِ إلا ويكونُ انقساماً أخيراً ، ولا تكونُ ضَرْبَةً إلا في
 المقتل . وأقولُ : فلتُصنِ الخطى إليّ ، رهيفاً كاستلال رهيفٍ للنعمة من
 الأغمدة ، مُحيطاً بالجمهرات أسألُ الجمهرات : أيُّ عنفوانِ يرئُ رنينَ
 الذَّهَمِ المعدنيِّ على دَرَجِ الخَلْبَةِ؟ وأيُّ حضور هذا الحضورُ المتسلسلُ بأهيةِ
 الصَّواري؟ .. لكأني أرى الدَّوي ، وأسمعُ الجبَّاءَ ؛ وكأني ألمحُ الجمهراتِ
 عاكفةً على اقتسامِ الوقيعه ، جَهْمَةً ، تتدلَّى أبقاؤها الصلصاليةُ على
 الخواصرِ ؛ حولها امتدادُها ، حولها امتدادٌ سابحٌ في قرْمِزِ الصباحاتِ
 العارية ، تهتفُ : فليكنْ . سَتْمَلِي وَسَتْمَلِي البهاء الغريبَ وصليلَ الرُّزْدِ ،
 وسنبسطُ عباءتنا للخطى الأكثر احتفالاً على دَرَجِ المذبحة . وإن رفعتِ
 يدك إلى وجهك حاجباً سطوح المواكب - إن رفعتها - سترانا في المواكبِ
 عَدَائِينَ نجرفُ الجُرْفَ بالعباءاتِ ونهتكُ الهَتَكَ . فليكنْ : سَتْمَلِي وَسَتْمَلِي

البهاء الغريب ، خائضين سلطان الحجر بعجلونا ، خائضين تَرَفَ الوحشي ،
 فلا أرض إلا وفيها إجمالة للغبار . فليكن : سننحر البهاء نحرًا للنساء تحت
 قميص الزنايق ، فاردئين خماز الليل لأقدامهن المهرولة ، ولرائحتهن الناعمة
 كأذيال السناجب : هنيئاً للنهار بهن ، هنيئاً للنعمة ، هنيئاً للأدراج إذ ينزلن
 من حُجرات الأجر ، رافعات من الخرز ما يملأ القبضتين ، وفي التسيج
 المبارك للحللة والعراك ينثرن ما امتلأت به قبضاتهن من الخرز والشهوة التي
 تجعل العصل عضلاً ، والأسلحة مدائح الكائن بين المدائح . ألا لا بأس
 يتها المضرجات بالأصيل وثغاء الماعز ، لا بأس في انحداركُن على الأدراج
 البوتاسية للحللة ، حيث الصقور ، والحدآت ، والأعناق الطويلة لطيور الماء
 ومناقيرها . لا بأس فيها أثنن تستنفرن العراء ثانية ، مغتسلات مع العراء
 باللهات القرمزي لصباحات النهب ، وللنهب وحده تجمعن المرايا
 والفجآت ، ضاربات ضرب الجذور على صنوج الرحم حيث الأباطيل
 كلها ، والعدوية الخملية للهرطقة كلها ، والمصائر الشفيفة المتدلّية كأبواقنا
 تحت الخصور . ألا انهضن فالأرض لا تتبدى لنا إلا موجة من النحاس
 واسم شهيد ، وذي دروعنا لا تتبدى للأرض إلا موجة حية من الألوسن
 والحباحب ، كأثنا أول الحصار وآخر الحصار ، وكأثنا اليد التي سترفع
 الريش والعصور نخب البطش وصباحات الدم العادل . ألا انهضن تحت
 الخمائل البوتاسية والمقابض ولهاث الجياد ، وانظرن إلى هذا الحي : ألم يرنا
 صاعدين مثله درج المساء؟ ألم يرنا نافحين أبواقنا الصلصالية في المدى
 المزدحم برنين الشيع وإجفالات الفرائس؟ ألم يرنا مُصغنين إصغاء الحداة
 إلى ابتهاج غامض . إيذ يذية أيها الحي ، أيها الارتجال الدُمث ، لماذا تنشر
 خطاك أمام العتبة فتشرد خطاك؟ لقد رأيناك قبل هذا ، رأيناك قبل اشتعال
 الأرض بطفولة الجذور ، حائماً حول درع ، نابضاً كالبرال في المركز الحي ،
 تكاد الأجرام أن ترتديك ، أو تكاد أنت أن تنتشل الجماد من وداعة

الجمادِ ، لتجعلَ الكُلَّ تَرْفَاً في التَّهْلِيلِ للدمِ العادلِ . ورأيُناكَ مُشرفاً من
الجهالاتِ على الجهالاتِ وجراحُكَ الكتابةَ . أَلَا قُلْ لَنَا أَيُّهَا الارْتِجَالُ الذي
لا يُرْتَجَلُ ، أيُّ سَمْنَدِلْ هذا الممتزجُ باللهاثِ حينَ لا تكونُ طعنةُ إلا في
المَقْتَلِ؟ وأيُّ ذهولٍ مُثْقَلٌ بعناقيدِ الفحولةِ يشحذُ النُّصَالَ تحتَ أُنْدائنا؟ .
أَلَا وَحَقَّ الفحولةُ لُتَرْفَعَنَّ يديكَ مع الأيديِ وَسَطَ المناجلِ وأعناقِ البَجَعِ ،
وَلَتَجْمَعَنَّكَ رِثَةٌ تَنْبَسُطُ وَتَنْقَبِضُ لِلهائِنا ، وفي كلِّ موجةٍ سَنَلْقِي مِنْكَ
مِثْقَالَ نَفْسٍ واحدٍ ، لِيَشْهَدَ المِوجُ كُلَّهُ - المِوجُ الأَخِيرُ مِنَ الصُّلْصَالِ
وَالسَّبَائِكِ والأَعْمَدَةِ - أَنْ أَحْشَاءَكَ هِيَ المِساْفَةُ الباقيةُ لِلخَطِيءِ ، وَأَنْتَ اسْمُ
الأرضِ الأَخِيرِ . لكننا سنلهو قبلَ هذا ببسالاتنا ، كاشفينَ النهارِ لرماحِ
الأرخبيلاتِ والجُرُزِ ، مُلْصِقِينَ جِباهاً في حُنُوِّ على الأعمدةِ العُرْجُونِيَّةِ
لمساءِ العراكِ ؛ وكيفَ لا نَسْفَحُ الأقاليمَ سَفْحاً كالماءِ على المِقابِضِ المُضْرَجَةِ
بِزَنْبِقِ الحربِ وقد رأينا السُّعْفَ هادياً ، ورأينا الطبولَ؟ وكان تخميننا أَنَّ
المِبارِدَةَ الحَلِيفَةَ تَشْحَذُ الأَبْجَدِيَّةَ تحتَ خِباءِ الدمِ العادلِ ؛ لكنَّ البِيدَ التي
عَلَّتْ وَعَلَّتْ وحدها بينَ الإماراتِ ؛ وَحَدَّها عَلَّتْ وَسَتَعَلُو ثَانِيَةً بينَ الإماراتِ
والجلودِ . . هَكَذَا سنهْرِقُ النهارَ ثَانِيَةً لِرِخاءِ الدروعِ ، غيرَ أننا سنشعلُ
الأرضَ قِبلَ هذا بطفولةِ الجذورِ ؛ وسأشعلُ

الأرضَ

قبلَ هذا ،

طاعياً في اجتياحي أفتتحُ الباسلَ : ألمَ أَقُلْ لِمَنِي لا ألمُ الأَرْضِ إلا
موجةً من النحاسِ واسمَ شهيدٍ؟ ألمَ أَقُلْ كَمَ غَسَلْتُ الحَمَى بالعِصافيرِ في
استوائِي على امتدادِ الحَلْبَةِ ، وَكَمَ نَثَرْتُ الحُطُوطَ كِبْدُورَ القُنْبِ حينَ لم
تكنَ حُطُوطٌ في الأرضِ ، بَلْ هِياجٌ صَقِيلٌ كِياقوتةِ الحِوَاتِمِ؟ . أَلَا لَأَدْفَعَنَّ
عَجَلاتِ الوَقِيعةِ دَفْعاً ، ولأشرفنَّ من الجهالاتِ على الجهالاتِ ، نافخاً في
الأبواقِ الصُّلْصاليَةِ للصدوعِ والحتِّ : هَلُمَّ أَيُّهَا الجمادُ ، فقد حَضَرَ الغريبُ ،

وَحَلَّتْ الانهداماتُ أعماقَها ، فانا الوسيطُ لا يصلُ الحيُّ إلى الحيِّ إلاَّ بي ؛
لكنني - تحت خبَاءِ الحَبْرِ والأقفال - أنحرُ القُرُونُ للمأدبة ، وأزِينُ الرِيحَ
بالسُّنُونُو . . أوَلَمْ تروني أسْدَلُ الواقِعَةَ ، وأضْرِبُ الحُصُومَةَ كُلِّما أزدَحَمَتْ
رُذْهَةَ النهارِ بالخطي؟ أوَلَمْ تروني مُدَجِّجاً بانكساراتِ الحيِّ أرفعُ الذَّبائِحَ
الحيَّةَ للغَلَسِ الإخشيدِيِّ المُفْعَمِ بالسُّرُوجِ والحَمَمَحَمَةِ؟ أوَلَمْ تروني طاغياً
في الحَدْبِ على كلِّ جرحٍ تَفْتَتِحُهُ يداي ، ورُوفاً في الطَّعْنِ حينَ لا يكونُ
إلاَّ في المَقْتَلِ؟ . . أنا التَّوأمُ الجَسُورُ للجساراتِ لن يصلَ الحيُّ إلى الحيِّ إلاَّ
بي ، وبي سَيَسْتَفْجَلُ التَّفْيِيزُ إلى اندلاعِ مُتْرَفٍ ؛ لكنني ، من هذا الانهدامِ ،
أستَهْلُ الجهاتِ بالأقفالِ ، ماثلاً بالدُّسَيْسَةِ كُلِّ رَحِمٍ حتى يأخذَ الشُّكْلُ
شكْلَهُ في انحلالِ الجَوْهَرِ . . ألاَّ لأَجْعَلَنَّ الجَوْهَرَ شَرِيداً كحِمَارِ شَرِيدِ ،
وَلَا هَتْفَنَ :

لبيك أيتها القَبْضَةُ المضمومةُ على حفنة من المراجيحِ والغنائمِ ،
لبيك أيها الدَّوِيُّ الحنونُ لارتطامِ العَظْمَةِ بالخِرابِ ،
لبيك لبيك أيها الوريثُ الأعمى^(١) لهذا العَمَاءِ كُلِّهِ :

فَلتتمهلُ ساعاتُ الدَّمِ ، فما بعد هذا غيرُ بسالةِ اليأسِ وانقلاباتِ
اللَّهَبِ . يَبْدُ أُنِي - في انحساري كالماءِ عن الأعمدةِ العرجونيةِ للنهارِ -
قانعٌ بالذي معي ، قانعٌ بأمومةِ لا تُرَى ، وباندثارِ يتتابعُ تحت أسمالِ
الجواهرِ . . وَمَنْ سِوايِ قانِعٍ أيضاً؟ مَنْ سِوايِ يطعنُ الجُدُورَ بالجُدُورِ ، ويُلْهَمُ
الباطلَ هذا التَّفْتِيحَ المضيءُ؟ . يا للمرحِ ، يا للوداعةِ : وميضُ واحدٌ
للعذاباتِ يكشفُ المَهَبَ الإلهيَّ ، وتلكَ هي الخاتمةُ في المَهَبِ كوسادةِ
الحُودِيِّ أَفْلَتَ من شَفُوقِها الرِيشُ والخِرْقُ ، وها هم المَتَكْتَبُونَ عليها : جِباةُ
ونوتيونُ ، ووسطهمُ النِّسَاءُ المَدَجَّجاتُ بحراشِفِ النُّبُوَّةِ ؛ كأنني أُلْحِ في

(١) انظر الملحق ، فصل «البغل الأعمى» .

اتكاثهم جَزَعُ الغَيْبِ من بسالة الحاضرِ المَلُولِ . تَرَيْتُ إذْنُ أيها الوريثُ
الأعمى لهذا العماءِ كُلِّهِ ، تَرَيْتُ أيها الدويُّ .

(قديمًا ، في القديمِ القريبِ - حينِ دحرجِ الشَّمالِ أعمارنا على
امتدادِ سكةِ الحديدِ بينِ «ترنسبي» و«ماردين» ، وفاجأنا صوتُ
القطارِ الكهلِ ، أوَّلَ مرةٍ ، مُعولاً تحتِ ثِقَلِ الماشيةِ وانقراضِ
الحكوماتِ الكبيرةِ - كانتِ القرى تجرُّ عرباتها أمامِ سورِ المدينةِ ،
مذهولةً من الأباطرةِ الغامضينِ وأحاديثهم الغامضةِ عن شعبِ
غامضِ . وكنا مذهولينِ أيضاً أمامِ سورِ المدينةِ ، حيثِ الرجالُ
الوسيمونُ في قبعاتهم الدائريةِ يستأجرون البدوَّ للهتافاتِ ، وتعلو
الخناجرُ ذاتُ المقابضِ العظميةِ أمامِ بابِ السرايِ احتفالاً وسَطَ
أناشيدٍ لا يَفْقَهُها المنشدونِ . وكان الواحدُ منا يلتفتُ إلى قرينه
هاتفاً :

«يا للدولةِ الجميلةِ ،
يا للجيشِ الجميلِ .
يا للأسلحةِ الجميلةِ ،
يا للرِّصانةِ الجميلةِ ،
يا للمنصَّاتِ الجميلةِ ،
يا للحزبِ الجميلِ» .

قديمًا ، في القديمِ القريبِ ، دحرجِ الشَّمالِ أعمارنا ، ودحرجِ
القرى والأغاني على سكةِ القطارِ الكهلِ ، المتاخمةِ لِعَضْبِ الرُّعاةِ
الذين انتشلوا جُثثَ الماشيةِ بينِ وقتٍ وآخرِ ، وغطَّوا وجوههم من
دخانِ القطارِ المُثَقَّلِ بانقراضِ الحكوماتِ الكبيرةِ . غيرِ أننا ، من

هنا ، من الحافة الباردة للمستقبل القديم ، ما نزال نلمحُ القطارَ
ذاته ، والخناجرَ ذات المقابض العظيمة ، عالية ، تغتسلُ في التعاقبِ
المدهشِ للأباطرة أمام باب السراي ذاته ، المزدحم بحروبِ غامضةٍ ،
وشعبِ غامضٍ .

ومن سواي ، في القديم القريب ، قال تَرَيْتُ أيُّها الوريثُ الأعمى؟ ...
سيدُكُ السَّاهرونَ حول الأغانِي أنني رفعتُ إلى المهبِّ الإلهيِّ رياحَ المُجدِّ
للهرطقة ، وترنمتُ بالهلامِ ؛ وكانت لي شكوى الطَّعمِ الحيِّ في فِخاخِ
العوالم :

ألا لبيكَ يا مَنْ يذرفُ الحروفَ ،

لبيكَ ،

لبيكَ يا البقاءَ المضمومُ على حَفْنَةٍ من دموجِ القويِّ .

فَلْيَقُلِ المساءُ شيئاً هذا المساءُ ،

وَلْيَقُلِ السَّاهرونَ إنني ، مَرِحاً ، أتلوُّ في سريري من دغدغات
الثدى ، ومن أناملِ العظمةِ على امتدادِ جسدي البازلتيِّ . لا ، حسبي أن
أرى حولي العرائسَ الصامتات يرتفنَ الفحولة ، وحسبي أن أظلَّ قابضاً
بأليافي على عَضَلَةِ الخراب ، مُنصتاً إلى هذا الإسكافيِّ الجالسِ أمام
المنايحِ بمطرقته ومساميره ، يشدُّ المياهَ إلى المياهِ كالجلد ، ويخيِّطُها بالنوارس .
غير أنني - في الساعات التي تصعدُ فيها الساعاتُ سلاَمَ الأوثنةِ - أتبعُ
الأثرَ الحيِّ للحيِّ ، لنستعرضَ معاً ذلكَ الحَرَسَ المدججَ بالسهولِ يَخْطُرُ
خَطَرَاتِهِ أمام قناعنا ؛ ولربُّما رَفَعْنَا مَعاً - بعد ذلك - صولجانَ المساءِ ،
مُؤمِنِينَ للأسلحةِ أن اكتملي أيتها الأسلحةُ ببركةِ المنصتينِ إلى أيدي
تخاطفِ عِقْدِ صباحاتهم ، لا ... سأهتفُ : عَلَامَ هذا كُلُّهُ؟ عَلَامَ لا

تنتخب الأرض نسلها في الوميض السكران للفؤوس؟ . أما لو أن لي ضراوة
 الماء لنشرت بمذراة الصواعق هذا الحصاد الجليدي على بيدر القادمين ،
 ولكمنت هنا - تحت عريشة الطين - للنهار ، كمن كامن ليصطاد الحجل
 بحجل أسير ، والظباء بصقر أعمى . بيد أن المساء يجري وسط كميني
 كاليربوع ، مثيراً حولي زوايع صغيرة من البنفسج اليابس وعظام
 الحدآت (٢) :

ليبك يا مساء الشمال الطويل ،

يا مساء متخماً بالنواخير والنوارج .

ليبك ، لبيك أيها الخشوع المضموم على حفنة من هزائم القوي .

وأهتف : علام هذا الشمال ، علام هذا الرابض بين الزبيب والماعز ،
 وحده المهرج بين الجهات؟ ومآلها امتدادات الأرض المزهية بالريش واللبد
 تتأهب لبقرات الموت وعجوله؟ وما لي لا أرى - عبر السطح الفيروزي لمياه
 المستنقع ، وعبر قرون الجواميس الرابضة بين المياه - إلا النصل القديم ذاته ،
 عالياً ، يتلأل في انعكاسه المجد والموتى؟ . يقينا أنا مثقل بشؤون السهول ،
 ولي خيلاء الظلام إذ أحتضن المجالس الحافلة بشعب غامض يتفتح بين
 الحرشوف وتلقطة القرى . ولهذا كله ، لهذا التماس الساحر بين لهبي وبين
 هبوب العوالم ، أسكب المساء لنداماي ، وأنهب المراثي :

ليبك أيها الهدير القفقاسي ،

ليبك أيها الممرات المتفعة بالمدايح والنهب ؛

وليذم هبوبي هبوب صليل ،

(٢) انظر الملحق ، فصل «الحدأة» .

وَلَاذِمٌ مُشْرِفًا مِنَ النَّفِيرِ عَلَى الْحَاضِرِ الْمَلُولِ .

(لا تقولوا إنني انهضُ الآن من بينكم ، مُلبِّدًا بطعنات العذوية ، قبل أن تكتملَ الحَلَقَةُ ، ويأخذَ المدعوونَ مجالسَهُمَ حَوْلَ الرعدِ وأباريقه ؛ لا . كلُّ ما هناك أني سألقي نظرة الوارثِ الأخيرة ، من هذا البابِ الأناضوليِّ ، على حِرَابِ الثلوجِ وهديرِ النباتِ ، قاذفًا كَمَاةَ الروحِ إلى الروحِ . وسأرجعُ ، بعدَ ذا ، حنونًا ، تحكونَ لي عن مساءِ حنونٍ ، وأحكيَ لَكُمْ عن مساءِ حنونٍ يسيلُ فوقَ قناعه حَبَابُ الحديدِ) .

وَلتَدُمُ سَكْرَةُ الحبرِ والمياهِ أيضًا ، ليدُمَ هذا الزَّوَالُ المتأهبُ كالتَّيْسِ ، فلي ، في القطيعِ الدائرِ حوله ، بضعُ كلابٍ لا يُرى غيرُ أذيالها بين الدُّبُوثِ وزهراتِ القُشَاءِ العالِيَةِ . ولي عاليًا ، كتاجِ الهُدُودِ المصنوعِ مِنَ الرِّيشِ وَالزَّعْبِ ، نبالٌ إسبِيدَجِيَّةٌ ، وَفَخَاخٌ فِي الفِرَاغِ الموشى بأرضِ الخِلاخيلِ واللهاثِ . وها هي حُمُرُ الشَّهْوَةِ الصَّاعِدَةُ مِنَ الأنهداماتِ والجُرُوفِ تَقْتَفِي أثري ، وتقفُ الأرضُ أمامَ سِياجِي حَيْرِي ، تتساقطُ من غِرْبَالِهَا الدُّرَّةُ والأشكالُ . . . ليدُمَ هذا كُلُّهُ ، ليدُمَ . وليَقْتَرِبْ هذا الزَّوَالُ المتأهبُ كالتَّيْسِ لأحيطَ عنقه بجرسٍ ثقيلٍ تَتَمَائِلُ على قَرَعِهِ الصَّبَاحَاتِ وَيَسْكُرُ العراءُ . وَلأقْتَرِبْ ، أنا ، من هذا كُلِّهِ فِي زوِيعَةِ مديدةِ مِنَ الأُمُومَةِ وَالْمَرْحِ ، تتواثبُ أمامي الأزمنةُ كالعصافيرِ ، وتخبِيءُ المصِيبَاتُ هديرها فِي حَفِينِ ثوبي الأذربيجانيِّ : أَلَا لَيْتَكُمْ رأيتُمَ كيفِ يغسلُ الشَّمَالُ محارِثُهُ ، وكيفِ تندلقُ النجومُ والخطى من قُرْبَةِ الهَوَاءِ الحُرُونِ . لَيْتَكُمْ شَمَمْتُمُ الصُّحَى معي ، لَيْتَ أَصْغَتِ الرِّثَاتُ لِنَفْرِ العراءِ على دُفُوفِهِ السَّرْحَسِيَّةِ . إِيذِيذِيهِ ، لا شمالَ إِلا فِيهِ حِصَادٌ لِكَائِنٍ ؛ لا شمالَ إِلا نَهَبٌ يَهِيءُ الحُضُورَ فِيهِ لَطَعَنَةِ العذوية :

لبيك يا طفولة لم تكن لأحد ،
لبيك يا طفولة لم تكن ،
لبيك ، لبيك يا طفولة مضمومة على حفنة من مساء الشمال .

(أترونَ هذا الطفلَ الراكضَ من سطحٍ إلى سطحٍ وراءَ هَرَّازِ
الذئبِ؟ بالله هل ترونَهُ؟ هل ترونَ أتْرابَهُ الراكضينَ مثله . مُبْتَلينَ
حتى العُسرِ من رَشَاشِ الوحلِ المتطايرِ تحت أقدامهم؟ أترونَ
شجيرات القطنِ مائلةً بجوزها الأخضرِ ، وغلالاتٍ من صحبِ
الطفولة تتماوجُ بين أوراقها وبين البيوت؟ بالله ، بالله لا تقولوا
إنني أهيبُ النهارَ لطفنة لا تُرى) .

إِذْ يَدِيهِ ، فَلْتَدْمُ سَكْرَةُ الحَبْرِ والمِيَاهِ .

غير أنني

سأشعلُ

الأرضَ

قبل هذا ،

راجعاً من الحَلْبَةِ بجواري السُّوسَنَ ، والفُؤُوسِ الصَّقِيلَةِ لدهشة الحجرِ ،
حولِي الجيادُ والحوذيونُ ، كُلُّمَا التَفَّتْ إلى سَهْلٍ أَعْصَى ، وكُلُّمَا حَطَوْتُ
انحَلَّتْ عُرْوَةٌ في قميصِ الرمادِ . وكَمَا يتغاضى العارفُ عن عشراتِ
العارفِ ، لا أسألُ الأرضَ أيُّ حلمٍ سترتدي اليومَ ، بل أرْتدي لحلمها جذرَ
التُّيْلُوفِ ؛ ذاكرةً - حين لم يكن في الأرضِ غيرُ النساءِ - أن النساءَ انسلنَ
من الخمائرِ النباتيةِ مَرِحَاتٍ في حُضُورهنَّ الغريبِ . ذاكرةً أنهنَّ رَفَعْنَ
الينابيعَ كالمرايا ، وفَضَّضْنَ الجداولَ ، ثم أرخينَ قاماتهنَّ كورقِ الكَرَنْبِ على

حَرَبَةُ الغبار، مُشعلات - حيثُ يسَاقطُ الدَمُ - ذلكَ الدَفْقُ المَعُولِيّ في الجذورِ والرئائِ . ذاكراً أَنهِنَّ ارْتَمَيْنَ تحتِ المناقيرِ الغامضةِ للعراءِ الغامضِ ، وَكُنَّ يَعْرِفْنَ أَنَّ هَذَا الوَقْتَ المُنْتَمِنَ الدائريّ كذَيلِ ذَكَرِ الطَّارُوسِ فِي هِياجِهِ ، لم يَكُنْ وَقْتاً إِلَّا فِي حُضُورِهِنَّ ؛ لِذا جَذِبْنَ الوَقْتَ جَذِبَ موجةٍ لموجةٍ ، وَأَفْرَعْنَ الفِراغَ ، مُسْرِفاتٍ فِي مَزَجِ قاماتِهِنَّ بِالرَّئِينِ الإحْشِيدِيّ لِسَطْوَعِ الأَرْضِ دوماً فِراغٍ أو وَقْتٍ ، عارِيَةً إِلَّا مِمَّا يَحُوطُهَا مِنْ هَلامِ الدورِ ونعمةِ الذبائِحِ . وَكُنَّ يَعْرِفْنَ أَيْضاً أَنهِنَّ اغْتِصابُ مُسْتَفْجِلٍ ، تَوَخَّذَ الصَّباحاتُ بِهِنَّ وَيُوَخَّذُ البَرَقُ والجذورُ ؛ وَأَهِنَّ الفُصحى المَطوَّقُ بأعضاءِ الكائِنِ وفِترحاتِ الضائِعةِ . . لَكِنُّ ، يَعْرِفُ الحُضُورُ بِذاتِهِ - القائِمُ الَّذِي لا دَليلاً عَلَيْهِ - أَنهِنَّ سَمِعْنَ نَفِيرَ أبواقِ صلصاليةٍ ، وَصَليلاً ، قَبْلَ انبِثاقِ الكائِنِ التَّقْيِضِ الحامِلِ حُضُورَهُ الطَّعِينِ كما يَحْمِلُ الحَنائِصَ الطَّعِينَةَ بَعْدَ قَنصِها ؛ وَأَهِنَّ ارْتَعَدْنَ رَغَدَةً تَفْتَحُها العذوبَةُ وَتَخْتَمُها العذوبَةُ . وَكَيْفَ لا يَرْتَعِدْنَ وَهُنَّ المُوْتَقَّاتُ بِأَنْوَةِ اللَّيْلِ والنهارِ لا يَسْتَطَلَعْنَ فِي سَطوَعِهِنَّ إِلَّا الأَنْثويَّ وَحدَهُ؟ وَكَيْفَ لا يَكُونُ ارْتِعَادُ أَمَامَ فَجَاءَةِ الكائِنِ التَّقْيِضِ المُخْلِجِ بَرزَدِهِ وَحرابِهِ سَطوَعُهُنَّ المَهَيِّمِ؟ . إِنهِنَّ يَنْتَصِبْنَ الآنَ وَسَطَ مِصابِيحِ البنفسجِ وَرِحاءِ الوَحْدَةِ ، مُسْتَعْرِصاتِ الصَّلِيلِ ، قارعاتِ صَنوجِ البِراعِمِ وَفِصائِلِ البَقولِ الأَخِيرَةِ . لَكِنُّ ، يَعْرِفُ الحُضُورُ بِذاتِهِ - القائِمُ الَّذِي لا دَليلاً عَلَيْهِ - أَنهِنَّ لَمُنَّ الصَّباحاتِ كالحصىِ ، وَنَظَمُنَّها كالعَقْدِ لِلْمُقبِلِ الحامِلِ حُضُورَهُ الطَّعِينِ ، وَأَهِنَّ نَشَرْنَ قُلُوعَ اليابِسةِ ، وَشَدَدْنَ حِبالَ الترابِ إِلى الصَّارِيَةِ الحَرَّةِ وَسَطَ نَشِيدِ الغِبارِ المَهْرِجِ ، مَلوِّحاتٍ بِمِصائِرِهِنَّ كالمِنادِيلِ بِيَدِ ، ضامَّاتِ الأَخْرى تحتِ أَثدائِهِنَّ : «فليَكُنْ أَيُّها السَطوَعُ العَظيمُ ، فليَكُنْ عَمْدُكَ عَمَدُ الحُضُورِ ، وَليَكُنْ حُضُورُنَا أَوَّلَ العَتَبَةِ . ويا أَيُّها السَطوَعُ المُقْتَحِمُ بِمِبارِدِهِ ، ناشِراً فِي مَهَبِّ أَعْضائِنا شِبائِكَ الشُّكْلِ ، ما نَحْنُ إِلَّا رِثَةٌ ، وَها هُوَ الهِواءُ فِي اصْطِخَابِهِ الصِّلصاليِّ المُشْرِفِ على حُدُودِ نَبْضِنا ، يَتَهاوَى

عَصَلَةٌ عَصَلَةٌ ، كأنَّ اختلاجاتنا هي المصَبُّ الأعظمُ للمسيلِ العظيمِ . ثم
شَدَدَنَّ قَامَاتهنَّ أَكثَرَ وقد انحسَرَ النُّفِيرُ والصَّلِيلُ عن الكائِنِ المشتعلِ بالغلَبَةِ
وَنُدُورِ الهزائمِ ، المُجْفَلِ العارفِ أَنَّ حُضُوراً آخَرَ على امتدادِ مسيلِهِ الحَيِّ
سَيَكُونُ الشريكَ لاشتعالِهِ وبأسِهِ . وتقدَّمَنَ إليه فَتَقَدَّمَ إِلَيْهنَّ مَقْدَارَ زوِجَةٍ
واحدة . وحينَ لم يبقَ إلاَّ أَنْ تمتدَّ يَدُ إلى يدِ ، وحينَ لم يبقَ إلاَّ أَنْ يقتحمَ
النَّفْسُ النَّفْسَ ، حَلَّ عَرَى شَكْلِهِ أمامَ التَّوأمِ فَحَلَّلَنَ عَرَى أَشكالهنَّ أمامَ
التَّوأمِ ، وَأَبْجَسَتِ الأَرْضُ ،

فأشعلوا

الأرضَ

بالجمهراتِ ،

سأديرُ العَجَلَةَ الخَشِيبَةَ للمصائِرِ ثانيةً وسنطُ نعمةَ الأثويِّ وهَرَجِ
الذكورةِ ، خائضاً بالصباحاتِ دَسِيسَةً الحَيِّ ؛ ولأشقنُ الحَيِّ بشهوةِ العراكِ
شَقًّا لا يَلْتَنُمُ ما دامت السماءُ أبعدَ من شَفَرَةِ المناجِلِ ، وما دامَ فَرَحٌ لا
يَسْتَنهضُهُ الفَرَحُ . وسألقي في حجرِ النساءِ الجالساتِ أمامَ البَعْلِ وشاحاً
شَفِيفاً من الطَّيِّشِ حينَ يُفَرِّدُنَهُ يُفَرِّدُنَ الإباحةَ والذَّهولَ ، فيرْفَعُنَ للتعَلِ
درعَهُ والصُّخْبِ المُنْسِ لَصعودِ الدَّمِ في حركةِ الخانصرةِ ؛ جاذباتِ إليهنَّ
التخومَ والصَّلِيلَ جَدْباً يَسْتَوْتُنَّ فيه أَنَّ الحَيِّ هزيمةُ الحَيِّ : «هَبْ أيها الفارغُ
بأبواقك الصِّلصاليةِ هَبْ أيها الجدَلُ ، يا غريمَ البهائمِ الوحيدِ ؛ لسوفَ تحلُّ
العتباتُ ثانيةً لقدومِك هذه المغاليقِ ، ووحَدَك ستُحصي أدراجَ الحلبةِ
الصاعدةِ من شقوقِ السنينِ حتى يديك المضمومتينِ على مقبضِ العذوبةِ
الغامضِ . ولسوفَ نحاذيكِ ، نحنِ الواثقاتِ اللواتي يجمعهنَّ مجرىٌ واحدٌ
لانسكابِكِ الواثقِ ، هاتفاتِ : هذا مديحُ الأنثى ، وهذا انتدابنا عليكِ
انتدابَ الرِّجَمِ التي لا تُسمى» . . . وهذا انتدابي

إذ
أشعلُ
الأرضَ
بالنَّهبِ .

نازفاً من جراحیِ الحديدِ والأعمدةِ ، ماثلاً بالرياحِ الرياحَ : ومنْ سِوایِ
يخلعُ الرِّخاءَ البَهِيمَ عن حدودِ الكائنِ ، أو يخلجُ زواجِعَ السَّمندلِ بينِ
الحشاشاتِ؟ ألا أضربُ أيها التوتِيُّ بقصباتك الطويلةِ أحشاءَ الهُورِ ،
واخرجني يا رجومَ الظلامِ والهندسةِ كي تصححو في جدالي الكراكي
والرُّننِ ؛ كي أضربَ بقصباتي الطويلةِ سطحَ المأساةِ ، مُحيطاً ابتهاجي
بذلكَ اللهبِ البهيجِ في الأفتنةِ ، مانحاً للحلبةِ حدودَها ، وللهمزةِ زخارفَ
المقبضِ الحيِّ في يدِ حَيَّةٍ ؛ كي أنثرَ الأرضَ دَزهماً دَزهماً على الفوهةِ
المُمرَّرةِ لبسالةِ الدَّمِ . ألا أنثي أهْيءُ الليلَ لهُبوبِ المُرَّانِ ، وأستعرضُ
الينابيعِ في عباها ، رابضاً في المكانِ ، هنا ، في المكانِ السَّاحرِ الشَّريدِ ،
وحيثَ تَعْلُو النُّصالُ في اعتدالِ الكائنِ الأخيرِ ، أصيحُ : «ابدأي يَتَها
الأرضُ من ظلامِ وفلنز» . . . وأنا التَّزْفُ والجِدالُ أباركُ الأسلحةَ بِيَرَكةِ
الجِدالِ ، مُطمئنناً في نَبْضي الصِّلصاليِّ تحت قشرةِ الدَّمِ . ألا أنثي - هذا
الباطلُ الأكيدُ - سأصلُّ العِراكَ بالعِراكِ ، طافِحاً وَسَطَ هذا الكفنِ
الكافوريِّ بالمواكبِ اللابسةِ تَرَفَ الحلمِ وحدهِ .

بعد هذا
سأشعلُ
الأرضَ
بالنَّهبِ ،

وسيشعلونها معي ذالكُمُ الناهضونَ في ثيابهم الأجريةِ ، والمسفوكون
سَفَكِ الحِكْمَةِ في هذا الأيوانِ . . . ها هم يشعلونها معي ، مُمَسِّكينَ

بالأرغفة والأبواق، لكنهم يَصْقَلُونَ - قبل هذا - سَطْوَعَ القُرُونِ بمبارِدِ
أعيادهم، واثقين في الحركة، واثقين إذ يغمرون بالصفيح الأشكال .
ولربما رأيتهم في ثيابهم الأجرية استطلاات للنبات، أو رأيتهم شكيمة
تُشيعُ الكائن إلى نديمه الأخير (النديم الصامت المتزين في قناعه على
المائدة)؛ ولربما محتهم يربطون سيور الأحذية ويتركون وجوههم لمرايا
السوسن؛ إنما ها هم يشعلونها معي في مُجُونِ المساء الصاعد بغزالاته
وصقوره سلالم المذبحه: ألا لَنَ نبارك إلا المبارك، ولن نُشعل إلا المُشْتعلَ
بأقدارنا، وسنلزم الحى بانقسام تُشردُ الرئة فيه عن الرئة . وسندعوه بعد ذا
فيأتي جَهْمًا حاملاً اسطرلابه السماوي ومدائحه الصاخبة كحناجر بنات
أوى⁽³⁾، وفي كل خطوة يشف عنه القناع حتى نراه مؤثقاً بأليافه وشرايينه
الفارغة إلا من سرخس يابس . وسندعوه فيأتي أكثر انشفاقاً من الورثة،
صاعداً مثلنا سلالم المذبحه بأباطيله الأبهية وهندسة الهزائم . وحين يجثو
أمام اشتعالنا ضارعاً سنقول: اقترب أيها الهندسي، اقترب أيها المغزلُ
الدائر في عذوبة الخيوط الصلصالية . اقترب اقترب راسماً بشظاياك
الجداول والحزور، متكناً بثقلك على القناع، سنريك المذبحه :

(حين جاء البناؤون، وحدها كانت الأرض في سرير
الكواكب مخلولة كرداء العاشقة، لا بعل حولها . لا ندامى سوى
جذور النهار واندحاراته المتبابعة تحت سيوف الفلز وبطش
البهاء . . . وحدها كانت الأرض تحت الدالية الأزلية من الصليل
ومناقير هزاز الذليل، مُفعمّة بالبرق الأعزل وحدود الحدود، لا

(3) انظر الملحق، فصل «بنات أوى» .

تَسْعُ إِلَّا لِنَفْسِهَا ، وَتَمْرَأَى فِي كَسَلِ الصَّوَاعِقِ حِينَ جَاءَ الْبِنَاوُونَ
بِمَعَاوِلِهِمْ وَحِبَالِهِمُ الْقَصِيرَةَ الَّتِي تَنْتَهِي بِفَادِنِ نَحَاسِي لَضَبْطِ
الزُّوَايَا ، يَنْظُرُونَ فِي جُلُودِ صَقِيلَةَ ذَاتِ رَسُومٍ ، ثُمَّ يَغْمَسُونَ الرُّيُوشَ
فِي مَزِيحٍ مِنَ الْكُحْلِ السَّائِلِ وَالرَّمَادِ ، لِيَجْعَلُوا اسْتَطَالَاتِ الرُّسُومِ
أَكْثَرَ اسْتَطَالَةً ، وَالذُّوَاثِرَ أَكْثَرَ اتَّسَاعاً عَلَى مِرَاكِزِهَا الْمُبْهَمَةِ . بَعْدَ
هَذَا اسْتَبَسَّلَتِ الْفُؤُوسُ ، وَاسْتَبَسَّلَتِ الْمَعَاوِلُ : تَلْدُ الْأَعْمَدَةُ
الْأَعْمَدَةَ ، وَتَهْتِكُ الْقَبَابُ الْقَبَابَ ، غَيْرَ أَنَّ ذَلِكَ الْجَنَاحَ الْغَرِيبَ مِنَ
الْبَهْوِ الْمَمْتَدِّ تَحْتَ الْأَعْمَدَةِ وَالْقَبَابِ ، ذَلِكَ الْجَنَاحَ الْمُسَوَّرَ بِالْأَدْرَاجِ ،
الْمُبْتَسِّطَ الَّذِي لَا رُخَامَ فِيهِ ، وَلَا نِسَاءَ مِنَ الرُّخَامِ عَلَى مَدْخَلِهِ ؛
ذَلِكَ الْجَنَاحَ الْهَادِيءَ الْآنَ ، الَّذِي لَمْ يَقُلِ الْبِنَاوُونَ إِذْ أَنْتَهَوْا مِنْ
بِنَائِهِ : «مَبَارُكُ أَنْتَ» ؛ ذَلِكَ الْجَنَاحَ الذَّاهِلَ بِخِيَاشِمِهِ الْحَجْرِيَّةِ
وَدَوَّيْرِهِ الْحَجْرِيِّ ، لَمْ يَكُنْ مَخْدَعاً : إِسْأَلُوا . . . إِنَّهَا الْحَبَّةُ .

أَلَا انْهَضْ مُتَكِنًا بِقَلْبِكَ عَلَى الْقِنَاعِ ، مُبَاحًا كَالصَّبَاحَاتِ لِلسَّيْلِ أَوْ
لِلْعَدُوَّةِ ، لَكِنَّا
قَبْلَ
هَذَا

سَتَرْمِيكَ بِالنُّدَى ، وَبِالْبِيَارِقِ الْمُصْطَبَغَةِ بِزَهْرِ الْيَقُطَيْنِ وَالرُّعْفِرَانِ ،
مُؤَصِّدِينَ عَلَى قِنَاعِكَ الْقِنَاعِ الْأَكْبَرَ لِثَلَاثِ تَجْرَحِ انْحِنَاءِكَ الْبِرَاعِمِ أَوْ يَشْهَدُكَ
السَّاءُ ذُو الْجَنَاحِ الْقَدِيمِ حَيْرَانَ لَا تَسْتَمْهَلُ الْعَلْبَةَ وَلَا تَسْتَعْجَلُ الْعَلْبَةَ ،
كَأَنَّكَ إِذَا أُهْرِقْتَ أُهْرِقْتَ الرِّيَّاحُ وَالرَّمَالُ ، وَكَأَنَّكَ إِذَا أُهْرِقْتَ أُهْرِقْتَ
الصَّبَاحَاتُ وَالْحَدِيدُ . . . أَلَا قُلْ لَنَا أَيُّهَا الْهِنْدَسِيُّ ، يَا ذَا الْمُحْكَمِ كَخَشَبِ
الْعَجَلَةِ تَحْتَ عَرَبِيَّةِ الْقَائِدِ ، قُلْ لَنَا أَيُّ مَرِحِ هَذَا الْمَرِحِ الصَّاعِدِ مِثْلَنَا سَلَامٍ
الْمَذْبَحَةِ؟ وَأَيُّ شَهِيدٍ سِيَحْمَلُ الْجِهَاتِ كَالْعَلْفِ إِلَى مِرْزُودِ جِيَادِكَ ، أَوْ

سيمسحُ عن الرِّزْدِ غبارَ اغتصابِكَ الأخير؟ ... ألا لا تَقُلْ بعد هذا إنَّ
 لَفَيْفًا حَيًّا من الكائنات ذات الأبوأ واللُّهات قد جَذَبَتْ الحلقة الصلصاليَّةَ
 لأبواب المذبحة فرائِكَ حَيْرَانٍ في المذبحة ، إنَّ أَهْرَقَتْ أَهْرَقَتْ الجهات ، وإنَّ
 أَهْرَقَتْ أَهْرَقَتْ الأغمدةُ والغيومُ . ورائِكَ جاثياً ، مالثاً رداءك بالأكبادِ
 وصوصاقِ النَّيْلُوفِر . ألا لا تَقُلْ بعد هذا أنَّ السماءَ المضمومةَ كالقنْفُذِ لم
 تكنْ هنا ، وأنَّ الحوافِرَ التي ارتطمتْ برخامِ البَهِو - حيثُ الرمالُ والمرايا -
 لم تكنْ حوافِرَ المساءِ المثقلِ بالمحارِبِ . فَلتَكُنْ شريداً أيها الهندسيُّ ، يا
 أَحِبُّوْلَةَ الجواهرِ الشَّريدِ ؛ لكنَّنا سَنَرَمِيكَ بالفصولِ ، وسنرميكُ بالأباطيلِ
 والصنْدلِ ، جاذِبِينَ عنكَ الفضاءَ والرياحَ حتى تلمَسَ بقرنِ خوذتكُ العِشاءَ
 الأبعدَ للأباطيلِ ، حيثُ لا كوكبٌ ، ولا مساءٌ يضرِّجُ القنَّاعَ ، وحيثُ أنتُ
 - وحدكُ - امتدادُ الأرضِ في الفراغِ المحاربِ . . . لا ، لا تَقُلْ بعد هذا إننا
 سَنُضْرِمُ البطشَ في الحديدِ ، أو سنمحو عن الحديدِ مديحَ الجاهلِ . قُلْ :
 فليكنِ المساءُ والبطشُ ، فليكنِ الحديدُ والمديحُ ؛ وأهدأ ، فإننا - هادئينِ -
 نُلقي النهارَ كالسَّرْجِ جانباً عن ظهرِ هذه الأتانِ (الأتانِ البَلْقَاءِ التي واكَّبتِ
 الأدميُّ بعنادِ فائضٍ للهِزائمِ الفائضةِ) ، وهادئينِ نرفعُ جرارَ المساءِ احتفالاً
 بهرطقاتِ المساءِ ؛ وأهدأ ، فإننا عاكفون على بُرعمِ خفيٍّ وجناحِ أكثَرِ
 انقِضاضاً من دمِ العاشقِ ، كيفَما لمسنا البرعمَ لأَسْتننا لهفةً ألمعدنِ
 الغريبِ ، وكيفَما لَمَسْنَا الجناحَ لامسنا الإباحةَ . . . أيها الهندسيُّ ، أيها
 الهندسيُّ ، هَلَّا سَكَّبتِ مثلنا الأقحوانَ في جرارِ المساءِ ، هَلَّا كَسَّرتِ الجرارَ
 فاستنَّهضَكَ الأقحوانَ؟ وأما نهضتْ نهضتْ مُشْرِفاً من الجهالاتِ على دُرْعِ
 ودمِ ، غيرِ مُحْكَمِ ، لكنَّكَ جِدالُ الجِدالِ وصليلُ الصليلِ . وماذا نرومُ إنَّ لَمْ
 تكنْ شريداً صاعداً مثلنا سلالِمِ المذبحةِ ، غيرِ مُحْكَمِ ، شاهراً نصالِ
 الغُضارِ ، تُرْبِكُكَ العذوبةُ ويستنفِرُكَ الرِّائلُ؟ لا ، لا تَقُلْ بعد هذا إنَّكَ لم ترَ
 المذبحةَ ، ولم تَلْمَحِ العُصونَ غارقاتِ في ملاءِها الأرجوانِيَّةِ تنحني على

عقربِ المَغِيبِ . لا ، لا تَقُلْ بعد هذا إِننا سنورثُكَ العذوبةَ ، أو سُنْحِيطُ
مدالكِ بالطيورِ ، وأباريقِ الأجرِ ؛ وإِنَّكَ ستقومُ مُتثاقِلاً من رَعَدِكَ لتحصيَ
إماراتِكَ الأَحْمِيرة . لا ، لا ، سنجذبُ المَكَانَ عن المَكَانِ فلا تفرقُ بين
أثلاقِ الجمادِ والحناجرِ ؛ فَإِنْ حاولتَ قَنَصاً بشباكِكَ حاولنا قَنَصَها بشباكِ
الْحَمَا ، فَإِنْ بَطَّشْتَ بَطْشَنا ، وإيَّانَ حَجَبِكَ البعيدُ كَسَرنا البعيدَ شظايا حولِ
قرونِ المَكَانِ . لا ، لا ، سنختمُ المَكَانَ بختمِ المديحِ ، وسنخوضُكَ خَوْضاً
بحدائقِ الحُرْدَلِ وثُرَيَّاتِ العشبِ ، رافعِينِ المَذاري ، باسطِينِ السَّلالِ ، كأنَّ
لا حِصادَ إلا حِصادَ دمِ عادلٍ ، وكأَنَّكَ البِيدِرُ الأخيرُ . ألا لا تَقُلْ بعد هذا
إِننا لَمْ نَخَفْ عليكِ فهدَرنا مِساءكَ بينِ المساءاتِ . يَعَلَمُ الهَتَكُ الذي لا
هَتَكَ بعده ، أنَّ كُلَّ طعنةٍ لامَسَتْكَ لامَسَتْ البُحْرانَ ، لكنَّها الخُصُومةُ ،
واحتفالُ التَّقِيضِ بالنَّقِيضِ . فانْهَضْ لثُبُصِرِ النهارِ أَحَنُّ من بَجْعةٍ تحتِ
هذا الجسرِ الذي لا يَصِلُ الضَّفَافُ ؛ لكنَّ ، سيكونُ لَكَلِينا أن يَزِجَ بالأخِرِ
في جدالهِ المعدنيِّ : لا مِشاقَ ، كلانا هاجسٌ ، وكلانا رينُ الدرهمِ على
رخامِ المساءِ ، ونفِيرِ النْفِيرِ ؛ أعزِلانِ إلا من بوقِ صلصاليِّ سيحشُدُ ما لا
يَحْتَشِدُ أمامَ سُلطانِ الدَّمِ . ولسوفَ ترتدُّ خطوةٌ فأرتدُّ خطوةً ؛ ولسوفَ تقفُ
من ورائِكَ الجِذْرُ والرَّمالُ ، وتقفُ من ورائي الجذورُ والرَّمالُ ؛ ولسوفَ تمتدُّ
يدُكَ إلى المَقْبِضِ الزُّبرجديِّ للصباحاتِ ، وتمتدُّ يدي إلى المَقْبِضِ
الزُّبرجديِّ للصباحاتِ ؛ ولسوفَ تنظرُ إليَّ مَلِيّاً ، وأنظرُ إليكَ مَلِيّاً ؛ لا
مِشاقَ ، كلانا عارفٌ أنَّ الفاصلَ الباردَ من الحصى والظلالِ - بيني وبينكَ
- ليسَ رتةً أو دعابةً مهرجَ ، وأنَّ هذا الفاصلَ الباردَ المُدْخَرَ لصواعقِ الظلالِ
وكنزِ الباسلِ هو الحَلْبَةُ . . . انظرُ كيفَ يدخلُ الساهرونُ قناعاً قناعاً ؛ انظرُ
الرُّزْدَ المُسَدَّلَ على الجلودِ ، أو الريشَ الأنيسَ على جبِينِ الحِيادِ ؛ انظرِ
السطوعَ الأَبْكَمَ للأسلحةِ والشَّيْعِ ؛ انظرِ النَّافِرَ من دمِ وطيشِ . . . كلُّهمِ
يدخلونَ . وكلانا يرى الدَّاخِلاتِ أيضاً ذواتِ بأسٍ ، يَضْبِغْنَ حِباءَ الحَلْبَةِ

المفتوح على الحيِّ ببهاءِ الأنثى ، ويَضْرَمَنَ المساءَ ، رابضاتِ كبقايا سربٍ
من القوارض على حافة المهزلة ، يَلْتَمَسْنَ بأيديهنَّ - كما تَلْتَمَسُ أكلاتُ
النملِ بخرطومها ذُوْبَةَ الأرضِ - رِخْوًا من المكانِ يَضْرِبُنَ فيه الوتدَ الأخيرَ
لاغتصابهنَّ الأخيرِ . يا لسلام الأعمدة : كلانا يرى العراكَ أيضاً ، يرى
ارتطامَ الجوهرِ وانسلاخاتِ الكائنِ البديعةَ بين أجرامهِ وثمارهِ . وكلانا يودُّ
لو تَرَامى ، لو اتَّسَعَتْ خطاهُ للخطى والجُرُزِ ، لو أضلَّ عن جهاتهِ الجهاتِ
فكانتْ كُلُّ حِصاةٍ شرعاً ، وكلُّ دمٍ قرانَ جذوره . . لكنَّ :

لأَدْفَعَنَّكَ معي

بين المعاولِ

حادباً عليكَ وأنتَ الشريكُ الذي

يضيءُ المقتلَ تحتَ طعنتي

ولأَبَارِكَنَّ الخرابَ الخرابَ

عابثاً بالمدنِ عابثاً بالأعمدةِ

صائحاً :

فليكنِ النَّهبُ

فليكنِ النَّهبُ . . .

كُلُّ حصارِ حصارِي أيها الهندسيُّ ، فاصعَدْ معي في مُجُونِ المساءِ ، إذْ
تَهْرَقُ الطَّبِيعَةُ الألهةَ ، ويستيقظُ الباطلُ الحكيمُ ، فليسَ سوانا مَنْ يَنْشُرُ
الخواتيمَ والخواتمَ على عتبةِ الكائنِ ، ويحشو جراحَهُ بالمساءاتِ . . لا ، لا ،
كلُّ باطلٍ سيشهدُ احتفالي على درجِ المذبحةِ ، أَنْ تلتفتَ الأرضُ على
الصاريةِ ورسولِها الحضورِ ؛ فلماذا تُغْطِي جناحيَّ بالقناعِ ، ودرعي
بالمساءةِ هُبْ ، وأنتَ التَّقْيِضُ ، لأَدْفَعَنَّكَ بين المعاولِ ، ولأَشْرِدَنَّ الشريدَ .
لكنني

قبل هذا

سأشعلُ

البهاءُ

بالبهاء ،

مُمعناً في العذوبة يكادُ أنْ يبتكرني النباتُ ، أو يحلمَ الحلمُ بي . حيناً
يترئصُ بي الصباحُ العاشقُ ، وحيناً تنتهيني البكورةُ بخناجرِ انسكابها
الثَّمَلِ . وأقولُ : لئنْ نَفَضْتُ رداي نَفَضْتُ الكافورَ وأجراسَ الكَثانِ ، فلماذا
يُغَطِّي المساءُ جناحي بقناعِ الغَريمِ ، ودرعي بالمأساةِ؟ غريماً

ناقضاً

صُلحَ

هذا

الجوهر

سأبيعُ الإباحةَ

وأحلجُ المراثي ...

بعد هذا قد تُهَيِّئُ المسافةُ لي سَكْرَةَ القَطَا ، وقد تُضْرِمُ الينابيعُ بأسَ
المياه فأحتضنِ الخاتمةَ بأسينِ من المياهِ والعَضَلِ . غيرَ أنني - يقيناً - أهيبُ
القَطَا لسَكْرَةَ المسافةِ ، وأسوِّرُ المياهَ بقنافذِ الموجِ ؛ ويقيناً أنثرُ الخوَدَ للبراعمِ ،
وأزِينُ الفصولَ بالزردِ . ويقيناً أحتُمُ الصبَاحاتِ بعافيةِ الأسلحةِ ، وأدحرجُ
الحياةَ فَرَسِخاً فَرَسِخاً وابتهالي ابتهالُ الرَمِيضِ في المِقابضِ النحاسيةِ .
وأقولُ : لئنْ نَفَضْتُ رداي نَفَضْتُ الزمرَدَ والصلصالَ ، ولئنْ استدارتِ
الجهاتُ لَن تُفَاجَأَ إلا بي ، واقفاً ، نصفُ قلبي في عقيقِ ذائبِ ، ونصفهُ في
الخيانةِ :

«كَانَتْ لِي أَعْضَاءُ اللَّهَبِ ،

وانقلاباتُ الجذور .
كان لي اللُّهاتُ الطُّليقُ ،
والرثَةُ الراكضةُ إذْ
تهدأ الرثاتُ .
كان لي ابتكارُ المداخلِ .
وهزم المداخل .

كانَ لي الطَّيشُ السَّاحِرُ ،
وسُلطانُ الجناحِ :
أنا القائمُ على خندقِ الفُوجِ ،
سأقتسمُهم ثانيةً
بين الرمالِ والرمالِ ؛
ولن يصلوا - إذْ
يلبسونَ الصَّفِيحَ -
إلاَّ إليّ .

غريباً
ناقضاً
صلحاً
هذا
الجوهرِ
سأبيعُ الإباحةَ
وأسرحُ الجسورَ . . .
غير أنْ هؤلاء المُسَدِّينَ كالسُّتارَةِ على أدوارهم سيحزُمونَ معي

للمناجلِ البروقَ والمساءَ ، وكانوا يحزمونَ البروقَ والمساءَ للمناجلِ إذْ تحتدمُ
المدائحُ ويسقطُ الطريدُ مُثخناً بعدوبةِ العراكِ : ألا كمّ ركضتُ إليهم قارعاً
الرَبْدَ والصَّهِيلَ ، كلُّ يدِ يدي ، ودِرْعِي السَّنُونُو . وكمّ ركضنا معاً ، نازلينَ
درجَ المذبحة ، أو صاعدينَ درجَ المذبحة ، نكسو الخرابَ بالماس ، ونستلُّ
الكائنَ كالحرّبةٍ من حاضره الخفي . لكننا لم نباركْ إلاّ المباركَ باليأس ، وما
فاتنا أن نستوطنَ الدويّ ، غامرئينَ اللهبَ بأشكالٍ أكثرَ اشتعالاً . . . ألا ،
يشهدُ الطيشُ السّاحرَ ، أننا جئونا أمامَ المذبحة ، هاتفينَ : «أيتها المذبحةُ ،

أيتها النبوءةُ الباردةُ في

بهُو الحاضرِ الباردِ ؛

يا ضرورةَ اللهاثِ ،

وبوابةِ البواباتِ :

لن يكونَ قنصٌ لعاشقٍ إلاّ وأنتِ سَهْمُهُ يَتُّها المذبحةُ » .

ألا ، يشهدُ المكانُ ، أننا بسطنا الصباحاتِ لحرابِ الرُّجسِ ، وقصصنا
الأختامَ عن عذارى المياه . ولاشتعالِ واحدٍ لَمَمْنَا البراعمَ كلّها ، والنحاسَ
كلُّهُ في سريرِ أعضائنا ، ثم كَشَفْنَا عن الحُضُورِ قناعَ المهرجِ ، لتبدأَ جِبايَةُ
الكائنِ في بلاطه الأخيرِ : إيدي يديه . . بلاطُ أخيرٍ ،
واغتصابُ أخيرٍ ،

والأخيرُ الأخيرُ من كلِّ شيءٍ :

هنا فليترتطمِ الحيزومُ ،

ولتتحنِ الصّاريةُ .

لكنك أيها الشكّلُ ، يا اغتصاباً حاملاً للمذبحةِ سريرَ أعضائنا ، قادرٌ
أن تظليلَ اللعبة ، قادرٌ أن تفاجيءَ بأحبابيلك ومراياك ترفَ الجوهري . وها

نحن ، بعدَ كُلِّ أُخِير ، مُزْدَهَيْنَ بِسُلْطَانِكَ نَخْطُو فِي اتِّجَاهِ وَاحِدٍ لِسَهْمِ
الْجَدَلِ الصَّافِرِ فَوْقَ أَقْدَارِنَا : لَيْتَ تَسْبَقُنَا الْعَجَلَاتُ الْخَشْبِيَّةُ وَطَيُورُ
الْهِيَائِلِ ؛ لَيْتَ تَكْتَمِلُ حَلْفَةُ الْأَخْلَاطِ مِنَ الْعُضَارِ وَالشَّجَرِ وَالْمَوْتَى وَالْمَدَائِحِ
حِينَ تُعْرِي الْمَسَاءَ وَسَطَ الْأَعْمَدَةِ ، وَنَسْنُدُ الرِّيَّاحَ فَلَا تَسَاقُطُ أَعْيَاشُهَا .

وها نحن

بعدَ كُلِّ أُخِيرِ

مُزْدَهَيْنَ بِسُلْطَانِ الْمَدَاخِلِ نَنْحُرُ النَّبَاتَ وَالْأُورْدَةَ ابْتِهَالاً لِهَذَا الصَّبَاحِ
الْإِخْشِيدِيِّ عَلَى الْعَتَبَاتِ ؛ لِهَذَا السُّطُوعِ وَأَبْوَابِهِ ، لِلْكَائِنِ رَاجِعاً مِنَ النَّهْبِ
أَعْبَرٌ مِثْلَ صَلَاةٍ لَمْ يَرْفَعِهَا أَحَدٌ لِأَحَدٍ . وَهَذَا نَحْنُ ، بَعْدَ كُلِّ أُخِيرِ ، نَسْفِكُ
الطَّرِيقَ وَنُعْلِقُ الرِّيَّاحَ ، عَازِمِينَ عَلَى أَنْ يَكُونَ الْحِصَارُ حِصَارَ الْمَاجِنِ وَالسَّفْكَ
سَفْكَ طَعِينٍ :

(اغفري يا صباحاتُ ، فقد رأينا النساءَ يدلفنَ من الليلِ إلى
الليلِ ، والنهارُ ملقىً بينِ خلاخيلهنَّ على المنعطفِ . رأينا النساءَ
هادئاتٍ يجمعنَ أرحامهنَّ - كما يجمعنَ الكمأ - في السلالِ ،
وسمعنا رنينَ الدمِ في الفلزِ ، وصعودَ الأرضِ دونما صخبِ إلى
حيثُ ينسى الهوَاءُ الهوَاءَ ، ويكسرُ الموجُ دوارقَهُ تحتَ جُرْزَةِ
الذبيحةِ . اغفري يا صباحاتُ ، واختصرِ أيها الترجمانُ :

كُلُّ أْتِ دَمٌ ،

كُلُّ أْتِ دَمٌ ،

وَدَمٌ هَذِهِ الدَّالِيَةُ الْمُنْحِنِيَّةُ تَحْتَ ثِقَلِ الْمَسَاءِ وَعَنَاقِيدِهِ .

دَمٌ ، دَمٌ ،

دَمٌ يَدْفَعُ الزَّنَابِقَ بَيْنَ النِّحَاسِ ، دَمٌ

يُضْرِمُ النِّحَاسَ فِي هَذَا الزَّنَابِقِ .

دَمٌ ، دَمٌ . . . عادلٌ ، وفيه ما فيه من
دَرَجٍ وتماميلٍ . عادلٌ وفيه ما فيه من
غزالات الليل وأبواق الخشخاش . عادلٌ ، وقد رأينا البيوتَ
تَحْمَلُ سُرُرَهَا وشبابيكها إليه ؛ رأينا الماءَ طافحاً بهالاته ينحني عليه
انحناءةً أنثى ، فصرخنا :

أيها التُّرجمانُ الفارقُ في بلاغته ،
أيها التُّرجمانُ ،

لقد رأيتك الأسلحةَ مترجلاً من عربتك ،
نافضاً عنك البِرْدَ أمام المدينة .

لقد رأيتك داخلاً ، ورأت الجِوَادَ المنتظرَ
صامتاً ، يتراجعُ خطوةً ،
أو يتقدمُ خطوةً ،

وحيداً ، تصعدُ من منخريه سحاباتٌ صغيرةٌ من اللُّهاتِ
الباردِ ؛ ووحيدةً انتظرتك العربةُ .

جوادٌ وحيدٌ ،

وعربةٌ وحيدةٌ ،

وكننت الثالثَ الوحيدَ

حين خَرَجْتَ غارقاً في بلاغتك .

لم تعرفِ الأسلحةُ ماذا فعلتَ في المدينةِ ،

ولم تعرفِ الزَّأويةُ التي اخترتَها ،

ولا الجليسَ الذي استمالَكَ إلى سُكُونِهِ وحركتهِ .

لقد رأيتك الأسلحةُ خارجاً ،

وحين غرقت أنتَ والعربةُ والجوادُ

في زحام اللُغة وأنقاضها ،
 رأَتْ من يهروْلُ إليكَ مَلوْحاً ولم تَلتفتْ .
 رأَتْ من يلوُحُ ، ولخطواتهِ ضَرَاةُ الأَنْثويِّ ،
 ولم تلتفتْ .
 آه ، قُلْ لها ،
 قُلْ لهذهِ الأسلحةِ
 ماذا فعلتْ في المدينةِ أيها التَرْجمانُ .
 أيها التَرْجمانُ اختَصِرْ .

وِلْيَخْتَصِرِ الصَّبَاحُ هذا السُّطوعَ الفارغَ من ساعاتِ الأسلحةِ ، فها نحن
 أكثرُ انبشاقاً من كوكبِ عابثٍ ، لا نحاذي الأرضَ إلّا لترفعَ للمهائنا ودائعَ
 المعدنِ وخيلاءِ الكراكبي . وكَيْفَمَا انحنى علينا الصبّاحُ شَقَقْنَا الدروعَ
 لينحنِي على الصبّاحِ بارقَ عنيدٍ من الصلصالِ والثَّرْفِ ، مُنادينَ : مَنْ مَرَّ
 أيها الصبّاحُ؟ مَنْ مَرَّ أيها التَرْجمانُ الجاهلُ حاضناً بيديهِ المروجِ
 والحماماتِ ، حافلاً بالعواصمِ؟ وَمَنْ ذا الذي أدارَ الينابيعَ على مغزَلِ المديحِ
 ودحرجَ الغيومَ تحتَ الزُّردِ؟ قُلْ لنا أيها التَرْجمانُ الجاهلُ ، يا صباَحَ اللعبةِ ،
 أي خيارٍ للهاربِ من المذبحةِ إلى المذبحةِ؟ لا ، لا ، فليَخْتَصِرِ الصبّاحُ هذا
 السطوعَ الفارغَ من ساعاتِ الأسلحةِ ، فقد حَضَرَتِ الأعمدةُ ، وطوَّقَ
 الشُّكْلَ الشُّكْلَ الشُّكْلَ ؛ وها أنذا

أشعلُ

الأرضَ

بالنهبِ ،

جاثياً أمامَ التَّوَلِّ ، والنَّساجاتُ وحدهنَّ يُضِرُّنَّ معي النَّسْلَ والخيوطَ :
 ويا طالما جَشَوْنَ مثلي أمامَ أنوالهن ، حيناً يُفْلَتِينَ المهزلةَ ، وحيناً يَحْبِكُنَّ

المهزلة ، وأذ يلمخن الكائنَ بين الخيوطِ مُصغياً إلى دمه ، حيرانَ ، لا يوقفُ
الرنينَ أو يضاعفُ الرنينَ ، ينسجِنَ لَهُ المساءَ ، وينسجِنَ للمساءِ الريشَ
والحناجرِ مثلي . أنا المحيطُ بالنُّؤلِ ، وها هُنَّ يُقسِّمَنَ الحضورَ دماً دماً ،
والمكانَ قَرَسَحاَ فرسَحاَ ؛ أنا المحيطُ بالنُّؤلِ ، سهواً أيقظتني الأرضُ ، وها أنذا
أدفعُ الأرضَ عَنوةً في سراديبِي الأليفةِ ، وأرى كيفَ يُوصِدُ المكانَ المكانَ ،
وكيفَ تُنتَهَبُ الأبديةُ .

(أينَ هذا كُلُّهُ من ساعاتِ انحساري عن الفراغِ العريقِ ، حين
كانتِ الأرضُ توأماً للحناجرِ ، والجذورُ مَسَاحِبَ من أذيالِ
الطفولة؟ أينَ هذا كُلُّهُ من ساعاتِ انحساري عن الإماراتِ ورحمِ
الرَّحِمِ ، حينَ كانتِ السُّهوبُ أكثرَ قَنَصاً لمجاذيفِ السَّرْخَسِ ، والنهارُ
أكثرَ أمتلاءً بزوابعهِ البيلسانيةِ؟ . يا ما حَسَرْتُ ردائي عن ثُلُوجِ ،
وشممتُ الغصونَ ، مُرجئاً كُلَّ برهةٍ في الحجرِ إلى تَرْفِ ، وكلُّ
بزوغٍ إلى بزوغِ عظيمِ . وفي هذا كُلِّهِ ؛ في ساعاتي الباسِلةِ ،
وازدهائي بدمِ سَاحِرٍ كزغِبِ الحُطَّافِ ، لمَ أختصرُ البعيدَ ، ولمَ
أستوثقُ الوحشيِّ : قلتُ : لا ، فليكنَ البعيدُ بعيداً ، وليكن
الوحشيُّ سَيِّفاً الحاضرِ المُلُولِ . . أينَ هذا كُلُّهُ من تواتري واتصالي
حَلَقَةً حَلَقَةً عبرِ صليلِ الأعماقِ وانحلالها ، حينَ كانَ الظلامُ تيساً
في القطيعِ الكوكبيِّ ، والسنابلُ خطى الصباحِ اللأهيِّ؟ . . ألا يا
نجدةً لن تَصَلْ ، ها قد وصلتُ النوافيرَ بالأبواقِ ، وها متاهي حَنُونٌ ،
والبُرْزاةُ شهقتي العاليةِ . غيرَ أنني بباغتني السوسنُ الكسولُ والزائرُ
الأحقوانُ فأنثرَ اشتعالي برعماً برعماً ، وردائي غمامةً غمامةً ،
ناسجاً للندى براقعِ الزعفرانِ وللعراءِ الحليفِ قناعِ الهادي : أنا
الداخلُ إلى الصباحاتِ بشيراني البهيةِ ذاتِ الخوارِ البهيِّ ، مُحيطاً

بردائيّ الشعالبَ وبنات أوى ، وهذا انحساري عن الفراغ العريق
حين كان المساء قانعا بدَوْرِهِ المُرتَجِّلِ على دَرَجِ الملهاة ، والفَخَّاحِ غيرِ
مُحَكِّمَةِ لطرائد الأزمنة . غيرَ أَنِّي يباغتني هياجُ الكائن قبل أن
يرتدي جُهالةَ الدَوْرِ ، وحُمَّى شِكله الأحمق بين الأشكالِ ،
فأهتفُ :

رويداً ،

سأكون الحاضرَ أيها الكائنُ

من أجلِ وقوفك الطويـ

يـ

يلِ ،

مصغياً إلى ثناء زوجة السيّد في المأدبة ،

وإلى رنين الزرّدِ على صدرِكَ اللاهثِ

تحت ثقل انتصاراتك الصغيرة .

سأكون الحاضرَ أيها الكائنُ

من أجلِ يأسك

وبهائك الشريد .

سأكون الحاضرَ أيها الكائنُ

من أجلِ أن تملأ يدك بالمويلِ ،

وشفاهك بالإشارات .

سأكون الحاضرَ أيها الكائنُ

من أجلِ أن تُملِي البأسَ وسَطَ الأعيادِ ،

وتاجك تاجَ الهاربِ .

سأكون الحاضرَ أيها الكائنُ

من أجلِ أن أراك ، وسَطَ هذا كَلِّهِ ، غريباً رافعاً معي الأبهة

الصلصالية حين تأتي المناجلُ، ويأتي المظورون وآلاتهم، ضارينَ
على الصنّجِ الصّامتِ لأحلافِ اللهبِ ..

هيا ،

إنّها

ساعةُ انحساري عن الرمادِ العريقِ
وكنزهِ البريريّ) .

وماذا؟

أنا الأمينُ على المراثي ، المَحْفُوفُ بخواتمِ الأنقاضِ ، فَتَحْتُ لَكُمْ
مداخلَ المساءِ السّيّدِ : ها رماحهُ وجوارئهُ ، والحلبَةُ المنتظرةُ إشارةَ المهرجِ .
ولَكُمْ نهزتُ الأدراجَ بمهاميزِ اللَّيلِ ، وأوثقتُ باللبلابِ حاضرَ المهزلةِ . هَلَا
أزفَعْتُم إليّ ، هَلَا أَحَطَّطُم جبينِي بالجباهِ والفيروزِ ، وَكَمَّمْتُم فمي
بالجهاثِ؟ ... أه ، كَمْ تغرّزُقُ عينايَ بالمعدنِ وأوشكُ أن أفنَعِ البروقَ أنّها
ثرثرةُ العالمِ الكَهَلِ إذ أراكم تخرجون من الرّيدِ حاضنينَ الأفعالَ ، كأنني لم
أهيبُء البأسلَ للباسلِ ، ولم يرتفعَ رنينُ العواصمِ السّاقطةِ على رخامِ
العراءِ :

بهيجاً ،

بهيجاً فليكنْ خضوعي ليقظةِ الحيّ .

بهيجاً ،

بهيجاً ، فليكنْ حصارُكمُ أيّها الرّاحلونِ .

وماذا؟

أنا المُباهي بدمِ عادلِ أقرعُ المساءِ الآن - هذا المساءِ الصّديقِ - بيدِ لا
تشارَ لمعدنِ عليها ، وأخطو داخلاً فتخطو معي الجدورُ وأبواقِ الصّلصالِ

والصباحات؛ تخطو الرمالُ معي والهياكلُ ولهبُ الينابيعِ والطفولةُ؛ تخطو
 الرياحُ والرثاءُ والقنادسُ؛ تخطو المداخلُ والأقحوانُ؛ يخطو الرماذُ والدروعُ
 وأعراسُها؛ ويخطو اللبلابُ وابنُ عُرْسِ وجواري المياهِ والنساجونُ؛ تخطو
 الجهاتُ معي؛ وتخطو الأقفالُ والحجلُ واللبنوناتُ؛ تخطو المذبحةُ والعرفجُ
 والأقنعةُ وسننونا الأجرُ؛ يخطو المهرجُ والشيرانُ؛ تخطو الأسلحةُ معي . . أنا
 المباهي بدمِ عادلٍ ،
 بهيجاً

بهيجاً فليكنْ خضوعي ليقظة الحيِّ .
 لكنني ،

حين يزدحمُ البهؤُ الصلصالي لهذا المساءِ بالعاشقين ، وتغفو أدرجُ
 الحلبةِ والجيادُ ، أخطو خارجاً من المساءِ الصنديقِ كأني هُدنةٌ إنقضتْ ،
 عارياً من جديدٍ ، وجسدي الحبرُ والمياهُ .

(كيف أنسى أنني خرجتُ ، قبل هذا ، من المساءِ لابساً زُرُودي
 وعذوبة المعدنِ النبيّ في الأسلحةِ ، عازماً علي أن تكون جرازُ
 الكائن جرازَ نهبِ عادلٍ ، وصباحاته أكثر انشغالاً بفحولة النباتِ؟
 وكيف أنسى أنني تقرّبتُ الهَيُوبِ الموائِمِ لانتشاري على الدروعِ
 والبراعمِ ، أو أنني التَمَسْتُ مسارِبَ الدمِ في كلِّ حيٍّ لأصعدُ في
 الدمِ خافتاً كالعويلِ؟ . . لا ، مُذْ خَرَجْتُ لم تُشِرِ البوصلةُ إلى
 الجهاتِ :

كلّها تتناسخُ في حصارٍ واحدٍ

واحدٍ

واحدٍ .

والذين جاءوا قبل هذا المساءِ كانوا مثلي يملأون قُرَّهم بالماءِ ،

وخوذاتهم بالنجوم الزعفرانية ، مُصْفَيْنَ إِلَى اندفاع النَّهَارِ التَّيْسِ
 وقوائمه الرُّشِيْقَةَ عِبرَ البهو الأخير ، حيث ترفو الميَاهُ أَسْمَالَهَا
 وتختزلُ الخيوط . أَلَا كَمْ هَتَفْنَا : «أَيْتَهَا الْجَالِسَةُ أَمَامَ نَوْلِ الْأَشْكَالِ ،
 يَا حَنِينَ أَبْعَادِنَا ، وَبِلَادِ الْبِلَادِ» ، ولم نقصدُ أحداً بالهتاف ، لأننا
 مُذْ خَرَجْنَا مِنَ الْمَسَاءِ لِابْسِينِ الزُّرُودِ وَعَذُوبَةِ الْمَعْدِنِ النَّبِيِّ فِي
 الْأَسْلِحَةِ ، لَمْ تُشِرِ الْبُوصَلَةُ إِلَى الْجِهَاتِ : كُلُّهَا تَتَنَاسَخُ فِي حِصَارِ
 واحد

وأحد

واحد

واحد) .

بهيجاً ،

بهيجاً فَلْيَكُنِ الْحِصَارُ فِي يَقْظَةِ الْحَيِّ .

بهيجاً ،

بهيجاً فَلَا تُكُنْ حِينَ أَشْعَلُ الْأَرْضَ بَعْدَ هَذَا بِالْجُمُهِرَاتِ ، طَاعِناً
 كَالْمَحَارِبِ بِنِصَالِي الْأَرْجَوَانِيَةِ الْمَرَايَا وَالْأَسْمَاءِ ، وَلِي جَهَالَةُ الصَّبَاحِ
 وَأَنْقَاضُهُ ، صَاعِداً دَرَجَ الْمَذْبَحَةِ لِأَجْرَفِ الْبَقَايَا الَّتِي أَغْفَلْتَهَا الْحَوَافِرُ
 وَالْأَسْلِحَةُ ؛ صَاعِداً لَا أَرِيحُ الْأَنْوَالَ مِنْ نَسْجِهَا ، وَأَهْيَبُ بِالنَّسَاجَاتِ أَنْ
 اصْبِغْنَ بِالنَّحَاسِ الْخِيُوطِ ، وَأَكْثُرْنَ مِنَ النِّقُوشِ عَلَى نَسِيجِ الْخِرَابِ . وَقَدْ
 يَنْتَابِنِي مَا يَنْتَابُ الْأَنْقَاضَ مِنْ حَنِينٍ إِلَى ائْتِدَارِ بَهِيٍّ ، فَأَهْتَفُ : لَا ، يَتُّهَا
 النَّسَاجَاتِ اكْسِرْنَ أَنْوَالَكُنَّ ، وَاتْرَكْنَ لِلْغِبَارِ أَنْ يَنْسِجَ النَّسِجَ مِنْ صَخْبِ
 الْبِيبَاسِ وَيَأْسِ الْجَذْرِ ، وَلِيَكُنْ بَعْدِي مَدَى ضَيْقٍ ، وَمِفَاتِيحَ تَذُوبٍ كُلَّمَا
 رَفَعْتَهَا الْبِرَاعِمُ نَحْوَ أَقْفَالِهَا ، وَلِيَكُنْ مَسَاءً كَوَحِيدِ الْقَرْنِ ، ثَقِيلاً يَطَأُ الْأَبْوَاقَ
 الصَّلْصَالِيَّةَ وَالْأَعْمَدَةَ ، وَيَجْرَفُ الْغَزَالَاتِ ؛ لَا صَحْوَ فِيهِ إِلَّا لِبَجْعِ هَائِمٍ

وخلد أعمى . وليكن نهاراً وطياً بعدى ، ذو شروخ ، يجوسُ في المدى الهندسي للخرابِ كأوزة المستنقع ، زحفه زحفُ فِئمةٍ تجرُّ ذكراً المقتول ، أو كأنما أطبقت الغيومُ بأنيابها عليه ، وشققته مخالِبُ النبات . ليس فيه شرخٌ إلا وفيه كوكبٌ مهرجٌ وحدادون يطوفون بمطارقهم حولَ حذوةٍ لا ترى . وليس في تجاويفه غيرُ قرونِ الذبائحِ ونفيرِ الهباءِ . وأهتفُ : أكثرُ ، أكثرَ احتداماً فليكن الحجرُ بعدى ، فليطلْ على العراءِ بأسلابه ودفوفه ؛ فليمسُ بطيلسانه وخزه التخومُ . وأعلى فليكن هرجُ اليباسِ ، وأشدَّ مَرَحاً فلتكن خليلاته الراكضاتُ بتيجانهن الصغيرة من الجذورِ ورؤوسِ الحدآتِ الميئة : «أيها اليباسُ ، أيها اليباسُ ، لعلك لم تقفُ بيننا قبل هذا ، أو لعلك كنتَ تنظرُ أبعدَ وأنت واقفٌ بيننا ، فأغفلت هذه البقية . . . خذها أيها اليباسُ ، خذها بوضئةٍ بوضئةٍ ، وقميصاً قميصاً ، ومُدَّ في ايوانِ أعضائنا المائدة لنملاً لك الصُحافَ الخزفيةَ بساعاتنا (ساعاتِ النهبِ وانحسارِ الكائنِ عن بَرزخه ، حيث تنتشرُ قُلوعُ الحفي ، وتتعرى الصواري لفحولة الجهات) ، واختمْ بختمك المصارعِ ، مهرولاً ، كلِّما ختمت مكاناً إلى آخر ، وحولك عَجولك^(٤) ومصابيحك ، مُطلاً من الأعلى كأنك عَرَفُ ديكٍ أو زرافةٍ . أيها اليباسُ . . . » .

وأنت يثها الغيومُ ذوات العكاكيز البحرية ، يا فضةَ الرِّجمِ ، فليكن مجيئك مجيءً تبه إلى تبه . وأهتفُ : أجرأ فليكن الرمادُ ، طليقاً كشهيقِ منفاخِ الكُورِ ، ورثته الخطى التي لا تعود : «أجرأ ، أجرأ ، أجرأ كُن أيها الرمادُ ، خاويًا دمثًا في الخواءِ ، وافتحْ صناديقِ حليِّك للنهبِ ، هاتفاً : ألا لا يرجعنُ أحدٌ دونَ نهبٍ ، ألا لا يرجعنُ أحدٌ» . وأهتفُ قُم أيها المعدنُ ، وليكن

(٤) انظر الملحق ، فصل «بقرات السماء» .

رَيْنُكَ أَنْجَاسَ الْهَزَائِمِ وَانْدِحَارَ الْبُذُورِ؛ تَمَلَّأَ شُدُّ إِلَيْكَ الْيُنَائِبِ عَضُوًّا
 عَضُوًّا، وَالشَّمَّ الشَّفَاهِ الْخَبِيثَةَ فِي الْأَعْشَابِ، كَأَنَّكَ سَقَفٌ لَنْ يُؤْوِي إِلَّا
 الَّذِي لَهُ رَيْنُكَ التَّمْلُ. بِهِيًّا فَلْتَكُنْ أَيُّهَا الْمَعْدُنُ فِي أَشْكَالِكَ وَنَهَبِكَ،
 حَاضِرًا حُضُورَ الَّذِي لَا حُضُورَ إِلَّا بِهِ، وَلْتَكُنْ مُبَاغِتًا تَحْتَمُ الدَّمَ بِخَتْمِ
 الصَّلِيلِ وَالْفُلْزِ. أَمَا أَنْتَ أَيُّهَا النَّبَاتُ، يَا مَرْكَبَةَ اللَّهَاتِ وَتَوَامَ الْحَرَكَةِ،
 فَاخْلَعْ خِمَارَ الْمَدَائِحِ الَّتِي صَاغَهَا الْخَارِجُونَ مِنْ وَقْتِهِمْ، وَلِيَكُنْ يُخَضُّوْرُكَ
 شَتِيئًا، وَأَلْيَافِكَ سَكْرَى بِأَنْبِنِ الثَّمَارِ فِي ذُبُولِهَا. وَلَمْ أَنْسِيَابَاتِكَ النَّاعِمَةَ
 أَيُّهَا النَّبَاتُ، لَمْ فَرَأَ الْأَكْمَامَ الْمَهْيَأَةَ لِلنَّحْلِ وَالْفَرَاشَاتِ. وَأَهْتَفُ: فَلْتَكُنْ
 حَدَاةَ هَذِهِ الْمِيَاءِ أَطْبَقَتْ عَلَيْهَا الْفَخَاخُ، أَنَا تَنْقُرُ الْحَدِيدَ، وَأَنَا تَنْقُرُ الْجَنَاحَ
 مِنْ هِيَاجٍ وَذُعْرٍ؛ وَلْتَنْخَبِطْ وَسَطَ مَهَامِيزِ الْغَمَامَاتِ وَالظَّلَامِ، غَبْرَاءَ فَضَّتْ
 عَنْ جِرَائِهَا الْمَوْجِ، وَعَنْ يَرَائِبِهَا غَشَاءَهَا الْقَصْدِيرِيُّ: «يَتُّهَا الْمِيَاءُ، يَا
 الْحَاضِنَةَ تَحْتَ أُنْدَائِهَا الْجِرَاءِ وَالْيَرَابِيعِ، فَلْتَكُونِي حَدَاةَ الْيَابَسَةِ وَأَسْمَالَ
 الْمُهْرَجِ، وَلْتَكُنْ يَدُكَ الْيَدَ الْمُمْسِكَةَ بِالْخَنَاجِرِ وَأَعْلَامِ الْوَقْتِ». وَلِيَكُنْ بَعْدِي
 نَشِيْجٌ بَطِيءٌ بَطِيءٌ

يـ
 يـ
 يـ

سيء

أَنَا الْقَهْقَهَةُ الْبَطِيئَةُ لِأَفْوَلِ بَطِيءٍ.

ولكنني، في غمرة أنسكابي من ميازيب هذا التَّشِيدِ الْفَاحِشِ،
 أَسْتَدِيرُ ثَانِيَةً نَحْوَ الْحُبَارَى وَالْكَرَاكِي إِذْ تَعْبُرُ الْأَعْمَدَةَ الْبَاقِيَةَ مِنْ حُصُونِ
 الْمَسَاءِ، كَأَنِّي نَسَيْتُ أَنْ أَضْرَجَ الْأَجْنَحَةَ بِابْتِهَالِ الْكَائِنِ، وَأَنْ أَجْعَلَ
 الْهَوَاءَ رَحِيمًا فِي الْمُنَاقِيرِ. وَأَسْتَذْرِكُ فَالْوَحُّ لَهَا بِالْفُصُونِ، مُغْمَضًا عَيْنِي عَلَى
 أَقْصِ كُلِّ مَا فِيهِ طَيْرٌ، وَأَعْضَائِي عَلَى سَطْوَعِ رَاكضٍ بِسَيُوفِ أَزَاهِيرِهِ.

وأقول: ريشما أشهدُ الينابيعَ خَوْذَةً تندحرجُ على عتبةِ الصباحِ ، والنَّبَاتِ
نَوَاسِئاً لساعةِ النَّهَبِ ، ستكون هذه الحُبَارَى والكِرَاكِي سَلَامِي الْمُسْنَدَةَ على
لهبِ حنونٍ . وفي غمرةِ انسكابِي من ميازيبِ الليلِ حاملاً أختامَهُ
وفوانيسَ أرواحه الطَّعِينَةَ ، أَسْتَدْرَجُ النَّدى إلى مديحي ، وأغوي السهولَ ،
مُهِرِقاً كنوزي البربريَّةَ للأعشابِ ريشما تنهضُ الأرضُ ثانيةً في عويلِ
الكائنِ ، ويزدهي الرمادُ بأحناشه ووعولِهِ ، لا لَأَمْنَحَ الأرضَ حَظَّةَ اللَّهَاتِ ،
أو الرَّمَادَ حَقْفَ دمِ عادلٍ ، بل لَأَضْرِمَ النَّهَبَ ثانيةً ، قارعاً الرمادَ بالرمادِ ،
والأرضَ بانقاضها ؛ وليكنْ نَهْبِي نَهْباً بطيِّ

يـ

يـ

يثأ

أنا القَهْقَهَةُ البَطِيئَةُ لأقولِ بطيِّ ،
وطبعتي طبعُ المساءِ .

(قبل هذا ؛ قبل دخول اللهبِ عارياً على نجمةِ الهواءِ البتولِ ؛
قبل أن يغمدَ القَبَارُ نَصَلَ جداله في العراءِ ، وتَلْتَقِطُ البراعمُ خَرَزَ
الجدورِ الهاربةِ ، كُنْتُ مُتَكِناً على سِيَاجِ الصَّبَاحَاتِ وقناعي القُرَى
والمياهِ ، أُنظِرُ الكائنَ داخلاً من الرياحِ على أعراسِهِ ، قارعاً بأبواقِهِ
الصلصاليةِ حدودَ البروقِ ، شفيفاً ، تَخْطُرُ الفَرَاشَاتُ بين أليافِهِ
وشرايينهِ ، وتَعْبُرُ اللُّقَالِقُ سَرِيّاً كأبجديةٍ لم تَكْتَمَلْ . وكان النباتُ
مثلي مُتَكِناً على سِيَاجِ الصَّبَاحَاتِ ، نشوانٌ من صليلِ الجدورِ في
جهاثها الخفيفةِ . مَرَحاً كان النباتُ في ثرثرةِ ثمارِهِ ، وانشغالِ الزَّهْرِ
بدُعايةِ المياهِ . وكانت الكواكبُ مُتَكِنَةً مثلي على سِيَاجِ
الصَّبَاحَاتِ ، عاقدةٌ حولَ خُصُورها مرابيلَ الفراغِ العريقِ ، تنشرُ

للجهات المهرولة كالجرأء غنائمِ الأعالي . غير أن الأرضَ وحدها بين هذي الكواكب كانت تنشرُ الرنينَ الإخشيدِيَّ للفلز، والأغمدة، والهوام، مُتَكَنَّةً على سياج الصباحات من دون قناع في احتفال الكائن بالأقنعة : ألا أنثي رفعتُ للأرض - قبل هذا - أختامَ العذوبة، ورفعتُ للأرض أضُمومةً من ورق البُرديِّ، هاتفاً : «اختمي أيتها الأرضُ هذا البُرديُّ باللهاث، اختميه بالخشاش والرئات، اختميه بالحناجر، بالماء، بالخطى التي لا تصل؛ اختميه يثها الأرضُ بالنقبضِ المباركِ». وللأرض وحدها - حين كانت تهدهدُ على سياج الصباحات في انتظار الكائن - غسلتُ الكائن بالصليل، تاركاً لخطاهُ أن تتوازي في مجده الغريب . غريباً - قلتُ للكائن - ادخلُ العراء، ولتَنقُرِ الشُعاعاتُ نقشَ روحك الذهبي... إليه، قبل هذا، قبل أن يباركَ المباركُ ويقتنصَ المرثيُّ أشكالنا؛ قبل أن يعرفَ الظلامُ أنه صنوُ الباطن، ويعرفَ الضوءُ أنه سليلُ المتاه، كنتُ لا أحتكمُ إلا إليّ، عادلاً كنتُ، شغوفاً باللّهو الغامض، حياً حياً، كأنَّ كلَّ حياةٍ أوثقتُ إلى سياجي غزالاتها خَوْفَ أن تشرُدَ الغزالاتُ، وارتمتُ قُرْبها لتنام . أنا المتلألئُ وسطَ العناقيد الزرقاء للمياه وفاكهة النحاس، شغوفاً كنتُ باللّهو الغامض، أدخلُ الصباحَ بسلام الغيوم، وأرجعُ في المساء مُثَقَلًا بإرث المساء : كلُّ قناع قناعي، وعباءتي الأسراب الطويلة من ثعالب السهول . وها أنذا، قبل أن تكتملَ الأحاديثُ عن بسالتي ويأسي، أرى أنجاساً رهيفاً وسطَ الصلصال، وأشمُ عبقَ الكائن في خمائر العراء : إنها نزهةُ الأرضِ في طيشها . إنها نزهةُ (الأرض) .

طَبْعِي طَبْعُ الْمَسَاءِ ، وَلَا مَنْ يُنْشِدُ الْمَسَاءَ .

يا حاملاً زيني ، أيها المديد وسط المساء ، هات النشيد مضيئاً
كمدتَب مُرجاني ، وانثر اللهاث كالسَّمْسَم على رغيفنا ، فها نحن ثانية
أمام الحلبّة ، وأبوأنا الصلصاليّة على أهبة التفسير ريشما تحل الأباطيل
عناقيدها مثل ذؤابات النساء ، وتلبس المياه قناعها الباسل ، وها نحن ، في
اندفاع الدم هاذياً إلى وريد العنق ، نشدّ راحتنا ثانية على مقابض
النعمّة ، وعيوننا لا تفارق المكمّن الأكثر مقتلاً لهذا الكوكب الأخير . .
لا ، لَنْ يكون طغتنا في المقتل : سنستدرج الكوكب إلى فراغ آخر غير
الفراغ الوصيف حول كواكب المساء ؛ إلى فراغ أكثر غمراً بزعفرانه
وبراعمه ، حاذق ، يسنّ النصال بمبارد الترف ، ويرصع المقابض بالجدال .
وسنلقيه بين الخلاخيل الحفّية ، لا يسترده الكائن إلا نهياً : ألا أيها
الكوكب الأخير ، يا الأخير كأبوأنا ، حين لم تكن خرجت بعد من
صواعق الفلز والغبار ، كانت قدّم الكائن مُثبّته على حافة الفراغ ، ويده
تتقرى أعمدة المساء . نرقاً كان ، يخلط الصباحات بنحاس زرده ، ويضرب
ببوقه الصلصالي كراكي البروق . وكم تعرى من صلصاله ليري البعيد
عذوبة البعيد ، ويكشف الصباحات النائمة حول زمرّد الدم . غير أنك أيها
الكوكب الأخير - خارجاً من صواعق الفلز والغبار - فاجأته بيقين
الأبجدية ، فاجأته بالمكان ، فها هوذا ، جاثياً أمام الينابيع - لا فضول في
قناعه - يسرد للمياه حلم الآخرين ، وينسى كيف يُبرّم الخفي ويُنقض
الخفي ؛ وها أنت في أسمالك المائية تكسر مجد المياه موجة موجة على
باب الكائن ، وتتقصى اليقين في الشرّهات الحية . أه ، أيها الفاتح
المستسلم ، ياكوكباً أخيراً أخيراً ، أي كوكب آخر يعبر الأعماق ويحاذيك؟
أي كوكب يحيطك بحصار الحيّ ويلقي بين أسمالك المائية بوق اليابسة

والحروف؟ وحيداً خَرَجْتَ من صواعقِ الفلِّزِ والغبارِ، وحيداً خَرَجَ الكائنُ من صليلِ الأسلحةِ، وها أنتما تَقْتَسِمَانِ المساءَ والنذورَ . . . لكنني - يقيناً - أشمُّ في هذا المغقلِ المباركِ لكائناتِ المَرِحِ طَيِّبِ كواكبِ أخرى أيها الكوكبُ الأخيرُ:

(هناك، في السَّدِيمِ العابقِ برائحةِ الكَتَّانِ والريشِ؛ في السديمِ المُغْتَبِطِ بمراكبِ الهَيُولَى وتفتُّحاتِ اللأمريِّ؛ هناك، أعلى قليلاً من مُستوى الهديانِ، نهَضتِ الكواكبُ من المراثيِ، دافئةٌ كَسَلَى، تَعَصَّبُ جباهها بمناديلِ البُكُورَةِ وتنتعلُ الجهاتِ. وفي السَّدِيمِ المُغْتَبِطِ بأساورِ النبوةِ، هناك، أعلى قليلاً من أفقِ الحصارِ العظيمِ، تقدَّمتِ الكواكبُ في رُدْهاتِ حُلْمِها، تحفُّ بها الرُّجُومُ الضَّريرةُ، وتُرْجَمُها المساءُ. تنتظرُ، ولا تنتظرُ، كأنها قادمةٌ إلى نفسها خارجِ السَّدِيمِ، خارجِ مَخْدَعِ اللأمريِّ، خارجِ العذوبةِ المسدولةِ على مداخِلِ الأعاليِ. لا . . . كانت قادمةً من هناك في لهفَةِ المُستَوْحِشِ إلى شريكِ غامضِ، تلتمسُ في عذاباتِ الكائنِ مداراتها الضائعةِ وكنوزِ الليلِ. لكنها لم تنحدرْ أكثرَ؛ كانتِ حدودُ مُضيئَةٍ بينها وبين الكائنِ الأخيرِ؛ حدودٌ تفتِّحُ كأكمامِ الجُوزيِّ، وتُصغِي في جلالِ إلى جَدَلِ المياهِ والعيولِ. وها هي ذي، أعلى قليلاً من مستوى فأسِ في يدِ الحارِبِ، مختالةٌ بأقراطها المرمريةِ وانعكاسِ خواتمِها على نَصْلِ، تُومئُ إلى المساءِ المُهْرَجِ . . . ويبدأ المساءُ)

يقيناً أيها الكوكبُ الأخيرُ أنكَ توأمُ المساءِ، توأمُ البُرْهَةِ المُلْتَفَةِ باللهاثِ وخيالاتِ المُعَدَنِ. يقيناً أنكَ تفتحُ الآن حدوداً ثانيةً للرَّغْبَةِ، وتَمَوِّهُ

الجدور، طاعناً حيث لا يكون طَعْنٌ إلا في المقتلِ، ناصباً مراياك لانحلالِ
اليابسة والمناجلِ المقتحمة حصادَ الينابيع . وأزعمُ - وهذا زَعْمُ الكائِنِ
أيضاً- أنك لا ترى من الدم إلا البرزخَ الأكثرَ ازدحاماً بالأحابيلِ، ولا ترى
في خيمة الرمادِ إلا قِيانَ الرمادِ . لا، لا، أيها الفاحشُ في الحضورِ، يا توأمَ
المساء: هذي أسلأبنا وَقَرَبْنَا اليَقْطِينِيَّةُ، وهذي مدائحنا التي لم تكتملُ،
لَسْنَا غَدُّهَا إليك، بلْ نُرِيكَهَا امتداحاً لتَهَبَ عادلُ أيها الكوكبُ الأخيرُ،
وأماً فتحتَ صناديقنا لمستَ فداداتِ الدَّمِ، والقُرَى، وأباريقَ الحاضرِ المَلُولِ .
ألا أنحسرَ قليلاً عن رثائنا أيها الأخيرُ، يا فُسَيْفَسَاءَ النهارِ الأخيرِ، لتتقرى
بأناملكَ اللَهاتِ الأبعدَ تحتِ الأغشيةِ؛ اللَهاتِ المَبَارَكِ لبراعمِ الصلصالِ .
واذفَعْ أناملكَ أَبْعَدَ، في رثائنا، أَبْعَدَ، إلى حيثُ تَسْرُدُ المروجُ للأبجديةِ
تُرَهاتِ البَقُولِ، إلى حيثُ الأسلحةُ وصخبُ الأفحوانِ . واهبطُ - إذا شئتَ
- هذا الدرَجَ من الأغشيةِ والدمِ المشدودِ إلى دَوْرَتِهِ الحَيَّةِ، ستصرخُ: «هذا
قناعٌ في أسفلِ الدرجِ، وهذا غَدُّ أرامي»، ولربما صرختَ: «عَلَامَ هذه
الأرائكُ كُلُّهَا في رُدْهَةِ الرِّثائِ؟ عَلَامَ هذه الفؤوسُ والأقفالُ؟» . . . لا، لا،
أيها الفاحشُ في الحضورِ، يا صريراً أخيراً لبابِ المساءِ الصّديءِ، أنتَ لا
ترى من الدَّمِ إلا البرزخَ الأكثرَ ازدحاماً بالأحابيلِ . لكنني لن أضيقَ
عليك الآنَ طَوْقَ المرائي، بل سأكثرُ الثناءَ على الجالسِينِ أمامَ ساعاتهم
الرّمليّةِ وهم يُجوِّفونَ الجهاتِ كجُحْرِ الزَّبُوعِ، وحينَ ينهضونَ ستنهضُ أنتَ
أيضاً أيها الكوكبُ الأخيرُ، أجوفٌ كجُحْرِ الزَّبُوعِ، ولن تردّدَ الجهاتِ بعدَ
ذا إلا القَهْقَهَةَ البطيئةَ لأفولِ بطيءِ

يـ

يـ

جـ

أنا القَهْقَهَةُ البطيئةُ لأفولِ بطيءِ .

عادلاً قطعنة عادلة فاجأت الأرضَ (تلكَ المُستَلْقِيَةَ تحْتَ غشاءِ شَفِيفٍ من الأحماضِ والثَّقُوشِ) ، ولم يكنْ معي غيرَ تَرْجُمانِ الصِّلْصَالِ . قُلْتُ فَلْتَجِيءُ كائِنَاتُ المَرْحِ ، فهذي فِخَاخُ الأرضِ ، وهذي فِخَاخِي (كلانا يهيمُءُ مقاديرُهُ وَيَسْتَمِيلُ المَسَاءَ) ، فَلْتَجِيءُ كائِنَاتُ المَرْحِ لتغسِلَ بالدُّعَابَةِ هذا العِرَاكُ المُحْتَدِمَ وهذا البطشَ . فَلْتَجِيءُ لَنَحْتَكِمَ إلى المَرْحِ في اشتعالِ الدمِ . . . وجاءتْ كائِنَاتُ المَرْحِ لَفِيْفًا لَفِيْفًا كطيورِ الوَرُورِ ، تتدلى أباوقها من الأَحْزَمَةِ النَّبَاتِيَّةِ ؛ قُلْتُ فَلتأتِ النساءُ أيضاً . . . وجاءتِ النساءُ ، كانَ لهنَّ رائحةُ الكَرْثِ ، ولما تَزَلْنَ في ذُؤَابَاتِهِنَّ بقايا زَهْرٍ وَطَلَعِ ؛ هادئاتِ جِشْنِ ، لكنهنَّ كُنَّ يتوجَّسْنَ قَلَقًا من الأرضِ مثلي ، ومن ذلكَ الأَفْوَالِ المُتَعاقِبِ للأفُقِ بين خيامِ المياهِ . قُلْتُ فليأتِ الصَّخْبُ أيضاً ، فليأتِ المُبَدَّدُ الباسِلُ للِسْكُونِ الباسِلِ . . . وجاء الصَّخْبُ بَطْرًا يعابثُ من حوله عذارى النحاسِ :

(قبل هذا جاءَ البِنَّاؤونُ ، وتهدَّلتِ الهندسةُ)

قُلْتُ : ماذا أيضاً؟ ها اكْتَمَلِ الحُضُورُ . .

إِيـ

يُهُ

عادلاً فاجأتُ الأرضَ ، قُلْتُ فَلتَكُنْ حُصُومَةٌ عادلةٌ : هذي فِخَاخُ الأرضِ ، وهذي فِخَاخِي ، وكلانا سيلتَمِسُ في احتدامه أن يشدَّ أزرَهُ المَساءِ . قُلْتُ : من أجلِ أن يكونَ سُلْطانَ الكائِنِ أَكْثَرَ تَرَفًا بين أترابه من ملوكِ المياهِ والنباتِ أبدأ هذا كُلَّهُ . . . لكنْ ، حينَ اكْتَمَلِ الحُضُورُ فاجأني الكائِنُ فَالْتَبَسْتُ عَلَيَّ الحُصُومَةَ : فِخَاخُ بيني وبين الكائِنِ ، وفاضلٌ يفتسِمُ على جهتيهِ النساءِ والصَّخْبِ ، وكائِنَاتِ المَرْحِ . وها كلانا يلتَمِسُ في احتدامه أن يستميلَ المَساءَ . وبيننا ، بين هذي المعاولِ ولهايها المعدنيِّ ،

وحدها الأرضُ ترفعُ القهقهةَ البطيئةَ نذراً للأفولِ البطيءِ .

سيء .

أنا القهقهةُ لن ترفعُ الأرضُ نذرها إلا معي . أما أنتَ أيها المساءُ ، يا هُدهدَ أعماقنا ، فيك ستنحلُّ الأقنعةُ وتتكشَّفُ السراديبُ الحليفةُ لنخرجُ من حصارِ النعمةِ أكثرَ نزقاً فنُحكِمَ الحصارَ على النُّعمةِ ؛ وفيك سنقتسمُ أسلابتنا من النهاراتِ الصغيرةِ كدروعِ السُّلاحفِ ، وعبوئنا لا تفارقُ المَكْمَنَ الأكثرَ شُرْحاً في الأبديةِ ، لأننا وهبنا الأبديةَ خطانا فلمَ تصلِ الخطى أيها المساءُ . وها نحن - إذ نَقْتَسِمُ وسَطَ مَرَحِ النهاراتِ والهوى - نصيحُ : فَلْيَتَسَّعِ الشَّرْحُ ، فَلْيَتَسَّعِ الشَّرْحُ فلا يصلِ الكائنُ إلى الكائنِ إلا نهباً ؛ وسنغرزلُ وسَطَ مَرَحِ أيها المساءُ مساءً اتنا ، لاجمِينِ الألقِ الحيِّ للأعمدةِ لثلاً يَجْفَلُ الكوكبُ الأخيرُ . وفَرَسَخاً فَرَسَخاً سنعرِي النباتَ والتخومَ من أقنعةِ النهارِ ؛ فَرَسَخاً فَرَسَخاً سنحيطُ بالظلامِ الأشكالَ ، ونقتحمُ المرثيَّ وصليلنا صليلُ البعيدِ : هيهاتَ أيها المساءُ ، هيهاتَ . . لن ترفعُ الأرضُ نذرها إلا معي ، ومعِي ستدخلُ الأنقاضُ والأبديةُ حصارَ الحيِّ أيها المساءُ . لكنني مُزْمَعٌ على أن أهرقَ النشيدَ ، وأسلمَ الحيِّ للإباحةِ ، طاغياً كالسُدِّيمِ ، يتواطأُ في تفتُّحاتي الرمادُ والمياهُ . وكأشدَّ ما يكونَ رنينُ الحيِّ في اجتياحِ الأثني سامزجُ رنيني بالسُدِّيمِ هاتفاً : «لَتَخَالَئَكَ الكواكبُ أيها السُدِّيمُ تَفْتَحَتْ كاللهاتِ ثانيةً وَفَرَدَتْ سِراعَ المراكبِ لرياحِ الأشكالِ . وَلَتَخَالَئَكَ عاكفاً على أفعالِ الصباحاتِ بمفاتيحكِ الأرجوانيةِ تَطْلُقُ سِراعَ الحديدِ والسنابلِ» . . . أعرفُ أن السُدِّيمِ سُدِّيمٌ ، والكواكبُ هناكُ ، أعلى قليلاً من مستوى الهديانِ . وأعرفُ أنني هنا - وسَطَ النشيدِ المُتهدِّجِ وفؤوسِ الصِّلصالِ - لا أزالُ راكضاً أمامَ جمهراتي ، مُسْتَنفِراً بقايا البقايا ، وما تزالُ الجمهراتُ مثلي تُسَيِّجُ بالخَرْفِ تخومَ أيامها ، وتنصبُ السلالِمَ على أعمدةِ

المساء؛ ومعاً لا نزال أمام مداخل الحَلْبَةِ، نرقبُ المِدارِجَ المكتظَّةَ بأقنعةِ
الحاضرين، ونُصغِي إلى القهقهةِ البطيِّ

يـ

يـ

يثةً للكوكبِ البطيِّ .

(ما هكذا يبدأ المهرجانُ في حضورِ الدمِ العادلِ أيها الكوكبُ
الأخيرُ، ما هكذا يفتحُ المنشدونُ نعمةَ النَشِيدِ^(٥): يعرفُ الهباءُ
الذي لا هباءَ بعدهُ أنا - حينَ انشقتُ عِنا الشِراةُ الأولى لمطارقِ
الحياة - نهضنا، مَرَحِينِ نهضنا، وكانتْ عَجولُنَا أكثرَ مَرَحاً أمامِ
المحارِثِ وهي تُصغِي إلى الطُّقْطَقَةِ العذبةِ لانشطارِ الترابِ
والشراراتِ؛ نكاد نلمسُ السَّعَاةَ اللأمريئينِ وهم يصعدونَ برسائلِ
الجدورِ الزعفرانيةِ إلى الهوائِ العاشقِ .

يعرفُ الهباءُ الذي لا هباءَ بعدهُ أنا حينَ عُدْنَا أوَّلَ مرةٍ من
حصادِ البقولِ والفاكهةِ تنازعَتْنَا هواجسُ النهبِ، فقلنا: لا . .
فليكنِ الترابُ ملكَ محارِثِنَا، ولنكنُ ملكَ البذورِ . غيرَ أننا لم
نُترجمِ الخفيَّ الواقفَ في عراءِ البطشِ هناك، مُرسلاً يديهِ إلى
مقابضِ أبوابِنَا . آآه، يعرفُ الهباءُ الذي لا هباءَ بعدهُ أننا اندلقتنا
إلى العراءِ كما يندلقُ النَّيْبُذُ على حيةِ الفاتحِ، ممسكينَ بالمحارِثِ
ينظرُ الكائنُ منَّا إلى الآخرِ، جَهْمًا، يَحْبِكُ بعينيهِ الأحابيلَ، وفي
دمه المراثي . وكِ لا تُفصحُ الحُصومةُ عن مَغزَلِ الحُصومةِ الحَدِيقِ،
قلنا: فَلَتَكُنِ الأَقنعةُ حدودَ الكائنِ، لا يعرفُ أحدٌ أحدًا إلا حينَ

(٥) أنظر الملحق فصل «الأنشيد» .

تَصْطَفُ الأَبْوَاقُ حَوْلَ رَمَالِ الحَلْبَةِ ، ويصعدُ النَفِيرُ الأَرَجَوَانِيُّ إِلَى الرِّثَةِ الحَيَّةِ : هَاكَ أَيُّهَا الكَوْكَبُ الأَخِيرُ ، هَاكَ ، أَشْهَدُ الكَائِنَ دُونَ قِنَاعِ فِي الحَلْبَةِ ، عَلَى أَهْبَةِ الخَوْضِ فِي بُحْرَانِ الفَلَزِ وفجاءةَ الفجاءةِ ، تتخبطُ فِي شَرَايِينِهِ الطَّفُولَةَ ، وَفِي رِثِيهِ الفَاكِهَةَ وَالينابيعِ ، فَمَا هَكَذَا يَبْدَأُ المَهْرَجَانُ فِي حَضُورِ الدَّمِ العَادِلِ أَيُّهَا الكَوْكَبُ الأَخِيرُ ، وَمَا هَكَذَا يَقْتَحِمُ المُنشِدُونَ نِعْمَةَ النَشِيدِ . لا ، يَعْرِفُ الهَيَاءُ الَّذِي تُغْطِي طَوَاوِيسَهُ بِالعَبَاءَاتِ أَنَّنَا - حِينَ أَنشَقَّ عَنَّا الدَّوِيُّ الأَوَّلُ لِارْتِطَامِ الحَيَاةِ بِالعِبَارِ - نَهَضْنَا شَاهِرِينَ مَنَاجِلَ السِّنِينَ الشَّرِيدَةِ . أَنَا نَقْرَعُ بِمَدَائِحِنَا بَابَ الحَيَاةِ ، وَأَنَا نَقْرَعُ بِالأَبْجَدِيَّةِ سِيَاجَ السَّدِيمِ . وَنَذَكُرُ أَيضاً أَنَّنَا رَفَعْنَا الأَبْوَاقَ خَاشِعِينَ أَمَامَ الصَّخْبِ البِهِيِّ فِي المَعْدَنِ ؛ أَمَامَ حَضُورِهِ الدَّافِيءِ المَبَاحِ ، نُوشِكُ أَنَّ غَدَّ رَاحَتِنَا إِلَى أَلْقَى المَقَادِيرِ فِيهِ ، فَقلْنَا :

عَمَّ مَسَاءَ أَيُّهَا المَعْدَنُ .

عَمَّ مَسَاءَ أَيُّهَا الشُّكْلُ البَاسِلُ ،

عَمَّ مَسَاءَ يَا مَرَحَ المَرَحِ .

ثُمَّ خَلَعْنَا أَشْكَالَنَا ، نَازِلِينَ دَرَجَ الرُّوحِ إِلَى العَرَاءِ الأَعْظَمِ ، يَنْظُرُ الكَائِنُ مِنَّا إِلَى قِنَاعِ الأَخِيرِ ، عَارِفًا أَنَّ ذَلِكَ القِنَاعَ أَلْقَى لِلعَوِيلِ . وَلرُبَّمَا تَغَافَلْ وَاحِدُنَا عَنِ الأَخِيرِ : عَيْنٌ عَلَى القِنَاعِ ، وَعَيْنٌ عَلَى المَعْدَنِ البَاسِلِ ، قَارِبًا بَيْنَهُمَا الفَجَاءَةُ وَتَفْتُحَاتِ الوَقْتِ . وَكَيْفَ لَا يَبْقَى الكَائِنُ مُسْرَفًا فِي انْحِنَائِهِ أَمَامَ الكَائِنِ مُذْ خَلَعْنَا أَشْكَالَنَا ، مُذْ خَلَعْنَا مَوَائِيقَ اغْتِبَاطِنَا بِالسَّدِيمِ فَعَرَفْنَا حُدُودَ أَعْضَانِنَا؟ وَكَيْفَ لَا يَبْقَى مُسْرَفًا فِي التَّصَاقِهِ بِالقِنَاعِ يُخْفِي عَنِ الكَائِنِ نَوَافِيرَ امْتِدَادَاتِهِ الذَّاهِبَةَ أَعْلَى مِمَّا يَسَعُ الكَائِنُ؟ وَكَيْفَ لَا يَمُوهُ هَذَا كُلُّهُ فَيَلْتَفُ هَاتِفًا :

عَمَّ مَسَاءَ أَيُّهَا الوَرْدُ .

عَمِ مَسَاءٍ يَا دَلِيلَ الْمَسَاءِ
 عَمِ مَسَاءٍ أَيُّهَا الْحَجْرُ،
 عَمِي مَسَاءٍ يَا وَصِيْفَاتِ الْوَحْشَةِ . . ؟
 إِنَّهُ - يَقِينَا - سَيَجْمَعُ بَعْدَ هَذَا حَرَابَ الْجَوْهَرِ، مُغَيَّرًا حَيْثُ
 الْخُدُودُ حُدُودٌ؛ فَمَا هَكَذَا يَبْدَأُ الْمَهْرَجَانَ، وَمَا هَكَذَا يَقْتَحِمُ
 الْمُنْشِدُونَ نِعْمَةَ النُّشِيدِ أَيُّهَا الْكَوْكَبُ الْأَخِيرُ) .

إِذْنُ،

بَطِيءٌ

يُ-

يُنَا فَلْيَقْتَحِمِ الْمَسَاءَ الْمَرَاثِيَّ، وَلْيَخْرُجِ الْمُنْشِدُونَ مِنْ كَهُوفِ الْمِيَاهِ رَافِعِينَ
 بِيَارِقِ الزَّيْدِ وَصَنْوَجِ الْأَعْمَاقِ، فَقَدْ أَقْفَلَ الْكَائِنُ الْحَلَبَةَ مُؤَمِّتًا إِلَى الدَّمِ لِيَبْدَأَ
 الرَّهَانَ الطَّوِيلُ. طَوِيئُ يَدٍ يَلَا إِذْنَ فَلْيَكُنْ حُلْمُنَا، طَوِيلًا فَلْيَكُنِ النَّفِيرُ الْمُعْوِلُ
 لِبَوْقِنَا الصَّلْصَالِيِّ، وَلْيَخْرُجِ الْمُنْشِدُونَ مِنْ مَتَاهِ الْعَذُوبَةِ، سَائِقِينَ الرَّمَادَ
 وَالْجَذُورَ، فَلَنْ يَبَارَكَ إِلَّا الْمُبَارَكُ. غَيْرَ أَنَّنَا - فِي غَمْرَةِ الرَّهَانِ الطَّوِيلِ -
 سَنَلْتَفِتُ إِلَى الْأَفْقِ التَّفَاتَةِ الْحَيْرَانَ: «خِيَالَاتٌ فِي بَالِنَا، أَمْ خِيَالَاتٌ فِي
 بَالِ الْأَفْقِ هَذِهِ الْجَمُوعُ الْمُتَلَائِئَةُ كَالْعِنَاقِيدِ، لَا تَقْتَرِبُ وَلَا تَبْتَعُدُ، هُنَاكَ،
 أَعْلَى قَلِيلًا مِنْ مَسْتَوَى خُوْدَةِ النُّجْبَةِ؟». وَسَنَقْتَرِبُ مِنَ الْأَفْقِ اقْتِرَابَ
 الظُّنُونِ مِنَ الظُّنُونِ، هَانِفِينَ: «لَا شَيْءَ فِي الْأَفْقِ عِدَانَا - نَحْنُ خِيَالُهُ
 الْجَمُوحُ نَهْيُهُ الْخِيَالَاتِ لِلْمَرَايَا». وَفِي غَمْرَةِ الرَّهَانِ الطَّوِيلِ سَنَتَوَكَّأُ عَلَى
 الْوَمِيضِ الْخَنُونِ لِحُلْمِنَا، صَاعِدِينَ هَابِطِينَ تِلْكَ الْأَدْرَاجَ الْمُشْتَعَلَةَ بِقَهْقَهةِ
 الْكَائِنِ وَصَرِيرِ الْأَبْوَابِ الَّتِي لَا تُرَى، لَا بَسِيْنًا تِيْجَانَنَا، لَا بَسِيْنًا الشَّمَاةَ
 وَالْأَبْهَةَ . . . أَنَا الْأُبْهِيُّ مَا أزالُ رَاكضًا أَمَامَ جَمْهَرَاتِي، وَلِيَحْذَرَ الْبَعِيدُ
 الْبَعِيدَ.

وماذا أيضاً؟ يسألُ المساءُ .

وماذا أيضاً؟ أسألُ المساءَ .

(ما هكذا يتواطأُ العاشقونَ على دمِهِم)

ما هكذا يبدأُ المهرجَانُ والمنشدون) .

ألا لَن ترفعُ الأرضُ نذرهاَ إلا معي ، وأنا الأبهيُّ لن أرفعَ المديحَ
الأخيرَ للصباحِ إلا مُثخناً بنعمةِ الثَّهبِ . .

إذنْ

بطيـ

يـ

يثأُ فليَمُرَّ الرُّمادُ بي . بطيـ

يـ

يثأُ فليكنْ دخولي إلى المديحِ ،

عَبَقاً بانحلالِ الأبجديةِ والجَهاثِ ، ولتكنْ روحي ظهيرةَ الظَّهيرةِ وهي
تتوسدُ الهَرطقةَ جَنباً إلى جَنبٍ مع الظلامِ والحديدِ في قَيْلولةٍ واحدةٍ ، فأنا
- يقيناً - قادمٌ من الدمِ ، ذاهبٌ إلى الدمِ ؛ ويقيناً لأختَمَنَّ هذا الدَّورَ
العنيدَ بقرعِ عنيدٍ على سندانِ الإباحةِ حتى أرى المعدنَ مُغْتَبطاً بأذواره ،
والرمالَ مُنحنيةً تلتقطُ في سلالها العواصمَ الهاربةَ . وفوجاً فوجاً سابعُ
للخواتيمِ أن تدخلِ المأذبةَ وراءِ خطي الغبارِ المهرِّجِ ، وسأدخلُ المأذبةَ (هذه
المأذبةُ الحافلةُ بوجوهِ كالأقفالِ ، وغيومِ تندلقُ من كؤوسِ الوفودِ) ، مائساً
كورقِ الشجرِ العالِيِ ، حاضناً في تجاويتي هباتِ اللهبِ وقواريرِ الظلامِ . .
فليكنْ ، فليكنْ دخولي عَبَقاً بانحلالِ الأبجديةِ والجَهاثِ ، فَمَا أنا وسيطُ
الليلِ إلى النهارِ كُرُمى أن يخرجَ الكائنُ من كهفهِ إلى السطوحِ الأبيمِ
لشموسِ العراءِ ، لكنني الوسيطُ - العويلُ كُرُمى ارتطامِ واحدٍ للشموسِ

والكهوف برنيني الإخشيدي: أنا هُلبَةُ الكوكب الرُّاسي على الأَينِ ، بطِيءِ

يُنَا فَلَيتَحَدِّرِ الكوكبُ معي على دَرَجِ الأَينِ .

(لماذا يا القريةُ أكثرَ ساعةً انكسارنا ، لماذا يا حبيبةَ التَّعَبِ لم تلتقطي من أيدينا خواتمَ البَسَّالَةِ في ساعاتنا الباسلة؟ لماذا لَمْ ترفعي البَسَّالَةَ إلينا حينَ دخلنا البهوَ مَرَحِينِ تَقَطَّرُ من أهدابنا بروقٌ صغيرةٌ كالحُبَّاحِبِ ، ومن ثيابنا الغماماتُ والطيورُ؟ أَكُنْتُ حَلِيفَةَ التَّعَبِ يا حبيبةَ التَّعَبِ؟ أَمْ كانَ لِسُلْطَانِكَ المدى الأَزْحَبُ بِحَنَانِهِ عَلَيْنَا سَاعَةَ انكسارنا؟ ... يا للحلمِ : كَأَنَّا نَرْفَعُ إِلَيْكَ وجوهنا ثانيةً ، مرتبكينَ ، وكَأَنَّمَا تَنْحَنِينِ عَلَيْنَا الآنَ ، وديعةٌ مُثْرَقَةٌ بِجَوْهَرٍ مُثْرَفٍ ؛ أَتَذْكُرِينِ ،

مرةً رفَعْنَا أطباقَ الحلوى عن المائدةِ معاً ،
وتركنا على المائدةِ أَقْدَارَنَا؟
مَرَّةً وَدَعَتْ يَدُكَ يَدِي ،

وتركنا على العتبةِ وداعاً تائهاً
لا يمضي معك ولا يمضي معي؟
مَرَّةً .. لا ، مُذْ أَقْفَلْتُ السِّيَاحَ كُلَّ سِيَاحٍ
مدخلُ إِيكَ ، وكلُّ أرضٍ وراءَ السِّيَاحَاتِ
بِعَظْمٍ من لهائنا ؛ ولهذا اغْفِرِي اقْتِحَامَنَا
العَبَقَ بانحلالِ الجهاتِ يا حبيبةَ التَّعَبِ) .

إِيْدِي يَدِيهِ ، لستُ قاصداً أن أجمعَ الكائنَ تحتَ نَصْلِ العذوبيةِ ، بل قاصداً أن أشرِّدَ الكائنَ في العذوبيةِ . وسأستفجِلُ ، وستستفجِلُ الجمهراتُ

معني ، وستستفحلُ معنا الأبوأُ الصلصاليةُ والأقنعةُ والصلليلُ ، ولا ديمومةُ بعدَ ذا إلا ديمومةُ الدُم . . . اجمعني أيها الكوكبُ الأخيرُ قناعاً قناعاً ، وسأجمعكُ حلبةً حلبةً ، ولتكوننُ بيننا أواصرُ الوميضِ الحكيمِ للدروع . . إيديهِ كم أقولُ : لا ، لا تختمنُ هذا المساءَ بالمساء ، ولا تدفعنُ الكوكبَ الأخيرُ كالمهرجِ أمامَ الحاضرينَ في المأدبةِ . وأقولُ : أتركُ للكائن أن يُسرفَ في صقلِ دُعاباته أمامَ أنشأه ، فهذا هي المصائرُ الصلصاليةُ ، وما هي الانكساراتُ ملءُ الأباريقِ في يديّ النَّادلِ . وما أنا لأختزلَ هذا الاختزالَ كلُّه؟ ومَن ذا سلَّ عليّ سيفَ السديمِ فاتَّقَيْتُهُ شاهراً على السديمِ الأشكالِ والمرائي ، كأنني وحدي امتداداتُ الأرضِ الساهرةُ على المرثيِّ والكنوزِ؟ . لا ، أقولُ لا تتأظنُ من زادكُ غيرَ المساءِ والقيلِ ، ولا تُلقيينَ في الحلباتِ قرونَ الطرائدِ وجلودها ، فلربما جاءتكُ الحلباتُ وديعةً ، لا صخبَ لرمالها ، ولربما أبصرتُ الجالسِينِ على مدارجِ الحلباتِ بأقنعتهم يرفعونَ الأقنعةَ هاتفينَ لعراكِ ليس إلا عراكِ البراعمِ . . أتراكُ رأيتَ البراعمَ في عراكها؟ أرايتَ كيف ينفصُ البرعمُ عن البرعمِ أهدابَ الندى ويصطادهُ بشبَّاكِ الظلالِ؟ لا غلبةُ في عراكِ البراعمِ ، يقينا ، لا غلبةُ في عراكها . قد تقولُ إنَّ البراعمَ أعضاؤكُ الثانيةُ ، ونسلكُ التوأمِ الذي يرتدي أدواركُ هناك إذ تنتهي هنا . . لا ، لا تأسرنُ بك التخومَ الحيَّةَ ، ولا تجهرنُ أن المياهُ حُلْمُكُ وحُلْمُكُ اليابسةُ : المياهُ حلْمُ المياهِ ، واليابسةُ حلْمُ اليابسة . إيديهِ كم أقولُ : انهضْ خفيفاً بجسدكُ وحدهُ ، فاتحاً مخابثكُ الخفيةَ بين الحلمِ والدمِ ليخرجَ النباتَ والماعزُ والصقورُ والمدارجُ والحليُّ والفاكهةُ والغيومُ والأعمدةُ والمرايا والسنونُ والقبابُ والمراكبُ والماسُ والحديدُ والمناجلُ والأعمدةُ والأرجوانُ والأبجديةُ والحياذُ والينابيعُ والظميُّ والظهيرةُ ؛ ليخرجَ الكائنُ واستعاراتهُ البليغةُ ، فما أنت امتداداتُ السديمِ الساهرِ على القهقهةِ البطيئةِ للأقولِ البطيءِ . وأقولُ لا تجفَلنُ إذا سمعتَ الأنينَ هناك ، فأنت هنا ؛ ولا

تَنْشُرَنَّ شِرَاعَكَ عَلَى صَارِيَةِ الْبُرُوقِ ، فَأَنْتَ الصَّلْصَالِيُّ إِنَّ أَضَاءَ تَكَ الْبُرُوقِ
أَنْبَجَسَتْ مِنْ الصَّلْصَالِ الْنُوفَيْرُ وَالْخِمَائِرُ ، فَلَنْ تَشْهَدَ ، بَعْدَ ذَا ، رِثَةً إِلَّا
تَتَنَفَّسُ مِنْ رِثَتِكَ ، وَلَا نَبْضاً إِلَّا فِيهِ تَبْضُكَ ، فَمَنْ أَنْتَ لِتُحْيِيَ هَذَا
الْفَيْضَ كُلَّهُ بَطْمَانِيَةِ الْفَيْضِ ؟ . . هِيَهَاتَ ، هَا هُمْ النَّدَامَى بِأَبْوَابِهِمْ ، وَهَا
هِيَ السَّعَاءُ مَهْرُولَيْنِ فِي رُذْهَةِ الصَّلْصَالِ وَعَلَى جِبَاهِهِمْ أَخْتَامُ الْمَسَاءِ
وَالرَّيْنِ : رَيْنِي هَذَا ، أَنَا الْهَلْبَةُ الْإِخْشِيدِيَّةُ لِلْكَوْكَبِ الرَّأْسِيِّ عَلَى الْمَرَايَا . .
فَلْيَجْمَعْنِي الْكَوْكَبُ

قناعاً

قناعاً ،

وَأَجْمَعَنَّ الْكَوْكَبُ قِنَاعاً قِنَاعاً وَمِنْ حَوْلِي الْجُمْهُرَاتُ مُزْدَانَةٌ بِحَلِيٍّ
الْأَجْرُ تَنْحَرُّ الْأَغَانِي وَتَحْشُدُ الْأَقْفَالَ . وَلَيْكُونَنَّ شَرِيكِي فِي هَذَا التَّرَفِ
الْمَسَاءِ ؛ لَأَكُونَنَّ شَرِيكَ الْمَسَاءِ ، صَاحِباً الْجَمِّ الْأَنْقَاصِ ، وَأَغْمَرُ بَعْنَاقِيدِ
الْبَاطِلِ قِنَاعَ النَّهَارِ الْآخِيرِ .

وماذا أيضاً؟ يسألُ المساءُ .

وماذا أيضاً؟ أسألُ المساءُ .

يا إله المساء ؛

يا إله الظلام الذي تتخبَّطُ مُرْضَعَاتُهُ فِي حَلِيْبِهِنَّ ؛

يا إلهاً مُشْرِفاً مِنَ الْخَبْرِ عَلَى هِرَاطِقَةِ الْخَبْرِ : أَيُّ صَخَبٍ سِيرَفُ إِلَيْكَ
بَعْدِي هَذَا الرِّيشُ كُلُّهُ ، وَهَذِهِ الْمَوَائِقُ وَالْهَزَائِمُ كُلُّهَا؟ . أَمَا لَوْ مَضَيْتُ
بِأَبْوَابِي وَأَحَابِيلِي إِلَى حَيْثُ لَا غَلْبَةَ لِلْأَبْوَابِ وَالْأَحَابِيلِ لِأَعَدْتَنِي إِلَيْكَ
أَكْثَرَ طَيْشاً ، تَقِيضاً يُخَوِّلُ سُلْطَانَكَ أَنْ يَكُونَ سُلْطَاناً بِاسِلًا بِنِعْمَةِ الْحَضُورِ
الْبَاسِلِ لِلتَّقِيضِ . غَيْرَ أَنَّنِي سَادِيرُ الْعَجَلَةِ الْخَشْبِيَّةِ لِلْأَقْدَارِ ، يَا إِلَهَ الْمَسَاءِ ،

في عذوبة الصلصال ، دونما احتكام إليك ، دونما احتكام إلى الخير ، جارفاً
هذه المواثيق كلها كي أراك مُلقىً بين الصليل والرنين تتضرعُ بهائلك
الفراشات ، وتتحلُّ في راحتك الأختام . . . أنا الأختام ، من سيمهز الفلز
بيحي؟

وماذا أيضاً؟ يسأل المساء .

وماذا أيضاً؟ أسأل المساء .

عَدَمٌ يغزلُ الأفتعة ، والصباحاتُ تغسلُ أقدامها في الرثات : فليكن
مَرَحِي مَرَحِ السديم - أيتها الأنقاض - في المأذبة الأخيرة للكوكب
الأخير . . وأنت ، أنت يا نديمي على هذه المأذبة الصلصالية ، لا تنشر
الأسئلة كحجارة الترد ، ولا تتوسلُ بعينيك هاتين أن أسترسل الآن في
انحلالتي حلقة حلقة كأني سلسلة من حديد ، طرفاها صخب ، والصخبُ
قيدٌ مُحكَّم الوثاق على أيدٍ مُحكَّم الوثاق . أيها النديم الساهر حول ترهات
الصبح وديمومة الأنين ، لا تُغمضنْ عينيك هاتين علي - على المبارك
المبارك بالهديان :

(كان نديمي صامتاً في حُثوه على ودائع الموت وأسمال
الطبيعة ، يجمعُ بيديه فراسخ الحُلم كما يجمعُ البستانيُّ الزهرات
القديمة من طريق البراعم ، غيرَ أنه بمغزلي الدائر بين خيوط المدائح
وكرات الحديد . قلتُ : أفقُ يا نديمي قبل أن يختلسنا النفير الخفي
للعدوبة ، أو تتخاطفنا الصباحات ، أفق . غيرَ أن النديم الصامت
مثلي على المائدة أغمضَ عينيه علي ، على المياه واليابسة ، على
المصائر والعناقيد والأعمدة ، فلم أفق إلا ويدي بين الأيدي العالية

تَتَفَرَّى الومِيضَ الحَنُونَ لِلأسلِحَةِ ، وَتَلْتَقِطُ الأشْكَالَ .

ومن أين لي أيها النديم أن أحيطك بالأساطير والكرّفس ، وأن أجعل
الفراسخَ الباقية من أعضائنا مغازلَ كمغازلِ العرّافات؟ أنا المُحدِّقُ بالمساءِ
سائرٌ من صليلٍ إلى صليلٍ ، مُباحاً لمُجونِ النباتِ وخيلاءِ المعاولِ :

فليكن النهبُ ،

فليكن النهبُ ،

هذي هباتي هباتُ المُبْدِرِ بالأقنعة .

غير أنني -

حين يتوجُّ الرمادُ الرمادَ ،

وتُلقي الميأه بأقفالها في الميأه -

أستردُّ الأقنعةَ والوجوهَ ، تاركاً للسدِّمِ مفاتيحَ اللُّهاتِ ودروعَ الأباطيلِ .
ولربّما التفتتُ التفاتةَ المُشْفِقِ على بقايايَ المسفوكَةِ بين الأبيدية وزهرِ
اليقطينِ ، أو اعتراني حنينُ الحاضرِ إلى الحاضرِ ، هاتفاً :

«لم نطلبُ شيئاً أيتها الأنسةُ ،

لم نطلبُ شيئاً سوى بضعِ حروبٍ صغيرةٍ ،

وحفنةٍ من زنايقِ الومِيضِ .

لم نطلبُ أيتها الأنسةُ إلاّ حدوداً لرتائنا ،

وقُبلاً في هدناتِ الحروبِ الصغيرةِ .

لم نطلبِ غيرَ همسةٍ مُسْكِرةٍ ، غيرَ أنْ

ترتفعَ يذكُ الآنَ بهذهِ الكأسِ الترابيةِ

نُحِبَ انتحارَ جديدٍ للصباحاتِ .

... أه ، كم قلنا - وسَطَ هذا السَّهرِ الغامضِ للمراثي -

إنكِ عربونُ المصائرِ لأعماقنا ،

وَأَنْتَ خَاتِمُ الْفَاتِحِ .
عَذَاباً فَلَيْكِنْ فَمَكِّ فِي مَهَبِ الْقَبْلِ .
هاتفاً :

«عَلَامَ تَنْهَضِينَ مِنَ الْبِرَاعِمِ ، وَلَمَّا تَنْهَضِ الْأَنْقَاصُ بَعْدُ مِنْ مَجْرُونِ
الْبِرَاعِمِ؟ . . . كُلُّ سَائِرٍ سَائِرٌ إِلَيْكَ ، وَكُلُّ نَصَلٍ يَعْلُو الْآنَ يَعْلُو فِي مَهَبِكَ
أنت :

عَذَاباً عَذَاباً فَلَيْكِنْ صَحَبَكَ فِي مَهَبِ الْخَنِينِ .
هاتفاً : أَنَا الْمُحَدِّقُ بِالْأَحْتِمِ ، وَهَذَا حَبْرِي حَبْرُ السَّنَابِلِ أَيُّهَا النَّدِيمُ ،
فَلَا تَعْمِضَنَّ عَيْنَيْكَ عَلَيَّ لِثَلَاثَ تَرَانِي وَاقِفاً أَمَامَ السِّيَاجَاتِ ، مُلَوِّحاً بِأَوْرَاقِ
الْجُرْجِيرِ لِلْفُوقُولَةِ ، رَاكِضاً مِنْ هُنَا وَهُنَاكَ ، يَتَدَلَّى مِنْ عُنُقِي السَّدِيمِ وَمِنْ
أَهْدَابِي الْمَدَائِحُ ؛ لِثَلَاثَ تَرَانِي لِاجْتِئَا بِالْمَضَائِقِ إِلَى الْمَضَائِقِ ، وَبِالسَّهُولِ إِلَى
السَّهُولِ ، أَجْرَدَ كَالْحِكْمَةِ ، لَا يَبْدَأُ مَقْتَلٌ إِلَّا بِي أَيُّهَا النَّدِيمُ . . .
فَلَيْكِنْ النَّهْبُ ،
فَلَيْكِنْ النَّهْبُ ،
هَذِي هَبَاتِي هَبَاتُ الْمُبْدَّرِ بِالْأَبَاطِيلِ .

غير أنني -

حِينَ نَفَضْتُ الرَّمَالَ عَنْ رُؤُودِهَا الرِّيَاحَ ، وَحِينَ اخْتَضَنْتُ عِرَاسِي (٦)
الصَّلْصَالِ جِرَارَ الْبَعُولَةِ - عَرَّيْتُ الْمَسَاءَ مِنْ أَسْمَالِ الشَّفَقِ وَوَمِضِ خَنَاجِرِهِ
الْبَازِلْتِيَّةِ ، كَأَنِّي مُزْمَعٌ عَلَى أَنْ يَكُونَ الظَّلَامُ تَوَامِي الْبَاسِلِ فَوْقَ الْمَدَارِجِ ،
مُزْمَعٌ أَنْ تَنْفُضَ الْجَمُوعُ تَحْتَ خَبَاءِ أَشْكَالِهَا ، وَأَنْ يَنْقُضَ الدَّمُ انْقِضَاصَ
الْبَاشِرِ عَلَى الدَّمِ : أَنَا الْقَهْقَهَةُ الْبَطِيئَةُ لِأَفْوَلِ بَطِيءِ

(٦) انظر الملحق ، فصل «العرائس» .

ليس للمساء عليّ تَرْفُ المساءِ ، بل للرّنينِ وخذهُ عليّ ميثاقُ الخناجرِ
الزعرفانية والسهبِ التي تتدافعُ أمامَ القناعِ ؛ فهل عاد كائنٌ إليّ إلاّ رافعاً
بوقه الأخير ، وهل سَأَوْرَثَنِي عن خفيها المياءُ إلاّ قارعةً بالصواري انحلالِ
المياهِ . . لا جُثُونٌ لطعِ الوريدِ المُشْتَغِلِ بأقلامه العجولة ، وللخواتيم المطمئنة
كالتيجانِ على رؤوسِ الأعمدة ، صافراً كالسهمِ إلى مُسْتَقْرَئِي الأزليّ بين
الأقحوانِ وأسلحةِ الصلصالِ . غير أني -

حين تخلعُ الحدودُ أبعادها ،

وتسجُ الفراشاتُ شباكِ الحقولِ -

أتركُ الكائنَ للعبة ، وأصغي إلى حممةِ الينابيعِ وهي تعضُّ على
لجامِ الرمادِ ، كأنما خبأتُ عنها السهولُ المسالكَ ، وضيقُ الحصى عليها
بالمهاميز ؛ وإذ يسألُ المساءُ : «ماذا تصنعُ الينابيعُ؟» أسألُ المساءَ : «ماذا
تصنعُ الينابيعُ؟» . . أما لو تداركني النباتُ ، وسيجتُ لهائمي المحابرُ ،
للّمستَ الينابيعَ ببيديك أيها المساء تحت قناعي ، بهيئةِ كندورِ العاشقِ ، ولها
انعكاسُ خرزِ صقيلٍ على جبينِ الجيادِ في الظهيرةِ ، وللامستكِ الينابيعُ
بذؤاباتها المحلولة على ثدي الكائنِ المترجّلِ عن هديانه بعدَ العراكِ ، المُشخِنِ
ببي في انتصاراته وهزائمه : إيدي يديته لو تداركني الكائنُ . بيّدَ أني - إذ
تستسخني الصباحاتُ - أظلُّ صافراً كالسهمِ إلى مُسْتَقْرَئِي الأزليّ بين
الأحابلِ والأقحوانِ ، ونصليّ نصلُ الحقولِ .

وماذا أيضاً؟ يسألُ المساءُ .

وماذا أيضاً؟ أسألُ المساءُ .

بطيئاً ، بطيءٍ
 يثاً فلتتساقط على المائدة أعضاء النديم ،
 فليتساقط المساء والحقول ،
 فلتتساقط الينابيع والأسلحة
 والمكان
 والأبجدية
 والصليل
 والمدائح .. ألا لا يبقى غير الباطل الحي - هذا الباسل في اختزالته
 الحية وسط هبوبي ؛ أنا القهقهة البطيئة لهبوب الدم البطيء
 يد
 يد
 يبيء ،
 فمن سيرفح معي أبواقه ائتهالاً لهذا المساء .

أيا الكوكب الأخير ،
 أيا الملتجىء إلى دروعنا بعد محنة الكواكب ،
 ها نحن معاً مرة أخيرة تحت خميمة الحبر ، والوصيفات - المراثي
 يحملن إلينا أباريقهن الطافحة بنفير الأبواق والبسالات ؛ معاً تحت غلالة
 النشيد الذي لا يقال ، لكننا بنعمة البطش والظلام نسدل الكائن كالستارة
 على مصائره الشريفة . وكما تأسر البوصلة الجهات نأسر الجهات بشباك
 الرنين ، رافعين مجاهيلنا للصلصال ، صاعدين هذه السلالم الخبيثة وسط
 دهشة الدم إلى النيلوفر .. يد يد يه أيا الكوكب الأخير ، يا الملتجىء
 إلى مصابيحنا الأجرية بعد محنة الكواكب ، قل لنا كيف أحاط بك
 البجع ساعة دخلت إلينا من بوابة السديم ؛ ساعة لم يكن عراك بعد ، ولم

تكن للكائن نعمة الذهب . قُلْ لنا كيف رميتَ أمامَ أقدامنا قناعَكَ العرجونيَّ ، وأشركتَ الغبارَ المهرجَ في انحنائكَ لنا . قُلْ كنتَ تائهاً هناك ، في البعيد البعيد ، وسط لهو الآلهةِ وصولجاناتِ الشهوةِ ، وسط رتابةِ البطشِ المنسكبِ من أباريقِ الغيبِ . قُلْ التجأتِ إلينا لتعرفَ التعبَ أيها الكوكبُ الأخيرُ ، لتبسطَ مسافاتكَ الأخيرةَ للأسلحةِ ، رافلاً بينها في ألهاثِ المخمليِّ وعويلِ العويلِ ..

(فَلتَكُنْ شريكَ الكائنِ المباركِ أيها الكوكبُ الأخيرُ؛ فَلتَكُنْ امتداداتنا في الظلامِ المباركِ؛ فَلتَكُنِ الأعلى حين يكونُ الأعلى سَهْمُ البهاءِ الذاهِبِ إلى المَقْتَلِ . فَلتَكُنِ الأخيرَ أيها الأخيرُ ، نشوانٌ ، ملءُ غمدكُ سيفٌ واحدٌ للغمامِ والخيانةِ ، ثقيلًا بخطاكِ الثقيلةِ تَنْزُلُ الدَّرَجِ^(٧) الأرجوانيِّ وهوأوكِ الطبولِ . أما سَمِعْتَ نَبْضَ أَيامنا تحت قشرةِ الصَّواعقِ قبل أن تَصِلَ أيها الأخيرُ؟ أما سَمِعْتَ انْقِضاضَ الفراغِ بمناقيرهِ الذهبيةِ على قناعِ الكائنِ؟ .. وحدهُ الدَّمُ - وحدهُ الدَّمُ بَفِصُولِهِ وسلامه - كانَ أوَّلَ الخارجينَ إليك ، وديعاً ، ولأبواقه صَخَبُ القُرْنفلِ .. أه ، امتداداً كُنْ لنا في المباركِ يا قطعياً أخيراً مِنَ التَّبَاتِ والجُرُزِ) .

معاً ،

معاً ،

لمرّةٍ أخيرةٍ ، تحت خيمةِ الحَبْرِ ، سَنَقَتِنِصُّ المراثيِ ، ونلجُمُ الأشكالِ .

معاً ، معاً .

(٧) انظر الملحق ، فصل «الأدراج» .

وماذا أيضاً؟ يسألُ المساءُ .

وماذا أيضاً؟ أسألُ المساءُ .

أخيراً ،

ها أنذا أَسْتَشِيرُ البَطْشَ فِي الجذورِ ، وأخْتُو بأَعْضَائِي الوَحْشِيَّةِ عَلَى أَلْقِ
المياهِ ، كَانَ انْحِلَالِي كَانَ قَوْسَ قَرْحٍ تَتَمَلَّمُ فِيهِ خَنَاجِرُ الأَعَالِي المُشْعَشَعَةُ
قَبْلَ أَنْ تَهْوِي عَلَى الحَيَاةِ ؛ كَأَنِّي كُنْتُ ضَرْبَةً سَدِيدَةً لِلصُّبْحَاتِ
فَاسْتَحَمْتُ بِي الأَبَاطِيلُ . . . أخيراً ، ها أَنَا ، وَحَوْلِي الأَخْتَامُ وَالهَيَاكِلُ ،
أَعَزَلُ إِلاَّ مِنْ بوقِ لِنْفِيرِي الأَخِيرِ . غيرَ أَنِّي إِذْ أَسْقَطْتُ خَاتَمِي الصِّلصَالِي
عَلَى الرُّحَامِ سَمِعْتُ نَبْضَ التَّوَامِ الحَيِّ - تَوَامِ اللُّهَاتِ وَالرُّبِينِ - أَتِيًّا عَبْرَ
شَبَاكِ النَّدَى وَمِراجِ العَرَاءِ ؛ وَلَسَمِعْتُ ، ثَانِيَةً ، نَقْرَ الأَسْلِحَةِ عَلَى قِنَاعِ
البَطُولَةِ : هِيَ أَيُّهَا المُسْتَفْجِلُ الأَعَزَلُ إِلاَّ مِنْ بوقِ لِنْفِيرِكَ الأَخِيرِ ، هِيَ أَيَقِظُ
الظَّلَامَ ، وَقُلْ :

عِمَّ مَسَاءُ أَيُّهَا الكَائِنُ .

عِمَّ مَسَاءُ أَيُّهَا الكوكِبُ الأَخِيرُ .

عِمِّي مَسَاءُ أَيُّهَا البَطُولَةُ .

ملحق

البغل الأعمى

حِينَ تَكْسُرَتِ المَوْجَةُ ذَاتُهَا ، مَوْجَةُ الدَّلْبُوثِ وَالقُنْبِ ، وَتَبْدَأُ خَرَجَ
البِغْلُ الأَعْمَى بِقَطِيعِهِ الأَشْقَرِ مِنَ البِغَالِ العَمِيَاءِ . وَكَانَ أَنْ تَجَمَّعَتْ حَوْلَهُ
العَجُولُ الشَّرِيدَةُ ، وَهَرَوْلَتْ إِلَيْهِ التِّيَاتِلُ فَوْجًا فَوْجًا كَأَنَّهَا تَنَسَّمَتْ غِبْطَةَ
العَرَاءِ بِالقَوَائِمِ الأَقْوَى ، وَلا مَسْتُ خَطْمَهَا شِعَاعَاتِ الصُّخْبِ النُّحِيلَةِ فِي
زِحَامِ الحَوَافِرِ . . . وَكَيْفَ لا تَهْرولُ التِّيَاتِلُ وَالعَجُولُ ، إِذْ يَرْتَدِي الغِبَارُ قِنَاعَهُ

المحبوك من الجلود الحية ، وتهزُّ العذوبة قرنيها الملتفين كقرني ذكر الكود
احتفالا بالورث الأعمى لأرض العماء؟ .

يقينا أيها البغل أنك نصل أنبثاق غامض في السكون المجمع الصلد
كبلورة الخواتم .

الحدأة

كفاك ارتظاماً بهذه القبور المعلقة كالفناديل في بهونا ، كفاك أيتها
الحدأة ، يا مسيل الظهيرة في صباحات الطيور . لقد رأيناك قبل هذا ، قبل
أن تستحم الرياح بالأجنحة ، ماضية من رماد إلى رماد ، كأنك نبوءة
الأعالي ، ويد الشهوة المسككة بصولجان المدائح .

كفاك انقضاضاً على ديكة الصباح الأعمى ،
كفاك كفاك يا ابنة الريش .

بنات أوى

في التفسير الأول لأبواق الظلام ، كانت بنات أوى الأميرات يدلفن ،
خلسة ، إلى عواصمهن الضائعة في زحام اليقطين ومراكب البقول ، كأنهن
شهاب مغتم ؛ شهاب طويل من الوبر والحناجر ، دحرجته روح اليقظة
الأخيرة إلى حلم النبات ، وكأنهن تفتح السهول الخفي بعد ما أطبقت
زهرات الأقاليم أوراقتها على الحديد والهرةطة .

إيه يا بنات أوى ، يا حبيسات نعمة لم تكن للكلاب أو للشعالب ،
فليكن صوتكن المتلاهي مقبضاً في يد الرهبة ؛ مقبض منجل أو باب

مُشْرِفٍ عَلَى النَّهَارِ الْمُتَهَدِّلِ فِي سَرِيرِهِ الدَّمَوِيِّ .

بقرات السماء

بقراتٌ مضيئةٌ ، بقراتٌ غامضةٌ ذاتُ جلودٍ غامضةٍ تدخلُ الزَّفَاقَ السماويَّ ، واحداً تلوَ الأخرى ، رشيقةٌ ، يُجَلِّجِلُ حَجَرَ الخَوَارِ من خلفها في الفراغِ المديدِ . ومن كوكبٍ إلى كوكبٍ ، من نيزكٍ إلى نيزكٍ ، من فراغٍ إلى فراغٍ تتحركُ أذبالها كَيْدَ تَهَشُّ عن عسلِ الآلهةِ نَحْلُ الأباطيلِ .
بقراتٌ تدخلُ الزَّفَاقَ السماويَّ ،
ومن خلفِ قرونها يتقلدُ المساءَ مراسيمَ الرَّعْدِ والفُحُولَةِ .

العرائس

حينَ انْحَنَّتِ الأسلحةُ ، ومَرَّ المشيعُونَ ثقالاً في أكفانهم الأزليةِ ،
أغلقتِ العرائسُ بابَ المساءِ الكبيرِ ، راجعاتٍ إلى مخادعهنَّ تحت نواعيرِ
الرُّبْدِ ومطرِ الغاباتِ .

بيدَ أنهنَّ تركنَ للعابرينَ أمامَ المساءِ رغيفاً أخضرَ من الغَمَامِ الأخضرِ ،
وبروقاً مَرَصَعَةً بالطفولةِ والجنونِ .

الأدراج

لعينيك أيها الكائنُ الصَّقِيلُ كالجمانةِ . . لعينيك تقفُ هذه الأدراجُ
سنةً بعدَ أخرى ، وحجراً بعدَ آخرٍ ، في المكانِ ذاتهِ ، مُسْتَسْلِمَةً للطَّعَنَاتِ
الرُّطْبَةِ وفقهَةِ الدُّورِ الذي لا ينتهي .

لعينيك أيها الكائنُ الصَّقِيلُ كَعَيْنِ الغَاصِبِ .

إِنَّا كُنَّا يَقِينًا تَحْتَ نَارِ الْأَقْحَوَانِ
 نَتَقَرَّرُ خَنْجَرَ الرِّيحِ الْبَتُولِ
 وَنَسْمِي الْمَهْرَجَانَ .
 فَلِمَاذَا لَا يَرُدُّ التَّرْجُمَانُ
 عِنْدَمَا نَسْأَلُهُ
 أَنْ يُهَجِّي مَوْتَنَا؟ .
 وَلِمَاذَا كَانَ مَوْتٌ ،
 كَانَ مَا يَجْعَلُ هَذَا الْمَوْتَ غَمْدًا لِلصَّبَاحَاتِ الَّتِي تُشْهَرُ خَلْفَ الذَّاكِرَةِ
 الْآنَ اللُّغَةَ الْمُنْكَسِرَةَ
 فَهَقَّهَاتٍ وَمَرَايَا؟ .
 أَه ، مَنْ يَذْكَرُ كَمْ كَانَ الشَّمَالُ
 طَبِيًّا ، كَانَتْ سَهُولٌ تَتَوَازَى
 وَأَبَارِيقُ الظَّلَالِ
 تَتَحْنِي لِلْعَابِرِينَ؟ .
 كَانَتْ الْأَرْضُ الَّتِي تَعْرِفُنَا تَعْرِفُنَا
 وَتَلُوجُ السَّهْلِ مِنْ عَامٍ لِعَامٍ
 تَرْتَدِي مِثْلَ الزَّرَازِيرِ مَسَافَاتِ الْحَنِينِ
 وَتُغْطِي الذَّاكِرَةَ .

كَانَ سَهْمٌ أَخْضَرٌ بَيْنَ التَّلَالِ
 ذَاهِبًا مِنْ أَوَّلِ الْعُمُرِ ، وَلَا نَعْرِفُ مِنْ أَطْلَقَهُ ،

غيرَ أنَّ الذَّاكِرَةَ
لَوَتِ الوَقْتَ كَعَمُودِ الخِيزِرَانِ
فَرَأَيْنَا عُمُرَنَا أَشْبَهَ بِالقَوْسِ ، وَمِنْ ثَمَّةَ أَضْحَى دَائِرَةٌ
وَرَأَيْنَا فِي الحَطَامِ
ثَلَجْنَا الهَارِبِ مِنْ عَامٍ لِعَامٍ .

ولماذا كَانَ ثَلِجٌ ،
كَانَ مَا يَجْعَلُ هَذَا الثَّلِجَ مِيرَاثَ المَسَافَاتِ الَّتِي تَفْتَحُ بَابَ الذَّاكِرَةِ؟
ولماذا يَا إِلَهَ الحُلُوءِ المُنْتَحِرَةِ
ولماذا يَا إِلَهَ امْرَأَةِ تُشْهَرِ سِيفِ الأَقْحَوَانِ
لَا يَغْطِي الثَّلِجُ هَذِي المَجْزَةَ
أَوْ يَرُدُّ التَّرْجُمَانَ؟ .

٢

إِن هَذِي الصَّغِيرَةَ
طِفْلَةً لَا تَزَالُ ، وَلَكِنَّهَا
سَنَةٌ سَنَةٌ تَعْبُرُ الأَرْبَعِينَ .
سَنَةٌ سَنَةٌ يَا مَسَاءَ السُّنَيْنِ .

٣

إِنِّي أَلْحَمُهَا
فِي قِنَاعِ السُّنْبُلِ
وَقِنَاعِ البَّرْعَمِ الطَّيِّعِ فِي أَذْوَارِهِ
فَوْقَ هَذَا المَسْرَحِ المَشْتَعِلِ .
إِنِّي أَلْحَمُهُ

صاعداً ، يحملُ من أقداره
خاتمَ الصِّلصالِ ، والبوقَ ، وحمى الجدَل .

إنتي ألحها ،
إنتي ألحهُ :
هي في إعصارها
تتهادى ، وهو في إعصاره .

٤

من أعلنَ المهرجانُ
وزينَ الجرحَ بأسمائنا؟
لا ، لم تزلْ في غمدِ أنقاضنا
سيوفُ هذا المكانِ .

يا سيّدَ المهرجانِ
لا تنصبِ الآنَ مراجيحنا .

٥

أنتَ لم تعترفِ بعدُ أنَّ الغريبَ
لم يزلْ راکضاً حولَ ساعاتهِ
مُجفلاً وغريباً .

أنتَ لم تعترفِ .

لا العنبُ البريُّ ، لا السُّمُّمُ
يعرفُ كيفَ أنسلَّ قلبي إلى
عرائه ، واقتادهُ البرعمُ .
وكيفَ دارتُ شفتي حولهُ
هاذيةً : بالله يا بُرعمُ
هل عَبَّرتُ تلكَ التي مرَّتْ على بالنَّا
هل عَبَّرتُ وحَدها ،
أمْ كانَ في موكبها العالَمُ؟

تُراني ارميتُ عند بابها
أم ارميَ عند خطايَ البيتِ؟
تُراني التفتتُ نحو بيتها
أم أن أرضَ البيتِ
إلتفتتُ ، والتفتتُ حِجارُ ذاك البيتِ؟

عَلامٌ يا كوكبَ ذاك البيتِ
تركضُ حولَ بيتي؟
عَلامٌ لا تدخلُ؟ هل نسيتُ؟
هيهاتَ يا غيايبي
أعرفُ أنْ بابها يسكنُ حلْمَ بابي .

أنا طفُلتُها
 أم طفولتها وهي ترنو إلي
 نائماً قُربها ،
 وتُغطِّي بأهدابها جبهتي
 وتغطي يدي؟ .
 أنا طفُلتُها؟ .

قيلَ : هذا قَبْرُهُ .
 قيلَ : هذي الشَّاهِدَةُ .
 قيلَ : تلكَ الزهراءُ المُجْهَدَةُ -
 والعصافيرُ التي حامتْ على القبرِ قليلاً - عُمُرُهُ .
 غيرَ أنَّ العارفينَ ،
 والأزاهيرَ التي شَبِعَتِ النَّعْشَ ، وأسرابَ السنونو
 والغيومِ الصَّاعِدَةِ
 هَمَّهَمَّتْ : لَّا . . . كُلُّ قَبْرِ قَبْرُهُ .

حزيران ١٩٧٧ - أيلول ١٩٧٨

الكراكي

الفصل الأول / ديلانا وديرام

تَيْتَلْ عَلَى الهَضْبَةِ ،
وَسَكُونُ يَرْفَعُ قَرْنِيهِ عَالِيَا كَالْتَيْتَلِ .
فَلَا تَقْتَرِبَنَّ أَكْثَرَ أَيُّهَا الدَّلِيلُ ،
وَلَا تَبْتَعِدَنَّ أَكْثَرَ ،
مَكَانَكَ هُوَ الْمَكَانُ الَّذِي تَرَى مِنْهُ الْجَذُورُ الْجَذُورَ ،
وَالْأَرْضُ مِيرَاثُهَا .

تَيْتَلْ عَلَى الهَضْبَةِ ،
وَسَكُونُ صِلْدٌ يَرْفَعُ قَرْنِيهِ عَالِيَا كَالْتَيْتَلِ .

١

انظر إليها ، إنها جمعُ سلالٍ شقراءَ تحتَ ومضٍ دمك يا ديرام . انظرُ إليها كيف تغفلو لصق ساعدك ، وأنفاسها تتهاوى شهاباً شهاباً في شِسْعِ فحولتكِ النبيلة . . . أتذكُرُ يا ديرامُ ساعةَ جثتها وديعاً تتسرَّبُ بالسَّهولِ ، خطاكِ خطى نهار ، وصخبكِ ضخبِ السُّنْبِلِ؟ أتذكُرُ المساءَ الَّذِي تفرَّقَ في عينيكِ ، المساءَ الأولِ ، حيثُ سطوتُماً بالقَبْلِ على كنوزِ الكائِنِ ، وكشفتُماً عن مسيلِ غريبٍ تحتَ حجرِ الروحِ؟ . تمهَّلْ ديرامُ ، تمهَّلْ في عينكِ الساحرِ بأعشاشِ قلبها - قلبِ ديلانا المعلقِ كقطعنةٍ ملأى بالحياة .

انظري إليه ، إنه سهمٌ أشقرٌ تحت ومض دمك يا ديلانا . انظري إليه
 يزِينُ المساءَ بصليلِ فحولته ، ويرقى إلى صليلِك سَلْمَ اللهاث ، كأنَّ كلَّ
 ترف ترفه ، وكان أنت كلماته التي يُنشدُ بها نشيدَ الرَّجُلِ . فهلاً سردتِ
 عليه ما يسردُ الغمامَ على بناته ، وهلاً نزلت إليه من العذوبةِ العاليةِ ،
 شاهرةً مرَحَ الأعالي ، لتغمري سهلَ قلبه بقمحِ النشيدِ؟ هيا ديلانا ، إنه
 متكىءٌ قرب يدك ويسردُ الفاكهة .

انظُرْ إليها ، لَكَمْ تداعبُ صدركَ بشعاعِ من الشفاهِ والأناملِ . انظرْ
 إليها يا ديرامُ ترَ عشرين قلباً تحت قلبها ، وكلَّ قلبٍ يهذي فينسجُ في
 هذيانه عشرين قلباً : إنها مصبُّ الرَّجُلِ المضمخُ بهديرِ الجذورِ ؛ إنها مصبُّ
 من الساعاتِ والجَدَلِ ؛ مصبُّ أخيرٍ لكلِّ بسالةٍ أو خوفٍ . فلا تقترَبينَ أكثرَ
 يا ديرام ، ولا تبتعدنَ أكثرَ . مكانك هو المكانُ الذي ترى منه العذوبةَ ذاتها
 نائمةً في سلالِ شقراءِ ودمٍ أشقرِ .

انهضي قليلاً ديلانا ، وأحكي حصارِكِ الطريِّ ، فلأنتِ الغابةُ التي
 تزدهرُ فيها سلالتهُ ، وتمتزجُ الأحشاءُ بالطيورِ . ولأنتِ صليلُهُ بين الصليلِ ،
 ومديحُهُ الذي يرى فيه كلُّ ملكٍ ملكه ، وكلُّ شريدٍ درياً إلى الملكِ . فإذا
 انحنى عليك ارفعي إلى فمه إناءَ الأنثى ، وإلى صدره المرتعشِ درعَ صدركِ
 المضرجِ بالغماماتِ والعصورِ .

انهضُ قليلاً يا ديرام ، انهضُ واقفاً لترى من أعالي المرحِ سفحَ الأنثى
 المُنبسطِ بين وميضِ الأفقِ والأغاني ، فلأنتَ سيفُ يابِيعها ، تضربُ بكِ
 الصباحتِ فتتشقُّ عن الحنينِ والأياثل . ولأنتَ أنفاسُها بين الأنفاسِ ،
 ومديحُها الذي يغمسُ فيه الهواءُ نبالَ ألهمتهِ الشريفة . فإذا انحنتِ عليكِ
 ارفعِ إلى فمها فمكِ المرصعَ بنشيدِ الرَّجُلِ ، وإلى صدرها المرتعشِ درعَ
 صدركِ المرصعَ بالمياه والمدائح .

انظري إليه ديلانا ، انظري كيفَ يضمُّ يديه على الصواعقِ وينثرُ على
 سريركِ الرياحَ . انظري كيفَ يتدلَّى من لهائكِ كشمسٍ ، وينصبُ الفخاخَ
 للنباتِ ، كأنما يُبَاهي بكِ سيوفِ المياهِ . انظري كيفَ يحيطُ بالمياهِ
 كاليابسةِ ، ليحصُرَ نبضَ قلبكِ الطالعَ من المياهِ زبدًا ومراكبَ . . . لكنْ ،
 حينَ يفتحُ شِباكَهُ ، آخرَ النهارِ ، فتتطايِرُ من الشِّباكِ الكواكبُ والكراكيُّ ،
 دعيه غافياً في نبوءاته ، دعيه ديلانا ، فهو لا يُمَسِّكُ من الأرضِ إلا قبضةً
 من الأجرِ ، ولا يرى إلا جناحَ نديكِ فاردًا على الأرضِ ظلَّ المساءِ
 والذكورة .

انظُرْ إليها يا ديرام ، انظُرْ كيفَ تجمعَ أمامَ قلبكِ أسرابَ الإوزِ ، وتغزلُ
 الغيومَ . انظُرْ إليها تنهادي قطعياً قطعياً من آخر السفوحِ ، يدها في يدِ
 الأفقِ الراعي ، وثوبُها ينحسرُ - حينَ تعبرُ الجداولَ قفزاً - عن جذورِ لا
 تلمسُ الأرضَ ، بل تلمسُ المديحِ الذي تتغطى به الجذورُ كلها . فإذا رأيتِ
 أن تأخذَ يدها في يديكِ فخذِ الأفقَ أيضاً ، وإذا رأيتِ أن تضمَّها فلتضمِّكِ

الجدور ليرشق الثمر بأنفاسك الثمر، أو لتهرع إليك الأرض مُمتشقةً
سِيلها العرم من اللبن والأشكال .

٨

أيقظيه ديلانا، أيقظيه من سباته الموشى بعذوبة ألف قلب سكران ،
وأيقظي معه الصباح ليمضيا إليك معاً ، مُعَفَّرِينَ بالشهوة وبالغضار والمرح ،
فهو الأخير الذي سترينه هاذياً ينفخ في أبواق هاذية ، ويملاً ، كالتادل ،
بالبطولة كؤوس الغرقى ، واقفاً في المهب ذاته ، في المهب العريق للجدور
واغتباط الوحشي بالوحشي . وهو الأخير الذي سترينه مُقبلاً إليك كإشارة
أطلقتها العاصفة قبل أن ترتدي خوذتها الدموية ، وتشد ملاءة المائدة فتتشر
الأواني على رخام الأرواح . أيقظيه ، أيقظيه ديلانا .

٩

أيقظها يا ديرام ، أيقظ فراشة الغيب ويُعسُوبه الذهبي . . . أيقظ
ديلانا ، وأيقظ معها البيت حجراً حجراً ، ثم أيقظ الساحة المحيطة بالبيت ،
وأيقظ السياج . وإذ تنتهي من ذلك كله أيقظ الصباح النائم قرب السياج ،
وقل تعالي ديلانا ، تعالي لنشهد السطوع الحيران للأرض وهي تذرِفُ
الحديد والبهاء علي درعنا الأدمي ، ولنكشف ، بعد ذلك ، ثديينا لنصل
الحقول ، مرتحفين من عذوبة النصل إذ يغوص إلى حيث يجري السمسم
والزعفران ، كأنما نحاول ، معاً ، أن نكون الجراح التي لا جراح بعدها . . .

هيا أيقظها يا ديرام .

أيقظيه ديلانا، أيقظي الفتى الذي يتململُ تحت الشعاعِ المنسابِ على صدره العاري. أيقظيه وأيقظي النهارَ والأرغفةَ، ثم املائي دلوك - الدلوَ الذي تسقينَ به حيواناتِ الصباحِ التي لا تُرى - املثيه شرانقَ قزٍّ وتوتاً مما يتساقطُ من المدايح، لتخيطي بالحريرِ والتوتِ هذه العذوبةَ المُسدلةَ حول ديرام. أيقظيه، أيقظيه ديلانا.

أيقظها يا ديرام، وأيقظِ الحلمَ من حلمه تحت أهدابها، ثم القِ على ديلانا حصاةً من الوقتِ لتموجَ كسطحِ النبع، وتُتسعَ دائرةً دائرةً، كلُّ دائرةٍ عربةٌ، وفي العرباتِ البقولُ والطرقُ. هيا بالله عليك، فها هو رسولُ الأوديةِ يقطفُ لكما عنقايدَ الضبابِ، وينثرُ على سياجِ البيتِ طفولةَ الخزامى. أيقظها أيقظها يا ديرام.

أيقظيه ديلانا، أيقظي قناعَ الملهاة - هذا الفتى المطوقَ بمناجلِ الآلهة. أيقظيه لثلاً يفوتكما ندى الصباحِ العجولُ وغواياته المضحكة، فلربما عرفتما أن للندى سهيلاً في العشبِ، وأبواقاً تُؤذِنُ بالهرطقةِ المرحَةِ للترابِ المرحِ. أيقظيه، أيقظيه ديلانا.

أيقظها يا ديرام، أيقظِ هذا البذخَ السماويَّ - ديلانا، وانثرِ عليها حبباً من الضحى وأشياؤه الباذخة. فإذا ترامتْ أمامك يَفْطى استطلّعها كما

يَسْتَطِيعُ النَّبَاتُ النَّبَاتَ . واجلسا معاً تستظلكما القَبْلُ ، وتُغوي بِكُما
الأغاني الأغانى . أيقظها ، أيقظها يا ديرام .

١٤

أيقظيه ديلانا ، أيقظي الشعاعَ الأدميَّ - ديرام إذ يتحدَّرُ سكرانَ من
بهاءِ الذِّكرِ ، ولا تجعلي حجاً بآ عليه يدُيكِ أو اللُّهاتِ ، مديداً فليكنْ ،
واضحاً مشوفاً تترأى في شفافته العناقيدُ والبِراعُ ، فتملكينَ كُلَّهُ ، وكلُّ
ما يترأى فيه ، معاً . وتملكينَ أن تكوني المَخدَعُ الأدميُّ للنباتِ وأحلافِهِ
من غمامٍ وأجنحةٍ . أيقظيه ، أيقظيه ديلانا .

١٥

أيقظها يا ديرام ، أيقظ الدمَ الحيَّ وأشكالَهُ الصديقةَ ، وتكَلِّلُ ليقظة
ديلانا بنفيرِ رقيقٍ ، فهي يقظةُ عرشِ تَدَدَانِي في سُلطانهِ الينابيعِ وتستحمُّ
الجدالُ . وهي قوسكُ ترمي به - حين ترمي - ذاتكُ كُلِّها في نشيدِ
أخيرٍ . أيقظها ، أيقظها يا ديرام .

١٦

أيقظيه ديلانا ، أيقظي الترفَ وأشكالَهُ الصديقةَ ، واشهديه إذ تفتَحُ
أهدابهُ عن طيورٍ ، فهو يقظةُ ليس يشهدُها إلا صباحُ مسكٍ بصليلِ المياهِ ،
وهو قوسكُ ترمينَ به - حين ترمينَ - رَحِمَكِ كُلَّهُ في نشيدِ أخيرٍ .
أيقظيه ، أيقظيه ديلانا .

١٧

أيقظها يا ديرام ، أيقظُ غُدُافَ الزبدِ ديلانا ، وانشرْ قلوَعَكَ حين

تتملّمُلُ من دغدغاتِ دِمِكَ الصّباحيِّ ، فأنتَ مُقبِلٌ على دِمِها بسحابٍ
عُريانٍ . أيقظها ، أيقظها يا ديرام .

أيقظيه . . .

أيقظها . . .

لم أشأ أن أوقظَ الأرضَ في ذلك الصّباح .
لم تشأ أن تُوقظني الأرضُ .

كلُّ شيءٍ يمضي حين تكتملُ الإشاراتُ ، والذي يتشبّثُ بالأنين
يمضي معه الأنينُ : هكذا مضيا - ديلانا وديرام - فلم أشأ ، ذلك الصّباح ،
أن أوقظَ الأرضَ ، ولم تشأ أن تُوقظني .

كانا ملءَ بصري ، فتى وامرأةً ، وكنتُ دليّهما الأبكمَ ، أفتحُ
لسهيمهما ممراتٍ من الندى ، وإذ يشردان بين صنوج البراعمِ أجعلُ البراعمَ
احتفالَ الشاردِ بالشاردِ . بيدَ أن الجهاتِ التي ضلّتها عنهما - ليهدرا معاً
ما يشاءان من فتوح - سورّتهما بالخطى والفضولِ ، فإذا المكانُ دَرَجَ بين
أدراجٍ عاليةٍ يصعدُ الحَجَرُ عليها الحَجَرُ ، والقنّاعُ القنّاعُ ، وإذا ديلانا وديرامُ
مُتخنّانَ تتداعى خلفَ درعِيهما بروجٍ من عسلٍ ، وترتطمُ بأهدابهما السُّمْنُ
والغرانيقُ .

لا ، لم أشأ أن أوقظَ الأرضَ في ذلك الصّباح ،
ولم تشأ أن توقظني الأرضُ .

لكنني ، كدليلٍ لم يَقْدُ عاشقينِ إلا إلى وميضٍ مُرٍّ ، قلتُ أروي الذي

جری ، وقلتُ أبدأ الفاجعَ عَلَّ لي مَسْرَباً إلى العذبِ ، فها تروي معي -
حين أروي - جذورُ شَتَى من بُصَيْلٍ وليفٍ ودمٍ أَشقرَ ، تَضَامَتْ ، معاً ،
جدائلٌ في مهبِ المديحِ .

قلتُ أبدأ من حيث طُوقَ الغبارُ سلالَ ديلانا وديرام ، وكانا راجعَينِ
من حصادِ الكَمَا ، يعلو ذؤابتيهما نثارٌ من طَلَعِ البقولِ ، كَأَن استحمَّما
بالأزاهير فأودعتُهما الأزاهيرُ براكينَ لهوِها ، وكانَ نَسِياً قُبلاً في العشبِ
فهرولَ العشبُ إليهما بالذي نَسِيا .

كانا راجعَينِ ، وكانتِ الأرضُ راجعةً من حصادها النهاريِّ بألفِ
سنبلة ، وألفِ لهبٍ ، وألفِ اقتحامِ تركِ الباسلونِ فيها أقدارهم يَقْطُ تحت
موجةٍ لا تُرى ، وألفِ درجِ مشقوقٍ ، وألفِ صاعقةٍ مبتلَّةٍ بالقُبَلِ ، وعشرينِ
رجلاً رموا ديلانا وديرامَ بَسْمِهم من الرمادِ فانحنيا للسكونِ الذي يبعثرُ في
طريقه ينباعٍ ، ويعصفُ بالقرنفلِ .

هكذا مضياً : فتى وامرأة .

وأنا ، كدليلٍ لم يَقْذُ عاشقَينِ إلا إلى باطلِ عذبٍ ، كنتُ عارفاً أَن ما
يجعلُ القلبَ وريثَ المصِباتِ يُهْرَقُ القلبَ كَسِرِّ يذرفُه الهادي . لكنني
مضيتُ بهما - ملتفتَينِ ببيروقٍ تتفتَحُ عن هالاتِ المرِّ - صوبَ بهاءٍ لم يرثُهُ
أحدٌ ، وهناك قلتُ انشرا القلوعُ كطالعٍ تَسْتَشرفُ فيه اليابسةُ قرعَ المياهِ على
درجِ المياهِ ، فأنتما ، كعاشقَينِ ، نذَرُ الأبهةَ للأبهيِّ . ورأيتُ أَن أستطلعَ
الطالعَ ، كدليلٍ لم يَقْذُ عاشقَينِ إلا إلى رثاءِ جَسُورٍ ، فلمحتُ ديرامَ يروي
لديلانا ضحىً لا يُروى ، ضحىً تخاطفتُه القرونُ ففي كلِّ حافةٍ منه ضربةٌ
قلبٍ أو فأسٍ من فؤوسِ الحنينِ . ورأيتُ ديرامَ جاثياً يهتفُ بالخيلِ الخفيَّةِ :

انهضي؛ ويستصرخُ المدايحَ فتلتقطُ المدايحُ رُشيمَ العويلِ من يديه بمناقيرها .
 بالله ، بالله لا تدعوني ، بعد هذا ، أسرد الأرضَ جهةً جهةً ، والسماءَ
 برقاً برقاً ، فأنا استطالةُ الحكاية ، إن رويتُ رويتُ قلبي طالعاً في العاصفة
 بقبّرات النحاس . لا ، لا تدعوني ، بعد هذا ، أروي الموتَ بالموتِ ، وأطأ
 العذوبةَ بفراغِ كحافر البغلِ ، بل انظروا ، أنتم الجالسون على سُور المغيبِ ،
 تَرَوا عشرين رجلاً يُعْطُونَ ديرامَ وديلانا بعباءاتهم ، قبل أن يسيلَ خيطُ
 واحدٍ من الدم ، مُتَعَرِّجاً ، بين الحصى والقش ، ويغيبُ في آخرِ العراءِ .

هكذا مَضِيًا : فتى وامرأة

هكذا مضيا . لم يقل أحدٌ شيئاً ، ولم تنبسْ شفةً بالكلامِ الذي صُرِّجَ
 شجرةَ المدايحِ .

(في الزوبعةِ الأخيرةِ التي ختمتِ المدنَ بختمِ الجاهلِ ، غطى
 الشيوخُ أرواحهم بصنوج من طين ، وارتدوا زَرَدَ الدَّمِ فبقوا بعدما
 جَرَدَتِ الزوبعةُ الأشياءَ من صباها . بقوا واقفين ، كقرن علي
 جمجمةِ ثور ميت ، حيثُ تهدلتُ من حولهم غصونٌ بيضاءُ
 ومناراتٌ بيضاءُ . ولأنهم إرثٌ أخيرٌ ، وربانةٌ من زيدٍ يديرون دَقَّةً لا
 تُرى ، أسلموا ديلانا وديرامَ إلى عشرين قبضةً ذِيَلَتِ صحائفُ
 اللهبِ العذبِ بختمِ الجاهلِ .)

هكذا مضيا ، في الزوبعةِ الأخيرةِ التي افتتَحَ الجاهلون مجدهم بها ،
 وأنا استعسيذُ ذا المُضَى لا لِيُروى ، بلُ لأدفعَ عني هذا المديحِ الذي
 امتدحتني به الأرضُ كدليلٍ لعاشقينِ أفرطتُ في نهبِ قلبيهما بسيوفِ
 من عسل . وأسردُ ما أسردُ لا لِيُروى ، بل لأرجعَ إلى المكانِ الجاهلِ ، حيثُ

يجلس الجاهلون، تحت الأعمدة، شيوخاً تساوت أمامهم سطورُ الأفقِ
بسطورِ الرمادِ .

أه ديرام، كنت فتى هارباً من السهول مُلتقاً بصواعقِ السهول .
أه ديلانا، كنت امرأة هاربة من بعلها إلى خيارٍ لا خيارٍ لصيباً هاربٍ
فيه .

فتى وامرأة أبرمًا معاً عقدَ طعنة واحدة، فأضرمًا هذيانَ المكانِ الجاهلِ .
إيه يا المكانُ الجاهلُ، يا رقعةَ العقدِ المُبرمِ بسلطانِ القويِّ وحكمةِ
الموتى؛ يا أنينَ الهزائمِ كلها أن تُخفى الهزائمُ بالمراثي، وتعلنُ بالمراثي،
كيف أتبعُ البداية؟ كيف أتبعُ امرأةَ وفتى في المكانِ، وكانا شاردينِ عنه
إلى ضحى لا يطلعُ على الأشكالِ، بل على القُبلِ؛ ضحى خفيفٍ كسوطِ
الحوذني، يهيبُ بصقورِ العذوبةِ فتتنفضُّ، وبالجدور فتعدو إلى الجنونِ
العظيمِ؟ لا، لم يكنْ مكانٌ، ولم تكنْ ترى الكراكي، بُعدُ، مهازلُ
البنائينِ من الأعالي . كانَ أفقٌ إذاً، وهوى يتدلى بعناقيده من عرائشِ
خفية . وكانا راكضينِ، فتى وامرأة، يحملُ أحدهما إلى الآخرِ عرشهُ،
وقربةَ الماءِ، والأرغفة التي رَفَقَتْهَا أناملُ العناصرِ .

هكذا التقيا .

هكذا أطعمَ الفمَ الفمَ زبيبَ الهديانِ، وأهدى القلبُ إلى القلبِ بمراتٍ
من الريشِ مسقوفةً بالخواتمِ .

إنها الأرضُ الآنَ (هكذا أروي) . إنها المصباتُ وطعمُ الكائنِ لقنصِ
الكائنِ : كلُّ شيءٍ في سيرةِ ذاهلة، والفاكهة تحلجُ من ذهولِ الجدورِ أولِ
صليلٍ، وأنا دليلُ ديلانا وديرام، دليلُ يخنيطُ الجهاتِ بالمرحِ، ويُلقني

بفاتيحه إلى الغمام الأسير ، فلا يريان إلا قلبيهما مُحَكَّمَيْنِ كالقيد على العذوبة ، ولا يشهدان ، أَنَا التَّفَتَا ، غيرَ العاشقِ يَتَقَرَّى بلهائه ختمَ العاشق .

(أتذكرُ خَتَمَكَ ديرامُ؟ أتذكرُ الختمَ ذا المقبضِ الصلصالي؟
أتذكرني مائساً من حولك في الهواء المتدحرج كالنرد وقد بسطتُ
عليك سلطانَ الماءِ ودغدغةَ الحقول؟ أهَ كم كنتَ صغيراً حين رفعتُ
يديك ، أوَّلَ مرة ، ملؤهما البيادرُ والوشاشاتُ . أهَ ، كم تقاربتُ
خلفَ ظِلِّكَ الصَّغِيرِ جيوشُ حنونةٍ وَعَسْكَرَ الأَحْوَانِ . وكنتَ تنثرُ ،
آنذاك ، قِطَانَكَ للقري لتتبعك ، كَمَنْ ينثرُ للرزازيرِ قُتَاتَ الخبزِ قرب
فخاخه . لكنها اتَّكَأتُ على خوذة القادِمينَ من غيبِ زِينَتِهِ المدينةُ
بثرياتِ الكتابة ، وبقيتَ أنتَ ، شاردةً شروءَ يقظة وسطِ ظلامِ هازل .
أديرامُ لا تنتفضُ حين تسمعُ صليلَ الينابيعِ الراكضةِ
بسلاسلها ، وقرعِ السنابلِ على فحولةِ العراء ، فأنتَ تَغْشَى ، الآنَ ،
بهزائمك بطولةِ المدينة ، وتغمدُ الخنجرَ الأخيرَ ، خنجرِ النباتِ
والنَّهْبِ . أديرامُ لا خَتَمَ إلا خَتَمَكَ يَسْعَى به المصبُّ إلى المصبِّ ،
أرْمِهِ أَرْمِهِ ، ولتضعِ الجداولُ) .

هكذا أروي ، هكذا يطعمُ الفمُ الفمَ زبيبَ الهديانِ . أيقول لي أحدٌ ،
بعد هذا ، تمهلُ أيها الدليلُ؟

لا ، سأروي المُدْخَرَ من عوالم ، وأفتحُ القربَ على مداها ، وليكوننُ
حديثي حديثَ نيزكٍ ، وإشاراتي نزهةَ موج جميل ، فلا يرى ديرامُ وديلانا
غيرَ قلبيهما - حين أروي - مُحَكَّمَيْنِ عَلَى العذوبةِ ، ولا يشهدانِ ، أَنَا
التَّفَتَا ، غيرَ الدمِ يتَقَرَّى بلهائه ختمَ الدمِ .

(أتذكرينَ خَتَمَكَ ديلانا؟ أتذكرينَ خَتَمَكَ ذا المقبضِ الشَّفَقي؟ أتذكرينَ رَفيْفَ يدي وقد أمسكتنا برسائلِ البراعمِ ، وكانتُ يدُكَ تسفحانِ لي ، على مَهَلٍ ، أحابيلَ الثمرِ؟ . أتذكرينَ ، كنتُ الدليلُ الحزينُ للفرحِ ، أتعجَّلُ أن ينحدرَ ديرًا من أقاصي الهضباتِ ، ويأتي ليُقفلَ بابَ البحرِ برتاجِ البراري .
كنتُ في الأربعينِ ، كنتُ ملأى بالذي يُبيحُ الحربَ ويجعلُ الحياةَ لهوَ طفلٍ . وكنتُ مُهمَلةً أيضاً ، محضَ امرأةٍ ، ككلِّ امرأةٍ أعطتُ لبعْلِها ما لبعْلِها ؛ وأخفتُ بعضَ فناديلِها ، ككلِّ امرأةٍ ، قرايبنَ للموحشِ الظمانِ إلى يدِ تُهرقُ الإباحةَ ، وتمزجُ الهينماتِ بالخلاخيلِ .

وقتذا جاءَ ديرًا ، وقتَ فرغتُ من نسجِ ما للبعلِ ، وتشاغلَتِ عن نفيِرِ الأنثى بنفيِرِ السلطانِ الذي يُملكُ الكائنَ مشاغلَ الكائنِ ، فيمضيانَ ضريْرينِ إلى المهرجانِ .

وقتذا جاءَ ديرًا ، وقتَ لم يكنِ لكِ سرٌّ أو غضبٌ ، فرفعَ إليكِ ، في آنيةِ نهبهِ ، سرِّكَ والغضبَ . أه ديلانا ، ليس بمباركٍ من لا سرُّ له ، من لا يُغلقُ على فلذةٍ منه بابها فيستملكُ ، وهو المملوكُ أبدأ ، بشاغلٍ أن يُرى يقظانَ أمامَ خيمةِ القويِّ .

وصارَ لكِ سرُّكَ ديلانا ، صارَ لكِ ما تقفلينَ عليه بقفلِ الأناشيدِ ، وتفتحينه فتعبينَ عبثاً حلواً بالأناشيدِ ، فلا تنتفضي حينَ تدخلُ السنابلُ عليكِ الآنَ ، في ملاءاتِ من الشهوةِ ، ساحةٍ خلفها ظلُّ سيفٍ من سيوفِ الغبارِ المحاربِ ، فهي تجهدُ أن ترى خَتَمَكَ الذي تسعى به المصباتُ إلى المصبَّاتِ . أرْمِي خَتَمَكَ ، أرْمِيهِ أرْمِيهِ ، ولتضعِ الجداولُ .)

على رسلكَ أيها النبعُ ،
على رسلكَ أيها الهباءُ .
على رسلكَ أيتها الصواري ،
على رسلكَ أيتها الأرخبيلاتُ ، فهذا قَوامُ نشيدي .

بَيِّدْ أُنِّي ، كدليل ، لن أَبْرِمَ النشيدَ بمطالعِ مُرْسَلَةِ كَتَيْلَةِ القُطَنِ ، بل
سأدعو الشهودَ نباتاً نباتاً ، وسنعتصرُ ، معاً ، لهائنا في نَسْغِ الوَرَقَةِ الوحيدةِ
العاليةِ ، ورقةِ الملهاةِ التي بسطتْ ظَلْمًا على قُبْلَةِ العاشقينِ ، حين أسدلتْ
عشرون يداً ستارَ الكهولةِ على الضَّحَى .

* ديلانا ، زوجةِ الكتابةِ ، وأم ابنتين ، يعنُّ لها أن تذكر بين
الحين والحين هروبها من المدينة إلى المدينة . وإذا جلست لترفو ما
تمزق من ثياب ابنتيها ، في الظهيرة ، ترفو الحاضر أيضاً بعينين
دامعتين .

* ديرام ، فتى الهضبة ، يعنُّ له أن يجلس قبال ديلانا ، ناسياً
أنه الغريب . فإذا نظرت إليه بعينين دامعتين أرخى قناعه الصارمَ ،
وأجهش بالرعد .

كلاهما طفلٌ . فتى وامرأةُ طفلانِ ، وأنا الدليلُ الأَبْكُمُ أقودُهُما عبر
شجرِ الدراقِ ومناقيرِ الغماماتِ السُّكْرَى .

بالله يَتُّها الغماماتُ السُّكْرَى ، يَتُّها الغماماتُ السابحةُ في نبعٍ من
العظامِ وقرونِ التياتلِ ، انهضي تِكَلْمِي في قناعِ كلب ، واكسري تاجك
الشَّفِيفَ . وأتننْ يا شجراتِ الدراقِ ألا لا يَسْتَظَلُّكُنْ شَبِيعُ أو شريدُ . أما
أنا ، ذاكُمُ الدليلُ الذي سَلَّ الهَرْجَ كمديةِ ، وشقَّ الأغانِي ، فحسبي أنني
جالسٌ هنا ، قربِ ثورٍ ترتطمُ بعينيهِ الزَّيزانُ ، ويُفْلِي جِلْدُهُ القَرادُ الطائشُ ،

وكلانا ينظرُ - إذ ينظرُ - إلى سَرَوَةِ البحرِ أَنْ تميلُ بأعشاشِها .

مرحى ديرامُ

مرحى ديلانا :

لم أكنُ كما ينبغي أن يكونَ الدليلُ . لم أتطَلِّعُ قَطُّ إلاَّ إليكما ، غيرَ أبهِ
بالقيافَةِ التي تجعلُ الأثرَ رنينَ صنَجٍ يفتتِحُ الموتَ .

مرحى أيها الفتى

مرحى يتُّها المرأةُ :

لم أكنُ كما ينبغي أن يكونَ الدليلُ . كنتُ سارحاً بين أهدابكما ،
أرى ما تريانِ ؛ وأمتدحُ ، مثلكما ، بهاءَ الملوكِ الذين أطلقوا المدنَ ككلابِ
سلوقيَّةٍ ، وخرجوا يبحثونَ عن شعوبهم . وأمتدحُ الطيورَ أيضاً ، والمشاعاتِ
والمياهِ ، وأحفرُ روحي بمعولِ نديٍّ لألمسَ في فجواتهِ الخيامَ والأسلحةَ .

دعني ديرامُ ، سألقي عليكَ عباءةَ الأميرِ .

دعيني ديلانا ، سألقي عليكَ عباءةَ الأميرةِ .

وسأجثو

مانحاً لضربةِ النهرِ الكاهنِ صدري كُلَّهُ ، علَّ يهتدي بالدويِّ دليلُ
غيري فلا يمتحنَ الكتابةَ بعاشقينِ يختتمانِ النشيدَ بالغضبِ .

إيه أيها الغضبُ ، أما كانَ إلاَّ أنْ أقودَ فتىً هارباً ، وامرأةً هاربةً؟

(حينَ جاءَ ديرامُ بأشيبائه الصغيرةَ إلى المدينة ، كانَ عابقاً
بلهاتِ اليقطينِ ، وفي جيبهِ بقايا ذُرَّةٍ . لم يُكلِّمَ أحداً . نظرَ في ورقةٍ

وتتبعَ الإشاراتِ إلى بيتِ صاحبهِ الأرمنيِّ .)

إِنَّهُ أَيُّهَا الْغَضْبُ . . .

(كَانَ لَا بُدَّ مِنْ يَقْظَةٍ . كَانَ لَا بُدَّ مِنْ شِرَاعِ حَجَرٍ . وَصَاحِبُ دِيرَامٍ صَدِيقُ صَبَا . يَعْرِفُ أَنَّ يَسْتَيْقِظُ مَعَ الْحَجَرِ وَيَقْوَدُ الْيَقْظَةَ . وَقَدْ رَوَى لِدِيرَامٍ عَنْ نِسَاءِ الْمَدِينَةِ ، عَنْ رِيَّاحِ الْمَدِينَةِ ، وَعَنْ رَطْوِيَّةِ تُبَلَّلُ الْكَلَامَ وَالنَّوْمَ . وَيَأْمَا أُمَّتَقَعَا وَهَمَا يَنْظُرَانِ إِلَى الْعَارِيَاتِ يَتَدَقَّانُ قَرَبَ لَهَبِ الْبَحْرِ .)

إِنَّهُ أَيُّهَا الْغَضْبُ . . .

(مَدْوَرَّةٌ كَانَتْ الْمَدِينَةُ ، مَدْوَرَّةٌ مِثْلَ إِلِيَّةِ الْكَبِشِ . وَكَانَ دِيرَامٌ يَحْتَفِي بِأَعْوَامِهِ الْعَشْرِينَ ، صَامِتًا كَصَاحِبِهِ الْأَرْمَنِِّيِّ الصَّامِتِ . غَيْرَ أَنَّ الْخَبْطَةَ الْمَائَةَ لِلْحَقُولِ عَلَى بَابِهِ أَيْقِظَتْ الْعَتَالِينَ الْغُرَبَاءَ ، الَّذِينَ يَجَاوِرُونَ مَسْكَنَهُ جَمْعًا جَمْعًا فِي الْغُرْفِ ، فَأَوْقَدُوا لِأَعْوَامِهِ بَسَالَةَ الْغُرَبِ ، وَغَنُّوا لِلْهَذَايِنِ .)

إِنَّهُ أَيُّهَا الْغَضْبُ . . .

(يَقُولُ دِيرَامٌ : أَيُّ فِضَاءٍ هَذَا ، أَيُّ صَفِيحٍ يَغْطِي الْيَقْظَةَ ؟
ويَقُولُ الْأَرْمَنِِّيُّ : دَعَاكَ مِنَ الْأَقْفَالِ فَأَنْتَ ابْنُ الْمَدَائِحِ .
يَقُولُ دِيرَامٌ : أَيُّ غَزْوٍ لِلْحَجَرِ هَذَا ، أَيُّ نَهَبٍ بِسَيْوْفِ الْعَوِيلِ ؟
ويَقُولُ الْأَرْمَنِِّيُّ : دَعَاكَ مِنْ حِصَادِ الْحَدِيدِ .

يقول ديرامُ: أيُّ خوزةٍ هذهِ ، أيُّ سرورةٍ تتدلَّى منها خصيبتا
سلُّور؟

ويقول الأرمينيُّ: دَعَكَ من الأغانِي ، فهي لا تهبُّ على
شراعك أنت .

يقول ديرامُ: أيُّ مصبٍ للفيجاءاتِ هذا ، أيُّ ملكٍ مقنَّعٍ بقناعِ
المهجِّ؟

ويقول الأرمينيُّ: دَعَكَ من مشاغلِ البُكورةِ ، فقد أشرفَ المغيبُ
على سُلطانه .

إيه أيها الغضبُ ، كنتُ جائياً أُمْنَحُ النهَرَ الكاهنَ زَرَدِي ، وأحُوْكَ
العطشَ للجداولِ ، لكنني إما التفتتُ رأيتُ ديرامَ فتىً يهدمُ المدينةَ ويبني
المدينةَ .

(بيأسُ كبأسِ الخُلْدِ بدأ ديرامُ ، وبأجرِ كأجرِ فتى . كان يرفعُ
الكتبَ من الخابِيءِ إلى ذاكرةِ الموتى ، ويحزِّمُ لباعةِ الكتابةِ الجَدَلِ
والرمالَ ، ثم يرجعُ آخرَ النهارِ ليجلسَ على سطحِ المبنى ، مرتشفاً
مع الشايِ المسائيِّ رائحةَ أنثى لم تطلعَ من الصلصالِ بعدُ . غير أنه
التقى ديلانا ، بعد مئتينِ من شمسٍ تتالتُ على فراغٍ مُتَرَفٍ
بصخبِ الحديدِ ، فبكى .)

إيَّه أيها الغضبُ ...

(كانتُ ديلانا تنتظرُ أيضاً ، بعدَ أربعينِ دورةٍ من دوراتِ
السنابلِ . وكانتُ تسمى إلى أن تجعلَ من ابنتيها سبباً ما لرضوخِ
الدمِ للدمِ .

وديلانا مائدة . وديلانا نَسَاجَةً من نَسَاجَاتِ المدينة ، غزلت ،
ذات يوم ، على مغزَلِ الماء أقدارَهَا ، وهي مُذْ ذَاكَ حَيْرَى بين أن
تأسرَ السُنُونُو أو تطلقَ السُنُونُو ، لكنها استغفلت القاعدةَ وحَيْرَةَ
القاعدةِ ، فشقتِ المدينةَ بَعَمَدٍ ترفعُ السُّهُوبَ كَطِلٍّ فوق الأرواحِ .

إِنَّهَا الغضبُ . . .

(حينَ دخلَ ديراًمَ بيتَ ديلانا ، قالتْ : خلقتُكَ من شُبُهَاتِ
الأنهارِ .

قالَ : وأشياءَ أُخرى .

قالتْ : خلقتُكَ مِنِّي .

قالَ : وأشياءَ أُخرى .

قالتْ : خلقتُكَ من النهبِ فانتَهَبُ .

قالَ : وأشياءَ أُخرى .

قالتْ : خلقتُكَ من مساكبِ وبقولِ .

قالَ : وأشياءَ أُخرى .

قالتْ : خلقتُكَ من مطالعِ العويلِ .

قالَ : وأشياءَ أُخرى .

قالتْ : خلقتُكَ من بريقِ موحشٍ يتلألُ على مقابضِ

البواباتِ .

قالَ : وأشياءَ أُخرى .

قالتْ : خلقتُكَ من دُهلويِ .

قالَ : وأشياءَ أُخرى .

قالتْ : خلقتُكَ من نذورِ الظلامِ إلى الظلامِ ، ومن بكوريةِ

غائصة بنصلها في الجذور .

قال : تعالي إذا .

فاحتضنته وبكيا .

إيه أيها الغضبُ ، سأمهّلُ الأرضَ حتى تأتي الأرضُ بشفاعةِ
الأسلحةِ ، وسأندزُ الخفيَّ حتى يكشفَ عن موقدهِ ، لأنني أستجمعُ الآنَ
سيرةَ القبلِ وحبري الحَبَّابِ ، مستعِيناً بما لا يُرى ، بالسُّماني ، بأوز
يختزنُ في الحواصلِ كلامَ الضفافِ ، وليسرُدنُ معي الشجرُ - حينَ أسرُدُ -
هذه المطالعُ المُدبَّجةِ بريشِ الغوابِ وعُصافَةِ الشعيرِ :

مطلع أول

كانا يركضان معاً حولَ صاريةِ المدينةِ ، مُلتَفِعَيْنِ برسائلِ الشتاءِ ،
مرحُهما مرحُ النورسِ ، ولهاثُهما لهاثُ الغُذافِ .

كانت ديلانا تَجهدُ أن تَمسكَ ببرقهِ الغضِّ ، ويجهدُ ديرامُ أن يمسكَ
بغمامَتها الغضَّةَ . وحينَ تعبنا ، جلسنا معاً قربَ صاريةِ المدينةِ ، هي تنحسرُ
انحسارَ موجةٍ قليلاً ، وهو ينحسرُ انحسارَ موجةٍ قليلاً ، تاركينِ على حبالِ
المطرِ قميصَهما الزبديَّ ووشاحَ مملكةٍ لم تكتَمِلُ .

مطلع ثانٍ

كانا قادمينِ من ناحيةِ العُربِ ، من الناحيةِ المُتصِلَةِ بأنينِ الملوكِ ،
وبآخِرِ التماعِ للبرقِ على سِنانِ البطولةِ .

كانا قادمين ، وقد خرجا ، توأ ، من خلوة الكائن ، حيث يترك الذكر وراءه مجداً أعزل ، وتترك الأنثى وراءها أقاليم عزلاء . وحين التقيا المدينة نثرا للمدينة حفنة من الموج ومن خيام خضراء ، وعلقا على سياجها مديح المياه ووشاح ملكة لم تكتمل .

مطلع ثالث

كانا شفيفين ، وكانت ترى من خلال صدرئهما رفوف صغيرة من زُمج الماء ؛ ويرى الشاطئ أيضاً ، ومراكب الموت ، وتوثيها الصاخبون سكارى يقبضون على البحر ويطوونه كالشوب ، فينفر من الأعماق تيس يقود تيس الباطل المرمرية .

وماذا يفعل ديرام ، وماذا تفعل ديلانا؟ لقد شققا كثافة الحيرة فما رؤي غير الحيرة ، وشققا الجسد فما رؤي غير الباطل .

كانا شفيفين ، غير أنهما أوصدا ، الآن ، باب الهواء الشفيف ، وارتديا للكثافة الكثافة ، فها هما يستعرضان جمهرات الظلام بسُلطان ملكة لم تكتمل .

**

إيه أيها الغضب ، يا صديق الخيول ، وسطنتي ، فكنت نفيرك إلى الأبواب ، استميل الغضبان وأغضب المرح . وقد شقت المدينة ، وشقت في المدينة بطانة السيد : نساء وحوديه ورماحه وبغاله ؛ وأسرفت فشقت الورد والمياه ، فكان انبجاس عظيم لصاعقة مرغت شفاها على خودة الغيب . وكوسيط لك أيها الغضب ، كساحل يُملي خصومة البحر على

اليابسة ، فتحتُ قُرْبتي لظماً المحاربِ ، وهتفتُ : ظلُّ كما أنتَ ، وليظلُّ
عليكَ الزُّرْدُ ، وفي يدكُ مقبضُ الجذور والحديد ، فإن طعنتَ بالجذور
فَصَضْتَ عن المدينة خَمَّ الأعمى ، وإنَّ طَعَنْتَ بالحديدِ طَعَنْتَ الْمُهَيِّمِينَ
الأعمى وحدهُ ، وتركتَ المدينةَ للعاصفِ السُّكْرَانَ . وهتفتُ : ظلُّ كما
أنتَ ، ظلُّ مُمَعِناً في امْتِثَالِكَ لكاهناتِ البراعمِ الجاثياتِ قرب كوكبِ
صغيرٍ من ورقِ الهندباءِ ، وانفخُ معهنَّ في بوقِكَ العاليِ ، كأنَّكَ الوصيُّ
على قَنْصِ يَخْرُجُ الأقوياءُ إليه فيضِلُّونَ المسالكَ ، وتنتحرُ كلابهم السُّلُوقِيَّةُ
من ركضها وراءَ ابنِ عُرْسِ الآلهةِ . وابتهجُ ، أنتَ النذيرُ اليُخْضُورِيُّ
للحِمَمِ ، بذبولِ البراكينِ والحلباتِ ، فهو ميعادُكَ لتنسجَ للبراكينِ مداراتِ
أخرى ، وللحلباتِ مواطئِءٍ لم تكنْ حلباتِ . وتَقَحَّمُ البهوَ المديدَ ، بهوُ
العويلِ ، فخلفكُ كاهناتِ البراعمِ بمكانسهنَّ يكتسِنُ الأعمدةَ والأباريقَ
والأدوارَ التي اهترأتُ تحتَ درعِ المَلَقَنِ . باللهِ ظلُّ كما أنتَ أيها المحاربُ .
ظلُّ باسطاً صليلكُ على العضلةِ البيضاءِ للثلوجِ ، وعلى التَّرَفِ الباردِ
لعروشِ الموتى .

إيه أيها الغضبُ ، وسَطَّنِي ، فَشَغَلْتُ بِكَ كَتَبَةَ اللَّيْلِ . غيرَ أني لم
يُشغَلْنِي غيرُ ريحِ واحدةٍ ، هَبَّتْ قَبْلَ أَنْ أُسَلِّمَ المدينةَ لطواحينها ؛ ريحِ
حنونةِ أمالَتِ ديرامَ وديلاتنا كَعُشْبَتَيْنِ فوقِ سفحِ تَشْرُفٍ منه المصبَّاتُ على
المصبَّاتِ .

(أندري ديرامُ كم اشتاقتكُ شجراتُ الدَّلْبِ السَّبْعُ؟ الشجراتُ
المسكَّةُ بفوانيسها قرب مجرى السيلِ؟ أندري كم هَرَمَتِ
المداخنُ ، وتهدَّتِ البيوتُ؟ أندري ، لَمَّتِ السهولُ مسافاتها
وانظوتُ كطفلٍ ، وبِعَثْرَ النهرِ أباريقَهُ تحتَ أقدامِ القرى؟ وأنتَ لما
تزلُّ حائراً بينَ أن تقودَ ديلانا إلى لهبِ آخرٍ ، وبينَ أن ترجعَ إلى

... ولماذا أشتغلُ بحنين لم يدع للحاضر مجلساً حول مائدة الحاضر؟ أنا الدليلُ الأبرمُ لانقراض مُزهر سأسوي النشيدَ عاشقين ، وسأهدمُ العاشقين ، جاعلاً للمطالع أذرعاً مائة ، وللخواتيم أقداماً مائة ، بعد ذلن يكون لعاشق فراز ، ولا لقبلة أن تكتمل إلا بالهذيان . فالذي أغمدَ عشرين نصلاً في الأغاني (حيث كان لديرام وديلانا زاد يغديان به الصباحات) سيغمدها ، ثانية ، في الأغاني ، ليبقى هذا الحصارُ الكهلُ مستيقظاً بشيوخه .

بيدَ أني سأبقى مستيقظاً ، أيضاً ، كدليلٍ أخير يقود النهار إلى المراثي . وعَلامَ لا أباعتُ الحاضرَ هكذا ، مستيقظاً كالمراثي؟ عَلامَ لا أجمعُ النقائصَ أضماميمَ أضماميمَ تقدمات إلى هذا المهرجان النحيل كالقصة ، ذي العقد كالقصة؟ . هاكُم أرى الباطلَ السيدَ حائماً ومن حوله فراخه الزبديّة ، وأرى الشهقةَ العالية ، والفضاء الزاحف تحت بطون اللبونات ، فإن مددتُ يدي ضَمَمْتُهُما ، يقيناً ، على رعشة أو أنين . . . للأنين إذا ، لا ابتهاج سرت به الجذور إليّ ، سأهبُ هذه الطعنة هبة النشوان للأبجدية النشوى ، وسأصغي حينها إلى رنين الحروف الساقطة من مواتيقي القوي ، الذي أوثق الكائن بعقد لا خيار فيه . وسأصغي حينها إلى القوي أيضاً ، يتقرى بطولة لا ترى .

(ذاكرٌ كيف فاجأت الخوذة الخوذة بعدما انطوت صفحتان من مدائح ديرام وديلانا . ذاكرٌ أنهما انتهيا فبدأت المدينة . ذاكرٌ أن عشرين طعنة هوت ، وأن عاشقين انفضاً عن مجلس الينابيع . ذاكرٌ: لم يُقتل ديرام ، ولم تُقتل ديلانا ، بل رجعا ، كل إلى مسائه .

ذاكراً: حطّم دبرام جراراً أنثى خذلت قلبها بعد الحصار. ذاكراً:
أغلقت ديلانا على صورة الفتى أفقها، وانحنت لجرار الكهولة بعد
الحصار. لذا تجرعتُ آخرَ بركٍ، وتَحَيَّنتُ الخرابَ .

أي ذاكرة للبرق؟ مدٌّ من السطوع المرّ، مدٌّ من تعاقباتِ الدم والنبيذِ .
وأنا الدليلُ مُوثَّقٌ بأثرِ صاحبٍ في الفراغِ الصاخبِ . غير أنني أغضُّ قلبي
عن مراراتِ الأرضِ الصديقةِ ، وأهمسُ : «يتها الأرضُ ، يا موكبَ الحصى
والحروفِ ، انظري كيف ساوتِ الحارثَ باللهو . انظري كيف تعبرُ السنابلُ
بأسماها ، كسيرةِ كدمٍ كسير . انظري ، أما كان لهؤلاءِ الواقفينَ تحت
ثرياتِ السيّد أن يقذفوا السيّدَ بأحشاءِ كلبٍ» . وإذ أبيضُ بهباتِ العويلِ
أرفعُ قلبي بمراتِ الأرضِ صوبها ، صارخاً : «تؤخذينَ بالحارثِ تارةً ، وبمن
يُسرِّدُ الحارثِ تارةً . أه ، لتَضيقنَ بكِ جهاتكِ حتى ليَضيعَ الهوَاءُ عن
الهُوَاءِ» .

فليزدهرُ بالبولِ هذا كُلُّهُ ، فليَربِثِ البولُ هذا كُلُّهُ .
ولتكنْ ضربةُ أشدُّ من الخيانةِ .

لا ، بي حنينٌ بَعْدُ إلى زلزلةِ حلوةٍ ونهبِ حنونٍ . ودليلاً لم أزلُ ، دليلاً
أفضى بعاشقينَ إلى سَوْرَةٍ من خرابٍ ، ولكنني - يقيناً - حين سَقْتُهُما
بسوطِ الغمامِ وبوصلةِ التَسْخِ كنتُ مُنْبِتاً هذه الأقاليمَ بسُلطانِ الروحِ ،
بسُلطانِ لا سَطْوَةٍ فيه غيرُ سَطْوَةِ المَرَجِ . فماذا عليّ بَعْدُ؟ ماذا أرفعُ نخبَ
سديمِ صُلْدٍ ، وانتصارِ حزينٍ؟ .

هَبْنِي أَيُّهَا المَاءُ خَتَمَ المَاءِ ،

هَبْنِي يَتَهَا الْقَلُوعُ سَكْرَةَ الْقَلُوعِ .

فأنا الحريفُ قطعُ حريفٍ ، نسجتُ تَوّاً شَبَاكِي ، وهأُنذا أُنْدَافِعُ حَقَبَةً
حَقَبَةً بِعَجُولِي وَمَاعِزِي ، مَسْكَاً بِلِجَامِ الْهَضْبَاتِ ، وَعَرَبْتِي الْحَقُولُ . وَكَمَنْ
يَحْشُدُ الدُّوْلَ أَحْشُدُ الْكِرَاكِي . وَكَمَنْ يَحْلِجُ الصُّوفَ أَحْلِجُ الْفُلْزَ وَاللُّدَانِ ،
وَأَنْصَبُ السَّلَالِمَ لِلْبَرِقِ فَيَصْعَدُ إِلَى شَعْبِهِ الدُّبُونِي .
(وماذا عن دِيْرَامٍ أَيُّهَا الدَّلِيلُ؟ ماذا بعدَ عَشْرِينَ طَعْنَةً مَحَتْ
عَقْدَ الْعَذُوبَةِ بَيْنَ دَمِهِ وَدَمِ دِيْلَانَا؟ .)

هَبْنِي أَيُّهَا الْمُدِيحُ مَطَالِعَ الْمُدِيحِ ،
هَبْنِي يَتَهَا الْبِوَأَشِقُ هِدَاةَ الْبِوَأَشِقُ .

(وماذا عن دِيْلَانَا أَيُّهَا الدَّلِيلُ؟ ماذا عن رَنْينٍ أَعَادَهَا رِمَاداً إِلَى
بَعْلِهَا الرَّمَادِ؟ .)

هَبْنِي أَيُّهَا النَشِيدُ مَا يَرْفَعُ الْمَزَارِيْقَ عَالِياً ، لَتَطْعَنَ بِهَا الْأَيْدِي الْمَائِنَةَ
لِلْسَهْوَبِ فَهَذِ الْكِتَابَةِ ، فَقَدْ عَمِيْتُ مِنْ أَنْ تَرَانِي الْمَدِينَةَ لَصَقَ دَرْعُهَا ،
جَالِساً ، تَتَعَرَّى فِي مَوْقَدِي الْغُصُونُ ، وَتَبْعَثُرُ الطَّيُورُ أَعْشَاشَهَا اللَّهْبِيَّةَ .
وَعَمِيْتُ مِنْ نَدَامَايَ يَسْرُدُونَ الصَّلِيلَ ذَاتَهُ ، صَلِيلَ الْحَدَائِقِ ، وَحَمْحَمَةَ
الْجَسُورِ الْهَارِبَةِ ، فِي حِينِ أَنْيْ أَجْمَعُ الْهَادِثِينَ لِنَهْبِ هَادِيءٍ ، وَأَتَدْرُعُ
بِالْمِيَاهِ ، صَائِراً مِنْ مَصْبٍ إِلَى مَصْبٍ ، وَمِنْ غَدٍ مُحَارِبٍ إِلَى غَدٍ مُحَارِبٍ ،
لَأَجْعَلَ الْغَضَبَ تَحِيَّةَ الْعَالَمِ لِلْعَالَمِ .

هِيَ أَيُّهَا النَشِيدُ ،

هيا
شُدْنِي
قليلاً

بأليافك الكوكبية ،

فما أنا إلا دليلٌ سَوَّرَ المساءَ الأجرى بحرابِ الملهاةِ ، وتَتَبَّعُ الأثرَ
الأكبرَ ، أثرَ البذورِ وهي تشقُّ الجلودَ عن أحناشِها الترايئةِ وتستقبلُ الأبدَ
الشريدَ .

(كشريد غصن ديرام حين حَدَّثَتْهُ الطرقُ عن أيامهِ الراكضةِ
تحت أقواسِ الخنشارِ ، وعن قلبهِ العاري في مهبِّ المدينةِ .
بكى ، بعد ذلك ، قليلاً
وخبياً تحت أسمالهِ النباتيةِ مملكةٌ لم تكتملُ .)

هيا أيها النشيدُ ، هيا نقفْ معاً خلفَ قناعِ أخيرٍ لِنَتَحَيَّنَ الأرضَ حين
تعبيراً أقدارنا بسربِ من الآلهةِ . هيا ، لأجعلنكُ أيها النشيدُ قناعي ،
وَلَا مُتَدَحَّنَ الظلامَ اليَقْظانَ ، ففيه تغزلُ الأحابيلُ خيوطها الحلوةَ ، ويتوسدُ
المُرْحُونُ الكلامَ الذي سيقالُ في الحروبِ المَرِحَةِ .

وكحربِ مرحةٍ

سأدخلُ

البلاطَ المفتوحَ على الجهاتِ ،

وَعَجْجُولاً سأقدِّمُ الكواكبَ الصغيرةَ ومركباتِ المياهِ ، لأخوضَ بقايا
الممالكِ ، حيث تغفلُ الكائناتُ حلمها بقفلِ الدمِ ، وتركضُ الدُّيْكَةُ من
ضحى الهزائمِ إلى ضحى الهزائمِ . وكأيِّ مضى سَامِضِي ، تاركاً للربعِ
أساورَ وقلاداتٍ يرتديها في الفتوحِ الجميلةِ .

أنا الرعبُ الحكيمُ ،
ولا فجيعةٌ بعدي .

لكنني مُسْتَضَعَفٌ بديرامَ ، مُسْتَضَعَفٌ بفتى قاذني - أنا الدليل - إلى
صارية ضَلَلْتُ حولها المياهَ ، وأخفتُ عن اليابسة أجراسها ، وكم تعتريني
حُمى الفاكهة فأودُّ لولِ قَطَافٍ نَذَرْتُ مُلْكِي ، لا لترابٍ يذبلُ بي . وأودُّ لو
نسيتُ ديرامَ فأعفيتُ قلبي من سَطْوَةِ الحكايةِ ، فأنا ، حينَ أبقى لسردٍ أبقى
طيحاً كالكلامِ ، فإمّا نَفَذَ اسْتَمَلْتُ كُلَّ عَصِيٍّ ليطحنَ بي .
أخ ديرامَ ،
أحطتَ بي ، فحنيني أنتَ ، وإذِ احْنُ لا أستعجلُ الأسلحةَ .

أروي بعُد؟

أروي كيف مساءً عاد ديرامُ عارياً من رائحة ديلانا ، ومن شقاتي
أسرارها؟ . كلُّ شيءٍ تهدلُ آنذاك : البرقُ والعذوبةُ وأسرارُ الصلصالِ . عادَ
واحتمى بي ، ضائعاً يلمُ القرى ويشمُ الأودية ، كأنما ضيغَ السنبالِ التي
سَلَمَتَهُ مفاتيحها .

أروي كيف عاد وقد تكومتُ تحت أنفاسه العجولُ الخائفةُ ، وتقرحَ
الهواءُ؟ عادَ مُدَثِّراً بمعطفٍ أجريُّ ، وفي يده بقايا درع . كان عارفاً أن حَرَبَهُ
انتهتْ ، وأن للعاشقينِ ألا يرجعا ، بعد ذلك ، إلى غزوٍ يسبي فيه الآخرُ
الآخرَ القُبلَ ، ويأسرُ مدائحَ الجسدِ .

أروي؟ . . . عاد راكضاً تنهالكُ من حوله شُرُفاتُ ، وتشقُّ الحدائقُ
أثوابها . وكشلتَ سمسِمٍ طوقَ بأوراقه بقايا الظلالِ والشعاعاتِ التي نَسِيَتْهَا

الشمسُ الأخيرةُ . وحين اَبْتَرَدَ قليلاً قرب جراري ، صاحَ : «أيها الدليلُ ،
أفلتتِ الصاعقةُ وتبَلَّبلَ المديحُ أيها الدليلُ» .

يا لديرامَ ،

بعد نزهة في العنب ، بعد أن مَلَكَتُهُ الأرعفةُ نصفَ شَذاها ، وتمَلَّحَ
الملحُ بحلمه ، طوى القُبَل ، ثانيةً ، كالنديلِ ، وعَطَى المملكةَ التي لم
تَكْتَمِلْ ، ريثما تُفْسَحُ الملوكُ للملوكِ أحرَ ، والأعمدةُ لأعمدةٍ أخرى ؛ وريثما
يبشُرُ الحديدُ بأعراسه في المكانِ الذَاهِلِ .

هكذا سلَّ يرامُ أنقاضه كمدية ، وقال : تَبَرَّجَ أيها الحجر .
فبأي شيء أوقفُ الآن انقسامَ العناصرِ؟ وبأي يدٍ أَرُدُّ سلاطاتٍ مُجفلةً
أيقظتها قرونُ الأيائلِ؟ . . . آه ، كان صريرُ أولِ الأمرِ ، صريرُ بابٍ ، ومن
البابِ تدافعتِ الاقنعةُ والحدآتُ فغطَّتِ الأرخبيلَ المَلْمُومَ قُربِ روحِ
الكائنِ .

أكنتُ أهذي؟

لا ، كلُّ بابٍ يُفْتَحُ الآن يُفْتَحُ على صلصالٍ يَلدُ ، وعلى غضبٍ جالسٍ
أمامَ المائدةِ يُحصي المراثي .

وديرامُ يُحصي المراثي أيضاً . يُحصي نبوءاتِ المهرجِ ، ويرتجلُ الملحمةَ .
وديرامُ يعدو كأنما انتهتِ الملحمةُ ، مُستبدلاً قنَاعَ العاشقِ بالبحرِ ،
والحينَ بهرطقةِ العاصفةِ : هكذا يبدأ نشيدُ آخرَ ،
وتتَنَحَّحُ الأرضُ في مجلسِها .

أنا الدليلُ أخبركم هذا ، وأخبرُ المياهَ بحديثِ الحديدِ .

يا لديرامَ ،

بعد نزهة بين أباريقِ السهولِ ومكائدِ الوردِ ، لم يجد سواي منتظراً ،
وفي يدي رسنٌ خمسين نيزكاً من نيازكِ العذوبةِ تضربُ بحوافرها الشَّيْدَ
العاري .

فَلَيْشَقْ جُؤْجُؤُ الغامضِ هذي الموجةَ الجذلي ، ولتَعِمَّ طَبَاعُ الغبارِ ، فأنَا
الدليلُ لم أزلُ دليلاً ،
ولم يزلُ ديرامٌ متكتناً قُرْبِي ،
يخلطُ الحكايةَ بالأساطيرِ ،
ويُهْرَقُ الجهاتِ .

ولم يزلُ المكانُ هو المكانُ : دروعٌ ومدائحُ ، وشَعْبٌ يحتضنُ القناعَ
الأكبرِ ؛ شَعْبٌ واقفٌ قُرْبَ مرساةِ الأديارِ ، حيث تلهثُ الأرضُ ، ويطردُ
الرَّيَابِنَةُ بقبُعَاتِهِمْ ذُبَابَ الرِّبْدِ . وللمكانِ نشيجٌ . للمكانِ جلدٌ وشَقٌّ .
والذاهلونَ ذاهلونَ من بوقِ يتدلى فوق لوتسِ الأسلحةِ .

هَاتِهَا إِذَا ،
هَاتِهَا أَيُّهَا الْمَكَانُ ،
هَاتِ قَطَّاتِكَ ، فأنَا الدليلُ دليلي قِطَاةُ الصَّرْحَةِ .

(يقول ديرام : لا بأسَ يا صاحبي ، كلها خطوتان وتضيقُ
المدينة غزالاتها التي دخلت بَهُونًا . وستنسلُ ديلانا فتمتلىءُ
الغرفةُ بجنسٍ آخرَ . ويضيف : كانت مَحْضَ امرأةٍ هاربة ، توسلتُ
إلى فتى - بعدَ عشرين عاماً من استباحاتِ بعلها - أن تعودَ عذراءً
منهُورَةً لحصادِ جديدِ ، فأغضى حيراناً . ويُغضِي ديرامُ فأعرفُ أن ما
انتهى انتهى ، وأن لقلبهِ ابتهالاتِ تَضَمُّحِ النساءِ ، كلهنَّ ، مِن

هاتِه إِذَا ،

هَاتِه أَيُّهَا الْمَكَانُ ،

هَاتِ تَرَدُّكَ وَلِيَا تَمِرْ ، كِلَانَا ، بِإِمْرَةِ الْهَائِيَةِ .

غَيْرِ أَنِي ، وَأَنَا دَلِيلُ الْهَائِيَةِ أَيضاً ، أَفْتَحُ بُوَابَةَ الضَّحَى لِقَضَاتِي
فَيَدْخُلُونَ حَامِلِينَ مَحَابِرَ الْغَضَبِ وَأَقْلَامَ الْبَازِلْتِ . وَأَدْخَلَ بَعْدَهُمْ بَسْرِبٍ
مِنْ بَقَرَاتِ الْمَلُوكِ وَقَنَافِذِهَا ، لِنَبْدِ الْمَرَاغَةِ - مَرَاغَةِ الْقَوْلِ الَّذِي يُفْرَدُ ذَيْلَهُ
كَدِيكِ رُومِيٍّ ، وَيَلْتَقِطُ بِمَنْقَارِهِ عَدَسَ الْقُرُونِ . وَإِذْ ذَاكَ نَدَعُو شَهُودَنَا ؛ نَدَعُو
الْحَقُولَ وَزِيْرَانَ الْحَقُولِ وَمِزَامِيْرَهَا الْخِزْفِيَّةَ ، قَارِعِينَ خَوْذَاتِنَا بِأَعْوَادِ السُّمَّاقِ ؛
هَكَذَا يُتْلَى الْحُكْمُ فَيَجْرُجُ الْحُجَابُ الْمِيَاءَ مِنْ قَرْنَيْهَا خَارِجاً ، وَيَغْلِقُونَ
الْبَابَ فَيُغْلِقُ صَرِيْرَهُ الْحَاذِقُ سِيَاجَ الْأُرُوْحِ . بَعْدَ هَذَا يَنْفِرُ الْجِصْفُ
بَطَوَائِيْسِهِ ، رَائِحاً غَادِيّاً وَظَلُّهُ خُنْفَسَاءٌ . بَعْدَ هَذَا يَجْفُ الْكَائِنُ حَتَّى
لَتَتَكَسَّرَ تَحْتَ أَلْيَافِهِ الْعَوَالِمُ الَّتِي خَبَأَتْهَا الصَّوَاعِقُ ، فَيَنْفِرُ ، بِدَوْرِهِ ، رَائِحاً
غَادِيّاً وَظَلُّهُ ظِلُّ جُدُجٍ . وَكَلِّمْنَا اسْتَنْجِدَ بِالْأَلِهَةِ أَنْجَدَتْهُ بَعْظَايَاتٍ تَنْفِخُ فِي
دَمِهِ رِئَاءَ حَامِضاً .

هَكَذَا يُتْلَى الْحُكْمُ ،

فَيَغْدُو الْكَائِنُ مَلْهَأةً حَامِضَةً تَحْتَ جِلْدِهِ الْخِرْشَفِيِّ ، وَتَتَخَبَّطُ فِي عُرُوقِهِ
الطَّرْبَانَ . وَأَنَا الدَّلِيلُ أَنْظِرُ فِي الْأَمْرِ ، نَشْوَانَ ، كَأَنَّمَا أَنْجَزْتَ خَطَوَاتِي
أَحَابِيْلَهَا ؛ كَأَنَّمَا أَفْتَصَّصْتُ لِدِيْرَامٍ مِنْ رُمَاةِ الْجَهَالَةِ ، وَكَسَرْتَ الْأَقْفَالَ
الصَّدِيْئَةَ الْعَسْرَةَ لِأَبْوَابِ الْقَوِيِّ : أَلَا فَلْتَجْرُ الْبَطُولَةُ قَنْزَعَتَهَا ، وَلْيُعْطِ الْيَقِطِينَ
بِأُورَاقِهِ طَبُولَ الْجِدَالِ ، فَالْحُكْمُ يُتْلَى ، وَتُتْلَى عَلَى الْعَاصِفَةِ مَوَائِقُ
الْمَعْدِنِ . . . آه ، نَكْهَةُ الْعَمَاءِ وَخَدَهَا هِيَ نَكْهَةُ الْحُرُوفِ أَيُّهَا الْمَكَانُ .

(... وديرامٌ مسترسلٌ في اعتكافه خارجَ الحُبِّ، خارجَ المدائح التي نسجتها ديلانا في فورة الأنثى، وحيداً كما دخل المدينة، يقطعُ أيامَهُ بحدوَةِ النهارِ العاديِّ، النهارِ الذي لا فجاءةَ فيه ولا خرقَ لميثاقِ .

ينهضُ مبكراً إلى عمله .

ينهضُ مبكراً إلى تعبٍ مبكرِ .

ينهضُ مبكراً إلى قناعةٍ فيرتديه ،

وإلى لهائه فيعلقُهُ على صدره كَحَرَزَةِ السُّعْدِ وَعِضِي .)

ولديرامٌ أتلو هذا ،

ولقلبه الباذخ كَشُجيرةِ الفلفلِ أبسطُ حكمةِ الدليلِ .

وأودُّ لو تنفضُ الجهاتُ كُلُّها مثلما ينفضُ الساهرونَ عن مجلسِ . وأودُّ لو يبقى الغبارُ وحده ، مُتَّصِلاً حلقاتٍ حلقاتٍ في وسطِ فراغٍ عابثٍ يضلُّ الشمسَ عن المغيبِ ، ويمزجُ الكواكبَ بنبيذِ الظلامِ ، فلا تغيبُ شمسٌ ، ولا يغيبُ ظلامٌ . يبقيان ، هكذا ، واقفين ، درعاً إلى درع ، وأيديهما على مقابضِ الفؤوسِ ، وأودُّ لو يحتكمانِ إليَّ فأقضيهما ، فاردأُ سريري لحدائقِ الفراغِ وسراطينه الحاملة . أه ، ليتَ لا يبقى مكانٌ لظلِّ حين يلتهمُ الهباءُ تفاحاته ، ويركضُ ظبيُّ السديمِ الأعمى بين الأشكالِ . ليت تحتفي الوحشةُ بسلالاتِها ، ليت ... ليت ...

أه أيها الهوليُّ ،

أيها الشريكُ النبيلُ ،

انثرْ أُرْزُكَ علينا ؛

انثرْ شعيرَكَ وفِرْزَكَ ، واهبطْ إلينا من مقاصيرِ الفاكهِ العاليةِ . اهبطْ

إلينا ، أنا وأميراتِ العماءِ المسكاتِ برسِنِ السيلِ الأعظمِ ، وهُنَّ يأمرنَ القنادسَ أن تسدَّ مهبَّ الألهةِ بالجدوعِ والطينِ . فإنَّ هبطتْ هُرْعُنَا إليك بأكاليلِ القُرَاصِ ، بسلالِ من كستناءِ وصخبِ ، ولتُعْمِدَنَّ ، حيثَ تغمدُ خنجركَ القَزْحِيَّ ، مصائرَ مُسنونةٍ كالمناجلِ . . . هيا أيها الشريكُ الهَيُولِيُّ ، يا ظلَّ كلِّ شيءٍ ، لتكنْ بقراتكُ هي الأكثرُ خواراً . لتكنْ أنتَ أناملَ الأرضِ التي تُطَبِّقُ على أجاصاتها اليابسةِ ، وتهزِ ريحانةَ الظلامِ . أووه ، قبلكَ كانتِ الأرضُ مسقوفةً بأنقاضها ، وبعذكُ تأوي إلى سقوفِ أنقاضها ، هكذا هي ؛ هكذا تأبى إلا أن يجرَّها فاتحٌ أو يائسٌ . وأنا الدليلُ أنذرٌ لليأسِ الباسلِ حكمةَ الدليلِ ، وأتيكُ يا نقيضَ الأشكالِ ، لتتأبطَ ، معاً ، للعرَاءِ الخاويِ مفاتيحَ أسمائنا ، وسلالاتٍ تُشبهُ الأبواقَ على جدارِ ملكي .

ولماذا تُبقي الأرضَ ، لماذا تُبقي الأرضَ؟

لماذا ، حينَ نهدمُ الكائنَ ، ونعبثُ بأدوارهِ الهندسيَّةِ ، تُبقي الأرضَ؟

(. . . ويقول ديرامُ : لا يا دليلي ، لتبقِ الأرضُ ، لتبقِ مرميَّةً قُربَ خصيتي القويِّ . لتبقِ هكذا ، يجرَّها فاتحٌ أو يائسٌ .)

ولديرامُ أتلو هذا ،

لديرامُ أغزلُ اليأسَ كُلَّهُ ، عسى يهوي فلا أسترسلُ . ولكنه يمعنُ في اقتفاءِ المدينةِ بعنادِ اليأسِ ، ويتركُ لي أن اقتفي كلبَّةَ النشيدِ .

كُنْ مؤثباتياً يا هبوبُ ، كُنْ مؤثباتياً . فديرامُ يُصغي الآن لريحِ جديدةٍ ، ولريحِ جديدةٍ أتلو هذا ، داخلاً من بوابةِ الغبارِ الكبيرةِ ، وملاءُ يأسِيِّ الزعفرانِ والسفرجلِ ، مُزْمعاً على أن أمُدَّ ديرامُ بأسبابٍ مُترقِّةٍ يغسلُ بها

أنيته المُتَرْفَ؟ وأن نلقي، معاً، في الغامضِ شبّاكنا ذاتَ النسيجِ الملمومِ
من الصّعترِ والهلبونِ .

أأتلو بعدُ؟ أأتلو النباتَ أم الأجنحة؟

لا، لديرامَ أتلو مواجعَ السهولِ . أتلو كيفَ يلتقطُ البَجَعُ الغيومَ من
النهرِ، وكيفَ تمتلئُ دروعُ الينابيعِ بهباتِ الحجرِ . لكن ديرامَ فتى غَضٌّ .
وديرامَ ينسى في المدينة أن ينثرَ البُنْدُقَ لسناجبِ الغبارِ، ويُقسِمَ بالحُبّارى .

(بات ديرامُ يرفعُ وجهه عالياً كي يرى الشرفات . وبات
مُجْفِلاً، يغادر من حيّ إلى حيّ، ومن عمارةٍ إلى عمارةٍ، ضَيِّقاً
كالغُرْفِ . لا تتسعُ أقدارُهُ لحركاتِ المهرجِ ذي المفاصلِ المعدنية،
الشاردِ شرودَ القناصلِ بعد حديثٍ مُقتَضِبٍ عن الثوراتِ . وبات
طعيناً أيضاً، مُضَرَّجاً بالأحابيلِ ووساوسِ الحديدِ المصقولِ جيداً
على مداخلِ العماراتِ وحولِ النوافذِ . وهو غريبٌ أيضاً، غريبٌ
حتى مصبّاتِ دمه المطوّقةِ بالخشخاشِ .

يقول صاحبه الأرمني : ماذا تبقى لك؟
يقول : المدينة .

يقول صاحبه الأرمني : إنها ليست لأحد .

يقول : لا، إنها للنقيضِ الذي يهدمُ الكلامَ .

يقول صاحبه الأرمني : وماذا تنتظر؟

يقول : انتظرُ الباشقَ .

يقول صاحبه الأرمني : لا عصافيرَ في المدينة .

يقول : لا لأقتنصَ العصافيرَ، بل لأقتنصَ الفاجعةَ .

ويصمّتانِ، معاً، حينَ تمرُّ أولُ أنثى، مضمخّةٌ بالبيلسانِ

كُنْ مَوَاتِيَاً أَيُّهَا الْوَمِيضُ لَا تَلُو لِدِيرَامَ هَذِهِ الصَّرِخَةَ . وَأَتُنُّنَّ يَا أُمَهَاتِ
النَّهْرِ ، يَا الْوَاتِي تَرْفَعُنَّ مَظْلَأَتِكُنَّ الطَّحْلِبِيَّةَ وَتَدَخُلْنَ الْمَدِينَةَ مِنْ وِرَاءِ
دِيرَامٍ ؛ يَا الْوَاتِي لَظْلَالِكُنَّ أَصْدَاعُ مَطْوُوقَةٍ بِفَقَاقِيعِ الْكَلْسِ ، لَا تَبَارِخُنَّ هَذَا
الْفَتَى . فَلْيَسْمَعْ حَفِيفَ أَثْوَابِكُنَّ ، دَائِماً ، قَرَبَ سَرِيرِهِ ، وَلْتَمَسْ جَبِينَهُ ،
أَبْدأً ، وَشَوْشَاتِكُنَّ الْخَفِيضَةَ وَأَتُنُّنَّ تَتَجَادِلُنَّ مَسْرَعَاتِ بَيْنِ الْعُرْفِ .
وَلتَحْفَظْنَهُ حَفْظَ ذَبْتِهِ جِرَاءَهَا ، نَاصِبَاتِ مِنْ حَوْلِهِ فَخَاخِ الْحَقُولِ فَلَا تَصِلُ
إِلَيْهِ الْمَدِينَةَ إِلَّا أَسِيرَةً . وَلِقَلْبِهِ الْبَاذِخُ كَشُجِيرَةِ الْفَلْفَلِ ادْفَعْنَ سَمَكَاتِ
التَّرَابِ تَتَوَاتِبُ سَكْرَى فَوْقَ سَرِيرِهِ ، فَهُوَ فَتَى هَارِبٌ ، يَحِبُّ أَنْ تَدْعُدِغَ
الْمَسَافَاتِ قَلْبَهُ بِرِيْشَةِ الشَّمَالِ ، وَأَنْ يَضُمَّ سَرِيرُهُ حَفْنَةً مِنْ تَرَابٍ تَوْقَدُ
الطُّفُولَةَ . هِيَ يَا أُمَهَاتِ النَّهْرِ ؛ هِيَ يَا الْوَاتِي يَخْبِئُنَّ تَحْتَ صَدَارِيهِنَّ الْإِشْنِيَّةَ
مِفْتَاحِ الْبِنَابِيعِ وَنَكْهَةِ اللَّيْنِ ؛ هِيَ أَدْرُنَّ مَعِيَ رَحَى الصَّلْصَالِ لِنَطْحَنِ
الْبَطُولَةَ ، وَلِيَكُنَّ مَوَاتِيَاً وَمِيضُ الدَّمِ فَتَنْجِئِلِ الطَّحِينَ وَالْوَمِيضُ رَغِيْفاً مِمَّا
يَأْكُلُهُ النَّهَارُ الْأَعْمَى . وَلِي أَيْضاً يَتَّهَى الْأُمَهَاتُ ، لِقَلْبِي الْبَاذِخُ كَقَنْزَعَةَ
الْهَدْهَدِ ، أَطْلَقْنِ دِيكَ الْأُمُومَةَ ذَا الْعُرْفِ الْيَاقُوتِيَّ ، وَأَفْتَحْنِ السِّيَاحَ
لِدَجَاجَاتِ الْمَرْحِ ، فَأَنَا دَلِيلُ دِيرَامٍ مُزْمَعٍ أَنْ أَقُودَ دِيرَامَ بِيغْلَيْنِ مِنَ الْأُمُومَةِ
وَالْمَرْحِ إِلَى حَيْثُ تَتَهَيَّأُ الْأَسْلِحَةُ لِعَرَسِ آخِرِ .

(بَاتَ دِيرَامٌ عَجُولاً ، بَاتَ يَنْظُرُ إِلَى بَرَائِكِ الْمَدِينَةِ وَأَسَاسَاتِ
جَسُورِهَا بِعَيْنِي رَاكُوتًا ، وَيَجْفَلُ إِجْفَالِ الْبَشْرُوشِ مِنْ قَهَقَهَاتِ الْحَجَرِ
الْخَفِيَّةِ . بَاتَ جَسُوراً أَكْثَرَ فِي إِغْوَاءَاتِهِ ، يَقُولُ لِلنِّسَاءِ مَا يَتَمَنَّى أَنْ
يَقْلَنَهُ لِأَنْفُسِهِنَّ أَمَامَ الْمَرَايَا ، وَيُضْحِكُ مِنْ إِسْرَافِ قَلْبِهِ فِي امْتِدَاحِ
دِيلَانَا ذَاتِ يَوْمٍ ، وَهِيَ أَنْثَى ، كَكَلِّ أَنْثَى ، تَهَبُّ أَدْرَاجَهَا - إِذْ تَهَبُّ -
لَا لِذِكْرِ بَعْتَعَيْنٍ ، بَلْ لِمَنْ يَفْجُو أَنْقَاضَهَا فَيَسْنُدُ الْأَعْمَدَةَ .)

لكنني أرى ديلانا أيضاً ، من خلال ورقِ الدُّلبِ الذاهلِ ، جالسةً قرب
كوكبها المهرجِ ، ومن حولها ابنتها تصيِّدانِ ذبابِ الرمادِ ، وتقضمان تفاعَةً
لا تُرى .

إني ديلانا ، لا تاجَ لك الآن ، وليس لقلبك غيرُ نفيهِ العاديِّ ، نفيهِ
دَوْرَةَ الدمِ الرُّثيِّبةِ . وكنت أكثرَ حرصاً على أن تشتغلَ أقداركِ اشتغالاً
الحدادينِ ، يجعلونَ الحديدَ مقبضَ بابٍ أو سلاسلَ ترفعُ الأراجيحَ . وها
عُدت ديلانا من ذهولِ حُلُوِّ إلى ذهولِ مُرٍّ ، ترفعينَ عينيكِ قليلاً عن مغزَلِ
المغيِّبِ لتدمعاً ، كأثماً ترينَ ديرامَ الفتى نازلاً درجَ الشتاءِ الذي أحببتهما
معاً ؛ نازلاً درجِ المطرِ ، تتدلَّى من جيوبهِ البروقُ وسُبُحاتُ الغيومِ . وكنت
تفرحينَ ، ديلانا ، فرحَ طفلةٍ في الأربعينِ إذ يداعبُ ديرامُ طفلتكِ
الصغيرةَ ، مُتخذاً شكلاً سلوِّرٍ ، أو مُقلِّداً صوتَ جديِ أناضوليِّ .

(قبل أن ينصهرَ العقيقُ ويصعدَ صعودَ الفتوةِ إلى ثمرةِ ديرامِ ،
وقبلما تنعقدَ روحه حجراً من عقيقِ تضمُّه ديلانا إلى عقدِ روحها ،
كان يحتفي ، خلسةً ، بأنثى في الرابعةِ عشرة ، ملأى بنزقِ العذوبةِ
وطيشِ الزُّبرجدِ . وكانت تحتفي ، هذه الطفلةُ ، خلسةً ، بفتى في
التاسعةِ عشرة ، ذي أنينِ صامت ، خجولِ كبيوتِ القرى . كانت
تعرفُ أنها جميلةٌ كما ينبغي ، وأنها ، وهي المصبُّ الربيعيُّ لأباريقِ
الجبليِّ ، تجرّفُ ابنَ السهولِ - ديرامَ من الضفَّتَيْنِ .

وكان يعرفُ أنها جميلةٌ كما ينبغي ، وأنه ، وهو المقلعُ الأكبرُ
بين مقالعِ الكوبالتِ ، يُحصي من مكانه البراكينَ ، عارفاً أيّ سفحٍ
من سفوحِ الأنثى الصغيرةِ ستغمرُهُ حمرةُ المعدنِ ، وأياً ستغمرُهُ
رقائقُ من بأزلتِ الأدميِّ .

غير أنهما لم يكشفوا الأبعد في مخابىء جسدَيْهما ؛ لم يكشفوا
نبوءة العَصَلِ وهذيانَ الدم ، ولم يَغزُ أحدهما الآخر بسيفِ النعناعِ
التي يملكانها .

لقد أدركت الأنثى الصغيرة ، وهي ابنةُ ديلانا ، أن للفتى
ديرامَ مهياً على شرعِ أمها . وأدرك ديرامُ أن هذي الأنثى الصغيرة
لم تكن غيرَ بوصلة تشقُ لحيزوم لهائه مضيقاتاً إلى أمومة البحرِ ، إلى
اللائلةِ المديدةِ لكهرمانِ الأعماقِ - ديلانا .

إيه . . . كنت تعرفينَ ديلانا ما الذي يجبكهُ الوردُ للوردِ ، والصخبُ
للصخبِ . وكنتِ ترينَ إضغاءَ الفتى والفتاةِ إلى التفتُّحِ الصلصاليِّ
لروحَيْهما ، غيرَ أنكِ اقتحمتِ غابةَ الفتى بسربٍ من الشُّقراقِ لم يتركِ
شجرةً إلا أضاعها بقناديلِ الأعشاشِ ، فأعطتِكِ الغابةُ صولجانَ الدليلِ . أما
الفتاةُ ، وهي مديحُ أحشائكِ أنتِ لثورِ العذوبةِ ، فقد خبأتِ كواكبها المنثورةَ
في فضاءِ ديرامَ لعيدِ آخرٍ ؛ لعيدِ لا تتقاسمُ فيه أنثى وأمها صريراً بابٍ واحدٍ
في ممرِّ الفحولةِ .
وأنا ديلانا ،

أنا اللليل الذي وسَطَ السهولَ بينكما ،
وَدَلَّ الأنينَ على الأنينِ ،

أُمَلِّي على الوحشيِّ ، الآن ، إملأءِ دُكْدُلِ ، وأغمسُ الهواءَ ، مثل ريشةِ
المؤرِّخِ ، في طبائعِ اللبوناتِ ، ليتفتَحَ أكثرُ ، رقةً رقةً ، لأناشيدِ الغَضْبَانِ .
ولك أنحنِي ديلانا ، لزهرةِ الوحشةِ التي تضربُ بجذورها ، عميقاً ، تحتِ
ثديكِ العَندَمِيِّينِ ، لكن ، حَسْبُكَ أَنْكِ احتضنتِ ، ذاتِ يومٍ ، توأمَ المياهِ ،
ومرَّغَتِ لهباً عارياً على لهبِ عارٍ ، أمَّا ديرامُ ، فمن أجله أُمَلِّي الوحشيِّ ،
ليبقى رافعاً سراجِ الهباءِ ، حيثِ تستطيلُ الظلالُ والاقنعةُ ، وتمضَعُ

الأرضُ ، في هدوءٍ رتيبٍ ، بُبَانَ الأشكالِ . ولي ،
لنَفْسِي المستديرةِ كَقُبْعَةِ القرغيزيِّ ،
ليقيني الممتلئِ بهارجٍ وريشاً ،
وللبسالةِ التي تتبرَّجُ لفحلِ الضَّجرِ ،
أُملي على الأغاني شهوةِ المياه ؛

المياهُ المياهُ .

فَلْتَكُنِ المياهُ عربتي وجيادي .
فَلْتَكُنِ المياهُ عصايَ إذْ أجتازُ ، كالأعمى ، سراديبَ البطولة .

المياهُ المياهُ .

درعي المياهُ .
والمياهُ جدّالي حين يحتدمُ الهواءُ الهروطوقي .

المياهُ المياهُ .

تنزلُ المياهُ في الصباحِ عن سريرها ، وليسَ عليها من زينةِ الأرضِ غيرُ
عقدٍ من الأشرعةِ . وتصعدُ إلى سريرها ، في المساءِ ، مُخَضَّبَةً بقلقِ
المناراتِ ، والصواري التي لم تصل . والمياهُ فأسُ العذوبةِ التي تُهَيِّئُ لِلآلهةِ
حَطَبَ الكونِ . والمياهُ كلبُ يجرُّ زحافتي على جليدِ الأجديةِ .
وهي تابعي الحاملُ محبَّرتي وأختامي حين أدخلُ على أسيادِ المساءِ
لِنَتَبْرِمَ عقدنا ، عقدَ كوكبٍ أو نشيدٍ .

فَلْتَعَجَّلْ نَفْسِي ، إذْ ، في اقتسامِ الهرطقةِ بينها وبين الوردِ ، ولتُهَيِّئِ
المياهُ سريرَ حُودَيْتِنَا . أما أنتِ أيها العماءُ الشديي ؛ يا عماءَ يشحدُ سيفُ
الخاصمةِ ويُعوي المكانَ ، فَلْيَتَرَيْتُ جُنْدَكَ المدجَّجَ بالزَّنكِ والحَبَقِ وخمائرِ

العاصفة المُرَّة، إلى حين تُسْرَجُ الأرضُ جياذها الكبريتية، وتستلقي رخوةً كالْيَرْقَةِ فِي ظِلِّ نِسْرِهَا الكَهْلِ - نِسْرِ كَهَوْلَةٍ تَرْمُقُ الفرائسَ بَعِينِينَ من غبارٍ. يقيناً ستلمحُ أيها العماءُ. يقيناً ستلمحُ الأرضَ ضارعةً إلى غبارٍ يَكْحَتُ صدره بأظافرِ المغيبِ. وستعدو أيها العماءُ، في هذه السانحةِ، مُمَسِّكاً فأسك الذهبية، فأسك الأولى التي انعكستُ على شفرتيها التماعاتُ الفراغِ فَوَلَدَتِ الأرضُ وَمَضاً، وستضربها فترجعُ وَمَضاً تَمْرَأَى فيه خنانيصُ الظلامِ.

(تعرفُ ديلانا هذا؛ تعرفُ المساءَ ذا الهيكلِ الماموثيِّ الذي ينتظرُ حرَبَةَ العماءِ. وهي ترفعُ إليه، إلى المساءِ ذاته، حُلْمَ ابنتيها المقلبتينِ بأثدائهما الصغيرةِ على شراعِ الجَسَدِ. وتودُّ لو عَجَلَتِ الضَّرْبَةَ، وانفطرَ الجمادُ حاسراً أشلاءً عن جَرَّةٍ واحدةٍ للفحولةِ تشربُ منها امرأةٌ وابنتاها.)

فَلْتَعَجَلْ نَفْسِي

(يعرفُ ديرامُ هذا؛ يعرفُ انتظاري لإباحةِ العماءِ، أَنْ يَنْصِبُ الخرابَ مِيزَانَهُ البركانيِّ: قِيراطُ من الغَضَبِ فِي كَفَّةٍ، وفي الأخرى النهارُ والبسالةُ . . . وديرامٌ مثلي، يحملُ المتاعَ الأخيرَ من طيشٍ وخبزٍ وأبوَّةٍ تحنو على الأسلحةِ، كأنما يتهيأُ لجلالِ الموجِ، أو لِنَيْهِ سَاحِرٍ.)

فَلْتَعَجَلْ نَفْسِي فِي اقْتِسَامِ المديحِ بينها وبين الباطلِ .
فَلْتَعَجَلْ المِياهُ فِي اقْتِسَامِي ،

فأنا العَجَلَةُ الدائِرَةُ، تدورُ في مداريِّ المداراتِ،

ويتكىءُ عليَّ الظلامُ المحاربُ .

لا، لا تَدَعُونِي أَسْتَرَسِلَ فِي الْحِكَايَةِ . لا تَدَعُونِي أَحْمِلُ إِلَى الْغُبَارِ
أَمْشَاطَةَ الْأَزَلِيَّةِ . بَيِّدْ أَنْكُمْ مَسْتَرَسِلُونَ مِثْلِي فِي سَرْدِ أَحْزَانِكُمْ ، وَكُلَّمَا
انتهتِ الْحِكَايَةُ أَعَدْتُمُوهَا ، مُضْطَجِعِينَ تَحْتَ جِسْرِ لا تَسْمَعُونَ مِنْ عَابِرِيهِ
إِلَّا التَّمَتُّمَةَ وَدَبِيبَ الْفِرَاغِ الْمَلْجُومِ ، فَأَكَادُ أَنْفُضَ الْجِسْرَ عَلَيْكُمْ ، كَالشُّوبِ ،
حَجْرًا حَجْرًا ، وَعَمُودًا عَمُودًا ؛ لَكِنِّي أَتَدَارِكُ ابْتِهَالِي ، فَأَقُولُ : لا ، دَعَهُمْ
حَاضِنِينَ مَاسَةَ الْوَقْتِ الْغَبْرَاءَ ، دَعَهُمْ . . . فَهُمُ الْحَاضِرُ الطَّالِعُ كَالْفَطْرِ مِنْ
الْحُرَافَةِ ، وَهَمُ الْهَائِيَةِ الَّتِي أُتْبِتَتْ مِنْ عَمَائِهَا الشُّيُوخَ ، فَهَبُّوا مَسْكِينَ
بِخَطَامِ الْأَرْضِ يَلُوحُونَ بِهِ ، وَيَأْتَمِرُونَ بِطِيَشِ الْآلِهَةِ فِيهِوُونَ بِعَشْرِينَ طَعْنَةً
عَلَى وَعَلِ الْعَاشِقِ .

(أه أيها الشيوخُ، سُنْجَارِي ضَجْرَكُمْ ذَاتَ يَوْمٍ ، لَكِنْنَا لَنْ
نُوصِدَ حَبًّا كَحَبِّ دِيرَامِ بَرْتَاكِ جَفَانَا .)

حجرٌ يهوي ،

حجرٌ من جَمَشْتِ :

هذا ما يراه ديرامُ فيَهْتَفُ : انظُرْ يَا صَاحِبِي .

ويضحكُ صاحبهُ الأَرْمَنِيُّ ، فِيهِ كُلُّ يَوْمٍ يَهْوِي حَجْرٌ مِنْ جَمَشْتِ

على رُوحِهِ السَّائِلَةِ ، فَتَجْفَلُ فِيهَا السَّرَاطِينُ وَالزُّمُجُ وَالنَّدَامَى الْغَرَقَى .

حجرٌ يهوي . . .

مَنْ لَمْ يَرَ حَجْرًا يَهْوِي؟ مَنْ لَمْ تَمَسَّهُ زَعَانِفُ حَجْرِ يَهْوِي؟

ليس قصدي أن أدلِّكُمْ على حجرٍ ، لكنَّهُ يهوي ،

هو ذاته ،
ذلك الحجرُ ، حجرُ الرُّحِمِ الذي تتعثرُ به المدينةُ فتندحرجُ حروبها الخفية .

أنا الدليلُ أخبركم بهذا ؛
أنا الدليلُ أتلو هذا للغايةِ التائِهَة .
وأقول : فلا تُكنْ بسيطاً مثلَ بذرةِ السمسمِ ؛ فليتقدّمَ البسطاءُ حفاةً
على رداثيِ المبسوطِ ، حاملينَ إلى ديرامَ غنائمِ الرمادِ وذبائحَ اللّهبيةِ .
فليزدحمَ البهوءُ بالبسطاءِ .
فليمنحوني السيطَ لِيَسُوْدَ النشيدُ البسيطُ :
لِحُبِّ بسيطٍ أتلو هذا ،
لِحُبِّ مستوحِدِ كَتيسِ الجبلِ ،
لِحُبِّ لا تُمسكهُ الأغانِي ، ولا يتسلَّقُهُ اللّبابُ .

(كانتُ ديلانا ساهمةً ، ذات يوم ، تُقَطِّعُ البَصَلَ والبنجارَ ،
وتقشرُ الثومَ . كانتُ جالسةً قرب نافذةٍ تُطلُّ على حلمها ؛ جالسةً
قرب حلمِ النافذةِ المطلَّةِ على حديقةِ الشتاءِ ، حيثُ الحركةُ
الدَّوْبِيَّةُ للعرائسِ وهُنَّ يزيّننَّ الشجرَ العاريَ بسيوفِ البَرْدِ .

كانتُ ساهمةً لا تسمعُ من المطرِ إلاّ خطواتِهِ ، ومن حاشيتهِ إلاّ
ضحكةً باردةً تتحدَّرُ على الزجاجِ الباردِ .
حينذاك دخلتُ ابنتها الصغيرةُ صائحةً : «أمّاه ، كيف يرسمون
بطةً ضاحكةً؟» .

قالت ديلانا : «لا تضحكُ البطةُ يا ابنتي» .
صاحت الطفلةُ : «كان ديرامُ يرسم لي بطةً ضاحكةً» .

لم تجب ديلانا . بل أغرقت عينها .

قالت الطفلة : «هل تبكين؟» .

«إنه البصل» أجابت ديلانا ، وأطلت من النافذة ، ثانية ، على حديقة الشتاء ، حيث صخبُ العرائسِ وهُنَّ يُقَطِّعْنَ البَصَلَ الباردَ فتفروقُ عيونُ الشجر .

من سيتلو ، بَعْدِي ، خَبَرِ العرائسِ ولهوَ الشتاء؟

قلتُ : لا بُدَّ من دليل ، لا بد من خطيُّ يقودُها الدليلُ . قلتُ : لا بُدَّ من صخبٍ بعدَ هذا ، لا بُدَّ من عاشقينَ آخرَ يحرقون الأشعة ليتهاوا . . . قلتُ : لا بُدَّ من هذا كله لتكون لي غبطةُ الذهابِ إلى المهرجانِ بقطعٍ من الخنازير ، أو بقتاعِ قصديريُّ يرى الحاضرونَ عليه انعكاسَ حراهم . قلتُ هذا ، وقلتُ أشياءَ أخرى ، لكنني استرقتُ السَّمْعَ إلى المدينةِ ، إلى أعمدةِ العماراتِ وهي تفرغُ في صمتٍ طولها الاسمنتيةُ ، مُؤدَّنةٌ بمجيءِ الرعاةِ الحاضنينَ حِمْلانَ الصواعقِ . وكان البسطاءُ يسترقونَ معي السَّمْعَ ، خافضينَ أبصارهم ، وهم يرسمون ، جلوساً تحت الجسور الهاذيةِ ، أبوابَ الينابيع ، ثم يخلعونُ النعالَ ويُرِيحُونَ أقدامهم الحافيةِ في بركةِ النهارِ الحافي .

بُسطاءُ كثيرون يفعلون هذا . بُسطاءُ يُعرِّونَ في الحروبِ البسطاءَ ، وآخرون يجفلون من البؤس فيبتلهونَ إلى البؤس . وأنا الدليلُ أجعلُ الأمرَ أكثرَ لهواً ، فأقودُ إليهم الغابةَ . بيدَ أنني حنونٌ أيضاً ، أفنَعُ نفسي بأن للهبِ أَعذاره ليبقى بارداً ، وبأنَّ للكائنِ الشريدِ أَعذاره ليبقى هكذا ، جاثياً تحت الخوذةِ الكبيرةِ ينظرُ من شقوقها إلى الهزائم التي تستعرضُ ، كالأميرات ، سبايا الحاضرِ ومصائرهُ الشُعْثَاءَ . وأزاحمُ الوردَ إذ يتهادى بأقدامِ الجذورِ إلى حروبهِ النَّاعمةِ ، حروبِ الطَّلَعِ التي تتغَاوى فيها المدقاتُ كالعذارى ،

وتكشفُ الحقولُ عن فَرْجِها الوثنيِّ . . . أَلَا لَيْتَكَ زاحمتَ معي ، ديرامُ ،
 هذا كلُّهُ ؛ لَيْتَكَ أبقيتَ من لهائك ما يملأُ الرئات ابتهالاً لحضور الأُنثى ، أو
 زفيراً يتركُ على بلوْرَةِ الحقولِ بُخارَ الذُكْرِ . غير أنك هادىءُ الآن ، تُطلُّ من
 شُبَاكِكَ العالِي على فوهة المدينة ، حيث تتشَبَّثُ سحاباتٌ صغيرةٌ
 بالأسلاكِ قبل أن يبذلَّها ضحكُ الخادِماتِ من عَبَثِ الكهلِ السَّيِّدِ .
 هادىءُ أنتِ الآن ، لا تفكِّرُ في نبيذٍ ما ، أو في نَهَبٍ ، بل في الحساء الذي
 تُعدُّهُ الصديقةُ الجديدة .

ولأنك هكذا ؛ لأنك أنسلتَ من غير أن تَعْلُقَ بشياكِ أقواسُ قَرْحٍ ، أو
 تَسْبِلَ على جبينك مدائحَ العُنَابِ ، راکناً إلى مساءِ حُلُوٍ - مساءِ منشورٍ
 كالسُّكَّرِ المنشورِ على رغيْفِ الروح . . . لهذا ، لذلك ، للرِخاءِ الأَبْكمِ على
 وجهِ المُهْرَجِ ، أرخيتِ قبضتي عن الدَّرْعِ وَحَلَلتِ الغضبَ كما أحلُّ سَيُورَ
 الحذاءِ ، مُقبِلاً على الأرضِ بقناعٍ آخرَ ، بقناعِ النديمِ لا بقناعِ المُغِيرِ .

(تعال ديرامُ ، تعالِ انظُرِ الملوكَ على الصهواتِ يُظَلَّلُونَ أعينهم
 بأيديهم من الشمس ، ويتبعون الفرائسَ . تعالِ انظُرْهُم منتظمين
 صفّاً صفّاً خلفِ كلابِ مُنْتَظِمَةٍ صفّاً صفّاً ، خلفِ طبَّالينَ منتظمينَ
 صفّاً صفّاً يستثيرون بظبولهم دجاجاتِ الأرضِ وخنازيرها . أبهيئونَ
 ديرامُ ، أبهيئونَ على شطرنجِ أبهييِّ . ملوكُ أبا عن جدِّ ، وصاعقةٌ عن
 صاعقة . تعالِ ، تعالِ نتوسِّطُ الملوكَ . تعالِ ندلُّها على رعيَّةٍ حَسْبِها
 أن ترى الملوكَ ، تعالِ ندلُّ الملوكَ على مُلكها . ولنكنَ نديمينَ ، فلمْ
 تُهييءُ الممالكُ مغازلها بَعْدُ ، والنسَّاجونَ لم ينهضوا . ألسنتُ تريدُ
 هذا ديرامُ؟ يقولُ صاحبه الأرمينيُّ .

لكن ديرامُ ساهمَ ، يتفكَّرُ في العماراتِ المغلقةِ ، والزهرِ المتدلِّي
 على شرفاتها مثلِ خصيَّةٍ مقطوعةِ .)

هذا عالمٌ يُتلى . هذا حَبْرٌ يُتلى . وديرامٌ ممسكٌ بريشةِ الجذورِ يخطُّ رسائلَ للضبَابِ الوالي ، هادئاً ، لا يفكرُ في نبذِ ما ، أو في نهبِ ، بل في النهرِ المُعلَّقِ فوقِ المدينةِ ؛ النهرِ الأغرلِ الجسورِ ، الذي يهيمُ أعشاشُهُ للهآتِ الأسلحةِ ، ويستطلعُ الحجرَ . وديرامٌ يُحصي من شرفتهِ مُلوَكاً يبرؤون ، ومالكٌ تجتازُ الطريقَ متوكِّئَةً على عصيِّ البازلتِ ، ناقرأً بأنامله على غشاءِ المشهدِ ، كأنما يستوقفُ الغبارَ العابرَ ليُحمَلُهُ زهرةً ما ، أو طيلاً ، إلى الأعيادِ التي تتَهَرَّأُ نعالها من الرقصِ على المياهِ . ويرفعُ بصرَهُ ، ثانيةً ، إلى الأعلى ، إلى النهرِ الجسورِ ذاته ، المُعلَّقِ بكلايبِ الآلهةِ ، صارخاً :

«لماذا تتبعني أيها النهر؟

لماذا تنفخُ في بوقك النُجَيْليِّ فيصعدُ المنشدونَ إليك ، حاملينَ أعضائي في بُرعم ، ويقظتي في أباريقِ الصلصالِ ؟ .

لماذا تُريني القرى بين عُقرتَيِ إبْطِيكِ ،

وتحزمُ المدينةَ ، في جَرَيانِكِ ، بحبلٍ من السيفيرِ وزيزفونِ الطمي

كحزْمَةِ الشوفانِ؟

لماذا تتبعني أيها النهر؟

لماذا تحملِ قنديلِكِ ، والأرضُ واضحةٌ كما ترى؟ أنيصُ أنتَ ، بأشواكِ

فضيَّةِ ، أم مَرْمُوطٍ يقضمُ جذوعَ الحروفِ؟

مَهْلاً إن كنتَ سهمَ الشمالِ ، أو نُورِجَ المحاربِ ، مهْلاً مهْلاً ،

لكَ أعيادُكَ ، ولي أعيادي ،

وكلانا عالقانِ في شَبْكَةِ المساءِ الحُلُوِّ ،

المساءِ المنثورِ كالسُكَّرِ على رغيِّ المدينةِ .

وكلانا جُرْنٌ تطحنُ العاصفةُ فيه عَدَسَهَا ،

فلماذا تتبعني أيها النهر؟

لماذا تكشفني لنخيلِ البحرِ المُتَشَحِّحِ بهزائمِ الساهرينِ ساهراً يُوجِّجُ

الحقول، ويُحَرِّضُ النِّبَاتَ عَلَى الأعمدة؟

دعني أيها النهر،

دعني في مدايِ المُغْلَقِ بثلاثين كبشاً، وسريرٍ واحدٍ تتخاطفُ النساءُ
عليه مملكةٌ لم تَكْتَمِلْ.

... وديرامُ يتبعُ بعينيه، من الشُرْفَةِ، حَجَلَ المدينةِ يَحْتَالُ قُرْبَ
الغامضِ المُتَمَدِّدِ كَالنَّمْسِ فِي الظهيرة؛ بل يتبعُ بعينيه السحابةَ المُدْتَرَّةَ
بالكسلِ ورائحةَ الحارِ، ويرجعُ إلى غرفته هادئاً، يتفكَّرُ في ما مضى، في
يَدِ مَرَّتْ عَلَى شَعْرِهِ فَأَفَاقَتْ المِياهُ.

(الصديقةُ الجديدةُ تُعدُّ الحساءَ .

الصديقةُ الجديدةُ الغبيةُ تُعدُّ الحساءَ .

الجميلةُ الغبيةُ تُعدُّ الحساءَ .

الجميلةُ الغبيةُ الجديدةُ ترمي على السريرِ ذاته، العابقِ

بديلانا .

لكنَّ الذِّكْرَ ذَكْرًا، لا يخذلُ أنثى حين تراهنُ بشديبيها على

ينابيعِهِ .)

لو تَرَبَّنَهُ ديلانا، لو تَرَبَّنَ دِيرَامَ، لأقفلتِ النافذةَ التي تُطَلِّينَ منها على
عرائسِ الشتاءِ، لهرعتِ نازلةً إلى سراديبِ الأرضِ تَلْمِيزَ جُذُوراً نَسِيَتْهَا،
ورياحاً نشرتِ دِيرَامَ على شراعِكِ العالِي . فَلَشَدُّ ما تخجلين من سريره
المدعوكِ بأنثىٍ أُخرى، ومن يدِكِ اللّتينِ سَوَّيْتَا ملاءَةَ السريرِ، ذاتِ يومِ،
لِيَنْقُرَ لَهَا ثُكْمَا، كالعصافيرِ، حُجْبَرِ الوَسَادَةِ . لكنك لا تَرَبَّنَ شَيْئاً ديلانا،
إنَّما يشقُّ عليكِ أن تسمعي رفيفَ قُبَلِ هناك؛ قُبَلِ كان حَرِيّاً بها أن

تُسْتَنْفَدَ فِي الْحَصَارِ الضَّارِي لِأَعْضَائِكَمَا الضَّارِيَةِ .

لو ترينه ديلانا ، لو ترينه الآن ، لَوَدَدْتَ أَنْ تَعُودَ ابْتِنَاكَ إِلَى الْهَيْسَةِ
الأولى ، مَحْضَ بُونِضَتَيْنِ لَا يَدْفَعُهُمَا الْمَنِيُّ إِلَى مَقَاصِيرِهِ ، وَلَوَدَدْتَ أَنْ لَمْ
يُبْحِكَ عَقْدٌ لِأَحَدٍ . لِرُكُضَتِ حُرَّةٌ كَحَرِيفِ حُرٍّ يَنْفِضُ الْفُصُولَ عَنْ جِسَدِهِ
الْفُخْلِ وَيَسْتَوِطُنُ الْعَارِي . لَقَلَّبْتَ صَحْنَ الْحَسَاءِ ، وَأَعَدَدْتَ حَسَاءَ آخَرَ ،
وَقَلْتَ لِمَصْدِيقَتِهِ الْجَدِيدَةِ : « هَذَا لِي » ، ثُمَّ حَضَنْتِ دِيرَامَ حَتَّى امْتَدَّتْ
جَذُورُهَا ، عَمِيقًا ، فِي أَعْمَدَةِ الْعِمَارَاتِ وَأَسَاسَاتِهَا . غَيْرَ أَنَّكَ جَالِسَةٌ
قَرَبَ النَّافِذَةِ الْمُطَلَّةِ عَلَى رِثَةِ الشِّتَاءِ ، لَا تَفَكِّرِينَ فِي الْعِرَاسِ الرَّاكِضَاتِ مِنْ
شَجَرَةٍ إِلَى شَجَرَةٍ بِعُقُودِ الْبَرْدِ ، أَوْ فِي الْأَرْضِ الْمُتَلَفِّعَةِ بِفَرَائِهَا السَّنْجَابِيِّ ،
بَلْ فِي خَيْطٍ مِنَ الدَّمْعِ لَا تَعْرِفِينَ أَسْأَلَهُ الْبِصْلُ ، عَلَى الْمَائِدَةِ ، أَمْ حَنِينُ
الْأُنْثَى إِلَى مَدِيحِ بَحْرِيٍّ .

هكذا يتفكرُ ديرام .

هكذا تتفكرُ ديلانا .

والمكانُ مدينةٌ تتقدمُ صوبَ خَصِيَةِ الْبَحْرِ الزَّرْقَاءِ .

ليس هذا شأنِي ، أقولُ : ليس شأنِي أَنْ أُجْرَّ أَيَامَهُمَا إِلَى الْكِتَابَةِ
بِرِسْنٍ مِنَ الْفَوْقِ أَوْ الْأَقْحَوَانِ . وَأَقُولُ : دَعَّهْمَا هَادِثَيْنِ ، فَهَمَا يَجْفَلَانِ إِنْ
نَشَرْتَ عَلَيْهِمَا رِذَاذَ الذَّاكِرَةِ الْحَامِضِ . . . لَكِنْ ، لِمَنْ أَتَلُو هَذَا إِذَا لَمْ أَوْقِظِ
الْمَوْجَةَ الْحَامِضَةَ - مَوْجَةَ الْغُرُوبِ الْمَضْمُومَةَ عَلَى صَلِيلِ ، وَارِثِ ضَانِعٍ؟ وَإِذَا
لَمْ أَهْيِءِ الْمَسَاءَ لِعِصَّةٍ يَخْتَرِقُ نَابُهُ فِيهَا الْأَرْضَ مِنَ الشَّدِيِّ إِلَى الشَّدِيِّ؟ ؛

فَلتَأْتِ الْأَبْجِدِيَّةُ وَسَلَالِمُهَا ؛

فَلْيَأْتِ الْقَلْقُونُ وَكَابُوسُهُمُ الْمَلِكِيُّ ؛

فَلْيَأْتِ شَبِيهِ ذُو الْخُوذَةِ الْخِزْفِيَّةِ ، فَأَنَا الدَّلِيلُ لَنْ أُرَيْنَ الظَّلَامَ ، بَعْدَ

هذا، إلا بالحمى؛ لتبسطن الحمى أعماقها كورقة العرعر فتنن من حولها
بعوضة الحياة، ولا بسطن أعماقي المرحّة كورقة العرعر فيتدحرج عنها ندى
الحمى والأبجدية والقلقون، أما شبيهي فسيتلو الغبار كلمة كلمة، جالسا
كالملقن وراء الشعاع الأخير الذي يضيء الطعنة.

... آه، لم يكن دأبي الغضب. لم أرذ إلا أظلّ دليلاً يقود عاشقين
إلى سمس ومديح، غير أن الكهول ذاتهم - الكهول الذين يهدهدون
الأرض كلّما أفاقت، ويموهون الوقت - يكسرون بوصلة دليل مثلي يفتح
لبنائهم، ونسائهم اللواتي لم يُفعلن فضاءهنّ بعد، ممرّ الأنثى إلى
مصّبها.

لهذا ينث الغضب خمائرّه الأدميّة،
ولهذا أنفخ في بوق المغيب، داعياً شبيهي السديميّ ألى الوليمة؛
داعياً الأشكال إلى مسيل آخر يدحرج نردّ الجوهر من حليب إلى حليب،
فيرضع النقيض النقيض، والهباء الهباء.

... وماذا أتلو لهذا الهباء، ربّ، ماذا أتلو؟
لا كتبةُ الجذور يُملون عليّ، لا الفجيعة تُملي، بل أرتجل، ولازنجالي
فخاخ تتخبّط فيها الطيور والبطولة.

(كان ديرام يرتجل مثلي مهاراته السهلّة خالطاً بين البرق
والنرجس، فتضحك ديلانا لعذوبته التي تختال بذيل كذيل
السّجّاب. وكان يُكنّي طُرق المدينة بأسماء الينابيع والهوام،
فتبتسم ديلانا لبداهته التي تختال بذيل كذيل الهدهد. لكنه
حين يريها يديه المبتلّتين بظلال الكينا وعويل السنابل، تجهش
بالسنين فتجهش السنون برنين يوقظ الأسلحة.)

رب ، لماذا جعلت دليلاً مثلي يقود المكانَ الثقيلَ بأعراسه وراء الخطيئة
الثقيلة؟ لماذا مكنتني من مساء لا يستسلمُ فاخترتَ الظلامَ كُلَّهُ في ياقوتة
تسدُّ على صدري؟ لماذا جمعتني هكذا : رُبَّعَ مياه ، رُبَّعَ صليلٍ ، رُبَّعَ
هاوية ، رُبَّعَ مديحٍ لا يُمتدِّحُ به إلا الغامضُ ؟ . لقد تَبِعْتُ الزوبعةَ الأعلى ،
والغبارَ الأكثرَ بهجةً على قناعِ الحارِبِ ، حنوناً كالقوضى ، وطبيعاً كأنما
أثْمَرْتُ جُسُورِي بالعويلِ فَوَصَلْتُ الخرابَ بالخرابِ . وتبعْتُ الحباحبَ
الذهبيةَ تصعدُ من أنينِ السهولِ ، كأني وصيفُ السهولِ أشاركها أرقَ
العشبِ ، أو أغزو بفأسِ كُلِّ ملكٍ لا يُسْرَجُ لأعياده جيداً الخزامى . وها
وصلتُ المدينةَ ، ففي كُلِّ مُعْطَفٍ مني شَبْحٌ ، وفي كُلِّ نَهَبٍ مشجَبٍ لي ،
يُعلِّقُ الغامضونَ عليه رياحهم كقميصٍ .

(لم تعرف ديلانا ما الذي أرقها : كان فتىً كالأخرين ، نحيلاً
جداً ، وحزيناً جداً .

لم تعرف ديلانا ما الذي أرقها : كان جالساً قبالها ، تلك
الليلة ، لم ينظر إليها ، بل تَمَتَّمَ قليلاً عن بلادِ الشَّمالِ .

لم تعرف ديلانا ما الذي أرقها : كانت يداه الخجولتان تمسكان
كأسَ الماءِ في ارتعاشة ظاهرة ، وكان مُطْرِقاً ، كان مُمَعِناً في
الإطراقِ ، كأنما يختبئُ في أمومةٍ لم تفتَحُ بعدُ .

لم تعرف ديلانا ما الذي أرقها ،
لم تعرف ما الذي أرقَ أعوامها الأربعين .
غير أن الليلةَ تلكَ - الليلةَ المفطومةَ عن أنداءِ الظلامِ التي لا

تُحصى ، وذات القناع الرطب ككل قناع يصطحبه البحر إلى
المهرجان - لم تجمع نكهتها وقواريرها عن سرير ديلانا ، ولم تغادر
الغرف .

تلك الليلة ضربت النهار التالي ، والليالي التالية ، ولم تقم
عن كرسيها في الغرف .

ليلة مديدة ،

وأرق مديد ،

وديلانا تكسر صورة الفتى ، وتجمع صورة الفتى .

وأنا أجمع عاشقين ،

أجمع لوز حنينهما ،

راكضاً بأشجار البطم والبتولا من سهل إلى سهل ، لتستظلني
الكمان الحية إذ تنتظر يرابع الملوك ، أو بجع الأرض الهاربة . راكضاً
بالفجعية ؛ راكضاً بالكؤود والغزالات والشعالب والظربان وأكباش الجبل ؛
راكضاً بالغابات ؛ راكضاً بالمياه ، بالمعادن وملائكها ؛ راكضاً بالغيوم ؛ راكضاً
بالجهات ، بالأختام كلها ، بالبراكين والفاكهة ، بتوائم الثلوج ؛ بالأبجدية
والأنقاض والينابيع ، حتى باب البحر ، وهناك أرتدي قلنسوة الزبد الوالي
ريثما تهروك المدينة الي بجزيتها ، أو يُنتهك الهواء ، من جديد ، بأنفاس
عاشقين .

لماذا ، رب ، أُسيج المكان بهذا الغضب كله ، من أجل عاشقين نسيًا ،
الآن ، ما كان يُصير دمه حَجَلًا في العروق؟ ألاني كنتُ الدليل

فَأَسْلَمْتُهُمَا إِلَى خَاتِمَةِ كَالْبَلَابِ تَسْلُقُ زَرَدَ الْمَدِينَةِ ، أَمْ لَأَنِي أَرَى كُلَّ
دَلِيلٍ يَنْتَهِي ، مِثْلِي ، إِلَى بَابِ الْبَحْرِ ، يَرْتَدِي قُلُوبُ الزُّبْدِ الْوَالِي وَيَحْلُجُ
الْيَابِسَةُ ؟ . . . أَهْ أَيُّهَا الْغَضْبُ ، كَمْ يَدِلُّكَ ، كَمْ مِخْبَرَةٍ تَغْمَسُ فِيهَا رِيشَةُ
الْجَحِيمِ النَّبِيلَةِ !!

(فَلَأَدْعُ دِيلَانَا ، قَلِيلاً ، لَشَأْنَهَا ،
فَلَأَدْعُ دِيرَامَ ، قَلِيلاً ، لَشَأْنِهِ ،
وَلَأَذْكُرُهَا ، ابْنَةَ دِيلَانَا ، ذَاتَ الْأَرْبَعَةِ عَشَرَ عَاماً ، الَّتِي رَأَتْ كُلَّ
شَيْءٍ ، فَوَدَّتْ أَلَّا يَعُودَ أَبُ إِلَى بَيْتِهِ قَطُّ .
كَانَتْ يَكْرَهُ بَيْتَهَا ، وَسُلْطَانَةَ الْبَيْتِ . حُلُوةٌ بَيْنَ أَتْرَابِهَا لَا تَتَمَنَّعُ
عَلَى مَدِيحٍ ، وَيُسْكِرُهَا أَنْ تَرَى الْأَرْضَ رَاسِيَةً فِي بُرْعَمِينَ عَلَى
صَدْرِهَا .

كَانَتْ الْأَكْثَرَ اخْتِيَالاً ؛ مَحْبُوكَةً كَشِرَاعٍ صَغِيرٍ .
لَمْ تُحِبَّ أَحَدًا قَطُّ ؛ لَمْ تَبْلُغْ بَعْدُ أَنْ تُحِبَّ ، وَكَانَتْ تَتَفَاوَى ،
حُلُوةٌ تَتَفَاوَى ، مَغْزُولَةٌ بِغَمَامِ الطَّفُولَةِ الَّتِي تَتَلَقَّتْ فِي مَرْحٍ وَهِيَ
تَخْرُجُ مِنَ الْبَابِ .

لَمْ تَكَلِّمْ دِيرَامَ كَثِيراً ، لَكِنَّمَا تَرَاهُ ، وَتَمْنُ - إِذْ تَرَاهُ - فِي الْمَسِ
رُوحِهِ الْجَالِسَةِ مِثْلَهُ قِبَالَةَ أُمَّهَا : رُوحٌ خَجُولَةٌ وَجَسَدٌ خَجُولٌ .
تَعُودَتْ تَرَاهُ هَكَذَا ، وَتَعُودُ يَرَاهَا هَكَذَا ، حَتَّى إِذَا مَرَّتْ بِهِ -
ذَاتَ مَسَاءٍ - مَرُوراً سَاخِراً ، هَبَّ وَأَلْوَى يَدَهَا .

لَمْ تَنْظُرْ - وَهِيَ الطَّافِحَةُ بِإِطْرَاءِ الْأَخْرَيْنِ - أَنْ يَهَبَّ خَجُولٌ
خَشِنٌ فِيلُوي يَدَهَا .

وَمِثْلَ طِفْلَيْنِ تَنَاهَبَا اللَّعْبَ الطَّائِشَ : تَسَخَّرَ مِنْهُ ، مَرَاراً ، فِيلُوي
يَدَهَا مَرَاراً . تَشَدُّ شَعْرَهُ فَيَشُدُّ شَعْرَهَا . تَشْتَمُّ فَيَشْتَمُّهَا . حَتَّى كَانَا

وحدهما . ذات يوم ، وكانت منحنيةً ، قريبةً إليه بفمها ، بعدَ ما
لواها ، فشدّها أكثرَ ، شدّها فتناثرَ عقدُ القُبْلِ ، فتدحرجتُ من فمها
إلى العنقِ وغطّتُ أرضَ البيتِ .

ظلاً صامتين بعد ذا .

يومٌ ، يومان . صمتٌ وقبْلٌ بعدَ الصمتِ وقبْلُهُ .

أه ، كانت سنبلةً موّهتٌ طريقه إلى حقلِ السنابلِ قليلاً .

غيرَ أنّها رأتهما ، رأَتْ رعداً ناعماً من سُمّاقٍ وزنبقٍ يتأرجحُ بين
صدره وصدرِ أمّها ، فودّتُ ألا يعودَ أبٌ إلى بيته قطّ .

ودّتُ ألا يعودَ أبوها . ألا يعودَ الذي لم يُسَيِّجْ قلبَ أنثى أزاحَ
قلبها عن مسيلِ ديرام) .

حنائيك يتها الأبدية ، يتها المحفورة مثلي على خوذة ، سأصلحُ من
هَيَاتِي قليلاً ، سأصلحُ من هيئةِ اليابسة ، وأنسِقُ المِاءَ إناءً إناءً على
مَسْطَبَةِ الروحِ قبلَ تدخلِ العدمياتُ بنبالهنّ الأجريةِ يقنصنَ الكواكبَ
وتوابعها ؛ قبلَ أن يخرقنَ مطالعَ الأغاني بحروفٍ ملوّنةً ، أو يطعننَ الغزاةَ
الحائمةَ حولَ أبجدية لا تُرى . وسأصلحُ من هيئةِ الليلِ فيدخلُ الحُلْمَ
طائشاً في عبااته الطائشة ، فأنا الدليلُ لن أدلّ أرضاً ، بعد هذا ، إلا على
رُعبها . سأزِينُ الرعبَ بقنزعةِ البغاءِ ، وسأمتدحُ حدّاديه المَعْفَرِينَ بهَبَابِ
الأقدارِ . بل أنا الرعبُ الدليلُ ستتبعني الأنقاضُ ، ويستهدي بي هدهدُ
الهباءِ الأخيرِ :

هكذا أعزو إلى نفسي ما تعزوه المناجلُ إلى نفسها .

وأشرُدُ ، إذ أقول هذا ، شرودَ ديرامَ على الشُرْفَةِ الغيبيةِ ، ناظراً إلى البوقِ
الأبعدِ ، بوقِ النهارِ المُلْتَمَعِ تحتَ مبيضٍ مُرٍّ . ناظراً إلى الأفقِ يتهادى بجلده
الصُّبْبَانِيّ بين الخوذاتِ ، ثم أغمضُ عيني فاستعرضُ ولاةَ النهارِ ، الولايةَ

الأكثرَ بطشاً في النهارِ ، الأكثرَ مَرَحًا في الليلِ ، وأستعرضُ نساءَهم
اللواتي يعرِّينُ الخادِماتِ لكلا بهنَّ ، هناك ، في الأرضِ التي تتدلَّى كعنقودٍ
من داليةِ الغروبِ الأبدِيِّ : ولاءٌ ، ونساءٌ ولاءٌ ، ودورٌ واحدٌ يصعدُ الممثلون
فيه إلى المسرحِ وينتحرون .

شاردٌ أنا ، شارِدٌ ديرًا على الشُرْفَةِ الشاردة ،

وأماننا تتمطى جُسُورٌ وعماراتٌ ،

بيوتٌ ومياهٌ تتمطى ،

وتتمطى ديلانا التي تُعدُّ العشاءَ لابنتيها فيسقطُ الصَّحْنُ من يدها ،

يسقطُ الصَّحْنُ من يدِ كلِّ امرأةٍ ،

فيتناثرُ على مساءِ المدينة .

(ضجيجٌ في العُرفِ ،

ضجيجٌ صحونٍ تتناثرُ ، وأطفالٌ يتشاجرون .

ضجيجٌ أسرةٍ في العُرفِ ،

ضجيجٌ نزوحٍ وشبقٍ وعظامٍ كهولٍ يتشاجرون ،

ضجيجٌ ألعابٍ في العُرفِ ،

ضجيجٌ ورقٍ للكتابةِ وكتبةٍ يتشاجرون .

ضجيجٌ نشيدٍ في العُرفِ ،

ضجيجٌ محارِبٍ وثيرانٍ وموتى يتشاجرون .

ضجيجٌ نبوةٍ في العُرفِ ،

ضجيجٌ غيومٍ وخطىٍ وألْهةٍ يتشاجرون .

أوصدي النافذةَ ديلانا ،

أوصد النافذةَ ديرًا ،

قبل تسمَعاً قَرَعَ الحاضِرِ الغضبانِ على البابِ ،
طالباً معطفهُ ،
وقُقارِزِهِ ،
وحذاءهُ العالِي ليمضيَ خارجاً .)

كلُّ شيءٍ شارِدٌ ،

والأفقُ يتمطى ،

فلماذا حزنتك ، هذا ، ديرامُ؟

غير أن ديرامُ ، الذي تُعدُّ صديقتهُ الجديدةُ الحساءُ ، يكوُمُ تحت معطفِهِ
الغيومِ ، والجُسورِ ، والعماراتِ ، والمحابرِ ، ويبكي .

لطالما تمنيتُ أن أذرفَ نشيداً غير هذا ، وأن أمجِّدَ الفراشاتِ لا
الحديدَ . لطالما حنَّتُ إلى شبيهي الذي يعابثُ الينابيعَ فيخبئُها تحت
أسماله النباتية ، أو يختبئُ في الينابيعَ فترشدُ الحقولُ إليه الحقولُ ،
والجذورُ الجذورَ . لطالما صرختُ من سُرفتي : «تقدِّمُ أيها الشُّبيهُ» ، فينفِرُ
راكضاً ، تُجَلِّجُ في قدميه خلاخيلُ النهرِ ، فلا يقفُ إلا خارجَ المدينةِ ،
حيث يرفعُ يديه عالياً فتتقاطرُ الكائناتُ المرحَّةُ والبروقُ والعرباتُ التي
تحملُ إلى القرونِ دروعَ القرونِ . لطالما لحتهُ يعبرُ نافذتي في قناعِ السنابلِ ،
صقيلاً كمامةً ، تتلألأُ في عينيه مَجْرَّاتٌ من الدمعِ والأشكالِ . لطالما نظرتُ
إلي نظرةَ الشقائقِ فاهتزَّ قلبي ، لكنَّما البعدُ يُمعنُ في ركضِهِ ، والقريبُ
يجتاحُ ، فلا أراني إلا في نشيدي هذا ، في كَمِينِ النشيدِ ، رابضاً للوقتِ
بفأسِ فُحَّارِيَّةٍ وحفنةٍ من أنينِ نثرتهُ ديلانا حولَ بيتها .

يا للأنينِ إذا ،

يا لهبوبِ الأنينِ :

لم يبقَ عاشقٌ . كلُّهم مضوا . كلُّهم دحرجوا جُمَانَةَ الروح الكبيرة إلى المنحدرِ
ومضوا . كلُّهم أفاق ، ذات صباحٍ ، فألقى قلبُهُ نائماً بَعْدُ ، فانحنى ومضى .
يا لِلأنين إذا :

يخلقونَ أمواجهم ويكسرونَ الصواري .
فَلْتَنَمَنَّ يا قلبُ فَلْتَنَمَنَّ قليلاً . فما أنت إلا دُنْ يتعاقبُ الضائعون عليه ،
أو الغزاةُ الذين يعبثونَ بالفتوحِ وينسونها .

فَلْتَنَمَنَّ

فَلْتَنَمَنَّ

(لم تنمَ ديلانا بَعْدُ .

نامَ بَعْلُها ولم تنمَ هي بَعْدُ .

نصفُها لديرَامٍ ، ونصفُها لابنتيها .

نصفها لبيتٍ ، ونصفها للعرءِ .

إنها حَيْرَةُ العصورِ والمكانِ

إنها حَيْرَةُ النشيدِ الأيكمِ إذ يُنشدُهُ الجَسَدُ بين حبيبٍ وبَعْلٍ .

إنها حيرةُ الخيَارِ كُلِّهِ ، حَيْرَةُ الحَبْطَةِ التي تُفَجِّرُ ما يأتي ، أو

تححو ما مضى .

آه . . . نصفها ساهرٌ هناك . ونصفها ساهرٌ هنا .

فَلْتَنَمَنَّ ،

فَلْتَنَمَنَّ أَيُّها الهادي .

(لم يَنَمَ ديرَامُ بَعْدُ .

نامتْ صديقتُهُ الجديدةُ ، ولم يَنَمَ هو بَعْدُ .

نامت المدينة والأنقاضُ ، ولم يَنَمْ هو بَعْدُ .
نامتَ الجُسُورُ ولم يَنَمْ هو بَعْدُ .
نامتَ المياهُ والغيومُ والأرواحُ ولم يَنَمْ هو بَعْدُ .
نامَ الشجرُ ،
والسهلُ ،
والحكَاياتُ ،

ولم يَنَمْ هو بَعْدُ .
نامَ الغاصبونَ ، ونامَ المساءُ ، ولم يَنَمْ هو بَعْدُ .
كُلُّهُ لَدَيْلَانَا ،
كُلُّهُ لِحَيْرَةِ لَا تَصِلُ أَحَدًا بِأَحَدٍ .
أه ، لم يُحَيِّرْ فِي الأَمْرِ :
جَاءَ الكَهُولُ وقضوا أن تَظَلَّ دَيْلَانَا لِبَعْلِهَا) .

فَلْتَنَمَنَّ ،
فَلْتَنَمَنَّ أَيُّهَا الهَاذِي ،
فَمَا قَلْبُكَ إِلَّا قَلْبٌ ، وَمَا أَنْتَ إِلَّا دَلِيلُ عَاشِقِينَ لَمْ يُكْمِلَا نَهَبَ
رُوحَيْهِمَا .

ديرام

هو ما أخبرتكم، هو ما أخبرت الصلصال والهواء: فتى رهيف
 كأمسية هيئاتها النساء لمديهن. فتى خجول، ساق الجداول طمي
 أعماقه إلى البحر، فتصيدته مصبات الحجر. كان يجفل، أول الأمر، من
 الحجر الصاخب، الحجر المديد ذي النوافذ، المتبرج أبدأ ككاهنة الحرب،
 غير أنه تقلد دهاء الوالي فاستنسخ طباع الجسور، وبارك الجموع التي لا
 تبتمس. لم تكن سلاماً تلك الهدنة، فالحقول التي واكبته بأجرامها
 الخنشارية ظلت تنفخ في بوقها، حيناً بعد آخر، وظلت صباحات الشمال
 تشهد، قرب المدينة، مناجل الحنين... إليه ديرام، كنت تقول: «بقبلة
 تبدأ الملهاة».

بقبلة تبدأ الحرب كلها.

بقبلة خفيفة تتمجد رويداً رويداً،

وتكتنز كما يكتنز الخنوص.

بقبلة يبدأ هذا كله،

بقبلة خفيفة تمتلئ بصخب رجل وامرأة، بصخب جسدين يجوفان

موجة العصل ليخبئنا أعضاءهما، كل في مقبرة الآخر الحية.

هكذا يكتمل جدال رجل وامرأة، جدال أحشائهما، حيث يستيقظ

ورث القبلة الخفيفة ليرث الغضب كله، والملهاة كلها.

كنتَ تقولُ هذا ديراً ، وتنفخُ بوقَ الحقولِ ، رهيفاً كأسمية هياتها
النساءُ لمديحهن . لكنك أنسلتَ إلى الوحشةِ ، أخيراً ، لتسمعَ التّفيرَ
الأبعدَ ، النفيرَ الذي لا يوقظُ إلا الأناض .

ديلانا

كلُّ يومٍ تفتحُ البابَ ذاته لابنتيها .
كلُّ يومٍ تُعدُّ المائدةَ ذاتها لابنتيها .
كل يومٍ تتفرّسُ البعلَ ذاته .

وهي
منذُ

عشرين
عاماً .

تتفرّسُ البعلَ ذاته .

وعَدها هو العَدُّ الذي مضى ، عَدُّ الحركةِ ذاتها والشُرودِ ذاته .
هي ما أخبرتكم . هي ما أخبرتُ الصلصالَ والهواءَ ، وقد أنسلتُ إلى
الوحشةِ ، ثانيةً ، لتسمعَ التّفيرَ الأبعدَ ، نفيرَ أعوامها الواقعةِ ، كالوشقِ ،
على هضبةٍ لا فرائسَ حولها .

التّيَل

حكيمُ الفصيحةِ ، بله الحكيمُ الأبهى ، يرفعُ شارةَ الحيوانِ ونذورهَ إلى
ملوكِ العراءِ ، صاعداً هابطاً ذلكَ السفحَ الصخريّ المُشرفَ على خيامِ
المغيّبِ ، حيث أوت الصواعقُ إلى السريرِ ، وتركتُ نارها ، خارجاً ، توقظُ

في الظلال مُجَوَّنَ الظلالِ ، وفي الهواء طيشةً المللكي .
حكيمُ الفصيلةِ الصامتُ يرفعُ قَرْنَيْهِ ، عالياً ، فوق غمامِ الجبلِ ، كَمَنْ
يُرْشِدُ الحجرَ الشارد .

الْوَشَقُ

السليْلُ الحائِرُ بينَ سَكَلِ القِطْةِ وشكلِ النَمْرِ ، سليلُ الهِرَّةِ وروحها
الباكية ، يقتربُ ، في حذر ، من طريدته الأَخيرةِ ، زاحفاً تارةً ، مهولاً تارةً
أخرى ، مُلَطَّحُ الشارِبينِ بدمِ فريسةٍ لم يجفُّ بَعْدُ ،
إنها الطريدةُ الأَخيرةُ للسليْلِ الحائِرِ ، فهو لا يسمعُ ، في بُرْهاتِ
انشغاله المثيرِ الآنَ ، الزُخْفَ الصامتَ لشبيهه الأَقوى - كَوَجْرِ الصنْحورِ .
لكنه سينقضُّ ، بعد قليل ، على الطريدةِ ، وسينقضُّ عليه الكَوَجْرُ .
أوه ، أيها السليْلُ ، إنها الطريدةُ الأَخيرةُ .

السَّلُوْقِي

إنك الرّهانُ ،
وليس عليك ، أنت الرُشيقُ ، أن تهدأَ قطُ .
ستركضُ طويلاً .
ستظلُّ راکضاً من دغلٍ إلى دغلٍ ،
ومن هَوْرٍ إلى هَوْرٍ ،
تنقلُ الطرائدَ القَتيلةَ ، بضمك ، عبر المياهِ ،
أو تستنفرُ البَطَّ ودجاجاتِ الحقولِ على مرمى سهامِ الصيادين .
مدلُّلٌ أنتَ ، ولكَ الحَظوةُ في الطعامِ الأَنقى ،
لكنهم سيسدُّونَ إليك ، ذات يومٍ ، رَمِيَةَ المُشْفِقينَ ، أنْ تخذلَكَ

قوائمك النحيلة ، ورتاك اللتان تشممتا مخابىء الفرائس المدعورة ،
وستحيا ، من بعدك ، طويلاً طويلاً ، طيور شتى ، وحقول لم يطأها أسياذ
يتبعون كلابهم .

الهدهد

كأنما عرلتك الطيور ،
كأنما أفقت ذات صباح فاستوحشت المملكة فاعتزلتها ، هارباً من
الينابيع إلى الينابيع ، وليس لك من سيماء الملك غير فنزعة وطبع كطبع
الكهول .
غير أنك مرصد حي ،
يسمع الياس تحت جناحك طول المياه .

البشروش

الرزين الأبكم يُفرد جناحيه فوق البحيرة ،
منقاره إلى أسفل ، وعيناه تستطلعان الحركة المرحّة لشعابين المياه
وذباباتها الخضراء .

لشد ما يريد الطرائد حزينة حين ينقض من الأعلى ،
لكنها مرحّة بكماء ،
مرحة في المياه المرحّة ،
وذلك ما يحزنه ،
ذلك ما يحزن البشروش الأبكم فيظل منقضاً ، سلاة إثر سلاة ،
على المرح الأبكم للمياه .

تدحرجُ حَبَّةُ البندقِ الأولى من الأعلى .
تدحرجُ الحَبَّةُ الثانيةُ ، والثالثةُ ، والرابعةُ ، والخامسةُ ، والسادسةُ من
الأعلى .
حَبَّةٌ حَبَّةٌ يتدحرجُ البندقُ تحت الشجرةِ البلهاءِ ، الشجرةِ التي يجمعُ
السَّنْجَابُ ذَاكِرَتَهَا حَبَّةً حَبَّةً ، ويدحرجها إلى وَكْرِهِ .
ذَاكِرَةٌ من البندقِ تدحرجُ ، كلُّ عامٍ ، حَبَّةً حَبَّةً ، إلى وَكْرِ الأَمِيرِ ذِي
الذَّيْلِ المَرِحِ ، والشجرةِ تَنْسَى .

بِالشَّبَابِ ذَاتَهَا،

بِالشَّعَالِ الْتِي تَقُودُ الرِّيحَ

فهرست الكائن

الحيوان الأخير

هذا هو أنت ،
أيها المنتفض تحت بروقِ الحبرِ . هذا هو أنت ،
وقربك ظلُّ سكرانُ ،
ظلُّ مما تلقيه الأرضُ ، في غروبها ، على رغيغِ الكائنِ .

هذا هو أنت ،
صلبٌ كروح صلبة يرنُّ على حوافها قرعُ عكاكيزِ الظلامِ المائة ،
وخلفك مائة من النساء يطحنن ، في جرنٍ واحدٍ ، يقظة البطولة .

هذا هو أنت ،
دأبك دأبُ المؤرخ ، لكن تؤرخُ المياه وحدها .
بسيطاً تؤرخُ المياه . بسيطاً تغوي الحبر ليتهياً الحبر لسباتِ الكلام ،
لتبقي وحدك يقظان في حلم الحروف ؛ يقظان حتى آخر انتحارٍ
للأرض قرب مرآتها .
تهياً ، إذأ ؛
تهياً للذي ينثر الحديد في روحه ،

ويحرثُ المساءَ بمحاريثِ البحرِ .

تهياً أيتها المبدّرُ شموسةُ ،

سيأتي المهرجونُ ، وحاملاتُ اليقطينِ اللواتي يعضنَ الفحمَ بأسنانهنَّ
النهريةِ . سيمتدحونكُ ، جميعاً ، بيوقٍ واحدٍ ، كما يمتدحُ الموتى موتهم
بيوقِ الظلامِ ، فأنتَ أنتَ ، مُمتدحٌ أبداً بشعبِ سهرانٍ على ودائعِ الأنينِ .

تهياً أيها المتكئُ على الشتاءاتِ ،

فغيمٌ لا يستلكُ لا يستلُّ الرعدُ ،

وريحٌ لا تهتدي إليكَ لا تهتدي إلى الهبوبِ ،

كانكُ الحانةُ ، تغرفُ الأرضُ من يديكُ النبيذَ ، وتُفشي أسرارَ طينها .

ومحبوكُ أنتَ ،

محبوكُ كالعضلةِ ، أو كالجناحِ ؛

مشاعٌ ، ووقتُك وقتُ رفوفٍ من اللقالقِ تعبرُ الهذيانَ .

تُسمى ،

ومن يُسمِّكُ يسمُّ قلبه ،

تسمى ، ومن يُسمِّكُ يسمُّ الرثةَ الخفيةَ لأقداره .

هيا ،

أحكِمِ الأرضَ عليكِ ؛

أحكِمِ رتاجاتِ الغضبِ الألفَ ،

وافتحِ البابَ لتختطفكُ الصرخةُ .

رُفْرُفِي؛ يا مسافةَ القبلِ ، فلكِ ينهضُ الحدادونَ بمطارقِ الضوءِ ، وتغزلُ
النساجاتُ بمغازلهنَّ خيوطَ الفصولِ ، رُفْرُفِي على مدايِ المطوقِ بحماماتِ
الصلصالِ ، فأنتِ شاغلةُ الدمِ الذي يتلقتُ من مناراتنا مستطلعا هزائمه
الدمِ ، وجناحاكِ صفحةُ الكاتبِ المدونِ قهقهةَ الحديدِ . رُفْرُفِي ، رُفْرُفِي .
كنتِ ، من قبلُ ، خاتمي إذ يرفعُ العارفونَ خواتمهم ، وكنتِ التماعه
الأرضِ على مهمازيٍ إذ تخزُّ الجذورُ مهارها بمهاميزِ النعمة ، لكن لا مديحَ
في شفتي الآنَ ، وقلبي طرقةَ الحاضرِ على صفيحِ الحاضرِ . رُفْرُفِي .

رُفْرُفِي يا ابنتي ، رُفْرُفِي
فالبروقُ تتلمسُ الدربَ إلى جبيني بعكاكيزها .

رُفْرُفِي ، رُفْرُفِي .

الفَقْمَةُ

أنشدُ نشيدك على صخرةٍ عاليةٍ ، واجمع الريحَ كلُّها قرب ثديك ،
فأنتِ تطفمُ البحرَ الآنَ ، وتهيبُ بالمرضعاتِ أن «هدهدنَ وليدي على سريره
الرملي» ، فما منَ عويلٍ سيعلو عويلك أن يأخذَ القطيعَ ذكرٌ آخرُ ، وما منَ
أنينِ سيواسي الأنينِ أن ترى إناثك يتوسلنَ فحولةَ الغريبِ .
ولينشدُ قطيعك الأثنويُّ ، أيضاً ، نشيدَهُ : قطيعك الذي يتبعُ
الغالبين ، وليبقِ الرملُ في زَرَدِهِ ويدهُ على مقبضِ المياهِ ، فبابك إليه ، بابك
المفضي إلى جهةِ أمانةِ ككلبِ الضريرِ .

رذاذٌ يبِلُّ الجِلْدَ البِهْيَ قبل أن ينحدَرَ الجِسْدُ إلى سلامِهِ ؛
رذاذٌ يبِلُّ الأبديةَ .

الحُباحِبُ

العائدون من أعماقنا يضيئون فوانيسهم الصغيرة . نعرفهم ، أو نكادُ .
عابثون في حَنُوِّ ، قلقون كالكلام ، فعلامٌ نجمعهم ، ثانيةً ، في المدى ذاته؟
علامٌ نهدهدُ في الأُسرةَ المُعلَّقةَ شَبَحِ الأرضِ؟
إنهم عائدون ، أنجزوا الضربةَ بخناجرِ النبيذِ ، ونضدوا الأباريقَ المَلأى
بعافيةِ النسيانِ ، هاتفين بنا : اجلسوا . هذه أعماقكم ؛ هذه صباحاتٌ
تتفاوُزُ كالقردةِ فوقِ غصونِ المِثاءِ .

حُباحِبٌ هُمُ ؛
حُباحِبٌ أومضتْ في الظلامِ فكسرنا سريرَنا .

الحجل

كانَ ما كانَ : مرِحٌ سلُّ السفوحِ كسيفٍ ؛ مرِحٌ سلُّ الفضاءِ وأهوى على
الأعشاشِ فتطارتِ الأرضُ سُماني ، ونُحاماً ، وكراكي ، حتى امتدَّ برقٌ
من الطيرِ بين غدِّ ضائعٍ ، ومديحِ ضائعٍ ، فقلنا تطائري ، تطائري أكثرَ يَتَها
الأرضُ ؛ تطائري بجعاً ، ونَمْنِماً ، وغرائقَ ، ولتتطائرِ حولِ رداثِكِ الغضاريِّ
سلالاتٌ وحباحِبٌ من فضةِ اليأسِ ، فلنا في النشيدِ أرضٌ أخرى ، رخيمةٌ
كَغَبْغَبَةِ حجلٍ يستدرجُ الأنثى .

حجلٌ ؛

تذهبُ الأرضُ ويبقى حجلٌ في المدى .

حجلٌ ؛

يذهبُ المدى ويبقى حجلٌ في النشيدِ .

حجلٌ ؛

حجلٌ أفقنا . حجلٌ ظلُّنا ، حجلٌ بدايةُ الكلام . حجلٌ كلامنا .

حجلٌ ، حجلٌ ، إشهدي ما مدارج تهوي إذ تهوي الأرضُ ،

واكتبُ أيها اليأسُ بالريشةِ الباقيةُ .

القطاة

البراري تُلقى خاتمها المصفورَ من نشيدِ وريشٍ على المائدةِ ، وتنهضُ
غضبي فينهضُ الغبارُ الوصيفُ ، وتنهضُ الحاشيةُ .

البراري تهرولُ في البلاطِ المغلقِ بأقفالِ الصباحاتِ ؛ والبراري تخلعُ
قفازها المائيَّ وحفيها المائيين ، صاعدةً إلى شقيقاتها اللواتي يستعرضن ،
من المشارفِ ، قوسَ قزحٍ سكرانَ ، وأعراساً تنسجُ السنابلُ فيها سراويلَ
للأرضِ .

البراري تركضُ شعشاءَ ، حاضنةً ، ملءَ رئاتها ، أسرةَ الجذورِ ، والخيامِ
التي نسيتها الصواعقُ في الحجرِ ، غير أنها تتعثرُ بجناحٍ صغيرٍ ؛ جناحِ
مرسلٍ كظلٍ يغطي الظلالَ بشباكِ النشيدِ ، فتلوي على ذاتها . وتوطئُ
المكانُ .

لا فرارَ الآن ؛ لا فرارَ في كلِّ أن :

البراري تتكئُ على عمودها الأزرقِ ، وقطاةُ تسردُ المدى .

القلق

مَنْ لِلأبيضِ الحزينِ؟ مَنْ لعشبِ يعرِّي بناتِ النهرِ؟ مَنْ لضفافِ
تسرقُ شمعداناتِ المياهِ؟ مَنْ للريحِ تتشبَّثُ بساقينِ نحيلتينِ ، ومنقارِ يلتقطُ
الريحِ من بركةِ النهارِ؟ مَنْ لأنينِ يرتدي قلنسوةَ العرسِ؟ مَنْ للربيعِ ، سُرطِي
الفصولِ ، الأمرِ باسمِ عذوبةٍ لم تكنْ؟

مشعشعاً كالصرخةِ يرتفعُ الأبيضُ الحزينُ في فضاءِ حناجرنا ؛
مشعشعاً كالصرخةِ يرتفعُ الأبيضُ الحزينُ .

الحنكليس

أتذكرُ المياهَ : ذيلُ عيسُ الغدِّ ، وأعضاءُ لينةٌ تحوِّفُ الحدودَ القريبةَ؟
أتذكرُ المياهَ : أيدُ رشيقي في حراشفهِ الكهرمانيةِ ، والأعماقُ الأكثرُ
وقاراً تنثرُ عقودَ سُبُحاتها؟
أتذكرُ المياهَ : حركةٌ وزَبْدٌ . ضرباتٌ خفيفةٌ للعصلِ الجسورِ ، والزعانفُ
تومضُ في انسيابها فينشغلُ الضوءُ بإرثهِ من الظلالِ على الصفحةِ
الساحرةِ؟

... وأنتي تذكرُ المياهَ ؛ أنتي يشغلُّها بهلوانُ الشعاعاتِ مُرسلاً سهامهُ
المضحكةَ ؟ . واماهاهُ ؛ واعريناً من الزرقةِ يضحُّ أشبالهُ برعودِ الملحِ ؛ واقرعاً
يقرعهُ الصدى على خوذةِ الأغاني ، استحمي بنسوةِ الزعانفِ الأقوى ،
وليني تحت عريكةِ الديكِ الزبديِّ ، فمياهُ أنتِ ، بلْ نشيدُ الرثةِ الهاذيةِ
لهذا المتمايلِ الطريِّ ، الراقصِ كظلامِ يسلهُ الظلامُ في نشوتهِ المتلاثلةِ .

ذيلُ ، وأعضاءُ متصلةٌ لينةٌ ،
والحراشفُ تغمضُ على الماءِ جفونها فيبتلُّ بالحنينِ .

الأعمى ، سبيّ العماء المنمّق كالأخيلة ، يتنحجُ قرب الوكر ، كأنما
يتنشّق عظةً الينابيع ، أو يلهو بمغزل لا يراه . لكنّ السنابل ترى ، والجحور
تفردُ لعينيهِ المغمضتين شراع العراء .

هادئاً يستطلعُ الغامضَ .

هادئاً يستطلعُ المدى الموحشَ كأعماقه الموحشة .

والهواءُ ريشتهُ ؛ الهواءُ صولجانٌ ، وخيالٌ حسّبةٌ ترنحُ تحت مهاميزهم
الأرقامُ الحامضةُ ، فبأيّ هواءٍ يكملُ الناقصُ؟ بأيّ هواءٍ يحسبُ صدى
الضربةِ التي تزوّقُ العماء؟

الأعمى يستطلعُ من جحره ذاته المديدة كشرخٍ مديد ،
مستأنساً بدبيبِ الأفقِ الحفيدِ ، وصرخةِ الأرضِ - أمّ الظلامِ الحافيةِ .

العنكبوت

بحلم واحد ، وأذرع كثيرة ، تخيطُ الأعماقَ فضاءها ؛
وبأذرعٍ كثيرةٍ يشعلُ المساءُ قناديلَ أشباحه .
لكن ،

هذه الشباكُ ، التي تتخبطُ فيها فراشاتُ الأبدِ الثقيلةُ ، ليست نسجَ
حكيمٍ ، بل نسجُ طاهٍ يتذوّقُ الغيبَ كما يتذوّقُ الحساء .

(الطهارةُ لا ينسجون الشباكَ .

الطهارةُ ينثرونَ توابلهم على الذي في الشباكِ)

ما هم ، كلٌ ينسجُ خطابَهُ بالأذرعِ الكثيرةِ الهادئةِ ،
والسطورُ تتقاطعُ بالرفيفِ الهادىءِ لأجنحةِ الموتِ .

الحلزون

حَسْبُهُ أن يكون قريباً من وحشته القريبة . حسبُهُ أن يهزَّ قرنيه اللينين
ستلمساً غمامةً ذاته التي تبللُّ غُرَّةَ الظلام . حسبُهُ أن يموجَ في ضفاف
الصدفةِ ، مُصعداً في القشرةِ القاسيةِ زفيرَ الحالمِ ، حسبُهُ البسيطُ البسيطُ ،
الهيئنُ الهيئنُ ؛ حسبُهُ المغلِقُ المشدوهُ بالبعيدِ المشدوه .

بيئتهُ معه .

يمضي فيمضي بيئتهُ معه .

مُفكَّرٌ يجرُّ فكرتهُ الصدفيةِ ، ويدخلها لثلاً يراها .

الديك

الهرطوقيُّ ، ذو الريشِ ، يلدقُ محبرةَ الضحى فوق أوراقنا ؛ يلدقُ
الضحى بنقرِ خفيفٍ ، كأنَّ هو جنينُ الشعاعاتِ الأولى ، التي تدلفُ
ببغالها إلى الكثيفِ فتديرُ الرِّحَى .

الزئير

رعاعُ الضهيرةِ ، الملتفعون بمجدهم القاسي ، يوقظون بواقهم .
(انفخ ، انفخ في بوقك أيها الزئير) .

والنفيرُ لا يوقظُ أحداً .

(انفخ ، انفخ في بوقك أيها الزين) .

طواويسُ غاضبةٌ تشقُّ بريشها الظلالَ ،

والشجرُ الكهلُ يبددُ الحمى بمراوحه .

(انفخ ، انفخ في بوقك أيها الزين) .

لا لجيوش ، بل لكسل هذا النفيرُ .

وبواقِ المساةِ الشرائرُ يحبُّكُ الغبارُ أدوارهُ ، وتضحكُ من بوقه الظهيرَةُ .

الطاووس

من هنا ، من حدائقٍ معلقة في الريشِ ، تنفضُ زوبعةُ اللونِ عنها
غطاءها ، وتتناثرُ الريحُ تاجاً تاجاً ، فما يرى ليس إلا مهرجانَ الغدِ الحوذيُّ
في ظلِّ أمسهِ الحوذيِّ .

فليبكِ هذا الطائر .

فليبكِ ريشهُ .

وابكِ ، أنت أيضاً ، يا مدللَ الحاضرِ المتلصِّصِ من ثقبِ في قفلِ الموتِ .

الفهد

خفيضاً فليكنُ صوتُ الرمادِ في الموقدِ الذهبيِّ لأعمارنا ، فبعدَ قليلٍ
يمرُّ الهباءُ المُجنَّحُ سائقاً بناتهٍ ومريديه ؛ وبعدَ قليلٍ يمرُّ الجليلُ الذي يوازن بين
الخطى كما يوازنُ الأفقُ بين ذاتهٍ ومرآتها .

بنخطى خفيفة يمرُّ الجليلُ ، متشمماً سحابةَ الفرائس ، كأنه رثةُ
الترابِ ، أو المدوَّنُ العارفُ بالذي ينسجهُ الهواءُ من أقاصيصهِ .

أيها الموقدُ الذهبيُّ .

بنخطى خفيضةً ، قربَ أعمارنا الخفيضةِ ، يمرُّ الفهدُ .

العصفور

هَبْنِي خَفَةَ المهرجِ ، هَبْنِي طعمَ خطوةٍ في الجحيمِ الأنيسةِ ، لأهبَ
الهواءَ سحرَ خواتمه الخفيفةِ ، وليتبرِّجَ الفضاءُ حجراً حجراً ، فبي طيشُ الماءِ
وخفقةُ الشكلِ الذي يقامرُ ببواقيتهِ . وأنتَ ، أنتَ ، ذلكَ ، يا خفيفاً كمرساةِ
الشعاعِ ، تقدِّمُ لآلائيكَ بهبةٍ لا تُعطى ، وامتنحِ ريشي بلهبكِ ذي العُرفِ
اللازورديِّ ، فأنا فكاهةُ الطيرِ ، وثرثرةُ الريحِ التي تجرعتُ نبيذَ أباريقها .

إلى أينَ تحملني جناحي؟؟

إلى أينَ أحملُ جناحي؟

ضيقُ كلِّ شيءٍ ،

ضيقُ كلِّ شيءٍ .

اليعسوب

كغيمةٍ ملحٍ ويودُ ؛ كصيفٍ صائغٍ يتملُّ أقراطَ الظهيرةِ ، والحجارةِ
الأكثرَ بهاءٍ في الخواتمِ ؛ كبابٍ ؛ كرتاجٍ في البابِ ؛ كفراغٍ تهبُّهُ الروحُ إلى

وصيفها؛ كنعق صامت؛ كمناقير تتخاطفُ الجذورَ .. ككلٍ ذاك، كثقة
تُعوي، طينٌ هذا اليعسوبُ في مضجع الملكة .
... والملكة تستسلم للسيد .

والملكة تنثر إماراتها كرهاذ الوميضِ على زَعْبِهِ وجناحيهِ ، في التحامهِ
الأقصى بسلطانه الذكوري .

وإذ يهدأ رَفِيفُ الأجنحة ؛ الرفيفُ المضمخُ بنعمى الهباتِ ، وبالهمسِ
الذي يبتكرهُ الجسدُ همساً في انقلاباته الدافئة . . . إذ يهدأ اليعسوبُ ،
تدخلُ عاملاتُ النحل ، فتتناثرُ الذكورةُ وسمسُمها الخفيفُ :
يتناثرُ الجسدُ حولَ ثُقْبِ القفيرِ .
ولمَّا تَزَلَّ بينَ زَعْبِهِ فتافيتُ شهوةٍ وعسلٍ .

الخفاش

ليس لي جراحٌ ، فالخفيُّ توأمي ، وأنتم بقايايَ على حافة الصباح
الأخير ، وإن حررتُم في فأنَا ظمأَ الرحيلِ ، ورنينُ الخطوةِ الفارغةِ في ملكِ
يتشبثُ بأشباحِ الندامى . أسألكم : أيُّ شاهدٍ قال عني ما تعرفون؟ أيُّ
شاهدٍ اختلطتُ عليه تفاحةُ الغيبِ فألقى عليّ ظنوناً مما ينسجه ظلُّهُ
المسكورُ قربَ قمرٍ مكسورٍ؟ هنيئاً لي بغبطةِ تتعالى من فوانيسِ ذعركم ؛
هنيئاً لجناحيّ بالخففةِ الساحرةِ في فراغٍ تملجونُ قربهُ لهائكم كالقطنِ ،
يالي ، يالي .

طعمُ زبيبٍ وبنديقٍ فوقَ لسانِ السهولِ ،
طعمُ فلزٍ فوقَ شفةِ المساءِ ،
وهبوبٌ نشوانٌ للغامضِ يداعبُ الأجنحةَ كلُّها ؛

وأنا ،
خفقةً ،
خفقةً ، أتسللُ إلى المُطمئنِّ لأبعثرَ كؤوسَ نشيدهِ .

ياليَ . . . ياليَ .
ليس لي جراحٌ ، والنهارُ أيقونةٌ تتدلى على صدر توأمي المقتولِ .

الثعلب

مجرةُ الأغاني تبسطُ فراءَها للمجراتِ ، فاقتربوا ، أيها المختالون ،
بفخاخكم الزرقاء ، لتتصيدوا يمامة الحيلِ .
لكن ، بأيِّ أحبولة ستأسرون هذا المهرق كالحقبة؟ بأيِّ ستأسرون
الرخيمَ مثلَ الانشاد للمياه؟ ليكنْ . خذوه ، خذوا الطائشَ الجميل ، فهو
قرعُ الحكاية على بابكم . . . إيه ، أكانتْ لكم حكايةٌ قبلَ أن يمسَّ بذيله
الحكايةُ؟

تبدّدونه فيبقى .
تبدّدونه فتبقى يمامة الحيلِ .

الحمار

أن يتخذُ سيّاف الغيبِ كمالاً ككمالِ الظلام ، وترجعُ الرياحُ الأسيرةُ ،
تغرورقُ عيناك ، يا هادئاً ترى الذي ترى ، وتكفّيك من الأبدِ قضمَةً
واحدةً ، فلماذا تأسى للوقتِ ، ولماذا تضربُ بحافركِ على رخامِ بطشنا؟

يا حمارُ ،

يا جدالَ الكسلِ المُربِكِ ، تَلَقَّتْ بعينيكِ الناعستينِ إلينا ، وأطبقهُما ،
فإنك لن تظفر برؤيٍ مثلنا قط ؛ رؤيٌ تمضي على زحافة تجرُّها ديكَةُ الثلجِ .
يا حمارُ ، يا شظايا كأسِ ارتخت يدُ النديمِ عليها فهوت في الفراغِ مائة عام
قبل أن تتشظى ، أضرب بحافرك ، أضرب بأذنيك ، أضرب بالكسلِ المُربِكِ
هذه اليقظة السارحة تحت خوداتنا ، واغفُ ، فقد أغفى الوقتُ - ترجمناكُ
الغاصبُ .

وديعُ أنت ، وتغروزقُ عيناكُ .

الغراب

أنا صفيركُم ، أنا الخزفُ المتناثرُ من فوهةِ الأغانِي ، شقيقُ الهزائمِ
كلُّها ، شقيقُكم ، أضعُ بيضي في أعشاشِ الرثاتِ ، وأعطِي الجساراتِ
بالريشِ . أنا . . . آه ، كمُ ملكٌ مرُّبي ، كمُ أساطيرُ ، كمُ نهاية . لا غدُ
لأحد ، غدي ضربةُ الراعي بعصاهُ على تيسِ الجهاتِ ، فإمَّا شردتُ جهةً
عادت إلى أحابيلها .

ذروني إذا . ذوؤني وهدأةُ الروحِ المشقوقة كلحاءِ الشجرِ ، وابتعثوا
المكانَ يجيء إليَّ بحوصلةِ مُرَّةٍ ، فعلى المائدةِ مُتَّسعٌ للهباءِ كلُّه .
أنا ،

أنا ،

لا انهدامَ إلَي . شققتُ مسافاتكم فتهدلتم من الشقوقِ سلالات
ترفو الغمامِ والثلوجِ ، وأمعنْتُ فراراً بجناحي فتطايروا ساعاتكم في ظلي
كالريشِ . خرابٌ إذا . هداةٌ للخرابِ . وأنا الصُّخبُ المهروولُ في الحروفِ

كلها .

عُرَابٌ ... أهدأوا .

النسر

أهو وصيُّ الأفاصي يدوُّنُ مديحِ الأفاصي ، أم سَهْرُ الريشِ على حَجَرِ
المكانِ؟ لا يا سَهْرَ الريشِ ، لا واسعُ أو مديدٌ إن تراءى من جناح ؛ لا جناحُ
لو لم يفق الواسعُ المديدُ . وأنتَ ، عالياً ، على أيِّ حال ، تغزلُ الخيالاتِ ،
وفي ظلكِ يتماوجُ الصلبُ . مرٌّ ، واخفقُ كنبضةٍ في الغدِ العالِي ، غدِ
العاصفةِ وحَدها أنْ تفرغَ الفراغَ القديمِ .

مرٌّ ، لا :

فليمرَّ الفضاءُ الحيرانُ في ظلكَ المحيرِ ،
وليتخلعَ المرثيُّ مهاميزَ عصيانِهِ .

بيروت - ١٩٨٢

ربما ذكّرني الوردُ بنفسِي ،
ربما ذكّر بي الوردُ رمالاً حُزِمَتْ كالنَّفْسِ
قبل أن يُطلقها البحرُ متاريسَ ، ويأتي بسدودِ .

ربما ذكّرني البحرُ بإطراقتهِ
حين أطرقتُ ، وأفضى بي إلى ماءٍ طريدٍ :
كلُّ منفى صحوةٌ ، فاكتلمي
يا جهاتي بكمالِ نِزقِ ،
واكتملي يا رعبٌ ؛ هلْ باركتْ أنقاضِي برعبِ ثَمَلِ ؟
ربّما . لا . يا حديداً
مُتَرْفأً كاللَّهُوِ ، لاهٍ بالحديدِ
باركِ الفلزَّ الذي يصحو على فلزِّ نشيدي .
يا حديداً مرّاً بالبالِ فأصغى البرعمُ الصلْدُ لتاريخي إليه
وتدانى ظلِّي اللّاهي لكي يُلقني عليه
حفنةَ الريحِ التي ألهمتِ الحيَّ بلاغاتِ . كأنْ مِنْ ثَمري هذا : رنينُ
صاعدٍ في الجذَرِ ، أقدارُ ، وحمى حجرٍ . لا بأس ، ماذا يا حديدُ؟
مَرَحٌ ينسجُ ميعادي ، ويُفلي ، ويُعيدُ
فكأنني هربٌ . قُمْ يا ظلامُ . آجتهدِي يا شجراتُ

واقرئي يا ضربةَ السهلِ سفوحِي :
طائرٌ هَدَبَ ينبوعي ، وأوتني مهأه
فغدِي يصحو وقد طوقه شرقان : هَدَّر ، ووعيدٌ .

أه كَمْ كان يعيدُ البرقُ ما أنسى ، وينسى فأعيدُ .

يا حديداً مُشرفاً مثلي على الحيِّ تُراكَ انبجستُ أيامك الدقلى
فغطيتَ مدى الحيِّ ، وألهمتَ مديحي
أن يكونَ الساهرَ المسكَّ بالأنقاضِ؟ أن يُمهِّلَ ما لا تُمهِّلُ الأرضُ؟
كريحٍ سَيَقَادُ الماءُ في نهبٍ ، وعلو غامضٍ في كلِّ عيدٍ .
يا حديداً كالحديدِ
يا مدى بُوْحٍ يُسمِّي كلُّ بوحٍ
فلتكنْ في غَمْرِكَ الحلو صنوجٌ ، ولأكنْ باباً إلى الصلْدِ الذي يُعطيكُ
مجدَ المعدنِ الحيِّ : سَأَرْفُضُ كُلَّ مَع ، وسيأتي الأزلُ
هازلاً بعدِي ، وبعدِي
ككتابٍ سوف يُستقرأ الغدُ المُرتجلُ .

يا حديداً كأني .
يا حديداً يقرعُ الحاضرُ شُبَاكَ النَّبِيِّينَ بهِ .
يا حديداً بَعْدُ لم يُمتَهِنِ
لَمَدِيحٍ ليس يستنفدُ ما يجعلك الآن إلهياً . جبينِي لك ، أو عذريَّةُ
الماءِ الحِصِينِ .

يا حديداً . . . إِيه ، كم جذرٍ سيستوقدُ من جذركَ أعتابَ رفاهِ ،
وكمِ الصاحبُ قد يستلُّ من وهجكَ أقمارَ السكونِ .

لُعْبِي كَوْنٌ ، فَإِنْ مَرَّتْ بِي الرِّيحُ اقْتَصَدْتُ بِي فِي هَيَّوِي
فَلَمَنْ أَمْحُو ثُرْبًا لِهَبِي الهَاذِي ، وَمِلْكِي ، وَشَعُوبِي ؟
لِي يَقِينُ الْمُهَلَّةَ الْأَكْثَرَ فَضْلًا ،
وَلِي الْأَبْقَى مِنَ الْفَجْرِ الْأَمِينِ .
وَحَدِيدِي أَنْتَ . هَلْ يَكْبُرُ بِي إِلَّا حَدِيدٌ؟

غير أنني ممن في شأن ما لا شأن يُغويه : شظايا حملتُ حلمي إلى
تلك الشظايا ، وتفجرتُ فأغلقتُ كتاباً كان . ما مثلي سوى الضربة إن رنتُ
ترامى ضيقٌ ، إن رنَّ قبوري في القبور اتسعت . صنعٌ هواي . ابتعدي يا
ريحُ . أنقاضٌ تحت البحر أن يجثو ، ومهددٌ يركضُ
بوليدِ الماء ، فالأيامُ نسلٌ عرَّضُ .
ولأنني ... أين من أن أحاذي جمهراتِ الرعبِ كي يشتغلِ الرعبُ
بأقداري .

أرعبٌ بعددٌ؟ أمهلتُ الشظايا
ساعةً ، قلتُ : استعيدي
جسدي عرساً ، وفيضي بالهدايا .
ولأنني ... ليت يا الآن أغنيك كحبرٍ غمستُ أقلامها الأسماءُ فيه .
ليت ... ما هذا بتيه
بل نبوءاتٌ تقلبنَ على مخدعي المائي فاستشرفتُ في الموت هوايا
وتزيتتُ بأسراري التي تغسلني
كشهيد ، وحملتُ الجسدا
غافلاً عما تهاوى منه ، مشاءً به ، مُتئداً .
ولئن أسرفتِ الأجرامُ في نهبي ، فالأشياءُ تعدو
بي ، وترفو الريحُ ذاك البَدَدَا

يا حديدي ، أنتَ ، يا الهذا بشديكَ على أفواهنا
سنرويكَ ، التقطُ أُنْداءنا :
كلُّ موتٍ سلَّةٌ مثقوبةٌ ،
كلُّ غيبٍ درجٌ ينزلهُ الغيبُ إذا ما ابتعدا
فكأنُّ دورةً هذي الروح لا تعرفُ إلا موجنا
وكأني - يا الهباءُ الثَّمَلُ ،
يا ثُمالاتي التي تُهرقني
مثلَ حبرٍ غمَّستْ أعلامها الأسماءُ فيه ،
وارتداهُ الأزلُ .

موشكُ أن أبعثُ الأناقصَ في هيئة ما ليس بأناقص ، واسترسلَ في
نجواي : طينٌ مدني . طينٌ أساطيري . بحرٌ قال ما لم يُقلِّ الشعبُ . «ألا
تعترفين الآن؟ ماتت - يا فتاتي - أمهاتُ النبع ، ماتتِ التَّيْتَلُ الأخضرُ .
شمدينُ تهاوى مرةً أخرى على باب الحكاياتِ . عروشٌ وملوكٌ بقيت .
تعترفين؟ اعترفي مثلي بتاريخِ غشّتي سورةً منه فلم المَح سواي .
كان تاريخاً هنا ،

واقفاً كالكلبِ قدامَ السرايِ
كان تاريخاً ، وقد زينتُهُ .

أو توهمتُ - بشعب ، فإذا البحرُ سلاحي ويدايِ
وإذا المنفى الذي يُشهرني يُشهرني
مِرْقاً في رمحه العالي . فتاتي اعترفي . لا . موشكُ أن أغرقَ البحرَ
بمدح . موشكُ أن يقنفي الماءَ رغيقي كعصافيرَ ، وأبنائي يشدُّون الصَّواري
بقلوع ، أو يرجؤونُ المجاذيفَ التي ضمَّحها
عَبَقٌ من غدي الفاتح . عودي كحصارِ
يا غواياتِ رميتُ القلبَ في خوداتِها ،

وتعاونيتُ . ألا يجمعني
غيرُ منفاي؟ ككَلْبٍ يَقِفُ التَّارِيخُ إِذْ يُشْهَرِنِي الْمَنْفَى الَّذِي يُشْهَرِنِي
وأنا العَنْدَمُ ، بل رِيحَانٌ مَا يَنْبِضُ فِي هَذَا الْغُبَارِ
فالمواعيدُ مواعيدي ، وما من خَيْرٍ إِلَّا تَنَاهَى خَيْطُهُ مِنْ كَفْيِي .

... والحديدُ العذبُ ينسابُ . أعْمَرُ يَا حَدِيدُ؟
هَرَّتِي السَّرْوُ قَلِيلاً ، هَزَّتِي الشُّوْحُ ، وَالْوَى
حلْمِي الصَّفِصَافُ فانداحَ النَشِيدُ :
كَمْ رَعْتَنِي الْقَنْبَلَةُ
كَيْتِيمٌ ؛

كَمْ بَكَتْ حَوْلِي الْعِمَارَاتُ بِكَاءِ السَّنْبَلَةِ
وَاسْتظَلَّتْ بِي مَتَارِسٌ ، وَأَوَانِي الْبَعِيدُ .
أَبُ ، إِبْنُ أَنَا

لِلْمَسَافَاتِ؟ أَمْ الْحَاضِرُ غَمْدُ الزَّلْزَلَةِ؟
صَعَتْرُ بَابِي . رَأَيْتُ الْمَاءَ فِي هَيْئَةِ سَيْفٍ
كُلَّمَا أَهَوْتُ بِهِ كَفُّ عَلِيٍّ
عُدْتُ ، فِي النَشَاةِ ، مِيرَاثًا مِنَ الزَّهْرِ الْحَيِيِّ .
غَيْرَ أَنِّي حِينَ أَهْوَيْ بِسَيُوفِ الْمَاءِ تَنَهَّأْتُ بِلَادِي :
ضَرْبَةً تُحْيِي بِلَادِي ،
ضَرْبَةً أُخْرَى تُمَيِّتُ
شَرَكًا كَانَتْ كَمَثَلِ اللَّهِ ، تَنَهَّدْتُ فَتَنَهَّدْتُ جِيَادِي .

وكباب مغلق كانتُ أمامي وورائي
يفتحُ المنفى لِيَ الْأَفْقَ فَارْمِي دَرْعِي الْأَخْضَرَ لِلْمَنْفَى ، وَاسْتَصْرِخْ مَاءً
فَيُنَجِّنِي بِمَاءِ

فإذا ما التفتتُ عيناى للبابِ غشاني الظلموتُ :
ضربةٌ تُحييي إذاً ،
ضربةٌ أخرى تُميتُ .

يا بلادَ الرعبِ كم كنتُ وحيدا .
يا بلادَ الرعبِ كم أسرفتِ في قتلي فأمسى قلبكِ الأبكُم كالجرحِ
وحيدا .

أبّ ، ابنُ أنا
للمسافاتِ ، فلا أعرفُ إلا خشبَ المنفى حديدا؟

فليكنُ . أغلقتُ تاريخي كما يُغلقُ حوذيُّ على الاسطبلِ ،
واسترسلتُ في نجواي : بيتي كان في الحيِّ كبيتِ ، يردُّ المتعبُ ظلاً في
كراسيه . ويُلقني رأسه للشرقة البكماء كي تمزجُ بالأهدابِ غيماً ، وعماراتِ
يلوح الأفقُ في أهدابها نهباً لفأسِ المعدنِ العاري . وبيتي كان بيتاً في
حصارِ الروح ، وأواني من العزلة ، أوى الليلَ من فجرِ جحيمي . وكانت
قُبُراتُ الطينِ ترميه بأعشاشٍ من الدمع ، ويصطادُ الفراغُ العابثُ الأشياءَ
من إسمنته .

وأنا في سَمته
أيةٌ كالتردِّ ، ألقى بي إلى الأعماقِ حيثُ العنقُ صوتي .
كان بيتي رحلةً كالظماً الحلو ، وكان . . .

أين بيتي؟
كسرَ الكأسَ على هذا المكانِ
واغتلَى حتى تشطَّى
فالندامى حجزٌ من حوله ، الآن ، أساساتٌ تهتكُنَ فعرينَ البيانِ .

سوف أستوفيك يا بيتُ من الأقدار كالفتاحِ يستوفي الجباياتِ .
سأستوفيك باباً أزرقاً ، سقفاً من القصديرِ ، أدراجاً جُماناً :
(ستكونُ المكتبةُ

قربَ هذا البهو ، والمدفأةُ
في جدارٍ ربما يعلوهُ رسمٌ قَدْرِي ،
أو تصاويرٌ حديدٍ . وهنا الزاويةُ
سوف تزيّنُ بالنُّبتِ . وقربَ العتبةِ
بعضُ سجاد ، وفوق النافذةِ
تتدلى سُتْرٌ ملتَهبةٌ . . .) .

سوف أستوفيك يا بيتُ . أما من ججرِ
يهندي بي ، ويهديني إلى تأويلهِ الصاحبِ للبحرِ . أما من حجرِ
حَمَلِ البحرِ مرايايَ إلى أقداره ،

ورمي بالسِّفرِ
مثل عنقودٍ إلى دالية الرملِ . أرملُ سوف يُهديني إلى تأويلهِ الصامتِ
للبحرِ؟

أشتعلُ يا ربُّ ، هذي «خلدة» الدُّرعِ . نَبِيُونٌ يجسُّونُ خراف الموجِ في
«خلدة» ، أنقاضُ تعيدُ السيرةَ الكبرى لِخَلْقِ ذاهلٍ . يوحُ نحاسيُّ . مرايا .
حَمَلِ البحرِ مرايايَ إلى أقداره ،

فجثا كالطفلٍ يستلُّ من الرملِ رُؤايا :
(خُفُّ . ذا تيسُّ حديديُّ . تعمُدُ ببريقِ القاذِفِ
واعبرِ الشاطئَ كالبهو إلى ضوءِ بلاط ،
حيثُ يقتادُ الملوكُ الأرضَ تحت السَّعفِ) .

مثلَ عنقودِ رمى البحرُ بأيامي ، فألقيتُ إلى البحرِ بجمعٍ مُتَرَفٍ :
أَبْهُوْنَ ، حَرَابٌ نَمٌ ، أَشْكَالٌ كَمَا نُحِبُّ سَمَاوِيَّ تَهَامَسْنَ بِهِ
أَمَهَاتٌ لَمْ يُرَدَّنَ الْبَحْرُ إِلَّا خَاتِمًا
وَتَوْشُّحْنَ وَشَاحَ الْوَقْتِ ، فَاسْتَدْنَيْنَ وَقْتًا عَدَمًا
فَإِذَا سَأَلْتَ : هَلْ مِنْ جِهَةٍ ؟
قُلْنَ : آتَيْنَا جِهَاتُ الرُّوحِ خَبْرًا عِنْدَمَا .

يا فراغاً غنمتهُ الروحُ كُنْ
هندسيّاً يا فراغُ .
خرجتُ أنقاضنا من سرّها ،
وتحلى الأبدُ الثرثارُ قِرْطاً هَزُهُ فِي الْغَيْمِ زَاغُ .
يا فراغاً جفلتُ منه عذاراهُ ، استبقنا يا فراغُ :
إِنَّهُ طَاوَوْسَنَا الرَّمْلِيَّ فِي «خَلْدَةَ» . أَرْضُ الْأَرْضِ . مَيْشَاقُ مِيَاهِ . نَبِيحُ
كَالْجَوْهَرِ الْغَاضِبِ . غَمْرٌ مَرْحُ
فَتَشَبَّثُ يَا مَدَى اللَّهِ بِأَكْفَانٍ وَمِيضُ :
كُلُّ ذَعْرٍ يَرْتَدِي الْآنَ دُرُوعَ الْفَجْرِ ، وَالْبَحْرُ الَّذِي يَلْهَثُ بَحْرٌ شَبِيحُ .

(كان في «خلدة» متراساً من الأفق ،
وفي الأفقِ سرايا من مداراتِ تَوَزَعْنَ الْقَبْلُ :
شَفَّةٌ تَنْقُضُ كَاللَّيْلِ عَلَى حَلْمَةِ هَذَا الْبَرَقِ ،
أَيْدٍ تَخَطِفُ الصَّخْرَ كَأَقْرَاصِ عَسَلٍ .

كان في «خلدة» ما كان : امنحيني سُنَّتِي ،
وحذائي ،

وسلاح التوأم الأكبر؛
هاتي بالفسارات كرمّان، ودلّي -
كي تمسّ الذكّر البحريّ في المكمّن - عذراء الأزل).

يا فراغاً . . .

منجنيقات تدكّ الفجر بالترجس، والحلم حديديّ: هنا رأس كبيروت
على صحن ترابيّ، مدار، وسلال أحمل الشرق على ظهري بها:
(هل تلصّصت عليّ)
يا إلهي، من كوى الطين، وأرخيت الغبار المرمريّ
فوق ثدييّ الذكوريين؟) . أطفال هنا،
أجمع الأشلاء حتى أتخطّها إليّ
فأرى جسمي ينبوعاً، يكاد البحر أن يلمس من دُعر بقايا شفّتي .

خبثيني يثها الأعمار في سنّس هذا الغضب الموصد . خبّيء أيها
الرمّل لهائي في متاهاتك، فالوجّ مضيء، وعلى «خلدة» أهداب كأهدابي
إذا ما انغلقت

رفع الماء خياماً لجيوشي فوق ثدييه: (إلهي
غضّ طرفاً عن أحابلي، فإني كالمناه
أغسلّ الفجر كما الخوذة حتى أتغاور
قرب هذا الموت) . . . آه يا محاربت غمام ورفاه
شفّفي الأبعد، فالأبعد أعضائي التي أسلمتها
للأساطير، وفي «خلدة» أسلمت الأساطير إلى لهو، وحبّكت الحيل:
(كان في «خلدة» تيه وتملّ
ومرايا يتخطّى البحر أمادّه فيها

موشِكاً أَنْ يُمَسِكَ الشُّكْلَ ، ويصطاد الجبل) .

خبثني يتها الرُّوعَةُ في رملٍ ، حديدٌ نَفْسِي
ولنفضي زَبْدُ
ساحَ في قلب من الأجرُ مَكْتُوبٌ عليه الزُّرْدُ
فإذا كاشفتُ حرباً بمغاليقي استجارتُ
بحروبٍ ، وانبرى كلُّ شُرُوقٍ يَرِدُ .

هكذا عيناي ، واخلولي غدي .

عجلي وابتُردي
شُهْبُ المَاءِ بِذُوبٍ من حديدٍ عَسَلٍ ،
وخرابٍ عَسَلٍ ؛
عجلي وابتُردي .
لحصاري سرُّهُ ،

ولنهبني من جساراتٍ تطاولنَ كسروِ سرُّهُ ،
ولأبعادي حفيفُ الأبدِ .

فليكنَ ما كانَ . شَقَّتْ عن مراياها الشواني ظلُّ هذا العدم الضاحك ،
شَقَّتْ موجةً أُنوابها ، وانحسرتْ ظمأى . (على «خلدة» رفٌ من قطا ضلُّ
سهول الأرض . هل «خلدة» أرضٌ خسرتْ هذا الفضاء الرُحْبَ كي تريحَ
من شوقِ قاطها كفضاء؟) .

لا تكنَ يا موتٌ مثلي عاكفاً في قلمٍ يسَطُرُ ، والخبِرُ حديدٌ .
لا تكنَ يا موتٌ مثلي عاكفاً في ذهبٍ ينشرهُ الموتى على النبعِ
الجحيميِّ . هنا «خلدة» . (رفٌ من ذباب الأزل أَرَفَضُ عن الجرحِ
السماويِّ) . هنا «خلدة» قُمْ يا غضبُ ؛

قُمْ بِكَهَانِكَ ، أَعْلَى مِنْ حَنِينٍ ،
مَالثًا كَفَيْكَ بِالْعَنْبِرِ وَالْمَاسِ ، تَرَابِيئًا ، تَعَضُّ الشُّهْبُ
نَارَهَا الْخِرْسَاءَ مِنْ حَوْلِكَ . قُمْ يَا بَحْرُ ، قُمْ
صَنَمًا بَعْدَ صَنَمٍ
وَشَعُوبًا أَيْقَظُهَا زُرْقَةُ الْمَدْحِ الَّذِي نَمَّ بِهِ الْمُرْتَقَبُ .

... وحديد . رُبُّ سَرْبٍ مِنْ غَزَالَاتِي نَقَرْنَ عَلَى الْمَوْجِ الْحَدِيدِيِّ
بِأُظْلَافِ حَدِيدٍ ، فَتَفَاجَّ الْبَحْرُ : دُعْرٌ بَعْدَ ذَعْرِ . أَيْكَةُ مِنْ زَبَدِ الْخَلْقِ . رِمَادٌ
خَرَزٌ

كَلُّ ذَا فِي صِرْحَةٍ وَاحِدَةٍ ،
وَنَفِيرٍ يَتَشَطَّى الْبُوقُ مِنْ إِغْوَالِهِ .
كَلُّ ذَا رِمَانَةٌ فَتَقَّهَا الْغَامِضُ ؛ لَا ، ذَا كَرَزٌ
نَشْرَتُهُ الْقَبْضَةُ الْأَشْهَى عَلَى ثَدِي . . . حَدِيدٌ ، أَيْنَ مِنْ أَحْوَالِهِ
هَذِهِ الرَّعْشَةُ فِي كَفْيِي ؟ . (وَ « خَلْدَةٌ » شُدِّي رَسَنَ الرَّمْلِ قَلِيلًا يَخْفُنِ
الرَّمْلُ مَنَارَاتٍ تَنَائِرْنَ ، وَأَشْكَالًا كَسَّتْ أَقْدَارَهَا بِالْبَحْرِ) . عَيْنَايَ عَلَى
الْبَحْرِ ، وَأَعْضَائِي مَضِيقٌ :
(سَقَطَتْ شُرْفَتُنَا)

مِنْ عَلِيَّيْنِ ، وَطَارَتْ جَارَتِي
كَدَخَانٍ . حَمَلِ الشَّارِعِ عَكَازِهِ لِلْمَلْجَأِ فَاجْتَا حَ الْخَرِيقُ
مَلْجَأَ الشَّارِعِ . طِفْلٌ مَرٌّ بِالْبَابِ ، وَمَنْ خَلْفَهُ مَرَّتْ أُمُّهُ
فَكَسَّتْ أَشْلَاءَهَا أَشْلَاؤُهُ .

سَقَطَتْ شُرْفَتُنَا
مِنْ لُغَاتٍ لَمْ نَكُنْ نَعْرِفُهَا

سقطَ العالمُ من شرفتنا
في لغات لم نكن نعرفها ،
فاستعانتُ جارتني
بثَّابِ وهي تُؤوي موتَهُ في موتِها)

إنها أسماؤه ؛

ذا حديدٌ ، وهي ذي أسماؤه :
من رمالِ تَصْهَرُ الأعماقُ كالوقتِ فَمَا
فيلاقيها بأثناءِ تجلُّتِ حولِها أُنْدَاؤُهُ .

يا لأسماء . أعيني ضربتي يا أمُّ في «خلدة» . بأسٌ مثل بأسِي يصعدُ
الأدراجَ من مَكْمَنِهِ البحريِّ . بأسٌ يعقدُ الشاطئَ كالسُّتْرَةِ من أزراره
البيضاءِ . في «خلدة» يا أمُّ أعيني حجري الأبيضَ كي يهوي ثقيلًا ،
وأعيني لأمضي نحو ريحانةِ هذا الماءِ أنَّ الرملُ يَشْبَبُ كالأنثى بِخَفْيٍ ،
ويغدو النَّفْسُ

ضيقًا من حَيْرَةِ الروحِ . غداً تنجسُ
ملءَ نافوراتي الأشكالُ حتى

يغدو الرملُ ظلاماً بجناحين ؛ فمن يلمسُ -
في رمالِ لم تكن - سطوتُهُ؟ . الآنَ أنا والبحرُ . لا شاطئَ ، لا برُّ ،
غَدَاًفُ يصلُ المَوْجَ بموج ، وسنونو
يحملُ الأفقَ إلى أعشاشنا
فاعينيني على الضَّرْبَةِ يا أمُّ بموتٍ لا يخونُ .

(مضتِ الطائرةُ الأولى ، وعادتْ أختها

حين طارت شرفتي
فزلتُ الدرجَ الأبكمَ محمولاً على الذُّعْرِ ، فسدتُ جارتني
ببقاياها عليّ الدرجَ الأبكمَ : هاكُمُ ثديها
لصنقَ بابِ المصعدِ ، الفخذُ هناكُ
في زوايا لم تعدْ إلّا زوايا ،
وعلى السقف بقايا
من حذاءٍ شدهُ كالصمغِ لحمٍ . وإذا . . .
ما همَّ إنْ كانَ «إذا» أو كانَ «ذاك» :
مِرْقٌ من كَبِدِ الحاضرِ تحبو ،
وملاكٌ أحمرٌ يلهو بأحشاءِ ملاك) ..

كم تشبَّثتُ بأعضائي التي سالتُ كماءٍ ،
فإذا تجرَّفُ أعضائي يدي
وإذا بالهاوية -

حيثُ عمرٌ من فراشات - تقوِّدُ الأُبهي
صوبَ رعبٍ حاصرِ الحاضرِ بي .

أنا الرعبُ؟ مديحاً هاتِ يا رعبُ ، بغالاً ومحارِثَ ، فإني دافعُ
«خلدة» كالتاويرِ في غابةِ هذا الزيدِ الشمسيِّ ، ما الغابةُ؟ أقواسُ فُرْخِ
تقرِّعُ البابِ ، ولكنني أسيرُ الخدرِ الآتي من البأسِ ، وقلبي ذهبٌ ،
عُمري بِنوحٍ ذهبي .

أغتنقُ الحاضرَ بي . .
أغتنقُ الحاضرَ بي ،
يا نَشيدي ، واعبرِ الماءَ إلى هذا المَرخِ .

كم تشبَّهتُ بأعضائي التي سالتُ كماء ،
 فإذا يجرفني الماءُ إلى «خلدة» : وارملاهُ حُثَّ الضربةَ الأبهى لتبقى
 الآنَ أبهى ، واختم الرعبَ بختم أشقر ، فالأفقُ سَيَّافٌ ، وهذا الظلموتُ
 الحيُّ يعدو كسلوقيُّ على الشاطيء . وارملاهُ أَحْكِمَ رَمِيَةَ الرَّاكضِ من
 نرجسةِ الأرضِ إلى حُلْمِ المِياهِ .

(مَصَّتِ البارجةُ الأولى ، وعادتُ أختها

فتلقاها العُراهُ

بحديد لِيْسَن كالروح) هل كان الإله
 أرقاً يا ماء كمي يحضّر هذا الهزجُ محمولاً على ثيرانه الزرقاء؟ كم
 هرطقة توجت البحرُ فأجفلنَ مراياي . يرايبعُ استطارتُ من ضباب البحر .
 عهدي . . . أيُّ عهد لك يا ماء؟ مديحي أشقرُ كالصاعق . الشاطيءُ جرسُ
 الهمسةِ الأولى لحربِ هرولتُ ثيرانها بالرملِ ، بالأرضِ التي تُشهرُ من رملِ
 سيوفِ الترفِ .

أيُّ عهد ، وأنا ابنُ الخزفِ

أنقرى الروحَ في تأويلها

فأراني كالجالاتِ مُضَاءً بغدٍ مُرتجفٍ؟

وأراني . . . من يرى الحاضرَ مُرَخًى فوقِ ثديه كَشَعْرُ ثَمَّ لا يستلُّ
 مِسْطَ الأفقِ؟ بطُّ زبدٍ حولي ؛ ديكٌ وإوزاتٌ من الماء ، دجاجٌ حجريُّ
 الريسِ ، سُورٌ وسياجاتٌ : أنا مزرعةُ الله ، سترعى عشبي الأرحامُ كالماعِزِ ،
 غيمٌ وخنائيصُ دم زرقاءُ ترعى جسدي الأزرق . واليومُ الرُّعَاةُ

سوف يقتادونَ ماضي ككبش

بأتان الحاضرِ المُجفَلِ . لُمِّي يا حياةُ

زُردي المنثور ، لُمِّي خُوذَ الموجِ التي بَعَثَتْها

بجناحيّ ، فريشي ورق يغسله ماء أجاج ثم يستدركه الماء الفرات .
وأنا .. أين أنا؟

أغمض المنفى جفوني فتفتحت متاهاً ليس يحكى :
كل منفى يسلس الغيب الذي يقتاده
نحو حبري ، وإذا الحبر تشكى
رست الريح ببطش ، أضحك الماء وأبكى .

(في حزامي قبله
تتدلى ،

وعلى سطح العمارات سماء تتدلى
مثل إحليل من الضوء ، فيا هذا المدى
لا تلمني إن توسطت عذاراي بومضٍ وشظايا
ضمختها عذرة كالأي تتلى .

في حزامي قبله
جعلت زمزمة القبلة أعلى) .

واحديده ...

(تهاوى جاري الأعرج قرب الدرج
فتراكضت إلى أطفاله
عَلّني أوصد باب البيت كي لا يلمحوه
غير أنني لم أجذ من ذلك الباب سوى أقاله
وسكون يتمرأى في حطام لزج) .

من أنا؟ أمسكتُ أنقاضِي كفانوسٍ ، فدارتُ حوليَ الأيامُ في أسماها
تقرأ ما يسقطُ من خوخ وتين . حاضرٌ بي حاضرُ الفلِز . حديدٌ يتعرَّى . من
أنا؟ فانوسيَ الرملِ أضاءتُهُ مِياهُ . وامياهُ انحسري عن خصيتي
هذه الأرضُ فروجُ ،

وأنا السهمُ النَّبي .
لي منفاي ، فَمِن أين بلادي سوفَ تستحضرُ منفاها؟ . عويلٌ يضربُ
الشرقَ بغُصنٍ مرمرى .

والمسافاتُ التي أغلقتُها
بغباري ، تفتحُ الماءَ علي
فإذا بي هجرةٌ يودِعُها البرقُ بيوتاً وعذارى .
وإذا بي . . واحديدهُ أرفعُ العاصمةَ ، الآن ، إليك
بخطاطيفٍ من الشَّعرِ ، وبَعَثَرُ هذه الأقدارَ كالقمحِ عليك .

واحديداً من دُعابات وهمس ،
واحديداً يُؤكَلُ ، الآن ، على مائدةِ البحرِ ؛ حديداً غافلاً عن شهوةِ
الغيبِ ؛ حديداً كابتهاجِ الشجرِ الأعمى إلى الكاهنةِ العمياءِ في خُضْرَتِهِ ؛
واحديداً ثرثرَ التاريخِ في حضرتهِ
بكلامِ صَدِيءِ ،

رافعاً تجوى من الملح ومن فقهةِ الرملِ إليه ؛
واحديداً ضَمَّ في شهوتهِ
جُنْدَبَ الفجرِ ، اختطفنا بيدِ زرقاء ، كُنْ عيدَ نباتِ ، وادفعِ الحاضرَ
كالبيطينِ يَدْخَرُجُ حَتِيثاً من غدٍ لاهٍ إلى لاهٍ سواه .

(كنتُ في ذاكَ المتأه)

كابن أوى .
كنتُ ما تقتله اليابسةُ الجذليّ ، وتُحييه المياهُ
لم يكن لي غيرُ منفايَ صدى يُرجعني
صوبَ أعضائي ، وكانت تتهاوى
شرفات شُرُفات ،
وزُفَاقاً فزُفَاقاً ، حَجراً بعدَ حجرٍ .

إيه ، مثلي كم تغاوى
مَطْلَعاً في غضبٍ ،
أو عُصاراتٍ بها يهذي الثُمرُ .

وغواياتي غواياتُ مديحٍ .

مرّ بي الشاطيُ ، مرّت موجتان ،
مرّ بي البحرُ ، ومرّ الأفقُ الصلْدُ على بغلِ جُمانٍ .
مرّ بي مدّ فراغٍ ، والورائيُّ الفراغُ ،
مرّت الأرواحُ ، والآلهةُ ، الأعمقُ من أعماقنا .
مرّت النفسُ التي تُوهِمنا
أنّ للربِّ فُروجاً كالملكِان .
مرّ درعُ فتهياتُ وحيداً كحضورٍ يُغلقُ الأعماقَ ، والفرجَ السديميَّ على
صوتِ مني ، وتهياتُ أباريقَ من الأجرِ دارَ الخزفيِّ البرقِ في البهو بها
فالسُّكاري مُدُنُ أسرى تفرُّ .
وأنا أُرْجِعُ ما فرّ إلى خنْدِقِهِ :
خنْدِقِ الرعبِ ، وأمحو فيجاريني الممرُّ .

ليس بعدي من يكيلُ البَعْدَ في ميزانه .

كنتُ هذا ،

كنتُ حقلاً ، وشذى زهر نحاسي ، نحاساً ، وحساسين من الزئبق .
كنتُ البرهة الكبرى لظل ، وغدافاً يخرقُ العُدرة كنتُ . . .

كيف مزقتُ المواثيقَ ، وجثتُ

بمواثيقَ من الصُّعترِ؟ يا «خلدة» يا أحشاءَ أحشاءٍ ، ويا بوقَ غدي

أمهلي عاصمتي ، واقتطفيني

كَبِداً عن كَبِدِ .

واجمعيني ، بعدذا ، كي تجمعي اللألاءَ الزرقاءَ للحاضرِ ، كي تكتملَ
الدورةُ في هذا الحديد الحي . يا للحي ، أهرقتُ هباتي تحت ثدييه
المسائين ؛ أهرقتُ المساء

فوق ثدييه ؛ التمسْتُ العَبقَ الصوئيَّ من غيبٍ لكي يمنحه

عَبقَ الهَرَجِ المُضاءِ :

(أيها الهَرَجُ الذي يخلقُ من لحمٍ سحاباً ،

وشموساً من لهاثِ الذُكْرِ ؛

أيها الهَرَجُ الذي يجري على أفلاكه

من مكانٍ لمكانٍ حَجَرٍ

لا تلامسُ شهوتي بين شِبَاكِ الشُّهواتِ .

قلتُ للحاضرِ أغلقتني على «خلدة» فاستوقفني قربَ النَّباتِ

فجذوري في علاءِ عبقِ

ولأوراقِي ائتلافُ الجُرُزِ) .

كنتُ هذا ،

كنتُ ما يجمع من ماء نسيج السُّهَرِ
ويسوي الرَّمْلَ في قيدي ماءً .

كنتُ . . . يا للحيِّ ، أوثقتُ إلى أعضائه
قهقهات الأزل . استذنيته حتى يراني في غوى أشيائه
وتهكَّتْ ، فجاءا

لاعقاً تاريخه الأغير كالخصية ؛ كورّت على خصيته
ناره الخنثى ، وأجرئت الخيانات مذبذباً في مطاويه ، فأرغى خيلاء .
. . . لا تسلّمهُ ، إلهي ، لسوائي
وأنا أزعجه لهواً غيباً ، وهباءً .

قلتَ : « لا تغضب » ، إلهي .
قلتَ : « هذا خلقي الأصفى » ، فقعرتُ مدائي
تحت ما يسقط من زيتونه
غير أنني حين حاصرتُ حصاري ،
وتتبعتُ إلى «خلدة» أجراسِ هواي
رجعَ الحيُّ إلى ملهاته ،
والمكانُ الصلْدُ أفضى بي إلى ملهاته ،
فإذا البحرُ سلاحي ويدي .

(أطلقِ القاذفَ ، أطلقه ، وفجّر هذه الأمة في مضجعها ؛
فجّر البابَ الذي أوصدتِ الأمةُ دوني .
أطلقِ القاذفَ يا طفلُ على الماءِ الكَمِينِ .
أطلقِ الأرضَ كَتيسٍ ، وتجمّع في هباتي

غاضباً من أزلِ الله ، ومن شعبِ تسامى بالفكاهاتِ ، ومنيّ
فأنا ألفتُ ما كانَ أمامي وورائي
بخيوطٍ ، وصدى رثٌ على التؤلِّ المَسِينُ .

أطلقِ القاذفَ ، يا طفلُ ، وعُدْ بي لَكَميني
حيثُ تستشرفني الريحُ ، وتلقي
دِرْهمَ الحيِّ إلى الريحِ وشحاذِ السكونِ) .

يا حديداً مُترفاً كاللَّهُوِ ، يلهو بحديدي
صدىءَ الليلِ من الهولِ ، وما زلتَ شهياً كَنَشِيدِ .

نيقوسيا - شباط ، آذار ، ١٩٨٣

الضباب المتزن كسيد

١

إنها المشيئة التي تضرب الأرض بقناعها ، وأنت رنين الضربة . فتموج
إذا . تموج منزلقاً من ورقة إلى ورقة ، ومن لهاث إلى لهاث ، وأقضم الأبدية
بأسنان الخنشار .

لا تقل إن الصاعقة المتدثرة بمعطفها الفرائي هي لك .
لا تقل إن العذوبة سوطك الذي تقود به جياذ النبات ،
والنهار إوزة شردت من حقلك الحديدي ، بل التمس ذاكرة التفاح
بكلمات العُصن ، وأطلق يديك كذهب مطحون .
غزالتك هناك ؛ غزالتك البللورية تحت الشجرة البللورية ، وقلبك هنا ،
يهز قرنيه ليرد الفجر ذا الفراء عن سريرك الذي يهوي عميقاً ، إلى حيث لا
نعاس يرمى بقراته البيضاء .

إنها المشيئة التي تضرب الأرض بقناعها ، وأنت رنين الضربة .

٢

فلتتفاوض كسيدين .
أجلس هنا ، أمامي ، فأنا جالسٌ ومعني ما تريد ،
وحقق في كما ينبغي لخصم أن يحدث ، ثم ضع على المنضدة ما

تحتوي جيوبك :

الحديقة أولاً . إنني أرى الجذور تحترق السترة ، والتراب يُعْفَرُ
قميصك . هنا ، على المنضدة .. الحديقة أولاً .
ثم هاتِ السحابة تلك ، التي تبللُ حوافِ القبعة ، وتتدلى خِصَلُ
باردة منها بين خصلات شعرك . وهاتِ القوسَ قُزَح ، ذاك ، المائل على
صدارتك المذهبة ، هاتِهِ .. هنا ، على المنضدة .

لا ، لا تكنِ شاحباً ، ولنتفأرضُ كسيدين ، فمعي ما تريد .

اجلس أمامي ، وضعِ على المنضدة ذلك البهاء الذي آتعبَ مديحي ؛
والمسافة أيضاً ، مسافة الغضبِ المؤطرة كصورةٍ جدُّ .. هاتِها ، وهاتِ المساءَ
المتدلي على صدركِ كربطة عُثْق .
وافتحِ أزرارَ سترتك لأرى ما تبقى . نعم نعم : نجمةٌ مختبئة ، وبقايا
معركة ؛ مسرُحٌ وبلابلُ نائمةٌ فوقَ سيفٍ .. ضعها كلها هنا ، كلها ،
وكذلك الحريقَ الذي لم يبدأ بعدُ .

لا تكنِ شاحباً ، فمعي ما تريد .

٣

مُتَخَنّاً بالحدائق ، مائلاً كقوسٍ يمتدُّ من الذهب إلى المديحِ ؛
هكذا يتمدُّ ظُلكَ على أشياءي ؛
وبعونِ صوتك ، وسمَعِكَ ، يأخذُ الوقتُ طريقَهُ إلى الكلامِ الأخيرِ .

أصارحكُ بالسُنُونُوةِ الميَّتَةِ على سلكِ الشارعِ ،

وأصاركُك بالجليلِ ذاك ، الذي يُرى من شُبَاكي رافعاً مِطْرَقَةً ضبابه
فوق حُطام الشَّفَقِ .
أصاركُك بأنينِ الباب . . أنا الجالسُ هنا ، أمامَ صَخْنِ الرَّجُلِ الذي
قُتِلَ في البابِ فلمْ يَلْمَسْ وجِبَتَهُ .

أميري ، يا عافيةِ الظلامِ ، تسلَّلْ من الفضيحةِ إليّ .

٤

«الضبابُ المتزُنُّ كَسَيِّدِ يطأُ العتبةَ النباتيةَ» : ذلك ما تقولهُ الخادِمُ
لسَيِّدتها . لكنك ، أنتَ الواقفُ بزهو من كسرِ أصْصِ الوردِ ، وبعثرَ
اللِّبْلَابِ ؛ أنتَ الواقفُ طويلاً أمامَ الحديقةِ بِمَقْصَاتِكَ وَمِعْرَقِكَ ، وعلى
يديك أثرٌ من سَمَادِ طريِّ ، لا تَرَى ذلك .

تطأُ العتبةَ ذاتها ، حيث يطأُ الضبابُ ، ناظراً أبعدَ مما تنظرُ الخادِمُ ،
وترجعُ صارخاً : «أسكتني . إنهُ ينذرُ الثُّبَاتَ ، وَيَقْتَحِمُ ببهلواناتهِ
المضحكين» .

أحذيةٌ من ضبابٍ ،
وعُكَّازاتٌ من ضبابٍ ،
وأجدادٌ نَسُوا المدخلَ إلى حديقةِ بيتك :
ذلك ما لَنْ تقولهُ أنتُ :
ذلك ما لَنْ تقولهُ الخادِمُ لسَيِّدتها .

الطُيُوفُ التي من سُمْسُمِ ترفعُ الفجرَ كالسُّتَارَةِ ،
وأنا ، أَيُّهَا الشَّهِيءُ الْمُزْتَبِكُ كجناحِ الزَّيْرِ ، أشتقُ طريقي إليك بشبكةِ
المصارعِ وحرزته .

لُهاثي كَرَفَسٌ ، وعَرَقِي صواعقٌ من فراءِ ناعمٍ .
قد تُفَلِّتُ مني أَيُّهَا الشَّهِيءُ الْمُزْتَبِكُ هنا ، وقد تُفَلِّتُ هناك ، لكنني
الحيرةُ التي تُدركُ اليقينَ ، والظلمُ السلطانُ الذي ينحسرُ وينتشرُ ، حتى
لكأنَّ قبضتي ، وخذها ، هي الأكيذُ الذي يتحصنُ به الشكُّ المُتَعَبُ ،
والغامضُ الهاربُ من قَدْرِهِ المُفْتَضِحِ .

أين غمضي سليلي؟ أين تمضي يا شهياً شُغِلتَ به الأنوالُ ، وحاكهُ
الظُّلامُ؟
كلُّ شيءٍ مُطَوَّقٌ بي ، فالينابيعُ جُعْبَةُ سهامِي ، والنهارُ كَلْبِي .

سيوفِ الجليدِ ، ومنجنيقاته ، تفتحُ الأرضُ طريقها إليَّ .
بزيزاتها العدميةُ ، وشعوبها التي أتشممُها كطهوٍ مرٍّ ؛ بساعةٍ يحملون
أحشاءهم كالبريدِ ، تفتحُ الأرضُ طريقها إليَّ .
وأنا ، كَجَسُورٍ ، عاكفٌ على لهويٍّ لأبذُرُ إرثَ الغريبِ وأقدارهُ .

من سيصلُ ، أيتها الأرضُ ، من سيصلُ؟
ذبايحٌ من رخامٍ . مغيبٌ صقيلٌ ، ولهوٌ مخضبٌ بأنينٍ . صقالاتٌ تحمل
المدينةَ ، وفجرٌ كالسُّترةِ . غداً ، غداً . دغٌ كلابك أمامَ البابِ ، دغُ المغيبِ

وانزل عن المرساة ، فالأعماقُ أعماقُك . غداً ، غداً ، كصاعد ، لا ، كحكمة
تحت ورقة اللبّاب ، يلمحك الغبارُ العابث . وألأتك؟ لا . شفافة ترفعُ
الآلة الصّقيلة . مياهُ تلتفتُ ، والصاريةُ بين يديك . مَنْ سيصلُ ، من
سيصلُ؟ . غنيمةُ النّدى الأسيرةُ وعويلها ، غنيمةُ النباتِ أنت . أصرخُ:
أفق؟ لا .

صباحكُ البوّاقُ يطلقُ النّفيرَ ، والجبلُ يعدو .

من سيصلُ ، أيتها الأرضُ ، من سيصلُ؟
صديّ كأت سكران . صديّ كدمية في الواجهة ينادي العابرَ ، والروحُ
تحرقُ أزبأها . أتبعني يا بيت لئنلقي نظرةً من شباكك على المزهريّة ، ويا
زجاج النافذة تفتحُ بي كقهقهة تمشطُ شعرها . لا . عابثٌ مثلي مرّ بالشفق .
عابثٌ مثلي مرّ فأطلقتِ الملهأةُ إوزها . عميقٌ هذا . عميقٌ هذا . صرخةُ
ترتطمُ كالرّيزِ بشجرةِ الأغاني ، والمكيدةُ تستسلمُ لمرآتها .

مِنْ سيصلُ؟

من سيصل

أيتها الأرضُ؟

شبحي يضيءُ سراجَ الأشباح ،
والقيامةُ تنثر التوتَ على الكفنِ الذّهبي .

٨

للبحيرة ، خلفَ الباب ، طرقاتها ،
وللعراء ، خلفَ درعي الأملس كرداء الأمير ، طرقاته ،
وخلف المياهِ طَبالونَ ، وعرائسُ من صرخاتِ الحمقى .

أماه ، ضعي سلالك هنا ،
ضعي المكان كَخَفَيْنُ أمام الفراغ لضيفك السُّكران ،
ويا أبي أجعلُ سَهْرَكَ مديداً ، وتوسِّدُ - كما مِنْ قِبَلُ - أبارك
العميقة ، حيثُ الفضاءُ دَلُو ، والغبارُ حَبْلُكَ السُّكْرِي .

طَرَقَاتُ على كلِّ باب .
طَرَقَاتُ على الحطامِ الأكبرِ ، والسيْلُ يزخرُفُ الدروع .

نيقوسيا ١٩٨٣

منزل يعيث بالممرات

السور:

هكذا ، قُرْبَ حِجَارَتِهِ ، قُرْبَهُ ، قُرْبَ النَّبَاتِ الْمُنْدَلِقِ مِنْ قُرْبَةِ الْحِجْرِ .
هكذا ، بسطوع ما يتراكمُ بهذيانِهِ الْمُجَلِّجِ فوق الحافة الشمالية ،
وبصوت في الشجر المنبثق أعلى من الحافة الشمالية ، حيث تتقاربُ
ضفائفُ وتتفصلُ متكئةً على مجاذيف العظام وصرخة الثمر المتساقطِ مثل
أجاصاتي إلى المجزرة ؛ هكذا ، نَعَمْ ، لا يرسم يدونه الفجرُ على الباب ، لا
بخريف خافت كَوَسْوَسَةِ إناء يختطفهُ الشَّارِبُ ، أو بحبور يعرضُ على
سهمه المرجاني ، بل بنقر شفيف على البوصلة الشفيفة يرفعُ المشهدُ قيودهُ
إلى اليدِ التي تهزُّ مفاتيحها في الظلام .

حجارة الباب ، بابٌ في حجرٍ شهبيٍّ كإغماضة . وأنا أرفعُ الترقوةَ
الصُّلْبَةَ للظلامِ إلى غماماته الصُّلْبَةِ .

.. وسور ، نعم .

محضُ درجٍ وطيء ، وحجرٌ مهرولٌ .
بابٌ ، وبابٌ في البابِ وغدٌ في قفله . ورخاءٌ تقنعتُ محظيَّاتهُ
باللِّبَابِ : شُبْهَةٌ تُعْبِرُ ككَمْشَرَى ، وصريرُ البوابةِ يرمي مخدته إلى الشفيفِ
العالي .

الحديقة :

بالآتِ الزهرِ الرُهيْفَةِ ، وسلاالمِ الشجراتِ ، يُبدعُ الصَّخْبُ نقشَهُ
الأكْمَلُ على خَرْفِ نَشِيدِي . والورقةُ تهْمسُ الورقةَ ، العشبُ يشتغلُ على
لهبه ومُجونه ؛ السماءُ التي تحاكي الظلَّ ، من فوق ، تَزِنُ بِقَادِنِهَا الغيبَ
المائلَ كحائطٍ ؛ وحروبٌ في نسغِ كُلِّ شيءٍ .

غفوةٌ كنهَارٍ مقدوفٍ من شرفةِ الجليلِ تستبدُّ بي .

غفوةٌ تصلني بالأرضِ وتحجبُ جهاتها . . . والحديقةُ لي :

بضربةٍ ؛ بستةِ أيدٍ تُخني عليّ بالضربةِ تتشظى الحديقةُ معي ، أو
تنفلتُ كسُنْجَابٍ ، وأنا أمدُّ يديّ بالبندقِ واللوزِ : صديقتي ، يا شرارةِ
الحدائقِ كُلِّها ؛ يا حديقةِ المساءِ المطحونِ الذي ينتثرُ على خوذتي ، بالغبي
قليلاً في مديحك لي ، وارفعي المكانَ إلى بركانه ، والذُّباباتِ البيضاءِ إلى
الروحِ ، فما منَ ماءٍ سيخبرني بالذي يُحبرُهُ الماءُ ؛ ما منَ رسولٍ سيُملي
عليّ رسالةَ البرعمِ الأسيروعرباتِهِ الناجيةِ .

خيامي كُلِّها ، أيتها الحديقةُ ، خيامي كُلِّها ؛ نبعمي المتكسِّءُ على
عصاي ، وجبلي الذائبُ كفضةٍ يصكُّ الغمامُ عليها صورةَ الغابةِ ؛ هالتي ،
ووترِي المقطوعُ الذي يسقطُ منه سهمي إلى مَقْتَلِي ؛ رسولي ، وثورِي الذي
يطحنُ الشجرةَ بعظامه الخضراءِ ؛ مكاني ، ومصابيحي ، ومائدتي التي ترفعُ
الصُّحُفَ إلى ضلالةِ البهاءِ . . . كُلِّها تتكسِّءُ على البابِ ، وروحي تقرأُ
الورقةَ المستظلةَ بأنينِ الشجراتِ .

بالآتِ الزَّهرِ ، بك أيتها الحديقةُ الضائعةُ في جهاتِ يدي ، سأمسكُ
الرُّسْنَ الأقوى ، ناظراً إلى ما ينحدرُ من الصُّرْخَةِ العالِيَةِ ، فلي موعدُ
الجدورِ ، واحتدامُ البعيدِ . وإنْ نسيتُ شيئاً من مباحِجِ الوداعِ وهسهساتِ

مهاميزه ، فسيدركني الظل الرسول ، أو النبض الرطب لثمرة سقطت في
المياه ؛ إن نسيت ؛ إن نسي الوداع شيئاً من مجوني الذي قَسَمَ الشجرة بين
جهاتها .

هكذا كل سيُدرُك الذي لم يفته . كل سيُدرُك المُدرُك ، وينسى بطش
الذي فات .

بآلات الزهر تتواطأ الأرض على نفسها .

الدرَج :

خبزٌ مرميٌ كَشْرَكَ ، وبهاءٍ مدورٌ كحدوة البغل ، يقضمان الخطى ،
والمغني يشدُّ العتبة إلى صدره كطنبورٍ ، هامساً : تفضل .

درجٌ ككلٌ درج : ظلٌ مذعورٌ ، وفطرٌ أخضرٌ ، وقواقعٌ انكبَّت بمجساتها
على الحجر تستقرئ النسيانَ المتهورَ كرُعاته الصامتين . هكذا ، ككلٌ ما
تعرفه وما لا تعرفه ، ككلٌ درج هذا الدرَج ، فلا تتأملنُ شبحك الذي
يرتقيه مسكاً برُذْنِكَ كطفلٍ رمى جهلهُ إليك فأيقظك من حكمة نهبتك
نهباً ؛ ولا تتأمل الحَجَرَ الصَّقِيلَ المُتَّفِقَ على ثقله بك ، بل تقدّم ناظراً إلى
العتبة وحدها ؛ ناظراً إلى عظامِ العاصفةِ المملحة ، والهديرِ المُمتدِّحِ لشعبٍ
مُمتدِّحٍ .

بعد هذا فليمتدِّحْ الدرَجُ المُفضي إلى ظلك الشريد .

العتبة :

انتبه ، قريك حقٌ تخبيُّ الظلالُ فيه يواقيتها . انتبه ، انتبه .

فاكهةً تزيّنُ لنداءِ الفاكهةِ قربَ خطاك ، قُرْبِكَ ، قُرْبَ الرفيفِ المُتَعَتِّعِ
بما شربَ الحنينُ من يديك . انتبه .

أسيّرُ يدرجُ الدُّنَّ أمامَ العتبة ، وأنتَ القريبُ من دورتكِ الذهبيةِ
ترسلُ خطاك وتبقى حيث ترى الرُّسُلَ ينفخون في القصبَةِ التي ينفخُ فيها
النهرُ أجسادهم ، ويدورُ الخفيفُ ذو الأيدي العشر عليهم بِحُسْنِهِ المُحْيِرِ
كمنارٍ نائم .

إنتبه .

إنتبه .

العتبةُ تُلْهَدُهُ الحاضرَ ، وخطاك تُجفِلُ الغزالات .

الردهة :

الريشةُ التي عبرتِ الردهةَ في الهبوبِ الخفيفِ لي ، ستتمايلُ في
الهواء قليلاً ، ثم تستقرُّ على المروحةِ الرخاميةِ ؛ وقربها ، قربَ ظلِّها المتماوجِ
من خَفْفَةِ تحرُّرِ الرخامِ كُلِّه ، ساقفُ خالِعاً معطفي بعد تلك التزّهةِ في
القَبْلِ .

الحُجراتِ المقفلة :

بابٌ هنا ، وبابٌ هناك .

بضعُ درجاتٍ تتحدّرُ إلى أسفلَ ، حيثُ البساطُ المطرُزُّ بالخطى العَجُولَةِ
وبالشُرُثِراتِ .

بساطٌ مديدٌ يدُ وراءَ بساطٍ مديدٍ يدُ ، وهمسٌ يتقرى بيديه
السيوفِ الرميمةِ في إهمالٍ إلى الزوايا .

غدٌ كقرعٍ على صنجٍ ، وحاضرٌ يكسرُ المفاتيحَ في أفعالها .

يا مُضيفي ،
يا مُضيفي ، لا تتقدّم بي كثيراً إلى السحابة الجالسة أمام نزلها .

خروج على عَجَل :
الريشة التي عبرت الرّدهة ، في هبوبي ، رجعت ، ثانية ، في هبوبي .

وصفٌ أخيرٌ يلزمُ كلَّ وصفٍ بعد الزيارة التي . . .
سأتلو ما تلت الورقة المتناثرة على الممرات . سأتلو الممرات وأدراجها .
سأتلو تلاوة الظلِّ وساكنيه الذين يشرفون على لهائي بصباحاتهم المعلقة
من أثنائها . سأتلو الثُمورَ قفزةً قفزةً . سأتلو المراوح التي يمسُ فراء الثُمور
تحت حركتها الصلبة كزفير اليائس ، فتقدّمَن بأقلامِكُن أينها المحظيَّاتُ ،
تقدّمَن كظرافة تتبرجُّ للضبابِ الظريف ، ودوّنْ ما ترينَ مني : شهقتي ،
ونوافيري المتهتكة . دوّنْ المرءَ ذاك ؛ المرءَ الصاعدَ بتاجه الرّخو إلى الرابيةِ
حيث سأرمي ، في منتهاهُ ، غدي إلى البركةِ الملكيةِ ، وأمضي رقيقاً إلى
فجيرةِ الملوك .

. . . وسأتلو الرملَ المتهييء لي هناك : سأتلو العابرَ والمقيم . سأتلو
الأعمدة كلمةً كلمةً تحت إطلالة التماثيل المتفكّهة من قمم الأعمدة ،
فتقدّمَن أينها المحظيَّاتُ بأقلامِكُن كي لا يفوتني ما يُحاك وما لا يحاك .
تقدّمَن واتقات قبل أن تزلزل الظلالُ الظلالَ ، ويُفَلتِ المرثيُّ من شباكِ
أشكاله ، ثم دوّنْ ما ترينَ من المرءِ الذي ينتهي إليّ متباطئاً في أغلاله
البيضاء ؛ دوّنْ حركتي وقناعي ، دوّنْ الدهولَ المسكَّ بقُدالِ كلبه أمامَ
المدخل .

(تشهد التماثيلُ كلها .

تشهدُ الأعمدةُ ، والبركةُ الفارغةُ قرب الأعمدةِ ، أني
تنزهتُ قليلاً هناك) .

... وسأتلو الغوايةَ ، أيضاً ، بصوتي الذي لا صدَى له ، متكثراً على
سور الجسر فوق الرابية ، هناك ، حيثُ تميلُ الطُرُقُ بعيداً عن يدبكَ القويتين
- يديّ المدينةِ المتدثرةِ بالأبراجِ وبظنونها ، فتقدّمُن يا خليلاتِ الظهيرةِ
الباردةِ لتسندنني في عبوري إلى الفناء المنتظر بعربته هبوطَ التماثيلِ عن
أعمدتها بعد انتهاء العُرسِ ؛ تقدّمُن حافياتِ على الندى المتجلّدِ ،
واجمعُن بالأناملِ أذيالَ أثوابكنّ حتى لا يُشَتَّتَ الخشيشُ زُهبةَ الدمِ الذي
يبني الهياكلَ حولَ سريري .

كنتُ هناك .

كنتُ أتلو البسيطَ من كتابي عبر الردهةِ الأخيرةِ ، ملتفتاً حيناً بعد
آخرٍ إلى القوسِ الحجريِّ .
كنتُ هناك .

كان أطفالُ صديقي هناك أيضاً .
كان صديقي هناك ، وكانت زوجتهُ ، وكان الجليدُ الخجولُ متناثراً
كنظراتِ الصقْرِ في الفناء الذي تأسره التماثيلُ برقاهِ الحجرِ .

(هكذا ، إذأ ، رُوِّضَ المشهدُ جسارتي ،
ورُوِّضَتِ الرابيةُ السفحَ المتكوم كجريحٍ) .

إيه يتها الأدرجُ الواهنةُ التي لن أطأها . إيه أيها المكانُ الذي يتسلَّقُ

الظهيرة كغبار مفجوع . إيه نفسي نفسي نفسي : بعصيان واحد ، وضربة واحدة ، ستأسر الهرطقة هذه الممرات ، وسأبقى حيث يبقى الحاضر الخجول ، هنا ، تحت القوس المشتعل بفكاهة مرصعة ، جاذباً وتري لأرمي سهم الفضيحة ، فإن أصبت ترامي المكان ودعياً يبسط المواريث كطنفس ، وإن نبا الرمي عدت إلي بعصيان الشجر كله ، والظلال كلها ، ناظراً ، ثانية ، إلى الأفق الذي يجمع السهام لسطوتي الثبيلة .

كنبيل ، إذا ، ينبغي أن أروضَ المشهد الذي روضَ الجساره .
كنبيل سألنق صحاف الفاكهة من الأعلى ، هاتفاً بخليلاتي : دون
هذا ؛ دون ذهبي المذروؤز على قرون الجليد ، وارفعن خَمالات الريش لأتقي
وهج الأجنحة ، فأنا شبكة المديح التي يتخبط فيها عقاب المديح .

ندوري ، هذه ، إليها .

ندوري ، وهباتي ، شكيمتي وطبعي المتدحرج كتين إلى هاوية
الفاكهة .

يبد أني أشم الفخاخ بين جسور المدينة وزرد البحيرات ، إلهي ؛
وأترقى بيدي عناقيد اللهب الراض من قوس إلى قوس ، كأن بي تواطؤ
الحجر على خلود الهباء ، وشروؤد الجسور عن نفير الجسور .

بنفير واحد ، أو بشرؤد واحد ، إذا ، سأطوق الشتاء المتمدد على
الرابية ، هناك ، حيث الأعمدة التي يدور من حولها أطفال صديقي
بمخاطفهم السمكية ؛ سأطوق المغيب المتقلد صولجانات ضبابه ومراثيه ،
وسألجيء الهارب من نعيم الحجر ؛ سألجيء الحجر هيئة وسديماً ، قارعاً
بالأنامل قرعاً خفيفاً على زجاج المساء المعسكر ببهلواناته وراء البركة
الفارغة . لا ، سأدفع البركة ميمناً ، والأعمدة شمالاً ، فاتحاً لهواي ممره

العدمي :

دَوْنٌ هذا ، دَوْنٌ هذا يتها الخليلات :

عاصفاً يبدأ الشُّكْلُ ، عاصفاً ينتهي .

عاصفاً يبدأ المكانُ ، عاصفاً ينتهي .

وأنا أحرِّضُ التماثيلَ ، على قممِ الأعمدة ، أن تطلقَ قُمْرَيْهَا الجريحِ

من شِبَاكِ الحجرِ .

غير أنني سأتلو الحجرَ جناحاً جناحاً ، وسأتلو البحيرةَ خلفِ الرابيةِ
طعنةً طعنةً ، موشكاً - وأمسكُ نفسي - أن أضْرَجَ الغدَّ كله بهبوبِ يشوبه
الرِّزْعِفرانِ . موشكاً أن أقتحمَ الهياكلَ بالهياكلِ ، والأدرجَ بالأدرجِ ،
وحسبي الغوايةُ التي تُدْحِرُجُ قُفْفَ العُنَابِ بِرِكْلَةٍ من قَدَمِهَا .
دَوْنٌ هذا ،

دَوْنٌ هذا يتها الخليلاتُ ، وأحِطَنَ بي ليكونَ للخطواتِ ثِقْلُهَا الأَكْثَرُ
جهامةً في العصيانِ العظيمِ .

هكذا ،

خفيف

يد ،

يفاً

سامضي إلى فجيجةِ الملوكِ ،

هكذا سأنتثرُ بهاري على كلِّ مائدةٍ ، وأرفعُ الأرضَ بكلاّباتِ النحاسِ
إلى هَيَاتِي . وسأتلو ، بعد هذا ، النوافيرِ الصامتةِ في فناءِ القصرِ على
الرابيةِ ؛ سأتلو الشِّعَاعَاتِ الخفيفةِ التي تدفعُ عُجُولَهَا إلى النشيدِ ، كأني
الظلالُ تشقُّ عن دورِهَا الظلالَ ، عجلي ، تتداني ، أو تتداني نفسي ممراً

مراً ، وزينة زينة . سأتلو نفسي أمام الحفيف المُفْتَضِحِ للحجرِ ، إلهي ؛ فليأذن
الجليدُ لي بأنين تتأرجح أنداؤه بين التماثيل وبين المياه .
وليأذن المغيبُ لي بسهم أفوقه ولا أرميه ، ليأذن لي بذهولٍ من
المشارفِ هذه ، ساهرٍ كنجعةٍ تضربُ الفراغَ بمنقارها الذهبي .

(لم يكن عليّ أن أستسلم هكذا في بوتسدام .

لم يكن عليّ أن أخلع معطفي في تلك الحانة . بل أن أقف في بابها الذي يعلّقُ
الضبابُ عليه مفاتيحه وحدواته الثلاثة ، مستتراً ، كغريبٍ ، بهذيانِ الفرات .
لم يكن عليّ أن أستسلم ، هكذا ، يا صديقي ، لجمالٍ يُزِيدُ كلَّ بُرْعةٍ في رَهانِهِ ، لم
يكن عليّ أن احتملِ البلاغةَ الأكثرَ انشغالاً بما لا يُقال .

في بوتسدام ، في حانةٍ يعرفها صديقي ، خلعتُ معاطفي المائة التي من كُرْاثِ ،
وتوتِ ، وحرشوفِ ، وبقلاؤه ولفّاحِ ، وعدسِ ، وكرفسِ ؛ خلعتُ الشمالِ المؤمنَ على كنوزِ
الحمى ، داخلاً بفخاخي المكسورة عليّ ، داخلاً على الحاضرِ بكؤوسه الفارغة .

أيّ بطشٍ هذا ، صديقي؟

أيّ بطشٍ لا يعلّقُ معطفهُ ، مثلي ، على مشجَبٍ في بوتسدام؟

خفيفاً

خفيفاً سأهبط الدرجَ كما جئتُ ،

وستهبطُ الأعمدةُ ، من ورائي ، ماسحةً بفرجونها مجرّةً النبات .

خفيفاً سيرفع المغيبُ محبرتهُ إليّ ، والرياحُ أقلامها ،

وبلهفة الخفيّ إلى نزهة ، باحترام ، بكَيْدِ الوقتِ للوقتِ والدُّعابةِ

للدُّعابةِ ، ستهرعُ السهولُ المعتمةُ ، هنا ، إلى أنوالها ، والجليدُ إلى نقوشهِ

التي لم تكتمل، كأني سأنابطُ القماشَ والخزفَ، معاً، في عبوري من
خيالاتِ الضبابِ إلى أزقةِ بوتسدام .

(خيالاتُ كلِّها ، صديقي .

خيالاتُ كالذراقِ بين يديْنِ نقشنا الغيبَ على درعي .

خيالاتُ كأطفالِكِ وهم يلقون على المائدة حلوى ذائبةً . حلوى خيالاتِ ، سُغنُ ،
طيشُ حجرٍ يضربُ بجناحيه جدارَ الحانةِ كغرنوقٍ مدعورٍ . والضبابُ يجزُّ ، خلفَ النافذةِ ،
بمقصّاته الكبيرة فراءَ الملهاة .

أيُّ بطشٍ هذا ، صديقي؟

أيُّ نشيدٍ ينتهبُ النساءَ ، ويسوقُ أمامه الحانةُ ورسيف الحانة؟)

والمغيبُ أيضاً سيهبطُ الدرجَ ، مثلي ، إلى حيث تمضي المدينةُ
بزحافاتِها صوبَ أبوابِ الخبرِ . وإذ سأسندُ كتفي ، ثانيةً ، إلى عمودٍ ، في
انتظارِ إشارةِ المرورِ من رصيفٍ إلى آخرٍ ، لن أعبأ بالهتافِ الشملِ الذي
يطلقهُ مصيري من جهةٍ أخذتُ كلُّ شيءٍ ، وأبقتُ عليّ ، هنا ، هابطاً درجَ
قلبي ونهَبَهُ ؛ هابطاً درجَ كلِّ شيءٍ ، كأني سأعيدُ إلى الملوكِ خواتمهم ،
وإلى السُحْرِ نُموره الهاربة .

وأنتنُ ، يتها الخليلات اللواتي تتأففن من شرودي ، ابقينَ حيث أنتنُ ،
تحت الظلِّ الذكوريِّ وعرائشه المتكئة على تماثيلِ الساحةِ ، هناكَ ، وسطَ
المدينةِ ، وسطَ اللواعةِ التي تكتُمها الجسورُ الممسحةُ كالقططِ بشدييِّ
المصارعِ الأعمى . ولا تَقْلُنْ وداعاً إذ أنتهي إلى الضفة الأخرى من جداولِ
الرّخامِ هذه ، لا . انظرنِ مَلِيّاً في الذي دوّنتنُ على اللهاثِ العاليِ ،
وتراجعنَ قليلاً قليلاً ، بمراوحنَ ، بالقلاداتِ التي نسيَ المغيبُ على

جُمانها عويله المترجج كالندى .
فلألح ظلالكن ، وحدها ، في مكيدتي ،
فلألح الدُعاة التي تُدحرجنها إلى هواي .

كم عليّ أن أبقى هنا بعد كل ذلك؟
كم عليّ أن أشدّ المدينة كسهم إلى وتر اللهاة؟
كم عليّ أن أرمي الرُميّة ذاتها ، بالهياج ذاته ، لتتفجّر المحبرة في لهائي
هذا؟

تقدّم .
تقدّم وحيداً بجمالِ شرودك أيها الغريب .

نيقوسيا ١٩٨٤

قلق في الذهب

إبتدعُ أيها اليأسُ في مهيبكُ ياسي
وليكنْ قرآنُ يعجلُ الخواتيمَ ، والعرسُ نفسي
وليكنْ سهَرُ الغبارِ من عليينَ يرمي عليَّ الحليَّ حتى أبدأَ بعضي
في امتداحِ الغبارِ ؛ أو أستدقُ كالسهمِ حتى
تمهدُ الريحُ بي غدرها وهي ترمي منازلَ الماءِ شتى .
ومن ختام ،

من غد أو زنين ،
من مجاهلَ تعلقو كهندباء ، ومن لهاث كأرض
يجردُ القلبُ سيفه الرمادَ : هاكم شهودي ما بين إبرامِ شكلٍ ونقضِ
يدججونَ البعيدِ بي أو ببعضي
لكأني فرغتُ من عبثِ يرسلُ الخرابُ في جرسِهِ البيهيِّ بجرسِ
وكان قرآنُ يعجلُ الخواتيمَ ، والعرسُ نفسي .
وأنا . . إيه يا المرّجى من ظلامِ نديم ، ومن دويّ نديم .
مُشكِلٌ يغمسُ المكانَ فيه رغيقه ، وألومضي
نوره ؛ فاصعدي من يقينِ الهباءِ ، أو من كثيفهِ المهذومِ
إصعدي يا طرائدَ اليأسِ حتى جحيمي

فالغدُ المقامرُ سكرانُ ، والوقتُ مؤلّى
يتعثرُ من خجلِ بثيابِ الندامى ، وينحني فيؤلّى
ولهذا أضيّقُ مثلما يضيّقُ الغبارُ بالريحِ ، أو أتقصي الجسومَ في هرجها

بالجسوم ، عاكفاً عليّ من ورق السرو ، والتين ، والبتولا ،
مُطْبِقاً ظَلْمِي اللَّبَوْنَ عَلَى الْبَرْقِ : يا صاح ، با بَرْقُ حَفْصُ رَفِيفِكَ ،
فَالغَيْمُ يَقْطَانُ فِي سَرِيرِ الْعَنَاقِيدِ ، وَالْأَمْسُ يَرْكُضُ فِي دَرْعِهِ النَّبَاتِ ، سَيَّانٌ
أَنْ يَسْرِقَ النَّبِيذُ مِنْ يَدَيْهِ الْكُؤُوسَ ، أَوْ يَنْقُضَ الْهَوَاءَ مَوَائِقَهُ الْأَخِيرَةَ . يا
بَرْقُ ، يا مَغْزَلاً دَارَ بَيْنِ يَدَيْنِ لَا تَرْفَعَانِ إِلَّا الْعَوِيلَ ، رَقُقْ رَغِيفَكَ ، رَقُقْ هَوَى
نَسَائِكَ يَرْفَعْنَ ظَرْفًا مَلُولاً
إِلَى الْهَبَاءِ إِذْ يَخْلُولِي ،
وَتَهْتِكُ ، فَالسَّمَاوَاتُ شُبُهَةٌ ، وَالنَّفُوسُ فِي زَرَدٍ مِنْ هَزِيمِ .

إصعدي يا طرائد اليأس حتى جحيمي .

وَأَنْتِ ؛ أَيُّ حَدِيدٍ يَمْوِجُ تَحْتَ يَدَيْكَ ؛ أَيُّ جَمَشْتِ
يَطْحَنُ النَّهَارُ فِي ظَلْمِكَ الْمَجْرُحِ ؟ أَيُّ ابْتِهَالٍ يَفْجُرُ الْعُنَابَ ؟ أَيُّ سَدِيمِ
يَرْمِيكَ كَالنَّدَى بِمَرَايَا يَسْرِقُ الْفَجْرُ مِنْهَا إِوْزَهُ ؟ أَنْتِ ؛ مَا لَكَ تَدْنُو
بِحَبْرٍ مِنَ الصُّدَى وَالرُّجُومِ ؟
كُنْتُ ذَا الْمَغْيَبِ ، حَلُولاً ، وَقَدْ
تَتَقَرَّرَى الظَّنُونُ لِهَوَاكَ مَرْحَى عَلَى وَقَارِ الظَّنُونِ .
كُنْتُ ذَا ، أَوْ ذَاكَ

تَغْسَلُ الْمَعَانِي قَوَارِيرَهَا عَنْ هَوَى فَيْكَ حَتَّى يَخْوُضَ فِيهَا هَوَاكَ
بِدُرُوعٍ مِنَ الشَّقَائِقِ . مَرْحَى مُتَهْتَهَا فِي دَلَالٍ مُتَهْتَهَةٍ . بَعْدَ لَمْ يَشِ
جَذَرَ بِمَا رَفَعَتْ صَوْبَ الْغُصُونِ

مِنْ مَكَائِدِ الرِّيحِ إِذْ هِيَ تُرْخِي عَلَى انْتِحَارِ الْغُصُونِ
سِتَارَهَا الْمَرْمَرِيِّ . لَا ، أَنْتِ مَالِكٌ ؟ رَوْغُ مَجْلَسِ اللَّيْلِ ، رَوْغُ مَدَاكَ ،
وَإِكْسَرُ عَلَى النَّدَى سَيْفَ قَلْبِكَ . بَلْ مُرٌّ مُتَرْفِئاً بِرِمَادٍ يَقْتَضُ الْفَجْرُ فِيهِ

المرايا ، وأمعن مع الجاهل دكًا

في الجاهلِ حتى يغلبَ الرعبُ من رعبِ الحياة ، أو استردك سَفَكًا
حين يرفعُ البطشُ مثلي محاربتَهُ إليك . لا ، أنتَ مالِكٌ؟ هذا خلافٌ
عليكَ حلّو ، وهذا وَجَعٌ يَغْرِفُ الحداثقَ . هذا هبوبٌ ، وهذي مكيدةٌ من
متاه كُنعمى ، وإني فُتُونُ
نَسَجَ الموتُ غزلاني الصغيرةَ فيه ، وروى عبثُ كلِّ نارِي ، فالأرضُ
ليس تبينُ .

سُكَّرَ يطعمُ الجاهلَ قلبي ، وسُكَّرَ يطويني

على فحاح من الزبيب ، وقتك يصوغهُ التكوينُ
آن أرمي بما يجعلُ الأفقَ سَيَافَ نُعمى ، وأن أزمى بماجن مسنون
من بهاء يشققُ القلبَ . يا قلبُ أوقفْ إوزك يخبطنَ صدري ، ورُدني كالرنينِ
يوجُ في كلِّ بهو . تعالَ ،
يا عشبُ ؛

هيا تعال ،

وأوثقُ غوزك ؛ أوثقُ رُماةَ يخضورك الجياحَ ؛ أوثقُ كأمسي
غدِي الجفَلُ ، فالوقتُ نفسي :

قِرانٌ يُجعلُ الخواتيمَ ، أو عضلٌ من جمادِ أميرِ
يحزُمُ الأرضَ . أمسُ من الجمادِ الأميرِ
يحزُمُ الهواءَ . أوقفْ إوزك يا قلبُ يخبطنَ صدري ، وبعثرْ على المديحِ
ذُرُوري .

ثمّ ، أنتَ ، يا شريكُ ، هذا خلافٌ عليكَ حلّو ، وهذا

مداكُ نهبٌ لكلِّ طيش ، وإني فتونُ

ذَهَبَ الهدرُ بي ، فالمكانُ نهبٌ كمينُ .

أهكذا ، أيها المعافى كطين ، تدورُ بالأرضِ حولي؟ أهكذا تتناهى

فكاهة الروح؟ قُلْ للمياهِ مرحى ، ولَمْ ما قَدْ تاها
من شمسِ المياهِ إذ تتدلَّى عليكِ في رَعْدٍ مُسْتَطَارٍ ، وَقُلْ كُلُّ هَذَا
عيونٌ

تتقرَّبُ الذي كنتَ من قبلُ . (هل كنت ما يترأى مُشْعَشَعاً كنداء
من المياه؟) حَطَمَ جَمَشَتَكَ يا قلبُ . حَطَمَ يواقيت قلبك يا قلبُ . حَطَمَ
مساءك . حَطَمَ تماثيل هذا البهاء الذي نسي المكانَ ثدييه قُرْبَهُ . حَطَمَ
فخاخك في سِحْرِ صرختي الأبدية . حَطَمَ قرونَ زهوك ، وارتفعَ منارَ الرمادِ
حتى يدلَّ قلبي قلبي

قد أن أستريح ، وحسبي
ذهبَ وجوادُ من الندى يبكياني .

قد دقَّ من كلِّ أنٍ
وصيفُهُ عظم عظمي ، وَدَكَّ من كلِّ صوبٍ
غدني حضورني علي
ألهدا يا عمرُ تكسو الأغاني
بدروع يرتدُّ عنها إلي

ظلامٌ عمرُك يا عمرُ ، والوحشتان : النهارُ والروحُ؟ : فليتقاصرْ مَداي .
وَلَيْكَ فَتْكَ ، فَتَمَّ في هباءِ مَزَيْنٍ بالطواويسِ نَقَشَهُنَّ الهباءُ فوقَ ملاءِاته ،
وتحِينَ هبوتك في قصبِ يابس ، فالرماذُ ، هذا الأميرُ
يُحصي خنائصه في خيامك ؛ يُحصي مقصَّاته ، ويدورُ
بالأباريق يسقي البديدَ من كلِّ شيءٍ ، ويمحو
ما تحوَّك القلوعُ في الريح . يا قلبُ ضيقُ يُفْتَحُ اللاكئ في صدقات
الحنين ، أم هو بوحٌ
يُسْرُ قَبْرَ به لقبرٍ ؛ أنورُ
يرفعُ القناعَ بيني وبينك؟ يا للرمادِ ، حشدُ أميرُ

فَكِهِ البِيان ، يُغوي ، فِيرتدُّ قَلبي عَلي
بشطايا من النهارِ إِذْ فَجَرَّتُهُ الظلالُ شَطَّتْ عناقيدها ؛ بشطايا
من الحِياةِ رِقْ هَواها فَبانَ منها هَوايا .

ألهذا يا عمرُ تكسو الأغانِي

بدرِوعِ يَرتدُّ عنها إِلَي

سَهْمُ كُلِّ ظلامٍ؟ عَيَّيتُ ، يا قَلبُ ، ثُمَّ عَيَّيتُ :

سَرقتَنِي الزنابِقُ فاشتاقَ جِسمِي إِلَي ، فعدتُ

مَرَحاً ، تتهادى المَرايا

خلفَ خَطوِي . لَكنتَني سَهوتُ

عَن جِسورِ الزنابِقِ فاختصمتُ ضَفَتاي حَتى رأيتُ نَفسي تُرَخى بِهذِرِ

عَلي فِراغِ كَنفِسي

وَرأيتُ المَكانَ يَسدُّ أَمسي

عَلي المَكانِ كَأني فَرغَتُ مِن عِبتِ يُشركَ الهَباءَ في شِراكِهِ وَقتُ .

ألهذا يا قَلبُ تطوي جِسوري

كَمثَلِ هَذا اللَهاثِ يَطوي اللَهاثُ؟ أَم هُوَ بِأَسي

يَشفُ عَن رِحمَةِ الوَرْدِ؟ يا قَلبُ مَتُ

واختصمتُ في رِحابِ ظلامِي أَرْضُ ؛ ومَتُ

وتَهيأتُ ثَانيةً لِلهَبوبِ فَمَتُ

وتَهيأتُ ثالِثةً لِلهَبوبِ فَمَتُ

وتَهيأتُ لِلحِياةِ فَشَقَّتْ ثِيابَها عَن صَليْلِ ، فَمَتُ .

كُلُّ قَلبٍ مَعِي ،

كُلُّ قَلبٍ عَلَي .

كُلُّ قَلبٍ هَبوبٌ ، وانَني في هَبوبٍ يَشقُّ بَعْضِي إِلَي

ولهذا شُهِبَ من نعيمِ الجمادِ تهوي على عُبابي ، ويصطادُ عمقي

صوتُ

وأنا مقبلٌ كي يبشّرُ الرّبذُ الحيُّ بي ، ولكي تتداني
في رُفاتي ملائِكُ اللّهُ والصدى . كيف يا قلبُ شقَّ هوانا
صدفات من الأنين عن خيلاء الرماذِ؟ . يا قلبُ هذا هوانا
ليس إلاّ ضربةَ الماءِ في حلّباتٍ من الماء . والحاضرانِ مديحٌ وموتٌ .

كيف يا قلبُ عدتُ

نَشأةً من عويلٍ مُرّيشٍ بأنينٍ؟ .

كيف؟ هذا كميني

مُحكّمٌ كالغُضارِ ، لكنني لم أصبِ إذُ رُميتُ فمتُ .

وككلُّ ؛ كنعمةٍ دَوّرتها يدانٍ من غسلِ النّهبِ أرقى إلى غبارٍ مكينٍ ،

مُشرّفاً من مساكبِ اليأسِ ، أو من هديرِ كيأسي

عليّ . بالله ، يا قلبُ هشّمَ سِلالكُ ، ولتتُكُ نفسي

سناجبَ ريحِ هُرْعنٍ في السروِ فانكشفَ السروُ عن قنصهِ المجنونِ ،

ولأذرفنُ المكائِنَ من قهقهاتي ، ومن مساميّ حتى

يعودُ من حولي الرّوقتُ محضُ شرودٍ ، ويسردُ العَصْفُ شاني

فليس يُدرُكُ شكلاً بغيرِ ذعرٍ ، وليس تُغوى المعاني

بغيرِ هذا الشهيق . يا لي ، شتّى

يدحرجُ الرعدُ أعضائيّ الذهبيةَ ، شتّى يخوضُ الطينُ بي حيواتٍ ،

وشتّى يميلُ بي شفقٌ خلفَ تلك المناجلِ - تلك الأخيرة - تلك التي

تتلاّلا في شهوةٍ من جُمانٍ .

أي قنصٍ ، إذاً ، في الشُعابِ أو في الثواني؟

أَيُّ قَنْصٍ ؛ هَوَتْ وَعَوْلٌ فَبَدَّدْتُ بَعْضِي أَسَى عَلَيَّ وَعَدْتُ
كِيَّ أَرَانِي ، هُنَا ، فِي ظَرِيفٍ مِنَ الْحَطَامِ ، أَوْ ثِقَلٍ لَيْسَ يُرَوَى وَإِنَّ رَوَاهُ
الرَّمَادُ ؛

كِيَّ أَرَانِي رَفِيفًا مِنَ الْمَرَاثِي إِذَا يَرَفُ مِنْهَا الْجِنَاحُ ، وَالبُعْدُ بِي يَنْقَادُ .

أَيُّ قَنْصٍ ؟ سَيَذْرَفُ اللَّيْلُ قَلْبِي إِلَى الصَّبَاحِ ، وَيُنْحَفِي الْأَلِيفَ عَنِّي
الْجَمَمْتُ

فَرَهْنِ الْمَشَاحِ إِنِّي ، مَطْوُوقٌ بِاللِّهَآثِ الْخَفِيفِ لِلْمَاءِ ، وَالحَيِّ حَوْلِي
حَصَادُ

وَالفِضَاءُ أَسْرٌ ، فَعَدْتُ بِي ، يَا قَلْبُ ، عُدْتُ بِي إِلَى مِشَاغِلِ الرِّيحِ حَيْثُ
المَكِيدَةُ حَيْرٌ ، وَرُوحِي
نِسَاءٌ يَدَاهُمْنَ مِنْ حَوَارِي الْمَغِيبِ هَذَا الْعِرَاءُ .

سَأْمُضِي ، وَمَنْ كُلُّ سَمَحٍ
مَعِي خَرَزٌ وَشِنَاشِيلٌ ؛ أَمْضِي كَثِيفٌ قَصْدٌ يَشْفُ إِذْ يَتَنَاءَى
وَمِثْلِي السَّهْوُ تَمْضِي فَتَنْشَقُّ عَنْ كُنْهَآ الْأَعْيَادُ :
زَلْزَلٌ أَنَيْسٌ ، وَغَيْبٌ يُذَرِّدُ الْجَمَادَ فِيهِ الْجَمَادُ .
وَكَلَّهُوَ سِيرْفَعُ الشُّكْلِ أَقْدَارُهُ ؛ أَوْ كَمَذْحٍ

سَيَعِصِفُ الْخَلْوُ مِنْ كُلِّ مَقْتَلٍ ، وَيَبِثُّ الْغَبَارُ فِي فَتْكِهِ الْإِطْرَاءُ .

أَيُّ قَنْصٍ ؟ تَفَرُّ مِنْ سَرِبِهَا الْأَعْيَادُ
وَالحَفِيَّ يَلْقَى الْمَرَّاسِي ، فَللْحَيِّ بَدءٌ ظَلَالُهُ الْأَصْفَادُ .

والنعيم؟ حدّثْ هوايَ . حدّثْ هريراً هذا الصباح . حدّثْ مقاماً يضيّقُ
 بالحيّ . ما من صدقٍ . ضرباتٌ على الحبر . والآن؟ . مرحى زحامٌ ما لا
 يزاحمُ . مرحى . الملاكُ يعبثُ بالقفلِ ، والبابُ نزهتنا ؛ البابُ همسٌ من
 الظلامِ سارتُ به الشفاهُ . لا . أبداً فكّةٌ ؛ أبداً من مشاغلِ الماءِ . خبزٌ هنا . لا
 تقلّ لي . فكاهةٌ ، والقيامَةُ أنثى . تقولُ؟ لا . للنعيمِ دمدمةٌ من غضارٍ ،
 وللمراثي النبوغُ . لا . حدّثِ العمرَ : كانتُ يداكُ ؛ كانَ النشيدُ ؛ كانتُ
 أباريقُ هذا الأليفِ تسكبُ همسي . نسيتُ؟ حدّثْ : مكانٌ غداً . هربٌ .
 والفضاءُ؟ مرحى . غداً للمكانِ . بأسٌ تطأطأُ الرّيحُ من حياءٍ إذا يهبُ ،
 وأنسُ

يدلقُ الغيبَ فوقَ الدروعِ ويرسو
 بطيشاً ، توجُّ أنداؤُهُ الألفُ . أنسُ كثرثرةٍ من نحاسٍ . وقلبي؟ أوقفُ
 إوزكُ يا قلبُ يخبطنُ صدري
 وأوقفُ أيا مساءً المساءِ :

تعبٌ جهاتي ، وللبعيدِ إذ يتناءى
 لألاً من أمومةِ النَّهبِ يُغوي جسوري .
 وأنا ، إيه يا المُرتجى من فضاءٍ يضيّقُ بالتدبيرِ
 تسهرُ الحياةُ من وحشةِ عليّ ، وتُهرقُني الأقدارُ لما رجعتُ مثلي ماءً .

لكَ يا قلبُ رُجعي إلى الخفيّ ، أو لي رُجعي
 إلى الكثيفِ بانَتْ مخالِبُ الطينِ فيه .
 لي يا قلبُ رُجعي إلي الشَّتيتِ النَّبيهِ
 حيثُ ترقى السهولُ ثديي ، والأفقُ يشكو إلى العماءِ العماءِ ؛
 ألهدنا تسهرُ الحياةُ من وحشةِ عليّ ، أم أنْ ماءً
 يغرفُ البرقُ من حبرِ هذا الهبوبِ أو من يدي؟ يا للنتيهِ ؛

يذهبُ الحَيُّ والمَواجِعُ تَبقى
ويبقى الأَينُ يَعدو بأختامِهِ التَّذييلُ .

أَيُّ قَنصٍ إِذَا؟ طَبِعَ هَذَا المَكَانَ رَطْبٌ ، وَطِيرُهُ التَّأوِيلُ
فَاعتَذِرْ أَيُّهَا القَلْبُ مِن سَكُونِ يَحطُّمُ الغَدُ فِيهِ
رِخامَ قَبري ، وَدَلُّ قَلبي عَلَيَّ
فأنا ذلِكَ الشَّرِيكَ هُمَّ أَن يُرَى الأَرْضَ مَلِكِها ، وَهَمَّتْ
تَلِكُمُ الأَرْضُ الأُتْرِيهِ .

كُلُّ هَذَا كَمِينٌ يَلِيهِ ما قَدَّ يَلِيهِ .

نيقوسيا ١٩٨٤

منعطفات. ظهيرةً من ريش.
دهاقنةً يصفون الليل.
غبار مسحور،
وغدٌ كالعداءِ يتهياً لأزقة الغيب.

المنطف الثاني في «أفردويتي ستريت»

عَلَّقَ الليلَ ،
عَلَّقَ الليلَ كَقُبْعَتِكَ ،
ونادِ حوذَيْكَ النهارَ ، الواقفَ ، في انكسارٍ ، لصقَ عربتكَ الفارغة .

تسعونَ درجةً تحت النعناع ،
وثلاثونَ فوقَ القُرْنُفُلِ .

تسعونَ درجةً تحت رحمة العضلِ الذي يتهدلُ ، رويداً رويداً ، من
فضيحة الخليئة ، ومداهمات الأمس بأطفال يشبهون النداءَ الكهلَ لغد
كَهْلٍ ، فأقترَبَ ، أنتَ الذي تُعَلِّقُ الليلَ كقبعتكَ ، وتعدِّقُ طويلاً في النهارِ ،
حوذَيْكَ ، الواقفَ لصقَ عربتكَ الفارغة ، ولا تناديه .

إقترَبَ أيها المَبْشُرُ بقيامة العنب ، ودينونةِ الريح ؛ اقترَبَ بدهاقنةٍ
يصفونُ المساءَ الختبيءَ في كلامِ الحديقة ، ويتبادلونَ لفافاتِ التبغِ المشتعلةً
تحت الغبارِ الأليفِ الذي غَطَّيْتَهُ بهبوبك الأليفِ ، وأنس مسافاتك
المرتبكة . ومساءك الذي انزلقَ فأسندتَهُ ، فهويتما ، معاً ، في بلاغةٍ تتخطرُ
بمسائها الأثوي .

تسعونَ درجةً ، أنت ، في الندى ، أيها الدليلُ إلى دَسَاكِرِهِ .

المنعطف الأول في «مكاربوس ستريت» ،

يمينا ، قرب «وينبي»

درجات نارية ، وشبانٌ في ستراتٍ دون أكمام . وأنا فرحانٌ ، هكذا ،
دون أكمام في قميصي ، كأنما أمضي إلى ما فاتني من لعبة كنت أتقنها ؛
كأنما أمضي إليّ ، دون شعرٍ ، أو بلاغةٍ بما ينسجُ الألمُ الحلوُ ؛ هكذا ، إلى
ما فاتني فأغضى لأتُه فاتني .

وأنا شاعرٌ هذا كله : شاعرُ السماءِ الثانيةِ التي تنهبُها العجلاتُ ؛
شاعرُ الدراجةِ الناريةِ ، والقمصانِ التي لا أكمامَ لها ؛ شاعرُ الصفيحِ
الذهبِ ، والمقابضِ التي تتشبُّثُ بها الأيدي الأكثرُ غضباً .
وللعضلِ ، أيضاً ، مُتُوِّلهُ في الذي سادوُنُ بأقلامي المعدنية . وسأفسحُ
قليلاً للسَّبَابِ ذاتِ الطعمِ المراهقِ ؛ سأفسحُ - في الذي أدوُّهُ - مساءً لي ،
معافى كالأفِ مصباحِ أمامي في الدراجاتِ الناريةِ . أما هؤلاء المحدودون
كمُطلِّقِ غُفْلٍ ، بقفازاتهم ، وأزرارهم الكبيرة كالتقدِ المسكوكِ ، فسيكونُ لهم
رُفْعَةُ الفَراغِ في كلِّ حَبْرٍ ، وحنوُ الفوضى على الأبدِ المُنتَهَكِ .
درجات نارية . قلبٌ ناريٌ . وأنا ذاهبٌ إلى ما فاتني .

المنعطف الألف بعد الصاعقة التي تشبثت بي

سأدخلُ هذا البيتَ وأنا ألقى بعظامي إلى المدفأة .

سأدخلُ هذا البيتَ متشبثاً بالمكان الهارب ، وبالقبر الذي يؤازرني
بكمائنِ البياقوتِ ، وبالنمورِ الخضراءِ ، الصاعدةِ قوسَ الظلامِ المباركِ إلى
شهواتي .

سأدخلُ هذا البيت من بابهِ العاشر ، وفراغِهِ الأملسِ كدرجاتِ العتبةِ
الثلاث ، مقسماً حلوى الأملسِ شطائرَ كالأيدي ، رافعاً يديّ بمراوحِ الموتِ
إلى الأزلِ المحرورِ في قيوده . إليّ ، إلى شركائي وهو يقذفون بأسرّةِ النهارِ من
شرفاتهمِ العاليةِ ، ضاحكينَ تحتِ الأقنعةِ الرحيمةِ ، ولألأةِ الأعماقِ التي
ينفخُ فيها القياصرةُ الحمقى .

سأدخلُ هذا البيت .

سأدخلُ هذا البيتِ بي .

سأدخلُ هذا البيتِ برهائني الألف .

سأدخلُ هذا البيتِ بالأعاصيرِ التي لم تُنهها الكتابةُ .

سأدخلُ هذا البيتِ بشرودِ الترابِ ، وجهامةِ النُطفِ .

سأدخلُ هذا البيتِ يدِ ت ، مُطرقاً كجَدِّ يُخفي عنه أحفادهُ حذاءً
الأخيرِ .

سأدخلُ هذا البيتِ ، دونَ سلامِ ، متجهاً إلى المدفأةِ كي ألمَّ عظامي .

المنعطف الأول ، جنوباً ، حيث يتصل شارع «سباق الخيل» بـ«ناقارينو ستريت»

لرزافي يحتشدُ العُتابُ . لرزافي تحتشدُ النَمورُ ، ولسلطاني صَنَاجاتُ
يتمايلُن في الحنينِ الذي يُقَلِّبُ المشهدَ ورقةً ورقةً ، فاستريحني قليلاً أيتها
القَيِّنةُ السارحةُ عن غنائها في حضوري ، واسترخِ أيها الحاضرُ المُطرقُ أمامَ
نَبالهِ الذهبيِّ ، وقوسهِ المكسورِ .

سيظلُّ مفتوحاً بابي للمشهدِ الذي يقَلِّبني ورقةً ورقةً ، وللغيبِ
الباحثِ عن خواتمه الضائعةِ ؛ عن آلهةِ في اللعبة العذبةِ التي نسجتُها

شجرةُ الورد في حديقتي ، وشجرةُ الصَّبَارِ في حديقةِ جاري . وكذا سيظلُّ قلبي أيضاً : مفتوحاً كصندوقِ أمي ، حيثُ يختلطُ دقيقُ الخناءِ بالموسلينِ ؛ بالكحلِ ؛ بالأحزمةِ المُقَصَّبَةِ ؛ بالخلاخيلِ ؛ ببقايا فضاء ؛ بنباحِ بعيدٍ ؛ بياسةِ خَلْفِ النباحِ ؛ بمياهِ خَلْفِ المعسكراتِ الشفيفةِ للأقدارِ ؛ بطواحينِ من نرجسٍ ؛ بلصوصِ يشكرون البيوتَ التي لم يدخلوها ؛ بشاقولٍ ؛ برفعةٍ لم يشهدها الغبارُ .

سيظلُّ مفتوحاً بابي . سيظلُّ الغبارُ مفتوحاً لدخولكم ، بالأحذيةِ ذاتها . وبالسيوفِ التي تقاسمتمُ بها خلافةَ الليلِ .

سيظلُّ الكلُّ مفتوحاً ؛ الكلُّ الذي يمسخُ الغبارَ ، بريشٍ من وحشَتِهِ ، عن خوذةِ البارحةِ .

المنعطف الخامس ، شمالاً ، إلى مساكن لا أراها

هياكلُ أبنيةٍ جديدةٍ . بناؤونَ . طواويسُ شهوةٍ ، وعواصفُ من شجرٍ يتحرى مَقْتَلَةَ الرِّيحِ ، و

بناؤ

وو

ووون ،

لا يتقنونَ من هندسةِ الظهيرةِ غيرَ عَرَقِ يتحدُّ إلى الأحزمةِ الضيقةِ ، والسراويلِ . هياكلُ زبدٍ تتوازي في بَطْرِ المَشَابِكِ الحديديةِ ، وطواويسُ في الأبعدِ ، الأبعدِ ، المتناظرِ بكمائنه الياقوتِ ، وعواصفُ من شجرٍ - من

فداحةٍ شجر - تتحرى المقتلة الأكثر ثبوتاً في الذي دونه الجهات بحبرها
الدبق: ريح. كذا يرشح الخبر. ريح، ومقتلة في الريح، و
بناً

وون،

تساقط من لهانهم أدوات قياس، وورق مسطر،
وسطور من حساب وذهب.

إنه المنعطف الخامس، شمالاً
حيث الهدهد الكوكبي بين برائن النعمة وأنيابها.

المنعطف الثاني، شمالاً، إلى مساكن النازحين
في «أيوس بافلوس»

ليديك ملمس فكاها، فاقترب بشفتيك من الخناجر الرقيقة هذه،
التي تتناهشها القبل. وكن جميلاً كعهد الفراغ بك، دانياً تحت الأكيد
المرسل كشعر امرأة، كأنما سيتلقفك النهار كله، والليل كله؛ كأنما
سيتلقفك الغد بيدين لا تتقربان غير الفكاها؛ كأنما تحير الذي تحيرت
فيه؛ كأنما أنت والقبل، معاً، تتناهشان الفجر المعسكر بعياره في الدراق.

ولا تنس؛ كن جميلاً، نقول ثانية.

لا تنس ثيابك تلك، وعطرك،

وحقيك الورقيين،

وابتسامك ذاتها،

وحركتك التي تزوع الحديقة شفة شفة، والفاكهة أنياً أنياً، وتجعل

والكمالُ المرآئي يستعرضُ الملهاةَ بشقيقاته .

المنعطف الثالث بعد جحيم «أيوس ديميتيوس»

كلامك جارح . جسدك جارح . العاصفةُ تستلقي على سريرك ، وأنتَ مشغولٌ بزهرة القشأ التي ترتفعُ كلُّهاثك إلى عَسَلِ سِفَادِها . أينبغي إيقاظك؟ ابقَ على الحال تلكَ ، تنهامسان أنتَ والعراءُ ، يدك في يدهِ كخَلِيلين ، ونَفْسُك تَهَيِّئُ الأباريقَ الصلبةَ للندماءِ الغرقى . ابقَ على حال الشفق ، تأخذُ البعيدَ في جبايتك ، ويأخذُك البعيدُ في جبايته ، كأنما يُحاكي أحدكما الآخرَ بثرة لا أثرَ للملحمةِ فيها . ومجدك جارحٌ أيضاً ، وسطَ هذا المكانِ المضرِّجِ بأومةِ التعبِ ؛ جارحةٌ هبأتك ، وللمكانِ بين يديك تصاريفُهُ الدمويةُّ . فابقِ على الحال تلكَ ؛ ابقَ كشيئاً يتسترُّ بك الليلُ في افتضاحِ يقينهِ ، ويُملِكُ على عَدِيدِهِ الهواءُ الواحدُ .

واصعد ،

قليلاً ،

قليلاً ،

هذه السنايلُ المظلَّلةُ بأثر من جهالةِ الصبأ ، وتوسطُ الظهيرةَ بجهالةِ الآن ، إذا الاثيرُ أنتَ كجَلْبَةٍ تتقدَّمُ غِلْمَانُ الموتِ في عبورهم المُحتشمِ .

غير أنك في المنعطف الثالثِ ، بعد جحيم «أيوس ديميتيوس» :

تحاولُ فتألفُ ،

وتنسى فتألفُ ،

وتُحكِمُ الدُمَيْسَةَ فيعبثُ بك العنْبُ .

المنعطف الذي يلي المنعطف ذاك

بكثير من ضراعة اليأس إلى شبهه أضرعُ إليّ . أنا المتماثلُ النَّظيرُ . أنا
اللهاتُ الآخرُ ، المزاحمُ بشبحة الأشباح . أنا الخسارةُ المُجَنَّحةُ ، والمساءلةُ
التي تكتبونها على أقداركم . أنا . ولأيُّ أشغلكم بي ، أو أشغلُ نفسي
بكم؟ ستمضون من هنا ، وأمضي من هناك : فراغان في الكلمة المقسمة
ملاكاً ملاكاً . وإن نظرتُم إليّ بعين إله كَمَمْتُ الحياةَ بمصادفات كالمناديل ،
ونصبتُ العَرَضَ على أقاليم الجوهر ، مُباركاً تلك الشفة التي تلمسُ الجنونَ
عن شهوة ، لا عن رياء . وبعضي ، لا بالكثير الذي يستهوي المجدَ
الخيران ، أفايضُ البرقَ على فتنّة كالمغيب ؛ ببعضي أجعلُ المساءَ فخاحاً ،
لا بالكثير مني الذي تصيدُ الحجرَ الأدمي . ببعضي أنا . . يا لَبْعُضٍ يطيبُ
في هلاكِ بعضه ؛ يا للبقية التي تتساقطُ أجاصاتها على دروع الموتى .

بكثير من ضراعة الموت إلى ضجره ، إذا ، أضرعُ إليّ
بكثير من جمالٍ كثيرٍ أعاهدُ الخفي ، والوَحُ للبطولة بانهايار الأسرى .

بكثيرٍ ما ، يا شقيقي ، بكثيرٍ ما . .

المنعطف الثاني ، شمالاً ، بعد «بنك أوف سايبرس»
في «ناقارينو ستريت»

لمسةٌ تتقدمُ إلى ذاتها ، عاصبةٌ جيبتها الذهبيةً بدلال الذكّر ، وقِيافُ
يؤاخذُ المساءَ بجزيرةِ الفجر . فراملُ ألياتٍ ، ونبالُ صاحكةٍ : مالكٌ لك ،
وما للصَّخَبِ للصَّخَبِ .

وشقيقاتٌ، أيضاً، يتكلّفن، في مرورهن بالمنعطف الثاني، فتنته
ليست لهنّ. شقيقاتٌ كإطناّب لا بيان فيه: مالك لك، وما للصخب
للصخب.

كنتُ أمضي، أبدأً، إلى بيتي الأول، من هنا، ناظراً إلى السياج
الصدىء، وإلى الواجهة الزجاجية للمحلّ الفارغ؛ ناظراً إليّ في دهاءِ
المُسَيَّرِ على لعبة لا خسارة فيها؛ ناظراً إلى ما بدكني خطوات في الألق؛
في مساربه، كأنّي ذاهبٌ نحو لمسة تتقدّم إلى ذاتها، عاصبةً جبينها
الشُّكْرِيّ بدلالِ الذِّكْر.

كنتُ أمضي، عشرة شهور، إلى بيتي الأول من هنا، دون أن أصرخ:
أحمني أيها الوقتُ من رطانة الجسد؛ أحمني من ظلال تسرق الشرثرة
الحلوة في الفاكهة. والشقيقاتُ الأربع، أيضاً، كن يمضين إلى بيتهن من
هنا، كمصادفات ترتدي مراويل الخدم. وكُنّ يحينني بغدٍ لئمل، فأحيهنّ
بغدٍ يقظان، يتهياً كالعداء لأزقة الغيب.

من هنا كنتُ أمضي إلى بيتي الذي توارى خلفَ لمسةٍ ترصدُ ذاتها.

المنعطف الثالث، جنوباً، في «أيوس بافلوس»

لا لأكونَ طفلك بعد الآن، بل لتكوني طفلي.
لا لأكونَ نباهةَ الجسد، وتأويله، بل لتكوني رهانَ الجسور.
لا ليكونَ المكانُ مساءً،
لا ليكونَ الأكيدُ.

رُفَعَةً رُفَعَةً يَتَحَلَّقُ الْجَمَادُ ، وَالنَعِيمُ الْوَاحِدُ ، الْمُتَهَتِّكُ تَحْتَ مَسَاكِبِ
لَيْلِنَا ، يَنْسَى حُفَيْهِ هُنَاكَ ، وَيَنْسَى الرَّمَادُ أَقْلَامَهُ . وَأَنْتَ ، كِعَضَلَةٌ فِي
الْجَنَاحِ الْأَكْثَرِ خَفَقًا ، تَتَجَمَّعِينَ مِنْ أَلْقٍ وَرِذَاذٍ تَحْتَ ثَدْيِي . فَلَا يُقْسَمَنَّ
الْمَكَانُ بِكَ ؛ لَا يُقْسَمَنَّ النَّبِيدُ ؛ لَا .

لَا لِيَكُونَ عَرَضٌ ، بَلْ كَثِيفٌ ، حُمَى ،

لَا .

لَتَكُنْ قَطِيعَةُ الْأَقْوَى . لَتَكُنْ ، لَتَكُنْ أَنْتَ ،

فَالْقَصِي يُتَشَاغَلُ بِكَ عَنْ مَجْرَاهُ السَّاحِرِ ، وَتَتَشَاغَلُ هِيَ - الَّتِي
أَوْلَتْكَ تَأْوِيلَهَا الْأَنْثَوِيَّ - عَنْ مَرَاتِبِ اللَّيْلِ بَيْنَ يَدَيْكَ بِأَقْوَابِ الصَّبَاحِ
الْعَارِي .

وَالْمَنْعَطُ؟ لِيَكُنْ ، لِيَكُنْ .

هِيَ طِفْلَةٌ فَصَلَّتْ أَبْوَةَ الْمَاءِ ، وَأَنْتَ رَحِمُهَا الْمَشْتَعِلِ .

المنعطف ، ما بعد بائع المثلجات

ما الملوِّكُ ؛ ما الأفقُ الدائرُ كالمغزلِ فِي ثَبَوْتِهِ الْأَعْمَى ؛ ما الرهَانُ ؛ ما
المهْرُجُ الحَلِيفُ ؛ ما الرِكَائِبُ الَّتِي تَتَقَطَّعُ أَحْزَمَتُهَا تَحْتَ الرُّوْطَةِ الثَّانِيَةِ ؛ ما
الْفَضِيحَةُ الَّتِي لَا تُؤْرَقُ الحَاضِرُ ؛ ما المِساءَلَةُ فِي شَأْنِ يَتْرَيْنُ لِلْمِساءَلَةِ ؛ ما
المِجادَلَةُ ؛ ما الشِّجَارُ الصَّاحِبُ ؛ ما التَّوَاتُرُ ؛ ما الحُمَى فَوْ . هَذَا كُلُّهُ ؟
أَلَيْفٌ مِمَّا يَغْزَلُ الصَّبِيَّةُ الصَّاحِكُونَ ؛

أَلَيْفٌ مِنْ تَرْفٍ يَتَلَمَّسُ الْمَنْعَطَ بِمِراوِحِ . دَهْشًا مِثْلَمَا رِثَةٌ تَنْفُثُ
الْجِدَالَ ؛ أَلَيْفٌ يَتَحَلَّقُ حَوْلَ أَطْفَالٍ يَسْأَلُونَ الْبَائِعَ ، بِنِقُودِهِمُ الذَّائِبَةِ ، فَتَوَى
الْجَلِيدِ ، فِي الْمَنْعَطِ الْأَوَّلِ ، شِمَالًا ، إِلَى سِوْرِ الْمَدْرَسَةِ ؛

أليفٌ أحمقٌ ، تتشبعُ لهباً بهِ الظهيرَةُ والنوافذُ ؛
أليفٌ كالرَّهانِ على غامضٍ ؛
أليفٌ كحديدِ مُدَوَّرٍ ؛ كسيجاتٍ ؛ كصرخةٍ ؛
أليفٌ في احتكامي إليه ، في اقتصاصي منه ، وشكوايَ عليه .

بينني وبين الأليفِ ظلاكَ تشحذُ الحناجرَ للظلالِ .
بينني وبين الأليفِ بائعٌ مثلجاتٍ ، وياقوتٌ يتساقطُ حَبَّةً حَبَّةً من الخاتمِ
الأكبرِ لخليلتي التي بعثرتِ المكانَ .

في المنعطفِ الآخرِ أيضاً ، حيث يصلُ «أفروديتي ستريت»
بـ«أيوس بافلوس ستريت»

المدرسةُ ، هناك ، قانعةٌ بالذي لها : بالسياجِ ، وبالأطفالِ الذين فتحوا
ثغرةً في السياجِ ؛ ببائعِ الحلوى النعسانِ قرب الثغرةِ في السياجِ ؛ بطبعي
الخنفي كأجاصةٍ من رماذٍ تتدزذُرُ فتلتئمُ في الثقلِ الأكبرِ لشجرةٍ مُتهتكةٍ .
قانعةٌ

هي ،

وهي ، كمدرسةٍ ، لها سياجُها ، وأطفالُها ، وثغراتُ في السياجِ يعبرها
الغدُ الشرطيُّ بحقيبتهِ الملايِ سياجاتٍ ، وأطفالاً ، ومدارسَ من رماذٍ
تتدزذُرُ فتلتئمُ في الثقلِ الشَّتيتِ لأيامنا .

هكذا ، إذاً ، في المنعطفِ ذاكِ ، تأخذُك الحكمةُ من مسائكِ ، لتدخلَ
شريداً إلى مسائها . هكذا ، إذاً ، غريقاً حتى رعبك في الوردِ ؛ غريقاً في
الهمهمةِ المدوِّيةِ لشجرةِ التينِ ، يسرقُك السياجُ بفخاخِ حُرَيْتهِ .

وفي المنعطف ذاته ، الذي يصل شارع بيتك بأخرَ (أفروديتي - أيوس بافلوس) لا تُلقَ بنظرتكَ على ابنة الجيران الواقعة تحت غمغمات روحها ، بل على المدرسة ، كأنما يستيقظ الغيبُ كُلُّه في يدك ، بدفاتره وحبيره ؛ كأنما قدَّرَ يلقى بحقيقته عالياً فيتناثر الورقُ ، والأقلامُ الرصاصُ ، والمبراةُ ، والشتاءُ الذي تشمُ في قدمه مشاربَ الآلهة المكتوبة على قميصِ كهولتِكَ ، المفتوح حتى آخرِ أزرارِ حماقتِهِ .

المنعطف الأول ، إلى جهتي

حين تحنُّ ، طويلاً ، إلى المكانِ ، لا تُعدُّ إليه .
حين تحنُّ إليَّ ، طويلاً ، اقتلني .

ماذا ينبغي عليّ لأشرح المسألة؟

الملوكُ ذاهبونَ إلى نيسانَ ؛ الشعوبُ ذاهبةٌ إلى نيسانَ ، والأبد ، الذي انحسرتُ عن كتفيه عباءةُ جدِّي ، ذاهبٌ ، معي ، إلى نيسانَ . نيسانُ ذاهبٌ معي . نيسانُ ذاهبٌ إلى أبوتِهِ ، وهو ينثرُ الودعَ على ما تبقى من جُسُورٍ وهزائمٍ تتلفَعُ بالبطولة الماكرة .

وأنت ، الذي تحنُّ إليَّ طويلاً ، لا تقلُ لنيسانَ عنيّ ما يقوله الأنيبُ ، ولا تكشفني بحبِّي هذا ؛ بجسارتي المتناثرة هذه ، على البهو الذي تَرَى في آخره سريري ، وتَرَى الوَرْتَةَ يشقُّون الوسائدَ بحثاً عن مالمكي . ولا تحمني بصرخة ، أو بحراب كالتي شحذتُ نصالها أراملُ الفجر ، بل أوصد البابَ عليَّ وعلى نعشي المرصع بفروج متلاثلة ، وأنصتُ من خلف الستارة تلك - ستارة المشيئة وعمَّالها المتشاجرين - إلى قناعي الذي أتركه على سريري ، وأصعدُ الأصبصَ النحاسَ ، الذي يتدلَّى من السقفِ ، مُلتجئاً

إلى حَرَمِ المَعْدِنِ وَأَزْرٍ نَقُوشِهِ .

ماذا ينبغي عليّ؟

ماذا ينبغي عليّ المكان الذي لن تعود إليه؟

المنعطف الذي يصل سور «سباق الخليل» بأخر «أفروديتي ستريت»

الخوذة ذاتها تسقط ، من الشفق ذاته ، على حلبة «سباق الخليل» ،
قرب بيتك في «أيوس ديميتيوس» ، وأنت تهمسُ إلى الخوذة ذاتها ، وإلى
الشفق ذاته : إلهي ، بكيتُ كثيراً من أجلِ هذا العالم .

وستبكي كثيراً أيضاً ، على الجبهة ذاتها ، المهَيَّأة منذ أزلِ عالِ كحذاءِ
فتاتك . وستبكي معك حجارة لم تحملها ، وبيوت استسلمت لقضاء
غضبانٍ يضربُ بقفازهِ الأسمنتي غَدَكَ الغضبان . ستبكي نوافذ لم تنظر
منها إلى الحيرة المرتدية قُلنسوة الطاهي ، وكذلك الأبوابُ وهي تَصْطَفِقُ
بِدْفَعٍ من الأيدي المغسولة بظهيرة سكرى .

الخوذة ذاتها ، والبكاء ذاته .

الخوذة الخوذة ذاتها ، في حلبة «سباق الخليل» ،

يوماً بعد آخر ،

وغضباً في عقبِ غضبٍ .

معدنٌ سلكسبيلٌ ، ودفعٌ رَقَشْتَهُ أزاميلُ صغيرة ، هنا ، حيث استطلع من

شرفتني أكمّامُ الوردِ في الحديقة ، وطيشَ الحكمةِ وراءَ السياجِ الأبعد ، في
انخفافِ أبعادِ مُدوّ ، يصلُ صرخاتِ المراهنينَ في حلبةِ «سباق الخيل»
بالأفقِ الحُسران .

إلهي ، بكيتُ كثيراً من أجل هذا العالم .

المنعطف ، في ما وراء المنعطفات المذكورة

بخيالة من مذاهب الوردِ اقتحمُ هذه النظائرَ المكنونةَ ، وبأسرى ، مَن
تسلَّلوا إلى مرحي ، اتسلَّل إلى سَكينةِ المرثيِّ ، حصيناً بأقداريِ الخفيفةِ
وخطابيِ الخفيفِ ، فإن استعادني غدي مني فَلَيْسَتْ عِدْني حيرانَ ، مطوقاً
أمسي الأنتى بحصافةِ الثبات ، وليُطبِّقَ على يدي بَقيدِ شفيفِ ، لرنينِ
خلاخيله قُزَحَ ، وأقواسُ قُزَحَ ، ومراتبُ في الصوتِ خفوتُها تسبيحُ ،
واغتيالُها مشارفُ يلقي أسرايَ منها عليّ فكاهةَ الغيبِ كُلِّهِ . فليُطبِّقَ على
يدي بَرِيشِ ، أو بصريرِ من أفعالِ المديحِ ؛ وليكنْ ، كأبي غَدِ ، مُغْلَقاً على
قناعهِ المضيءِ ، وصخبِ نَجْارِهِ .

جليُّ الغدِ ، كُلُّها ، هنا .
إصطربلائهُ ، أيضاً ، ومِسْجَاجُهُ .
وهو ، بأسلابهِ ، مشافهةً ، يتقاطعُ والريحِ ، كأبي لهُ جِسارةً من رمالِ ،
كأبي بَدَخِ ؛ كإطراءِ يكاشفُ الهواءَ به الهواءِ .

غَدُ يَكَلِّمُ الأشباحَ كما تكَلِّمُ الملوكُ الملوكَ ، ليرجعني إلى غدي .

المنعطف الحادي عشر ، جنوباً ، إلى حاجز الجيش اليوناني ، في «أيوس بافلوس»

بشفة الحقيقة ، ولسانها ، يثرثرُ هذا السَّاترُ الترابيُّ ، على مسمعٍ من
الشاحناتِ المسرعةِ ، والنباتِ المسرعِ .

إحدى عشرة سنة ، بخوذها ؛ بفتورِ خوذها ؛ بالفتورِ الأكملِ لهاكلِ
عماراتِ مؤجَّلةٍ ، يثرثرُ هذا السَّاترُ الترابيُّ ، الذي لم ترتفعِ بنادقُ من
حوله ، بلُ نباتِ أسسِ الفتورِ الأكملِ بحاسباته الرطبةِ ، متسلقاً الحدباتِ
إلى نظامِ المغيبِ المُعسكرِ هناك .

ساترُ ترابيُّ ،

وهُدنةٌ تقتفي الأثر الضائع لأرض ضائعة .

فإن مررتَ ، أيها الحليمُ كجزيرةٍ تتفياً العابرينَ ، بالسَّاترِ الترابيِّ ، في
المنعطفِ الحادي عشر ، جنوباً ، في «أيوس بافلوس» ، تذكَّرْ هدنةَ الوردِ ،
وحشودَ العنبِ ، ثم ملِّ على العسكريِّ المدججِ بخفَرِ ثيابه ، وقُلْ : أسعدتَ
وقوفاً أيها المحاربُ ؛ أسعدتَ خوذةً .

شفةُ الحقيقةِ ، ولسانها ، يُحرِّضانِكَ على البعيدِ العاريِ خلفَ السَّاترِ
الترابيِّ .

المنعطف المنسيّ ، هناك ، بعد العمارة الثالثة

ما ليقظةِ الحبِّ هذه ، ما لأنقاضِ تتراصفُ طفلاً طفلاً في مراياي؟

فلا ممت لأجلك . فلا ممت . فليمت النهارُ لأجلك . فليمت الحيُّ بيتاً بيتاً لأجلك . فليمت الحديقةُ ، والمدرسةُ ، هناك . فليمت حلبةُ «سباق الخيل» ، والشارعُ المجاورُ ، ودكانُ مصففةِ الشَّعرِ ، والميكانيكي الذي جمعَ في الساحةِ هياكلَ المركباتِ ، كأنما يهيمُ بالقيامَ عجلاتٍ من مطاطٍ ، ومصابيحٍ مكسورةٍ ، ومقاوِدَ لا تديرها الأيدي . فليمت لأجلك العراءُ الذي يجاورُ بيتَ العجوزينِ ، هناك ، إذ لا يُشغلان أحداً بلعبتهما في الموت السكران لضجر سكران . فليمت هيكلُ العمارةِ الجديدةِ ، ودراجةُ شرطيِّ المرورِ الناريةِ ، وسلامُ بيتهِ . فليمت شجيرةُ الحبقِ ، والأصصُ الأخرى ، المترصّةُ على السورِ الاسمنتيِّ الواطيءِ . فليمت الخيلُ التي تُرى أذيالها القصيرةُ من خللِ الشجرِ المقامرِ بأشكاله . فليمت الهرةُ الشريفةُ ، والشققُ التي افتتحتها «الإخوةُ الماسونيون» لصقِّ سورنا الغربيِّ . فليمت محلُّ بائعِ المثلجاتِ لأجلك ؛ فليمت صحفُهُ المعروضةُ في الواجهةِ . فليمت أحذيةُ الفتياتِ ، بنقرها المتدرِّجِ تحتِ ثقلِ الأفخاذِ المليئةِ العاريةِ ؛ فليمت شفاهنَّ التي تتلألأ عليها بقيةُ البقيةِ . فليمت لأجلك ما نسيتُ من مشاغلِ الحمامِ في أوقاصه . فليمت شجيرةُ الفلفلِ التي أحبُّها .

فليمت لأجلك ما تريدن أن يموت ،
ولتموتي ، أيضاً ، لأكتبَ ما تبقى .

المنعطف الذي يصل «تشرشل ستريت»
بـ«نافارينو ستريت»

الصناديق في كل مكان . رافعاتُ من مكائدِ الحقولِ ترفعُ التُّخمةَ كغمامةٍ فوق الصناديقِ المتناثرةِ في كلِّ مكانٍ ، حيثُ تغزو «التعاونية

الاستهلاكية» رصيفَ الشارعِ ببطيخها ، وقُنْبِيْطِها ، وخَسَّها ، وبازلأَتْها ،
وكرَفَسِها ، وقُثَاثِها ، وقواريرِ الغَازِ ، أيضاً ، المقيدةِ بسلاسلٍ ، إحداها إلى
الأخرى ، كأسرى حربٍ في الجهة الثانيةِ من ظلالنا .
... والنساءُ يحتشدن ؛

الفاكهةُ تحتشدُ ،

والفضولُ الأَبْكمُ لغبارِ الرصيفِ .

خُذْ ما تشاء

رخصيصُ هذا ، ورخصيصُ ما يجاورُهُ .

وتذكّر رصيْدَكَ في البنكِ الذي يكاد يتّصلُ بناؤُهُ بـ«التعاونيةِ
الإستهلاكيةِ» ، ففي ذلك ما يشغلكَ عن صباحِ مهزومِ أمامِ ظهيرةِ
مهزومة . ولا تنسَ الليلَ الذي سينزلُ ثقيلًا ، كأنّما يهبطُ من شجرةِ
الكستناءِ ، بصيارفتهِ الغامضينَ ، وجرائه المغسولةِ ثوًا بماءِ فاترٍ ؛ ثقيلًا
سينزلُ على سطحِ بيتكَ ، وسطحِ المبنى الذي يجاور بيتكَ ، وسطحِ ما
تبقى من عالمِ مسقوفٍ بمآتمِ مغرورقةٍ كعينيكِ .

الصناديقُ في كلِّ مكانٍ : عنبٌ ورعبٌ . غدٌ ويقطينٌ . هزيمةٌ وجرجيريٌ .
والنعمةُ ، التي تتوسّلُ إلى المآرةِ ، بطاستها التوتياءِ ، تغمزُ بعينيها ، كأنّما
تمتحنُ المكانَ بعبثٍ كالذهبِ .

المنعطفُ الأولُ ، شرقًا ، إلى المدرسةِ

في «ايوس ديميتيوس»

إن سألتَ يا بيتي ، الذي ليس لي ، عن سُكنى كَشغفِ اللهبِ
بنسله ، فلا تُقسَمَنَّ جوابي بينك وبين الحاضرِ المتسوّلِ تحتِ النافذةِ

الجنوبية ، حيث العداؤون بقرون عظيمة لحيوانات الفجر . بل امتحن
أبوابك ، وجدرانك المتأبّطة حجازتها الرحيمة ، وتخلّع قليلاً لتتذكرك
أرضك المنسية في جمالها المنسي .

وبإذن منك ، وباعتذار خجول ، يا بيتي الذي ليس لي ، سأدلق الحَيِّ
من قارورتِي ، شجراً ، وسجاجات ، وحماماً في الأقفاص ، وأطفالاً
صاخبين ، وورداً ، وقبلات لا تصل ، وهريز آلات لم تُفطم جراء حديدها
بعد ، وضبح خيول في مرانٍ عذوها بكوراً لسبتٍ آخر ، في حلبة «سباق
الخيول» ذاتها ، لصق السياج غير البعيد ذاته ، الذي أراه من حديقتي .

آه يا بيتي الذي ليس لي ،
أنت لست لي .

كذا عليك أن تهمس صراخك ، فالمكان ليس لك . السياج ،
والشارع ، والزهر البري اليابس ، في العراء المنظور ، ليس لك . المديح
وأنقاضه كذا ، والمتبارك من غنم . رديفك المسمي . لجلجة الحطام بين
يديك كذا ، وكذا غلمة الشفق العريس وخطافات ذكورتِه .

هيء لي ، إذا ، يا بيت ، نعمة عبوري بك إلى ما ليس لي .

المنعطف الذي يحجبه الشجر ،
في الجهة الغربية من حديقة جاري

رخيم هذا البرق كقبعات ترمى من شرفات الفراغ . وبني ، أنا الذي

يرى ثِقَلَ صباحهِ المُنشِدِ ، هيامُ نباتِ ، وأزيرُ الطَّلَقِ التي تُضَرِّمُ الحروبَ .

وبي ،

أيضاً ،

نزفٌ غنيٌّ عن تعريفهِ كَلعبةِ طفلة ؛

بي حذاقةُ الشارعِ الذي يجاورُ البَيْتَ ،

ووضوحُ الصُّحْبِ في قُبلةِ خفية .

لكنني ، بهجمةٍ كالصباحِ ، وشؤونٍ منسوجةٍ كشجرةِ اللوباءِ ، أحيطُ
بنفسي ، وأحيطُ بالذهبِ الذي يسمِّي لساني لساناً ، وكلامي رنيناً من
رنينِ المعدنِ ، حتى إذا تساوت الشبهَةُ والقَدَرُ كسوتُ الغدِّ باطناً من
جمادٍ ، مُرجئاً ثِقَلَ الوردِ إلى فراغٍ آخر .

وأرجىءُ شؤوني أيضاً ، ناظراً إلى ذلك العجوزِ الذي لا يشغلُ أحداً
بلعبته . هو ، وزوجهُ ، أبدأ ، في الحديقةِ الميتةِ ؛ في الموتِ السكرانِ لضجرِ
سكران . ولربما هتفتُ : قليلٌ سيمضي معي إلى مثواي ، قليلٌ سيمضي
معهما إلى مثاهما .

... والحديقةُ ستمضي ، السياجُ ، وأعمدةُ الكهرباءِ ، وزجاجُ الواجهةِ
في مَشغَلِ النُّجَارَةِ قربَ البَيْتِ ، وحلبةُ «سباقِ الخيلِ» ، والخيلُ ،
والمنتظرون ، بأوراقهم ، ظهيرةِ السبتِ ، ليهتفوا هتافهم الرَّتِيْبَ في رهانِ
رتيبِ ؛ كلُّهم سيمضون إلى الغامرِ المُدَقِّقِ ، كشرطيِّ ، في أرواحهم
المُرْتَجَلَةِ .

سأرجىءُ شؤوني ،

سأرجىءُ ثِقَلَ الوردِ إلى فراغٍ آخر .

كمائن في المنعطفات كلّها / ختاماً ما - سهم

اللّبوة الذهبيةُ تصعدُ بجرائها الملهاة هضبةً هضبةً ، والشهودُ المتكثونُ ،
بمعاطفهم الترابية ، على سور أقدارنا ، يُقلمون أظافرهم في إهمال ، غير
عابئين بالجسارات الكبرى ، والعظام التي تتنادى إلى بيعةٍ تحت القمرِ
الأدمي .

والمكانُ يصعدُ الملهاة بحقيقة الغبار ، درجةً درجةً ، وسط تيجان
مُهَملة ، وشموس يلمها الهاربون . أمّا الخيالةُ المقبلون من فراغٍ آخر ،
حاضنين جماجمهم ، فيحارون قليلاً في تصنيف المشهد . غير أنهم ،
بإياعةٍ واحدة ، يصعدون الملهاة ، أيضاً ، تتقدمهم كلبةُ الفتنةِ بأداءٍ لم يزل
على حلقاتها أثرٌ من لعاب الملوك .

هكذا يترصدُ المشهدُ ذاته من مشارفِ الحقيقةِ ؛
هكذا يكتملُ المنذورُ .

وأنتم ، إخوتي الجالسون في نفق البلاغةِ ، هناك ، ناسين أن تسردوا
لي تمردُ الحكاية ، وانقسامِ الرّواةِ ، لا تنتظروا أكثر ؛ لا تنتظروا أن ينسى
المشهدُ فضولكم فيحتزل القتلى ، وأن تتبادلَ السماواتُ المهشمةُ مفاتيحها
المهشمة . وباليد اللدنة كَشِفاةِ تسرقُ القمُرات ، تلمسوا عذابَ الماءِ ،
وأتخذوني شفيعاً لدى المغيبِ يُغويه الأكيذُ فيتبعثرُ خطابهُ .

ليس لي غير هذا ،

ليس لإخوتي غير هذا ،

فإن يضمنَ الحجرُ كثيفهُ المهرقَ ضمناً الأفعالَ الرقيقةَ كنداءٍ ، مُقدمينَ

على شُكْرٍ تنسربُ من خُرُومه المأذنُ والسروجُ . وبطشاً إثرَ بطشِ سنلهمُ
الروحِ نثرَها الأجمَلَ ، دون أن نُعلنَ في الشهودِ - المتأبطينِ محاوراتِ
الهياكلِ ، وظلالها ، والمغيبِ الذي يصعدُ الهياكلَ وظلالها إلى ملهاته
المُعَادَةِ - سِحْرَ الكلامِ في انكسارهِ كُلِّما استلهمُ المُعَادَ الفرحانِ .

ليس لنا غير هذا الذهبيِّ

ليس لنا غير هذا المشهدِ

والأكيدُ لبوةً تتقدّمُ ، بجرائها ، عربةَ الغبارِ .

نيقوسيا - ١٩٨٥

لِيَكُنْ لِي اقْتِدَارٌ بِيَعَاءٍ حَتَّى أَرُدَّ الأَرْضَ . لِيَكُنْ لِي وَعِيدُ الوَرْدِ للورد .
لِيَكُنْ لِي الأَلْقُ هَذَا ، المَقْوُذُ بِكَلْبٍ وَاحِدٍ وَنِعَامَةٍ وَاحِدَةٍ . لِيَكُنْ لِي مَا نَسِيَهُ
الْمُنْحَنُونَ عَلَى الأفق - الفَقِيدِ . ولَا كُنْ هُنَاكَ ، فِي اللَعْبَةِ الَّتِي يَعْتَرُ فِيهَا
الدَّمُ عَلَى حَوَاتِهِ ، فَأَنَا فِي مَسْتَطَاعِي أَنْ ادُلُّكُمْ عَلَى عَرِينٍ ذَهَبِي يُغْوِي
البراعمَ ، فابدأوا بي ؛ ابدأوا العَمَرَ الَّذِي نَرْفَعُ فِي طِينِهِ الحَيُّ رِيحاً تَلْمَسُ
الشفقَ بِأَثْدَائِهَا ، وَابْتَسِمُوا ، قَلِيلاً ، إِذْ يَدْخُلُ الكَمَالُ ، كَالِيسْتَانِي ، إِلَى
نَشِيدِنَا ؛ ابْتَسِمُوا إِذْ أَكْمَلُ انْكَسَارِي بِالمَشِيئَةِ الَّتِي تَتَكَمَّى عَلَى العِظَامِ .

وبي يتوعّدُ الوردَ الوردَ .

بي ينذرُ المكانَ المكانَ ،

كَأَنَّ أَباطِرَةَ سِيَمْتَحَنُونَ مَا هَيُّتُوا لَهُ .

والَّذِي حَوْلِي هُوَ حَوْلِي : أَسْلَافٌ يَهِيثُونَ مَشِيئَةَ أُخْرَى بِأَلَانِهِمْ
الصِّلْدَةِ ، إِذْ أَرَاهُمْ ، مِنْ هُنَا ، تَحْتَ الظِّلِّ الأَكْبَرِ لِجَنَاحِي البَازِ الأَكْبَرِ ،
يَتَخَاطَرُونَ كَعِرَانِيْسِ الذَّرَّةِ ، وَالعُغْدُ المُخْتَلَسُ يُرِيهِمْ مَا أُرِيهِمْ أَنَا مِنْ مَطَالَعِ
حَالَتِ حَوَاشِيئِهَا بِتَفْخِخِ يورثُ الرُوحَ اِخْتِلَافِهَا .

. . وَالوردُ يَتَوَعَّدُ الوردَ ،

كَأَنَّ المَوْتَ ضَالِعٌ فِي اِخْتِلَاقِ الحَيِّ أَشْبَاهَهُ الحَيَّةِ ؛

كَأَنَّ سَهْرَ بَلِيغٍ يُمْلِي عَلَى النَوْمِ ، بِشِفَاهِ أَلْفِ ، رَنِينِ التَّاجِ الَّذِي هُوَ .

فَمَا الَّذِي يَدُونُ المَدُونُ أَنْ يَخْتَلِقَ البَاسُ ، كَالْحَيِّ ، أَشْبَاهَهُ المَرْحُحِينَ ؟

بي ينذرُ المكانَ المكانَ ،
والمرابيُّ الوردُ يتوعَّدُ الوردَ ،
فاحذروني

لا بسيوفِ تُوَاحِي النِّعْمَةَ ؛ لا بالصدى ذاكَ ، المُفسِّرِ كَرَاوِ ضجران ؛
احذروني بالأبقى ،

احذروني بالمصادفةِ الثقيلةِ كردفِ الحمار ؛
ولتأنسِ الحيلةُ إلى الحيلةِ أَنْ يَسْكُنَ العَرَضُ إلى شمولهِ ، فالذي
يُيقِنِي هكذا ، مرمى تسدُّ الحقيقةُ سهامها المكسورةِ إليه ، هو ذاته الذي
يُبقِي الفاجعَ المتألقَ في الدَّمِ المتألقِ ، لا بِحِيطةِ تذكركم بالصدى المُفسِّرِ ،
أو بالقطيعةِ المشغولةِ من كثيفِ يروى ، بل من تهافتِ الفاني على سِحرِهِ .
كلُّ هذا مدخلي إليكم بالبرمِ المُمتدِّحِ ، لأكتبَ الورقةَ الأولى ،
المسطرةُ بحشدِ مُدَاهِنِ ؛ لأعبثَ بالورقةِ الأولى عبثَ المؤرخِ يُخبي بهلولةُ
الأعمى ؛ لأريكم ما تورَّنه ، بسيطاً حَيّاً ، يروى بكلامِ تحسبونه من مرَاتِبِ
المُشكِلِ ، لكنه نذيرُ الخزنةِ الضالعينِ في تدبيرِ الرهانِ الذهبيِّ
الذهبيِّ

الذهبيِّ

الذهبيِّ ،

في أن يرققُ الأرعفةَ ،

متلمساً حطامَ الجهاتِ بلسانهِ السَّمَّاقِ .

والحقيقةُ ترققُ أرغفتها ، أيضاً ،
وفي تحفرُ ، عميقاً ، ذلكَ الأحدودَ المعدنيِّ لُخنفُسائِها .
لكن البقاءَ الذي يمشي الحيدى ، وسطِ فلولهِ المضرِّجةِ بأكيدِ

كالْحُمَاضِ ، يلجَمُ الصَّرخَةَ الآتِيَةَ مِنْ هُنَاكَ ؛ مِنْ الْمَشْكِْلِ الْمَتَزِينِ إِذِ الْهَبَاءُ
يَقَابِضُ الرُّسُلَ بِالْجَبَابَةِ ، وَتَرَوُّضُ الْكِتَابَةِ الْكَتَبَةَ بِالْفُرُوقِ ذَاتِهَا ، الْمَجْلُوءِ
كَمَا يَرَايَا يَكَلِّمُ الْغَدُّ فِيهَا وَسَيْطَهُ الْمُفْتَضَحَ .

والذهبيُّ ذهبيُّ :

رَضْفَةٌ ذَهَبِيَّةٌ . غَضَارِيفُ ذَهَبِيَّةٌ .

فِجَاءَةٌ ذَهَبِيَّةٌ . تَرْقُوتٌ ذَهَبِيَّةٌ .

وَجَنَّةٌ ذَهَبِيَّةٌ . صُدْعٌ ذَهَبِيَّةٌ .

حَرْقَدَةٌ ذَهَبِيَّةٌ . عَضْدٌ ذَهَبِيٌّ .

فُدَالٌ ذَهَبِيٌّ . حَقْوٌ ذَهَبِيٌّ .

صَفَنٌ ذَهَبِيٌّ .

عَقَبٌ وَفَكٌ ذَهَبِيَّانِ .

مِشَارِفٌ ذَهَبِيَّةٌ ،

وَنَسْلٌ يَكْمَنُ لِلْمَعْجِزَةِ بِسَهَامِ الذَّهَبِ .

هَكَذَا الذَّهَبِيُّ الْمُفْتَضَحُ كَقِيَامَةِ تَتَطَاوَلُ عَلَى التَّنْدِيرِ .

هَكَذَا الْمَلَّلُ الْحَرْدُ وَهُوَ يَجْزُ الْكَمَالَ إِلَى سُعَاتِهِ .

فَلْيَبْقَ مَعِيَ الْبَاقِي .

لِيَبْقَ الْمُتَّخَنُ بِالْبِدَاهَةِ النَّحِيلَةَ كَصَدِيقِ نَحِيلِ .

وَلْيَبْقَ الطَّرْقَاتُ الْكَثِيرَةُ عَلَى الْبَابِ ، فَحَسْبُكَ ، وَأَنْتَ تَفْتَحُ ، تَفْتَحُ

لِبُرَاقِ الْمَكِيدَةِ الْعَذِيبَةِ ، بِأَعْضَائِكَ الَّتِي تَتَهَاوَى شَفَقًا شَفَقًا ، كَأَنَّمَا أَنْذَرْتِكَ

الْأَرْضَ لِلْبِسَالَةِ ، وَأَغْضَى عَنْكَ الْمَوْتَ فَأَنْتَ تَسْتَوْفِي حَيْطَتَكَ بِحَرَسِ

مَذْهُولِينَ . لِيَبْقَ الْبَاقِي . لِيَبْقَ الَّذِي تَنْتَظِرِينَهُ ، أَنْتِ ، يَتَّهَى الْمُتَوَسَّلَةُ مِثْلَ

الدُّبَّ إِلَى الْأَعَالِي الشَّعْثَاءِ . لِيَبْقَ الَّذِي تَنْتَظِرُهُ بِدَاكِ ، لِتَبْقَ الْأَقْدَارُ
بِحُرُوفٍ لَمْ يُعَمَّقْ حَفْرُهَا عَلَى الصَّفِيحِ الْمُهَيَّأِ لِأَزَامِيلِ الْعَبَثِ الشَّقْرَاءِ .

أَمْتَحَنُ الْبَقِيَّةَ بِكَ؟

أَمْتَحَنُ بِكَ الصَّحْبَ الْحَشْنَ كَذَهُولِ أَبِي يُقَادُ إِلَى مَقْتَلِهِ؟

هِيَ فِدَاحَةٌ تَحْزَمُ الْغِيَاهِبَ ، وَالْعَنْبُ يَتَحَرَّى اللَّمْسَةَ الَّتِي نَسَبَتْهَا فَوْقَ
يَدِي .

غَيْرَ أَنِّي إِنْ ذَكَرْتُكَ ذَكَرْتُ الْجِدَالَ بَيْنَ الْمِيَاهِ وَالْأَلْقِ ،

وَتَحَيَّنْتُ الَّذِي أَنَا فِيهِ ، بَعْدَ أَنْ يَكَادُ يَمْضِي بِخَطَايِفِ الَّذِي مَضَى ؛
وَتَحَيَّنْتُ الْأَيْفَ فِي قَدُومِهِ الثَّقِيلِ بِأَثْدَانِهِ الثَّقِيلَةِ ، مَوْمِئاً كَرَمَادٍ سَاحِرٍ
إِلَيْكَ ؛ إِلَى الْفِرَاقِ الْمَعْلُوقِ مِنْ رَثْيِهِ إِلَى شَجَرَةِ الثَّنِينِ ، هُنَاكَ ، حَيْثُ الرَّمَاءُ
الْمَتَالِفُونَ ، وَالشَّعَالِبُ النَّائِمَةُ فِي الْيَوَاقِيَتِ ، وَالْعِدَاوُونَ مِنْ نَزَعٍ إِلَى نَزَعٍ ؛
حَيْثُ الْأَسْرَى الْمَوْثِقُونَ بِسَيُورِ الْمَرْحِ ؛ حَيْثُ الْحِكَايَةُ كُلُّهَا ، الْمُتَقَيِّئَةُ ، فِي
فَرْعٍ ، إِلَى سَاقِ الدُّكْبُوثِ .
لِيَبْقَ مَعِيَ الْبَاقِي ، إِذَا ،

حَتَّى أُرِيكُمْ تُؤَسِّسُ الرِّسَالَةَ الَّتِي يَبْلُغُهَا الْأَكِيدُ إِلَى الْأَكِيدِ ؛

لَأُرِيكُمْ النُّبُوَّةَ الْمَتَسَلِّقَةَ ، كَاللَّبْلَابِ ، أَبْهَاءَ الْإِسْمَنِتِ ، صَاحِكاً مِنْ
الْمَوْعِدِ الْمُغْلَنِ لِلْقَادِمِينَ بِأَسْرَارِهِمْ إِلَى الْمَلْهَاءِ .

وَبِي ، أَوْ بِكَ (لَا فَرْقَ) سَأَمْتَحَنُ السَّكِينَةَ الْمُتَّكِبَةَ ، هُنَا ، بِأَمْشَاطِهَا
عَلَى تَسْرِيحِ الْفَاجِعِ ذِي الذُّوَابَاتِ ، مَتَمْتِماً مَا يَتَمْتَمُهُ الْمَأْمُولُ الْمَطْوُوقُ
بِالْفَضِيحَةِ أَمَامَ بَوَابَةِ اللَّهِ ، سَكَرَانَ مَا يُشْغَلِنِي بِهِ الْقَدِيمُ الْقَدِيمُ ، كَأَنِّي
بِكَ ، أَوْ بِي ، سَأْمُهَّدُ الْفَجَاءَةَ لِأَسْتَرْسَالِهَا حَتَّى يَلْهَجَ الزَّعْفَرَانُ بِأَسْمَاءِ
الرِّيحِ ، وَيُهْدِي النُّحَامَ جَنَاحِيهِ إِلَى الْخِزَامِيِّ . مُتَّفَكِّراً بِالْمُتَّفَكَّرِ فِي ، يَصْلُنِي
الْخَشْخَاشُ بِبِقَيْنِهِ ، وَيَزَاحِمُ الْخَزْدُلُ بِأَعْضَائِي مَا يَزَاحِمُهُ . وَالْبَقِيَّةُ؟ بِكَ ، أَوْ

بي ، لا فرق : يُنْبِئنا العَدَمَ عنه إذا يميلُ إلى عُرْلة ، وتتلَكَّا الذَّرَّةُ في سَرْدِنا على الظلال . بَلَّهَ يَقُومُ البنفسجُ بتوضيح ما خفي منا ، ويؤمُّ بنا العُلَيْقُ البطرانَ ألقه الدفين . والبقية؟ للقرنفل شكهُ . للتوت شكهُ . للقمب ، للحلبوب ، للدُّفْرانِ ، للثَّنوبِ والجُرَيْسِ ، لنا ، لليَحْمُورِ النَّازِفِ على حجارة النبع ، للقيامة التي تتهيا بأفئعتها القطنية ، للدعاميصِ الطافية على الماء ، للبتولا ، للطاووس الساهر على الكلمة ، القوي الحجول ، للبواق ذي الثَّفُخِ الملح ، للبقس ، للثَّنوبِ ، للجاووسِ ، للحنديق الهادي ، للفجر الذي يتلوَّى كالصلِّ قرب النعمة ، للبلادِ ، للكتانِ ، لليقينِ الراكضِ بجلاجل الفراغ ، للغد شكوكهُ .

هكذا : شكوكٌ على مرمى الفقهية ؛

شكوكٌ على مرمى الذهب .

ونحن ما نحن عليه : أسران بالشتاء الذي يتوسدنا عاصفة عاصفة ، وإذ ندعى نكن الإطالة في انقلاب المشكل إلى اتضاحه المشكل . والبقية؟ هكذا : تشمُّ الأرضُ ظلها ، متعرفةً إلى آثارنا فيه . فأى احتدام للمياه يشغلُ البقية؟ أي بُردي يُغوي الخلودَ الأحمق؟ في حُبِّ صاعد أدرأجه سنهمسُ إليكم بالكلام الباقي لشفيعنا ؛ سنهمسُ المدينة ، راكتنينُ إلى التكوير الذي يجعلُ الأبعدَ نُزلاً ، والنهية حيلةً من حيل العيارين . وكما يتقنُ المعلومُ نسجَ فتنته تُتقِنُ الترويحَ عن الأزلِ القرآنِ بالأقاصيصِ التي تتبرجُ بطحينها . وبى ، أو بك (لا فرق) سنؤخر - بما في صلصالنا من حواة - دخولَ الرمادِ ، المتبرمُ من مُنشده ، إلى مهجنا . سنتغامزُ ، متمتمين : « كثيفٌ يستدرجُ الكثيفَ . حبرٌ يهرقُ الفضاءَ » . وإذ نستفيضُ في تدوير الأمر ، كما يُدوِّرُ المُمكنُ فظاظاته ، نجعلُ البقسَ كناية

النهار المتأتيء ، والعصيفَ رطانةَ الشُّكْلِ . لا . ثمَّ دَفْرَانٌ يدوِّرُ المُشكَلَ
النباتيَّ أيضاً . ثُمَّتْ بُغَامٌ حَوْلَ البِيَانِ ، وَحَيُّوتٌ يَتَقَدَّمُ الأَحْنَاشَ الرَقِيقَةَ ،
كَعُذْرٍ رَقِيقٍ ، إلى كَمِينِ المُبْتَدَأِ . ثُمَّتْ إِطْنَابٌ مِنَ السَّحَرِ فِي التذَكِيرِ
بشعاعاته التي تُقَايِضُ الرِّيحَ بالرِّيحِ . ونحن على ما نحن فيه : فتوى من
النَّحْلِ تُقَسِّمُ الرَغِيْفَ المُحْتَرَقَ بَيْنَ الأَسْرَى .

برتقالٌ ، إذا ،

برتقالٌ هناك .

تَرْنِجٌ وَعَرَعَرٌ .

حُمُحْمٌ رَقِيقٌ ،

بُنٌ وَتَفَاحٌ ،

عَرِينٌ مِنَ المَرَجَانِ ،

هَمْسٌ يَبْهَرُ الأَنَامِلَ المَظْلَلَةَ ،

فَجَاءَهُ كَالقُنْبِ ،

فَجَاءَهُ كَالقَيْنَةِ ،

فَجَاءَهُ مِمْرَاحٌ ،

فَجَاءَهُ كَبَصْلِ الفَأْرِ ،

كَالموقِدِ ،

كَالبَهْرَمَانِ ،

كَالدُّهْلِيَّةِ ،

كَخَفِيرٍ ؛

فَجَاءَهُ هُنَاكَ ،

وَبَقِلٌ ،

وَخُبَّازِي ،

وَجُئِبَانٌ ،
 وَأَكَاسِرَةٌ يَضْرِبُونَ الْخِيَامَ قَرَبَ الْحَقِيقَةِ ،
 وَقَسَمَ مَرْفُوعٌ مِنَ الْأُمَمَةِ كُلِّهَا لَتَبْعَثِرُنَّ الْخَفِيَّ .
 إِذَنْ ، هُنَاكَ الَّذِي هُنَاكَ :
 هَبَّارٌ يَقْفِرُ مِنْ أَثَرِ اللَّهِ إِلَى أَثَرِ اللَّهِ .
 وَنَحْنُ مَا نَحْنُ عَلَيْهِ : أَسْرَانُ بِالشَّبَاكِ المَقْطَعَةِ مِنْ تَرْقِ جَمَالِهَا ،
 فَلَا يَنْتَظِرُنَا أَحَدٌ ؛
 لَا يَنْتَظِرُنَا أَحَدٌ .
 وَلَا يَنْشَغَلُنَّ الْهَوَاءُ بِوَسِيطِهِ التَّائِهَةِ فِي الْجَمَادِ ،
 فَالْمَكَانُ وَاحِدٌ ،
 وَالْأَنِينُ وَاحِدٌ ،
 وَالرُّثَّةُ الَّتِي تَنْفُخُ زَفِيرَهَا المَتَعَدِّدَةَ رُثَّةً وَاحِدَةً .
 لَكِنَّا نَرْنُو إِلَيْكُمْ بِالشَّهِيْقِ الْأَعْلَى فِي الرِّثَاتِ ؛
 إِلَيْكُمْ ،
 أَنْتُمْ المُتَّصِلِينَ بِالمُغْضِلِ المَوْحِدِ ،
 كَأَنَّمَا نَوْسُطُ الْجَمَادَ فِي قَرْيُظٍ سَيِّئَلَى ،
 أَوْ نَرُدُّدُ البَيَانَ ذَاكَ ، المَشْغُولَ بِقَلَمِ ذِي صَرِيرِ .

أَهْنَاكَ ، إِذَا ، غَيْرُ الَّذِي هُنَاكَ؟
 يُعَادُ البَرَقُ إِلَيْكَ ؛
 تُعَادُ الهَيْبَةُ المَتَمَلِّمَةُ ، كَالنَّمْرِ ، إِلَيْكَ ؛
 تَعَادُ ، أَنْتَ ، إِلَيْكَ ، مُمَهَّدًا كَتَايِفَ يَنْجِزُهَا حَلَّاقٌ أَعْمَى .
 وَأَنْتَ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ .
 تَحْلُجُ البَرَاهِينَ ، مَدَاهِمًا مَا يَلِيكَ ، وَمَا يَسْبِقُكَ ، بِمَطَرٍ مَغْسُولٍ وَشَهْوَةٍ

مغسولة ، فارتجَل قليلاً ، بك أو بها ، قصدَ المكانِ ، وحُذِّ متاعَكَ المُبَعَثَرِ بين
الأقفال .

وامسحْ ، بأناملَ من غَلَبَةِ ، ذلكَ الغبارَ الرقيقَ عن عانةِ النهايةِ ، ثم
اهدأ :

بك ، أو بها (لا فرق) ستعمُّ العَجَلَةَ حُمَى مَرَحِها ، وستختلفان ،
ببطشِ الحقيقةِ التي جعلتكما اثنين ، فيميلُ أحَدُكما إلى عَرَضِ والآخَرُ
إلى عَرَضِ ، متوازِينِ في مدى الألمِ ذاته ، الذي يَعِدُ الجوهَرَ بخزائنِ
مَنْهوبةِ .

وكذا أنت ،
يُعَادُ البرقُ إليك ؛
تُعَادُ الهبةُ المتململةُ ، كالسُنْجَابِ ، إليك ؛
تُعَادِينِ ، أنتِ ، إليكِ ، مرتعدةٌ من رَحَى النعمةِ التي تطحنُ
الأعراسَ .

وأنتِ على ما أنتِ عليه :
تضربين الخاتمةَ بمراوحِ الأنثويِّ ، مُنْسَلَّةً كَوَسْوَسَةِ الحِلِيِّ إلى المُشْتَهَى ،
فارتجلي قليلاً ، بك أو به ، ما يُسْطَرُّ الموتُ على العظامِ الكبيرةِ ؛ ارتجليهِ ،
هو ، نُخَاعاً نُخَاعاً ؛ وارتجليهِم جَمْهَرَةً جَمْهَرَةً ، إذ يبایعونَ غَدَهُمَ بالأسايرِ
المُتَقَنَةِ لِقَتْلِ مُتَقَنٍ .

أهناكَ ، إذاً ، غيرُ ما هناك؟
أفرقُ أكثرُ مما تنسجُ الفروقُ الكسولةُ؟

يا أنتما ، أيها العابثانِ كَعِلِمِ ، اتركانا وشأنَ الفراغِ هذا ، الأسيرِ

كالفكاهة ؛ اتركها الوحده تتأمل الخرزة الثقيلة في العقد الثقيل ، وانحدرا
بخالب الفجاءة وزينتها إلى السطر الأشد ملأ في اللوح الذي تغمضان
عيونكما عليه ، هناك ، في الفروق الذهبية للظلام .
واشهدا أننا نقضم الثمرة الأخيرة ، قبل انحدارنا - مثلكم - إلى أزل
النور الأعمى .

أثمت وجد آخر يدل المكان على أباريقنا؟

ذهبي ،

ذ

هـ

ب

ي هذا الرهان ،

والخرزنة يتدبرون خصومة الروح .

انتقام

أ

المعاطفُ كُلُّها هناك .
الرياحُ كُلُّها هناك .
الخطى الغائصةُ في الثلج ، والثلجُ كُلُّه هناك .
القناديلُ ، والبيوتُ ، والأشباحُ الأخيرةُ ، كُلُّها هناك .
فاجمعُ يديك الأليفتين ما تتسعان من كمالٍ ،
واجتهدُ أن يكون المشهدُ صدك الأليفُ .

ب

بَرَمَ كطبائع الصَّبَاحات يُشغِلُ القادمينَ إلى نهايتي ، وأنا ، في نزعي
تحت الشَّبَاكِ الكبيرةِ ، أعلَقُ المكانَ - كسراويلِ سجينٍ - على الحبلِ ذاكِ ،
الرقيقِ ، الممتدُّ من أوَّلِ الملهاةِ إلى أنينكم .

ج

وَفَرَّةُ الهباءِ أنا ، والمشيتةُ ظنيُّ .

د

الغضبُ إشارةُ الليلِ ، والماءُ فكرةٌ تتقدَّمُ كمالها .

كحذاءٍ يَلْتَمِعُ صِبَاغُهُ ،
 كمقبضِ بابٍ من نَيْكِلٍ :
 هكذا صرختُكَ .

مفردات

- النهار : غضبٌ يتخفى في قناع الهواء .
- الرياح : خطوة الكلمة في اتجاه سرها .
- الصوت : خراب الشكل .
- الحنين : ذهب منثور على مخمل النهاية .
- الفضاء : مشكل الضوء .
- العدم : فكاكة الظلال في مجلسها المضجر .
- الكتابة : بطش يمتحن المنسي .
- الرقم : حصيلة العبث .
- الشمع : برهان الشجرة على ماضٍ يضل كل برهان .
- القناع : أنين الظاهر .
- المسافة : لهاث معاد .
- الأكيد : تتمم في الجهة الأخرى .
- القيامة : طفولة تؤكد العقل .
- الذهب : عراقٌ في خان .
- الحياة : طلقة من ذهب ،
- أما أنت ، أيها المقيم في الخاتمة ، فلا تسرحنُ طويلاً لئلا يبرد العشاء .

البازيار

أسرى يتقاسمون الكنوز

شامتة تقترح الحياة بخزافيها المشهد ،
فلأنهض ، لا ليؤنسي الذي أراه ، بل لأخفي عن الحياة حنيني
المكسور .

ولأكتمن أنيني ، فالكل على حاله :
الجلب الغارق خلف البيت ذي القرميد ، والأطفال الصاحبون ،
كبراعم مية ، أمام سياج الجيران ، والمنزل الذي هجره نزلؤه ، عابسين ،
شمال حديقتي ، والزيزان المتباهية بجدها الملكي ، والفناء العشبي الذي
ينقض السنونو على نوافيره ، وفسائل الجيرانيوم المروضة ، وأعمدة
الإسمنت التي تعلق ، يوماً بعد يوم ، في فراغ مقتطف من ثراء الفراغات .
هكذا ، المشهد على حاله ،
والحقيقة على حالها ؛

عراكُ مراهقين في طبقة ما من المبنى ، وصراخُ أبويهما .
عراكُ ملائكة منذ أزل ، وصراخُ جذور في الظلام .
فلأنهض ، إذاً ، من الرقاد النساج ، لا ليؤنسي الذي أراه ، بل لأونس
الذي أراه من المشهد ، وأكمل الحنين بغوايات تُروى . وبالقُبَل ذاتها ، التي
اقتنصت الشفاء طويلاً ، فلأمتدح الخسارة المكتنزة كجارية مُكتنزة ، مردداً
بفم الغبار ما يتممه الغيبُ :
إنها القطيعة بين الأرض والريح .

لأنكُنْ بوعدي إذاً ،
فالشفاءُ التي تردّد الكمال الصّاحبَ تردّد الموت ، والموفدون إلى هذا
الليل ليبنوا أدرجَهُ اللولبيّة يبعثرون الرخام الذي حملوه .
أما المشهدُ المقامُ على أنقاضِ حالِهِ فهو على حالِهِ ،
والحيلَةُ على حالِها ،
والموتُ ، وَحَدُهُ ، الأكثرُ وَحْدَهُ بين الأسرى .

لكنْ ، ما الذي يفعله الموتُ هنا؟
ما الذي يفعله الموتُ السكرانُ ، ذو الدُّوارِ الأشدِّ ، وهو يرمي بشيابه إلى
الأرواح؟
ما الذي يفعله الموتُ المُسَطَّرُ بأقلامهِ على الفكاهةِ النائمةِ كورقةٍ
مديدةٍ بين شِعْرٍ نائمٍ وأنينٍ يقظانٍ؟
ما الذي يفعله الموتُ ، شريكِي ، في هذه البرهة التي تتأصّل بجذورِ
كجذورِ التينِ ، وبراعمٍ من شعاعٍ ينثرُ المغيبَ على أنداءِ شقيقاته؟
ما الذي يفعله الموتُ ، القادمُ بي إلى هَذْرَةٍ؟
ما الذي يفعله الموتُ الذي أضجَرَ الشهودَ بهرَجِهِ ، وخرجَ مع الخارجين
من الباب ذاته الذي يُفْضِي إلى الحياة؟
ما الذي أفعله بالموتِ ، أسيري ، وأنا الحائرُ في تدبيرِ زنازينٍ مضيئةٍ
تليق بأسراي وببي؟

فلتتمهّلِ الحقيقةُ في اقترابها من القيدِ الذي أشدُّ به رُسْغِي إلى رُسْغِ
الريحِ .

أما المشهدُ فليبقَ على فراغِهِ ،

لأنني سأستجعلُ في إبرامِ العَقْدِ ذاكَ ، الذي يقدِّمُ الهواءَ غريقاً إلى زَبَدِي ، وسأعلِّمُ نفسي مشافهاتها الكبيرةً بلسانٍ مقطوعٍ ، فالأمرُ كلُّه برهةً في يقينٍ مُنكَبٍ على الرُّتوقِ كإسكافيٍّ .

وسأبوحُ بي للأرقِ الذي يبوحُ بقَدْرِهِ للمياهِ ،
وستبوحُ المياهُ للسكونِ الجالسِ ، حافياً ، أمامَ مرِيدِهِ .
وسأقسمُ الهباتِ ، التي رفعها الحريقُ إليَّ ، بينَ اليقينِ والفكاهةِ ،
سأتقاسمُ والبرْدَ الضاحكَ شتاءنا اللُّهبيِّ .

(«شقيقي أيها اللُّهْبُ ؛

شقيقي أيها الخداعُ ؛

أيها الموتُ الذي من مياهِ ؛

يا شقيقتي اللَّائِي يوقدُنُ في الجذورِ صَخْباً رشيْقاً كالسَّنَاجِبِ ، ما
حيلتي في هذا؟ :

العبثُ يُرَاهِنُ باللهِ حينَ نحجُبُ عنه هِبَاتِنَا» .

والمشهدُ؟ أيُّ حالٍ للمشهدِ ، أيُّ كوى يطلُّ منها الخالدُ على خلوده؟

يقولُ جاري : «تمهَّلْ» . تقولُ الحديقةُ : «تمهَّلْ» .

يقولُ المكانُ إسرافهُ ، ويضللُ الرُّنْبِقُ الوردَ ، كأنما العبثُ يغزلُ بِنَوَلٍ

من الماسِ مَغِيْباً حيّاً كعضلةٍ في فخذِ الكلبِ .

وآخرون يقولون ، أيضاً ، قولهم المُمْتَهَنَ ، فأصغِ :

إنها مُهْلَةٌ القويِّ ينذرُ الأرحامَ ؛

إنها مُهْلَةٌ الجاهلِ كي تسوِّيَ الحروفُ إشكالها .

فليعذرني المشهدُ ، إذأ ، لأنني سأنجو منِّي قبلَ اكتمالِ الطبائعِ التي

تنسجُ الألمَ بخيوطٍ من ثرثرةِ العنْبِ ، عائداً بنموري إلى القيامةِ ، من الرِّواقِ

ذاته الذي ترتطمُ فيه موازينُ باعةِ البُنْدُقِ بالملائكةِ المتشاقلةِ في عبورها .
ولربما عذرتُ المشهدَ ، بدوري ، على ثباته الأخرقِ ببيوته ؛ بشجراته ؛
برياحه الهيئَةِ ؛ بخزاناتِ المياهِ المنصوبةِ على الأسطحةِ كفروجِ تقنصِ
الشمسِ ؛ بصياحِ الذئكةِ المختبئةِ خلفِ سياجاتِ من اللُوياءِ ؛ بمصايحه
المضيئةِ ؛ بالقَدَرِ المراهِنِ على فكاهاتهِ الباردةِ .

ربما ،

ربما ،

- «تصبحونَ على خير» .

- «تصبحونَ على ألق» .

- «تصبحونَ على عَدَمِ مُذْرَجِ في قائمةِ الطعام» .

«يا لِرُوحِي المغلوبةِ على أومتها» :

هذا ما أقوله ، وأنا أجادركم من الباب الخلفي المُفضي إلى الحياة .
لكن أسراي يبقونَ هناك ، في انتظار أن أحررَ الأزلَ من الحُمى .
وأسراي ملكٌ مشاغلمهم ، يُدبرون لي عذوبةِ المضيِّ بالخسارةِ إلى ألقها .
مباهينَ بسُننٍ ليست لهم يبسطونَ على الأرضِ أشرعةَ من خيالِ الماءِ ،
متموجةً ، كأنما تُلدُّ الظلالَ نَسلاً من الجبالِ المشدودةِ إلى كُوُثُلِ الفجيجةِ .

هكذا إلى ألقها ؛

هكذا الخسارةُ إلى ألقها ،

بأسرى يتقاذفونَ الفجرَ كالوسائدِ ،

ويتأملونَ الفردوسَ المذعورَ متشبثاً بستارةِ المسرحِ .

- «فلنكنَّ فكهينَ . فلنكنَّ جراءةَ القطيعةِ تولبُ النعمةَ على بناتِها» .

- «فلاكنَّ وسيطاً» .

- فليكن المنتصرون حيلة تُشغلُ الرَّحِمَ بسباقٍ آخرَ :
 هذا ما أقوله ، وأنا أغادركم من الباب الخلفي المفضي إلى الحياة ،
 لكن أسراي ينتظرون أن أحررَ الياقوتَ . وأختبىء في أمومة المراثي .
 وأنا خَجَلٌ من أسرايَ كيف لا أقودهم بي إلى كَيْدِ الشُّكْلِ وكنوزِهِ .
 وأنا خَجَلٌ من الموتِ كيف لا أعيذُ إليه أقدامَ الهربِ القويَّةَ ، ولا أحسبُ
 في ثرواته الموتى ،
 لأنهم يقودون بي كَيْدَ الشُّكْلِ ، ويأتمرونَ على غدِهِم !
 وأنا خَجَلٌ من العَدَمِ يَقلُدُنِي المَكَانَ فأنسى .

يا لنسياني ، إذا :
 أسرايَ يدفعونَ عَجَلَةَ الحُظوظِ الكبيرةَ صوبَ السورِ الكبيرِ .
 لا لهاثَ . لا أختامَ على الثَّرَقَاتِ ، لا نُسورَ تحوُّمٍ مشتمةً طفقطقاتِ
 العظامِ . مؤتلقينَ بالذي فيهم من صيحةِ الرمادِ الحيِّ يدفعونَ العَجَلَةَ
 فتندفعُ حذراً إلى الصميمِ المفتوحِ للنهايةِ التي لا تكونُ .

يا لنسياني ، إذا :
 عَجَلَةَ وأسرى .
 عَجَلَةَ وأسرى كُثُرُ - أسرايَ ، تلكَ النظائرُ التي تتمحنُ الفروقَ بشهوةِ
 النهايةِ التي لا تكونُ .

يا لنسياني ، إذا :
 حرَّبةً من ريحٍ ، وقُلُوعَ من العافيةِ :
 ذكرىَ شهورٍ تحتِ الخمايرِ ،
 وأزيرُ طَلقاتٍ تفتحُ الحكمةَ على مصراعِها .

. . ونسيانٌ . تَهْتَكُ في النسيانِ . نسيانٌ كبناتِ عُرْسٍ . نسيانٌ يسْتُرُ
بيديَّ اللهَ رَعافَهُ القويُّ . نسيانٌ محرَّضٌ يدلُّقُ الزيتَ على الأدرجِ ، ويكلِّمُ
الشهودَ بلسانِ الفلكيِّ الذي يحصرُ المتأهِّ بفرجَارِهِ .

ذلكم أسراي ، وذاك نسيانهم ،
فلا تُفِقْ ، إذا ، عليّ ، لأخطو خطواتي على هيشة تحيّرُ الريحَ ، ولتنتفق
القيودُ على عَرَضِ طبائعها ، حتى لا أدرجَ النهارَ في صنوفي ، ولا أتخذُ
البهيَّ قريناً ، مُمتحناً أسراي في أشكالهم ذاتها ، التي تجتاح بكثيفها
المشكِلُ ذلكَ النشيدَ الذي ينسبُهُ الأقوياءُ إلى الآلهة .
فليتفق أسراي على زنازينَ مضيئة تليقُ بي .
وفي اتجاهي - اتجاه المشيئة المتعثرة بشياها الطويلة - فلينفخ القادرون
أبواقهم من السور الأعلى بين الأسوار ، حتى يختلطَ القَدْرُ بقُرْاصِهِ
وحرادينه . وفي غربال واحدٍ فلتجاورِ الحماقة والغد ، مُنتثرين من الثقوبِ
الكبيرة على الفراغِ كالطحين .

في اتجاهي .
في اتجاهي ||||| هي أيها الخفي ،
في اتجاهي أيتها الجهات ،
عميقاً ،
قربَ الفضيحة الناعسة في فرائها ،
هنا ،
حيثُ يخمنُ الطبَّالونَ مراتبَ الصوت ،
وتتناحرُ الأمومةُ بسكاكينَ من دُعابةِ الذِّكْرِ .

في اتجاهي ؛

في اتجاه ذلك كله يدرجُ أسرايَ مكابيلهم .

والمشهدُ على حاله :

فتورُّ يمدُّ الحبالَ لبهلواناته . قنَاصَةٌ من الوردِ على الشرفات . أنبياءُ
قربَ سور «سباق الخيل» يحذِّرون الشجرَ العالِي . سنونو يروِّضُ أسلاك
الكهرباءِ العالِيَّة . صوتُ المغسلةِ ذاتها من وراء نافذةِ البيتِ الغربيِّ ،
ونحنحاتُ المقامرِين وهم يسدلون الستارةَ ، ليلاً ، بين ربحٍ وآخر ، والمساءُ
الذي يدلُّ عليَّ جِيادَه ، كأنني السُّهْرُ يفتحُ الخانَ الأوسعَ للمُؤرِّقِينَ بحمِّي
يقينهم .

هكذا ، الكلُّ على حاله :

الجُدُّ المُتَبَهِّلُ إلى قِيَافِه الكسولِ ؛ والقهقهةُ ؛ والصيفُ ؛ والجِصُّ
المتجمدُ على مدخنةِ بيتِ الجارةِ العانسِ ؛ وزهراتُ الميموزا ؛ والغبارُ المحرَّضُ
إذ يلقنُ الظهيرةَ أنينها ؛ والتعبُ ؛ والظلالُ ؛ والمجادلةُ المحبوكَةُ كعَظْمٍ ؛
والهمسُ ؛ والدغدغاتُ ؛ والبدعةُ التي تُنطقُ كمقصِّ الحلاقِ ؛ والسَّحْرُ ؛
وانشدهُ الحادثةَ بوقوعِها ؛ والقيامَةُ ؛ والنفيرُ الأبعدُ الذي يلي كلَّ شيءٍ ؛
والفتنةُ الدائرةُ بخواتمها على أناملِ الموتى .

فليتفقُ أسرايَ ، إذا ، على سلامٍ ما .

فلأتفقُ مع المكانِ على زنازينِ تَلِيْقٍ بأشباحتنا .

وفي اتجاهي - اتجاهِ الثُّغورِ التي ينفذُ منها الحاضرُ إلى شهبواته -
فلتتسلقُ الأبوَّةُ سورَ النعمةِ بلبلابها ، مُؤمِّمةٌ للأشدِّ دهاءً ؛ للدهاءِ ذاته ؛

للأسلحة التي ستوقظ الأرض من رقادنا بعد حين .

في اتجاهي :

أبوّة في اتجاهي .

عطارون يدلقون قُفَفَ الحشائشِ ،

ودُغَرٌّ ينخُرُ الأبدَ فيهوي ؛

هكذا : الكلُّ يهوي في اتجاهي ، مظلةٌ من هُلامٍ كقناديلِ البحرِ ، وأنا
أتلقُ من أتلقُهُ بأيدي السُعاةِ أو شباكِ الحمقى .

وأتقدمُ بي أسيراً أسيراً أتمهلُهم ، فيتمهلونني - كمثلني - بنداءِ
شفيفٍ ، وهم يَعُدُّونَ القضبانَ التي يحملونها إلى بواباتِ سجونهم
الرحيمةِ ، هناك ، واثقينَ من الألمِ الذي سيدخلُ الرُدْهَةَ بقطيعه ، خفيفاً ،
يتمتمُ بكلامِ ككلامِ المملوكِ .

والألمُ ، بعد هذا ، على حاله :

مُدَاهِنُ يرسمُ الحديدَ على صورتهِ ، ويكمّمُ الأرضَ فلا تطلقُ الصيحةَ
التي ينتظرها العارفون .

والألمُ رثّةٌ ، بعد هذا ، أيضاً ،

وأتفاقُ شهودٍ ،

وقرائنُ بها يحسّمُ المرافعونَ عن اليقينِ جدالهم .

والألمُ . . . أه أسراي :

سينكتُ الغدُ بوعدِهِ ،

ستنكتُ البيوتُ بوعدها .
ستنكتُ الطرقُ ، والحدائقُ ، بعودها .
ستنكتُ المداخلُ ، والمتاهاتُ ، بعودها .
ستنكتُ الروحُ بوعدها .
ستنكتُ الريحُ بوعدها .
ستنكتُ القيامةُ بوعدها .
ستنكتُ الثمرةُ ، التي لم تلتئم ، بوعدها .
ستنكتُ الجسارةُ بوعدها .
ستنكتُ الخيلةُ بوعدها .
ستنكتُ الحياةُ بوعدها ،
وسأنكتُ بوعدي ، متقدماً أسرايَ إلى الفضيحة .

بئدَ ستبقى الحظوظُ على حالها ، معتكفةً بالمناقيرِ الذهبيةِ على
الغبارِ ،

وسيبقى الغيبُ مُسترسلاً ، كصيدليٍّ ، في دَحْضِ عقاقيره .
فمن سيرتأي ، مثلي ، مشيئةً تأخذُ الحيَّ على محمَلِ الحيِّ ،
والفكاهةَ على محمَلِ الأبدِ؟
من سينقذُ اليقينَ من جماله؟

إنها القطيعةُ ؛

إنها القطيعةُ ،

وأسرايَ يستكملونَ الفروقَ التي تعممُ مجونها .

فليأسرُنِي من يريدُ ، إذا ؛

والبيتُ؟

بيئنا ، يا للبيت ؛ يا للأفق الغربي ؛ يا للغد الضجران ؛ يا للسهرة
المُتَحَنِّ بالسهارى ؛ يا للمشيئة ؛ يا للرُّمان المعلق أربعة شهور على
الشجرات ذاتها ؛ يا لديكة الظهيرة ، يا للزائرين بأبواقهم يقبضون على
النحاس المنثور في الهواء ؛ يا لنهب يبيحه العادلون .

عادلون ؛

كلهم عادلون :

اسألوا أسراي وهم يتصيدون الليل بشصوص الألم الكبيرة .

... وكبيرة فلتكن الحنة بريشها وزبيها ، متدلّية من الخاتمة كأجاص
تتناهيه العصافير .

كبيرة لتكن المعاتبات بعد العناق ،

فالكلُّ على حاله :

البطولة التي تنتظر من يحدثها حديث اليقظان ، والدقائق الأربعون
بين المدينة ومطارها الهارب ، والخبر الكبير إذ يوسع القلب لخبر كبير ،
والصيف الذي يتسول الشتاء المتسول ، والزيارة المُحتملة لملاك ما ، والمائدة
بقوائمها الأربع ، خلف ستارة القش الفاصلة بين هواء الرصيف وهواء
الرصيف ، حيث ندرج شهواتنا ككهنة ينعمون بحرج الله من أعماق لا
تتسع لامتحانه ، وقد أسلمنا أهدابنا للمشهد ، وأسلمنا مواعيدنا كفستق
تتذرذر قشوره على المائدة .

هكذا :

لا يقين ،

لا جسارة ،
لا خزافين ،
لا قلبٌ يُلقِي بظلاله على الفكاهة ،
لا هبوبٌ ، بل نَفْحٌ من فَمِ الظلام .

هكذا :

هدرٌ خافتٌ ،
وقبضةٌ تتكور لتهوي .

هكذا||| :

خيانةٌ تتلمس - كورقةِ الدُّبِ - عُصنها المائل .

ووسطَ هذا كله حَزَنٌ بِلٍ ، وعرائسُ ذرة ، وقفزٌ كقفزِ الكُنْغْرِ ، وطُهاةٌ
أيضاً ، ونعيمٌ منهوبٌ ، وحُلِيٌّ ، وقياثُ ، وقناديلُ بحرٍ بهلامٍ أنقى ،
ومجدفونٌ بمجاديفٍ من عظام ، ولواحمٌ ، وقرافاتٌ ، وحجارةٌ للجلخ ،
وسروجٌ ، وموائدٌ موهَّةٌ بشرابِ بموهٍ ، وأكبَادٌ ، وزيزانٌ ضليعةٌ كالظهيرَةِ فِي
اقتسامِ الجهاتِ ، وبنادقٌ ، ووراقونٌ ، وعَدَمٌ قِيَّافٌ ؛
وسطَ هذا أنينٌ يحنو على القَهْقَهَةِ .

والغدُّ على حاله :

فناراتٌ غارقةٌ ، وملوكٌ موعودونٌ بشعوبٍ أقلُّ ضجراً .
فليعذرني أسراي : ما مِنْ رَاوٍ يُبْعِدُ الحِكايةَ عن زنازينهم ، لينعموا
بالأكيد المفتوح على قرائنه العمياء .

ما مِنْ رَأَاااااا .

ما مِنْ فُضِيحَةٍ وَسَطَ هَذَا الْمَوْتِ تُلْهِمُ الْمَوْتَ فَكَاهَاتِهِ ؛

ما مِنْ أَحْشَاءَ لَتَنْتَقَطَ ؛

ما مِنْ كِبِدٍ :

إنْهَا الْأَنْفَاسُ الْكَبِيرَةُ فِي رِثَةِ لِمَ تَشْهَقُ قَطُّ ، وَوَسَاوِسُ مِنْ رِيَشٍ

يَتَكَيءُ عَلَيْهَا الْمَنْفِيُّونَ .

فليعذرني أسرايَ عُذْرَ الْمُقْتَدِرِ كِي أَهْيَىءَ الزَّنَازِينَ الْعَادِلَةَ وَالْهَوَاءَ الْعَادِلَ ، بِشَفَاعَةِ الْمَدِيحِ الَّذِي يَتَوَكَّأُ عَلَيْهِ الْمَوْتُ . وليهدأ الهائمونَ حَوْلَ مَسَائِي ، فَمَعِيَ الْفَدِيَةُ الْكَبِيرَةُ الَّتِي مِنْ شَبَاكٍ وَمَزَالِيحٍ . وَلَا يَتَبَعَّنِي الْغَدُّ ، فَالْرَهَائِنُ الْخَارِجَةُ بِي - مِنْ الْبَابِ الْخَلْفِيِّ الَّذِي يَفْضِي إِلَى الْحَيَاةِ - خَجُولَةٌ ، وَالْحَيَاةُ خَجُولَةٌ وَرَاءَ الْبَابِ الْخَلْفِيِّ الْغَارِقِ فِي لَفْظِ الْمَنْفِيِّينَ .

هكذا ،

مَوْهَا كَقَسَمٍ يَكْتَمَلُ الْعَادِي .

هكذا ،

تَسْهَرُ الْمَعْجِزَةُ قَرَبَ الْحَرِيقِ الَّذِي يُضْرَمُهُ الْعَادِيُونَ .

هكذا ،

إلهي ،

أدُلْ عَلَيَّ مَغَالِيْقَكَ الَّتِي لَا تَنْتَهِي ،

وَأَنَا أَوْهَمُ أُسْرَايَ أَنَّ لِي شَكِيمَةَ النَّرْجِسِ وَسَطْوَةَ الْعَبِيثِرَانِ ،

وَأَتَذَرُكَ بِكَ كِي أَقُولَ النِّعْمَةَ مَا لَنْ يَقُولَهُ الْمَوْتُ .

وأسرائي؟

ما الذي يُشغلُ الكنوزَ بأسرائي؟

سأقولُ لنفسي اخترِ المشهدَ الذي على حاله .

فالذين يوقظونني في الأحد الميِّتِ ، في الخميس الميِّتِ ، في السبت الميِّتِ ، في الثلاثاء ، في البداية الميِّتة والنهاية الميِّتة ، بيتسمون محيِّينَ من شرفة البناء الذي لم يكتملَ سقفه القرميدُ ؛ البناء الفاجرِ ، المحتجزِ الهواءَ بخصيَّته الغبرائينَ .

هكذا ، يوقظونني بأنفةٍ كأنني سأشهدُ القطيعةَ التي يوجِّجونها .

هكذا ، كأنَّ الذي يمزقُ قلبي يمزقُ الحدائقَ أيضاً .

لكنني يقظانُ في المدى الذي توقظُ الآلهةَ فيه ما يُغيظُها ؛

يقظانُ ، مُمتنٌ للفتنة الأوقى ؛

يقظانُ كدهاءِ المشهدِ المحمولِ على جناسٍ كبير .

وثمتَ ، هناك ، كمائنُ في الألقِ ، كمائنُ كمثلي ، حيث أرتجلُ الغدَ ذا العربة الصلصاليةِ ، مغامراً بالنثرِ المسكونِ الذي لا يُواتي ، وبالبلاعةِ اليقظى من ارتجاجِ العجلاتِ على الحبرِ ، صارخاً بي : لا تفتحِ المساءَ على مصراعيه ، ولا تقدِّمِ الليلَ بتعريفٍ إلى أشقائك الضاحكينَ ، فالنهارُ لن يؤكِّدَكَ بثرائته ؛ لن يؤكِّدَكَ ضوءُ ، والمصابيحُ الكبيرةُ نعاسٌ يقظان .

فلا تمتحنوا اليأسَ :

خدعةُ هذا الهواءِ الذي يُصرفُ بأسنانه ،

والنحيبُ المتصاعدُ ، فراغاً بعد آخر ، نحيبٌ يضلُّ المشيعينَ .

ولا تمتحنوني ؛

لا تمتحنوا أسرائي بمشافهاتٍ كبيرة ؛

لا تمتحنوا الموتَ الذي يسرقُ الريحُ من فخاخنا .

إنها القطيعةُ .

إنها القطيعةُ .

١٩٨٧

مهاياذ

(إلى أوليياذ الله)

للعظام رنينها ،

وللقبور رنينها ،

والفجرُ ، الأكثر اندلاعاً من حريق ، يدلُّ الموتَ على قاطنيه .

فلا تكتبني ، الآن ، أيها الملاكُ ، بالحروفِ ذاتها التي توثِّخُ الحياةَ على جرائرها العذبة ، وتستحي من الخبرِ فترتدي يقينها . ولا تكتبِ المنفى المفتوحَ كبابِ ركَّله العابثون بمفاتيح الأشكال .

أما الأرقُ ، الذي يبعثه الأطفالُ الهائمون في الحديقة ، فهو الأرقُ المُسطَّرُ طولاً وعَرْضاً ، والممخوُّ بالأعقابِ الغادية في أعماقنا ، حيث الطَّرقاتُ القويَّةُ لأقدام قويَّةٍ ، وحيثُ تنحدرُ اللَّفافاتُ ، التي يرميها البناؤون - في إهمال - إلى غَدِّهم .

والأحافيرُ بيني وبينك أيُّها الملاكُ : جرَّافاتُ ، ورملٌ ، وسَحَرَةٌ يسرقون أخشابَ النوافذِ ومقابضَ الأبوابِ التي من نحاسٍ ، وعرائسُ من شفقِ ذائب بين الأيدي . أما اللاعبون - هؤلاء - الذين من شُبُهاتِ تبعثُرُ التاريخِ على أنقاضِهِ ، فهُمُ أمانةُ الفجرِ بيننا ، حتى نعثرَ لهم على مساكنَ تليقُ بالعظام .

واللاعبون يمتحنونَ الفجرَ الآن ، بعصِيَّهم الطويلةِ وكُرَّاتهم ؛ بقفزاتهم ، وحديدِهم الخفيفِ مثل شفقِ محمولٍ على حمارٍ . أما الأرضُ فهي لهاثُ المُشاهدِ المحتقِ ، حين يركضُ إلى السياجِ صارخاً : «أوقفوا هذه الحقيقةَ» . وما السَّرْدُ إن سَرَدْتُ؟ إنَّهم هناك : المهجورون ، والعداؤون ؛ رافعو

الأثقال ، ورُماةُ المطارق ؛ عابرو الحواجز ركضاً ، والماشون باتكاءٍ على
حَقَوَاتِهِمْ ؛ والقافزونَ عالياً بقصباتهم الطويلة ، والجاثمون على مدارجِ الحلبةِ
يمتحنون الثقلَ الذي يشدُّهم إلى الحريق .

وعليّ ، كلاعِبٍ مُمتَحَنٍ ، أن أتقدّم - بدوري - لأرفعَ الحديدَ الذي
يرفعُهُ الآخرون ، بيقينٍ مستترٍ لا يتوخى الغلبة ، بل الوقوفُ أمامَ الحشدِ
الهائمِ في ذكرى انتصاره الناقصِ على مجدٍ ناقصٍ ، صارخاً : يا لثقلِي :
كَيْفَ أترهّلُ هكذا ، عضلةً عضلةً ، وعظماً عظماً ؟ كيف أتجنّبُ الموعدَ
الميتَ الذي عقدهُ للقاءِ الموتى ؟

لكنني خائفٌ من الحشدِ هناك ، الذائبِ على المدارجِ كدهانٍ في
الظهيرة ، لذلك أجمع أضلاعي في صفٍّ واحدٍ ، وأرفع رثتي على فجرٍ
مهزوم ، وأنا أقدفُ بالرَّمحِ في الحلبة ، أمامَ الحكمِ الساهرِ على سَهْرِهِ ،
ليقول إنني رميتُ أبعدَ مما يُرمى رُمحٌ في حلبةٍ ساهرةٍ على حَكَمِهَا .
أقفزُ قفزتي ، الآن ، أم أقطعُ الشوطَ القصيرَ الذي ينتظرُهُ أترابي ، وأنا
أنحني حتى تلامسَ رُكبتاي أرضَ السباق ، وعينيّ على الشفقِ المرتدي
قناعَهُ الأبوي ؟

أقسّمُ الحلبةَ بيني وبين الشاردين ؟
سأقدفُ الكراتِ كُلِّهَا ، التي لن تُصيبَ مرمى ، وسأترلجُ بحكمةِ
الثلجِ المفطومِ عن رضاعته ؛
سأقدّمُ هباتي ؛

فالريحُ ، وحدها ، تسرقُ التينَ من راکضٍ لم يقتطفِ التينَ .
وكأبٍ لم يبلُغْ أبوتَهُ بَعْدُ ، سأنفحصُ المساءَ المتوئّبَ للركضِ ، وازناً ،
في أعماقي ، بين قفزاتي وقفزاتي ، وأنا لا أريدُ غَلْبَةً ، بل أن تكتملَ المباراةُ
بحاضريها ، كي لا يتقولَ الخاسرون على حَكَمٍ لا يهدي إلى أحدٍ شقاء
انتصارِهِ ، ولا يحسبُ الضرباتِ التي تُميتُ .

وأنا هنا ، على أية حال . أنا ، والحضور هناك ، والجهاتُ المأخوذةُ
بِخَفَقَةِ الدَّمِ الذي يخرجُ عن طَوْرِهِ كِلا عِبِ مطرودٍ ، حينَ تَتَقَشَّرُ النِّهايَةُ أَلْقَا
أَلْقَا ، وَيُعْمَى على الأَلَمِ ؛

وأنا هناك ، محفوفٌ بجيرانٍ من التعبِ ، وأفوضُ النهارَ أنْ يُؤكِّدني
بِسطوْتِهِ العَمِيَاءُ ؛

وأنا هناك ، موزعٌ بينَ العدائينِ ، في الفجرِ الذي لن يربحه أحدٌ ؛ في
الفجرِ السَّيِّفِ الذي يجرُّ صباحاً مُثَقَلًا بنميمةِ الرِّيحِ ؛
وأنا هناك ، تتقدَّمُني شاحناتٌ عَجولَةٌ تنزلقُ عن مقاوِدها أيدي
السائقينِ ، ريشما يتأمنُ للموتى مصادفةً موتَ آخرٍ يخلُقُ الحَيَاةَ بِأَكاذيبِهِ .

أَبوحُ لَكُمْ كَمْ خَدَعَنِي الجِيرانُ لأَدْخَلَ هذا السَّبَّاقُ ؟ :
أوهُموني أنْ لي رِشاقَةُ السَّلَكِ ، وفُجورُ السِّياجِ . وأوهموا حدِيقتي أنها
الطيرانُ البَاحِثُ عن ريشِ ، ثم استلقوا على حُصْرِهِم ، تحتِ النَّدى الفاجِرِ
لصباحِ مسكوبٍ من ابريقِ حجري ، وتأملوا خروجي من البابِ بعدما
وضعوا أمامَ العتبةِ حُفَّينِ رِياضِيَّينِ ، وقميصاً غريقاً . وأنا اتَّخَذْتُ ذلكَ
سبباً لَأَسْتَسَلِمَ بَقِيودٍ مِنَ الأَرقامِ إلى انتصاري .

لقد فَتَنَتْهُمُ ؛ فَتَنْتُ الجِيرانَ ، والحَكَمَ الذَّابِلَ ، والضوءَ المُمسكَ بزانتِهِ
الطويلةِ ، والحلبةِ ، معاً ، راكضاً من مشيئةٍ إلى مشيئةٍ ، ومن حبرٍ إلى حبرٍ ،
ملتقطاً حَرَزَةَ الأدميِّ المكسورةِ تحتِ أقدامِ سَبَقَتِي ولم تنتصرِ .

حدِيثِي فَظٌ . أعرفُ ذلكَ .

مشافهاتي الصغيرةُ فَظَةٌ . أعرفُ ذلكَ .

خطواتي فَظَةٌ لأنني هيأتها للسباقِ .

وأنا فَظٌ ، لأنكم تدركون المعنى في اشتغاله على يقينٍ مهشمٍ في مرآةٍ

مهشمة يتطلع إليها المهجورون .
والأرضُ فظةٌ ، أيضاً . هذه الزاناتُ الطويلةُ للقفز ، والمطارقُ التي تنثُرُ
في قذفها ، والأفخاذُ المقروءةُ على عجل - حين تنهتُ عضلاتُها بالشهوةِ
التي فيها إلى خسارة لا تُحتسبُ - كلها فظةٌ .
والحلبةُ فظةٌ ، لأنها تروي الثقلَ الأكبرَ للموتِ بصوتٍ خفيضٍ .

(أيها الموتُ ،

يا أسماً على كتفينِ قويتين ؛
يا محاةً ترخفُ ، وياقوتةً غيرَ مثبتةٍ في الخاتمِ على نحوٍ مُحكمٍ ؛
يا مُبدداً نفسهُ بين الألقابِ ،
كأنما سلوقيُّ يجركُ لاهناً .
وكأنما ذاكرتُك تترأى قطعاً مقدوفةً من الشرفاتِ .
أيها الموتُ ،

يا غريباً تمتدُّ إليه الأيدي كُلهَا ،
خففُ مساءً لآتِكَ قليلاً) .

لكنني راکضٌ بزانتِي الطويلةِ ، وسط الهتافِ الذي يجعلني شريكاً
لأوّل راکضٍ آدميٍّ وسط الهتافِ . وحين أتكىءُ عليها باندفاعي الأقصى ،
متخذاً لجسدي رميتَهُ القوسيةَ ، يشهد الهواءُ لحذاقتي ، ويتفننُ الضوءُ في
سردِي شعاعاً شعاعاً على طفولته التائهةِ ، لأنني استباقُ المراهنينِ وصفٍ
يقينهم الذي لا يُوصفُ .

وفي عبوري ، قافزاً ، يدحرج الجالسون على المدارجِ أشكالهم ، قابضين
ملء الأيدي على قفزاتٍ مُختزلةٍ بين الجنون والجنون ، وهم يصرخون بي :
«خُذِ النهايةَ» ، فأخذُ النهايةَ برمْلِها ، ودهانها ، وورقها ، وأسفلتِها ،

وحرصها ، وحلاقيها ، وسواترها ، ونعاسها ، وشهقاتها ، وكراسيها ،
ومتايلها ، واعتذارها الذي يدلُّقُ الدَّم في مصفاته .

والعدمُ يندفع ، أيضاً ، إلى المنصة التي يرفع حاملو الأثقال عليها الفناءَ
المسبوكة كحديد من عسل ، فأخذُ مكاني بين المنذورين ، لأصعدَ - بدوري
- إلى المنصة ، وقد مَسَسْتُ براحتي الرملَ الذي يجفُّهما لثلاً ينزلق
فيهما الحديد . وأرفعُ المساء ، خَطَفًا ، ثلاثين حجراً ، وأقْتِنُ بما تركت الحياةَ
على المساء من سِهرها ، وقراريطَ أخرى من شحوب المقامرِ الذي يوزَعُ الريحَ
على أخواته .

أسمي لكم الأعلامَ التي هناك ، فوق الشُّرفات العالية المستندة على
البنادق؟ أسمى لكم البنادقَ الكثيرة هناك ، حيث البطولة التي تتقَع في
الدخول على الكردي من حياتها؟ أسمى الكردي ليتدفأ الليلَ بقميصه
المنتهب؟

قفزتان ، في الشوطِ الأول ، بزانةٍ مكسورة ؛
قفزتانِ باحتكامٍ إلى إلهٍ مكسور .

أأخذ المساءَ أسيراً ليكتملَ لي الوصفُ ، أم أترك المساءَ لاجتهادهِ
الرياضي؟ أأجمعُ المطارقَ المقدوفة ، في نهاية المديح ، أم أكتفي بالذي معي
من عويلٍ محسوبٍ بأمطارٍ محسوبة ، في الدورات المتقنة لضجر الإنسان؟
سأرفعُ هذا الحديدَ ، إذا ، على الخشبة القوية التي تهتزُّ تحت قدمي
القويتين . سأشهدُ امتحانَ العَصَلِ وامتحانَ الهواء ، حين تتخذُ الشرايينُ
النافرةَ أهبتها وهي تمهدُ للدَّم عُذرتَه وفجوره .
سأرفعُ هذا الحديدَ بحكمة الحديد .
سأقسمُ أن الحديدَ المرفوعَ على يدي هو الغدُ مغسولاً في رثةٍ كرديةٍ .

هكذا ألقى بي في اللعبة .

هكذا ألقى باللعبة إلى ما يُشغِلني ، لأعتكفَ كالنَجَّارِ على تقدير الزوايا في المهابة ، عادياً بالصرير الذي يُمهّد للأفعالِ كي ترى ، وبالفتنة التي توحدُ الأناقض .

فليحضر الرُّسلُ كلهم ، بالألم المُتقَن كبريشة ، كي يحدثوا الحياةَ حديثَ المراهن ، ولينقسموا حين يزوونَ ، لأن النعمة تُصغي بأذانٍ طائشةٍ ، ويدونُ الحاضرُ الأنينَ بشرثرةٍ مُطلقاته ، لا بكلامِ الشهود .
ولتكن القفزةُ عاليةً ،

والركضُ في مُنخَفَضٍ عالٍ ؛

ولتكن الملائكةُ تحت القوسِ ،

في المدخلِ الشماليِّ للحقيقةِ ،

مرتديةً معاطفها التي لها ، وهي تقضمُ البندق ، ريشما تُبلِّغُ المرثيَّ -
شفاهاً - أن الفكاهة ستخيرُ غلمانها ، وسيخرج الحاضرون من الحلبة بالأباريق التي لم يترك عليها الموتُ شيئاً من نقوشه الحية .

يا لـ«سنجَار» الراكضِ إلى طوروسٍ ؛ يا لـ«جزيرة بُوَطَان» :

معاقلُ شيففةً ، وأسوارٌ كالأيدي تتلقفُ اللؤلؤ ،

وهياكلُ تكممُ الريح .

أما الصاعدون ، مثلي ، إلى الظلام ، على سلاله البازلتية ، فهم

امتحانُ اليقظةِ الحاملة بعراكِ النَجَّارين .

وأنا . .

أعليّ ، أنا ، أن أحتكم إلى أحد؟ :

دولٌ مدعورةٌ ، وقدرٌ يتدحرج وراءَ كُرَاتِهِ الطينية .

والوحدة تسرّح شعرها صباحاً ، لتتقدّم البنائين إلى الأبدية ، كأنما
سأعيبرها - بعد قليل من الموت - حكاياتي ، لتسرّد على العدم حينئذ
الآلي ، وكأنما سيتمحن الكرّذ بها فههقاتهم ، وهم يجذّفون بجاذيف الجليد
إلى المصبات الكبيرة للأنين الكبير .

إلهي ،
هؤلاء أكرادك إلهي .

.. والبندق يتناثر . الأجاصات تتناثر . الكمشرى يوزّع الأدوار ،
والقمح يهذي ،
لتكن السنبلّة مشيئة الموت ،
لكين الموت أكثر صحباً في الممرات التي يتقشّر كلُّسها ، ويتحدّث
العابرون فيها حديثهم المؤجلّ بهمس خفيض .
فلا تأخذني أيها الملاك بجريرة الحيّ ، لأنني أفسّم المصائر - مثلك -
كالدّراق على العابثين ، وأرمي بيديّ الهاذيتين شبحي من الباب لِسْرِيّ
عن الحياة بأقاصيصه .

ولا تنتظرني ، أيضاً ، لأنني - كراكض في الأفاصيص - يختطفني
الذي لا يُروى ، وأكون النهاية حين لا يختتمّ الحادثُ سرّد نهايته . فإن
رأيت أن تتبعني فارع زانتك الطويلة ، وانتعلْ خُفَيْك الرياضيين ، لأنك -
كراكض في الأفاصيص مثلي - سيتفاسمك المراهنون في اقتحامهم
المديح باباً باباً ، بالحظوظ التي يباركها الخوف .

ومن «مهاباد» إلى «مهاباد» تأفّف قليلاً ، مثلي ، أيها الملاك ، وأنت
تفكّ سُيور خُفَيْك ، وتخلع قميصك الترابيّ ، متنقّساً حتى عظامك ،
كأنما حررتك المدائح من عويلها ، وبكتك القهقهة ؛

كَأَنَّمَا
فِتْنَةٌ
أُخْرَى
تَسْحَلُكَ
مِنْ
سَمَاءٍ
إِلَى
أُخْرَى ،

وَيُوجِزُكَ الْأَلَمُ ، الَّذِي يَلْقَى الْهَوَاءَ كَمِعْطَفٍ إِلَى مَشْجَبِهِ .
وَمِنْ حَرِيقٍ إِلَى حَرِيقٍ فَلْيَغْتَنِمِ الْقَدْرَ مَا يَتِيحُهُ الْكَرْدُ لِلْقَدْرِ مِنْ ثَرْتَةٍ
يَسْرُدُ بِهَا عَلَى الْأَرْضِ كَسَلَهُ الذَّهَبِيُّ ، قَبْلَ أَنْ يَقْتَحِمَ الرَّاكِضُونَ بِأَشْبَاهِهِمْ
سِيَّاحَ غَدَمِ الْمَذْعُورِ ، وَهُمْ يَرْمُونَ قِمَصَانَهُمْ لِيَتَدَفَّقَ الْهَوَاءُ بِهَا ، وَيَتْرَكُونَ
أَحْذِيَّتَهُمْ لِلْحِصَارِ كَيْ يَنْقَلَ الْحِصَارُ الْجَرْحَى مِنَ الْوَرْدِ إِلَى الْوَرْدِ مَا شِئَاءً .

وَالرَّيْحُ؟! مَا لَهَا؟ مِنْ «مَهَابَادَ» إِلَى «مَهَابَادَ» أَيْضًا .

كُلُّهَا مِنْ «مَهَابَادَ» إِلَى «مَهَابَادَ» .

كُلُّ ضَرْبَةٍ مِنْ «مَهَابَادَ» إِلَى «مَهَابَادَ» .

كُلُّ عَوِيلٍ مِنْ «مَهَابَادَ» إِلَى «مَهَابَادَ» ،

وَالْأَمُومَةُ حَيْرَى بِأَثْدَانِهَا الْحَجْرِيَّةِ بَيْنَ أُنْبَائِهَا :

فَإِنَّ أَيْقُظَنِي اللَّهُ ، فِي الْمَدِيحِ الرُّطْبِ لِلدَّمِ ، أَحْضَرْتُ خُفْيِي ، وَإِنَّ
أَيْقُظَنِي الدَّمُ أَحْضَرْتُ اللَّهُ .

لَكِنْ ، كَأَلَمْ تَتَقَدَّمُ الْأَجْنَحَةُ ؛
كَأَلَمْ يَتَقَدَّمُ الْكَرْدُ إِلَى الْحَقِيقَةِ .

كألم يسردُ الفجرُ على بناته المكانَ رحيلاً رحيلاً ؛
كألم يدخلُ النهارُ أعمى إلى «مهاباد» .
وأنا ،

رحيلاً رحيلاً - بزّانتي ذاتها ؛ بالخفّين الرياضيين ، والتصفيق
الأخرس المنسيّ على المدرجات ، حيث لم يصعدُ أحدٌ - أجفّف العرقَ
عن جبينك أيها الملاك ، وأسندُ جناحيكَ بعظامي ، لألتقطَ الأرضَ التي
تساقط ، من خلفك ، عاصفةً عاصفةً ، وجمالاً جمالاً ، ريشما أطلقُ
السهمَ الأخيرَ في اتجاهاتِ الدّمِ الأخيرة .
وسأخصي نفسي ، بعدئذٍ ،
أنيّ أنيناً ،
من «مهاباد» إلى «مهاباد» .

١ / المكان بحسب انشغالاته

أ- وصف الريح :

غَدَّ يَمْضَعُ اللَّبَانَ كصبي نَزَقَ ، فأتَحَا أزرارَ قميصه الكَشْمِيرِ تحت شجرة الأكَاسيا . وهو - كأَيِّ غَدٍ - نَحِيلٌ وهادئٌ ، وفي التفاتاته ، بالناظر الذي يرفعه إلى عينيه مُسْتَجِلِيًا ، رَقَّةٌ حوذِيٌّ يُسْرِحُ جِيادَهُ . لَكِنَّ القَلَمَ المعدنيَّ - الذي يسقط ، فجاءةً ، من بين أنامله ، إذ يدوُنُ كالمسَّاحِ فتورَ المشهد ، والزوايا المشتبكة بالقبيل المُشْتَبِكَةِ - يرتطم بالأقدارِ ، مُجَلَّجِلًا بصدى يصلُ الأعماق بأدراجها ، فتصعدُ الريح .

ب - وصف الظلال :

بيقين شاحب ترفعُ الظلالُ سراجها الشاحبَ في الأنفاق ذاتها التي تتحللُ الحياةُ فيها أشكالَ المنتظرين ، والحقيقةُ تختلسُ من خزائن الحقيقة عصا الأعمى وقفازي المهرج . فإذا تعثرت الأبديةُ بحقائقه المُرَكَّمةِ على الأدراج فلتعتذرْ ، لأنه ينسجُ المشيئةَ على صورتها . وتوقيت الأبديةَ الذاهل ، الذي تسدلى منه أنداؤه النورانية ، يضرب الموعد الأول مع المصائر ، هناك ، تحت الشجرة التي يعضُّ النهارُ على حنينها بأنيابٍ من الكافور .

ج - وصف الشُرْفَة :

قَضبانٌ رقيقةٌ من المعدن - مطليةٌ دون مهارة - تقطعُ الطريقَ عَرَضاً ، لتَسوِّرَ الأرضَ بامتلاكِ لا نزاعٍ فيه . وهي باردةٌ قليلاً ذلكَ النهارَ المسكَّ بلجامِ الساعاتِ التي تَمسَحُ بالشَّحْمِ عتلاتِها الإلهيةَ ؛ وساهمةٌ في الهبوبِ الخفيِّ لأنفاسِ الأضاليا على نَعاسِ الهواءِ . وثمَّتْ - في اقترابِ مَرَحٍ - عِصافيرُ تطحنُ الهواءَ ذَرُوراً على ريشِها ، متفتحةٌ كَتَرَفٍ يبُلِّلُ المعدنَ الصامتَ . أمَّا القفلُ المتدلِّي من سلسلةٍ تطوَّقُ القَضبانَ ، فالأرضُ وحدها تُصغي إلى نبضِهِ الدافئِ ، وإلى فتورِهِ الذي تستعيرُ الجذورُ منه مهاراتها .

د- وصف المصعد :

للمكعَبِ الحيِّ ، في ردهةِ الإسمنتِ العمودية ، دوائِرُهُ المُجَلَّجَةُ ، ومثلثاتُهُ التي تخمُنُ الشهوةَ القادمةَ مع الزائرين ؛ ولجدرانه نشيدُها المرْتَلُّ ، صعوداً وهبوطاً ، بأفواه من أنابيبِ وأسلاكِ . وهو يتكتمُ - بحسبِ فراغِهِ المُتَكَتَّمِ - على قاطنيه العابرين ، تاركاً لأنفاسِهِم وَحَدَهَا أن تسردَ الحمى ، وللعطورِ الشريفةِ أن تموِّهَ الجهاتِ . لكنه يرشدُ القلقَ إلى عتباتِ الأبوابِ ، بجمالِ العبثِ الذي في خَلجاتِهِ الآليَّةِ ، فيقرعُ الشُّقْلُ سكونَ الشُّقْلِ ، ويصغي الظلامُ - من الكوى - إلى الضوء الذي يترنُّعُ في سُعالِهِ الطويلِ .

هـ - وصف الردهة الخارجية :

مدعستان ، ونهايةُ دَرَجٍ . أعقابُ لفافاتٍ تبغٍ قديمةٌ نَجَّتْ من مكنسةِ الخادمِ ، التي تركلُ الورقَ الساقطَ من الأصصِ بُخْفِيَّها المثقوبين . وعمتاتٌ كثيرةٌ نسيها الداخولون والخارجون . تتشاحنُ بلهجاتٍ تقضمُ أظافرها ، في انتظارِ الخطى التي ستفتحُ البابَ .

و - وصف رواق البيت :

طليقة رسوم السجاد . والتصاوير ، على الجانبين ، تتصيد بشصوصها رفاهة اللون ، كأنما ناظرٌ ما ، وحيدٌ في همومٍ ترتجلُ أناقتها ، سيرفع قلبه مُحَيِّياً ، وعينه تتسلقان ستارةً الأبدية .

ز - وصف البيت :

الغُرفُ تتناظرُ . الأرواحُ تتناظرُ . الشبهاتُ القويَّةُ تحومُ حولَ أصصِ النباتِ في الزوايا . والرُفوفُ الثقيلةُ تُسهَّلُ ، خلسةً ، عبورَ الكلماتِ من كتابٍ إلى آخر . أما الأصدافُ المنضدةُ ، كزينة ، قرب الأرائك ، فهي فكرةُ الماءِ المتكئمةُ على لوعتها . وما من رمادٍ لفاقة يسقطُ في منفضةٍ نحاسٍ إلا يتبتَّلُ ، كأنه ينكفيء على مذاهبه ليهيئَ النحلَ . وثمت حقايبٌ أيضاً ، وأشباحٌ حقايبٌ تتأملُ خرائطها الذهبية ، مُفتعلةٌ جدالها لتُلفِتَ الداخلَ إلى أن المُمكنَ ، وحدهُ ، هو الساهرُ على فتوحهِ المُمكنة .

٢ / مشيئةٌ تؤلفُ المشهد

أ - محبرته :

أيتها الحمى الأكثرُ شروداً ؛
أيتها الحمى ذات المكايل التي يندلقُ منها الصعتر ،
ضعي ساقاً على ساقٍ في مقعدك العالي ،
فالواقفُ في الخلية ، بظله الذهبي ، سيطلُّ الوقوفَ حتى تخرجَ
الأعمدةُ عن طورها ، وتنهضُ المُدرجاتُ إليه مهولةً بالجالسين عليها .
والغبارُ سينفضُ عن قبعة الغبار ، بفرشاة من الألق ، سهراً الأفعال ،
وستماوجُ المراوحُ الأنيسةُ حيث تلتقطُ الفتنةُ من أيدي الأميراتِ زيببها ،

لينشغل الموتُ الخفيفُ بالتقاط قطنه المتناثر، فالواقف في الحلبة يسندُ
الأعالي المهدومة براحته الأكثر رقةً بين الراحات، ويعذُرُ الغد الذي يعتذر
إليه كبستانيٍ أهمل الحديقة .

أما التواريخُ التي تتعارك قرب محبرته، كراحةٍ تداخلت قطعانهم، فلا
تلبثُ أن تعود إلى قبولتها .

ب- علبة تبغه :

من سيعبث بالنشيد أكثر حتى تتعثر الريحُ، ويحضر الغمامُ أزاميله؟
من، لفافة لفافة، في الثقل المُسك ببقوه، يحرق الستارة ليرجع المثلون
إلى المقاعد التي سُرقت؟

ذهب أثريٌّ يتماوجُ صاعداً أعلى فأعلى،
والدخانُ الذي يخرج ناعساً، بدفع خفيف من شفقتين ناعستين،
يصرفُ الملوك، كأنما - في خلوة الأحقوان - يوزعُ الواقفُ النحيلُ إماراته .

ج- قهوته :

فليدخل النهارُ المزمجرُ برهبانه الجاحدين؛ بدلافينه، وبالحركة
الخنونة لأذيال النَمور . فليدخل مُشْتَتاً يجرُ كرسيه النوراني، أو مدعوراً
كغزالات يقفزن عن السياج العالي للحقيقة العالية .
فليدخل النهارُ مغلولاً في سلاسل البُن،
يتقدمه المغيبُ إلى حصار النبوءة .

د- كسله الصباحي :

كتاباً كتاباً يفتح الجدارُ ذو الرفوفِ عينيهِ ، والستارةُ التي تنزاح ، في
خفقاتٍ توجَّجُها يدُ كسولةٍ ، تحرَّرُ الشجرَ العالي ، وتطلقُ سراحَ الأبنيةِ .
وثمَّتَ مَنْ يلمُ ، بعدَ ذا ، ما نسيه الليلُ على الأرائكِ من مجاللٍ ،

وحروبٍ ،

وحلى ،

وفوانيسَ ،

وحبرٍ ،

عائداً بها إلى سريره الذي تناهتُهُ المِجالُ ،

والحروبُ ،

والحلى ،

والفوانيسُ ،

وتمدَّدَ عليه الحبرُ في غلالته الشفيفة .

هـ - سيرة قلبه :

تَمالكُ ، أيها الحريقُ ، نفسَكَ وأنتَ تنشجُ نسيجَكَ العالي ، إذ
يجعلك الألمُ ممتناً للآليف الذي فيك ، وللشفافة المحبوكة بقَبْلِ تسهرُ
عليكَ سهرها الفاتن . وأتسعُ في هدوءٍ ، فالمكانُ لك بطنافسه ، وأجره ،
ومواثيقه ، وسُعاته ، وكمائنه التي تلتمع كأسنانِ ذهبية . ولكَ الهواءُ
المدحورُ في المعركة ، وتراجُعُ العاشقِ ، والجرحى الذين يتوسَّلونَ الضربةَ
الأخيرة من الجرحى ؛

لك

أيها الحريقُ ؛

لك ،

أيها الحريق ..

حين الأبعدُ يرتجلُ فِرَاسَاتِهِ ، مُرسلاً صقورَهُ ذاتِ الأطواقِ إلى المشهدِ ،
لِيُشِيرَ العائدونَ من القيامةِ بأناملهم هامسينَ : «يا للقيامة» .

و- نظارته :

في كلِّ ركنٍ من خزانة الشيابِ نهاراً متنكراً . وعلى المائدة - قرب
قارورةِ الخلِّ - شروخٌ وبسالاتٌ خَلَفَها الزائرون . وثمت مجاهلُ رشيقَةٌ
تتأملُ زينتها في المرآة ، وسييرٌ ممتزجةٌ برائحةِ دهانِ البابِ ، وعناقيدُ نومٍ
تلتقطُ فراشاتِ الطهو الشاردة .

وهو

إذ يتلمسُ نظارته يتلمسُها لا ليرى هذا كله ، بل ليلقي نظرةً على
شبحه الباحثِ ، فوق السريرِ ، عن قمصانه التي تُبعثرُها الأناشيد .

٣/ هو، في الأکید ذاته..

صَحَبَهُ صَحْبُ الزيزفون . جهاتهُ الزيزفونِ ، وخذتُهُ ما يعتذرُ
الوردُ به إلى الوردِ ، والمكانُ حجلٌ في يديه . وحيث يتكئُ بمرفقه على
الوسادة تتكئُ الفكرةُ أيضاً ، مُنشدهُ بالرحيلِ الذي فيها . فإنَّ أسرتُ
إليه مصبأتهُ بالغمامِ المجلوِّ تحتِ سيوفِ الرُذاذِ استشرى ، دافعاً بأقواسِ قزح
إلى المنابعِ ، وهو يطعمُ المدائحُ - المتزاحمةَ كالسَّماني على حقلِي مُنكبِّيهِ -
من أقداره .

وبانقضاضِ كالنعمةِ يأخذُ المرأتِ إليه ،
كأنه - هو - مَنْ ستسردُهُ الحديقةُ على مواجعها ،
ومنَّ سيرفَعُ الحُفَقَةَ الأقوى إلى الجناحِ الأقوى .

وبانقضاض كسكينة المعركة سيحررُ الليل من ظنون الحقيقةِ ، وهو
يلفُّ مُتَزَرَّةً على الخنادقِ ، كأنَّ الخنادقَ أطفاله المستحمون .
أما الفراشاتُ ،
التي تسوّرُ الحبرَ بأسلاكٍ من يقينها ،
فهي صفقتُهُ الأخيرة .

وصخبُهُ - بعد هذا - صخبُ الشُعابِ ينهبُها المنهبون ، مسحورين
في سطوعهم على الألم الساحر . وبالذي فيه من نياتِ الرخام ، التي
تتقدمُ السكينةَ إلى ميراثها ، يطوِّقُ الخرائبَ المتألِّقةَ في غضبها . والألقَ
ذاته المُسكِّكُ بفرشاةِ الدُهَّانِ ليرسم ما ذنَّ العشبِ وقبابَ التُّدى . ويدلُّ
الشهودُ ، الذين يجروُنُ الشهودَ من الأكتافِ ، على المشهدِ ، ماسحاً زجاج
نظَّارته من ضبابِ المكيدةِ ، ليبتسم أكثر :

فالمذبحُ

تتأملُ -

مشدوهةٌ -

حنينهُ

الضاحكُ .

وما مِن خندقٍ في خلجاته إلا يحمي المعجزةَ من فتنَتها ، كأنه
سيذهبُ بالمكانِ أبعدَ ممَّا يسعُ المكانَ ، وبالذوي القادمِ إلى كلِّ أكيد .
وهو يشرفُ كَنذِرٍ - من الحقيقةِ التي تتسلَّلُ إليها الحرائقُ ممسكةٌ
بمقصَّاتها القويَّةِ - على كمانِ البعيدِ ، مُلهمًا رُقباءَهُ الفرانينِ أن يخلطوا
الحروفَ بالأرغفةِ ، تاركاً قلبه - الذي يلتهم البروقَ فاجعةً فاجعةً -
للكمينِ الأكبرِ ، حيث تكتمُ الأناشيءُ أنفاسها لثلاً يجفل الحبرُ ، ويتمزَّقُ
المساءُ في دروعه .

وحيثاً بعد آخرٍ ، إذ تتأملُ الحدائق ، يُغضبي ،
مُصغياً

إلى

الحياة

تحفرُ

بأناملها

المسلوخة

خندقاً لُدْهاتها المكشوفين .

يا لشؤونهِ ، إذا -

يا لشؤونِ تعبتُ بالعاصفة ،

وتداعبُ الينابيع التي تتقاذز كجراة سلوقي بين متاريسه -

كم يجلسان متقابلين يرمي بترده على المنضدة وترمي بنردِها ؛

كم تجلس التواريخُ بينهما وهي تحفُّفُ بأنفاسه ذؤباتها المبلولة!

وهو إذ يميلُ في مجلسه ليداعبَ الفهودَ النائمةَ قرب يقينهِ ، ويمسحُ

بقميصه السلاسلَ المشدودةَ إلى المياه ، يلتفتُ إلى المشيئة في قفطانها

النُّيروزيِّ هامساً : «عمي صباحاً» .

فلا تتأفَّنْ أيها الصباحُ إنَّ زَجْكَ في الملهاةِ ،

لأنَّ البطولة التي تتأبَّطُ برُسيمها وخُوصها ستُحيِّيكَ من المجازاتِ

الأسيرةِ في رثيته ، ومن الشُّفقِ النازفِ لوعةً لوعةً في الأکیدِ العالی ، الذي

يدحرجُ الشهداءَ فوق حريره خُوذَ الموتِ المكسورة .

وهُمَّ شهداؤه ، على أية حال .

هُمَّ شهداؤه الأكثرُ اقتحاماً للموتِ بمداحلِ الأجرِ .

والبيوتُ التي يعبرون ساحتها ، شاردينَ في حنينهم ، هي سَلالِمُهُ

الكبيرة إلى المديح .

فلا تتأفّفنْ إنْ زجّك في الوردِ ، وقيدَ المساءِ على كرسيّه ،
لأنه سيطلقُ الأمكنةَ من تعبهِ الشّفيفِ حرّةً إلى هذيانها ؛
حرّةً إلى آخرِ الألمِ ،
أنيسةً ،

تتماوجُ كأعرافِ الدّيكةِ وهي تستعرضُ المغيبَ المتخبّطَ كحنكليسٍ
في شباكِ الفجرِ .

يا لهُ ؛

يا لشؤونه ؛

يا لصرخةِ الكرّزِ المكتومةِ في الفيءِ الذي يتقاسمُ قلبه سهلاً سهلاً ،
ومدارجِ مدارجِ ؛

يا لنا ، كم سنناديه في الحكاية التي تناديه وقد أثقلها العابرون
برمادهم العابر . كم سنقاسمه النّهبَ الذي يمسنا بأقراطه حينه ننحني
مُقبّلينَ فمَ الحياةِ الأبعد ، هامسين : «جرّ رداءَ الخواتيمِ إليك ، وتلمسُ
بأناملِكِ الحرّةِ هذا الألمَ المشدودَ كجلدِ فُقمه ، فرُبّما سهرتُ كسهركَ
الخساراتُ ، وحاكتكِ المصائرُ فبعثرتُ أوزاتِ الخزفِ المنضّدةِ على رفوفِ
الغيبِ . واستدرّ رخيئاً من مكانكِ الطليقِ فللبحرِ قربكِ أنينه الطليقُ» . يا
لنا .

إنه يجمعُ المغاليقِ في يديه كما يجمعُ القلقُ القرائنَ ، ويخطو خطواته
العنبيّةِ إلى بيانه ، مُقتفياً أثرَ الموتِ الذي يجازفُ بنفسه حين يلقى بها في
الحقيقة . وهو لا يعبأ ، في عبوره ، بالمشهدِ المستعادِ كبرهان ، فالحروفُ
تُنكَلُ - على أية حالٍ - بالموائيقِ . وفي وسعهِ أن يلتفتَ من المُحكّمِ إلى

المُحَكَّم ، حيث النهارُ كَرَاءُ نَوَارِجَ ، والتمائيلُ تهيم على وجهها في شحوب
الحدائق ؛ حيث المعجزةُ تتسوّلُ أبدَها من العرقى ، والطيورُ ترقد تحت
الأقنعة .

إيه ،

في وسعه أن يتقرى المفاتيح الكبيرة التي تذوب في الأيدي ، وأن يجرّ
الغبارَ المُحتشم إلى لهوٍ مُحتشم ، فالمعادنُ خائبةٌ ، والضياءُ المسعورُ ضياءً
مسعورٌ ، والجعبةُ الخَلقةُ تتساقطُ منها السهامُ والأحابلُ . أما البقيةُ التي
من رجاءٍ فهي ، أيضاً ، هناك بَبْرَكة الصرّخة ، مبتلةٌ بالحليب المندلق على
اللّحي ، والنبيذ المهرق فوق الأحذية .

وفي وسعه أن يطوق الساعات الرطبة من أثر الأنفاس ، تلك المغزوةُ
بفحولة تستقصي الثمرة المَهْمَلَةَ ، ويُمسّد الحمى الذهبية حيث الأساطيرُ
تدخلُ مرتعشةً إلى نصرها الباردِ . إيـ

يه

قَسَمُ المياهِ عليه ، قَسَمَ الحظوظِ عليه أن يهيمَ البعيدَ لبطش البعيدِ ،
متكثراً بمشاغله على الألق الذي يغورُ ، عميقاً ، في جَمال منكبٍ .
قَسَمُ الملهاة عليه أن يرثَ الريحَ التي تتقاذفُ الكَمالَ الموحشَ قلْعاً
قلْعاً ، كأنما - في الحنين الذي يتجرأ على كلِّ شيءٍ - لنحيلٍ واحدٍ ، بأزيرٍ
من السنابل ، أن يضلّلَ الريحَ .

.. ومن كَمِثْلِهِ سيدلّلُ الفكاهةَ حتى لكأنَّ الجهاتِ درهمٌ يتقاذفه
الشحاذون؟ أنيسٌ في الصخبِ الأنيسِ ، ولاقترابه العيارِ دعابة السارقِ
الذي لا يأخذ من الكنوز إلا توارixها .

وهو يُخصى

قَدْرًا

قَدْرًا ،

بالحسابِ الفاتنِ للعنب ،

وَيُعَدُّ عَلَى الأصابعِ ذاتها التي توقظُ الفروق .

فلا تتبرِّجنْ له الموائيقُ ، لأنه عاكفٌ على هذيانِ الماء ، مندفعاً -
بانسكابٍ لا يُمَسُّ - بين الأغانِي ، ومن حوله حمائمُ الأجرِّ التي يلتهمها
اليقين ؛ من حوله العظامُ المُنسِيَّةُ تحتَ وسائدِ الملوك ، والحقيقةُ المُنصَتَةُ إلى
صقورها العمياء . أما الملهأةُ ، ذاتُ الأوداجِ المتورِّمةِ من النَّفخِ في الأبواقِ ،
فهي تقفزُ من مخبرته كسرِّعُوفَةٍ حين يُخصى جَمْعاً

جَمْعاً ،

بالحسابِ الفاتنِ للوحدةِ ،

كأنه استثنى نفسه حين عَدَّتْهُ الأرضُ على أصابعها التي توقظُ
الفروق .

كأنه ،

أين؟

ما الهبوبُ القَيومُ؟

إنها المسافةُ تأتيهِ مُخْتَبِلَةً لَتَنَقُوضَ فِي جَمَالِهَا .

١٩٨٩/٦/٧-٥/٤

ما المكانُ الأسيْرُ

حين تأخذُ في يدكُ الريحَ صوبَ مفاتيحها؟

ما الصدى؟ ما الحكاية ، ما نزلها؟
 ما الأنين الذي يتهادى بسلطانِه في هوى الخبير؟ نهبٌ صغيرٌ
 يخبئهُ للوردِ رائحة الثُبْنِ في سهرٍ قاد هذي الحديقةُ
 إلى حيث يشكو الصباحُ
 أنه لم ينم في يديك اللتين اغتلى فيهما ذهبٌ لم ينم ،
 فأعدتَ الحديقةُ
 إلى وِردِها ، وسرقتَ من العتباتِ الرقيقةُ
 شعاعاً له قسماثُ المكان ، وأزختَ للترَفِ
 بالذي أسرتك البراعمُ في ظنِّها . أيُّ ظنُّ
 سيُلقِيكَ في شُبُهاتٍ من السُعفِ
 كي يرى من أعاليه أنكِ أشْفقتَ أن تنثرَ الريحُ أكبادها في يديكِ
 فأوتها ، والتجأتِ إليك؟
 أيُّ ظنُّ سيأخذُ وسعك؟ برقٌ علي زنبقٍ أو عسلٍ
 يتلمسُ إنشادَهُ ويغيّرُ عليكِ
 بشقيقاته يتهمتكن مثل القَبْلِ
 فانتهبُ ما تشاء . المكائدُ من التِي ، والحريقُ الأمينُ
 يُعيرُكَ كَتأهُ ،
 والهبوبُ الذي أنت فيه هبوبُ السُتونو .

١٩٨٩/٦/١١-٧

عُضُّ المَكَانِ أَيُّهَا الحَنِينُ ، عُضُّ المَكَانِ .
وأنتَ ، أَيُّهَا الضَّوُّ ، عُضُّ الهَوَاءِ الحَالِمِ ، الَّذِي يَرِفَعُ «طوروس» سفحاً
سفحاً إلى أنينه الجبلي .

عُضُّ أَيُّهَا الدَّمُّ حديدك ، ولتعضَّ الحقيقةُ من ندمٍ على كمالها
فالمكانُ ، هنا ، مكانٌ ، وأنا ذاهبٌ إلى حريقي ؛
ذاهبٌ لأقول للسهول أكثرَ ممَّا يقوله الطَّيْرَانُ للأجنحة ،
ولأقول للأرض إنها مثلي تَسْتَرِقُ السَّمْعَ على الفراغِ ، هَامِسَةً : «مساءً
الخير أَيُّهَا الفجر» .

ذاهبٌ لأصمت أكثرَ من شُبْهَةِ تَكَرَّرِ الشُّكْلِ آدمياً آدمياً ، فَلَوْعَتِي
مكانٌ ، وحنيني حينئذٍ الوقتِ إلى أمومةِ الجمادِ . كأنني - هكذا - سأعيدُ
على الحقيقةِ سَرْدَ ظنونها ، وأخْفَنُ الشَّمَالَ حَفْنًا كأنه حنطة لم ينثرها
الحراثون في الأثلام العميقة لمحاربتِ الله .
فيا الجمادُ المَعَاثِي ؛

يا الجمادُ الساهرُ على رحيلي كُنْ مَوَاتِيًا ، لَأَكُونَ مُتَسِعًا أكثرَ لريحك
الأبويَّةَ ، وَكُنْ يَقْظَانٌ كنومِ يَقْظَانٍ ، يا شَفِيعَ الغَوَايَةِ ، حينَ تصرخُ : «مساءً
الخير أَيُّهَا الفجر» ، كَأَنَّمَا تُقَلِّدُ الأملَ المَوْجِعَ ، الَّذِي يُقَلِّدُ الحَيَاةَ بصوته
الأنثوي .

كثيرٌ هذا الذي يُهديني الموتُ لأكون مُمتناً لأنيني .
كثيرٌ هذا ، أيها الجمادُ ، لأقول الذي يُفتنني في الضجيج الممزق هنا ،
حيث تخرج الأبدية حافيةً إلى الشرفة بعينها الباكيتين .

ذاهبٌ إلى كلِّ شيءٍ .

ذاهبٌ إلى كلِّ شيءٍ .

ذاهبٌ إلى غرقٍ آخرٍ للسماء .

ذاهبٌ إلى الأسواق ذاتها ، المنذورة لشمال لم ينشره الحرّاثون في
الأثلام العميقة لمحارث الله ، خفيفاً أعمق من شتاء ، وأصل من
الأحوان ، حيث عواصفُ القماش في الأروقة ؛ عواصفُ الشاي في
الأروقة ؛ عواصفُ بسيطةٍ في الأروقة تُجلجلُ بطاساتها النحاسية كباعة
«عرقِ السوس» البارد .

وأنا أتبع العتالين من شاحنةٍ إلى شاحنةٍ ،

ومن ظمأٍ إلى ظمأٍ ،

ومن مقاديرٍ إلى مقاديرٍ ،

خفيفاً كقضاءٍ يجتهدُ في اختيار النهاية ، لأنني سأترجمُ الظهيراتِ
الأكثر نكبةً كما تُترجمُ الديكّةُ النهار ؛
خفيفاً أتبع العتالين إلى أخري - إليّ ، في الرواق الممهّد بالضلالِ
النبيل للخطى النبيلة ؛

خفيفاً كأنما أوحيتُ إليّ بالعترة التي قدّم الوقتُ بها جسارته إلى
الخلود السكران ؛

إليّ ،

إلى ،
باللُّهاتِ المُمسِّدِ كَفَرُوا تَحْتَ خُطَى العَتَالِينِ ، وَهَمَّ يَصْعَدُونَ بِأَكْيَاسِ
القَمَحِ إِلَى المَشِيثَةِ ؛
إلى ،
فَاحْشَا كَانِقِطَاعِ الحَقِيقَةِ عَنِ ثَرَثَرَاتِهَا .

وأنا في اتجاهاً إلى الشاحناتِ الكبيرة ، التي لم تَنسني ، لا أَلُمُّ
الحقولَ بل أَزْدَدُ الحَقولَ فِي الهَوَاءِ ، وَتَحْتَ إِبْطِي كَيْسِي الَّذِي سَأَجْمَعُ فِيهِ
المَذَابِحَ مَتَأَمِّلاً فَرَاشَاتِ أَعْمَارِهَا .
فلا تَتَنظَرُنِي أَيُّهَا الوَقْتُ ،

لأنني مَزَعُ أَنْ أَتَنَكَّرَ فِي قَنَاعِ الدَّمِ - شَبِيهَكَ ، الَّذِي يَدِينُ لِلْأَسَاطِيرِ
بفكاهاته ، وَأَنْ أَقَايِضَ النِّهَارَ عِظَاماً بِعِظَامٍ ، حَامِلاً مِيَادِعَ العَتَالِينِ إِلَيْهِمْ
حِينَ يَفِيقُونَ مِنَ القِيْلُولَةِ ، فِي الظَّهِيرَاتِ الَّتِي تَمْحُو الظَّلَالَ بِمِحَاحَتِهَا
الصَّلْبَةَ ، وَأَنَا أَرشِقُ الأَعْمَارَ بِحَفْنَةٍ مِنَ الشَّعِيرِ المُنْدَلِقِ هُنَا وَهَنَا ، حَيْثُ
رُفِعَتْ - مِنْ قَبْلِ - أَكْيَاسُ إِلَى الشَّاحِنَاتِ ، وَتَرَكْتُ التَّعَبَ جَلِيلاً يَسْرُدُ عَلَى
سِنَابِلِهِ القَوِيَّةِ رِخَاءَ المُنْسِينِ .

أأهمس : «أيتها العتالون - يا يقيني في الشتاء الذي لا عملَ فيه -
أيتها العتالون؟» ، أأهمس : صَبَاحَ التَّعَبِ ، يَا صَبَاحَ التَّعَبِ؟» ، أأهمس :
«أيتها الشاحنات ، يا أخواتي؟» ، مَهْلاً . كَمْ يَتَكَيءُ الحَنِينُ عَلَى سِيَاجِ
بَيْتِي مَتَأَفِّفاً مِنَ نَسْيَانِي . كَمْ يُذَكِّرُنِي الحَنِينُ بِي فَأَنسِي ، لِأَنِّي هُنَا ،
فِي الشَّفَقِ الأَكْثَرِ طَخْناً بِمِغَالِيقِهِ ؛ الأَكْثَرِ سَهْواً وَهُوَ يُحْصِي الشُّعُوبَ عَلَى
أَصَابِعِهِ المَقْطُوعَةِ .

وأنا مُمْتَلِلٌ لِلنَّسِيَانِ ، الَّذِي يوزِّعُ الحَرِيقَ قَلَمًا قَلَمًا ، مُصْنِعٌ إِلَى الحَبْرِ

السلام، ويقطفون الحروب من شجرات التوت .
هي الحروب تتسلق الشاحنات هاربة بالانين السوري إلى العتالين ،
ليصعدوا أقوياء إلى الحروب القوية .
وأنا والشمال عاكفان على أجرنا الدامي بصباحات كازاميل رقيقة ،
ننقشُ بها ما ينقشه العاديون على أجرهم الدامي .

شاحنات في كل مكان : هذا ما أرويه للحكاية التي تُروى بتعب
يُروى .

شاحنات في كل مكان ،
ككثافات تتألق في ضجيجها ؛
كمديح الشكل لنفسه ؛
كاغتصاب يمهّد للظل أن يطيح بالجهات .
شاحنات كقلبي ، في شمال قلبي ،
وأنا أتواطأ مع الريح إذ تعلن السهول شقاقها ،
وأقرى بيدي المعرفة ، تلك ، النشوى بالذي يحلج السنين بين يديها ،
وهي تنظر المقادير تدخل بملاعقها التي ستغرف بها المقادير كالحساء .

ثم . وماذا في الحطام الأنيق - ثم - إلا منازل هاربة تتعثر بالقتلى؟
والسكون الضاري هو السكون الضاري : قطار من المسافة إلى الوقت ،
بمقطورات تسرق الأقاليم والظلال ، وهي تخترق الغد السوري من الدم إلى
الدم .

فلا تشهقن أمام الورد أيها التوأم ، كأنك ابتكاره المسروق ، ولا تقل
للنهار فكرتك التي تُعيدك ، شعاعاً بعد آخر ، إلى بلاغة المساء ،
وابق - كما أنت - وحيداً ، في الفتنة التي تجعل الليل خلودك

في الفتنة التي ترفع معطفك الممزق إلى منكبيك كلما ابتردت في
الحريق .

واتبع الشاحنات ذاتها إلى كل مكان ،
إليك ؛

إلى الشقاء الأخضر ،
الذي يرسمه قلم أخضر مسروق من فكاهاة العنب ،
حاملاً تينك البهلوان ؛ عنبك البهلوان ؛ قمحك الممنع في تفسيره
الذهبي ، كأنما تمهد الحقول لك بإنشاء يكتب فتلبس لها الريح ، ويؤوئك
الليل تأويله النوراني فيغمر على النهار بين يديك .

أنتأ ، بعد هذا ، قدم النهار في رجوعك من ألق الليل ، الذي يبهر
عينيك؟ أنتأ النهار - شريكك النائم على الرصيف الذي يعبره العتالون
من الشمال إلى الشمال؟ حيّه ، أنت ؛ حيّ الشرر القابض على ذكراك
بيدين من ظلام وضاء ، وافتح للشهوات أن تتشمم ، كالهرة ، إبطي المساء
وأضلاعه الرطبة . فأنت تستعيد الشمال حفنة حفنة حين تقيس الأرض
بشهواتك ، وتقيس الهواء بالقبيل ، عريقاً كفجر .

عريقاً كماء ،

كفكرة ،

كنهب ،

كفراغ ،

كطرفة تُردي ؛

لأنك تصغي إلى الشاحنات الأنيسة متهادية إلى الصيف الذي ينام

على وسادتك مُذْ تَعَرَّفَتِ اليَقِظَةُ عليك في حُلْمِها .
واتبعني فراشةً فراشةً ، كضجرِ حالمٍ ؛ زاهداً ، فأجرُك المِياهُ أجرُك
المِياهُ .

واستعنْ بالمصادفةِ المحبوكَةِ من القُنْبِ ، فالغبارُ - شقيقُنَا - لا يتكتمُ
على الكنوزِ التي تحاصرُ الموتَ ، ولا يتكتمُ الألمُ على الشمالِ الذي يجرُّهُ
القطارُ من حنينٍ إلى حنينٍ ، كأنَّ مجدداً ما ينقرُّ بأنامله على المنضدةِ في
سوقِ العتالينِ ، وهو مستسلمٌ للقرنفلِ يلقي عليه نِعاساً كالتحيةِ .
وليتبعني الشمالُ إلى الذي لا يُخيفُ ؛
إلي ؛

إلى القدمِ الذي يتفكَّرُ في نسيانهِ لِيَتَبَكَّرَنَا هاذيَينِ .
ولينتشرْ في حقولِ تليقُ بشمالِ مثله ، لأتبعِ الهواءَ الشُّغوفَ بتفصيلِ
قلبي على مِياسِهِ ؛ لأتبعهُ ، بدوري ، إلى الذي لا يُخيفُ ؛
إلي ؛

إلى المديحِ الذي يُغلى بأنينِ كثيرٍ .
ولتكنْ معي هذه التي أحفرُ عميقاً تحتَ قلبها ؛
عميقاً ، إلى حيثُ اليقينِ - صاعداً - يرتقُ الفراغُ ؛ نازلاً يرتقُ الفراغُ ؛
هذه التي تتقدَّمُ خائضةً في الحبرِ كضوءِ سكرانٍ ،
وأنا أدلُّها على اللهبِ لنتسوقَ الرعدَ الذي يُخبي ، والمساءَ الذي
يُخبي ، نازفينِ كالقِ نازفٍ ؛
هكذا ،

كأننا نجتهدُ أن تكونِ الشُّقاتُ حوازِنا المُشتعلِ في احتكامنا إلى
السهولِ ، وهي ترفعُ سراجها إلى الكمالِ الأعمى الذي يتسلَّى بتَرْدٍ من
الضوءِ في وحدتهِ .
كأننا ، باعترافٍ واحدٍ ، نعيدُ على الرَّمادِ المُشْرِحِ آخرَ هرطقةٍ للجَمْرِ .

يا للجمر المتبرم من قلق شراراته ؛
يا للقلق الذي يستبدُّ بستائر البيت ، ويهيئُ الصباحَ كإفطارٍ ، حين
المكانُ يُنقَبُ عن حضوره بمعاولَ نورانيةٍ ؛
يا لانشغالي وأنا أوسطُ الشمالِ في شِجارِ الجهاتِ :
أما من لوعةٍ أخرى؟
أما من كمالٍ آخر في العناقِ الذي يضربُ ضربةَ العَصَلِ الخالدةَ ،
متهكماً - كنبوءةٍ - من الروح؟

كلها روحٌ :

ضرباتي هذه ،

وأنا أنظرُ الشاحناتِ تعبرُ - كما أعبُرُ - قوسَ الجمالِ المرفوعَ على
حديدٍ ، والعتالون يُلقون - من فوق عوارضها الحديدِ - تحيةَ الأقدارِ على
الفرغ .

كلها روحٌ :

هذه الممراتُ التي يعبرها القلقُ العدءُ حاملاً ظلالَ الأكاسيا على
كثفيه ، كأنما يذكرني بي ، وأنا جالسٌ في كمينِ الفروقِ التي تُعذَّبُ
الحقيقةَ .

فاشقُ طويلاً أمامَ الوردِ أيها التوأمُ ، كأنَّ الوردَ نُعاسكُ ،
وقُلْ للنهارِ فكرتكَ ليُخصي المساءُ بكِ شعاعاتٍ تائهةٍ في فكرتهِ ،
لأنني مؤات الآن ،
وخطاطيفي الملتَمعةُ في الغبارِ هي خطاطيفُ الغبارِ يرفعُ بها الأفقَ إلى
يقيني ،

لأنني أهمسُ ، مبتسماً للنهايةِ المُخضرةِ كعجلٍ من خطمها :

الحمدُ للمُشكِلي ؛
الحمدُ للموتِ الذي يودُّعني كي يَكْتَمِلَ في وحدته ؛
الحمدُ لِمَا لا يدومُ .

أحبيّ ما يمضي على جَسَارَةِ أن يمضي ،
وأحبيّ ما يبقى على جَسَارَةِ بقائه ؟ .
أمهلُ الحياةَ كي تُعيدَ إلى حروبها غموضها المسروق؟ :
إنه البهاءُ يُسْرِحُ الأرضَ فتتوضَّحُ في غبارِ شاحنتها .
وأنا أخلي المكانَ مِنِّي ،
وأخلي العَبَثَ المفتوحَ كَشُرْفَةِ من القهقهات التي نسيها البِنَّاوون ،
مُتَسَلِّماً - كمكائدَ عذبة - إلى حيث الأرواحُ تَقْلُدُ الأحيَاءَ
بفكاهاتها ، وهي تنتظرُ ، مثلي - على الجسرِ هناك - شاحناتٍ أكثرَ صخباً
بأبواقها الكبيرة .
وبأبواق كبيرة أوقظُ السماءَ النائمةَ في سكونةِ تَعَبِي ، لِيَكُونَ لَهْوٌ ؛
لِتَكُونَ العجلةُ ، فالهَادِثُونَ لا يعثرون على ألقٍ ، والحاذِقُونَ لا يعثرون .

كلها صبيحةٌ ، وأنا أخلي اليقينَ مِنِّي فرسخاً فرسخاً ، عائداً بِمِيزَةِ
الريحِ إلى العتالين يفتنونَ الشمالَ كالخبزِ في حساءِ العدسِ ، لأنجو من
الموتِ الذي لا يُمِيتُ ، بجَسَدٍ كالمذاري ينثرُ الحقيقةَ في المهَبِّ الأشدِّ
لكمآلنا ؛

كأني أسيرُ في فتنة تتوسَّلُني من حولها الأرضُ أن أستعيدَ الأرضَ ؛
كأني في المهَبِّ الأشدِّ الذي لا أستعيدُ فيه شيئاً ، ولا يستعيدُني فيه
شيءٌ :

لأنَّ الضوءَ الذي يمزقُ العضلَ ، في هديره ، يمزقُ المجازاتِ الشفيفةً ،

فانحنني عليّ عميد

يـ

يقاً

حيث الفراغ يعرضُ عليّ ذَهَبِهِ ،
ويتقلّبُ الغامضُ في سريري حتى آخر الموت .

يا للموتِ ، عميد

يـ

يقاً ينحنني عليّ ،

ليستعيدَ القناعَ الذي أعراني ؛

ليستعيدَ مراياهُ ،

وسبائكهُ الصلبةَ ،

وفوانيسهُ التي يهتدي بها إلى ممّراته ؛

ليستعيد

يـ

يبدني معافىً كالشُّكْلِ .

وأنا أستعيدُ نفسي ، أيضاً ، في المُشْكِلِ الذي يُقلِّقُ الموتَ ،

وأستعيدُ الموتَ معافىً ، لأنحنني عليه باسطةً لليقينِ المذعورِ سكينَةً

المدبح الذي يصعدُ عميد

يـ

يـ

يقاً من الأناقضِ ،

حيث يرفعُ العتّالون بخطاطيفهم ممالكَ الأبديةِ إلى الشاحناتِ ،

صاعدين السّلام العريقةَ ذاتها ،

نازلين السلاالم العريقة ذاتها ،
باللهاث الذي يتمزق فيه ابتكارُ الله ، ويَلْتَحِمُ ابتكارُ الله .
ولربّما همستُ : إنها خطواتي الواسعة التي يُعينني بها الموتُ لأخطوُ
إلى الحياة بارداً كروح ،
دافئاً كجسدٍ في ملهاته .
لربّما وَعَدَّ .

لربّما شاحناتٌ شفيفةٌ تقود الشمالُ إليّ على عجالاتٍ شفيفةٍ ،
لربّما العتالون ، أولئك ، الذين من عَرَقٍ وأنسٍ ، يعبرون قلبي إلى سَهْرٍ
الحنين عليهم ، حين يجتهدُ قلبي اجتهداً الظلُّ ، ويعظُّ كما يعظُّ الماءُ ،
وأنا أستعيدُ الموتَ فيُستعادُ حجولاً ، كأنما استنفدَ المرافعاتِ القويّةِ في
تَهْتِكِهِ ، واستعارني كحبرٍ ليعترفَ بخساراته .

يا لنعمةِ الخساراتِ أن تدوّنَ ما سيدوم .
يا لنعمةِ الخساراتِ أن تدوّنَ ما لن يدوم .

والغدُّ ، الذي يُستعادُ ، غَدُّ على أحابيله :
رقيقٌ يَسْتَنفِدُ الموتَ بحبرٍ مُسْتَنفَدٍ ، في المُتَسَعِ الذي للهاثِ ، حيث
الجدالُ الخفيضُ كصوتِ العائِرِ ينفخُ بغمٍ رقيقٍ على السطورِ المتقاربةِ
للحياةِ ، في الورقةِ ذاتها ، المُسَطَّرَةِ على عواهنها ؛
وأنا ، على عواهنِي ، أسَطَّرُ الغيبَ في الورقةِ التي تمتحنني حَبِيراً حَبِيراً ،
حتى أسبقَ نفسي إلى الحنينِ ، معافى كدويٍّ يقطفُ الجُسُورَ .
لكن بيني وبين الحبرِ شاحناتٌ توَزَعُ الطفولةَ على أبوابها القويةِ ،
فأسمعُ الشمالَ ينثرُ الجهاتِ على حقوله ، وينتعلُ الفجرَ راکضاً إلى هَرَجِ
الليلِ .

يا للفجر الذي يُهدئُ الليلُ من روعه ،
وتُعرِّي الحقولُ أئداءه التي تُرضعُ الضياءَ المُتهتكَ كالحمى!
يا للحبر ينزفُ المصائرَ من زُرقةِ الحبرِ وسطوره .
يا لأبتكارِ الشمالِ الذي يعيدُ الأرضَ إلى فتنِّها الذهبيةِ :
شاحنات ،
ومواسم ،
وخطاطيفَ حديداً ،
وقيافينَ يتخفُّ منهُ الموتُ في قناعِ المياه .

حمى مياه قلبي ،
وأنا أغسلُ النعمةَ التي تغتسلُ في النعمةِ ،
مُتَرَفاً كعذاب ،
كشقائقٍ تتطاحنُ ،
كعَدَمِ ملاح ،
كهاويةٍ من سُباكِ ذهبٍ تلتقطُ الأبدَ إذ يتهاوى .
فلا يَجْفَلنُ الشمالُ أن أَسْتعيدهُ ، هكذا ، فَلِقاً كالتَّرَفِ ، متصلاً كعويلٍ
يتلقَّفُ الطحينَ النورانيَّ من رحي الله ،
لأنني أتلقَّفُ نفسي هكذا ، قَلِقَةً كالتَّرَفِ ، جذلي بحماقاتها
النُّورانيةِ .
وهي هكذا - مُذُ عرفتها - نفسي ؛ هكذا - مُذُ عرفتهُ - الشمالُ :
أرقانٍ نَسهرُ على الليلِ إذ ينامُ معافى كَشَكْلِ ، ونُحصي لليقينِ جَهالاتِ
اليقينِ .

أكثرُ هذا لنكونَ مُمتنِّينَ للموتِ؟

طيش الياقوت

تصانيفُ النَّهْبِ

بأيِّدِ رُخَامِ مِمْسُدِ الْغَيْبِ شَهَوَاتِهِ ،
وَالْمَكَانُ يَطْحَنُ الْمَكَانَ ،
لِتَسْتَوْلِيَ الْحَقِيقَةُ ، نَهْبًا ، عَلَى إِرْثِهَا أَيُّهَا الْمَوْتُ ،

يَا الْمَاتُ ذُو الصُّحُفِ الْمُثَلَّمَةِ كَأَنَّ عَضَّهَا الْأَزْلُ فَأَدْمَى الْأَبْدِيَةَ ، وَيَا
الَّذِي أَلَمَّكَ مِيزَانٌ ، وَعَدَمُكَ نَزِيفُ الْخَوْخِ يَتَحَرَّى الطَّبَاعُ بِحَصَافَةِ الْمَهْرَجِ
الَّذِي مِنْ نَبَاتٍ ، أَيُّهَا الْمَوْتُ ؛

يَا الْحَاذِقُ كَوْحَشَةَ ،
أَيُّهَا الْإِرْثُ النُّورَانِيُّ لِلنَّسِيَانِ النُّورَانِيِّ ، سَتَتَبْعَنِي مُذْ سَاقَكَ الْبَاقِينَ فِي
يَأْسِكَ إِلَيَّ ، وَحَرَضْنِي الْأَمْلُ - بِكَلِمَاتِ النِّهَايَةِ - أَنْ أَعْتَذِرَ إِلَيْكَ عَنْ
جُرْحِ حَصِّكَ بِهِ الْمَوْتُ أَيُّهَا الْمَوْتُ .

أَكَلَّمَا التَّقِينَا ، جَارِي أَيُّهَا الْمَوْتُ ، فِي الْمُنْعَطَفِ الْإِسْفَلْتِي حَيِّيْتِنِي
بِبُوقِ شَاحِنَتِكَ الصَّغِيرَةِ؟ أَكَلَّمَا سَهَوْتُ عَنْ الْكَلِمَاتِ أَطْلَقْتَ سِرَاحَ الْخَبْرِ
لَيْسَتْ قِصِي الْأَبْدِيِّ ، كَأَجْبِيرٍ ، فِي السَّاحَةِ هُنَاكَ ، حَيْثُ نَجَادِلُ النِّسَاءَ
اللُّوَاتِي يَتَقَاسِمُنْ سَلَالِ الْهِنْدَبَاءِ مَعَ الْمَلَائِكَةِ؟

صَمْتُكَ نَقِيٌّ ، لَكِنَّكَ شَرِيكَ ثَرْتَارِ أَيُّهَا الْمَوْتُ ،
وَكِرَاسِيكَ الْكَثِيرَةَ ، الَّتِي فِي الْمَهْرَجَانِ ، مَصْبُوغَةٌ بِدِهَانٍ يَتَقَشَّرُ ،
فَلَا تَغَادِرِ الْمَكَانَ . عَيْنَايَ عَلَيْكَ .

لا تتشاءب منتحلاً نعاسَ الصباح ، لأنني سَهَرْتُ المطبقُ على الأبدِي .
وخَفَضُ من صوتك حين تحدُّثُ الغد ، لأن جيراننا على قَلْبِي ،
والحدائق على قَلْبِي ، والنهارُ المسوسُ موشك أن ترتجف يدها بالكؤوسِ
الزجاج التي ينقلها إلى الغاضبين .

سألتني أيها الموت ، من قبل ، أن أريكَ المعاطفَ التي خَلَفَها الآباءُ
اللامعدودون في الخزانة . وجدادلتي طويلاً في الحنين الذي يتأمل الحدائقِ
من وراء نقابه الكَثَانِي . ثُمَّ حَمَلْتَنِي - أيها الموت - عَتَبَكَ من تردُّدي في
مفاتيحِ المكانِ بعزلةِ الوقت .

حين تفتعل صخبَكَ لا أسدُّ أذني ، بل أنقر بأصابعي نقرًا خفيفًا
على خشب المنضدة ، هامسًا إلي : ها هو القَلِقُ يلتمس التفاتًا إلى قَلْبِهِ من
الضجْرَيْنِ وأيامهم .

حين تفتعل صخبَكَ في المرزُدي الأعمدة الذهبية - صافقًا من
حولك النوافذ والأبواب ، وأنت تُخَلِّعُ الستائر ، وترتطم بالكتب المنضدة
على رف من رفوف الشهوة - لا أسدُّ أذني ، بل أريك طنافسَ تليقُ
بالعبث ، وثريات من النحاس تُجَلْجِلُ إن أَقْتَلَعْتُ ؛ أريك المرآةَ المؤطرة التي
ستتمزقُ فيها لتكونُ هكذا ، جريحًا ، تلتمس ضربةَ الهول التي تُخَيِّك .

عَتَلَاتُكَ تدورُ مرتكزةً - في صريرها - على الحنين ، أيها الموت .
سلاسلكَ رطبةً ، ورهائك هو التجديف حين تدور بكرَّتِكَ بِمُسْنَتَيْهَا
الخمسة ، ويتهدلُ رِقَاصُكَ المكسور ، متعرِّيًا من نشوئك النُجْمِي لتغدو
شريكِي ، الذي يَكَيْلُ معي - في الميزان ذاته - مجرَّةَ الدَّمِ ويقطينه
المُعْرَشُ .

ولك ، جاري أيها الموت ، إطراقتك النبيلة التي لا تُخفي ، كَمُرْشِدٍ
يكتُمُ الأملَ ، ويبوح باستعاراته المبتلة في قواريرها الزرقاء . لك عِلْمُكَ

الذي أطبقتَ عليه دَفَّتِي الحياة ذاتِ الورقِ الصقيل . وحينئذٍ؟ أيُّ وصفٍ إلى حينئذٍ؟ أمهاتٌ كاللندی يدحرجن ، في المياه ، حينئذٍ إليك ، كأنك لا تتفكرُ إلا في الذي يتفكرُ فيك ؛ كأنك تتأملُ البذخَ الأعمَّ للمغيب ، وتصغي إلى الجمادِ يُنشدُك ما تملكُ النعمةُ ، من ارتباكها ، في إنشاده .

مضخاتُ مياه ، وبستانيون ، حولك أيها الموت . بخارٌ وأنايق . عضلٌ كثيرٌ وقطنٌ كثيرٌ . أشياءٌ . . أشياءٌ أيها الموت ، والطنينُ الذي يبرجُ زجاجَ النافذة هو الأبديةُ تهيبُ بالمسّاحينَ أن يُنجزوا ما تبقى من تقديرِ المسافة إلى ماضيكَ . والمسّاحون ، ذوو القبعاتِ القشِّ ، يحصرونك - قليلاً قليلاً - في ثلثِ المشهد ، بنواظيرهم المرتكزة على سيقانها الخشبية ؛ بمقاييسهم التي من قماشٍ مطليٍّ بالشمع ؛ بأقلامهم الرصاصِ التي يستلونها من وراء أذانهم وهم يدخنون لفافاتٍ تضيءُ بجمرها الخافتِ أقدارَ المكانِ وموازينهُ المكسورة .

هيَ الحقيقةُ - التي تتعافى جُرْحًا جُرْحًا في فراشك المحترق - تُعيرُك فرشاةَ الدهانِ وسطلهُ المعدنيِّ ، لتُعمَمَ اللونَ كيقين ، أيها الموت . فاتبعني : لدينا إرثٌ من القصورِ التي تنتظرُ الدهانين . ولا تدمدمُ دَمَدَمَتِكَ تلكَ لثلاً نخسرَ الصفقةَ المعقودةَ بيننا وبين الأزل . كنْ هادئاً . كُنْ كسولاً لأنني أراك امتلأتَ ؛ أرى كتفيك ممتلئتين ، وكذلك رِبتَي ساقَيْكَ ، وأناملكُ التي يعروها خمولُ البطران . أي . أراك اكتنزت ، ولشحمك ارتجاجٌ إذا مسَّكَ الريش الذي لا تراه .

كن رزيناً كما يليقُ بمُتشرِّفٍ أن يكون ، وأنت تقسمُ النهارَ حصصاً كالذهب على المتاهاتِ . واتبعني بذاكرتك الحدادِ ، بالسُّعاةِ القنّاصين يضيِّقون بين أحفانهم في مسافةِ الجُرْفِ الأزلِيِّ المُشرفِ على الهاوية ذاتها ، التي يغرِقُ ظلامها حياء حين ينقلُ اللهُ القيامةَ فيها من لوح إلى لوح . ولا تَبْتَدِلْ مَظْهَرَكَ : لك زهدُ الرمادِ - أراك . حياًؤك إسكافيٍّ ،

وحزامك من إحليل الثور . أما تبغك الذي يتأجج قويًا فهو تبغ البنائين ،
أولئك الذين يبسطون أمامك تخطيطهم المُدَوَّن بحجر رطب ، وهم يتنشقون ،
في مداولا نهم الصارمة ، ضياء العبث الهندسي وأرقامه التي لها صريفُ
الأسنان .

ولا ترفعنْ عويلَ بوق شاحتك الصغيرة عاليًا ، أيها الموت ، حين
تُحيي الجمادَ المنتظرَ على قارعة الشُكُلِ : أطفالُ جيراننا نائمون ، مبتسمين
للحلم الذي يشهدُ فيه أمُّك الأبكم للئاس في اعترافِ اللئاسِ بالأملِ إلى
لا نهايةٍ .

إلى لا نهايةٍ

إلى لا نهايةٍ

إلى لا بدايةٍ .

أنت مثلي تشهدُ ختان الفجر ، ومشاجرات الضوء ، وكذلك النُزَالُ
الصباحيُّ بين المكانِ وحماقاته . أنت - كفراغِ رَضِيٍّ له ثُرثُرَاتُ الخوخِ - لا
تُريك الحياةَ ارتباكها ، ولا تُريها الفضيحةَ أكْمَلَ في الأنين .
حزينًا تتذكّر ، أيها الموت ، طفولتك التي لبسناها كأقنعة في الأعياد ؛
حزينًا تتذكّر حنينك المجروحِ بأعمارنا ؛ حزينًا تتقدّم إلى نفسك ، وحيدًا ،
باردَ القدمين في حذائك المشقوب . والمساءُ المرير ، الذي يكلمك ، ينسى
مرااته إذ يسألك : « أين تمضي ، بعد هذا ، أيها الموت ؟ » .
شفقةُ العدم عليك أيها الموت ؛ شفقةُ المنسيين عليك يعودون إلى
الحياة بفكاهاتهم .

شفقةُ الفكاهة عليك وهي ترمي بالأقدار إلى سريرك الممزق وقد تفلّع
حشوهُ القطنِ وقضبانهُ النحاسُ . وفي توقك إلى النهاية تحتطفكُ النهايةُ
إليك ، لا إليها . فيا ابن الفراغ الذي يتقصّى بأموته نهارك التائه ، أيها
الموت : رَكَلَةٌ تفتحُ البابَ ، رَكَلَةٌ تفتحُ الأبديةَ على فجورها ؛

رَكْلَةٌ تفتح بابَ الفردوس في ثغرة من سياجك المصنوع من قصب
الذرة ؛

رَكْلَةٌ خفيفةٌ تدحرج الكونَ إلى إعجازه .

فاحذرْ مثلي - أيها الموت - غَدَرَ الشجرات ، وغدَرَ التراب الذي لا
يقول حكمةَ الذهب . أما الفناء ، الذي يبقى جالسًا بعد خروج زائريه ،
فهو يتهكّم بلغة لا يُتقنها : إنه فناءٌ كأجرٍ لم يُسدّد بعدُ . والعدم الذي
كلقاءٍ أوّلٌ ، أو كنعمة تتأمّل حنينها ، لا يدخل المكانَ ، بل يبقى منتظرًا
من يُحضر إليه خُفيهِ ، وعكازَه النورانيُّ ، كي يحرّر الأبديةَ من كهولتها .

أتصغي إليّ؟ أراك سهوتَ ، أيها الموت ، وأنت تُحصي كتاب من أشباح
تُمهد الوقتَ دفتراً دفتراً الانتصار الحداثي ؛ - أشباح كلّوعة تصعد المدرج إلى
الحقيقة ، ثقيلة في حديدها ، وخوذةا ، لتسلّم الباشقَ إلى اليقين .

أتصغي إليّ أم إلى حياةٍ تسهر ، أنت ، على كنوزها ، أيها الموت؟ تعالَ
ندخل أسواقَ الجزائرين الذين يستميلون الحكمةَ إلى فكاهاتهم ، رافعين
رؤوس الأغانم وأحشاءها إلى الموازين ؛ وقد يقشرون أظلاف الماعز ، أو
يهوون بالسواطير على أضلاع الثيران . تعالَ ، إنهم يُصنّفون العصلَ ،
ويرققون الشحم كالمجازات ، كأنما يعرفون أنّ المصنّع الذي يُقرّقعُ إنما هو من
فم الأرض تمضغُ القيامةَ قبل نومها .

وتحسّن مطواتك التي كنهاري في جيبك ، أيها الموت ، فقد يحتجزك
الحمقى في الأسواق المسقوفة بقرون الثيران ، ليستنفدوك قبل أن يموتوا أيها
الموت ، أو يسهروا معك - في الحمى التي تفتدي نفسها بالصرخة
الخفيضة إذ يُختننُ الأبد - كي يُضللوا كوابيسهم . وإن جاورك المساءُ
المكاري أسأله الفديةَ التي هي عبورك ، مُثملاً ، إلى الأکید .

أه ، كم تتبرجُ بالفكاهات التي أسردّها أيها الموت ؛ كم تتبرجُ بيقينك
وأنت تسردُ الفكاهةَ على الحياة . رسولك المساءُ إلى جنائن النهار المنكوبة ،

وأختامك أحتامُ الأنين أيها الموت . وشهواتك؟ عُدّها : إنها تتفجّر كحبوب
الدُّرّة في المِقلاة .

ما من مشهدٍ يعبرُك قَلَقًا أيها الموت ، كأنما وحدك - في المشهد - قَلَقُ
المكانِ تخرجُ عليه جهاتُه . ومفاتيحُك؟ يا لها . تتدلّى من السلسلة الرقيقة
التي يتدلّى منها الأفقُ . وهي ، على أيّ ، سلسلة من الصنّف ذاته الذي
تتدلّى منها ساعاتُ الحسبة ، ومفاتيحُ الصيّرين ، والأقدارُ المطليةُ بالنيكل
على صداري البائعين ، هؤلاء ، وراء آلاتهم الحاسبة كملانكة حوصرت
في الحديد ، وهم يُخرجون الحقيقةَ عن طُورها بابتساماتهم المُلغزة .

صفاؤك الآن ، قرب سياج البيت ، صفاء الخسارة أيها الموت . ورهاتك
الرابح رهانُ الحُمى التي تشقق التينَ ، في الظهيرات ، للعصافير . وأنت ،
كوزاق حصيف ، تموّ الحبر على الحروف بحروبك التي تحشد لها أحلافَ
العنب ، هنا ، حيث ثغور الفاكهة هي الشغور التي يتسلّل منها العداؤون
بأقدار الفاكهة ؛

حيث حَتَقُ الغبار يبُلل المساء العاقل ؛

حيث اليقين الماكر ، والعصافير المرتطمة بذهول الحداثق ؛

حيث قطيعةُ الليل بين الألم والحُمى ؛

حيث المجاذيف ، والأقنعة الرحيمة كأنما فاكهة تحتال على الفاكهة ؛

حيث الأملُ يغتصبُ شقيقاته على السرير ذي القوائم التسع ؛

حيث الذّهاء الذي من وردٍ يشرفُ على خسائر الحقول ؛

حيث القلاقلُ الكبيرة هي قلاقل الصُّعتر ،

والشُّعْبُ الكبير هو شَعْبُ النعناع ؛

حيث الشُّكْ - ضاحكًا - يلقمُ العذوبة ، بيديه ، حساءَ الآلهة .

والأرقامُ أرقامُك أيها الموت ، تتراءى ، نديّةً ، للممحاةِ

العذبة في رقتها .

هذا هو نسج الليل وأنيته قرب سريرك ، أيها الموت .

تعال ، إذا ، وصل الطهارة وأنت ما تزال في حيرتك الرقيقة ذاتها ، وراء سياج يتسلقه الضوء الذي يُغشى عليه من تحرّشات الورد . تعال : مُدّت المائدة ، ورُصّت الملاعق الكثيرة ، وفي الصُحُفَة الواحدة تجاورت الحقيقة والبصل ، والكسَادُ المملُحُ لليقين ، وخرائب النعمة ذات الصُوع الذي للكرفس ، واليقين المغامر ، والمساء ذو الحراشف . فيما تنتظر الأصنام الصغيرة ، بخزفها المحروق كرؤيا الضب ، شعاعاتك المُخَصِبَة ، ومديحك الأشقر كروح كلبة .

المرثي قَرَعَهُ لآ تجد اسمها في حروفك . وفي كل حركة تُحطّم الفجر الذي لا يسترسلُ إلا غريقاً أعمى . كأنك تحتكم - بالضربة الدفينة للحقيقة ، التي ترفع أعضائك الدفينة في ظلامها - إلى خساراتك الرابحة .

أه ، للموج حنينه إلى سَكينة المياه ، وللسكينة حنينها إليك إذ تمضي - أيها الموت - إلى الغَلْبَة بأنصارك الصاخبين . تعال : تمائلُ المساء الكثيرة ، التي تذوب رويداً رويداً في ظلامها ، تُرْيك العُرفَ المضاءة في فراغها ، وتُدزذُرُ عليك ، كَرشاشِ الماء ، محاورات تنسى قائلها الموتى . وترفقُ بيديك الرطبتين كمنحاة أيها الموت ، فلا تُشدنُ النسيانَ من قميصه إلى المائدة : يكفيك قلبك الذي من جُسور ترتفع بأجنحة المياه ؛ يكفيك قلبك المتأه لا يهندي منه إليك إلا العبتُ قابضاً على حياته .

صواعق تتسلقُ نفسها إليك . بروق تتسلقُ الوردَ إليك . الأبدية المُختطفَة من حنينها تتسلقُ الفكاهة إليك . المسرعون من يقين إلى يقين - وهم يتعشرون بالقيامة في سُكرهم - يرونك في الظلال كلها ؛ في الظلال القوية للكروم حيث تتخاطفك ملائكة من العناقيد كفناء مُسكِرٍ . ورهبة

الغد ، الذي عليه بعضُ غبارك ، هي رَهْبَةٌ الغد في انشغاله بما ليس فيه .

أنتَ لا تنام ، فَلِمَ استراقك السَّمْعَ على النوم ، أيها الموت؟ تتشاءبُ فأبتسمُ لك ابتسامةَ العارف : «يا لبناطيلك المضحكة . يا لعينيك المغرورقتين بحجر يطحن المفاتيح» . لكنك تسرق خُفِّي النوم اللذين يتركهما على العتبة ، في دخوله عليك ، مُستأذِنًا حُلْمَكَ اليقظان ، حاملاً مصابيحها التي تنتظر الوقتَ بحارِثها .

قطيعكُ قطعُ الغضبِ أيها الموت . هروبكُ صاخبٌ في كلام يُنسَى أيها الموت . شَفَقُ النعمة عليك ؛ شَفَقُ النعمة الذي تكسره شجرات الأكاسيا العالية ، أيها الموت . وأنت في المُهْمَل ، الذي تتعثرُ الأرضُ بجعله ، أيها الموت ؛ في خطوة الظلام المنسية على عتبة الفجر ؛ في الفجر الذي لم يستفق بعدُ ؛ في اليقظة الكسولة للكمال الكسول ، هناك ، حيث تُلقِي بمعاك الشقيل على القارعة ، وتنسلُّ إلى الكمائن أيها الموت . وبُستاني أنت ، غاضبٌ من أجرك ، تُبيحُ للورد أن يسرق من الموتى رقادهم ، أيها الموت . ولا تحمل أضاميم الرُّبْد إلى أيِّ ، ولا تتنفسُ كما يتنفسُ المُشيعون . وتغمض عينيك حين تسمع ضربة المعول التي تتقاسمها الحقيقةُ مع الغبار ، أيها الموت . حررُوكُ تُؤكل كالفاكهة ؛ حررُوكُ العظامُ والعنبُ ؛ حررُوكُ الرهيفةُ من حماقات ينسجها الزهر في مرآته أيها الموت ، وغدُكُ غدٌ يستأجر الحقيقةَ كحُمائلٍ لأمّعة الغيب . أه يبكي الحديدُ بين يديك بعينين من ذهب . ونهاؤكُ ساهرٌ على شمسهِ أيها الموت . يقظتكُ نائمة في دَفْئها ، ووداعُ أكملُ يضلُّ أعضاءكُ بعضها عن بعض ، ويُقيم معك ، في الوحدة ذاتها ، كضيف دمث ، أيها الموت . يخسبُكُ الدرّاق من سُكْرهِ ، والضوءُ من حِيلِ الضوءِ أيها الموت . وأنتَ بسُحْبٍ تعتنقُ مذاهبَ الجهات كلها ، دافعاً بالمجرّات كأسرى ترسّف في

أغللالها الأمانة ، أيها الموت . والنواعير كلها لك . النعيم المُزبِكُ لك . بروقُ الصباح المُشْبَعَةُ برائحة الشاي لك . ولكَ الزَّهْرُ المُتَحَنُّ ، والقوافل العابرة من كردستان إلى المديح . لك خزائن الملح ، والأهراء المنتصبة على تخوم القيامة . لك الحجر الذي يفظمه الجبلُ ، وجزيةُ النقائص . لك ممحاةُ الزَّبِقِ تمحو الرائحة في سطور السَّرَاقين ، والمساء المتبرِّجُ بأصباغ الريح . لك قلقُ الفجر وهو يروي الحكاية بضيائه المُتَلْعِمِ ؛ قلقُ الحكاية وهي تروي الفجرَ ذا الجبين المعصوب من نوبة الحمى . وتقول ، بعد هذا ، لنفْسِكَ ما تُسرُّهُ إلى نَفْسِكَ ، وللحياة ما يُشْغِلُها بجواميسها القوية ، وعذابها القوي كثِقَةٌ .

على رَسَلِك ، أيها الموت ؛

من شاهق تُذَرِّدُ الثلوجُ نيرانها على المرايا ،

ويجازفُ النهارُ بالليل الذي يزورُ الأختامَ .

والمكانُ لعبةٌ في جدالك ؛ المكان يتسولُ من يديك الحقيقةَ فكاهةً فكاهةً . والرياح تتلقَّفُ كُرَاتِكَ المرمريةَ بأيديها التي من أسرٍ ؛ بأيدي ابتكارها وهي المشغولة بالذي يجعلها رياحاً تتلقَّفُ ذاتها .

أوقَتِكَ غماماً ، أيها الموت ؟ حَسْبُكَ تطوقُ بكسلِك المساء الذي يحلم حُلْمَهُ المُغَلَّقَ على نهارٍ مُغَلَّقَ على نهارٍ مُغَلَّقَ على مساءٍ مُغَلَّقَ على الضياء ينشجُ نشيجُ الريحِ إذ تضيقُ الريحُ ذَرْعاً بالهبوب الذي هي فيه .

وماكُرٌ هذا الأجل الذي تَشْحَذُهُ بالمبرة ، لا يُنْجِزُ القرائنَ الناقصة ، ولا يستوفي - في مشاداته الكثيرة - شَرْطُهُ الصاحب ، كي يُبَلِّلَ الحياةَ بأحاجيه . لكنه ماكُرٌ - هذا الأجلُ أيها الموت كفكرةٍ يتماذى أنيئها لينتجِبَ الوقتُ كما تنتحبُ الحدائقُ في اعترالها .

تشيخُ طويلاً أيها الموت فتنسى أنك موتٌ ينسأهُ الموتى . ومجازاتك

من صوف أغبرَ أو من قطن مبلول ، أيها الموت . مجرأتك منكوبة . اسمك
منكوب . وحبرك الليلي ، الذي تدون به فراديس الأكيد ، يفتحُ الممرات -
في السطور - لشموس الموتى .

يا لسريرك الذي تمسّد الحروب ، بأيديها القطنية ، ملاءتة القصيرة ؛ يا
للحروب تطرق عليك الباب في خجل ، أيها الموت ، لتشغلك كأنشي
بحديث الذكر ؛ يا لهباتك التي لا تقدّمها مرتين ؛ يا لدوي السطر المحمول
على يديك وهو يمزقُ الكتابة!

رمادٌ رخيماً يُلهمُ الحناجرَ نداءها ،
والكمالُ الأخرقُ - وسيطنا ، يتجولُ بكلا به صباحاً لتتبوّل على ساقِ
شجرة الكينا ، أيها الموت .
يُسروَعكُ يُسروَعُ بيان . هواؤك أهدبُ . والحلاقون ، حولك ، يجزونُ
الشفقَ بمقصّاتِ المياه ، أو يشذبون الحدائقَ كاللحي ، أيها الموت ، وهم
ينهرن - في لطفٍ - شهواتِ الغامضِ المربوطةِ إلى كراسيهم إذ تهرُ
ككلابٍ سلوقيةٍ .

ألهذا أنتَ غير أكيد ، أيها الموت ؟
ألهذا أنتَ يائسٌ كحديقة تنصب كمانن من وردٍ ، وتختزلُ الأرقامَ في
دفترِ الهواءِ الصيرفي ؟

كلُّ قيثارة تشدّها إليك تشدّها في الكمين ،
حيث الأغاني توزّع الأسيجة على مُعسكراتها ،
والمكسورون في أشكالهم ، هؤلاء ، الملتحمون كإسفلت مُلتحم ،
يصفحون في خيامك حاضرهم مصافحاتٍ تتكسر فيها الأناملُ ،

ويتعانقون عناقاً يوجع الأرضَ ، ساهرين على الليل النعسان ، الذي لم يعد في مُستطاعه أن يقلّب أوراقَ النهار بين يديه .
 قلّ لهم أن يُغمضوا الحياةَ على عيونهم كي ترى الحياةَ ، أيها الموت .
 قلّ لدرجاتك أن تعبر صامتةً براكبيها اللاهثين . قلّ لشاحتك الصغيرة ما يقوله سائقٌ لشاحتها الصغيرة أيها الموت ، وأطرق برأسك كمن يُصغي إلى نيممة الذهب ، ووشاية الحديد . لا نكبة تَمَسُّ مَنْ يشرفُ عليك بجراح عادلة ، أيها الموت . لكنني أسى لنكبة المساء المفتون باليقظانين ، يشحذون النهارَ كالمدى على حَجَرٍ نسيه الموتُ في خَلَاتِك أيها الموت . وأسى لديكنا يصيحُ ، ضجرانٌ ، من خشوعِ الحديقةِ في خلاتك أيها الموت . أسى إذ أرى يد الهواءِ على فتوقه من ألم ، والأبدية تتداركُ التَّزَفَ الكبيرَ برمادها . وأسى كما تتأسى ، أيها الموت ، على نكبة العَدَمِ في اعترافِ جَمَالِهِ .

لعبورك عبورُ الحيوانِ أيها الموت . لأنفاسك أنفاسُ الحيوان ، ولعدلك عدلُ الحيوان ، كأنما اختطفتُ في صيحة الله الأولى ، لتترعرع في الغيبِ المقدوف إلى الجوهر المقدوف من الندم إلى المياه .
 أتهذي كلما شغلتُ بك؟ نداءُ اللعبة أنت ، يا صرير الباب الذي افتحه صباحًا ، خارجًا إلى مساكب جسدي . أتهذي وأنت تدفَعُ عرباتك الصغيرة لتتحدرَ بأطفال الشيخوخة إلى فراغك الفتى؟ كلُّ عدم يتهادى ببغاله إلى حنينك ؛ بقطارات منسية ؛ بشجيرات اللّيف التي تتلّك منها القرى بيضاء كشرانق الحرير . وضرباتك ضربات حدّادٍ في حلقةِ المكانِ إذ تدوُّ أسماء النجارين يَسْحَجون الأعمدة النورانية للريح بمساحيق الرمل .
 ولا تَمَلُّ تَرَدُّدُ أَنْ خُدَعْتَ - أبداً - مُذْ كَوَفَّتْ فَكَنْتَ الموتَ أيها الموت .
 لا متاهة تعرض نفسها عليك . لا خَدَمٌ يدخلون الفناءَ المديد إليك وهم يزفرون ضَجْرًا كما ينبغي على خَدَمٍ أن يدخلوا الملهاة بصحونهم

الآجُرِّيَّة ، الملائى برقائق الشَّحْم ، والكَمَأ ، أيها الموت . لا برازخَ تكسر
أفصاصها الرملية على حافتك . لا قناعَ عليك . لا قناعَ يُريك النعمةَ
مرفوعةً على أنينِ المشهد . ولا غدَلْكَ ، لأنك منذورٌ ، أبداً ، للذي تعرفه
أيها الموت .

أأمهلتَ فأمهلتَ اللهَ ؟

ساعاتك هاربةٌ فراشات من الوقتِ إلى اللون .
ودسائسك هذه؟ أخفها قليلاً دسائسك الشجرَ ؛ دسائسك الثورَ
المندلِقَ كآحشاء حمارٍ ، فأنت على صوابٍ - أبداً - بأخطاء أجسادنا ، أيها
الموت .

أنت على صوابٍ ،
والحدائق على صوابٍ ،
والخليئةُ ، التي تسردُ عليك عظةَ الحقيقة ، على صوابٍ ،
فاعذرني إذا مضيتُ وأبقتيك كجدُّ من الرمل ، وحيداً ، تطحنك
الدورةُ التي لا تُحصى في بقائك الزائل ، وينهرك الأشباحُ دُفْعاً بالمناكب ،
وهم يجتازون ممراتك الكلسيةَ إلى حَلَباتهم ، في دروع لا تراها أيها الموت .
لكن ، الآن ، ابقَ جاري ، وأطلقْ نفيرَ شاحتك الصغيرة محيياً كلما
مررت من الطريق الإسفلت إلى أشغالك ، ليستأنسَ بك اليقينُ المهجور ،
الذي يلجم بقصديره الذائب سياجات الحدائق المهجورة ؛ لتستأنسَ بك
الوحدةُ ذاتها ، التي ترممُ بالجلسِ تماثيلَ الغيب المركومةَ هنا ، في المسافة
الضيقة بين بيتنا وبيتك أيها الموت .

ابقَ جاري ، تتبادلِ التوابلِ ذاتها التي من عظام القرش ، وتتبادلِ
البروقَ المعدَّبةَ كخلودٍ ؛

ابقَ جاريَ نتشاركُ في قناةِ المياهِ الواحدةِ ،
والصحيفةِ الواحدةِ ،
وعلبةِ التبغِ الواحدةِ ،
والحِبرِ الجَهْمِ ،
والرجاءِ الذي يؤتبهُ الوقتُ ذو الغمازتينِ ، أبداً ،
ككفَلِ كَسْرِ المبراةِ بأسنانهِ ،
ابقَ جاريَ . ما عليكِ .

سأدُلُّكُ ، أنا المُتَرَفُّ ، بهباتِ تَلزُمُكُ أيها الموتُ ، كأنما يتوسَّلُ الرجاءُ
إليَّ أن أرفعَ على كتفكِ سِرَاقَ اليقينِ ، وأؤكِّدَ لكِ قَسَمَ العظامِ المسنونةِ
كرواحِ تحمي البواباتِ .

سأدُلُّكُ خائفاً عليكِ - أنا العارفُ أنكِ لن تنجوَ من أحدٍ أيها الموتُ :
كلُّ سينتشلكِ من الغرقِ بخطاطيفِ الموعدِ الماخنِ ؛
كلُّ سيمهلُّكِ مهلةً لا موتَ بعدها أيها الموتُ ؛

كلُّ سيقودكِ في الممراتِ إلى الحمى ، حيث يستلقي على سريركِ
الليلُ والنهارُ معاً ، مرتحفينِ من صرخةِ المُعَذَّبِ الذي يستعيد انتحارَ المكانِ
جَمالاً بعد آخر . وستتهتِكِ الينابيعُ في مرأتكِ كعاناتِ حليقةِ ، وهي
تسقيكِ عطشَ الينابيعِ . فاكبحِ شاحتكِ الصغيرةِ ، الملائى بصناديقِ
الكرفسِ إذ تعبرِ الحُفَرَ في الشارعِ الإسفلتِ بصخبها المترجرجِ ككفَلِ .
وألقي إليَّ من نافذةِ بابها بالذي قايضُ به البرقُ عَدَمَكِ الذهبيُّ ، أيها
الموتُ .

كلُّ شيءٍ أكيدٌ ببيانكِ ، أيها الموتُ :

مدائحُنَا ،

والجيشوشُ التي تتسلى بالثَّرْدِ حيث المذبحةُ على أتمها كَفَرَجْ ؛ حيث
الأرضُ المُوَزَّقةُ ، دون سماء ، دون نَدَم ، دون حكمةٍ أو أنينٍ ؛ - الأرضُ في
تيهها ؛ - الأرضُ الذاهلةُ أبداً في جَمالِ القرنين .

والكلُّ سَيرتُك ، بعد هذا ، أيها الموت ، حين تَشْرُدُ - مُوَزَّقا - في
حساب الحقيقة بأقلامك الفحم ، دون ممحاةٍ تُعِينُك على عبور الرُقمِ إذ
يتوطد في الفراغ المُزْضع ذي الأثداء ؛
كلُّهم سَيرتُونك ، جالسِينَ على العتبات التَّسع يلهون بخزرك المنسي ،
وعاجك المنسي ، وهم يعاينون بين أيدهم جلودَ خناييصك التائهة في
غابات الفردوس ، أيها الموت .

إنْ تَكُنْ حكمةً تَكُنْ أنتَ ،
إنْ يَكُنْ هديانٌ تَكُنْ أنتَ ،
إنْ يَكُنْ باهٌ ينثرُ الطحينَ تَكُنْ .

ألا لأحملنُ إليك رجاءك في خطوات من اليأس أيها الموت ،
ولاجمعنُ أمَلَك المَهْشَمِ تحت شجرات الميموزا ، وأقفالك المَهْشَمَةَ كأنَّ
سَطًا عليك زاثروك - إذ سَكِرْتَ - فما أبقوا من متاعك إلا الجمالَ
المدعور .

لأحيينك لأجهدك ، ولاختبِلنُ لنتجو .

أقاليمك ثمانيةً بين أنياب الضحى ، أيها الموت . وأنا ألقُ لك
التاسع ، الذي سيدخله الأدمي بجذاله الطَّاحن ، يُخَيِّبُه ما يُخَيِّبُكَ إذ
تُنيرُهُ بجَهْلِكَ المُخبي ، وأنتما تصغيان ، معاً ، إلى صياح دِيكَةٍ ماجورةٍ في
فجرٍ ماجورٍ .

ألقى إليك زاداً ما لديك؟ حسَبُك أن تنتظرَ الهبةَ طاغيةً أيها الموت .
حَسْبُكَ أن تسمع عبثي وأنا أرمي نافذتك بالباقلَاءِ والذرةَ . فهاتِ سؤالك
الخبول لأخبرك كم حرَّرتك من جدال خاسر بينك وبين الشهيد ، وكم
أخفيتُ حرَّجك من القيامة بنقاب أسدلتهُ على أبدك المُستغيث .
أظفلي أنت؟ أندائي المكتومُ في مشيئة الظاهر أنت؟ كَبْرنا معاً بالحنين
ذاته إلى وخشةِ أنقى في أئينها أيها الموت ؛ معاً
في خيلاء الغبار ،
في الممكن الجَسور كقبَلٍ على عَجَلٍ ،
في ثرثرةِ النعمة ،
في المهجور كلُّه ،
في شهواتِ المهجور ،
في القديمِ الصائرِ إلى قديمه الأبدِي .

ذَكَرْ ؛ حنينك حنينُ أنثى ،
تعبك تعبُ أنثى ،
جرحك جرحُ أنثى ، أيها الموت ،
والغبارُ الداهيةُ ينير لك ، بمصباحِ الغسليين ، شقاءك المُبتكرَ كآثا فاره
في فسْطاطِ المتاهات .
أحدتني عنك ، من قبل؟ أُبختَ لي أن الأرقَ ينتحبُ بين يديك ،
وأنتك - مثلي - تهذي كشكل أسلمَ فراغهُ للجمادِ النقاش؟ لا أستدرجك
إلى ثرثرةِ أيها الموت ، بل أعيرُكَ النفاثسَ مطحونةً في جلود الأكباش ،
وأرَبِك المُشكِلَ عارضاً صفقاتِ السديمِ عليك ، لترتجل - معاً - قبولنا
الأكمل بالذي يخولنا أن نكون - أنا وأنت - أرقاً واحداً يرُمُّ المشيشاتِ
على عَجَلٍ .

كلُّ شيءٍ على عَجَلٍ :

المكانُ ،

والحظوظُ ،

والأبديةُ ؛

كلُّها على عَجَلٍ ،

وَأَنْتِ كَشَافُ اللهِ أَيُّهَا الْمَوْتُ ، عَجُولًا تُشْرِفُ عَلَى الْمُنْتَهَبِ ، وَتَشَاكِسُ

الْمَقْدُورَ .

قُتِلْتَ ،

أَزْعَمُ أَنْ قُتِلْتَ أَيُّهَا الْمَوْتُ ،

وَأَكَادُ أَسْمَعُ مَا يَتَخَلَّجُ مِنْ قَضَائِكَ كخَضَارِيفَ ، وَيَذُوبُ كَالشَّحْمِ ،

لَأَنَّكَ تَرْفُوعُ أَبٍ تَتَقَضِّقُضُ هَلْعًا مِنَ الْأَبْوَةِ ذَاتِ الرُّثَيْرِ الطَّاهِرِ .

وَمَقْتَضَى كَمَالِكَ أَنْ يَكُونَ كَمَالًا ، أَيُّهَا الْخَوْشَابُ ،

وَمَقْتَضَاكَ أَنْ أَكُونَ ، كَيْ تَذْهَبَ - نَسْخًا بَعْدَ آخِرٍ - فِي النَّكْبَةِ

المرحة ، تَتَلَمَّسُ الصَّلْصَالَ - خَتَمَكَ الْمَكْسُورَ ، وَزَخَارِفَ الْمِيَاهِ عَلَى

الْأَعْمَدَةِ ، مُطَوِّقًا كَرَسُولٍ بِذَنَابِ الْقَرْنِفَلِ وَهِيَ تَرْفَعُ عُرْوَاءَ الْعِطْرِ مِنْ

حَنَاجِرِهَا الزَّرْقَاءَ .

أَتَتَقَدَّمُ إِلَيْكَ بِتَدْوِينٍ يَذْهَبُ الْإِخْبَارِيُونَ فِي الْمَنْسِكِ الْأَوَّلِ لِلرِّيحِ ، أَيُّهَا

الْمَوْتُ؟

أَتَتَقَدَّمُ ، مُطَرِّقًا ، إِلَيْكَ ، أَمْ تَمْتَحِنُ ثِقَلَكِ الْحَيِّ فِي اللَّغْزِ الْحَيِّ؟ جِيرَانُكَ

يَرُونُكَ عَبْرَ سِيَاخِ الْحَدِيقَةِ الْمُنْخَفِضِ ، وَيَتَهَامَسُونَ ، مَشِيرِينَ إِلَى شَاحِنَتِكَ

الصَّغِيرَةِ ، هَمْسَهُمُ الصَّبْيَانِيِّ .

هَذَا دَابَّهُمْ أَيُّهَا الْمَوْتُ ، وَهَذَا دَابُّكَ أَيُّهَا الْمَوْتُ ، وَالْخِلَافُ - هَذَا

الشريكُ - خلافُ على الحدائق والشاحنات . فاصْلُحْ من حالِك بشكِيمةِ
التعب الذي فيك ، وأصلِحْ التعبَ كساعاتي . وامسح عرقَ الوقتِ -
مُرِيدُكَ الأعمى وهو يُوجِّعُ اللهبَ الحِجَابَ بمنفاخِ الدراجات .

أَعْطَهُ منفاخًا آخرَ أيها الموت . غَضَبَهُ أيها الموتُ . كَمَّمَهُ - كَمَّمِ الوقتَ
مريدُكَ الأعمى ، وأوثِقَهُ إلى شيخوخته العمياء أيها الموت . ولا تنسَ : أنتَ
مدعوٌ إلى البسيط ، بإيمانك الذي هو بأسُكَ الأقسى ؛

بالكُلِّيِّ كمعجزةٍ في أسْرِها ،

وبعذابِكَ عذابِ الخالد ،

لأنك عريقٌ ، وما تمسُّه عريقٌ أيها الموت ؛

وعفيفٌ هذا الأرقُّ الذي نتقاسمه في حُلْمِ الصَّقْرِ ، إذ أعرَضُ عليك
أجنحةَ الياقوتِ التسعة ، والكمائنَ كُلِّها حيث الأسلافُ المُتَبَكِّرُونَ
يحطِّمُونَ مداراتهم في غمامِ المشهد .

أَمُفْتَضِحٌ ، مَشُوفٌ ، أنتَ؟ . رُدُّ عليك شيئًا مني لتحتجِبَ قليلاً ،
فيأتمنِكَ الظَّاهِرُ على عذابه عذابِ الخالد .

واحتَمِلْ ، بالوحدة التي تتكىء على ذراعك ، ما يحتمله العاديُّ في
الفناءِ الأَمِينِ ، إذ الكونُ - مُوصِداً بالغَلْبَةِ الأبدية - يُجنِّبُكَ المنفى ، أيها
الموت .

واعذِرْ الذهولَ يدفعُ القطيعَ الأكبرَ من بهائمِ الثورِ وسباعِ الباطنِ ، كما
المجرَّاتُ ، إلى الكثيفِ الشهبانيِّ ، بِحَمْدِ القديمِ العابرِ بتنانينه المتلاشئةِ
كلأفلاكِ ، كأنما أنا وأنتَ ، رقيقينِ ، مسحنا أسرارنا بزيتِ السَّمْسَمِ ، ورقَّقنا
الذهولَ شِفَافَاتٍ ، أيها الموت .

«حَسَنًا» يهمس القرينُ إلى القرينِ ، والسَلْفُ القَلِقُ إلى أصنامهِ .

«حَسَنًا ، هَاكَ صَبَاحَاتِ الْعَدَمِ الْمَرْجَانِيَّةِ ، وَالْكُنُوزَ الَّتِي مِنْ ظِلَالِ» يَقُولُ
الْفَانِي لِأَزَلِهِ الْمُحْتَضِرِ . وَأَنَا أَرَدُّدُ : «حَسَنًا» ، أَيُّهَا الْمَوْتُ ، سَأَلِجُثُّكَ إِلَى
حَنِينِي لِتَعْبِيرِ الْبَرِزْخِ عَارِيًا ، لَا صَوْتِ لِحَطَوَاتِكَ ، لَا صَوْتِ لِشَاحِنَتِكَ ، لَا
صَوْتِ لِلْيَقِينِ الْمُتَشَبُّثِ بِسِيَاحِ الْحَدِيدِ فِي فَضُولِ أُخْرَسَ ، لَا صَوْتِ
لَأَسْرَارِكَ ، هَذِهِ ، الَّتِي تَهَيَّأُ لِمَشَاجِرَاتِهَا الْمَعْهُودَةِ ؛

سَأَلِجُثُّكَ حِينَ يُلْجِثُّكَ كَمَا لَيْتُكَ إِلَيَّ ؛

سَأُحْيِيكَ لِأَحْيَا فِي الْكَمَالِ الْمُمَسَّدِ بِشَهَوَاتِ الْغَيْبِ ؛

سَارَبْتُ بِبَيْدِي عَلَى كَتْفِكَ كَالْمَوْدَعِ ، مُشْفَقًا عَلَى الْوَحْدَةِ الَّتِي أَنْتَهَا ،
أَيُّهَا الْمَوْتُ ؛

سَأَتَسَلَّلُ إِلَى الْجَهَةِ الَّتِي لَا خِصُومَةَ فِيهَا عَلَيْكَ ، وَأَنَا أَسْتُودِعُكَ
الْيَأْسَ كُلَّهُ ،

وَالْيَقِينَ كُلَّهُ ،

وَالْعَبَثَ كُلَّهُ ،

وَالْحَبِيرَ ،

وَالْفُرُوقَ النَّهْمَةَ ،

وَالْمَوَازِينَ ،

وَالْخَفِيَّ التَّائِهَ ،

وَالنَّبِوءَاتِ ؛

سَأَسْتُودِعُكَ الْمَوْتَ أَيُّهَا الْمَوْتُ ، فِي الْمَشْهَدِ الْمَمْسُوكِ بِالْأَفْقِ - نَزِيْفِكَ

الصَّامِتِ ، حَيْثُ يَسْلُخُ الْعَادِي الْمَكَانَ كَالْجُرَّةِ بِسَكْنِيهِ . سَأَسْتُودِعُكَ مَبْنَى

الْبَلْدِيَةِ الَّتِي يَنْتَصِبُ أَمَامَهُ الذَّنْبُ فِي هَيْئَتِهِ الْإِسْمَنْتِ (ذَنْبُ الْمَبْنَى ذِي

الْمُدَاخِلِ السَّبْعَةِ) ، وَتَرْتَفِعُ عَلَى جَانِبِيهِ مَقَابِضَاتُ الدَّمِ فِي كَسَلِهِ الْيُونَانِيِّ ،

هَنَا ، عَلَى الشَّاطِئِ التَّائِهَةِ فِي مَرَاتِ الْبَحْرِ .

أَتَسْمَعُ رَافِعَاتِ الْحَدِيدِ مَعِي؟
أَتَسْمَعُ الْقَوِيَّ مُلْهِمًا بِسَخَاءِ الْمِحْنَةِ يَرْتُبُ التَّصَانِيفَ؟

لا عليكَ ،
هباتُ كُلِّهَا ،
والوحدة تَسْكُ دِرْهَمَهَا ، أَيُّهَا الْمَوْتِ .

١٩٩٢

الأفضال

(مقالة في خواص الظاهر)

مُهْشِمَةٌ أفرانُ الخِزَّافِينَ .
مُهْشِمٌ هذا البوقُ النورانيُّ ،
فَلَايِيٌّ يَسْتغِيثُ قَلْبَكَ بِالْأَعْمَدَةِ ،
وعيناكَ تَسْتغِيثَانِ بِمَنَازِلِ السُّدُومِ وَأَبوابِهَا الذَّهَبِيَّةِ؟

المعاني ماثلةٌ تووَّلُها تأويلَ الماءِ ، لتستقيمَ ضاحكةً في فراغها ،

والْيَأْسُ - إسْكَافِيكُ الحِرْدِ يَشْدُو بِخِيطِهِ القَوِيَّ مِرْقَكَ التي يتناهشُها
المكانُ ؛

وعليك ما على الحُمَى من نَقْشٍ ؛
عليك قَبْلُ النِّهَايَةِ التي غَطَّيْتَهَا بِثِيَابِكَ كي تَلِدَكَ النِّهَايَةَ .
فغيم ترفعُ اليقينَ البهلولَ على كتفِكَ تَحْتَهُ أن يرى المَعْضَلَةَ هناك ، في
السُّرَادِقِ الكَبِيرِ لِلألمِ ، هائِجَةً تلتهمُ أحناشُها؟

ظَلُّكَ حزينٌ ؛
عظائمُكَ حزينَةٌ .

والرَّحِيلُ الأَكْثَرُ مَدِيحًا يَمِزُّقُ بين يديكَ أَمَلَ الكَلِمَاتِ ، مُنْشَدِهَا
بِأَصْغَاتِكَ إِلَيْكَ كَأَنَّكَ تُعِينُهُ على مَدِيحِ أَخِيرِ .

وبإيماءات مقدوفة كُنُوى الكَرَزْ تعبر البهوَ ذاته ، الذي تتقافزُ التصاويرُ
من رُخامه ، حَيَّةٌ ، تعيدُ إليك الظلامَ التائه ، المجلجلَ بخلاخيله الكبيرة
على صَدْرٍ ثور نيسانَ ، ويعيدُ الفلكيُونَ غورهم إلى الحدائقِ التي تتبادلُ
مكائدها القمريةُ في ندائكِ القمريِّ .

بإيماءات كأقدارِ التائه تُلهِمُ التماثيلَ التي من جِصٍّ أن تفتحَ الجدارَ
لتلمحَ قلبك يُهدي الظلامَ إلى ألقه ؛
الظلامَ المُتَرَفِّ ،
المُخَيِّبِ ،

شقيقَ الخُدعة الأكثرَ كمالاً ؛

الظلامَ ذاك ، المدقَّقَ في الأرقامِ الكبيرة التي تُوحى ، مختنلةً ، إلى
البياضِ العاكفِ بأقلامه على لوحِ المعماريتين .
لتلمحَ الظلامَ الذي يَخَيِّرُ كالمذبةِ يجرُّ فراءَ الكونِ .

أظلكَ حزينٌ ؛ أعظامُك حزينَةٌ؟

هَبْ أنك أغويتَ كلَّ شَكْلٍ ،

ولممتَ بمنكاشِ النهارِ الحديديِّ أعضاءَ الليلِ المبعثرةَ على سريرك ؛

هَبْ شَقَقْتَ المعاني من تلايبيها ، ودفعتَ الغدَّ ، خلْسَةً ، بيدك

ليتهاوى على الأدراجِ المنحدرةِ ، إلى كمائنها ؛

هَبْ جمعتَ إليك المذعورينَ ليقتسموا رثيتكَ اللتين من حريقٍ ،
وطَحَنْتَ الأزلَ في أجرانِ المجرَّاتِ ، مُقْتَدِرًا باقتدارِ الحُمى ذاتها ، المنزلقةِ
بدلافينها الصلصاليةِ إلى الحبرِ ؛ هَبْ هذا :

لن تَظُنَّنْ رَجَاءَكَ إِلَّا نَسَخًا مِنْ رَقِيمِ الْفِرَاعِ الْجَابِي .
فَأَعِدْ ، أَيُّهَا الْمَطُوقُ ، مجازاتِ الشُّكْلِ لِيَنْجُوَ اللَّوْنُ ،
وَمَوْءَ خَنْدَقِ الثُّورِ بِشِبَاكِكَ مِنْ ظِلَالِ الْقِيَّافِينَ ،

ثم دحرج الخرزة ذات الحِرْزِ عَلَى لَوْحِ الْهَاقِيَةِ ، حيثُ النَّشَاتُ النَّائِمَةُ
فِي شِيفَافَاتِ الْيَقِينِ الْكَبِيرِي حَالِمَةٌ بِبِرَائَتِنِ مِنْ نَحَاسٍ ، ففِي يَأْسِكِ نَجَاةٌ
الْأَكِيدِ ، وَفِي انْشِغَالِكَ عَنِ الْأَقْدَارِ تُشْغِلُ الْأَقْدَارَ بَوَسَاوِسِهَا .

وَأَنْ تَحَيَّنْتَ صُعُودًا بِخَوْذَةِ الْمَوْتِ إِلَى الْمَادِيَةِ أَقَلَّتْ مِنْ يَدَيْكَ حَصِيٌّ
جَمَعْتَهُ صَقِيلًا مِنْ مَتَاهَاتِ الْأَعْمَارِ ، وَرَزَزَتْ سُتْرَةَ الظَّاهِرِ الَّتِي عَلَيْكَ ، مِنْ
عَنْقِكَ حَتَّى هِيَائِكَ الْأَبَدِ الْعَارِيَةِ ، لِأَنَّكَ - الْآنَ - مُهْدَى مِنْ أُمُومَةٍ إِلَى
أُخْرَى ، فِي النِّعْمَةِ الَّتِي تَتَدَبَّرُ لِلْهَبَاءِ اسْتِدْلَالَهُ وَأَسَانِيدَهُ ، وَتَرْفَعُكَ فِي
الْبُرُوعِ الدِّمُومِيِّ إِلَى عَوِيلِ الْحُصُونِ ؛
لِأَنَّكَ مُغْضِلٌ تُسْتَوْحَى بِالْخِلَافِ الَّذِي فِيكَ . أَيُّهُ :
لَقَدْ فُذِّيتَ بِفَجْرِ الْمَلْبَرَةِ ، وَبِهَتْكَ كَثِيرٌ .

أُبْلَهِيكَ رَحِيلٌ ، وَالرَّاحِلُونَ يَسْتَوْفُونَ الْمَقَادِيرَ بِعَلَامَاتٍ مِنْ مَلْحٍ ، أَيُّهَا
الطَّلِيْقُ؟

يُؤْتِي إِرْتُكَ مِنْ جِهَةِ الدَّوِيِّ ؛
يُؤْتِي إِرْتُ الْغَرِيبِ مِنْ جِهَةِ الدَّوِيِّ ، أَيُّهَا الطَّلِيْقُ .
فَأَنْسَ أَنْكَ جَسَارَةً حِينَ الْجَسَارَةِ دُعْرُ يُرْمَمُ الْأَقْدَارَ ،
وَتَفَكَّرَ كَمَا يَقْطَعُ تَمَاجُجَ فِي لِهَاتِ الْأَحْتَاشِ ، لِأَنَّ الْمِيَاءَ هَلِغَةً ،
وَالْجَمَادُ يَنْحَتُ سَكْنِيَّتَهُ بِأَلَاتِ كَهْمَسِ الْمَشَائِئِينَ .

ثم دحرج الخرزة ذات الوسواسِ الكريمة على اللوح :
إنها الشهوات تنقرُ بأناملَ رشيقة على عتلة ميزانها ؛
إنه الحاضرُ المقرونُ في سلاسله المرجانية يتصيدُ جدالَ الغرقى .
وكأضلاع الفيل تتوازي المجازرُ ، صاحبة ، تفرغُ بملاعقها الصّحافَ المليئة
بالأرزُ ، حيث تطفو على شفقِ الرؤيا غماماتُ من السمنِ ، والخليقة تنفخُ
بأفواهها الجليدية على حساء الأبد .
مُلهَمٌ أنتَ ، أيها الطليقُ كرحيلِ ،
ويؤتى غدُك من الهاوية ؛
مُلهَمٌ ، يؤمى ظلكَ بقبعاتِ المرحِ ،
وتولّى أفعالَ الحظوظِ كلّها ، والمفاتيحَ التي من خواتيمِ مُقفلةٍ .

هي :

العارفون يحملون في جيوب معاطفهم كستناء الحريق ، والحياة كي
ترتقُ بسبورٍ من أحشاء الغيلمِ ، لا أن تُحتَمَلِ .

هي :

ناموسٌ يهدى في تُوبال الحديد ، فَتَسْوَلُ عتيقًا من طالع النُشأة ،
سهركَ سَهْرُ المكانِ ؛ أَلَمَكُ مُرْسَلٌ كحنينِ الملوكِ . وبكَ تجوى المُشكَلِ
تتقصّى المكاشفاتِ إلى مَهَبِهَا .

فأعدُّ الوليمةَ من أخلاطِ الزئبقِ ونفاسِ الرملِ ، كي تحضّرَ الوحشةُ
مُترَفَةً في أصفادِ الجوهرِ . واحكُ ما تشاءُ من فروقِ الخفيِّ فالسَاءُ في خيرِ ،
والليلُ في خيرِ ، والفجرُ في خيرِ ، والصبحُ ، والظهيرةُ ، ومِللُ الشفقِ كلّها
في خيرِ يشقُ بمدبته الأزلَ من نُدْبِيه .

أعدّ الوليمةَ كما يليقُ بأسرارٍ أن تُعدَّ ، وانثرْ للحقيقةِ السارحةِ خلف
الثيرانِ برسيمها ،
فأنتَ مُؤتمِنٌ في معازلِ الظاهرِ ، وألمكُ البستانيُّ يستدرجُ الحدائقَ
إليكِ ، حيثَ الخفيُّ يتماوجُ ، كعنقِ النُّعامِ ، من فوقِ السورِ ذي الحجرِ
المرصودِ .

وتكتمُّ على المُعلنِ :
«لا يابسةٌ تنتظرُ أحداً ،
لا هواءٌ ينتظرُ ، أيها الغارقون» .

بمنجنقياتٍ طاهرةٍ يدكُ الإرثُ قلاعَ الوقتِ ، وفلكاً بعدَ فلكٍ يتهدلُ
السُّرُّ المُوحي ؛

جحيماً بعدَ أخرى تقضمُ المجازاتُ رغيَها الباردَ ،
والراحلون لا يحزمون للنهايةِ إلا قرائنَها ، كأنهم ينحتونُ نُصبَ المكانِ
من مياهٍ ليحتكموا إلى الحريقِ .

لا . لا تتكتمنَّ على المُعلنِ :

«أيها الراحلون خذوا نداءكم .
أيها الغرقى خذوا الأکیدَ الذي لم تحتملهُ النُّبوءةُ» .
بمنجنقيات يدكُ البهاءُ مرسى فُلكه ،
وبأيدي كحريِّرِ الأغاني تخنقُ المعجزةَ دهاقنتها ،
فهلأ تعافى المُعضلُ أكثرَ ليُهدي ولأتهُ قِطافَ الحمى؟ ،

هلاً أنتدبَ القناصون على مشارفِ الصباحتِ كلِّها ، تعصُّ ظلالَهُمُ
المشيئةَ بأَسنانِ أيلولِ الكاهنِ؟

يا للمعاتباتِ :

كما هداية ؛ -

كما لو أن العاصفةَ هكذا ؛

كما ما يُكوِّرُ من خَزَفٍ ؛ -

يُغرِّرُ الأملُ بالموازينِ ،

وهو يطعمُ الهَوْلَةَ كَبَدَهُ السُّكَّرِيَّ .

أما الحياةُ فليستْ لِتُحْتَمَلَ ، بل تُعصى .

وما أنتَ ، على آيةٍ ، لِيُضْمِرَكَ الظاهرُ؟ تورياتٌ تخطيطُ جَرَمَكَ المُقْتَسَمِ .
هيكلٌ هكذا . أبداً صَيَّفٌ - تضربُ حيتانَ القَيْظِ فيكَ شِعَابُ النبوءةِ
بأذيالها . ولئن كُشِفَتْ ، في امتنانِ الظاهرِ لِعَرَضِهِ المُحْيِي ، كانتِ السهولُ
حديثك الخافتَ ، والمغاوِرُ ذئابك النبيلةَ إلى الحياةِ . لئن بَسَطْتَ نسيجَكَ
بَسَطْتَ للتورياتِ منابتها في الرسومِ مُطرزةً كالخالقِ يشقُّها التَّنينُ الصِّلصاليُّ
هاربًا .

رسومٌ جريحةٌ كلُّها ، مؤثقةٌ باليافِ من خيالِ الكمشريِّ ، وعَضَلِ
كفجورِ التينِ ؛

رسومٌ صلبةٌ على أبواقِ المياهِ ؛ - المياهِ الغريقةِ في ندائها .
فلا تتمهلنْ ، بَعْدُ ، في التدبيرِ تَدْوِمُ كيعسوبِ المَطلقِ . فَكَّكَ الألةُ
النورانيةُ ، وافتحْ لِصِباعِ المجرَّةِ الثالثةِ بواباتِ الهيكلِ : «لقد خُدعَ الوقتُ ،
والحبرُ يتجاهلُ انتحازَ سَطوره» ، قلِّها ، ريشما توقظُ بروقُ القَتَبِ ، وحدها ،

تحت حوذة النبات ، عقاربك الفضية التي تتغذى بنقوش الدروع .
ويلهو يبتكر الحاضر نسمان لا يهتدي إلى مصباته ؛
بهرطقة من نور فلتصغ التحية كل صباح ، وأنت تصغي إلى عراقك في
الريح ، وتمسح بشحوب عمرك كذمات على عضل الغنيم .

لا أنت راحل ،

لا الراحلون راحلون :

إنها المسافة رضيع بعد ،

والتيه حاضنته الأسيية .

لا .

ينهض الغبار بدعاء مغسول أمام قلبك ، فيما تجر أثاث الحقيقة خارجاً
ليعود الخلاء إلى يقظته . وتنزع التصاوير عن الجدران ، قاذفاً حقائب الغد
من الشرفة إلى ماضيه : «القيامة تهدي بخيار» تقول ، «والموتى لا يومنون ،
بل يُصافحون» ، كأنك مُمتن لهذر الحكمة ، وأنت ترى مُحطمي أضلاع
وترقوات يقودون العراك إلى اللانهاية .

يا لمعاتبات المعنى :

فناء يعوض بقاء ،

وصريز عادل ينبعث ، عاليًا ، من مصاريع البيان العادل ،

والسياقات باردة كجدال ،

فلا تتمن للظاهر فتكاً أكثر ، مُذ عولت على النهاية أن تعيد إليك

كماتك التي تختزن مني الرعد ؛

لا تتمنُّ للموت جَسَارَةً أَكْثَرَ ، فالقتلى نادمون ، وهم يخرجون من
الأغاني ضارعين إلى الحياة أن تترث في انتصاراتها الفاحشة ؛ ضارعين
إلى الهلاك المُحْيِي ، أبعدَ من غَدِ القَتْلِ ، لأنهم سائرون - مثلك - إلى
المدبح الذي يحزُّ بأنيابه القويَّةَ وريِّدَهُ القويَّ .
أَغْنَمُ أبهى؟ :

بُشْرَى دُعَابَاتٍ مِنَ الشَّرْقِ إِلَى الشَّرْقِ ؛
مَكَانَسُ ذَهَبٌ ، ذَبْحٌ ذَهَبِيٌّ ،
وَالأَمَلُ مَعْتَكَفٌ فِي مِحْرَابٍ مِنْ شَحْمِ الوَزْلِ .

.. هِيَه

لَيْتَكَ ادَّخَرْتَ عَذَابًا أَنْقَى لِلسَّيْنِ تَتَجَرَّدُ ، الآن ، من حظوظها ،
ضَهْيَاوَاتٍ لَا تُرْضَعُ ، أَوْ أَكْرَمْتَ الوَجَعَ كَأَب . حَرِيصًا عَلَى الخِسَارَةِ تُعَيِّرُ
الغَيْبَ المَارِقَ صَحْوَتَكَ ، وَمَلَاعِقَكَ ، وَصَحْوَتَكَ بَعْدَ قِيلُولَةٍ كَقَفْزَةِ النَّمْسِ .
هِيَه :

نَدَى سَاخِرٌ عَلَى العُشْبِ بَيْنَ حِجَارَةِ المَشْيِ ،
وَالسَّمَاءُ مَنكِبَةٌ عَلَى نَهْشِ السُّلْجَمِ .

فَلَا يَذْرِفُنَّ العَنْبُ حَنِينَكَ ، لِأَنَّكَ جَالِسٌ إِلَى المَائِدَةِ ذَاتَهَا ، الَّتِي
تَشْهَقُ أَمَامَهَا العَجْزَةُ - هَذِهِ البَاقِلَاءُ المُمْلَحَةُ . لَا يَذْرِفُنَّكَ الرَّحِيلُ مِنْ
عَيْنِيهِ يَوَاقِيَتُ ذَابِتَةً . أَنْتَ مَا أَنْتَ ، عَنوَةٌ يَغْدُقُ اليَقِينُ عَلَيْكَ بِهَاءِ اليَأْسِ ،
كَي تَعْمَمَ - بِجِهَالَةِ المَرْتِي - فَتَوَى السِّيكَرَانَ .

أَسْفِيذَاجُ شَهْوَاتِكَ ؛

حريقٌ في كلِّ مُدْرِكٍ ،
والنداء ، الذي يرمي وسائذَ الغيبِ إلى الفردوس ، يطرقُ السطورَ
عليك ، كأنك سَيَّافُ الحَبْرِ بالْعَتَ في الأَكِيدِ حتى تقطعتِ الوشيعةُ شتَّى
بين الأشكالِ ، ومزقَ الوقتُ سراويله الكثنانية .
ويطرقُ الجمادُ عليك ، أيضاً ، برازخَ الهولِ : «عَمَتَ يقينًا» ، فتَهْرَقُ :
«لا قَسَمَ الآنَ . هَرِمَتِ البَيْعَةُ ، والألمُ ليس على ما يرام» .

يا للألم - شفيعِ المحنةِ العذبةِ ؛
يا لَشَقِيقاته !
يا للجمالِ البهلولِ :
سَطَّوْ يَعِيدُ الخفيُّ إلى صوابه ،
والجهالةُ تَسْتَظْهُرُ آياتها .

فَأَوْثَقَنْ ما يُسْتَوْتَقُ ، وَأَرْجِءْ أن تدفعَ حَيْدَ الشفقِ إلى أيدي
القَيَّافِينَ : إن الذي عليكِ سياقُ الظاهرِ : «لن يصلَ أحدٌ إلى أحدٍ» .
والكمائِنُ تَتَشَكَّى : «حَيْلَةُ بَيْغَاءٍ» . قاءااس هذا .. .

«يا المُكائِنُ تَرَوُ» :
إنَّه الألمُ الهدايةُ - الميثاقُ الكَلْبِيُّ ،
الساهرُ كالعَلَلِ على النَشْأَةِ الكَلْبِيَّةِ -
يعينُك ، بسراجِ الزيتِ ، أن تعبرَ بَهْوَ العرقى وهم يَصْغَلُونَ الألواحَ
البازلتيةَ ، قابضينَ بعضَهم الباذخةِ على المجاذيفِ .
إنَّه الألمُ ، أيها الطليقُ ؛ -
الألمُ الموسي ، الذي - كَنَسِيسانٍ - يروِّضُ الشُّكَّ ؛ أم تُراكَ عَرَّزَتَ

بالمناهة فأويتها ، واعترفت : «لا طريقَ إلى مكانٍ؟»

جدوزكُ الظلالُ ، أيها الطليقُ كالتعبِ ،
والأرضُ حَبْرٌ .

نيقوسيا - كانون الثاني ١٩٩٤

١

إنها البراهينُ الحمى ،
وأنتَ تظللها بالحبرِ من تهتكِ اليقين ،
وتُوقِعُ بالكلماتِ لتغفوَ البراهينُ على شجارها .

لا دَيْكَةَ هنا ،
لكنها أعرافُ النارِ المتمايلةُ كأعرافِ الديكة ،
والوجودُ المارقُ يروِّعُ السياقَ المكنونَ للظهوراتِ .
لا بلاءَ هنا إلا من وَرَدَ ،
لا مِرْزاقَ طائشاً إلا مِرْزاقَ الكونِ ؛
والبرقُ زرايةُ الليلِ بالمكان ، ثم ، والمياهُ هُزُوٌ ،
فمالكِ تتلقَّفُ المشيئاتِ بشعاعِ منكبٍ ،
وتُغدِقُ على الألمِ إيمانَ المساءِ ؟

٢

مرحى أيها الرهائنُ المغلولُ :
ها العَدَمُ ، نازقاً ، يَتَبَسَّمُ لأحفاده .

أَمَلِكْ أَمَلَهُ ؛

كلاهما نعتان في الدفء الذي يُمتدح .
وتُهدران فيجمعكما البيهقي ،
كان مجازاتكما غرور الشعاع الأكمل في سفاحه .

الطُرقُ اجاصٌ على شجرات الصباح .
فإن هَرَوَلَ المكان ، مُتَرَيِّضًا ، هَرَوِلٌ أيضًا :
أمامكما دراجات الأزل ،
وعلى أكتافكما أكياسهُ الفارغة .

كي يشهق الترف ؛ كي يكون العدم أنقى :
لهذا تخون الثور ،
مُصْنَعِيًا إلى مشاداتِ الثعَمَى فوق أدراجها .

أَعْطِهَا قُبْلَكَ ،
شقيّة لا تهتدي إلى حريقها .
أَعْطِهَا الوقت ، الذي ضارعًا يؤكدُ ليديك أنه المُعَذَّبُ .

لا تُكرانَ ،
والحياةُ رَقْمُكَ المستور .

أُفُقٌ هذا ؛
أُفُقٌ ذاكِ :
كلاهما عانةُ الريح .

معاً :
أنتَ ، مُخْتَلَسًا من قرائنِكَ الأخرى ،
والقديمُ النَّاصِحُ في خَلِّهِ القديمِ .

عاد الحجامون .
الإرؤُ غاضِبٌ ، والرياحُ تنخِيطُ مسدودة الغلاصم ،
فلا تلبثنَ في الفَرْعِ الأنيقِ ، هكذا ، تُدَحْرَجُ الفراغُ خصيةً خصيةً
على الجُسُورِ ، وترمي من صدوعِ الأبديةِ خواتيمك الأبديةِ .

ولا يكوننُ لك عنادُ القطيعة ؛
لا يكوننُ للقطيعة في يدك وِبَرُّ البُرُوعِ ؛
هيَ ذي السيفُ المغسولة كُلِّها بمنى الموتى ،
والأحافُ التي تتكسّرُ ، في خِفَّةٍ ، تحت نَفْحِ العطارين .
هيَ ذي الألسنُ ،

الأحاليِلُ ،

الكَلَى ،

الأكبَادُ ،

الرُصْفَاتُ القاسيةُ ،

في سياق من النُورِ مثل حوافِرِ البَعْلِ ،
والأُمَمُ - مَخْلُوجَةٌ - تنناثرُ فوقَ العاناتِ الكشيْفَةِ للهِوَلِ .

وقطارٌ واحدٌ ،

مُنحدرًا من بحيرةِ «وان» إلى الإسكندرونة ،

يحمل في مقطورتِه الثامنة قلبَ «شمدين» الضاحك لكَوَجَرِ الغيمِ ،

الذي ، مَرِحًا ، يتمرُعُ فوق أرضِ «بوطان» والبحارِ الغريقة .

الجهاتُ تتقوُضُ ، صامتةً ، كصناديقِ البَنْجَرِ ،

والغضبُ - فَتَاكُ الضاحكُ لا يتعشَّرُ قطُ . رشيقًا ينهب أسواقَ

الأسلافِ بكؤوسِ الشاي ، ويجرُّ حوانيتَ البُقَالين ، كماعزٍ ، إلى مسالخِ

النُورِ .

الشفقُ رَغيفُكَ في جهاتِ «موزان» ،
والغيومُ طبولٌ .

المكانُ طَلْقَةُ الخيالِ التي تُرَدِّدُكَ ،
للتعافى حُرّاً ، حيثُ المتأهُ رَجَاءً ،
والكونُ يَغْطِي بِأَسْمَالِهِ نَوَارِجَ اليقينِ ؛
حيثُ الحروبُ ، نَقِيَّةُ كَفَرَاءِ السنجابِ ، تتماوجُ في الهبوبِ الرَّحِيمِ
للجدلِ ، ويتأهَّبُ العَدَمُ - هذا الجناحُ الأقوى .

الكَرْدُ هناكَ ،
في دويِّ الطَّلْقَةِ التي تُرَدِّدُكَ لتتعافى .

المجابهات؛
المواثيق الأجران؛
التصارييف، وغيرها

اللُّوحُ (إِغْمَاءَاتُ الْكَلْبِيِّ)

لا ألم؟

قلبي غريقاً يجيرُ إيماني الغريقَ .
رثائي تحيرانِ الهواءِ ممزقتينِ في هبوبِ أنقاضِي عليّ .

لا ألم؛

خُدعةٌ عذبةٌ كلُّ هذا ،

وصدَى قويٍّ لحوافِرِ الأرضِ على حجرِ السماءِ ،

فابقِ طفلاً حفيدي - أيها الوقتُ ، وترعرعُ ، أنتِ الشاغرةُ ، على
شهواتي تكنِ أكيداً ؛ ترعرعُ على الممرِّقِ النبيلِ ؛ على ماكنته موحىً من
العارِضِ على العارِضِ ، لأنتِ تدومُ إذ تَنْتَزِعُ عنوةً من الضروراتِ -
أخواتكِ ؛ واصعدِ معي درجاتِ القبرِ إلى أبوتي حيثُ الأبديةُ مغدورةٌ
تتماثلُ للشفاءِ .

لا ألم أيها الوقتُ :

شروقُ قبرٍ ، وكلُّ شعاعٍ كالكفنِ : اصغوا إلى القَبْلِ موجعةً تتناهى
من الظلامِ النازفِ ولا تجادلوا بفمِ النبوءةِ بل بفمِ النسيانِ ، يا الذين
يسترذِّكم الجدالُ من شقاءِ الأكيدِ تتلمَّسون بعصيتكم كماتِ الحكمةِ ،
وتتكونون على الغدِ نازفينَ الوقتِ من جراحِ العذوبةِ ، كأنكم تمرِّضون القبرَ

أن ينقذَ الخلودَ ، وأن تترفّقَ المشيئاتُ بمثاقيلِ البَدَدِ الحيِّ . لا أَلَمَ . قبرٌ تنزفُ
السماءُ من شقوقه صمغاً صلصالاً . شروخٌ رقيقةٌ في تينِ النبوءةِ الناصحِ ،
ولحمٌ يتهدّلُ إذ تهتدّلُ الحياةُ :

(الدرّاجون يقذفون بصحف الصباح المرزومة إلى الأبواب ،
من سطور الهواءِ الحبرِ ، والمصادفاتُ مرزومةٌ تُرمى .
سارقو الآلاتِ الحاسبةِ يطرقون البابَ نادمين قليلاً ، غاضبين
من المصادفةِ التي وشتَ بهم إلى حنينهم الهاربِ .
لا تظلموا أحداً . لا تظلمنَ أحداً) .

٢

برقٌ يشيرُ اللُعبَ . شقائقُ عمياءُ تقودُ الربيعَ أعمى إلى الجسرِ :
«كنت أبا أيتها الحقيقةُ .
بعلكِ النهايةُ يستجيرُ بالأنثويِّ كي يحمي الذكْرَ الذي كُنْتِهِ ،
والخُصَى ، هذه التي بين يديكِ ، تتدلّى من العَمَاءِ المُحيي ، حيث
الشهواتُ ترتقُ العَدَمَ المُمزقَ بخيطِ الخالدِ» .
برقٌ يشيرُ اللُعبَ ،

حَفِصٌ حجريُّ ،
نفاسٌ حجريُّ :
أعطني أيها الوقتُ ، ما ادخرتهُ لي .
أعطني ما كُنْتُهُ ؛ ما رُوِّيتُ - بالهاميِّ إِيَّاكَ - على ظاهرٍ ؛
أعطني الخرابَ عادلاً ؛ حوارِيكَ أرقاءَ كالنسيانِ ، يا وقتُ ، يا

حفيدِيّ، واسرَحْ أَكُنْ لَهوِكَ تَعْضُ العُتْبَاتِ بِأَسْنَانِي عَضًا رَقِيْقًا، وتَعَابَتْ
الكَمَالُ الطَاهِي .

أَعْطِنِي العَرَقَ فَيْكَ، أَنِنِي مَا يُكْنِي خَلْبًا؛ مَا يُؤْخِذُ كَمَا الْمَكَانُ هَازِلًا
فِي الْمَتَاهِ . هِيَا :

لَا يُؤْتَمِنُ الْجَوْهَرُ؛

لَا يُؤْتَمِنُ أَزَلٌ يَتَسَكَّعُ فِي الْمَغِيْبِ .

٣

لَا أَلَمَ؛

سَاعَاتٌ تَعَالَبُ فِي أَوْكَارِ الْكَلِمَاتِ .

جَمَادٌ طَلِيْقٌ، يَا وَقْتُ . حَذَارِ :

إِنَّهُ حِصَادُ الْبِرَاعَاتِ يَدْقُقُ فِيهَا الأَمْلُ الأَجِيرُ .

حَذَارِ :

الضِيَاءُ أَدْرَدَ يَعْضُ رُسْنَيْكَ -

(لَا عِرَاقِيْلَ : مَنَاقِصَاتٌ لَاسْتِشْجَارِ الْمَوْتِ؟ يَشْتَكِي الدَّرَاجُونَ
مِنَ الصَّبَاحِ مَحْزُومًا كَمَا وَرَقٌ؛ مَحْزُومًا كَمَا الحَبِيرُ . أَيُّ يَشْدُ الصَّبَاحُ
الثَّوْرَ مَن خَطَمَهُ إِلَى مَجَابِهَاتِ الحَقْلِ المُسْكِرَةِ؟ يَشْتَكِي الدَّرَاجُونَ :
«صَبَاحٌ يُصْفِي إِلَى نَيْمَةِ الثَّوْرِ»، وَيَقْدِفُونَ بِالصُّحُفِ مَرْزُومَةً :
«حَذَوْهَا : الحُرُوفُ صِيَارْفَةٌ، وَالسُّطُورُ أَقْفَالٌ وَخَزَائِنُ، وَأَنِينُ رِخَامٍ
يَنْكَمِشُ عَلَى دَهْرِهِ الصَّقِيلِ» .)

٤

عَدَمٌ مُجْرَبٌ يَكْسِرُ البُنْدُقَ بِأَسْنَانِهِ، أَيُّهَا الْوَقْتُ؛ أَعْطِهِ خَيَالِكَ،
خَيَالٌ مَشَادَةٌ كَالرُّمَانِ، أَعْطِهِ سِرَاوِيْلَكَ الحَدِيْقَةَ . لَا عَصِيَانَ لَكَ . لَا دُرْبَةَ

في عصيان . لا يعتريك غيرُ ما يعترى الأفولَ من جاذبه الألقى . وحشوكُ
ما يعرضُ العدمَ من كستناء على الجمر ، يا وقتُ . وأها . عَرَضَ مَشْمُولُ
بالحق . عَرَضَ حق . فُرُوجٌ مَقْدُوفَةٌ إلى المرح . قلوبُ تنهشُ التعبَ مَكْتَنِزَةٌ
باليقين المَزِيدَ كَشِدْقِ الثُّورِ .

عَضُّ الضَّرُورَاتِ ، يا وقتُ : تخلو إلا من غدٍ مسترشدًا بالأكيد التائه
يُوثِقُ المشيئةَ ؛ يُوثِقُ آتِيَهُ . مُعَادَا كَهَبَةِ أَنْتِ ، تَشَقُّكَ مَدِيَةُ الكِهَانَةِ فَيَنْدَلِقُ
المكانُ من فتورِكَ مُعْتَصِرًا في قبضة الثور الخشنة . أَنْ تُرْتَجِي تُرْتَجِي
القَهْقَهةُ ، فانظر الفجرَ الذئبةَ ؛ الفجرُ بأثدائه الستة ، مغمسولاً أنثى ، مُنْتَهَكًا
بالمُخَصَّبِ الأزلي ، يجالسكُ أيها المتوَعِّكُ من العافية .

أَلَا بَعِثْ حَلَوَاكَ على المنضدة . بعِثْ طحينكَ القمري ، مُعْمِضًا ذَهَبِكَ
على النقوش التي يحفرها المرثي عميقةً بمخالب النسيان . ولا تتخاذلنْ أَنْ
تُذَاهَمَ بالعابر . يبقى لك أَدَاةُ المشيئة لا ينتعظُ ولا يلجُ . يبقى لك الهواءُ
مُعْتَصِرًا من خصيته الأزلية .

مرايا طائشةٌ تعيد إليك الشكلَ منقسمًا على امتثاله الموحى ، وكمالُ
يلتهمكُ في وليمته الفاحشةِ يا وقتُ . وتُملَى بنقوش من الموت على
نحاس صبرف ؛ تُملَى على الأمل لتشقى شقاءك المُرْسَلِ ، خالصًا ، شاتك
شأنُ العَبَثِ يَرْتَجِلُ الأبهى . هَيْتَ لَكَ ، لا يواسيتكُ أكيد . سِفَادُكَ
المغاليقُ ، والحياةُ عِنْتُكَ :

«قَطْعَ البصلِ في رفقٍ ،

قَطْعَ الكبدِ النيءِ ،

والمساءِ النيءِ ،

والكلمات التي لا تدرجُ قلبك إلى الفضيحة .

قَطْعَ البصلِ رقيقًا ،

واعذُرهنْ نساءَ السفحِ هناك ، لا يستضيفنكُ ،

مشغولات بدجاجاتهن .
اعذر هؤلاء القتلى يتوعدون الحياة بنكالٍ عذبٍ .

بصلٍ كثيرٍ .
عزاء كالفتنه ، وقروح كالصبر .
ذرة تغلي في قذور الأرواح ، أيها الأبدىء .

٥

متكئا على خرائبه المرحه يرصد الوقت نعامه الفراغ . فإن ترنح مس
البرازخ بكفل جمان ، وإن اعتدل اعتدلت الضرورة . هذر يجبي من الفراغ
إلى خزائنه ، ومعدور هو في كساد الفرض . دليل عليه عقله الطيف . دليل
عليه أن لا ألم يريني الوجوه مجلوة بالزئبق ؛ بانعكاس الفراغ على
حدقاتها . ويمس أن يمس الفناء الذهبي ، المتحدث من مشارف
الضرورات بلسان الترهة الذهبية :

«لتكن دجاجاتك مرحة ، أيتها العافية .
ليكن قلبك مرحا هذا الصباح المتكتم كنبى .
لتكن الحقول مرحة ، تدون الثروات خضراء .
ليدخل الرجال العرصات ،
يمضغون أعواد السنابل تحت شواربهم الكثة ،
ويرتشفون الأزل ذائبا في شراب البابونج .
ولتدخل التماثيل غضبي إلى السرادق ،
في أيديها أفاصص ، في الأفاصص ظلأها المختنقة ،
وأرقها المنشد .

عُضِّي، أيتها العافية، على أناملِ الوقتِ طويلاً كي تُعيدني المكانَ إلى
حَنِينِهِ . . عُضِّي .

٦

حَيُّ هَذَا الْقَدَمُ،

وَالْقَتْلُ بَيْعَةً، يَا وَقْتُ،

وَالألواحُ كما عَهَدْتَهَا شروخُ، تُسْتَنْسَخُ فِيهَا حُرّاً كحجاب، طليقاً
كالغيبوبة، فانكشفَ عليّ من غبارِ مَرَقومِ في الأفلاك، حيث يتولّى
شئناكَ الجبأةُ المذهولون. وَالكَ، يُنْجِدُكَ الأَرْقُ أَيها الوقتُ؛ يُنْجِدُكَ اليأسُ
العارفُ، مدوّنُ العَلَلِ، الصَّبورُ كعذابِ صَبور:

(يُنْجِدُكَ يَتَدَحْرَجُ عَلَى النَشِيدِ . شَفَقَ هُدْبِي . كَلِمَاتُ يُضَعَقُ
فِيهَا الذَّهَبُ، يَا بِنَاتِي . التِّيوسُ نَاحِلَةٌ مِنْ سَفَادِهَا، وَمَوْحَى إِلَى
الألمِ أَنْ يَتَضَاعَفَ حَتَّى الإِعْيَاءِ . لَا نَجَاةَ لِلأَمَلِ بَعْدُ إِلَّا جَرِيحًا . يَا
بِنَاتِي، فِي حَقولِ البِقَطِينِ يُمْلِي البَرَقُ عَلَى قَلْبِي سَطْرُهُ المُمَزَّقُ . مَا
هَكَذَا تُخْتَطَفُ النِّهَايَةُ . مَا هَكَذَا ارْتِدَادُ الفَنَاءِ عَنِ خِيَالِ مَوْحَشِ .
حِذَارِ، النَّدى يَلْفَقُ لِلصَّبَاحِ أَعْدَارَ الوَرْدِ، وَالْمَدِيحُ يَسْهُو - فِي
المُعْتَرَكِ - عَنِ كَلِمَاتِهِ . يَا بِنَاتِي ابْتَسَمْنَ لِأَنْيَابِ النُّعْمَةِ وَأَضْرَاسِ
المَكُونَاتِ . جِثٌّ فِي الغَيْمِ؛ فَرِاشَاتُ وَأَكْبَادُ . غَدُ طَلاءُ يَتَشَقَّقُ
تَحْتَ العَانَاتِ . غَمَامٌ شَهيدٌ يُوَارِي فِي الوَرْدِ . أَوْلَنَ المَاءُ؛ أَوْلَنَ المَاءُ
أَوْلَنَ الظَّلَامَ الطَّاهِرَ كَمِخْنَةٍ . لَا تَقْلُنْ هَذَا عِيَاءَ الجَوْهَرِ مُنْقَاداً لِهَذَرِهِ
الكَثِيرِ . غَيْبٌ خَجولٌ يَتَدَرَّبُ عَلَى أَمَلِ خَجولِ، يَا بِنَاتِي . الحَرِيقُ
يَطْفِئُ النِّهَايَةَ المُشْتَعَلَةَ . يَا بِنَاتِي . الفَرَقُ لُقْيَةً، وَالْمَلائِكُ يَتَكْتَبُونَ
عَلَى التَّصَلُّ الأَقْوَى . أَيْنَ؟ عُدْنَ بِي إِلَى الأَفْعوانِ الشَّرَفِ أَوْقَظَ
البَلَاءَ النِّعْمَانَ، وَالبَدءَ فِلْزَةَ السَّيَّارِ مِنْ بَرزَخِ إِلَى بَرزَخِ؛ نَشَأَتُهُ

المُغيرة بسلاح المَدْرَكِ وصليل الجهات . عُذْنُ بي ؛ أراها القبابَ
تندفأ على المنى مُستَعْرًا بحريقِ الغيب) .

حيُّ هذا المُستوفى على البَدَدِ يا وقتُ ؛ زبَدُ عادِلٍ . وَالكَ . تُسْقَى
بمَصَارِعِ العَدَائِثِ ورُمَاءِ المطارق ، وعلى عَقْبِكَ أهراماتُ تَذْبُجُ رواقًا رواقًا ،
حجرًا حجرًا ، بِمِدْيَةِ المشافهة - مِدْيَةِ النَّدَمِ . ومنكَ الصرْحَةُ : «أَغَثَ الحَقُّ
يا فراغُ ؛ أَغَثَ الرَّمَادَ المُغْنِي» ، كَأَنَّكَ تتضاعفُ زرائبَ في فَنَاءَاتِ اللونِ ؛
كَأَنَّكَ الإسْطِطْلُ يُنْزَوُ فيه الخيلُ المحترقُ على خيلٍ محترقٍ . وفي خلائِكَ ،
يا وقتُ ، لِلأودِيَةِ صرَاخُ الخنانيصِ ، وللأَكْمَاتِ لهَاتُ :

(أوقدْنِ ، يا بناتي ، حطبَ الميموزا الرطبِ ، كي تخرجَ السماءُ
مستسلمةً من كُرْها - وكُرِ النَّبِصِ ؛ كي يقطعَ الدخانُ بمديته قديدَ
الشَّفَقِ ، ويعجزُ وبَرَّ الخيرِ . يا لِلخَيْرِ ؛ يا لِمَتَاعِ الخيرِ وسَلْسَلِهِ
الذهبيةِ . الحَقْنُ بي ، يا بناتي ، إلى الحجرِ نستوضِحه سَهْرَ الجمادِ
هكذا ، مَلُولًا كَأَنَّمَا اسْتَبَطَّ القضاةُ فسْرَحَ البراهينَ . الحَقْنُ بي إلى
الحصارِ الشفيعِ ، ونادينَ معي : طوَّقَ هامتكَ أيها العدمُ بعُصَابَةٍ من
القنْبِ لا يصدعُكَ ، بعدَ ذا ، هبوبُ . فها نمورُكَ مرثيةً في البلورِ ؛
عجلاَّتِكَ ولوحُكَ الأملسُ كنفخِ الله ، يا عدمُ ؛ وها هما قُقَازَاكَ
على سطرِ الشَّفَقِ الذي يدوُّهُ الشريدُ . ولا تقلنَ لي : تمتلستانِ
كفأكَ بالأبدِ ؛ قَلْبُكَ بالوحي المُغْفَلِ ؛ تمتلىءُ يقينَكَ بالهاريينِ . لا .
يدلُّني الفلْكَ العُقرَبُ ، السائرُ في غماماتِ الفيروزِ ، والحكمةُ
مهزولةٌ من نَزْوِها الكثيرِ) .

قَدَّرَ كحوصلةِ الديكِ ، وللمكيدةِ أحشاؤكَ يا وقتُ . للندی صرْعُكَ
يقشُرُ الصباحَ بشفرتِهِ كَاللَّفْتِ ، فاتبعِ الحَرْبَةَ إلى ما يُخرِقُ . أتبعِ المِكاشِفَةَ

التي يدحرجُ الخفيُّ بها أمومتَهُ العزلاءَ عليكَ :
إنهُ قَسَطُ الفيضِ الذي عَلِمَهُ عِلْمُ شرَاعٍ ؛
إنهُ قَسَطُ المياهِ تتشققُ من فؤوسها الريحُ .

لا دَنْسَ :

عَمْدًا يتوارى الظاهرُ ،
والدُّعْرَةُ ، طائرًا ، يَعْلَمُ الشروقَ مجازفاته .

لا دَنْسَ :

بعثُ كما صفيّرُ في الحَلَبَاتِ ،
والمجازاتُ ، محمومةٌ ، تَمزُقُ الأخيْلَةَ .

لا دَنْسَ :

هذا شَلْشَالُ الغَدِ وِرْدَاؤُهُ على عظامِ التيسِ الميتِ - تيسِ المشيثاتِ .

أكلُّما استدرتُ إليكَ ، يا وقتُ ، أبصرتُكَ لاهنًا ، تتصبَّبُ منك
الفروقُ باردةٌ ؛ تتصبَّبُ منك مَلَكَاتُ الظاهرِ؟ ذاتُكَ السادسةُ ذاتُ البزرةِ
مطحونةٌ في جُرْنِ النشأةِ . خِلافُكَ والأملُ يشيعُ ، في حياءِ ، تحتِ درعِ
المقدورِ :

مكأنَّ حليقَ كعانةٍ ؛

مهبلُ صليلٍ ، والأجراسُ خُصِي .

تلينُ ، يا وقتُ ، إذ تَلينُ العظامُ . أما لو زعمتَ ما يزعمُ الحَبِيبُ ، وادَّعيتَ
ما تدَّعي النقااضُ ، جوزيتَ تكتميلُ بشهوةٍ ، ويداكِ على صَفَاقِ الغبارِ
وكاذتِه . بَيِّدَ لا ترجمُفُ فيكَ عضلةُ الحريقِ ، ولا تُجاوِرُ المَدْرَكَ إلى مخيْلَةَ
النُورِ المزدحمَةِ بالكثافاتِ الصُّلْفَةِ . ويحَ البهاءِ :

سِفَاحُ الْحَقِّ فِي كُلِّ إِرْثٍ .
سِفَاحُ الْحَقِّ ،
سِفَاحُ قِرَائِهِ ،
أَثْمَتُهُ الَّذِينَ مِنْ نَشْأَةِ أَخْضَرَ ،
جَنُونُهُ الْمُقَوَّى كَدَقْتِي كِتَابٍ ،
مِساوَةٌ ذُو الْقِنَاعِ ،
رُعاْفُهُ ،
أُنْثِياءُ الْبَارِدَتَانِ -

(أيها الدُّورِيُّ الصَّامِتُ على شَجَرَةِ الْخَرْوَبِ أَيْتِهَا الْمَدْحَنَةُ ،
أَنْتَما تُثِيرانِي)-

تَلِينُ إِذْ يَلِينُ الصَّلْبُ الْحَيُّ يا وَقْتُ . خُصَّنِي بِبِئْسِكَ يا سَ الْمَعْلُومِ
يُشْكَلُ على إِرْثِهِ ، وَاتَدِينِي على الرَّمادِ بِإِثْمِ النِّارِ ، الَّذِي يَصْكَ اللَّطائِفُ
صَكَ الدُّهْرُ :

(تَحْبِطِي أَيُّهَا الْبَحِيرَةُ :
الْبَجْعُ يَذْبِحُ الْأَفْقَ بِأَجْنَحَتِهِ على مائِدَةِ الشَّمْسِ) .

وَجُودٌ مِساَلَةٌ . نِسْبَةٌ واحِدَةٌ لِلْحَدُوثِ الْكَثِيرِ .

(«سرابٌ مطهُوٌّ كما يَنْبَغِي» يَدُونُ السَّحَابُ الْمَهْرَجُ ، وَالْأَكاسِيَا
يَشْتَقُّ قَميصَ الْهَواءِ) .

لا تُخَصِّصَنَّ الْياقوتَ بِالنَّفْيِ ،

لا تُؤكِّدَنَّ الجَمَشَتَ يا وقتُ ؛
علَّتْكَ ما يجيزُهُ الدليلُ النَّائِهُ لِلتَّيِّهِ . أُصْنَعُ :
ضربَاتٌ بالمنجَلِ على مناقيرِ النَّحَامِ ،
والكِئِنَا يتبَاسِطُ والريحُ في تلفيقِ الظلِّ ، حَيْثَ الظلُّ ففخاخُ ، والمكانُ
طقطقاتُ عظامٍ في الفخاخِ .
أُصْنَعُ :
معدنٌ يبرُّوكَ من الشُّبُهَةِ : إمامٌ في الفِضَّةِ ؛ وليٌّ في الذهبِ .

٧

(يا بناتي ،
أيتها السنونُ النحيلَةُ كظلُّ أبي ، يا بناتي . .) .

٨

أفتِ يا برقُ ،
أفتيَ أيها القطيعةُ :
فِرْجَارٌ من صعترِ سُودِ الأقواسِ على اللوحِ ،
والغامضُ الشقيقُ ، مُدْرَبُ الشُّكْلِ ، يطلقُ حَدَاةَ الحَقِّ وبازِيَةً .

أتراني أهبُ النظائرَ ما يُنشِئُهُ الزَبْدُ؟ :
شَرَّخَ من غضبِ هذا ،
امتثالُ النهايةِ لِقضاءِ الوَرْدِ ، فأفتِ يا برقُ
أفتِ أيها الجمادُ الأرقُ -
وحدهمُ الغاضبونَ تهتدي بعبورهمُ الأقدارُ .

غراسُ هواءٍ . يُحكى . يُؤرثُ ما يُحكى يا وقتُ . كُفِرَ بِمَسْكَ ، كُفِرَ
الوردِ هذا المداهنِ ذي الإيمانِ اللّونيِّ . بِمَسْكَ طائفِ الخلقِ جريحًا بأرجاءِ
العَدَمِ الجريحِ . عَجَبًا :

يُوكَلُ الهباءُ كالكمثرى ،
وترمى إليك عظامَ المجازاتِ ؛
ترمى بك إليك ، مُمزَّقًا ، تُرى كَدَماتُ الفَناءِ على ثدييكَ .
عَجَبًا :

يُنَجِدُ الهولُ الكلماتِ فلا تتعثرُ بالمطلقِ مُغمى عليه .

فَلْيَنْقِضِ المؤوَّلُ يا وقتُ :
جلدٌ فَلْيَتَشَقَّقْ أَوْلًا بأوَّلَ .
فَلْيَجِفِّ الكبدُ . فَلْتَجِفِّ الرئةُ ،
وَلْتَهْرَأْ الغضاريفُ . فَلْتَنْتَفِخِ الأحشاءُ ،
وَلْتَمزِّقِ المفاصلِ أَوْلًا بأوَّلَ . -

(دعاءٌ كذيلِ السنجابِ) -

فَلْيَنْقِضِ المؤوَّلُ يا وقتُ :
ها أنا ، قريني قرينُ الأمدِ يُنْتَقِصُ هباءً أو يَزَادُ هباءً ،
وأبعثُ بالذي يُشكِلُ فيغوي .
ها أنا . . . ؛ يا لجناحي ؛
يا لَشَغَفِ المرثيِّ أن يتهتكَ فَيُسْتَبْطَنَ خالصًا كالشفاعةِ ؛
يا لأعمارٍ ترفعُ في صحافِ الحِبْرِ إلى المادبةِ .

أَمَا لَوْ خُضَّ الْفَنَاءُ ، بِرَفْقٍ ، فِي الْقَرَبِ خَصَّ اللَّبْنَ فَأَزِيدَتْ
 الحضورات ؛ أَوْ هُرِيقتَ السماءَ على حافر الثور ، وَأوثقتِ الرياحِ الرياحَ ؛
 أَمَا لَوْ ذِيقَ الْمَاءِ فَتَنَةَ الْمُغْضِلِ ،
 ونقضتِ المناهاتُ مواثيقها ، . . :

هِيهِ ، إِنَّهُ النَّهَارُ النَّمْرُ ، وَثِبَةٌ بَعْدَ أُخْرَى يَشُقُّ الرِمَادَ الصُّلْبَ إِلَى
 فَرِيستِهِ ، النَّهَارُ الشَّدِي . النَّهَارُ عَائِدًا مِنْ جِهَاتِهِ الْهِنْدِسِيَّةِ ، مِمْتَلِنًا ، وَثِبَةٌ
 بَعْدَ أُخْرَى ، بِطَبَاعِ الْأَكِيدِ يَفْتَرَسُ الْأَكِيدَ . النَّهَارُ النَّزْدُ ، الْحَلِيمُ كَالنَّقَائِضِ ،
 النَّاجِي مِنْ مَذْبَحَةِ الْأَمْلِ ، النَّهَارُ الْيَقْطِينُ ، الْمُكْتَنِزُ خَلَاءَاتٍ وَبَرُوجًا ،
 الْمُرَاصِفُ عَضَلَةٌ عَضَلَةٌ فِي فَخِذِ الثَّوْرِ . النَّهَارُ النَّبَاحُ فِي مَا وِراءَ الْخِيَامِ
 الْمَمْرُقَةُ هُنَاكَ ؛ الْعِيَّارُ ، حَامِلُ السَّلَالِ الْمَمْتَلِثَةِ بِعِظَامِ الثَّوْتِيَيْنِ . النَّهَارُ ذَاتُهُ ،
 الْمَتَشَقِّقُ الْعَقْبِيَيْنِ ؛ الْمُنْجِزُ كَعَمَاءَ ؛ شَرِيكِي فِي إِغْدَاقِ الْأَلْقَابِ عَلَى الْحُمَى
 الْمُخَصَّبَةِ ، الْمَبْدُزُ مِثْلِي ؛ جَلِيسُ الشُّكْلِ الَّذِي يَرْتُقُ الْجَوْهَرَ وَأَعْرَاضَهُ الَّتِي
 مِنْ مَنِيٍّ .

يَا لَشَغْفِي بِكَ أَيُّهَا النَّهَارُ الْحَلُّ ،

يَا لَشَغْفِي بِاللَّيْلِ الْعَدَاءِ ، الصَّلْصَالِي ، ذِي النِّقُوشِ ؛ الشَّرِّهِ فِي مَادِبَةِ
 الْأَشْكَالِ ، اللَّيْلِ الْعَادِلِ ، الْمُقْلَدُ أُسْلَافَهُ الرَّوَاةَ ؛ الْمُعْدِي ، يَكْمُمُ الدَّهْرَ رَهِينًا
 كَالْمَغَالِيقِ . اللَّيْلِ الَّذِي بِحَوَافِرٍ مِنْ سَكُونٍ يَنْجُرُ الْأَفْرَ الْأَقْوَى عَلَى كِمَاتِ
 الرِّمَالِ . اللَّيْلِ الْحَلَّاجُ ؛ كَاتِمُ النَّشِيدِ النَّاقِصِ . اللَّيْلِ ، ذَاكَ ، مَرْتَبًا عَلَى
 صَقَالَةِ الْخُدْعَةِ ، أَمِينًا كَالشُّبُهَاتِ ، يَبُوبُ الظَّلَالَ بِتَوَيْبِ الْوَرَاقِينِ . اللَّيْلِ
 كَمَا هُوَ ، عَلَى هِنَاتِهِ ، طَرِيحًا فَوْقَ فَرَاشِ الْخَبِيرِ ، مُلْهَمًا أَنْ يَتَبَدَّلَ فِي الْمَمْرِ
 الْأَمِينِ ، حَيْثُ الْأَفْلَاكُ تَتَحَرَّرُ كَمَا نَنَ اللَّهُ ، وَتَتَبَرَّجُ الْمَغَالِيقُ فِي مَرَاةِ
 الْكَلْبِيِّ .

يا لَشَغْفِي بك يا المَكَانُ المَرُوعُ بمجابهات الجوهر؛ المَكَانُ المُنْتَحِلُ،
ريبب الكُنه المقرون بالغَلْبَةِ، المضموم كقبضة المَخْتِنِ إذ تُجَزَّ القَلْفَةُ؛
الْفَيْضُ، ذو الأَقلام السبعة، الحِرَاثُ في الحلقات؛ الحِرَاثُ بسكك الهول
في الحلقات، الرقيقُ المَذْي، المُنْتَهَرُ على أبواب النشأة؛ المَكَانُ السَطْرُ
وأشباهها، المتكومُ على دفينه المحترق، الزاهدُ كظُلِّ، الهَزَاةُ يُلقَنُ النهايةَ
صِيَاحِ البابون؛ الصَّدْعُ الأشدُّ أُنَيْنًا، المَغْلَظُ إذا أَمْلَى؛ المَكَانُ المَخْتَزَلُ على
ميناء الساعة الذهبية، المَتَّقُ عليه أن يُطوى ريحًا ريحًا، ذو التحوم الرُغَاءُ،
المُدْخَرُ كفحم الأفران، الثُغْرَةُ؛ المَكَانُ الثُغْرَةُ في حصن الغد، المَسْتَنْطَقُ
فَرَمًا بسكاكين الفجر الرهيفة، الدخيل على أحلاف القيامة؛ لا إليه، لا
لَهُ؛ المَسْتَنْهَضُ بنفخ في العظام؛ المَكَانُ الأحوالُ تُكشَطُ كجلد الفقمة،
وتشذَّبُ كالعانات؛ المؤيَّدُ بذبح حميم؛ خَلْبُ الفتنة، الزاهدُ كتعيين
مُرْسَلٍ في خيال مُرْسَلٍ من الحَقِّ إلى الحَقِّ. يا المَكَانُ، أنتَ، الأليفُ،
المستولِدُ من حُنْكَه الزائل الأمين؛ يا اقتداري أن أغوي المُرْتَجِيءَ، -
خَلِيَتْ -، يا اقتدارَ الشَّعْبِ النُّعِيمِ، لَتُسَوِّرُنْكَ نُكُنَاتٍ مهجورةً بظلالِ
النعمة المهجورة؛ وَلْيُغْلَقَنَّ عَلَيْكَ الهَرَبُ أولاءِ القابضون، في قسوةٍ، على
النَّصْلِ الدامي، الموعودون بأجران، ذوو السُّهر على النوم، وهم يضربون
الموائد بِمَدَقَاتِ السماء؛ المَثْكُونُ جلوسًا على النهاية، بلا إيماءاتٍ،
صامتين، يبوخُ الذهولُ بين أيديهم ويجهشُ الغيابُ بالبكاء؛ الهادئون هدوءِ
الصِّفَاتِ، في حياءٍ يرققون المساءاتِ كالأرغفة؛ الحِرَاثُونُ في الشُّكْلِ؛
مالكو العَسَقِ وقضاةِ المياه؛ الموصودون على متاع الظاهر، نَهَبًا يزنون الثَّقَلَ
الشفيع؛ المجروحون جراحِ العافية، أخلاءُ الدَّوِيِّ، المحضرون على زرايباتِ
اللون، القلقون لأنهم كوفثوا؛ قَصَّاصو أثر الأزل من حَجَرٍ إلى حجرٍ .
يا لَشَغْفِي بالمَكَانِ يُرمى - المَكَانُ الكُرَّةُ الحجريةُ؛ المَكَانُ الأَدْرَاجُ،
المأهولُ بِجَرَسِ النهايةِ، المَكَانُ الفضفاضُ، المذيلُ الحواشي بفراءِ القُطْرُسِ،

الْمُنْتَخِخُ حَفِيضًا كِي لَا يَوْقِظَ الْحَبِيرَ؛ الْمَتَهْدِجُ كَصَوْتِ الْمَسْكُونِ؛ الْمَكَانُ الْعَجُولُ، الْخَائِمُ الْمَتَدَحْرَجُ عَلَى الصَّفِيحِ الْعَرِيقِ، النَّاحِلُ كَسَكُونِ مُؤَزَّقٍ؛ - يَوْمِي؛ هُوَ يَوْمِي، الْمَكَانُ، مِنَ الْأَدْرَاجِ نَعْسَانًا. يَا الْمَكَانُ!!!

سَبْعُ بَقَرَاتٍ؛

سَبْعَةُ تَمَائِيلٍ مَحْمُولَةٌ عَلَى فِرَاقِ الْحَجَرِ؛

(عَجَلٌ وَاقْتَلَنِي يَا أَبِي:

أَلْنَهَارُ أَلْتَكَّ،

وَالْحَقِيقَةُ مَا تَصْنَعُهُ بِمِطَارِقِ الْقِيلُولَةِ.

ذَنْبٌ مَرَّحُكٌ.

نُورٌ أَقَاصِيصُكَ فِي الْمَسَاءِ؛

عَلِمْتَنِي أَنْ لَا أَخَافَ. بِحَقِّ يَدَيْكَ،

عَلِمْتَنِي أَنْ أَخَافَ يَا أَبِي).

سَبْعُ بَقَرَاتٍ، وَفِرَاعٌ وَاحِدٌ؛ فِرَاعٌ فَهَدَّ يَرِبْتَنَ عَلَيْهِ اللَّوَاتِي يَصْرِفْنَ

التَّصَارِيفَ، وَيَدْفُقْنَ الْقُبْلَ؛ هُنَّ، مَنْ اسْتَفْرَقَتْكَ يَا الْمَكَانُ بِعِظَامِ تُهْرَسُ إِذِ

العِناقِ هَدِيرًا. هُنَّ، عَاجِنَاتُ اللَّيْلِ فِي أَجْرَانِ الْبَلُورِ، الْمُرْتَعِشَاتُ بِشَكِيمَةِ

الغَدِّ الْمَغْتَلَمِ، أَوْلَاتُ رَهَانَ يَضْرِبْنَ بِالْقَسِيِّ الْمَسَاكِبَ، وَيَتَلَقَّقْنَ الْمَقَادِيرَ.

سَبْعُ تَضَاعِيفُ كَالزَّرِيرِ. وَالفِرَاعُ مُؤْتَمَنٌ.

إِيه، يَا الفِرَاعُ الْمُنْسَرُّ، يَا الَّذِي يُوكَلُ الْغَيْبُ مَرِيضًا فِي ثَرِيدِكَ، هَا

أَحْضَرْتَ الْأَجْرَانَ، وَالْمَرَاتِبَ الَّتِي سَطَّحْتَ، وَالْأَكْبَادُ، وَزَيْتُ السَّمْسِمِ،

وَالرَّمَادُ الْمُسْتَظَرَفُ، وَالْمَقْصَاتُ الزَّرْقَاءُ الَّتِي مِنْ شِفَافَةِ الْكِيَانِ الْمُرِيدِ. يَا

فِرَاعًا يَهْوُلُ الْغَمَامُ عَلَيْهِ بِالآتِهِ، - الفِرَاعُ أَنْتَ؛ الفِرَاعُ التَّرْقُوةُ، وَالرُّضْفَةُ،

وَالْأَضْلَاعُ؛ الفِرَاعُ السَّنَاجِبُ، الَّذِي تَوَزَّقُ الظَّلَامُ إِذْ تُنْسِيهِ أَنْكَ امْتِنَانَهُ

العَاقِلُ، وَتَخْدِشُ بِيْرَائِيكَ - فِي لَيْنٍ - عَضَلَةَ الْمَعْلُومِ:

«صوار على الجبل .
لا تقولوا وصل الموتى من كوينسجق وأربيل .
لا تقولوا أحشائي هذه عليها قش من بوطان ، وإنني قُتلتُ .
لا .

اجمع خرافك بوعي بريفا ؛
اجمعي حطام الزجاج ، دينوكا ، بمكنسة العرنج ، بعد الدوي .
اجمعي حنطتك نزوحاً إلى مرقد آخر في الخبير .

صوار على الجبل
سبح كتاويل النعناع ، إذ التيه هرتك الأليفة ، أيها الفراغ ، وموقدك
العنب .

١٠

(عَرَضٌ يَتِمَادِي ؛
جوهرٌ يَتِمَادِي :
أمهلهما قلبي ،
أمهلِ الفناء ريثما يُستَعَادُ الشُّكْلُ إِلَى مَازِقِهِ) .

١١

واللمصارع :
أناشيدٌ مكتوفة الأيدي ،
ومغامٌ تجفُّ تحت مراوح المياه :
ألا كلُّ شيءٍ وفِيٍّ للحماقة - هذا البذخ الطاهر ؛
وفي لي في اعتدالي بقسمِ العدمِ ذاته أن أعتدلَ ؛ العدمِ الثاني ،

المُخبي ، شفيع البقاء وبستانيه الذي يشذبُ القَدَمَ بمقصه ، ويُلقنُ
الضرورات أن تتمادى .

جوهرٌ يتمادى ؛

عَرَضٌ يتمادى ،

والغمامُ الحَصَادُ ، المُتجرِّدُ من سراويله النارية ، العَوِيُّ ، الجُرُنُّ تطحنُ
فيه الحَقولُ سِنَمِ شهواتها ، الذَلِقُ كلسانِ الرماد ؛ الغمامُ الخَلِيُّ ، المُلقي
على قارعة المراتبِ يتقدَّمُ الفجورُ ، التي تتبادلُ الرحمةَ ، إلى سريره ، شفيعاً
لا يجادلُ العيبُ الغلامَ ، ولا يرمي الكثيفَ بشَفَافاته ؛ الغمامُ الأوحدُ ،
المُضَلَّلُ كنبوءة ، ذاك الذي يرتقُ الضرورة ؛ الغمامُ النَكَالُ ، المتهورُ ، ربيبُ
الكيدِ ، المجتهدُ في الأرقامِ ، الفصَادُ ، الذي بشفرة من المرح يحزُّ ويريدُ
الكمالَ المسدودَ ؛ الغمامُ الراكذُ على شفقِ الضروراتِ ، وهو يلقنُ المستورَ
أخاديعةً .

أي قَدَمُ ، إذا ، يتخبطُ في الرمادِ ، متوسلاً إليّ أن أفكُ وثاقَ
خنانيصه؟ هَيْهَ ، مصارعُ : ساحتُ الألمِ : صاح تمالكُ نفسك في اتكائكِ
عليّ ، ودَارَ عينيكِ إذا اغرورقتا . صاح رَمِّ المنازعةَ بشهواتِ تقوُّصُ ، يا
الأنيقُ ، ورَفَهَ عن يقيني أركَ الكمالِ ناقماً على النشأة ؛ الكمالُ الصَّقَّارُ ،
المُعْتَلَمُ ، مُبرِّمُ العقودِ النافلةِ ، المُتَبَرِّمُ من شركائه القنَّاصينَ ؛ الثرثارُ ، المُبَشِّرُ
بالمُتَجَلِّ ؛ الأَعْسَرَ يأخذُ الجهاتِ بيمينِ أعذاره .

صاح أركَ الضياءِ الشيخِ ، الذي من شرودِ وسهوه ، ذاك ، المتعشَّرُ على
صقالاتِ البُنَّاتينَ ؛ الضياءُ الزرافةَ ، طحَّانُ الإرثِ ، هاذا يعضُ الظلالَ
كاللُبَّانِ ، ويعتصرُ الموازينَ .

يا للمصارع :

جوهرٌ يتمادى ؛

عَرَضٌ يتمادى .

ألفاديرُ تتضععُ بأنقالها ،

ويتدهدى الفضاء الخليلُ ،

فأحسنِ يا قلبُ إلى الصاعقةِ ،

وهدىء رَوْعَ أطفالها :

ها هنا عناقُ طاحنٍ ؛

ها هنا الضروراتُ تتباضعُ ، والمصادفاتُ حُصى ،

لكأني أوحشتُ الوقتَ ، وأخلّيتهُ بالحنينِ مني حتى ليُشفِقنَ عليه

خيأرةُ أن يدومَ - هكذا - وقتًا لبراهينه ظمأ اليأسِ إلى اليأسِ ، ولأثقاله

صريعُ الحَيْرِ .

فلا تلتفتنِ ، قلبي ، إلى الملاّ المستورِ : ذا الربيعِ الكلبةُ ماترى ؛ الربيعُ

العانةُ ، الحليقُ كإبطي مومس ، حيث لا شهواتُ ، بل اغتصابُ من نُورٍ

إلى نُورٍ ، ومن زوالٍ إلى زوالٍ ، ببطشِ الحمى ، التي تنجو القيامةُ فيها من

غَرَقِ المحظوظين .

١٢

للندی شفراتُ ؛

للحقولِ طباعِ السراقينِ ،

فلأعدّ المديحِ نادبًا ، فليعدّ الضلالُ الأمينُ مدائحَ الغيبِ في رِقِّه :

يا الضلالُ ، الذي يتمّمُ للحقيقة ما تتلعثمُ الحقيقةُ في إطاره ؛ يا لكُ

ضلالاً يُستنفذُ العريقُ في وصفك ؛ يا لكُ ، أخني أتمنك على هداية الأکیدِ

الفاجرِ . إيه ، لأنت الضلالُ القرآنُ تنضجُ في قبضتك أرغفةً الله وكستناؤه .

وأنا؟ فلانحِت الشَّفَافَةَ بِإِزْمِيلِ الكَلْبِيِّ تصاوِيرَ دروع ، واستغاثاتِ
كرخص الإوز؛ فَلأَكْمَمِ الكَثِيفِ على عتَبَةِ النُّعْمَى ؛ فَلأنجِزُ ، هكذا ، على
عاهن الشُّكْلِ خالصًا ، للضرورةِ في أنحاثي ديبُ اليربوع ، وللأملِ جلالُ
التَّيْبِيَةِ حنيقًا يُوكِي التيهُ على الموازينِ ، ويُقلِّدُ خلاصَ الباطلِ :

يا الباطلُ ،

يا ثناء الكَلْبِيِّ على مصكوكاتِ الثُّورِ ،

أيها الوفاءُ الذي يُنكَلُ بالعدمِ كي يعترفَ ،

لأنك تَرِنُ بمناقيلكِ النجاةَ ذهبها .

ولأنك جريحٌ بما خُصِصْتَ به من يقينِ ،

تطنُّ من حولِ جرحك ذبابةُ الفردوسِ ، ونحلُّ الجمادِ الذي يسيلُ

شَهْدُهُ على رُحامِ الفردوسِ :

«يا الفردوسُ الذي يتعثرُ الوجودُ

بالعظامِ على عتباته ، هاتك ؛ هاتِ

صِمغَكَ القويِّ نلحمَ به شروخَ

الموحى . وانتهرِ الموائيقَ ؛ اضربها

بسوطِ النِّدمِ ، فانتِ شفقةُ النهايةِ

على النبوءاتِ» .

ضلالاً ؛

أزفِع السماءَ على فخذيكِ القويتين ؛

رُجِّها باللهاثِ حتى تتفتقَ مشيمةُ البرزخِ ؛

وينحلُّ المكانُ شهوةً شهوةً .

أهزؤُ يذمُّعُ إشفاقًا على الأسي في يدي ،

أم مُطَلَقٌ يَسِيلُ من أَجَاصاتِ الحُمَى؟ ضللاً إلى؛
أزفع الريح إلى نديك،
واطِرِ الجمالِ المُمتِعِضِ من آيته تُقرأ بلسان العديدهِ الواحدِ، يا لَكَ،
وعُدْ بي إليك، مُجرِجِراً خلفي حفيدي الوقتِ، أوْبِخُهُ إنْ تَلَكَّأَ؛ أوْبِخِ
النَّشَأَةَ إنْ تَلَكَّأَتْ .
عُدْ بي أيها الضلالُ،
سأذيقُ الفراغَ جُمَاناته الذائِبَةَ ،
والفَجَرَ فُستقَ المغيِبِ .

١٣

لا أَلَمَ بَعْدُ :

يُنيرني المتأه؛
يُنيرُ البقاءَ مَلَكَةَ الرِّعاعِ فيهِ ،
وينتحبُ كقويِّ .

نيقوسيا ، ١٩٩٦

لَدَائِنِ (الأكِيدُ ذَاهِلًا)

الفَجْرُ

بِرَاحَتِهِ - رَاحَةُ الْمُتَبَرِّمِ يَعْتَصِرُ الْفَجْرُ الْحَلَابُ ضَرَعَ أَتَانَهُ ؛
الْفَجْرُ الْعِضْلَةُ ، الْعِظَامُ مُتَجَاوِرَةٌ كَالْحُبَيْبِزِ . الْفَجْرُ الْمُتَكَمَّمُ عَلَى مَذْبَحِ
الدَّرَاقِ وَرِدَّةِ الْبِتُولَا ؛ الصَّدْعُ يَتَشَبَّهُ بِحَوَافِهِ الْعَابِرُونَ . أَفَاوِيهِ السَّحْرِ إِلَى
فَوْسِ الْأَثِيرِ . الْفَجْرُ الْغَلَاصِمُ ، وَالسَّبَائِكُ ؛ الْعَتَلَةُ اللَّحْمِيَّةُ ؛ النَّوَاءُ مَكْسُورَةٌ
فِي الثَّمَرَةِ تَلِكُ ، الْمَكْتَنَزَةُ سَدِيمًا وَمِغَالِيْقَ . الْفَجْرُ الْحُكْمُ مُبَرَّمًا بِقِيَاسِ
وَاحِدٍ ؛ لَا يُنْشَرُ وَلَا يُطَوَّى ؛ نَزِيْفُ الْأَقْدَارِ مِنْ وَرِيدِ الْخَفِيِّ الْمَاجِنِ ، الْفَجْرُ
الْوَلَاءُ ؛ الْمَقْبِضُ يُدَارُ فِي الْبُؤَابَاتِ بِيَدِ الظَّنِّ . مُسْتَدْرَجًا بِالشَّفَاعَةِ الْفَاكِهِةِ
إِلَى الْغَوَايَةِ الْفَاكِهِةِ ، يَبْشُرُ الْقِضَاءَ بِنَفَازِ الضَّرُورَةِ ؛ عُثْنُونُ التُّيْسِ . الْفَجْرُ
الْعُثْنُونُ ، وَاللَّبْدُ ؛ الْحَلْمَةُ وَالْبُظَارَةُ ؛ الْقَوَاطِعُ الْمَسْنُونَةُ فِي فَمِ الْحَيْلَةِ ؛ الشَّجَارُ
مُسْتَفْحَلًا فِي الْمَرَاتِبِ وَعِلَامَاتِهَا . الْفَجْرُ الرَّبْلَةُ . الْفَجْرُ الصَّفْنُ ؛ نَيْصُ
الْغِمَامَاتِ الْمُتَبَعَّةِ بِسَهَامِهَا ، فِي أَحْرَاشِ الذَّهَبِ ، تَيْتَلُ الرِّوَادِ الْجَرِيْحِ .
الْفَجْرُ الثُّوْلُولُ ؛ الْمُنْتَزِعُ الْقَشْدَةُ ؛ الْفَوَاقِ صَاعِدًا مِنْ رِئَةِ الْوَعْدِ . أَعْنَهُ - هِيهِ -
أَعْنَهُ أَنْ يُشْرِفَ مِنَ الْمَتَاهِ الذَّكْرِ عَلَى هِيَاجِ شَقِيْقَاتِهِ .

البدء

إنه البدء يتهدج كصوت المحرور؛

البدُّ الريشةُ في سهمٍ لا يُرمى ؛ الفتقُ ؛ الكدِّمةُ تحت عين البهاءِ .
 البدءُ المسالِحُ والدُّبَّاعونُ ؛ الشفِراتُ المجلوةُ بزئبقٍ ؛ عنادُ المعجزةِ سكرى
 تتقوُّسُ لسفادِ العابرِ ؛ البدءُ المشادةُ بين الغيبِ والصلصالِ ؛ الشرطُ
 المُنتَقَصُ ؛ الدخائلُ مُرتَّبةٌ . يُكادُ لهُ ويكيدُ . المُستَحَدَثُ مُروِّقًا كي يُمتَحَنَ
 الحرَّاثونُ . البدءُ البلى ؛ الجلودُ والأحشاءُ ؛ القابضُ بأسنانه على العظامِ ؛
 الأنيسُ كتمازحات القتلى . البدءُ الكعْبُرةُ ؛ المُنتَهَشُ بمخالب السَّمسمِ ،
 ذاك الذي يتقلَّبُ ، كالجوهرِ ، على جنبَيْهِ ، وبعضُ أنامله نادماً ؛ القصاصُ
 الطحَّانُ متغافلاً عن فجورِ التصاريفِ . البدءُ المهْدَةُ ، كِشَاءُ الخواتيمِ بمقصِ
 الماءِ ؛ المتسيقِظُ ، أبداً ، في مخادعِ الفتنةِ ؛ الحرُّمُ مبدولاً إرْبًا إرْبًا للمني
 شتى ، يتداعى إلى الفروقِ نادباً إنْ تداعى . البدءُ الحريقُ ولا زناد . البدءُ ،
 هكذا ، خيالاً يُكمِّمُ الحضوراتِ بمنديلِ أرقامهِ .

المناه

للمناه ميثاقُ النسيانِ ؛
 للمناه بذلُ النهايةِ نشوى تُقسِّمُ الإزثَ على الهلعينِ .
 يا للمناه الفتحةُ ؛ حِمالةُ العذبِ : المناه الرجاءِ ، منصفِ الخساراتِ ،
 الذي يتكسَّبُ الغمامَ به في خيامِ السهولِ ؛ العذرةُ الفحيحِ ؛ كوفنتِ ، يُفرِّمُ
 المساءَ الغضُّ ككرفسٍ على عتبتكِ النحاسِ ، ولكِ أعيانُ الموجِ وعقولُ
 الريحِ . أتوتى يا المناه الشَّغْفُ؟ مرحى ، مؤونةُ العبورِ الأقسى على جُسُورِ
 الفجرِ ، لأنتِ . المناه الدُّسيسةُ ، يا دهاءَ النرجسِ وفسقِ الوردِ . وريثاً
 يبايعكُ الأملُ في كنوزه ، ويولِّيكُ النورَ خِزاناته . ألتاهُ الحتمُ في المعارجِ إلى
 القيامةِ ؛ الصَّوْلَةُ الظلِّ ؛ النقاءُ نيثاً كخصيةِ نيثة في صفنِ الأزلِ ؛ القرفةُ ،
 الزعفرانُ ، العصفُرُ ، قِشْرُ الأترجِ ، السَّماقُ ، النارجيلِ ، الصعترِ . المناه

الوقْبُ في جمجمةِ الملاكِ المغدورِ . المتأه الخليةُ ؛ الدَّورَةُ النَّفَاسُ ؛ الأسي
يصعد بجراه من الأحشاءِ إلى الرئَاتِ . المتأه الحضورُ الحضورُ الحضورُ .
نشوءُ هذا .
ميثاقُ نسيانٍ ؛ نشوءُ هذا .

الخلاء

حَدَارِ بِهَا الكونُ ، مُغمضًا تتراشقُ والهَبَاءُ بالإجاصاتِ الدمويَّةِ .
حَدَارِ . الكونُ القميصُ الباردُ ؛ الدَّفْقَةُ الأكثرُ انقذافًا ؛ المُنتَحَلُ في البيانِ
المُضْرَقُ عن أئداءِ الجنِّ ، الدَّفِينُ المُووَلُّ كالكستناءِ . الكونُ مُستدرِّكًا بعد
سَهوِ الجوهْرِ ؛ يُورِي بحافرِ الكمالِ راکضًا في خيالِ الحجرِ . الكونُ المَغْفِرَةُ
تذبحُ البَدءَ بسكِّينِ الثَّورِ ؛ الهَبَابُ والثُّونَالُ ؛ اهرنِيقَ نجاةٍ فَلَاتِيه سَفَاحُ
المكنوناتِ . الكونُ الخبِرُ يذُرُّجُ به ناظِمُ الأرقِ إلى العميمِ المكينِ ؛ الآلةُ في
تمامِ الحيلةِ ، الرُّدْمُ الياقوتُ ، ماكرًا يقلبُ دَرَهَمَ البقاءِ الذهبيِّ ، ويرمُّ
الطَّوَّاحِينَ . الكونُ أسرًا كانهلالِ ، طريدًا من العَذْبِ إلى العَذْبِ . وتيكُ ،
الرتاجاتُ تتخلَعُ ، ويبرِمُ الهَبَاءُ المُنشِيءُ عقَدَ الظُّهُورَاتِ . البسيطُ أنتُ ،
هيُّ : أُورِيتَ فاستظَهَرَتِ المراتبُ موازينها ، وأرِيتَ خلاءَكَ كونًا أيها الكونُ .
حذارِ ،

تُسَحَّلُ الأعالي على رمادٍ ،
ويطوقُ الأبدِيُّ .

البسالة

أَبْسَالَةٌ تتجرُّعُ البسالةَ في فسْطاطِ الأكيديِّ العَرِمِ ؛ أَبْسَالَةُ القوسِ ،

الصُّقَالَاتُ وَالْفَوَادِنُ ، الطينُ الذي أثرًا بعد أثر يشقُّ البذورَ خيالاً للنشأة .
ألبسالة الأرقُ محتضناً بناته ؛ الطاهيةُ تفرمُ الليلَ هزيعاً هزيعاً ، وتعتصرُ
الكمائنَ كالبرقوقي في أقداحها . ألبسالةُ العُروجُ من الفجرِ إلى الندى ؛
الأخذةُ تُرْفَعُ مَدَهْنَةً بشحمِ الضَّبِّ إلى الأبوابِ . يا لها .

نشورٌ للجماد ؛ نشورٌ للزَّيْدِ حياً في شراعِ المياهِ على خليجها . البسالةُ
الخليجِ وراءِ زعنفةِ التتئينِ ، حيثُ الجُرُزُ حراشفُ ليلِ ، والأكبادُ كما يُؤكلُ .
يا لها البسالةُ الفرقُ ، البسالةُ العشارُ محلولةُ اليقينِ تُدخِرُ الأفلاكَ كالنردِ
على أُنْيَها ؛ المَقْتَطَةُ عَشْرًا من أرقامِ الله . هي هي ، تحتضنُ المَحْتَجِبَ -
هَرَّتَها ، وتُداعِبُ البِغَاءَ المَغِيبَ .

إيمانُ قِطَاةٍ ؛ بسالةٌ ، يا لها تتجرَّعُ الحضوراتِ من رِقِّها .

الذَّبْحُ

القدَمُ طافحاً من الأجرانِ ،
والأزلُ حَلِيقاً كالعانةِ ؛
ذانِ ما يُسَلِّكُ الجَمَرَ في الفرقِ ، وَيَخِيطُ العاصِفَ إلى العاصِفِ .

أتجنشأُ الأقدارُ؟ هاكُمُ المعانيَ تضربُ بملاعقها الصُّحْفَةَ الفارغةَ ،
وتتراكُلُ بأقدامِ حافيةٍ تحت منضدةِ الكلماتِ .
هاكُمُ القَدَمُ حَلِيقاً كالعانةِ ،
والأزلُ طافحاً من الأجرانِ ؛
هاكُمُ الذي ، ببشارةِ التوتِ ، يذبحُ الحَريْرَ الفاتِكِ .

ها هي الأرض الكلبة تنفض عن فزورها بللّ الأنقاض . الأرض الكلبة ، المتقوسة في كسلها المرمرى . لا نجاة . الأرض الكلبة ذات النباح المعشيب ، المتدلّية الأعراق كلسان ؛ ذاتها هي . لا نجاة . تستقصى في الدويّ الأشدّ ، مطحونة شعيراً وعدّسا . الأرض الكمأة ؛ العناق المزيّد ؛ مشدودة ككمرة الفحل ، كباسليق ، كعنا موتور في قوس الكهولة الحاملة . ذاتها هي ؛ الأرض الشهقة في أرطام الأنثيين بالرائقة ، المتوثبة ذكاً ذكاً فوق الصدوع الأبدية ؛ مبراة النخزة الثانية ؛ الفضول المقصوم من حوافه . الأرض العظة ؛ الصبر الخافت للمزلاج الدمويّ .

هي ذاتها؟

أعيدها إلى الخالد الدمويّ .

مأزق

ها همو :

الموتى المنازل ؛ الموتى الشرفات ، والأزقة ، الملوّيون كقضبان القصدير . الموتى الضروع الممتلئة بلبن السديم ، المحمولون على ظلال الحريق غسقاً غسقاً ؛ الأدلاء المهورة عظامهم بختم مشطور . همو همو . الموتى الجسور المرفوعة بحبال الندم إلى عتلات الشكل ؛ المقروءون طوالع وإشارات . عالقين في الشباك المزهرة يسترقون السمع على الكمين الأعظم . همو همو . الموتى المختزنون في الشعلة ، تحت القوس ذاته - قوس الشدي المختصّ ليناً في صدر النصب الحجريّ . الموتى الخطافات الجمشت ،

والأزرارُ الذَّهَبُ في الأَكمامِ المَمْزُوقَةِ ؛ العَدَاوُونَ من شُعاعِ مَكسُورٍ إلى آخَرَ ،
من قُفْلٍ إلى آخَرَ ، من كِفايَةِ إلى كِفايَةِ . الموتى الجَلِيدُ مُنْزَلِقًا بِأَسْوَدِ البَحْرِ
إلى مُجَوِّنِ الجَلِيدِ .

أه ؛ الموتى ، أولاءِ ، مَأزِقِ النِّهايَةِ .

المعارج

خَفَّفَ زَنْبِرَكَ أَيُّهَا الظِّلُّ .

بروقِ المَدِيحِ الخِضراءِ تَفْتَحُ النافِذَةَ على أَحْراشِ الفَلَكِ ،
والسَّماءِ تُزْرَمُ عَلْفًا في العِباءاتِ .

وَأَبِي كَثِيفٍ عَلِيٍّ هَوْلُ زَنْبِقٍ ، وهلاكِ نَسْرِينُ ؛

وأَصْغِي بِي إلى السَّرْمَدِيِّ الفاجِعِ :

ذاكِمِ سِلْوُرِ الكَيْدِ يَعْبرُ ، خَفِيفًا ، أَكَمَّةَ العَدْلِ الثالِثَةِ ،
والرِعاةِ هِناكَ ؛

الزَبْدُ في قَرَبِ المَشِيتَةِ الواحِدَةِ هِناكَ ،

سَرَاحِيبُ البَحْرِ وقِوَادِو المِغالِيقِ ،

والأَمِينُ الجِمامُ ، الَّذِي يَخْضُ الرُّحْمَ ، ضاحِكًا للمِفاتِحِ الكَمَّاءِ ،

والضِياءِ المُؤَصِّدِ على الفِرواقِ رِتاجاتِ الخِناشِعِ .

خَفَّفَ زَنْبِرَكَ أَيُّهَا الظِّلُّ ،

لأَخْذِ في أَعْضائِي ما يَشْتَهِي البِيقِينَ ،

لأَخْذِ التَّيوسِ المَدْفُوعَةَ إلى الجُرُفِ ،

والمِنازِلِ المَدْفُوعَةَ ، والأَقْدارَ ، والأَسِرَةَ الأَقْصالَ ؛ الأَسِرَةَ الجِذورَ

والأنداء؛ الأسرّة النُحْر، كأنني سأعبيءُ قُللَ الليل بهذه الأحشاءِ المرميةِ
تحت ورقِ الموز، ملوّحًا للملوك - يقطينِ الضحى، والمهرجِينِ السنابلِ
أولاءِ، سنابلِ العَورِ الدّامي .

ولأستوثقنُ:

«ما ثديي إلا ليؤكّلَ؛

ما شفةُ إلا لتساررَ بالهذيانِ» .

لنعم ما يُستدنى مُمرّقا .

فتأتقُ أيها النّبيّ التّسليمُ - أذنُ دجاجاتِ الحقِّ، وسناجبهِ، وقُوله

الحديديّ، وبزالآئه .

تأتقُ أيها التّدّمُ العرّاف، المشرفُ على طُهاةِ الحساءِ في قُدورِ الكونِ

اللازورديّةِ، فما منْ غوثٍ إلا الحيّانةُ زرقاءُ جلالاً تُنضدُ السماءَ الحراشيفَ

على جسدِ الأزليّ؛ ما منْ غوثٍ إلا الضّرورةُ يلوّكُها شدقُ الدّيموماتِ .

والجبّهُ يوشِكُ . أنْ نقتشُ بالخصيِّ على خمائرِ الغيبِ . هيّ يا المُسرّحُ

عريقًا في أصفادِ النّعمى، للمُستغرِقُ بكماثنِ التّعيينِ يُرِيكُ الفادحَ من

عذاباته ؛ يُرِيكُ المقدورُ صدوعَ كُراتهِ البازلتيةِ . لا رسومُ تُستظهِرُ في الجِزمِ

الأعمى - جِرمِ الصلصالِ المنفوسِ منياً وخواتيمِ . لأستوثقنُ الكثرةَ ربيبةَ

الفراغِ المُذنبِ، ضارعًا إلى المئاه - كلّيمِ اليقينِ : «حلوةُ ثمراتِ الكيّدِ في

يديك . نساؤك الحمى يُؤكّلنَ كالجوز» . خفّفْ زئيركُ أيها الظلُّ؛ خفّفِي يا

المشيئاتُ شقّ هذا الدرّعِ بالماسِ المسنونِ :

هيّ المعارجُ تَبلى رويدًا رويدًا :

سرماناتُ، دَعاسيقُ،

يُسروعُ واحدٌ ثمّ ،

حدائقُ كذليلِ الكلبِ ،

وهواجسُ لسانٍ على بُطّارةِ الليلِ . تَبَلَى المغاليقُ ويندملُ الظاهرُ
الأمينُ ، المُحترَسُ إذُ تنامُ الينابيعُ ؛ المُجادِلُ يُنتَدِبُ على البراهينِ بخزافيه
الشاحبينَ . الظاهرُ المُعسِكرُ ، ذو الحاميةِ المهيبَةِ على ممّراتِ الموتِ ؛ مُستأجرِ
المغاليقِ ، الذي بألّةِ الوعدِ الذهبيةِ يشدخُ المكنونَ . الظاهرُ الخفّاضُ ؛
المندملُ منذِ القيامةِ الثانيةِ على الشُّبهةِ النبيلةِ ؛ المُصادفةُ عَزَبَاءُ ؛ مُؤدَّبُ
الظهيراتِ . الظاهرُ المُتسلّلُ طعينًا إلى كَمِينِي .

هي المَعارِجُ تَبَلَى :
خفّفْ زئيرَكَ يا ظلُّ ،
سمائِي ضَحَلَّ كِبْرَكَ ،
سمائِي ضَحَلَّ كَأَثَرِ أَقدامِ الذئبِ . سبعُ مشيئاتِ ؛ سبعونَ حضورًا
للِكَمالِ المُمرَّقِ ببرائِنِ النقوشِ تُستودَعُ ، الآنَ ، خزائِنَ الجِلاءِ الأعمى ؛
والخفيُّ صَنّاجَةٌ .

١٩٩٦

النعام

مُشْرِفٌ كَالْجِهَالَةِ مِنْ تَرَفِ الطَّيْرِ فِيهِ
عَلَى الْأَبْدِيِّ الْأَسِيرِ .
لِلتَّرَابِ جَنَاحَانِ فِي ظِلِّهِ ،
لِلأَكِيدِ شَقِيقَاتُهُ يَتَمَرَّعْنَ فِي الرِّيشِ ،
أَوْ يَتَقَاذِفْنَ ، مِثْلَ الرُّؤْيِ ، بِجَلَالِ الْحَضُورِ .

نَمْنَمَاتٌ هَوَاجِسُهُ ،
وَالرُّسُومُ الَّتِي أَسْرَتِ جِرْمَهُ أَعْتَقَتْ جِرْمَهُ فِي الْحَرِيرِ .

الدُّعْرَةُ

جُرَّ هَذَا الْفَلَكََا
دَائِرِيًّا ، وَأَنْبَتِقُ
خَالِصًا فِي فِكْرَةٍ بَعْدَ تَمَادِيكَ عَلَى الشُّكْلِ التَّنَزُّقِ
لَمَّ عُدَّ مِنْ أَوَّلِ آيَةِ مَسْكُوكَا عَلَى نَقْشِكَ فِي الْفَضِيِّ ، فِي النُّورِ
أَنْجَلَى مُنْتَهَكَا .

لَمَّ هَذَا الْفَلَكََا .

الطاووس

رُوحُ الغيبِ ؛ رُوحُ أبدِ اللونِ ، وأنسلِ الأعرَاقا .
ينحَرُ المكانُ سلاليمَ إلى النهبِ ،
وتطوى السماءُ طاقاً فطاقا .

السنونو

نَمْرٌ يجرُّ قنيصَةَ الأزلِ .

الهدهد

مَهَلْ دَقًّا الحياةَ . أريشُ
عليك؟ ضُمُّ الصرُوفِ
رَعْبًا وأنشدِ الرحيلَ بَطْنًا نزيفا .

نَسَقَ أنتَ ، أحضرتَ طَيِّفًا
ونلتَ صَوَّغًا اليفا .

النحام

لا شِراعَ يطوقُه راحلاً ،
لا هبوبَ على جِزْمِهِ ؛ لا دليلَ شعاعِ .

أَلنَّهَارُ حَقَائِبُهُ ،
وَالْفِرَاقُ الْمَتَاعُ .

القَطَاة

سوف يعدو النهارُ على ساقه الهنْدَبَاءِ
قافِزًا كالجِرادَةِ في ظِلِّكَ الْمُنْكَسِرِ
في مرَايا الصُّوَرِ
ويديرُ النِّبَاتُ نواعيرَهُ ببغَالِ الهِوَاءِ .

أنتِ ظِلُّ الهِوَاءِ وَعِكَازُهُ في حَقُولِ الهِوَاءِ .

الديك الروميُّ

عَضَلَةٌ كالتِيهِ ، كالمَكِيدَةِ
وَعَصَبٌ من أَرْقِ الغِمامِ .

ويَحْكُ يا مجَاهِلَ القَدِيمِ لا تنامي .

أَمَثَاقِيْلُ

إِنَّهُ النَّبَأُ النُّجْمُ؛ المأمولُ غامضاً كالنَّعْمَةِ : فَمُ أَصْلَحُ هَيْئَتِي الَّتِي
طَحَنَهَا الثُّورُ وَذَرَّاهَا عَلَى لَوْحِكَ . أَصْلَحْنِي وَقَدْ أَنْقَصَمْتُ مَشِيئَاتٍ بَيْنَ
حِصُونِكَ الرَّبْدِ وَقِلاَعِكَ الثَّيِّبِ . عَاتِيَا وَاتْنِي فِي الْمَهَبِّ ، وَأَيِّدْنِي بِالنُّكْبَةِ
الَّتِي أَقْسَمْتَ أَنْ تُطَهِّرَ النَّسِيَانَ .

وَأَرَاكَ تَوَلَّيْتَ نَفْسَكَ بِي كَيْ أُعِينَكَ بِالْعَبَثِ عَلَى أَحْلَافِ الْمُعْضِلِ ،
وَقِسْتَ النَّجَاةَ مِنْكَ إِلَيَّ بِحَافِرِ الْأَتَانِ . مِكْرُكَ دَوَامُ الرَّحِيلِ بِالْفِرْدُوسِ مِنْ
الْقِيَامَةِ الْمَاجِنَةِ إِلَى أُخْتِهَا الْمَاجِنَةِ ، وَهَآ أَنَا ، بِمِكْرِكَ ذَاكَ ، أَحْيِي مَا أَشْكَلْتُهُ
مِنْ حُدُودِي - حُدُودِ الْمَسْتَأْنَسِ الْحَذِرِ - عَلَيْكَ . أَغْلِقِ السَّجْلَ :

مِرْزَاقِ الْمَوْجِ يَفْتَحُ الْأَبَدَ عَمِيقًا فِي طَعْنَتِهِ تَحْتَ ضَلْعِكَ الْعَاشِرِ - ضَلْعِ
الْبَحْرِ ،

أَيُّهَا الْأَبُ الْعَمَاءِ .

نساؤك كلهن هنا ، باسطات للأقدار تبين الخراف . نظرهن عليك أنت
المختص في قرب اللبن تفوز زبدتك من بين أصابعهن المضمومة ، في
زفير ، على الشفيق . نساؤك كلهن - الحكايات ، والحروب المختمة ؛
المشارف البدع في اللون - آيتك المترفة تحت لسان الفناء الحالم . يا
لارتعاشاتهن إذ ينقلن السماء زريبة زريبة إلى جهاتك ، والبرازخ - الخراف
إلى جهاتك ، والعدم مغسولاً بالقبيل إلى الخيال ذاك ، الذي كورته ثديين
يؤكلان إذ يتعري الذكور للكمال المرتعد شهوة ،
أيها الأب العماء .

فَجَرَّ يُؤَكِّلُ تَحْتَ قَبَابِ الصَّلْصَالِ ، وَيَدَا المِشِيَّةِ تَهَيَّئَانِ الصُّورَ المَغْلُولَةَ
بِأَقْفَالٍ مِنْ خَيَالِ العَمَاءِ : هَا يُؤَلِّدُ الذُّكْرَ الأوَّلُ مِنْ صرِيرِ الأَسْمَاءِ التِّي
يَحْفَرهَا اللهُ نَقِيَّةً فِي التِّيِّهِ الحَافِظِ .

هَا تُؤَلِّدُ الأُنثَى مِنْ نَفْسِهَا ؛ هَا يُؤَلِّدُ الجَمْعُ مِنَ الهَثَكِ . أَقْمِنِي فِي
الْحَلْخَلَةِ ، أَيُّهَا الأبُ العَمَاءُ ، الَّذِي يَتَشَرَّدُ فِي أَسْمَاءِ بَنِيهِ ، وَتَحْتَمَلُهُ بِنَاتُهُ
فِي فُرُوجِهِنَّ إِلَى أُسْرَةِ العَدَمِ الفَحْلِ .

أَلْمَلَائِكُ الأَجْرَامُ تَتَقَاذَفُ بِعِنَاقِيدِ البُلُورِ ، وَالعُلُومُ الأَصْفَادُ فِي اسْمِكَ
الوَاحِدِ لَهَا إِلاَّ مَفَاتِيحُ دَمٍ ؛ لَهَا إِلاَّ المَفَاتِيحُ التِّيِّهِ .

أَمْشِطُ الغَيْمِ تُسْرِحُ الدَّوِيَّ كَشَعْرٍ ،
فِي انزِلَاتِكَ عَن جَلِيدِ اللُّأَنْهَائِيَةِ إِلَى خَزَائِنِ المَعْلُومِ ،
أَيُّهَا الأبُ العَمَاءِ .

الملائكُ موعودونَ بِآلاتِ الظُّمأ . الخَيْرُ موعودٌ بالموتى يعيدون إليه قشدةَ
خياله ، وأنا باق هنا ، مُطبَقاً بِأسناني على عضلة الصِّلصال التي وَهَبْتَنِيهَا
مُقْتَطَعَةً من كَشْحِكَ الأنثوي . باق في بَرزخ الكَيْدِ ؛ في النَّفِيرِ الصَّامِتِ
للضَّرورَاتِ مُتَمَلِّقَةً بِأَسْكَ الذي اِبْتَكَرَ الأبدِي . أنزلَ أنتَ ، بآلة الكَمَالِ
الرَّهيفَةِ ، إلي مَسَالِخِ الفَلَكِ وَأَزَقَةَ البروج . أَحضِرْ نقوشَكَ كُلَّهَا ؛ سلالِكَ
الجوهرِ ؛ مراياكَ التي آلَهَمَّتِ المعنى أن يَصِفَكَ أبا يسرقُ العقلُ حِنطَتَهُ من
أَهراءِ الدَّمِ ،
أُيُّهَا الأبُ العَمَاءُ .

كَلَّمِ الشُّوقَ بِلِسَانِ النُّكْبَةِ : نَقِي عِظَامٍ يَتَنَاثَرُ فَوْقَ الْأَدْرَاجِ . هَيْهَ ، يُهِيََا
العَاشِقُ ؛ هَيْهِيَ يَا ابْنَ الصَّلَاةِ المَرْدُودَةِ مِنْ خِيَالِكَ إِلَيْكَ ، أَمَا شَفَعْتَ لِلْمَاءِ
بِعَدَلٍ مُعَذِّبٍ كَيْ يُرِيكَ المَاءَ سَنَنَ العَرَقِ وَشَرَائِعَ الْأَصْلِ المَارِقِ ؟ . أَبُ عَمَاءٌ
يَلْتَمِ الجَبِينَ الَّذِي سَلَخَتْهُ التَّعْمَةُ بِشَقَرَتِهَا ، أَيُّهَا الأبُ العَمَاءُ .
الصُّفَارِيَّةُ يَتَمَرِّقُ حَنِينًا فِي طَيْرَانِهِ تَحْتَ دَرَعِكَ : نَقُوشُكَ الطَّيُورُ كُلُّهَا
تَتَمَرِّقُ حَنِينًا . أَيَاتُكَ الخَفِيفَةُ فِي الطَّيْرَانِ الخَفِيفِ مِنْ بَدَاهَةِ إِلَى أُخْتِهَا .
تَحْسَبُكَ فِي عِدَادِهَا المَحْظُورَاتُ كَيْ يُوَوِّلَكَ النُّقْلُ مِنَ الشُّبْهَةِ إِلَى الكَشْفِ
خِيَالًا يَتَلَقَّطُهُ الطَّيْرُ ذَرَّةً مِنْ رَاحَةِ المَنَاهِ .
الطَّيُورُ تَأْرُكُ أَيُّهَا الأبُ العَمَاءُ .

الطعنة الثانية - طعنة الخلودِ القويةُ بلا صخبٍ ، هي التي تردُّ العَبَثَ
إلى صوابه . هَيَّ : نَسَافَةٌ عَلَى هَذَبِكَ فِي الْعَبُورِ مِنَ الْخَوَاتِيمِ - تَلِكُ
التُّسْبِ الزَّرْقَاءِ إِلَى الْبَدءِ الْبَهْلُولِ .

أَبْنَاؤُكَ بِلَا أَسَانِيدَ فِي الطَّعْنَةِ الثَّانِيَةِ ، أَيُّهَا الْأَبُ الْعَمَاءُ .

وجودَ نَمِيمَةٍ تتقاذفُ السُّطُورُ فِي اللُّوْحِ ، من أعلى إلى أسفلَ ، والمَقْتَلَةُ
البريقُ تتحسَّسُ المَخَارِجَ ، فِي صريرِ الأَقْلَامِ ، إلى مقدورها النورانيِّ .
بأيِّ فمٍ حدثتِ النُّورَ عن خَبَرِ الشُّكْلِ ؟ بأيِّ ضَجَرٍ سَارَزَتِ المَكْنُونَ ،
أُيْهَا الأبُ العَمَاءُ ؟ .

بكثير من رمادِ شَجَرِ العَرَقَدِ تَسُدُّ الجرحَ الذي فَتَحَهُ النِّيلُوقَرُ ، بشفرةِ
الماءِ ، في مجرى كَمالِكَ الدَّافِقِ ، حيثُ الضَّرورَاتُ البَسَّاتِينُ تتجاوَرُ
مُتَشابِكَةً على ضفافِ العَمَرِ .

نزيفٌ قليلٌ ، بعد هذا ، يُبْقِيكَ شاحِبًا شحوبَ العاشقِ ، ما دمتَ في
أَثَرِ المَهجورِ - القِدَمِ ، المنعكس بحريقهِ على ثديكَ الحَزَفِيِّينِ ، أيها الأبُ
العماء .

ما القُدُورُ الذَّهَبُ ، هذه المحمولةُ على جَمْرٍ اعتدالكِ يَغْلِي فيها العَدَمُ
كشَرابِ السَّفَرِ جَلِي؟ . أَنْتَ وَهَبْتَ الحَرِيقَ وَصَفَكَ كَي يَنْضِجَ المِجَازُ
العاصي ، وَوَرِثْتَ البُخَارَ تَوْبَةَ الطَّعْمِ .
فَجَرَّ تَوَابِلُ . عَصَفُ مَلْحٍ . مَلَاعِقُ الحِضْرَاتِ تَتَلَمَّسُ حِسَاءَكَ فِي
الصَّحْفَةِ الأَجْرُ ، التي أَنْشَأَتْهَا عميقةٌ كَحَيَلَاءِ المَنِيِّ .

طَهَوْ بعد طَهَوْ عُرُوجِكَ فِي التَّدْبِيرِ ، أَيها الأبُ العَمَاءُ .

يُقَلِّمُ البسْطانيون بِمَقْصَّاتِ الصِّباحِ غيومَكَ الفائِضةَ عن شَجَرَةِ المِناهِ ،
ويزيِّنون جِيزَ المِمراتِ إلى حدائقِ العَمَرِ الأوَّلِ بِنقوشِ من خيالِ الهِواءِ .
مرحى لأباريقهم ، لِلرُشاشِ الفِضَّةِ يَبْلُلُ ورقةَ الرِّيحانِ المتسلِّقةِ إلى
وسادتكِ بغِوايةِ الأجرامِ الكِبرى وافِئتِانِ المِجرَّاتِ .
لَمْ تَدلُّهم على جِهاَتِكَ . هُم يَتهاَمسون بِإِشاراتِ الكُزْبِرةِ ، وتورياتِ
الكَمِّ قِربِ الهاويةِ التي موَّهتِها بِأَسْماءِ النَّباتِ ،

أَيها الأبُ العَماءُ .

خمسةُ فراسخٍ للغيبِ ، بعدها أشبارٌ من غيبوبةِ المعلومِ ، يليها القَدَمُ
القنطارانِ ، والفراعُ المكيالُ ذو الأرقامِ النافرةِ من حديدِ أجزائه .
ثمّ ، أيضاً ، لا نهايةَ بعدَ لا نهايةٍ تتكوّمُ وديعةً كالسّناجبِ في سلالِ
الظّاهرِ القنّاصِ .
أيّشهدك الباطنُ ، بعدَ هذا ، على مَرَجِهِ في إيوانِ المعنى البهلولِ؟
ذئبكَ غمامٌ ، والبرزخُ حظيرةُ الأوديةِ الهائجةِ ،
أيها الأبُ العمّاءِ .

التمائيلُ، التي تقضمُ على طُرُقَاتِ المغيِبِ ثَمَرَ الكواكبِ، وتُقايضُ
الكثافاتِ فلزاً بفلزٍ، ولوعةً بلوعةً، شَغَفُهَا غَدَكُ الدَّسِيسَةِ، المتسلُّ من
مخدعِ النُّذُورِ الكبرى إلى الكمالِ المطحونِ .

أنتَ، مُذْروُضَتَهَا بنزيفِ الحَجَرِ، تركتَ لها شحوبَكَ قوياً على
طُرُقَاتِ المغيِبِ، وقسَّمتَ المغيِبَ الرغيفَ على أشكالها مُتَبَلاً بالدمِ المشاعِ
في قارورةِ غَدَكِ - غَدِ الدَّسِيسَةِ، الذي يُذيقُها لذائذَكَ العَشرَ،
أيها الأبُ العَمَاءُ .

نوافيرُ رماد . جُلَسَاءُ مسحورونَ على الأرائك يرمون نُوى الزيتون إلى
طواويس الفردوسِ المهزولة من سفاذ لا ينتهي . غَلَمَةٌ أباريقُ ، صَبَّواتُ تُدَارُ
عليهم بيَدِ العُبارِ المُؤَيِّدِ ، وَالْفُروَجُ تُدافعُ محمولةً على جراحِ الذِّكْرِ . هكذا
وَلَيْتَ الإِثْمَ نقياً على الظلِّ الذي يمتحنُ الظلَّ بقهقهاتِ أقواسِهِ .
مريدونَ صَعَتَرٌ ، وَأثْمَةٌ ريحانٌ في رُدْهَاتِكَ ؛ مُنْقَبُونَ عن شجرةِ الريحِ
يفتحون ثغرةً ثانيةً في خزائنِ الخلود . وَأنتَ والعَدَمُ ، معاً ، تضربانِ الحَجَرَ
بسَوِّطِ العافيةِ فتنهَضُ الشيرانُ ،
أيها الأبُ العَمَاءُ .

إنَّه الْمَسْكُ مُلْتَمَعًا كَالزَّيْتِ عَلَى الْعَانَاتِ ، وَالْفِضَّةُ تَتَلَاؤُا ذَائِبَةٌ فِي
نُقَرَاتِ السُّرَرِ . أَثْدَاءُ مَرَّاسٍ تُلْقَى فِي الشَّهْوَةِ مِنْ أَعَالِي الْيَقِينِ . طَحْنُ
شَفَاهُ . قُلْ لِي ؛ أَنْتَ قُلْ لِي ، أَعْرِفْتَ كَيْفَ تَتَلَوُ الْخِصْيَةَ عَلَى هَبَائِكَ نَقَشَ
الصُّورِ فِي سَطُورِ مَنِيٍّ؟ أَعْرِفْتَ مَا يُرِيْقُكَ قِدْمًا كَاللَّبَنِ عَلَى الدَّرْعِ الَّذِي
حَمَلْتَنَا مِنْ نَكَبَاتِ الثُّورِ إِلَى نَكَبَاتِ الثُّورِ؟

لسانٌ واحدٌ يَرْعُ البُظْرَ فِي عِلْمِهِ ، أَيُّهَا الأبُّ الْعَمَاءُ .

من فتق واحد تتدحرجُ النبوءاتُ والأقفالُ . الموتى يستحضرون
الأطواقَ ، والنهائهُ تقعدُ بكفليها المكتنزِين على كَمَرَةِ الرَّجاءِ الفَحْلِ .
شهيقُ صوَرٍ . شهيقُ عَرَشٍ . حِجَابٌ مَهْبِلٌ . لا تياسَنَّ ، سنخذلُ البراهينَ
كي نخذلُ الوقتَ الذي شُرِدَ طويلاً قبل أن يعثر علينا في شَتَاتِ الخلائقِ .
سنخذلُ الموتَ باستئذانه أن نبقى موتى حُجَّاباً على هرطقاتِ الحَفَاءِ
الفاجرِ - أميرِ الجزرِ في المضائقِ الأزلية .

هيَّ انتشرَ ثانيةً . مَوِّهُ العراءِ الذي كُنْتَهُ في هَذَا الجِهاَتِ : شهيقٌ
يُتَمِّمُ النَفْخَ الأوَّلَ ، والجماعُ صدكُ في العِظامِ ،
أيها الأبُ العماءُ .

ما نجواك وأنتَ في البُحْرانِ الذَّهبيِّ ، تتصبَّبُ القيامةُ في يديكَ عَرَقًا
من جدرانِ الموتِ؟ بوأقونَ يتسلَّمونَ الوجودَ في قِربِ الشَّحْمِ ؛ نوثيُونُ
يحملونَ الأبدَ في قواربهم القَصَبِ إلى طواحينِ المياهِ . هَبَّهُمْ أَنْجَزُوا الهباءَ
رَضْفًا بالمواثيقِ إليك ، كلُّ ميثاقٍ كَيْدٌ ؛ هَبَّهُمْ رُدُّوا إلى المُشْكِـلِ عافيةً
المُشْكِـلِ فأعانوكَ ، ودربوا الكمالَ على الأرقِ ، فما الذي ستُخفِيهِ أكثرَ عن
يَقِينِنَا كي نضمَّ خزائنَ اللانهايةِ إلى مُلْكِكَ الطَّافِي جليدًا في البُحْرانِ ،
أُيُّهَا الأبُّ العَمَاءُ؟

البقاء عاصِفًا يكلّمُ الشهود المسحورينَ على عتباتِ الرمالِ ، والجمادُ
يصعدُ إلى الألمِ بعَتَلَة النار ، مُمْتَنًا للظلالِ ذاتها التي تقدّمتهُ عميَاءَ
بعكاكيزِ الثُّورِ إلى مَذْبَحَةِ الثُّورِ : لن يكونَ هنا أحدٌ آخرٌ غيرُ الخلاءِ المُترنحِ
بعافيةِ المهجورِ ، وغيرُ هذه الهضبةُ .

لا الوقتُ . لا الثُّمورُ . لا المُغْضِلَةُ المُمْرِقَةُ على بابِ السّادنِ الذهبيِّ .
لا الخاتمةُ العريقةُ . لا الجاهلُ السَّبْعَةُ . لا التدبيرُ النورانيُّ لإشاراتِ
الإثمِ القدوسِ . لا أحدٌ غيرُ المُسكِرِ بعافيةِ المهجورِ . لا أحدٌ غيرُ الهضبةِ -
السَّفْحِ المُنبسطِ من رملٍ ومرافىءٍ لِسُحْبِ الليلِ . فإلى أيِّ جِوهرٍ ستَحْمَلُ
نَقِيَّ العظامِ المُخْتَمِرِ من مَذابِحِكِ الرّحيمَةِ؟ ها هُمُ يخاطبونك كَالسَّهْلِ ،
ويتحنونك كغديرٍ ، فاحمهم كالنَّدَمِ ،
أيها الأبُ العَمَاءُ .

فتيانُ الساعاتِ الصغيرةِ - ساعاتِ البكورِيَّةِ التَّائِهَةِ فِي حَقْلِ الكَمَأِ ،
المتدبون على أعراسِ لصحبها نزيْفُ الكَئِيرِ ، يُعيدون القَيْدَ إِلَيْكَ مَصْبوغًا
بالقصدِيرِ ، نظيفًا مَعْدُنًا صُلْبًا كتأويلِ الدَّارِسِ . لا مفاتيحَ . ساعاتٌ من
قُطنٍ مَحْلُوجٍ ؛ نَفْحٌ ؛ هدايةٌ رِطْلٌ من دمٍ فِي ميزانِ الأَعالي .

أَنقَذْ أَحفادَكَ من براثنِ النُّورِ ،
أَيها الأبُ العَمَاءُ .

العريقُ العريقُ - قيدُك هذا ، قيدُ الوثبةِ من اللانهايةِ إلى سريرها ،
والهاويةِ القيامةُ بوحكٍ للشكلِ الذي يُعذبُ كالفجرِ : صرَّ إليك بالمكينِ
المنذرِ ظاهرًا في خلاءِ المعنى ، إذ تستيقظُ الكلماتُ على شفّتكِ عاريةً
فتمرِّعُ القبلَ على بطونها لثماً حتى تلدكِ أنتَ من شهوتها ، عاقداً للمعنى
خلاءهُ الثاني - مجدَ الضرورةِ التي تتناثرُ أزرارُ قمصانها في لهفتكِ إلى
الغوايةِ ،
أيها الأبُ العماءُ .

النهارُ الأصفادُ . الليلُ الأصفادُ . المراكبُ ذاتُ الصواريِ الغيوم .
الأكبَادُ مقذوفةٌ - أكبادُ الرُّسُلِ العَدائينَ من سَفَكِ إلى سَفَكِ . هُبَّ أيها
المُجرَّدُ من الجواهرِ القَيْدِ إلى نَوْلِكَ تَنسجُ الصُّورَ كُلِّها ، المحمَّولةُ من خيَالِ
الدَّهرِ إلى الثُّمورِ .

مَشْرُقُ الكلمةِ ومغيبُها بينَ قَرْنَيْ شيطانِ اقتطَعَ من الحقيقَةِ بسَاتينِها ،
والممرَّاتِ الظليلَةَ طاقًا بعد طاقٍ منتصبٍ فوقَ عرائشِ الكمالِ اللَّهَبِ .
هُبَّ . نَاجِ اللَّهَبِ بعلامةِ الدخانِ على أعضائكِ إذ أنشأها النُّقْشُ الهَبَاءُ ؛
النقْشُ الحَيُّ ، الجَسْمُ - بمشيشةِ الرِّسْمِ فيه - أثرَ الغيبِ في متاهتِهِ ، وأنسخِ
المُحَيَّرَ بأقلامِ الطِّينِ ،
أيها الأبُ العَمَاءُ .

دِرْهَمٌ صَفْوِيٌّ عَلَى رَاحَةِ الشَّفَقِ . نَقُوشٌ عَلَى النُّصْلِ : مَوْهُوَ الأَثَرُ مِنْ
وَرَاءِ البِغَالِ بِإِشَارَاتِ المَاءِ ، وَخَوْضُوا خَفِيَّيْنِ فِي السُّنْبَلِ ؛ فِي البَقُولِ
المُنْجَدِ ؛ فِي الكُرَاتِ أَزْرَقَ يَضِيءُ لِلنَّبَاتِ سَمَاءَ الأَمْثَالِ . خَوْضُوا شُعَاعًا
وَاحِدًا فِي الأَثِيرِ الذِّي يُمَوِّهُ الأَثَرُ . فَالذِّي كَوَّرَ العَدَمَ كَالخَصِيَّةِ ، وَأَنعَظَ
الخَوَاتِيمَ كَالحَلَمَاتِ تَحْتَ لِسَانِ الوَارِثِ ، هُوَ المُقْتَصِدُ فِي التَّدْبِيرِ أَنْ يُعِيدَكَمَّ
إِلَى أُمَّه السَّامِ أَنْقِيَاءَ مُسْكُوكَيْنِ سَكَّ العَرَضِ ، تَتَقَافِزُونَ حَوْلَهَا فِي غَمَامِ
الضَّرُورَاتِ - قَبْلِ الأَكِيدِ المُخَادِعِ عَلَى ثَدْيِي مَشِيئَتِهِ .

دِرْهَمٌ عَلَى رَاحَةِ الشَّفَقِ ،
أَيُّهَا الأبُّ العَمَاءُ .

لا تَبْتَكِرْ إِلَّا مَا يَنْتَهِي : مُطْلَقٌ عَرَضٌ يَتَسَلَّمُ مِنَ الْكَيْنُونَاتِ مَفَاتِيحَ
الطَّيْنِ ، وَالْمَصَادِفَةَ بِعَانَتِهَا الْحَلِيقَةِ ، بِفَرْجِهَا الَّذِي مِنْ عَرَقِ الرَّقْمِ ،
بِقَشْدَتِهَا ، الْمُتَذَلَّلَةَ مُدَاهِنَةً إِلَى الْمَغَالِيقِ ؛ الْمَصَادِفَةُ السُّفَاحُ ، رَهَائِكُ - أَنْتَ
- عَلَى تَدْبِيرِ الْكَسَلِ لِلْمَشِيئَاتِ بِأَلَاتِ سَطْوَتِكَ الْبَادِخَةِ .
مَعْذُورُونَ هُمْ الْجَبَاةُ لَا يَحْمِلُونَ الْمَذَابِحَ إِلَّا نَاقِصَةً إِلَى هَرَجِكَ الْقَيْئُومِ ،
حَيْثُ تَدَخَّرُ الْقَفْصَ التَّرَابِيَّ - الْقَبْرَ ، ذَا الْكُوَّةِ الَّتِي تَتَحَرَّى مِنْهَا الْحَيَاةُ ،
بِعَيْنَيْنِ دَامِيَتَيْنِ ، آخَرَ الْمَاعِظِ يَسْتَسَلِّمُ لِنِغْنَاءِ الْحَجَلِ .

أَلْغَبَارُ الْجَابِي ، وَحَدُهُ ، يَسْتَكْمَلُ مَا لَا يَنْتَهِي ،
أَيُّهَا الْأَبُ الْعَمَاءُ .

لا بشيءٍ ، لا يكون منْ لا ، هذه الثَّقَلَةُ الذهبيةُ بأقدامِ الفهدِ من
أحراشِ الماهياتِ إلى الجلالِ الذَّاهِلِ .

لا بشيءٍ تستولدُ للدَّهَاءِ ملاعبَ النَّقشِ وَمَجَالِسَ الشُّكْلِ . قُبْرَاتُ
الزُّرُومِ على وسائدك ، كأنَّ أنتَ قائمٌ بالغَلْبَةِ ، بالتَّيْهِ ، بالذَّاتِ المركَّونةِ إلى
أنفاسِ العَدَائِيْنَ ، بالخَفَّةِ ، بالمَحَالِ مُبْتَسِمًا يَنْقُرُ بِرَيْشَةِ الصَّقْرِ المِيَّتِ
صلصالَ صفاتك ، أيها الأبُ العَمَاءِ .

كم تكبَّذتَ الأَسْرَمُ مُذْ لجأتَ إلى يقيننا بأسماءِ من أسماءِ القَيْدِ
السَّتَّةِ ، تدفعك الأَطْيَافُ الغَاضِبَةُ في مضائقِ الرُّسُومِ ، وينتَهركَ العاصِفُ
الْبَرَمُ من تقلُّبِ الصَّيْروراتِ بين يديه ، كأنَّكَ أسْرَفْتَ في تغليبِ الجَوْهرِ
فأنسَتَ إلى طيشه ، فوافاكَ بالنِّكَالِ هذا الأَلْقُ الكِتُومُ ، المُبَدَّرُ كَأَمِّهِ
بالأحوالِ .

أَلَقَى نَاطِرٌ ،

رَيْبُ اللَّهَاتِ المُخَيِّبِ إِذْ تدورُ نواعيرُ الأَجْسَادِ ،
أيها الأبُ العَمَاءِ .

الفَجْرُ العَيَّارُ - تُخْفَةُ الذُّهولِ المُنْشَىءِ وميثاقُ الطَّبْعِ يرثُ خواتمَ
النَّهْبِ ، التي أخرجتها لِحْمًا من حنينك إلى المرثيِّ ، قبل أن تَلِدَ الصَّوْرُ
خيالَ القَدَمِ . هَيْه ، زَجْرًا فَلَقْتَ صَدَقَةَ المرثيِّ كي تَرْهَنَ الظلامَ للحماقاتِ ،
وَأَلْحَفْتَ على النُّورِ أن يُكِنِّي دلالاً في بوحكَ للفناءِ المهجورِ ، فَخَذَهُ
سليكَ الفَجْرُ العَيَّارُ من جَنَباتِ الأَهراءِ العظيمةِ ، حيث تَرَفَعُ المُمكناتُ
اللُّقِيطةُ غِربالها فتتناثرُ النُّخالةُ الحَلْقُ . لا سِواءَ . نَخَرُ على العَتَباتِ بمديَّةِ
الفَجْرِ :

طَفْرَةٌ هذه ، - قَلْ لي ،

وتَدَخَّرْ شُبُهَةً ،

أيها الأبُ العَماءُ .

غَرَقُ طِبَاعٍ - كُلُّ هَذَا الْحَاصِلُ الْخَفِيفُ فِي الْوَتْرِ الَّذِي هَزَزْتَهُ بِأَنْمَلَةٍ
الْخَيْرِ . غَرَقٌ يَلِيهِ غَرَقٌ . مَوَاجِعُ ثَمَرَاتٍ ، وَالنَّحِيبُ الْمَغْذِيُّ بَعْسَلَهُ - عَسَلِ
الثَّدْيَيْنِ اللَّذَيْنِ كَوَّرْتَهُمَا لِلْأَنْثَى مِنْ أَثَرِ الْهَارِبِ إِلَى حَيْلَتِكَ فِي الصَّلْصَالِ ،
يُدْفَقُ الْعَافِيَةَ فِي عَضَلَةِ الصَّيْرُورَاتِ حَتَّى لِكَأَنَّ سَتُوْحَدُ ، أَنْتَ ، نَهَبًا مِنْ
الْجَوْهَرِ الدَّمَوِيِّ إِلَى الْعَرَضِ الدَّمَوِيِّ . غَرَقٌ يَلِيهِ الَّذِي غَرَقٌ . نَحِيبٌ تَذِيٌّ .
مَوَاجِعُ :

كَمْ أَسْرَفْتَ فِي اخْتِلَاقِ النَّبَأِ عَلَى لِسَانِنَا ؛
كَمْ وَشَيْتَ بِنَا إِلَى السِّيَافِ الْمَقْدُورِ ، أَيُّهَا الْأَبُ الْعَمَاءِ .

لولا تُخزَمُ المكايلُ فتؤتى غماماً على غمام ، ويُنشأُ الدهرُ من أرقِ
الواحدِ المُسدّدِ رَقماً إلى عَبَثِ الرِّقْمِ ، لولا يُكافأُ التوالي المعدودُ بلوعةِ
الأمعدود ؛ سهولُ هناك ؛ ثعالبُ تندحرجُ مَرَحاً على بيادرِ الريشِ ،
والفاكهةُ تمسحُ قُبَلاتها ، بأكمامِ الندى ، عن فرجِ النعمةِ . غيومٌ تتلاسنُ .
أوديةٌ تتفانى في ترتيبِ الغَيْهَبِ . قلُ لي ، بحقِّ السِّفاحِ الخالدِ ، أَلَلِّقْمَتِ
العافيةِ مِنِّي الحِفظِ الخائِرِ ، نَحْتُ الحِصَى ناعمةً ، من جديدِ ، تحتِ سيفِ
العِرفانِ ؟

ضيقُ يَبْدِيكَ شاسِعاً ،
أَيُّهَا الأبُّ العَمَاءُ .

طاغيةً هذا الخيرُ العابثُ بخزائنا . رُسُلُهُ المحتَجِبُونَ في نَزْعِ الموتِ
يتقاذفون بأرغفةِ النَّشآتِ في المأدبةِ ، ويركلون أباريقَ النَّشُورِ الذهبيةِ . خَيْرٌ
مَنْ عَلَّلَ النَّفِيسَ . خَيْرٌ مَنْ عِلَّلَ النَّفِيسَ . خَيْرٌ نُدْبَةٌ تَحْتَ جَنَاحِ الْمَلَائِكِ :
اعْتَصِرْ ، أيها الأبُ العماءُ ، مِثْلَةَ الْحَقِّ ؛ اعْتَصِرْ حَوْصَلَةَ الْفَنَاءِ الْمَلَأَى
بِعَدْسِكَ وَفُؤْلِكَ . ما لا يعترفُ يَعْتَرِفُ الْآنَ . ما لا يُكْتَمُ يُكْتَمُ الْآنَ . مَذْبِجُ
نَقِيٍّ كَالضَّرُورَةِ ، أنيسٌ كَالطَّحْنِ ، مفتوحٌ رواقًا على آخرٍ ، وقيامَةٌ على قيامَةٍ
حتى نواعيرِ الفردوسِ التي تغرفُ للسواقِي الأزليَّةِ من فراغِ كَمَالِكَ -
كمالِ الخيرِ ذِي الشُّفْرَاتِ الْعَظْمِ ، والزَّعَانِفِ الشَّحُومِ .

طاغيةً . خَيْرٌ طاغيةً ،
والخزائنُ تتهشمُ تحتِ ضَرْبَاتِهِ ،
أيها الأبُ العماءُ .

لم يُمهّلنا الخلودُ الضريرُ أنْ نُبدّلَ الخواتمَ والأسفارَ بخواتمَ وأشفارٍ .
شَقَّقَ مالا - يدومُ بمديةِ العُبارِ واستنبتنا جذورًا وبلوراتٍ ، مُحصيًا بأقلامٍ
الحَسَبَةِ صيروراتِ المُلغزِ في تَرْقِوَةِ الذَّكْرِ وَرَضْفَةِ الأُنثى . الخلودُ المَجَاهِلُ ،
النَّقِيُّ كالتِّيهِ . الخلودُ ذاته ، الذي قَيَّدَ الفردوسَ الشورَ إلى نورجهِ في بَيْدَرِ
المصكوكاتِ الصِّلصاليةِ . الخلودُ المُستعرضُ اندحارَ الفراغِ المغدورِ بخناجرِ
أجناسه ؛ الأبيكم المُترهِّلِ من هبوبِ الولاثمِ على وشاحِهِ الكِتَّانِيِّ . الخلودُ
المُعْتَفُّ من أبيهِ الزَّوَالِ ، الذي أبقانا خالدَيْنَ ، هنا ، في عبوركِ مطعونًا من
مَلَلِ إلى آخرَ ،
أُيْها الأبُ العَماءُ .

ما الهدنة هذه ، إن لم يكن النحرُ على رسله ؟ . قتلُ هدايةٍ في هدنةِ
القتلِ الهدايةِ هذه ؛ هي اذبح اللونَ على ثديك ، اذبح الشفقَ على
ثديك . اذبح الفراديسَ الكسيرةَ ، وامنح النسيانَ الذي يتنكرُ - وحده -
لغيبك المتسرّبِ من شقوقِ زيرك النحاسِ ، أمل أن يفتديك بالنسيانِ من
أسرِ العَبَثِ - نمرِكَ الجوابِ
خراثبِ المعاني .

هو عصيانُ في الوردِ . عصيانُ لونٍ . والجمادُ المروغُ قطرةً قطرةً يستنزلُ
الكونَ ذائبًا في المسيلِ العريقِ إلى النهايةِ . هيه ، ها ترى المستأصلَ : بدخُ
طينٍ يُعيلُ جراءَ السماءِ القتيلةِ ، أيها الأبُ العماءُ .

فمُ القُدْرَةُ يتلمسُ كَمَرَةَ الكيَانِ الدَّاعِرِ ، هنا ، في المعلومِ المُمْتَحَنِ
بقياسِ المغاليقِ . عَرَعَرُ وَسَرَرُ حَجْرِيَّانِ . سفوحٌ من حِمَمِ الزَّوَالِ وَفَتْكَ
عِمَادٌ : كلُّ هذا مَقْدُورٌ كَالشَّهْقَةِ من فَمِ العَاشِقِ ؛ كَالجَهَالَةِ - غزَالَةُ
الوَجْدَانِ المَائِيَةِ ، فلا تَعْرِضُنَّ بِنَاتِكَ عَلَيَّ ، شَفِيفَاتِ يَغْزَلُنَّ حُمَى بَعْتِكَ
فِي الأَرْقَامِ . انظُرْنِي : أَفِيضُ بِالأَفَةِ العَذْبَةِ من الزَّوَالِ العَذْبِ ، يَفِيضُ
النَّقْصَانُ مِنْ كَمَالِكَ الحَرَاتِ شَفِيفًا كِبِنَاتِكَ المُسْتَعْرِضَاتِ خِيَالَ الوَحْدَةِ
الذِي يَبْتَكِرُ لَكَ أُمَّهَنُ المَوْلُودَةِ مِنْ خِيَالِهِنَّ . عُرُوضٌ ، أَيُّهَا الأبُ العَمَاءُ .
أَصْفَادُ عُرُوضٌ ، والعَانَاتُ المِثْلَالَةُ زَرْقَاءُ فَوْقَ فُرُوجِ بِنَاتِكَ ، أَرْخَبِيلُ المِجْرَةِ
الثَّالِثَةِ فِي فَلَكَ المَعْلُومِ ،
أَيُّهَا الأبُ العَمَاءُ .

عراكُ نَسورٍ في الهاويةِ الأزليةِ ، والتّيّاتِلُ شقراءَ تخرُجُ من البلوراتِ إذْ
تغلي نِقاءً في القدرِ العُظمى . مُمكنٌ عَضُّ . وجودٌ عَضُّ . فراغٌ يتحوّطُ
للأثقالِ بمذاري الرّمادِ : هَلّا أعنتني أن أقضّمَ أجاصتَكَ التي تعيدُ إلى
لساني طَعْمَ الشُّكْلِ؟ . عراكُ نَسورٍ في الرثاتِ . غيابٌ حلجٌ ، والمراقبي إلى
الخسارةِ سطوركُ التي دوّنتها بالعنْبِ على حنيني المُسكِرِ إلى ماكنتهُ ؛ إلى
المُشكِلِ ، مُمَجِّداً بغيظِكَ - غَيِظِ المَكسورِ إذْ يتمادى في ابتكارِ العِللِ إلى
لا نهايةٍ ،

أيها الأبُ العَماءُ .

سَتَفْتَحُ الحِطَّائِرَ ، الآن ، لألوانِكَ ، وأياثِلِكَ البَلُورِ ، وبقِراتِكَ ، حاملاً
مفاتيحَ النُّبَاتِ إلى خِزائِنِ السُّهُولِ ، كي تَتَجَرَّدَ ، كَرَّاعٍ مَسْتَوْحِشٍ ، من
سِراويلِكَ الأَرْضِيَّةِ ، وتُكَوِّرُ السَّمَاءَ طِيناً بَعْدَ طِينٍ يَلدُ الكائِنُ فِي كَثيفِهِ
شِفافَةً حِضْرَكَ مُطْلَقاً كالدُّعْرِ ،
أُيُّها الأبُ العَمَاءُ .

مُؤَيَّدَ أَنْتَ بِالْحِيلَةِ ؛ مُؤَيَّدٌ بِالكَئِيدِ الرَّجْرَاجِ كَشَدِيدِ الْعَانَسِ ؛ بِالْمَسْكُونِ
مِنْ هِيَاطِ الْفَرْدُوسِ الْمَهْجُورِ . وَالْأَرْوَاحُ تَتَوَلَّأُكَ فِي اقْتِحَامِهَا الْبَرْزَخَ
فَتَكْشِفُكَ مَلُوءًا ، نَزِيلَ جَمَالِ أَرْقٍ يَتَقَلَّبُ فِي الرَّمَادِ الْآدَمِيِّ . أَلَا أَيْقِظُ
شُكُوكَ - تِلْكَ الْإِرْوَةَ الرَّكَضَةَ حَوْلَ بَرَكَةِ الْأَزْلِ ، وَاغْتَسِلَ فِي الْيَقِينِ الَّذِي
لَمْ تَكُنْهُ ،
أَيُّهَا الْأَبُ الْعَمَاءُ .

صَبْرًا: يتعافى الكَيْدُ العَرِيقُ؛ تتعافى اللُّوعَةُ في الظلِّ المُلْقَى من
تماثيل الغَمَامِ على الهاوية، والجراحُ التي آنَسَتِ الوجودَ - إذ فَتَقَتَ الوجودَ
بَظَرًا بعدَ آخرٍ في ثَمرةِ اللُّحْمِ - رُسُلُ النَشِيدِ إلى امتداحِكَ . آجالٌ في
مَعَارِجِ آجالٍ . صَبْرًا: ستوفظني اليدُ الأنقى من سُبَاتِ الخواتيمِ أَنْ
تستعرضُ لطرائدِ الأزلِ مخابىءَ الهيئاتِ الأزلِيَّةِ، وتُسمِّي الأَقفالَ مقابضَ
المعاني وزُلالَها . متاعٌ كثيرٌ هنا؛ متاعٌ مَنَنْ، وحروبٌ مَنَنْ . آجالٌ تتعافى
في الكَيْدِ . هَرَجُكَ المَنِيِّ . قُلْ لي: أيجري عليك ما على الدَّمِ من عقْدٍ؟
بلى، آتِيكَ من البَدَدِ الحافظِ - سَيِّدِ النُّقْلةِ من شَكِيمَتِي إليك ،
أُيُّهَا الأبُّ العَمَاءُ .

القَبْلُ ذاتها ؛ القَبْلُ ذاتُ الأدرج ، الأهلهُ بأشباحِ الصَّيادين . القَبْلُ
النمورُ على أكماتِ الجسد . الهبَّاراتُ متدافعةٌ من شجرِ المنتهى إلى سُدرَةِ
الغياهِب . القَبْلُ القُوى صاعدةٌ درجَ العَدْل إلى النَّهْب . القَبْلُ الأكماتُ ،
الصقورُ . القَبْلُ الشُّجارُ في الأروقةِ الثورانيَّة . القَبْلُ المقايضاتُ المحسوبةُ
بأرقامِ الفَجْرِ الحَطَّابِ . القَبْلُ الغَلاصمُ في الماءِ مرفوعًا إلى شفتيكِ
المُحِبِّرِحتين - رُدَّها إلى فمي ، أيُّها الأبُ العَماء .
تَمَرَّقُ السماءُ ، بيراثنِ اللأمعدودِ ، غزالةُ الأجرِ المنتصبَةِ في هيكلكِ
شرقًا ، هناك ، تحتَ أنصابِ الحظوظِ الكبرى ، المتدلِّيةِ من أعناقِ البَجَع .

خُذْ تاجَكَ من يدِ المَغيبِ الإسكافيِّ ؛ خُذْ صولجانَ النَّدَمِ من يدِ
المُرِيدِ الهارِبِ ، أيُّها الأبُ العَماء .

يُضْرَمُ الرُّوَاهُ فِي الْمَكْنُونِ الْعَاقِلِ نَارُهُ الْعَاقِلَةُ إِنَّ حَدَّثُوا . مَلْمُومِينَ
حَلَقَاتٍ زَبْدًا ، أَخْتَامًا . مَلْمُومِينَ يَأْخُذُهُمُ الطَّلَعُ مِنْ كُنْهُ الْوَاحِدِ إِلَى سِفَاحِ
الْكَثِيرِ . وَهَمٌ ، كَكَثِيرٍ ، تَخْيِيرُوكَ نَجْوَى الْحَطْوَةِ إِلَى كِمَاتِهِ - كِمَاءَ الْفُرُوقِ
الشَّرِيدَةِ . رَوَاةٌ مَغَالِيْقٌ ، حَسَبَةُ فِي تَصَارِيْفِ الشُّكْلِ ، مَعْدُودُونَ يَقِيْنًا
سَلَالِمَ إِلَى الشُّكِّ ، كَأَنَّهُمُ النَّفْسُ الْأَوَّلُ مِنْ رِنَةِ الْهَيُولَى . إِلَيْكَ ؛ خُذْهُمْ
إِلَيْكَ يَزُؤُوا مَا أَدْخَرْتَ مِنْ سَطُورِ الْمَعْلُومِ فِي خَزَائِنِ الْعَيْبِ ذَاكَ - غَيْبِ
الْحَلِيقَةِ النَّحَاسِ عَلَى بَابِ الْعِلَلِ .

حَلَفَ عَقْلٌ يُسْرِخُ الْقَطِيعَ الذَّهَبِيَّ فِي أَرْجَاءِ غَمَامِكَ ،
أَيْهَا الْأَبُ الْعَمَاءِ .

الثلوجُ تعتصرُ النقوشَ النافرةَ في الصخرةِ الدُمويةِ - صخرتكِ أنتَ ،
التي عَضَّضْتَ عليها بنواجذِ الرقمِ أزلًا كالتخمين . الثلوجُ الأقاليمُ ، مَهَبُ
الأعالي على الفِتنَةِ . الثلوجُ المسالِخُ ، حيثُ العروجُ من فردوسٍ إلى آخر
بجناحِ التهلكةِ . لا إرخاء . عَصُرَ بقبضةِ الكمالِ الأبيضِ على النُقشِ ،
والأُمِّ تَلوَّى خَرَسَاءُ ؛ الأَقْفَالُ تَلوَّى ؛ الجمادُ والسَّماءُ يتلوَّيانِ مُخْتَنِقَيْنِ في
صَدَقَةِ النُّحاسِ الخالِقِ . مَيِّدُ . صخرتكِ أنتَ المُعْتَصِرَةُ في الميِّدِ كأنَّما تنزفُ
خيالكِ قطرةَ قطرةٍ من صدوعِ الخلقِ وكسُورِ المُمكنِ . أينكِ إنَّ خُصِّصْتَ
تخصيصةً المنهوبِ؟ ثلوجُ علائقٍ ؛ شُبُهاتُ ؛ ظُروفُ مُرْجاةٍ ؛ مقاصيرُ ؛
أدرجُ إلى المُشكِلِ القِيُومِ . بكِ وحِدِكَ تعتصرُ المغالِقُ شهواتِ الكيِّدِ على
قروحها ، والثلوجُ نواجذُكَ تعضُّ بها النقوشَ التي لم تكتمل ،
أُيها الأبُ العَمَاءُ .

سَرَّاجُونَ عَلَى أَبْوَابِ الْمَضَائِقِ يَبْتَكَرُونَ لِلْأَلَمِ مُكُومَهُ الْأَدْمِيِّ . تَحْتَ
الْحَيْلَةِ ، مُسْتَنْدِينَ إِلَى شَجَرِ الْخَرْثُوتِ فِي رَسْتِاقٍ وَاحِدٍ مِنْ زُجَاجِ الْبُحْرَانِ .
أَوْكَلْتَهُمْ أَنْ يَنْجُرُوا السَّرَاقَ الْمُعَذَّبَ مِنْ خَشَبِ الشُّمْسَادِ ، وَيَفْتَلُوا الْحِبَالَ
بَزَيْتِ السُّنْدُرُوسِ؟ مَهَلًا ، لَتُتَوَقَّدَنَّ إِلَيْكَ ، فِي الشَّرُوقِ الْأَعْمَى ، قَنَادِيلُ مِنْ
شَحْمِ النَّوْنِ ذِي الرُّعَافِ الْبِازِلْتِيَّةِ فِي بَحْرِكَ الْبِازِلْتِيِّ ، وَلِيَهْدَمَنَّ الْمَغِيبُ
نَقْشًا نَقْشًا حَتَّى يَنْزِفَ الْخِلَاءُ الْكَلْبِيُّ نَسْلَكَ صِمْعَمًا مِنْ رَتُوقِهِ ، خِرَابًا بَعْدَ
آخَرَ ، وَتِيهَا بَعْدَ تِيهِ فِي النُّقَاءِ الْمَسْلُوخِ كَشَاةَ يَقِينِكَ ،
أُيُّهَا الْأَبُ الْعَمَاءُ .

خُنْفَسَاءُ أَتَكَ اللَّوَاتِي دَوَّخَنَ المَعْقُولَ ، عبورًا بكراتِ الرُّوثِ الذهبِيِّ من
فكرة إلى فكرة ، تتساقطُ أرجلهنَّ على الأدرج ، تتساقطُ قرونهنَّ - قرونُ
النَّسيانِ . خُنْفَسُ بِيضٌ هُنَّ بِصُرُكِ البِيضِ المُسْتَعْرِضِ نَزْوَةَ الخلودِ
الجاهلِ . مِحْنَةُ بِيضَاءُ تَتَصَيَّدُ بِشَصَّهَا الخَلَائِقُ كَنَزْوِكَ الغَارِقَةُ فِي الحِطْوِظِ
الغَارِقَةُ ، وَالصَّفَفَاتُ تَسْتَنْبِجُ الصَّفَفَاتِ عَلَيْكَ . ادْخُلِ المَعْقُولَ بِالحَيَوَاتِ
مرصوصةً كَالقَصْدِيرِ . ادْخُلِ التَّعَبَ المُسْتَنْبِتَ مِنْ نَفْخِ الصُّورِ عَلَى لَهَبِ
الأشكالِ . خُنْفَسَاءُ أَتَكَ بِيضٌ يَدْحَرُجْنَ كُرَاتِ الحَبْرِ عَلَى الفِرَاقِ المَسْطُورِ
بقلمِ الشَّهْوَةِ . عُدَّهِنَّ بِأَرْقَامِ الرَّمَادِ . هَا هُنَّ خَارِجَاتٌ مِنْ صَدُوعِ اللُّوحِ وَقَدْ
أُزْبِكِهِنَّ أَنْ تَتَعَثَّرَ أَفْلَاكُ بِأَفْلَاكِ فِي احْتِدَامِ المُطْلَقِ . بِيضٌ . وَأَنَا ، النَّرْجِسُ
الَّذِي أَرْفَعُهُ لَنْ تَرْفَعَهُ يَدٌ أُخْرَى إِلَى بُحْرَانِكَ ، أَيُّهَا الأبُ العَمَاءُ .

الأفلاكُ الأحدَ عشرَ . اللّوازمُ الفَنَاءاتُ والهيولى . الكيدُ السَّبَبُ .
الهباءُ الأنقى . الرِّدَّةُ الدَّهْرِيَّةُ . الإنصاتُ إلى خزائن اللّون . المعادنُ أسفلَ .
المعادنُ أعلى . الطُّوقُ الرِّبْدُ . لا هويَّةَ . لا قيامَ . حَشْرٌ بسَيْطٍ : ضمُّ هذا إلى
غيره .

طُهارةٌ يرفعونَ الأبواقَ إلى فمِ اليَقِينِ الحَالِمِ ، والأسلحةُ على حالِها ،
أُيُّها الأبُ العَمَاءُ .

أَعْطَيْتَهَا بَدْحَ نَسْيَانِكَ . لَا قَبْلُ عَلَيْهَا . كُنْتَ تَرَاهَا فِي الْمَغْضِلِ الَّذِي
أَرْقُ الْجَاهَ فِي يَدَيْكَ ، وَهِيَ هِيَ لِي ، بِالْخَسَارَةِ الْمُنْسَرِحَةِ كَالنَّعْمَةِ ، فَتِيَّةٌ
تَتَجَاسَرُ عَلَى الْكَمَالِ الْمُنْشَدَةِ بِالْكَهُولَاتِ . أَعْطَيْتَهَا الَّتِي لَا قَبْلُ لَكَ عَلَيْهَا
هَبَّةٌ مِنْ امْتِنَانِكَ لِي أَنْتَنِي خَيَالٌ ؛ هَبَّةٌ هِيَ الْقَدَمُ الْوَارِثُ يَجْمَعُ قَلْبِي مِنْ
جِرَارِ الْمَسُوسِينَ عَلَى حَوَافِ الْعَسَقِ . يَا لِلْمَغْضِلِ أَنْشَأَ هَذَا . كَمِينٌ .
سَأُوَافِيكَ بِالْخَاتِمَةِ الظَّلِّ ، بِهَا - تِلْكَ الْجَسَارَةُ إِذْ تَتَعَاثَى الذُّكُورَةَ فِي تَأْوِيلِهَا
نَهْبًا نَهْبًا . لَا قَبْلُ . لَا قَبْلُ . بِيَدَيْنِ تَرْتَعِشَانِ مِنْ عَصْرِ الْكَمَامَةِ النُّورَانِيَةِ عَلَى
فَرْجِهَا سَأُعِيدُكَ إِلَيَّ هَازِيًا .

عَرَفْتُهَا الْبَارِحَةَ أَنْتَاكَ - طَرِيحَةَ الْوَعْدِ الْمَائِيَّ عَلَى فَرَاشِ الْمَكْنُونِ ،
أَيْهَا الْأَبُ الْعَمَاءُ .

النمرُ السَّيَاحُ ، ذو القوائِمِ الحَديدِ ، يطوِّقُ العِمَارَاتِ التَّسْعَ . شَبَكَ قَلْبُهُ . مَدَافِيءُ عَصَبٍ . أَحْشَاءُ شُرَفَاتٍ . وَبَرٌّ أبيضٌ حَولَ شَدَقِيهِ ، وَبَرٌّ شَجِيرَاتِ الجِيرَانِيومِ . هَادِيٌّ مِثْ شَابِكٍ . مَرْتَجِفٌ مِثْ شَابِكٍ ثَابِتٌ بِمِخَالِبِهِ الغَائِرَةِ فِي الطُّوقِ الإِسْمَنْتِ . رَصِينٌ فِي مَرْتَبَتِهِ كَسِيَاكِجِ . مِثْ ثَابِتٌ تَلْتَمِعُ الشَّعَاعَاتُ عَلى نَائِيَتِهِ .

نَمْرٌ سِيَاكِجٌ تَتَكَيءُ عَلى شِبَاكِهِ كِهَيْكَلِهِ شَقِيقاتُ المِيموزَا التَّسْعُ ، وَتَتَدَلَّى مِنْ ثَغْرَاتِ قَلْبِهِ الحَديدِ خُصْمَى النُّورِ . وَمَاذَا؟ . النَمْرُ الشَّجْرَةُ ، ذُو الحَنِينِ الفَائِحِ مِنْ صِمْغِ الكَيْنَا . النَمْرُ المِتمَاوِجُ عَلى أرواحِ الوَرَقَاتِ المِترَاصِفَةِ صِلْدَةً لِعَبورِ ظِلِّهِ النَبَاتِيِّ ، عَيْنَاهُ عَلى الطَّرَائِدِ مِتْجاسِرَةً أَنْ تَمْرَأَى فِي قِبابِ النَسْغِ الصَّقِيلَةِ ، وَقَلْبُهُ يَخْفَفُ عَلى التَّرَابِ مِنْ مِشاجِرَاتِ الجِذورِ .

النَمْرُ الشَّجْرَةُ ، خَيَالُ ذَاتِهِ المُنْجِبُ مَكِيدَةُ الحِداثِ ، أَيُّهَا الأَبُ العَمَاءُ .

صَعْبٌ أَنْ تَلِجَ إِلَى الْحَمَاءِ بِلا آية . أَدْمِي خَتْمَكَ - خَتْمُ الْبَلْبَلَةِ ؛ أَدْمِي
أَرْقُكَ - أَرْقُ النُّشَاءَ . مَوْحِشًا شَدَدْتَ الْعَقْلَ بِشِعَاعِ نَبَاتٍ إِلَى الْكَثِيبِ
الَّذِي يَتَقَلَّبُ شَكْلًا بَعْدَ شَكْلٍ مِنْ سَفَادِ الرِّيحِ .
صَنَعَ رَاحَتَكَ فِي رَاحَةِ الزَّائِلِ ، وَتَنَشَّقِ الْخُلُودَ مِنْ حَدَائِقِ الرُّقْمِ ،
أَيُّهَا الْأَبُ الْعَمَاءُ .

أَلْمَرَاتِبُ تَتَوَازَى شِقْرَاءَ فِي النَّشِيدِ ، وَالْمِثَنَاتُ تَتَقَاطِعُ :
سَبَّكَ مِنْ آلَةِ الْعَمَاءِ ؛ سَبَّكَ نَقِيًّا فِي الْمِحْنَةِ ، صُلْبًا تَتَبَادَلُهُ النُّقُوشُ
عَلَى خَوَاتِمِ الْمَلَائِكَةِ الْمُدْعُورِينَ .

أَعِدْزَنِي نَدَمًا ، أَيُّهَا الْأَبُ الْعَمَاءُ .

هنيئاً للحياة نَحِيْبُهَا الخافْتُ بين يديء .

هنيئاً للموت نَحِيْبُهُ الخافْتُ في شهواتي : عاقلان . شقيقا تَبْع .
نَمِيْمَتَانِ أَسْرَهُمَا العَدَمُ في يقظته الحَيَّةِ إلى السيروراتِ القابضةِ بِيَدِ الحَيَلَّةِ
على الأزل .

هنيئاً للذائد التي فاتها أَنْ تَمَسَّنِي في صعودها من جراحك . أَغْلِقِ
المنافذَ إليَّ - منافذَ الجمادِ الرقيقِ ، واستَبْقِنِي مُمرِّعاً في المَعْضِلِ ، عليَّ
قناعَ اللأنهاياتِ البشوشةِ من تَعْبِهَا أَنْ تبقى هكذا لانهاياتِ بشوشةٍ تَأْكُلُ
الثَّقَلَ على مائدةِ الله .

هنيئاً للعافية نَجَواها إلى العَمْرِ الأَقْدَمِ مرفوعةً من فَمِهَا الأَنِينِ : أَغْلِقِ
عليَّ العافيةَ ذاتَ الأحشاءِ الجَمْرِ . سَوْنِي ما يشاءُ الملحُ في زفيرِهِ المُخْتَنِقِ
من خُبْرِكَ - خُبْرِ المَكْرِ . اللذائدُ تتوالى ؛ - أراها - كَيْلاً بعدَ آخرَ في
القواريرِ ذاتها ، التي أَنْضَجَها اللَّهَبُ الحِرَافُ . اللذائدُ الدَّوِيَّ - قلوغُ
الغِيَاهِبِ المُسْتَطْلَعَةِ من سُرادِقِها المائيِّ نَشَاةِ الخالدِ .

هَنيئاً : رَهْزُ فَحْلٍ يَمُوجُ المَقْدُورَ على سَرِيرِ الكَلْبِيِّ ، والمتاهاتُ تدلُّ البَدءَ
- في الرُسُومِ الباقيةِ من عُبُورِكَ مَعاقِلِ اللُّونِ غاضباً - على المَسالِكِ إلى
الأَكْيَدِ الأَكْيَدِ ، أَيُّها الأبُ العَمَاءُ ،
العَمَاءُ ،
العَمَاءُ ،

المعجم

مخالِبُ نَوْزٍ، والقنائصُ تتهاوى مرتعشةً من ضربات النعمة . فلا
تُخَفُّ .

أَمِنْ أَنْتَ فِي سِرِّي . رَخِصْ عَضْلَكَ . لِأَعْضُنْ رَسْنَكَ إِذْ تَتَّقِي فَمِي
- فَمِ الْكَيْدِ الْعَذْبِ فِي انْبِثَاقِي مِنَ الْمَهْجُورِ جَائِعًا ، أَيُّهَا الشَّرُّ .
غَدُوكَ أَمَامِي ، هُنَا ، مَرْتَعِدًا يَعِيدُ إِلَيَّ الْعِظَامَ الَّتِي نَحَتَهَا الْخَيْرُ نَهْشًا
بِأَسْنَانِ التِّيهِ . غَدُ الْخَيْرِ أَمَامِي ، هُنَا ، هَائِجًا فِي الْحَلْبَةِ التِّيهِ . هَيِّي ، وَبِخِ
الْخَيْرِ تَوْبِيخِ الْعَادِلِ . قُلْ : « أَنْتَ ، أَيُّهَا الْخَيْرُ ، تَشْوِي السَّمَاءَ مُتَبَلِّةً بِحَرَائِقِ
الْأَرْضِ » . خَيْرِ خِتَانٍ فِي مَخْدَعِ النَّدَمِ . خَيْرٌ لِيَعُودَنَّ عَاقِلًا فِي اسْتَقْصَائِهِ
مَغَالِيْقَ الْعَقْلِ ، رَاضِيًا بِقِسْمَةِ الشَّرِّ أَنْ يَشْفِقَ عَلَيْهِ مِنْ نَدَمِهِ - نَدَمِ
الْمُحْتَضِرِ . نَادِهِ أَيُّهَا الشَّرُّ ؛ نَادِ الْخَيْرَ مِنَ النِّهَايَةِ الَّتِي بَلَإِ إِرْثِ قَبْلُ ؛ بَلَإِ إِرْثِ
بَعْدُ . نَقَاءَ كَجِدَالِ الْعِظَامِ يَمْرُغُ الْأَرْضَ عَلَى صَفْتِكَ . سَمَادُكَ يُنْبِتُ الْحَقَّ
أَخْضَرَ فِي حَقْلِ رِمَادِ أَخْضَرَ . بِحَقِّ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ مُعْشِبًا قُرْبَ كِمَاتِ
الْفِتْنَةِ ؛ بِحَقِّ الْأَكِيدِ - غَلَامِكَ الْمُتَكَتِّمِ عَلَى شُؤْنِ الْخَيْرِ الدَّاعِرِ ، قَطَعَ
الْكُونَ الْجَرَجِيرَ وَالْكَرْفَسَ عَلَى الْمَائِدَةِ بِمَدْيَةِ الْمَاءِ ، وَانْثَرِ الْمَلْحَ عَلَى الْمَجْهُولِ
الْمَقْسُومِ أَغْشَارًا بَلَإِ نِهَائِيَةِ . أَرَاكَ تَلْحَظُ السُّطْرَ الْمَرْضُوضَ فِي اللَّوْحِ : الْكَهَّةُ
تَسْوُلُ شُعُوبًا ، وَشُعُوبٌ تَسْوُلُ الْكَهَّةَ فِي عُبُورِهَا إِلَيْكَ .

قربك شيخُ المجهولِ الطفلِ ،

وعليك عافيةُ القَدَمِ

فاطمينُ

أمنَ أنتَ في سريري ،

متكئاً

على

وسادة

الخيرِ الندم .

قربك الزولُ النُمرُ في سلاسله ، وَعَليكَ عافيةُ التيه ، فاطمئنْ .
أمنَ أنتَ ، مستأنسٌ بصليلِ الجُرْنِ يطحنُ الوجودُ فيه عَدَسَ الله .
ولكَ ما تشاءُ من خزائنِ المغاليقِ الأثيرةِ . لا نُور ، ياشرٌ ؛ لا ظلامَ : الحيلةُ
نزثرةُ الخيرِ بين يديك ؛ اعترافُه أنك أشفقتَ على الحقيقةِ فأنستَها
بأكاذيبِ النُورِ يرفعها كالحلوى إلى فمِ العبثِ ، وأكاذيبِ الظلامِ يرفعها
كجُلابِ باردٍ إلى فمِ المهجورِ . لَيَضْرِبَنَّ القِدْمُ بكَ عرشَ الماء . كنتَ ما
ليس سواكَ . أمْتحِنِ اللونَ . انحره في زرائبِ النقشِ السماويِّ ، قربِ ظلالِ
التماثيلِ - الحرائقِ الحجريةِ ؛ قربِ لسانِ التدبيرِ الذي قيَّدتهُ المعجزةُ
بجفافِ تورياتها . أَنحَرِ الذهبَ بمِديةِ الرملِ . أَنحَرِ الأزلَ على ركبتيك
الفراغِ بمِديةِ الكمالِ المسكونِ . وقلْ : «ليلٌ قطيعٌ زرافِ ، ونهارٌ برائثُ» . ها
شتائمُ الإيمانِ تصلك تباعاً من حنجرَةِ الخيرِ ، والخيرُ يتمرغُ في غفرانك ،
لِذِي تَمَرَّغَ فِيهِ الأزلُ الأفعوانُ ، أيها الشرُّ .

لا تَمَسْ الجهولَ - نقابَ شقيقاتك ، كي لا يبصرَ الخيرُ ، في ضراعتِه
إليكِ ، ما أَرُخْتَ للعدَمِ من موثيقِ الله :

(خيرٌ مَأزقُ)

أَرِحْ كتفيكِ من ثِقَلِ المعقولِ الأَبكمِ . إوْزُكْ هناك ، على ضفَّةِ الهباءِ
الثاني - الفردوسِ الذي تتبولُ السناجبُ على كستنائِه ، ويفتتحُ العويلُ
فيه مادَبهُ الحجريةِ ، أيها الشرُّ . ها تعطيكِ أقدارُ الذهبِ ما تشاءُ : الخيرِ
وإثقاً أنه حَدَلَ المشيعةُ ؛ الخيرِ الندمَ متقلِّباً على وسائدِ الحمى ، حيرانَ ،

مرتجفاً ، أبكم ، ينتحبُ خلف حجابك حنِيبَ الزيرِ ، أيها الشر .
 كيف صنعت هذا كله؟ كيف صنعتَ الشجرةَ النحاسَ تحكُّ النَمورُ
 خواصرها على لحائها الخشنِ ؛ الشجرةَ الخيرَ بشمراتها النحاسِ؟ كيف
 صنعتَ الخيرَ جسوراً هكذا - الخيرَ الندمَ - ثديينِ كخيالِ المعلومِ ؛ الخيرَ
 الندمَ ، الذبائحَ ، الفسكَ العالمِ ، الغوثَ قادمًا بسكاكينِ اليقينِ ؛ الخيرَ
 المترددَ في اعترافه أنه لهاكُ الكمالِ في نكاحه؟ مروضاً كالعصيانِ يسرُدُ
 عليك الخيرَ اعترافه ، أيها الشرُّ ، لأنك ما يمتلكه الخيرُ من امتنانه للقيامة .
 بك ، وحدك ، تنجو القيامةُ من مُشكِلها - مُشكِلِ الخيرِ بعضُ على عضلة
 الحكاية ذاتها ؛ الحكايةِ المُختَلقةِ ، بإيجازِ ركيكٍ ، وسطَ ثمراتِ الأزل
 وشقيقاته ، أيها الشر .

أسمالٌ من نسيجِ الأبدِ تنهراً في عبوركِ الغاضبِ إلى الملهة ، حيث
 الأقدارُ البهلواناتُ مختنقةٌ في أزياءِ الأكيدِ المختنقِ . وترى ما يراه الدهاءُ :
 الشُعْبَ الوطيدَ في مجاهلِ الخلائقِ . أحصِهِم ؛ أحصِ السدنةَ العطارينَ
 في حوانيتِ الغيبِ . أحصِ الممزقينَ . كلُّهم مَمزُقون : أكبادُ ذائبةٌ تنقطرُ من
 فمِ الخيرِ . كلُّهم مذهولون ، وَشَتَ بهم الحقائقُ الباكيةُ بدلالها الماجنِ .
 كلُّهم حطامٌ في جُرنِ الخيرِ . تَقَرُّهُم ؛ هُم نُخالَةٌ سطورٌ يكتسُهُم الخيرُ من
 حظائره بمكانسِ الغفرانِ ، ويرمي الأربعةَ إلى المخطوطينَ في الجهة الأخرى
 - جهةِ الكَسَادِ ، التي تنزفُ منها وعودُ الكمالِ المَمزُقِ حَبِرَ الرُّسُلِ
 الموعودينَ .

مُدَّ تَبَنَيْتَ الخيرَ مرشداً إليك ، أيها الشر ، واثمنتُهُ على الغيبِ الثرثارِ
 - سَهْلِكَ المزدحمِ بالكُرَّاث - نراهُ يَقلِّبُ الفراديسَ بالمحرثِ ، أسفلَ أعلى
 كَفَرَجَ : أثلامٌ في أرضِ المغالِقِ ، والبيدورُ نَدَمٌ .
 أهذا شقاءُ سَكَّرَ على لسانِ الخلودِ ، أيها الشر ، أم ثَقُلُ الخيرِ - بَبْغَائِكَ
 ترميه بفسقتِ الكمالِ المرُّ ، وتدرِّبه ، كفعلِ القرداتيِّ ، أن يرقصَ على

صاجك المَحْمِي؟ ضاحكًا ، بهلوتًا ، يجمع الخيرُ ، في قُبْعته ، دراهمَ العَدَلِ
من المحسنين إلى الفكاهة بدراهم المأساة . كلبٌ واحدٌ ، أيها الشر ؛ كلبٌ
واحد يجرُّ زحافةَ الجليد من العقل إلى العقل . والمتسوّقون في ردهات
الكلبيِّ وحوانيتها يدوسون على أذيالِ الأقدارِ : عويلٌ قَنَصٌ في فراسخِ الخير
التسعة . وحوذِيوكَ يلتقطون خزائنِ الكمالِ الملائى بدسائسِ الملائكة
الأغرارِ .

جروحُ

ثلوجُ ،

وروضٌ في العظامِ من سَقَطَةِ الكمالِ ثقيلًا على دروعِ أحفاده .

جروحُ ثلوجِ أيها الشر .

جروحُ هدايةً .

سمواتِ تابلٍ في الحِساءِ المسمومِ . ملاعقُ من عظامِ المغدورينَ على
مائدةِ الخيرِ . والأزلُ المغنيُّ يُنشدُ لَحْنَهُ المُنْتَحَلَ على رمالكِ ، أيها الشر ، يا
الذي كَمَأَتْكَ كَمَأَةُ السماءِ مطهوءةً في قِدرِ المعلومِ الذَّاهِلِ ، وسريركَ سريرُ
السماءِ . اغتَرِفَ أنكِ عقدتِ على الخيرِ مصاهراتِ الأقدارِ ، وحفظتِ لله
سطورَ النهايةِ في ذاكرتِكَ - ذاكرةِ الندمِ .

جروو

وو

حُ هدايةً أنتِ ، أيها الشر ، يا صلاحِ الظلامِ العالمِ وزَيِّغِ النُّورِ البهلُولِ .

ها

نهارٌ

غريقٌ

في
إشكالِ النورِ ،
مطحونٌ قِرْفَةً
في الشريد الذي

يأكله العدمُ بملعة الله .

ها الليلُ الطاهي يحركُ العوالمَ في قِدرِه - قَدْرَ النهارِ المرفوعِ على أُنْداءِ
الذهب . والخيرُ ، أجيرُكَ المقلدُ ، يدهنُ بزيتِ الحَمْحَمِ شواءَ الغيبِ ، الذي
يُؤكل - في الفراديس - كالكمأ ، ويقلي السديمَ الداخنَ في أقفاصِك ،
أيها الشهر .

شَغَبُ الليلِ شَغَبُ الفاكهةِ في بستانِ النهارِ ؛ وشَغَبُ النهارِ شَغَبُ
التوابلِ في الحساءِ الليلِ . قَلْبُ ، أيها الشر ، بالمعرفةِ الأبدية ، حطامَ الخيرِ
القديدِ في الآبارِ الأبدية ، وتنشَقُ الفراغَ الناصحَ - الفراغَ الكَمُونِ في
عَدَسِ المجهولِ ؛ الفراغَ العُصْفُرُ متناثرًا من حَقِّ المتاهةِ على أُرزُ الخيرِ .

محفوظٌ هذا الذي يتخيَّل ما لا يتخيَّلُ الخيرُ . وأبعَدَ ، بعافيةِ السرِّ
والسُحْرِ ، يرمي شَبَكَةَ الكمالِ الثقيلةِ كَوَبَرِ الماموثِ . لا

قنائصَ

في متاهةِ

القَدَمِ ، أيها الشر .

لا ثعالبَ .

لا ديكَةَ .

لا حجلَ .

لا سُماني .

لا بطَ .

معقولٌ ينزفُ كسلوقيٍّ أصابه القنَّاصون إذ أخطأوا الطريدةَ .

محظوظ

و

و

ظُ هذا الذي لا يُقاسمُ الخيرَ رغيْفَ النسيانِ وزيدتُهُ الذائِبَةُ في مقلاةِ
المتاهةِ . محظوظٌ يعتمر لكِ الخمائِرُ المُبتَكِرَةَ من خيرِ النسيانِ . أَرِهْ حذاءَ
الخيرِ ؛ حزامَهُ المحلولَ ؛ سراويلَهُ ؛ أسنانهُ ؛ صَفَنَهُ المملَّحَ . أَرِهْ خزانَةَ الخيرِ
الملايَ حروبًا كَنكاحِ البايونِ . أَرِهْ الخيرَ قروشًا في طاسةِ الكمالِ الشحاذِ .
ريبُ حنينِ أنتِ . لَصَغَبٌ أنْ تَكْذِبِ مَذْ كُنْتَ صادقًا في خيارِكَ الطاحنِ
- خيارِ الله أنْ يَزِنَ بِكَ المقاديرَ ، أيها الشر .

أَرْضُ نَقَاءِ ذاتها ؛

سَمَاءُ فَسَادٍ ؛

والفَنَاءُ المنِّيُّ ينجبُ الفَنَاءَ إذ يهدأُ الجِدالُ الذي أَنهَكَ المِياهُ : «قُلْ لي
- أنا المُتَصَرِّفُ باعتذارِ الموتِ إلى الموتى - أيها الخيرُ ، أَقَسَمْتَ قَسَمَ الرمادِ
أنْ تكونَ البهلُولُ العاكفَ على تَلْفِيقِ الأقدارِ؟ نَقِيٌّ عظامِكَ الإثمُ ؛ شَرَعُكَ
الإثمُ المُعْتَنِقُ ما تعتنقُ أنتِ ؛ الإثمُ الذي كُوْفِيءَ بِكَ مُذْ تدبَّرَ اللسانُ
لخِياله مجادلاتِ الملائكِ المنتظرينَ تكليفَ الله للقدَمِ بترويضِ غورهم . قُلْ
لي يا عَتَلَةَ الغِيهَبِ المُرْشِدِ إلى الغِيهَبِ ، بأيِّ نداءِ نوديتِ فحزمتِ البقاءَ
المُشْكَلَ بينِ متاعِكَ؟ أَدْرَ ظَهْرِكَ إليَّ . صُكُّ معدنًا نَقْدًا برَسْمِ آخَرَ غيرِ
رَسْمِكَ تمويهاً . أَنهَضْ لي إذا دخلتِ ، ولا تقعدِ بعد ذلك .»

سَمَاءُ فَسَادٍ ،

وَأنتِ ،

أيها الشر ،

استغاثة اليقين ، في جلاء الأحوال عن السيف الحجر
يقطع الأبدى - مندليك الحرير - قطعاً رقيقاً .
سماء فساد :

هاتها السماء الفساد في سلاسل المغاليق يتبعها المدعورون ، وهم
يستدلون بالخير على فراسخ الخيبة العشرة بعد الأبدية ، مُصغين إلى
العوالم ترتد عن حجرك العريق . هات الخير - جارتك المنجبة أمم النجوم
السبعة . خير أئداء ترضع جراء الكيد . خير أتان تذيبها سفاذ أفراسك
فتلد البغل الأقدم - بغل المشيئات السحب في مضائق الفردوس .
يا للفردوس المقامر بالأكباد في حانات الله ، يستلف من الخير
طواويسه ، وأفعواناته الكروبية - أفعوانات اللون :

هاتها المضائق بلا مياه ، أيها الشر :
سفنك القدم وشقيقاته ملاى ، في عبورها التيه ، بجلود الآلهة
مجففة دون الندم عليها أشعار القيافين .

أمن أنت في سريري ، وغدك أمامي - غد الخير ما جئنا يصف
بكتاياته غرمول الهباء العادل . أمن في سريري الغمر ، الذي رفع الكمال
من خنادق الغيب إلى الهديان ، مُذ برأت الخير من العصيان القدوس ، أيها
الشر ، كي تُعيده داعرًا إلى العصيان .

بحق

السأم

الذي

أعارك

الخير اللقيط

كِي تَسْهَرُ سَهْرَكَ عَلَى بَكَائِهِ ؛ -

بِحَقِّ

الْخِيَالِ

الَّذِي

يَدْرُبُ الْأَكِيدَ عَلَى رَدَّتِهِ فِي كُلِّ حَالٍ مِنْ شِقَاءِ الْكَلْبِيِّ ؛ -

بِحَقِّ الْخِيْبَةِ تَدْوُنَ لِلْمَغْدُورِيْنَ ، بِأَقْلَامِهَا الْغُبَارَ ، زَفِيرَ الْمَغْدُورِيْنَ : رَمَمَ
النُّظْمَ الْخُمْسَةَ ، نَظَّمَ الْمَوْتَ الْمُوَيْدِ بِحَقَائِقِ الْخَيْرِ . أَعَدَّ الْمَوْتَ طَرِيقًا يَكَلِّمُ
بِلِسَانِ الْبَسَاتِيْنَ فِيهِ بِذَوْرَ الضَّلَالِ الْخَالِدِ .

جُرُوحٌ ثُلُوجٌ ، أَيُّهَا الشَّرُّ .

جُرُوحٌ هَدَايَةٌ ، يَا لَكَ :

نُودِيْتَ بِصَوْتِ الْفَانِي أَنْ تَتَكَلَّمُ عَلَى سَأَمِ الْخَيْرِ ؛ أَنْ تَرْضِيَهُ ، فِي
اِخْتِلَاثِهِ بِكَ ، بِشَهْوَاتِ الرِّيحِ - بِهَلُولِكَ ، الْمُلَقَّنِ مُنْشِدَ الشَّهْوَاتِ عَزِيفِ
الْعَدَمِ ، إِذْ يَكْنَسُ الْعَدَمُ عَنْ أَزَقَةِ اللَّهِ غَنَائِمَ الْمَجْهُولِ وَطَيْشَ الْمَعْلُومِ .

نُودِيْتَ بِهَمْسِ الْخَطِئِ وَصَحْبِ الصَّوَابِ :

خَطِئًا خَلِّ ؛

صَوَابٌ خَلِّ ،

يَحْفَظَانِ كَيْبَرَ الْأَكِيدِ ، وَلِفْتَهُ ، وَجَزْرَهُ ، وَقِثَاءَهُ ، فِي قَوَارِيرِ الْمَوْتِ ،
هَنَّاكَ ، حَيْثُ تَتَبَادَلُ كَاهِنَاتُ الْحِظُوظِ الْقَوِيَّةِ شَتَائِمَ الْحَيَاةِ لِلْمَوْتِي ، وَشَتَائِمَ
الْمَوْتِي لِلْحَيَاةِ .

هُرَاءُ صَوَابٌ .

عَبَثُ صَوَابٌ :

أَقِمَّ مَعِي ، أَيُّهَا الشَّرُّ ، فِي الْهَدِيدِ الْمَاجِنِ لِلرِّثَائِ تَتَشَقَّقُ مِنْ خِيَانَةِ

الخير، وَعَدْرُ نَبْوَاتِهِ . فَصَّلِ الْخَيْرَ ، ثَانِيَةً ، بِمَقْصِكَ - مَقْصُ الْخِيَاطِ
الْفَلَائِي ، وَإِبْرَتِهِ وَكَشْتَابَانِهِ . أَعِذْهُ نَاقِصًا كَخِيَالِهِ قَبْلَ تَسْتُرِكَ عَلَيْهِ . لَهْيَ -
أَيُّهَا الشَّرُّ الْمَعْدَبُ - فَتَنَةٌ مِنْ حَوْلِنَا تَتَنَعَّطُ كَقَصَبِ الْظَّلِيمِ ، فَيَنْحَلُّ إِزَارُ
الْكُونِ وَتَتَفَتَّقُ سِرَاوِيلُ الْفِرَادِيسِ :

فُرُوجٌ تُعِيدُ الْخُصَى إِلَى صَوَابِهَا ؛
خُصَىٌ تُعِيدُ الْفُرُوجَ إِلَى صَوَابِهَا .

هُرَاءُ صَوَابٌ :

لَأُفْتَقِنَ الصَّوَابَ بِكَ فِي هُمُرْجَانِ الْمَمَكِنَاتِ الْمُزْتَجَلَةِ عَلَى بَابِ الْفَنَاءِ .
وَنَازِعِي ، أَيُّهَا الشَّرُّ ، نَازِعُ الْمَوْعُودِ بِمَادَبِّ تَتَقَاذَفُ فِيهَا مَغَالِيقُ الْوُجُودِ
بِصَحُونِ الْوُجُودِ الْمَلَايَ هَبَاءً نَيْثًا كَكَبِدِ الثَّوْرِ . بِصَلِّكَ أَخْضَرَ بَعْدُ ، عَلَيْهِ
شَكِيمَةُ التَّرَابِ وَأَنْفَاسُ الْمَجَاهِرَةِ الذَّهَبِيَّةِ لِأَعْيَانِ الْأَعْمَاقِ . طَبَّعُكَ كَثْمَانُ
الْمَغِيبِ شُكْرُ الْمَغِيبِ لِلَّيْلِ . سَهْرُكَ عَقْلٌ . قِيَامُكَ شَبَّعٌ . قَعُودُكَ شَبَّعٌ .
كُرْأَتُكَ مَا اجْتَهَدْتَ الْحَقُولُ فِي تَعْدِيلِهِ حَتَّى النِّهَايَةِ التَّائِهَةِ فِي أَمَلِهَا -
أَمَلِ النَّبَاتِ . عِبُورُكَ غَدًا يُسْرِي عَنْ غَدِهِ بِكُنَايَاتِ الْعَارِفِ . بَقْلُكَ النَّهَارُ
مُغْتَدِيًا بِسَمَادِ اللَّيْلِ . قَسَمَ أَنْتَ - قَسَمَ الضَّرُورَةَ بِالنَّارِ ، بِالْقَدَمِ الْجَاهِلِ ،
بِالْأَخْبَارِ مَتَدَحْرَجَةً عَلَى لِسَانِ الدُّعْرِ إِلَى لِسَانِ الذَّهْوِلِ . لَا تَعِدْ أَحَدًا إِلَّا
بِالَّذِي فِيهِ . وَلَكَ الطَّوْبَةُ تِلْكَ .

«غَيْرَةُ الْبَطْرِ مِنَ الرَّعْدِ .

وَغَيْرَةُ الْكَمَرَةِ مِنَ الْبَرَقِ» .

أَخْلَى الْبُرُوقَ مِنْ كَمَاتِ الرَّمَادِ .

كَتَمَ الذَّهَبُ كَيْ لَا يَعْتَرِفَ الذَّهَبُ .

شُقَّ قَمِيصُ الْخَالِدِ وَجِرَابُهُ الْمُتَنْفَخُ بِالْأَمْشَاطِ .

دَوَّخَ الْكُرُومَ بِالْعِنَاقِيدِ تَرَدَّدَ نَدَمُ النُّورِ عَلَى أَحْفَادِهِ .

نَكَلُّ بِالشَّفَقِ وَالغَسَقِ مَعًا ؛ بِالقِدَمِ ؛ بِبِرَاهِينِ الخَيْرِ عَلَى أَنْ الخَيْرَ
يَقِينُكَ إِذَا حُوصِرْتَ .

نَكَلُّ بِالرَّقَمِ العَقْلِ ؛

بِالمَغَالِيْقِ ؛

بِالشُّحْبِ الدُّفُوفِ ؛

بِالأَرْضِ نَافِذَةِ السَّمَاءِ - أَرَقِ السَّمَاءِ ؛

بِالبُوابَاتِ ؛

بِالأَعْمَدَةِ ؛

بِالأَقْلَامِ ؛

بِالأَمَلِ مُعْتَصِرًا فِي قَبْضَةِ الخَيْرِ - تُرْجِمَانِهِ الرِّكِيكَ .

نَكَلُّ بِالأَقْدَارِ الخَفِيضَةِ الصَّوْتِ إِذَا حُوطِبْتَ .

نَكَلُّ بِالمَوَائِقِ ؛

بِالعَتَبَاتِ ؛

بِالخَمَائِرِ ؛

بِالفُرُوقِ تُقْفَلُ الصَّبَاحَ عَلَيْكَ بِقُفْلِ المَسَاءِ .

نَكَلُّ بِالبَيْعَةِ الشُّجَارِ بَيْنَ الأَلْهَةِ وَرُعَاةِ نَمْرُهَا ؛

بِالجِدَالِ المُسْتَهْتَرِ بِتَرْفِ الأَدْمِيِّ ؛

بِالحَقَائِقِ الشُّعْبِ ؛

بِالقِيَامَةِ ؛

بِالكَلْبَتَانِ وَالمَطْرَقَةِ مَعْدَنِيَّ الغَيْبِ الأَوَّلِ ؛

بِالأَفَاوِيهِ ؛

بِالعِقَابِ الجَرِيحِ يَتَوَسَّلُ العِقَابَ الجَرِيحِ ؛

بِالمِيزَانِ ؛

بالهندسة كلها - توريات المغلوبين على شكهم ؛
بالبسيط المُشكِل ؛
بالبهاءِ المُعْتَلُّ طريحِ فِرائسِ الأشكال .

نَدْمُ الحِداثِقِ بين يديك وهي تنحُرُ الحِداثِقَ على جِسورِ الغيبِ ، أيها
الشر :

أَعْلِقِ المِمرَاتِ .

أَعْلِقِ الجِسورَ .

أَعِدِ الأَنهارَ تَعَرِّقُ من جَرَيانِها . أَعِدِ إليها رِطانَةَ المِياهِ ، وفِصاحَةَ الطينِ
العالمِ .

أَعِدِ الفِكرَةَ الطينِ إلى سَطورِ الفَناءِ المتعَرِّجَةِ في الكِنَاشِ الذَّهَبِ .

أَرِغِ الخِيرَ على فِخْذِيكِ حتى يَسمعَ اللهُ صِلْصِلَةَ رَهْزِكِ فيه كِصَلْصِلَةَ
الرَّزْدِ .

مَازِجِ الخِيرِ بالنُّورَةِ تُعَدُّ به الفُروجَ حَليقَةَ يَكَلِّمُ البِظْرَ الواضِحُ البِظْرَ
الواضِحَ بِلِسانِ الغامِضِ .

نَحَّ الجَمْرَ جانِبًا في عِبورِ الرِمامِ النِبيِّ .

كُلِّ التينِ الذي يَتَخَلَّقُ من أَرَقِ المِلوِكِ . كُلِّ البُنْدُوقَةَ تِلْكَ - بُنْدُوقَةَ
الجِرحِ الأوَّلِ ؛

الْخِيبَةَ الأوَّلَى ؛

الكِسادِ الأوَّلِ ؛

الحِياءِ الأوَّلِ ؛

القَبْلِ الأوَّلَى مُمرِغَةَ في ذِهولِ الخالِدِ .

كُلِّ فَرَجٍ يَتَنَفَّسُ الصُّعْداً في خِيالِكَ .

كُلِّ شَهْوَةٍ يَتَهَدِّجُ صَوْتُها امْتِنانًا أنكَ تَتَنَفَّسُ الصُّعْداً ، أبداً ، إذْ

تتنفّسُ الشهواتُ الصُّعداءَ في خيالك ، أيها الشر .
قُدُوزُكَ تَغْلِي . الطهارةُ يفرمون ، تحت أبخرةِ الثومِ والمُصطكى ، عروقَ
الخيرِ الرقيقةِ كالكَزْبِرةِ ، قارعينَ بمغارِفِ الهباءِ الصغيرةِ على حوافِ مواقدِ
الأجرِّ كي يُبعِدوا الأملَ الشحاذَ - ذبابةَ الوجودِ متناثراً قطراتٍ من شحمٍ
على صَدَقَةِ العبثِ العريقِ .

عريقٌ ، أيها الشر ، جَهْرُكَ بمراتبِ الخيرِ منقولةٌ عن النَّدَمِ - الطيرِ .
عريقٌ تَبْكِيَتُكَ الخَيْرِ مطبوعاً على النُّقْمَةِ ، يحملُ فاكهةَ السَّفاحِ من
بساتينِ الآلهةِ إلى ندامىِ الموتِ . عريقٌ عَفوكَ عن الخيرِ في نفاقهِ ؛ في
عَذْرِهِ ؛ في تحصيلهِ مشافهاتِ العابرينَ من إثمِ الكمالِ المُعتلِّ إلى إثمِ
الطاهرِ . عريقٌ دوامُكَ في تذييلِ السَّجَلِ الصلصاليِّ بمواثيقِ الأكيديِّ الفاجرِ .
لا أكيدٌ إلا ما استوثقتُهُ بشفاعةِ الضلالِ ، وعفوِ الضلالِ عن دَنَسِ استجارِ
بالخيرِ فأَجِيرِ . لتَذْهَبِ ، أيها العريقُ ، بألّةِ التيهِ ، إلى البسيطِ كَفَناءِ ؛ إلى
المُعْضِلِ النبيِّ ؛ إلى المدائحِ غاضبةٍ تهشُّمُ خزائنَ الشُّكْلِ وتُطلقُ سراحَ
الظلالِ .

لتَذْهَبِ عنايةٌ يتأوَّلها الريحُ للريحِ ؛ ماكرًا كَمَكْرِ الثَّقْصانِ ؛ أليفاً لم
يُجْهِدِ الحقائقَ في حَزْثِ غَمْرِه البازلتِيِّ .

وقربي هنا ، في سريري - سريرِ الفروقِ ، سيضعُ الموقدونِ إليك من
قضاءِ النسيانِ عظامَ خليلاتهمِ المذبوحاتِ هبةً للرجاءِ العاشقِ . يا للرجاءِ
الذي في سريري - سريرِ الطَّباعِ كُلِّها . حُذِّهِ الرجاءِ الأجاجِ ، أيها الشرُّ .
حُذِّهِ الرجاءِ العجلةِ الحديدِ ؛ الرجاءِ الضربةِ براحةِ يدك على فِخْدِ المكنونِ ؛
الرجاءِ الميزابِ ؛ الببغاءِ المُرْدَدِّ شَهَقَةَ الثورِ مُعتلياً بَقَرَةَ الهيموليِّ .

حُمُرُ زَرْقٍ في الريحِ حولِ سريري - سريرِ الطَّباعِ كُلِّها . فهودٌ رمالٌ .
فَنَكْ جِزْرِ الكونِ إلى وكْرِه ، أيها الشرُّ . ألا أقسُمتُ لي قَسَمَ اللونِ أنْ شرودَ
الخيرِ ، في سريري ، لا يُرضيك . حظُّ عاثرٍ يرمُّ النقوشَ ، والهولُ يروي

للحفظ شقاء القيد الذي قيد به الخير الأوثان النبيلة إلى عتبات المذابح .
أقسم لي القسم البديق أنك في سريري ، هنا - قرب النقوش النيران على
لوح الماء - تتبع ، مثلي ، آثار قلبك في الأليف المفقود ، والمعلوم المفقود :

قسم لون .

قسم ختان .

قسم نخاريب نخل .

قسم نزاع .

قسم معقولات جنادب تلتهم الفجر كورقة الجرجير .

بأي - لا خذلت - ، أي قسم أتولى إخماد الشغب في القبل ، إذ
تتولى القبل إبرام اللثة للخير برجاحة يقينك؟ اطمئن . سأويك كما أويت
الكرز في حدائق المفقود . سأويك معتنقا ما تعتنقه من مذاهب الطين
المبشر بالآلهة القصارين .

لا تخف : أمان

نحن

ببركة

الموحس ،

وشفاعة

العزلات . كيفما تمرغ الرجاء من حولنا تمرغ في النقاء المستوحِد ،
الذي يتضرغ - بلسان الصور - إلى المخو العالم .
لا . لا خذلت :

خلاص منهنك يقرع بعكازه الرواق إلى الآلهة المنهكة ، تحت الفلك
المتدلي عناقيل شاحبة . والألم الراوية ، وحده ، يوبخ البطولة بلسان
الكاهن .

لا . لا خذلت :

هَمَجِي المولود هنا ، قرب سريري - سرير المراثي ، في قيود الأفلاك ،
يتقصبون النهايات المرتعشة لذة : عناق أعمدة تهاوى . عناق أبراج
وتمثيل . شروخ . وجع حرير . جهات تتدكدك . ما من متاع يرفع . ما من
أدراج إلا الهول . استرقني ، أيها الشر ، إستراقك السمع على العريق
العريق . ولننصت ، معاً ، إلى خطأ الخير في تقدير صوابك إذ كلمت
الأنقاض بكلام الجماد الرسول ، والهباء العراف . خمار يعتريني كما
يعترك في الفجر الذاهل ، أن يعبر الأحياء مُسندين ، بأكتافهم الأزلية ،
هيكل الموت المهزول معتصراً رأسه من خمار الأعراس . أحياء ظلال في
ميزان الظلال . قبور ظلال في ميزان الظلال . لنطوقن الظلال ، أيها الشر ،
بنجوى الأجنحة للأجنحة ، مُنقبين بمعاول المراثي عن السماء العرناس في
حقول المتاه الدفينة . وأنقى لنعيدن الغيب ، ناضجاً يدخر للالهة مؤنه :
غمام البحيرات المفقودة ، وملح الصيادين المفقودين في الأرخبيلات
السته ، وفطر أقبية الأبراج ، وبقلاء المضائق ، وأرغفة اللهب المنعش
كأنفاس الثوت .

ظلا

|
|
|

ل في الميزان تتنسم الأفاويح القادمة من هناك ؛ من
العراء المترامي خلف أدغال القيقب الرهيف كقلب السنجاب . اغبر بي
أدغال القيقب ، وأحراش الزيزفون الأحمر . اغبر بي مصائد العلوم الشفيفة
بين أوراق المُران ، أعلى ؛ أكثر علواً من سخرية الكنوز ، أيها الشر . ها
أسفل ؛ ترى أسفل أيها الشر : سرقين الأزلي والأبدي تنمو بخمائر
بساتين الأعالي ، وتكتنز بكيموسه الطاهر ثماز المجرات حول الجحيم .

لا تخف . داعبِ الحِيلَ بالحِيلِ ، والمكائِدَ بلذائِدِ المكائِدِ . ثم اسبقني
إلى فسطاط خيالك ، في السحيق الذي يلي الموت ، كي تؤثتَ لي ما أوثتُهُ
لكَ في قسطاط خيالي ، خلف السحيق الذي يلي الموت .

أثاثٌ أبديةٌ ، أيها الشرُّ .

أثاثٌ نسيانٌ ؛

أثاثٌ حُجُبٌ ،

ودروعٌ ؛

شفراتٌ ؛

طبولٌ ؛

حليٌّ ،

ومجاهلٌ ؛

أكبادٌ وراثتٌ ؛

أفحافٌ ؛

مدارجٌ .

أثاثٌ شعوبٌ في التقويمِ الساخرِ ؛ تُحَفُّ قهقهاتٌ ؛ أمكنةٌ تتفَلَعُ
كوسائدِ الملوكِ الغاضبينِ .

أث

|

|

|

أثٌ .

لا غُلوَاءَ إنْ دحرجنا المجهولَ ، معاً ، إلى معلومه ، ونهَشنا المعلومَ بأنيابِ
المجهولِ المنكوبِ . دمويٌّ يشهدُ للدمويِّ في اللذاتِ ، أيها الشر . كمالٌ
دمويٌّ يدور بالأرغفةِ على الشهودِ كلِّهم : سنذلقُ السَّمَنَ من الإبريقِ

القمريُّ على أرغفةِ الشهودِ . سنعتصر لهم هجراتِ الإنسانِ الطاحنةَ ، قطرةً قطرةً ، كزيتِ الخريفِ ، على البصلِ المشويِّ . سنأخذ منهم اللحمَ الناصحَ في أحماضِ الفاكهةِ الفجّةِ ، ونعطيهم سطورَ النبوءاتِ مُدخنةً كشحمِ الخنزيرِ فوقِ حطَبِ القَراصيا . سنعيد ترتيبَ أعضائهم بشقاءِ القياسِ الموافقِ شُبُهاتِ القياسِ ، معدودينِ ، في خيالينَا - أيها الشرُّ - أجناسًا أسديّةً تتلاقحُ بالأملِ الزُّهلولِ كردِّفِ . سنأتيهم من العُجالةِ الدمويةِ في خاطرِ الحقِّ ، مضمخّينِ ببازهرِ الوعولِ ، وسننثرهم دزّقًا على بذورِ المعجزةِ في أحواضِ النسيانِ الأجريةِ . هم زعارةُ الخيرِ ؛ الشهودُ الحَوْلُ ؛ علافو مراتبِ الذهبيِّ في الخسوفِ . الشهودُ الكمائنُ ؛ سُمسُمُ النورِ متساقطًا من رغيفِ الفردوسِ على صَفنِكَ أيها الشرُّ . سننحرُ أقدارهم - أقدارَ التتئينِ مُنجرًا على مقابضِ الأبوابِ المنسيّةِ . فلْيُعْرِضِ الشهودُ ، أولاءِ ، على الكمالِ الدمويِّ ، زَهْرَفَ النسيانِ المتشاغلِ بالتطاريزِ ؛ النسيانِ الختمِ ، النسيانِ الموائيقِ المُتَحَلِّةِ بتواطؤِ الماءِ مع الله . فلينشروا قلوبَ المياهِ على صواريِ اليابسةِ ، مُتَهَدِّدِينَ الفناءَ ، في أمرهِ الثالثِ ، ببُشرىِ الخلاصِ الدّمويِّ . شد

هـ

هـ

و

وَدَّ صدوعُ في الصخرةِ المحمولةِ على كتفِكَ ، أيها

الشرِّ .

فلْيُخْرِجُوا بهائمَ الروحِ إلى المراعيِ بخطواتِ هي أنساقُ الإرثِ المكننِ كَسَلًا في الإصطبلِ ، أمنينَ كبرهانِ يتخاطفُ جوزهَ القردةِ المشدوهةً بالكثيبِ الإلهيِّ ، حيث لا شيء ، بعدُ ، إلا المُحكَمُ المتقوِّصُ كبرهانِ . فلْيَرِيقُوا على الأرضِ ماءَ المعدنِ المغسولِ أربعًا ، تحت الغمامِ المغسولِ أربعًا ،

مُتَّحِدِينَ فِي الصَّوْتِ الَّذِي يَتَكَامَلُ رَنِينُهُ بِدُخُولِ الْهَوَاءِ عَلَى أَبِيهِ الْمَوْتِ .
فَلْيَنْتَحِدُوا مَعَ زَيْتِرِ الضَّبَابِ الْجَرِيحِ إِلَى الْغَابَاتِ ، يَعْضُ الشَّرُوقُ مِنْ حَوْلِهِمْ
الشَّرُوقُ عَضُّ الْأَكَّاسِيَا ظِلَالِ الْأَكَّاسِيَا ، أَيُّهَا الشَّرُّ . فَلَنْدَلِّهِمْ ، بِأَجْمَعَيْنِكَ
أَيُّهَا الشَّرُّ ، وَأَجْمَعَيْنِي ، عَلَى السَّمَاءِ الْمَحَاةِ تَتَهَدَّدُ سَطْوَرَ الْأَرْضِ الْمَتَدَاخِلَةَ
كَعُثْنُونَ الْعَدَمِ النَّبَسِ وَأَثَارِ أَظْلَافِهِ . هَا دَجَاجَاتُهُمْ - دَجَاجَاتُ الذَّهَبِ
الْغَرِيقَةَ فِي الْفَجْرِ الْمُلْغِزِ . هَا صِيَاحُ دَيْكَتِهِمْ الْغَرِيقَةَ فِي ذَهَبِ الْفَجْرِ الْمُلْغِزِ .
هَا فَجَّرَهُمُ الْغَرِيقُ فِي لَوْعَةٍ فَضَّتَهُ . تَعَالَ أَيُّهَا الشَّرُّ نَدْرِبِ الْفَجَرَ عَلَى
دَسَائِسِ النِّقَاءِ الْفَاجِرِ . تَعَالَ نَسْتَنْبِتِ الْفَجَرَ ، ثَانِيَةً ، كَالْهَلِيُونَ ، مِنْ بَزُورِ
الرَّمَادِ الضَّاحِكِ ذَاتِهِ . وَلَنْدَفَعُهُ ، مَعًا ، إِلَى الْجَلِيدِ الْمُؤَزَّقِ مِنْ وَحْيٍ لَا يَأْتِيهِ
بِأَشْعَارِ الْمَهْجُورِينَ . تَعَالَ نَدْحِرِ الْفَجَرَ إِلَيْهِمْ فِي غَضَبِ الشَّجَرِ ، وَغَضَبِ
الْقَصْدِيرِ ؛ فِي الْغَضَبِ الزُّبْرَجِدِ ؛ فِي السَّمَاقِ تُبَلَّتْ بِهِ الْأَكْبَادُ ؛ فِي
الْغَضَبِ الدَّيْدِبَانَ مُجَفَّفِ الْأَفَاقِ كَالزَّبِيبِ . الْمَدَافِيءُ مَنْتَعِشَةٌ أَيُّهَا الشَّرُّ .
مَنْتَعِشْ رَقْمَ النَّارِ فِي هَذِيانِ الْفَاكِهِةِ . أَتَرَى؟ أَقْحَوَانَ صَنَاجِعَ يُنْشِدُ
لِلضَّفَافِ الْمَعْتَوِهِةِ مَا نَسِيَهُ طَيْرُ الْقُوقِ . أَتَرَى؟ تُحَفُّ صَدُوعٌ ، وَوَرَقُ حَوْرٍ
رَهيفٌ كَشْفَرَةِ الْعَدَمِ يَقَطَعُ الْوَرِيدَ النَّافِرَ فِي مِعْصَمِ الْمَسَاءِ . وَهُمُو ، الشُّهُودُ ،
يَقْطُرُونَ مِنَ الْوَرِيدِ الْمَقْطُوعِ دِينًا

دِينًا ؛

خَوَارِقُ ؛

طَلْسَمَاتُ ؛

نَفِيرًا مِلْءَ بُوقِ الْكُسُوفِ ؛

نَيْرُنَجًّا ؛

أَكَارِعُ ؛

فَيْعَ خَنَازِيرَ ؛

أَكَالَةَ .

همو، أيها الشر، رَصَدُ الخَيْرِ حَمَامَكَ الرَّاجِلَ حَامِلاً مَوَاتِقَ
المَعصُومِينَ إِلَى الضَّلَالِ المَعصُومِ . أَعْنِي أَدَاهِمَ النَجْمَ الثَّالِثَ ؛ القِدَمَ
الثَّالِثَ ؛ البَوَابَةَ المُنْعَكِسَةَ بِشُمُوسِهَا الثَّلَاثَ عَلَى دِرْعِ الخَيْرِ مُتَنَكِّراً فِي قِنَاعِ
شَحْمِ . أَعْنِي أَمْرِخَ الشُّهُودِ فِي شَحْمِ المَلَائِكِ الذَّائِبِ تَحْتَ أَثْقَالِ النِّسيَانِ ،
وَأَحْشُدْهُمْ ، رَكْلاً بِقَدَمِ اليَقِينِ الحَافِيَةِ ، إِلَى المَادِيَةِ :

حَرُوبٌ نَقِيَّةٌ . حَمُصٌ نَقِيٌّ . خَبَائِزُ لِسَانٍ يَسْتَنْطِقُ مَلِحَ الذَّبَاغِينَ .
حَصْرَمٌ مُسْتَنْطِقٌ . جِيُوشُ زَيْتٍ مُعْتَصِرٌ مِنْ زَيْتُونِ المُنْحَدِرَاتِ الشَّرِيدَةِ .
وَرَقٌ نَارِدِينَ لَاهُتٌ . دَفْلَى فِي النَّبِيذِ المَسْمُومِ . نِهَائِيَاتُ مُرَبِّيَّةٍ فِي بَشَارَةِ
اللُّوزِ . عَسَلٌ دَاوِدَ . دَمُ الأَخْوِينِ طَيِّبًا تَنْتَفِسُهُ القُدُورُ . قِشَاءُ الحِمَارِ ،
وَالفُصْفِصَةِ . الدَّارِصِينِي الرِّمَاحُ فِي قَلْلِكَ الأَفَاوِيهِ الثَّانِي . دَهْنُ
المَرْزَنْجُوشِ ، وَحَبَقُ البَقْرِ . البِقْلَةُ وَالتُّوتُ مَسْحُوقَتَيْنِ فِي التُّوْبَالِ .
حَشِيشَةُ العَقْرَبِ النَّابِتَةُ فِي مَقَابِرِ العِرْقَى . عَنَبُ الثَّعْلَبِ ، وَالكِرَاوِيَا .
المَامِيرَانُ الشُّبْقُ . أَسَدُ العَدَسِ . الجَنْطِيَانُ الجَبَلِيُّ المُخْتَمِرُ فِي هَوَاءِ
السُّهُولِ . الخَشْخَاشُ الرُّزِينُ . الوُزْسُ مَجْفَقًا تَحْتَ سَقُوفِ الزَّرَائِبِ .
القَلْقَاصُ - طَمْتُ بَسَاتِينِ الحِمَقَى . الصَّعْتَرُ حَامِلاً . خُصَى الثَّعْلَبِ
ذَوَاتُ الوُرُقَاتِ المَهْرَجَةِ . الرَّاسَنُ الأَصْلُ الحَرِيفُ . السَّرْحَسُ البَهْلُولُ .
شُوكَةُ القَبْطِ وَشُوكَةُ يَهُودَا . بَصَلُ الفَّارِ المُرْشُدِ إِلَى بَاهِ عَاقِلِ . المَازَزِيُونِ
- أَسَدُ الأَرْضِ . قُوَّةٌ وَفُوقُلٌ . لُوبِيَاءُ السُّودَانِ . المَلُوخِيَّةُ - قَدْرُ الصَّمْغِ
الخَجْجُولِ . الرُّبِيَّاسُ المَتَكَلِّمُ بِلِسَانِ مَلَلِ البَرِّخِ . سَيِّكَرَانُ الأَسْوَارِ
المُضَاعَفَةِ فِي المَرَايَا . الرُّعْرُورُ المَسْحُوقُ بِمَدَقَةِ اللَّيْلِ . سَدَّابُ السُّهُوبِ
التَّتْرِيَّةِ . لِسَانُ العَصْفُورِ - الدَّارُكِيْسَةُ النَّاطِقَةُ بِهَجَاءِ حَدَاتِقِ الهِنْدِ . بَزْرُ
الكَرْفَسِ نَابِتًا فِي آثَارِ الأَلْهَةِ الهَارِيَةِ .
لَا تَخَفْ .

نَوَافِحُ مِسْكَ مِمزُقَةٌ عَلَى سَرِيرِي - سَرِيرِ المَلَكَاتِ المَذْهُولَةِ ، أَيُّهَا الشَّرُّ

المُرْشِدُ بِحِصَافَةِ الْجَوْهَرِ إِلَى لِدَائِدِ الشُّكْلِ الطَّلِيقِ بِلَا نِهَآيَةٍ .

لَا تَحْفَ

جَاوِرُنِي ؛ جَاوِرِ الْجَلَالَ الْأَعْمَى يَتَلَمَّسُ بَعْصَا النَّسِيَانِ كَنَوَازِهِ الْمُنْتَثِرَةِ فِي دَهْلِيْزِ الْجَوْهَرِ - لِدَائِدِ الشُّكْلِ الْأَثِيْرِ بِلَا نِهَآيَةٍ . قَشْرُ الْكَوَاكِبِ هُنَاكَ ، فِي النِّهَآيَةِ الْمُقَشَّرَةِ بِمَدِيَةِ الْفِرَآغِ الطَّاهِي . وَقَسِ الرُّسَائِطُ الْكُلِّيَّةَ بِأَشْبَارِ الشُّشُخِ ، تَحْتَ بَصْرِ الشُّهُوْدِ وَهَمْ يَقْسَمُوْنَ الْبَسِيْطَ غَيْبًا غَيْبًا بِعَبُوْرِ جِيَادِهِمُ الْجُرِيْحَةِ مِنْ خِنَادِقِ الْفِرْدَوْسِ الدَّمُوِيِّ إِلَى الْأَبَدِ الدَّمُوِيِّ . أَرِ الْأَحْوَالَ نَوَاعِيْرَهَا . أَرِ الشُّهُوْدَ شِعَائِرَ الْمُمَزَّقِ الْعَذْبِ ؛ شِعَائِرَ النَّدَمِ الْعَذْبِ ، وَحَمِي النَّسْرِ فِي انْتِقَالِهِ مِنَ الْعَبْثِ الْأَلِيْفِ إِلَى الْعَبْثِ الْأَلِيْفِ . أَرِهِمُ الْأَرْبَابَ الْخُلَاسِيَيْنِ - عَقَارَبَ الْحَقِّ الْمَرِيْحِ فِي حَلْبَاتِ الْأَشْبَاحِ .

نِقَاءَ ذَبِيْحٍ ، أَيُّهَا الشُّرُّ .

سِجَالٌ ذَبِيْحٍ بَيْنَ طَوَائِفِ الْكَمْثَرِيِّ .

عَقُوْدٌ ذَبِيْحٍ بَيْنَ مَذَاهِبِ السَّمْسِمِ .

ذَبِيْحٌ فِي الْكَلِمَاتِ مُذَّ تَسَلَّمْتَهَا

هَكَذَا مِنَ اللَّهِ ، وَأَعَدَّتْهَا مَتَخَبِّطَةً فِي الدَّمِ إِلَيْهِ .

يَا لِلذَّبِيْحِ :

عَقَابٌ ذَهَبٌ يَسْتَعْجَلُ الْعَافِيَةَ أَنْ تَتَأَهَّبَ ، بِنَايَاتِهَا وَدَفُوفِهَا - دَفُوفِ النَّهْبِ ، لِعَبُوْرِ الْخَيْرِ وَأُمَّهَاتِهِ التَّسْعِ اللُّوَاطِي هُنَّ غَنَائِمُ التِّيهِ ذِي الْأُمَّهَاتِ التَّسْعِ ، أَيُّهَا الشُّرُّ . الْقِيَامَةُ . الْقِيَامَةُ . اسْمَعُهَا فِي أَنْيْنِ الْأَغْلَالِ مَتَضَرِّعَةً إِلَى الرَّقْمِ الْمَحْظُورِ ؛ الرَّقْمِ الشُّعْبِ مَحَاصِرًا بِمُنْجَمِيهِ الرُّسُلِ - أَوْلِيَاءِ اللَّوْنِ الْفَرَّانِ - حَقُولَ الْغَيْبِ ذِي الشُّعْبِ النَّاصِحِ فِي سِنَابِلِ مِنْ رَسُومِ الرُّحَالِيْنَ . دُلَّ الْقِيَامَةَ ، أَيُّهَا الشُّرُّ ، عَلَى شِبَاكِهَا فِي نَهْرِكَ ذِي الزُّثَيْرِ يَنْحَرُ كُلُّ مَاءٍ فِي

مائه ابتهالاً إلى غابات الرُّبْد ، فلربُّما تصيَّدتِ القيامةُ فيك أحوالَ طمئِنِها :
 الحيتانَ ، والحَبَّارَ . السمكِ الرِّعَادِ . الأخطبوطِ . الدلفينِ . الوردنكِ . القرشِ .
 جرادَ البحرِ ، واسقَمَريَّاتِ الغوايةِ . البحرُ كُلُّهُ معاصِرُ القيامةِ : زيتُ
 للعناتِ . زيتُ للإبلاجِ الرُّخِيِّ من مضائقِ الظلموتِ إلى مضائقِ الثُّورِ ،
 أيها الشرُ . فأذعُ القَبَلَ المهجورةَ والجسدَ الشاغِرَ إلى ما أخطأَ الخيرُ في تأويله
 من كناياتِ الهباءِ الطُّحَّانِ ، واغجنِ الثُّفَيْسِ في المِعْجَنِ القديمِ ذاتِه -
 مِعْجَنِ الشكْلِ .

نفيد

يه

يه

يس ؛

لأغسلنُ يديك من الثُّفَيْسِ البتولِ مُفْتَرَعًا في إنشادِ الخيرِ للقضاءِ
 المُفْتَرَعِ ابنةُ ابنةٍ تحتِ خيامِ النورانيينِ - حَمَلَةَ المنيِّ ، في آلاتِ الإيمانِ
 الخمسِ ، إلى خُصِي الألهةِ كُلِّها . لأُنْجِبَنَّ لَكَ ، بالعضلةِ السكرى في
 لسانِ الوقتِ ، كلمةَ الكمالِ الثالثةَ - كلمةَ الشهواتِ . لأَعْزُرَنَّ بكَ على
 خريزةِ المَوْتانِ الساقطةِ من عقودِ النساءِ ؛ على الحقولِ التي تقودُ إليها ماعزِكَ
 الفلكيِّ وضأنك - وضأنُ الكُلِّيِّ العَلَّافِ ؛ على مَصَارِعِ الملائكِ في خلِّ
 التوتِ ؛ على النُكَباتِ الساهرةِ متأملَّةٍ لوعَةِ الذهبِ في منطِقِ الغيمِ ، وفي
 عنادِ الشكلِ الخالقِ . لأذرفنُ عليك ، إن وَعَكَتْ ، دموعَ الحقائقِ من عيونِ
 الشجرِ ، والماءِ ، والرملِ . خلِّ عنك ، أيها الثُّقَلُ الرهانُ ، أحمالَ البرزخِ ، إن
 أنتِ إلا دورةَ الظلِّ العاقلِ حولِ خيالِ النباتِ ، في خريفه المتوَعِّكِ من
 عودته ظلًّا عاقلاً ، أيها الشرُّ .

ألا لا يتطلَّينَ عليك الزفيرُ الخافتُ للآلهةِ ، والشهيقُ الخافتُ

للآلهات : هُم مَأزِقُ الكَمالِ في سَخائِهِ المُرْتَجَلِ . هُم مَأزِقُ الخَيرِ . هُم مَأزِقُ
السَماءِ المُحْتَجِرَةِ في عَقْلِ النَّدَمِ .

خَيْرِ نَدَمٍ كُلِّ هَذَا .

خَيْرٌ يَسْتَعْرِضُ الكَمالَ مَأزِقًا مَأزِقًا في مَرأتِكَ . مَأزِقًا مَأزِقًا أَعِدَّهُ ، في
مَرأتِكَ ، إِلِيهِ ، أَيُّهَا الشَّرُّ .

وأنا ، متأدبًا بإرائك - إراث التدبير اللامُحْتَسَبِ ، لأعْبِثُنَّ بِالخَيرِ عِثَ
الرَمْلِ بِالرِيحِ ، ولَأَشْغَلُنَّ دَهائِقَتَهُ بِالسَماءِ الدُّوَلِ وَأَرْضِهَا الهَيُولَى . أَمَّا أَرانِي
أُخَلِّعُ أوتادَ القَدَمِ في فِئاءِ القَدَمِ فَتَنهارَ خِيامُ الغِيبِ؟ بلى . نازُّ اللَوْنِ نازُّ
قَلبِي مَنِّي مَذا عَرتُ الحَقائِقَ قَفزَةَ البهلوانِ من أسوارِ اللهِ إلى هاويةِ اليَقينِ ،
وَرَدَدْتُ إلى الخَيرِ الأعمى عَكَازَهُ - عَكَازَ العابِرِ بِغِراسِ القَتْلِ إلى الحِداثِيقِ ؛
مَذا لَقُنْتُ الجَحيمَ مِشافَهَةَ النارِ وِجدالِ الخَوفِ . بِتَرَفِ اليَأَسِ ، لا بِغِيرِهِ ،
أَعْمِيدُ نَفْسِي أَملاً في الوجودِ المَنسِيِّ ، المُرَمَّمِ زِخارفِ الرَعْدِ ؛ الوجودِ
العِصيانِ ؛ الدَّلالِ في أسواقِ المُشْكِلِ . وجودٌ عَرَقَ يَقَطِرُ من صَدغِيكِ ، أَيُّهَا
الشَّرُّ ، في إِحصائِكَ أَناَمَ الخَيرِ موزَعَةً على جِيرانِ الأِلهَةِ . وجودٌ عَرَقَ يَقَطِرُ
من صَدغِيبِي وَأنا أَكَلَمُ جِيرانَ الأِلهَةِ ، مُحْتَدِمًا ، كَأَنا اثاروا طَيورِي - طَيورَ
الرَّائِي في أَقْفاصِها النورانيةِ ، وَأَفزَعوا الكونَ النَّابِتَ تَوًّا في الأَحْواضِ لَصِقَ
الكزْبِرَةِ والثومِ - روايةِ الترابِ المَلاجِنِ . جَفَقَ صَدغِيكِ مِثْلِي ، أَيُّهَا الشَّرُّ ،
بِندِيلِ الإِثمِ الأَزَلِيِّ ، الَّذِي سَقَطَ من اللهِ في خِمائِرِ الصُّورِ . فَلتُعَدِّ الصُّورَ
إِلِيهِ ؛ فَلتُعَدِّ إِلِيهِ هِباتِ خِيالِهِ - خِيالِ الإِثمِ ؛ فَلتُعَدِّ إِلِيهِ المَندِيلَ مَزَقًا في
عِبورِهِ من الأيديِ إلى الأيديِ ، مَعْتَذِرِينَ إلى الفِئاءِ كِيفَ أَهْناَمَ بِمِديحِ الخُلودِ
المِستَكِّعِ في أَرزِقَةِ الخِساراتِ : «أَيُّهَا الفِئاءُ الجَرِيحُ ، يا المُعَدَّبُ كالحِداثِيقِ . يا
النُّحالَةَ مِتناثِرَةَ حِولِ أَجْراِنِ الرِجاءِ ، أَطَبِّقُ يَدَكَ على خِصِيَةِ الغِيبِ نَسْمَعِ
الغِيبِ مِنتحِبًا يَعتَرِفُ بِأَبوَةِ التِيهِ » . فَلتُعَدِّ إلى اللهِ خاتَمَ الكَمالِ ذِي
الشَقِيقاتِ النَّدائِباتِ ، أَيُّهَا الشَّرُّ .

عريقُ فوزيَ بك ، لا تخفُ :
 غدرُ كمالٍ يفضِّلُ المواثيقَ للخيرِ بمقصَّاتِ الباطنِ . وأنا ، بمقصِّ المُمكنِ
 الطِّرازِ ، أشقُّ سراويلَ الخيرِ ، وأقطعُ أزرارَ قمصانه في المتاهِ الجليدِ .
 ثيابُ تُرمى ،
 حقائبُ غيبُ ؛

أحذيةٌ من رمادِ الملائكِ تُرمى من النوافذِ إلى المتاهِ الجليدِ : «أيها
 الجليدِ ، يا شقيقَ المعاني المتكؤمة على نَفْسِها في البياضِ الطعينِ ، خُذْ
 أزرارَ قميصي ، وحزامي . جيوبِي مملأى بمداعباتِ الحقائقِ للحقائقِ ؛
 بالمعلومِ الأبدِيّ ؛ بقهقهاتِ النفائسِ ، وحشرجةِ الرِّقمِ المُختَصِرِ بينِ يديّ
 الرِّقمِ . هَيْكُ ، أَسْمَعُنِي أَنْينَ أَمَلِكِ . أعطني التوابلَ الحِشنةَ والملحَ الحِشِنَ ،
 لِأَتَدبَّرَ لِلنِّهايةِ ثريدَ العظامِ الدَّسِمِ ، وَأَتَدبَّرَ نَفْسِي مَطهوءَةً في أَجرَةِ الوعدِ
 الخالدِ» . سماءُ طهوءُ . محاكاةُ طهوءُ . مجادلاتٌ من أنفاسِ المذهولينَ مَطهوءَةً
 بقلقِ الغارِ والقافلةِ . لن أنتظرِ القِدرَ أن يَنْضِجَ أرَقُّ الله فيها . سآخذُ الأرقَ
 إليه مَقطَرًا من خمائرِ الفاكهةِ الذابِلةِ ، أيها الشرُّ . وبالوعولِ الثمانيةِ أولاءِ
 - الوعولِ الحرفيةِ سأدخلُ النقشَ الحزفيَّ على أعمدةِ العلومِ كُلِّها ، متضرِّعًا
 إلى اللونِ - شقيقِي : «أيها اللونُ ، يا ابنَ الأُمِّهاتِ التَّسعِ يفرمَنَ البصلَ
 على شُرْفَةِ القِدمِ ، لا تخبِيءُ عني أختامَ العائلةِ ، ورسومَ أرواحها . أرني
 الليلَ في ثيابِ أختك . أرني الخزانةَ ، التي أضغْتُ فيها - بينِ الحليِّ
 الحديدِ للخلاصِ الحديدِ - مُدْنِي الصغيرةَ . تتذكَّرُ - شقيقِي أيها اللونُ -
 كم أطمعتُ طفولتَكَ رقائقَ السَّرِّ ممرَّعةً في طحينِ الذِّرةِ ، وسردتُ عليك ،
 كلَّ مساءً ، حكايةَ قلبي ذاتها - حكايةَ المفقودينَ تُروى للمفقودينَ . كنتَ
 اللونُ مُذْ أَقسَمْتَ الطبايعَ بي أن تكونَ شقيقِي اللونُ ؛ مُذْ أَقسَمْتَ قَسَمَ
 الوحدةِ أنك ابنُ أمِّهاتي التسعِ يفرمَنَ الوجودَ بصلَةً بصلَةً لعشاءِ أبي العائدِ
 من حرارةِ السماءِ . جُنُّ الحُذاقُ . جُنُّ أنت أَيْضًا في عبوركِ بهم الجسرِ .

سأبري الأقلامَ كلَّها بمبراتك التي حفظتها في خزانة الأين . لن أدوّن شيئاً . سأبري الأقلامَ ، ثانيةً ، بمبراتي . سأقضمُها بأسنان السطور المنصرفه ، بعد التدوين ، إلى شؤونها . لن أبقى قلمًا . سأبريها برّياً تلو الآخر حتى يختبل الرصاصُ في غلافه الخشبيّ ، ويتهتّك . مُدني صغيرةً ، شقيقي أيها اللون . ما الذي حفظه في خزانتك لي غير الكتاب الممزّق في صفحته العاشرة؟ شكُّ دراقٍ يَغلبُ مزاجي المتقلّب كرهانِ الفاكهة على خسارة التوت . خبيءٌ ما تشاء . لن أكشف للموت انتقامك المعلن من الموت ، أيها اللون .

سأنتظر

القدرَ

أن

ينضج

فيها

أرقُّ الله .

أين الطهارة ، أيها الشرُّ؟ عَجَلُ بي . هاتِ الدارصينيّ وألسنة الضأن مقشّرة بعد السلق . هاتِ زيتَ الزيتونِ النَغِلِ ، وتوابلَ العَدَمِ القوية . هاتِ المقلاة التي احترقَ حديدُها سَبْعًا من سهو الله عن النار . هاتِ مشيئة المعاني المؤدبة بأداب النار . هاتِ العبثَ مُدخِّنًا بالممكنات المدخنة ، أبدأ ، في أفران السحيق السحيق . هاتِ النهايةَ مُمزّقةً في عرباتها السائرة على عجالاتٍ طينٍ .

صوابٌ وقتٌ .

خطأٌ مكانٌ .

صوابٌ مكانٌ .

إنها المسألة مستعصية على البهاء - علاف البغل . مستعصية رطانة
 الثور على الظلال المدربة على فصاحتها . والسنجاب الأخير يفتح الشجر
 بالمسألة المستعصية على الغاية : ثرثراتي هذه ، أيها الشر ، مُذْ تَذَوَّقْتُ الْقُبْلَ
 جريحة بلساني ، وبكيت الأفق بكائي في كل ريح . مُذْ رأيت أخت الماء ،
 العارفة بشؤون الحصى ، أبعدت وصيفتها لتخلو إلى غرق الغرقى . ناد معي
 الغرقى ، أيها الشر : «صنّفوا الموت فكاهة فكاهة . صنّفوا العبث فكاهة
 فكاهة . صنّفوا الموائيق فكاهة فكاهة . صنّفوا رسوم الليل على رخام
 الرسوم ، والمجاهل ، والرقم الخالد فكاهة فكاهة . صنّفوا المعلوم فكاهة
 فكاهة . صنّفوا الخسارة فكاهة فكاهة . صنّفوا أثر المرثي في وحل اللامرثي
 فكاهة فكاهة . صنّفوا انتقام النبايع ، وطلاء النهار المتقشر عن البوابات
 فكاهة فكاهة . صنّفوا أخوات القلق ، الأكباد الممزقة ، الرياح الممزقة في
 النوافذ ، هزل اليقطين ، فكاهة فكاهة . صنّفوا نشيج الماورد ، الحديد
 الواشي ، مروق الأقلام على الأقلام ، القرابين المجففة كالتين ، خذلان
 الحجر للحجر إذا استغاث ، الرماد الممتن لجلال رفعتيه ، الفراغ . . . صنّفوها
 فكاهة فكاهة . صنّفوا الوغد ،

النسيان ،

الصور ،

هرطقة الظلال ،

الغزلان في النشيد المنسي ،

الهدنة تلك ،

الشفاعات - دعاميص البركة الأزلية ،

زهر الميموزا المَحْتَتِن ،

حشفة الحريق وبظر أخته ،
صنّفوا صمغ السنْدروسِ ، وكبيرتَ الملوكِ المحمومينَ ، فكاهاةً فكاهاةً ،
أيها الغرقى .

رطلُ نبوةٍ مجروشاً .
ثلاثونَ دانقاً من نحنحاتِ الرُّهطِ الصامت - آباءِ الحجر .
إرْدبُ نُشارةٍ .
أقْتانُ من أثرِ الفهدِ في حيرته .
وَسقٌ من رمادِ الغد .
قسْطانُ نَحيباً .
قَفَيْرٌ واحدٌ طافحٌ بعلومِ تتفصّدُ عَرَفاً .
مُدٌّ من السِّيكرانِ :
هذه خمائرُ الرغيفِ ناضجاً في ثنورنا ، أيها الشر .

سماءُ سِفاحٍ ، ناضجةٌ أيضاً ، فوق صَفْنِكَ . أرنيها السماءَ السِّفاحِ -
خيلتكَ المهجورةَ أيها الشرُّ . أرنيها مهزولةً في فناعِ الأرضِ السِّفاحِ . أهلِ
الترابِ على السماءِ بالرُّقشِ في حُفرتها - حُفرةِ السطورِ الممزّقةِ في الكتابِ
الممزّقِ فوق سريري . اذفنها سَبْعاً في الجاهلِ السبعةِ . أنبشها سَبْعاً من
الجاهلِ السبعةِ عمياءَ تتفقاً نجومها - الدّماملُ . انثرها غباراً على ثمرِ
العَرَفِجِ الخشنِ في السهولِ المُحتضِرةِ - سهولِ الأشباحِ مُصغينَ ، في
انكسارِ ، إلى الزيزانِ .

سما|||

|||

اء ؛

أَعْرَفْتَهَا السَّمَاءَ فِي أَكْيَاسِ الْخَيْرِ؟ وَفَيْرٌ بَقُولِ الْأَعَالِي فِي حَقْلِ الْخَيْرِ
مُعْتَدِيًا بِالسَّمَاءِ السَّمَادِ . وَفَيْرٌ حَلِيبُ الْمُغْضَلَةِ - بَقَرَةُ الْعَمَاءِ : ضُرُوعُ فِرَاسِخُ
مَلَأَى فِي الْفِرَاقِ الْيَقِينَ . قَرَّبَ فَمَ الْخَيْرِ مِنَ الضَّرُوعِ الْفِرَاسِخِ . لَقَمَهُ الْحَلْمَةُ
الْخَوْفَ فِي الضَّرْعِ الْأَوَّلِ ؛ الْحَلْمَةُ الْعَدْرُ فِي الضَّرْعِ الثَّانِي ؛ الْحَلْمَةُ الْأَرْقَ
فِي الضَّرْعِ الثَّلَاثِ ؛ الْحَلْمَةُ التَّرَابُ - سَيِّدَةُ حَلَمَاتِ الْأَفْلَاكِ الْإِمَاءِ . لَقَمَ
الْخَيْرَ كَبَدَ الضَّبِّ . رَفَقَهُ بِمَطْرَقَةِ الْفَجْرِ عَلَى سِنْدَانِ الظَّهْيَةِ . أَعْجَنَهُ
بِالسَّمِيدِ وَبِاللَّبَنِ . جَفَّفَهُ لِشِتَاءِ الْغُرُقَى فِي رِيَاكِ السَّهُولِ الْمُحْتَضِرَةِ - سَهُولِ
الْأَشْبَاحِ مُصْغِينَ ، بِسَمْعِ الْجُرُوحِ ، إِلَى الزِّيْزَانَ .
لَا أَقْدَارَ ، أَيُّهَا الشَّرُّ :

زيران .

كهوف أفلاك .

مضائق .

أَصْدَاءُ مَشَاجِرَاتِ بَيْنِ الْحَسَبَةِ يُقَسِّمُونَ اللَّيْلَ كُسُورًا عَلَى أَرْقَامِ
الْمُضَائِقِ .

ظلال تقضم الجبل .

كروم تستعير من الصُّبَارِ قَلَقَ الصَّيْفِ عَلَى الْحِرَائِقِ .

معارك قُبرَاتُ .

عَقْلٌ نَقَشَ عَلَى جِدْرَانِ الْحَلْبَاتِ يَتَأَوَّلُهُ الْأَدْمِيُّ تَأْوِيلَ اللَّهِ أَدْمِيَّةَ الْعَقْلِ
النَّقْشَ عَلَى الْخَلَاءِ الْمَهْجُورِ .

لَا أَقْدَارَ ، أَيُّهَا الشَّرُّ :

أعياد إنكار .

شفاعات كالدببة تترك أثارها على ثلوج المحرومين .

شجر يلقن الشجر أدوارَ التائه في المكان :

«أَيُّهَا الْمَكَانُ الْمَشْدُودُ ، الْأَخْرَسُ ، الْمُتَعَثِّرُ بِالْجِثِّ ، الْأَعْمَى ، الْمُثَقُوبُ

كجيب مثقوب؛ أيها العجولُ في الرِّسْم بأقلام الخمائر، المرتعدُ في الرؤيا المرتعدة، الحلاقُ ذو المقصِّ المكسور، الرطانةُ من فم المعلوم الحائر، الكلبُ، البهاقُ على جلدِ العانس، الرَّمْدُ، المبرأةُ، النَّسَقُ المتأقَّفُ، الرذاذُ؛ أيها المكانُ الزيتُ المحترقُ في مقلاة الأحوال، الجلدُ مجففًا قبل دباغته، الجعةُ المهركةُ من قوارير المراثي، الصَّمْعُ؛ يا المكانُ الذي يُقْضَم كالأظافر نَدَمًا، أُلْكُ ساخرًا. ساخرةُ خرائبِك. عذابك فحلُّ، مَرِحٌ. تَبْدُرُك الحقيقةُ المضحكةُ دراهم مضحكةُ في أسواقِ النبواتِ». لا أقدارُ أيها الشرُّ.

سأكلُم جيرانِي - جيرانَ الماء .

سأكلُم جيرانِي - جيرانَ الكتابِ على رفِّ الشَّقِّ الثالث :

«نارٌ مَقْشَرَةٌ كحنين الهارب بين يديّ . نارٌ عرناسُ دُرّة . نارٌ موزٌ مَقْشَرٌ . نارٌ تعبٌ مَقْشَرٌ . نارٌ كَسْتَنَّةٌ مَقْشَرَةٌ . نارٌ كالتّي سهرتم مع الغد قُربها، مُستلقينَ على رمالِ الخليجِ الرابع - خليجِ العرافينَ، هناك، في منابت المغيب ذي العشب الخشن . سأهديكُم النارَ المَقْشَرَةَ أيها الجيرانُ: لن تكون لكم قُبلاتُ العاشقينَ، بل كآبةُ الغفرانِ في مهاجعِ الآلهةِ الكئيبةِ . وسيكون قَلقُكُم قَلقَ البسيطِ المرتجفِ من جوهره البسيطِ . قوِيَّةٌ كالنُدْمِ سَتُروى سَطُورُكم . قوِيَّةٌ سيَتسلَّمُها لسانٌ من آخرَ لترجعَ ركيكَةً، بعد ذلك، كالنُدْمِ» .

شَرَّدَهم أيها الشرُّ .

شَرَّدَ

جيرانَ

الكتابِ

المُهْمَلِ

على

رفاً

الشفق

الثالث .

شردّ الكتاب سطرًا سطرًا .

شردّ الشفق .

شردّ الغدّ ، الذي يتمرّع في قشّ العَدَسِ بدواجهِ - دواجنِ المديحِ .
اقرأ عليه سيرته . اخذله أن يتتبع سيرته .

لَفَقْ له ما سيلفِقُ الغدّ لغمده مبتلاً كالهرة من النبيذ ، الذي بتجرّعه
الخير من كؤوس السيرِ : «أيها الغدّ المنكسُ على الصارية ، يا سلحَ البطِّ في
جداول النَّفيسِ العريقِ ؛ يا الغدّ الفَتَقُ في صِفاقِ الرَّاويةِ ، المنقبضُ من
حظوظِ الهواءِ ؛ الغدّ السُّكْرَجَةُ ، الجنّاجِنُ مرضوضةٌ من عشراتِ الوقتِ ؛
الغدّ اللّزجُ ، البرّمُ ، المُحاقُ في اليومِ الرابعِ ، الحَسَدُ مجتمعًا كالنُّفْرِسِ في
العظامِ ؛ الغدّ القشرة على جوزنا ، الجرعة الناقصة ، عزلة النخل ووشاية
الغريب بالغريب ؛ أيها الغدّ الحماقة ؛ يا تعبَ القضاةِ في تدبيرِ الشهودِ
المهمومين ؛ أيها الترقوة المهشمة من ركلة الحنين القوية ، يا نزيلَ الخطأ إذ لا
تجد نزلًا ، اغفنا من ندائك - نداءِ القناعِ » .

املاً جيوبَ الغد بأنقاضِ أحفاده .

لَمُ الغدّ الفتاتَ الباقي من خبزِ الآلهة حولَ صحنك ، أيها الشرُّ .

انثره لدواجنِ الباطنِ ونعامِ الظاهرِ .

عالياً كسنينِ الرحيلِ انثرِ الرمادَ ، الذي ذرّفته الحرائقُ في بكائها
للآلهة .

عالياً كقهقهاتِ الحروبِ إذ تغادر فجراً إلى معاصرها - معاصرِ الزيتِ ،

انثرِ الرمادَ ، الذي ذرّفته الحرائقُ في بكائها للإنسانِ .

عالياً خبيءِ الحاضرِ عن أتباعِ القلقِ المُخلصِ كالذئبة .

بَحْرُ الْمَلَائِكَةِ الْقَلَقَ بِتَبِيعِ الْمَغُولِ .
دَخَرَجِ الْأَبْدِيَةِ أَشْبَارًا ، لَا أَكْثَرَ .
أَزْبِكُنِي بِمَا لَا يُزْبِكُ .
وَرَزَعَ الْمَذَابِحَ أَقْدَاحًا مُتَسَاوِيَةً فِي الْمَجَالِسِ الْأَلْيِفَةِ :

قَدَمَ خِصَاءً ، أَيُّهَا الشَّرُّ .
حَنِينَ خِصَاءً .

مَفْقُودُونَ مُسْتَعَادُونَ فِي أَدْوَارِهِمْ لِلْمَجَازِرِ الْمُسْتَعَادَةِ ، يَبْلُغُونَ رَغِيفَهُمْ
الْيَابِسَ بِعَرَقِ الْخَدَمِ فِي إِفْطَارِ الْخَيْرِ .
هَيْكُ ، أَيُّهَا الشَّرُّ :

رَتَّبِ الْخَيْرَ النَّاصِحَ مُقَطَّعًا كَشَرَائِحِ اللَّحْمِ فِي الصُّحُوفِ .
رَتَّبِ الْمُدْنَ الْخَبِزَ مُقَطَّعَةً فِي سِلَالِ الْخَبِزِ عَلَى الْخَوَانِ الْكَبِيرِ :
هَاهُمْ النَّحَاتُونَ : أَزَامِيلُ اللَّوْنِ . حِجَارَةُ اللَّوْنِ . نَحَتْ الْخَلِيَّةَ النَّائِمَةَ فِي
الْحِصَاةِ بِأَيْدِ عَشْرِ . نَحَتْ النَّبْضَةَ ، الَّتِي تَرَكَّتْهَا ، أَيُّهَا الشَّرُّ ، تَحْتَ جَنَاجِنِ
اللَّوْنِ مَسْمُوعَةً كَقَلْبِ مُرْتَدٍّ عَنِ مَذَاهِبِ الْجَسَدِ . الْمَثَالُونَ يَنْحَتُونَ الْبُشْرَى
الْحَجْرِيَّةَ فِي الْجَسَدِ بِأَزْمِيلِ اللَّوْنِ . كُلُّ جَسَدٍ هَدَايَةٌ مِنْ وَحْيِ اللَّوْنِ الْمُنْجَزِ
بِالْأَزْمِيلِ الْعَشْرَةِ نَافِرًا عَلَى الشَّهْوَاتِ الْهَدَايَةِ . كُلُّ هَدَايَةٍ سَخْرِيَّةٌ لَوْ فِي
الْبُشْرَى الْمَنْحُوتَةِ بِأَزْمِيلِ الرَّمَادِ الْخَالِدِ نَافِرَةً عَلَى الْعِظَامِ . النَّحَاتُونَ يَحْمِلُونَ
مَعَهُمْ حِصَاءَ الْحَجْرِ فِي الطَّاسَاتِ الْحَجْرِيَّةِ إِلَى كَهُوفِ اللَّوْنِ . يَحْمِلُونَ قِيلَوْلَةَ
الْحَجْرِ إِلَى ظَهْرِيَّةِ اللَّوْنِ قَبْلَ أَنْ يَنْحَتُوا السَّمَاءَ رِقَاتٍ مُقَطَّعَةً كَلَحْمٍ نَاصِحٍ
فِي أَفْرَانِ السَّحِيقِ السَّحِيقِ .

دَلَّهُمْ ،
أَيُّهَا الشَّرُّ ،
عَلَى نُصْبِكَ

كبي يُحَسِّنُوا قِيَّاسَ الْحَجَرِ بِحَقَائِقِهِ .

وَوَيْخَ الْأَفْرَانِ قَلِيلًا عَلَى سَهْوِ نَارِهَا عَنْ رَغِيفِ الْأَزْلِ ، الَّذِي سَتَحْمَلُهُ
إِلَى إِفْطَارِ الْخَيْرِ مُحْتَرِقًا . مَا هُمْ . أَحْمَلُهُ مُحْتَرِقًا . سَتَرَيْنَهُ بِالزَّيْتِ وَاللُّوزِ ؛
بِالصَّبْعَةِ الْيَابِسِ ؛ بِحَشِيْشَةِ الْعَقْرَبِ ؛ بِالغُبَيْرَاءِ ؛ بِنُسَافَةِ اللَّازُورِدِ ؛ بِبِزْرِ
الْكَرْفَسِ الْمَقْدُونِيِّ ، وَهَلِيلِجِ كَابُلٍ ؛ بِسَمْسَمِ النَّكَاحِ الظَّلِّ ،

الْجُمَاعِ الْمَكَانِ ،

الْعَرْفِجَةِ ،

الْمَوَاقِعَةِ ،

الْإِسْتَبْطَانِ ،

السَّفَادِ ،

الْمَبَاضِعَةِ الْهَدَّهِدِ ،

التَّوَهُدِ النَّدَاءِ ،

الرُّصَاعِ ،

الْإِبْتِيَارِ ،

الرُّطْعِ ،

الْإِفْضَاءِ ،

الشَّفْتَانِ الْعَازِفِ بِالْبَيْنَصِرِ عَلَى عَوْدِ كُلِّ إِلَهٍ عَازِفٍ .

الْمَسْحِ ،

الْمُحَارَقَةِ ،

الْحَنَاءِ ،

الْوَطْءِ النَّزِيفِ فَوْقَ الْوَسَائِدِ الْقَمْرِيَةِ .

زَيْنَ الرَّغِيفِ الْمُحْتَرَقِ بِسُكْرِ رِعَاةِ الْوَعُولِ فِي الْجَلِيدِ ، وَجَدَّفَ فِي الرَّمَادِ
بِمَجَازِيفِ الْجَمْرِ حَتَّى الْخَلِيجِ الرَّابِعِ - خَلِيجِ الْعَرَّافَيْنِ ، هُنَاكَ ، قُبَالَةَ الْخَلَاءِ

اللون - شقيقي ، ابنِ الأمهاتِ الأربعِ يفرمنَ العدمَ كرفسًا وقنبيطًا لعشاء الخلائق ، أيها الشرُّ .

لا تخف . اصنع إلى قلبي - قلبِ المفقودينَ في المكانِ الممرِّعِ سبعا في رُبِّ الحُصْرَمِ ؛ الممرِّعِ ستا في السَّمْنِ ؛ خمسا في ذرورِ حجرِ السَّنْبَادِجِ ؛ أربعًا في النِّشَاءِ ؛ ثلاثًا في التورياتِ المَعْتَصِرَةِ بينِ سطوريّ اليقينِ المَعْتَصِرَةِ ؛ مرتينِ في ذرقِ الهدهدِ ؛ المَمَرِّعِ طويلاً في النسيانِ يهتدي به المفقودون إلى خيالهم ، أيها الشرُّ .

رتبِ المَدَنَ الخبزِ مقطعةً شرائحَ في سلالِ الخبزِ . رتبِ العافيةَ الدموية في قواريرِ الخَلِّ والزيتِ مَبوَّبةً بحروفِ المَلَكاتِ المُنْتَهَبَةِ على الخوانِ الكبيرِ : ها هم الذهبيون ، المَسْكوكونَ بالةِ الكَيْدِ الذَّهَبِ ، المَكْلُفونَ بمذاهبِ البريقِ ، الرُّحالةُ في الشقلِ الذهبيِّ للخزائنِ كلِّها ؛ محترفو مساراتِ المعدنِ ، المنقسمون بدعةً بدعةً في حروبِ النفائسِ ؛ الذهبيون كصوَرٍ ؛ منتحلو هواجسِ السَّبِيكةِ الأولى ؛ المرفهونَ كشقاء - تراهم أنت ، أيها الشرُّ : لا يسألون لا يسألون . دخرجُ إليهم ما يليقُ بالمآدبِ الذهبيةِ : الحلوى المَحْتَمِرَةَ في الصيفِ السُّكْرِيِّ - صيفِ الدم .

لا تخف :

إنه الألمُ يرممُ الموتَ في الرسومِ . الألمُ الرَّحِيمُ ؛ مدرَّبُ العظامِ على عَزْفِها - عزفِ الفجرِ ؛ الحالمُ حَلَمَ الكَلْبِيِّ في الخدعِ ذاته - مَخدَعِ المعلومِ الكَلْبِيِّ ؛ الكَوْنِيُّ الوازنُ ؛ المَدَقُّ في أخبارِ اليتامى المحظوظينِ ؛ سليلُ مراتبهِ ؛ الأبُ المُرْضِعُ ذو الشديدينِ الفلكيينِ ؛ مُجَنَّدُ الحقائقِ في الكشوفِ .

لا تخف :

ألمُ يرممُ الموتَ نَقْشًا نَقْشًا .

رممِ الموتَ ، أيها الشرُّ . أعدهُ طريقًا يكلمُ بلسانِ البساتينِ - لسانه - بذورِ الضلالِ الخالدِ . دخرجُ إليه ما يليقُ بالمآدبِ الذهبيةِ : أفرانِ الأجرِ ،

وسلالَ المواثيقِ الطازجةِ كورقِ الهندباءِ .

لا تخف :

فَناصونَ ماءً بينَ أيديهم ساعاتُ الرملِ :

الماءُ الساعةُ .

الرملُ الساعةُ .

الشعاعُ الساعةُ منكسراً في انعكاسهِ عن ريشِ الإوزِ .

الصدفةُ الساعةُ

الذبابُ الساعةُ .

السُرمانُ الأصفرُ الساعةُ في طيرانه بالأجنحة السبعة حول الساعةِ

الماءِ .

فَناصونَ ماءً تحوُّمَ حولهم الساعةُ المتأخِّرةُ في دخولها على الوقتِ ؛

الساعةُ المتمرِّدةُ ، ساعةُ دخولِ الخيرِ عليك متوسِّلاً أن يرثك النقشَ

المفقودَ .

أره

النقشَ

المفقودَ ، أيها الشرُّ :

ذبحٌ من العدمِ إلى العدمِ .

ذبحٌ في الكلماتِ مُذْ تسلَّمتها هكذا من الله ، وأعدتها متخبَّطةً في

الدمِ إليه .

من كانون الثاني ٢٠٠٣

إلى آب ٢٠٠٤

الفهرست

- 5 المقدمة
- 41 ١- كل داخل سيهتف لأجلي ، وكل خارج أيضاً
43 دينو كابرثفا تعالي إلى طعنة هادئة
53 الكواكب المهرولة صوب الجبل
58 مبعوث الفراشات
63 قنصل الأطفال
69 المطالبة بجسد فراشة غريبة
75 نقابة الأنساب
77 أنا الخليفة ، لا حاشية لي
- 83 ٢- هكذا أبعثر موسيسانا
85 اقتلوا روناشتا
95 الفصيلة المعدنية
- 109 ٣- للغبار ، لشمدين ، لأدوار الفريسة وأدوار المالك
111 البراري
127 فراشات للعواصم
161 الفريسة
- 159 ٤- الجمهرات
(في شؤون الدم المَرَج ، والأعمدة ، وهبوب الصلصال)
- 227 ٥- الكراكي
229 الفصل الأول / ديلانا وديرام
281 الفصل الثاني / تعريفات

- 287 ٦- بالشباك ذاتها ، بالشعالب التي تقودُ الريح
289 فهرستَ الكائن
303 الحديد
323 الضبَاتُ المتزَنُ كسيد
329 منزل يعبث بالممراتُ
341 قلقُ في الذهب
منعطفاتُ . ظهيرة من ريش . دهاقنةُ يصفونَ الليلَ .
351 غبار مسحورٌ ، وغدُّ كالعداءِ يتهياً لأرزقةِ الغيب
373 خزائن منهوبة
383 إنتقام
- 385 ٧- البازيار
387 أسرى يتقاسمون الكنوز
403 مهاباد
412 محمود درويش
425 تدابير عائلية
- 439 ٨- طيش الياقوت
441 تصانيف النهب
461 الأفعال
471 استطراد في سياق مختزل
- 477 ٩ - المجابهات
511 ١٠- المثاقيل
559 ١١- المعجم



الاعمال الشعرية

POETRY
COLLECTION

منذ غزا سليم بركات المشهدَ الشعريَّ العربيَّ ، في أوائل السبعينات ، بشرنا بشعرٍ جديدٍ مختلفٍ . لم يشبه أحداً ، وسرعان ما صارَ هذا الفتى الكرديُّ الخجولُ أباً شعرياً لأكثرَ من شاعرٍ عربيٍّ فتنتهَمُ صورهُ الغريبةُ ، ولغتهُ الطازجةُ ، وإيقاعهُ الشلالُ .



ليست اللغةُ وسيلةً للتعبيرِ . إنها الوسيلةُ والغايةُ .. يسوسُها كما يسوسُ قطيعاً من ذئابٍ مروّضةٍ إلى مجهولٍ في متناولِ الموهبةِ ، وتسوسُه إلى البَحْثِ الفاتِنِ عن معنىٍ مستترٍ وراءِ اللامعنى ، أو عن عبثِ اللامعنى في المعنى . لكنَّ الشعرَ يتدفقُ دائماً هناك : في ما يفعلُ باللغةِ وفي اللغةِ ، وفي الجماعِ بين الحسيِّ والذهنيِّ ، وفي إفلاتِ خياله الجامحِ من المألوفِ والمتوقَّعِ إلى المفاجئِ المدهشِ !

محمود درويش

ISBN 978-9953-36-177-0



9 789953 361772

2007
2007
2007

المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

www.airpbooks.com